

النفس العالِيَّةُ لَكَ
والميزان

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

النفس العالِيَّة للقرآن
في الميزان

رسالة دكتوراه
أحمد عمر أبو حنبل

دار قتيبة

للطباعة والنشر والتوزيع

جميع الحقوق محفوظة

الطبعة الأولى

١٤١١ هـ ١٩٩١ م

دار قتيبة

للطباعة والنشر والتوزيع

بيروت - ص.ب: ١٤/٦٣٦٤

دمشق - ص.ب: ١٣٤١٤

الإفتاحيّة

الحمد لله نعمده ونستعينه ، ونصلي ونسلم على نبيه ورسوله محمد، وآله وصحبه،
ونستفتح بالذي هو خير.

وبعد:

فإن القرآن الكريم قد أخذ مكان الصدارة في حياة المسلمين منذ نزل من السماء يرسم
معالم الطريق ويضع أساس التشريع، وينظم السلوك ويسمو بمدارك الإنسان، ويهدي للتي هي
أقوم.

فليس عجباً أن يلتفت المسلمون حوله ينهلون من ينابيعه، ويسيروا على هده. وكان
طبيعياً أن يتأملوا أسلوبه وطرق التعبير فيه، فتأخذهم الدهشة وتمتلىء قلوبهم بنور العقيدة،
وتنبهر أمام بيانة نفوسهم وهم أساطين البيان.

وإذا اجتمعت هذه الظروف لكتاب، فمن الطبيعي أن يصبح محوراً لأهداف الفكر
والتأليف في الأمة، وينبوعاً للكثير من محاور ثقافتها، وحافزاً على العناية بكثير من فروع العلم
التي يمكن أن تعين على فهم هذا الكتاب وإدراك أسرارها.

ومن ثم كثرت البحوث حول القرآن وتنوعت، وتعددت مناهجها وطرقها، وتباينت، ولا
يزال هذا المورد معيناً لا ينضب على الزمن يرده رواد الفكر وأساطين البيان، فيتزودون بأعظم زاد
ويعمدون عقولهم بخير مدد.

خو طب به العرب وهم أرباب الفصاحة وفرسان البيان، وطولبوا بأن يأتوا بمثله أو يعشر سور من مثله أو بسورة منه فعجزوا، واعترف المنصفون منهم والعقلاء فيهم بأن معارضة تقصر عنها قدرتهم بل قدرة جميع البشر، لأنه آية الله الكبرى ومعجزة نبيه العظمى، وكتاب الدهر الخالد ودستور الحياة الأعظم وعهد السماء إلى الأرض.

وقد أنزله الله هداية للناس وضمنه كل ما يلزم لهذه الهداية على اختلاف العقول والطبائع والأفهام.

وعد ووعد تذكير وتهديد، قصص وأمثال، عبر ومواعظ. ولم ينزله تعالى لتنفيذ تعاليمه في زمن محدود بوقت نزوله، بل إنه الكتاب الذي يجب أن يحكم تصرفات الناس إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها. فتعاليمه مناسبة لكل زمان ومكان، وما ذاك إلا لأنه من ألفه إلى يائه من عند الله الذي خلق الإنسان ويعلم ما يصلحه، فأنزل ما يضمن هدايته وتنظيم حياته على عمر السنين والأيام.

كما أن القرآن الكريم كان - ولا يزال - في نظر المسلمين هو المنبع الصافي الذي فاضت منه روافد جميع العلوم الإسلامية ومعارف العربية منذ شرفها الله لساناً لدستوره الإلهي وكتابه العربي المبين.

ومن ثم كان القرآن هو أصل جميع العلوم والمعارف، وكانت هي فروعه الوارفة الظلال، منه تفرعت أغصانها وعنه انبثقت أفنانها⁽¹⁾، وبلاحقه أينعت ثمارها.

لهذا كان من الطبيعي أن يعنى علماء المسلمين بهذا الكتاب العظيم على مختلف العصور ويتوفروا على دراسته واستشارة ما فيه من العلوم، وبحثوا مختلف جوانبه الجديرة بالبحث، فخلفوا لنا تراثاً علمياً ضخماً في مختلف العلوم التي تمتلئ بها مكتبات العالم في سائر بقاع الأرض.

وإذا كان ما في القرآن من عقائد ومن تشريع ومن أخلاق ومن بلاغة قد تولاه الباحثون والدارسون بالكشف والتحليل والتفسير، على مختلف الأزمان، فإن ما فيه من آيات كونية جديرة بأن تلقى نفس الإهتمام، ويتدبر المسلمون ما فيها، وأن يتولاها ذووا الاختصاص بالشرح

(1) أفنانها: جمع فن - بالتحريك - : الغصن.

والبيان حتى تنهج بالناس المنهج الذي أنزلت لتوضيحه فيسلوكه مؤمنين موقنين.

فالقرآن يدعو إلى الإيمان بالله والإقرار بوجوده، والوقوف على آثار قدرته ورحمته. ولم يترك الإنسان في حيرة من أمره، بل هداه إلى الوسائل التي بها يستطيع الوصول إلى ذلك.

ولعل أهم هذه الوسائل دعوة الإنسان إلى النظر والتأمل في آيات الله في الكون والتدبر في مخلوقاته أن للقرآن أسراراً وخفايا تتجدد على عمر الليالي والأيام، وأن قارئ القرآن بتأمل يلاحظ أن الأسلوب الذي جرى عليه القرآن في آياته الكونية لتثبيت العقيدة وترسيخها في القلوب يتنوع تنوعاً يثير غرائز المقارنة والتحليل والبحث والاستنباط، فإنه تارة يذكر الدليل ذكراً قد لا يحتاج إلى دقة في البحث وإمعان في التفكير، مثل قوله تعالى: ﴿وفي الأرض قطع متجاورات وجنات من أعتاب وزرع ونخيل صنوان وغير صنوان تسقى بماء واحد ونفضل بعضها على بعض في الأكل إن في ذلك لآيات لقوم يعقلون﴾⁽¹⁾.

وتارة يذكر الدليل، ولكن ما فيه من الحكمة البالغة والسر الدقيق والبراعة المعجزة في التعبير، إنما يتضح بالدراسة والبحث والكشف عن الغامض المستور مثل قوله تعالى: ﴿وفي الأرض آيات للموقنين وفي أنفسكم أفلا تبصرون﴾⁽²⁾، فإن الوقوف على ما في الأرض من آيات والوقوف على خصائص الجسم الإنساني ومعرفة كل عضو من الأعضاء فيه في تركيبه واتصال أجزائه، هذا الإتصال واشتماله على الأجهزة المختلفة والغدد التي توفر له الصحة والعافية، وما يستتبع هذا من مباحث الطب والتشريح - وهي أمور تبعث على الإيمان - لا يتأتى إلا بالبحث الطويل والدراسة الواعية.

وقد يمر الزمن الطويل على حافظ القرآن وهو يردد الآيات الكريمة ثم إذا به يتنبه فجأة إلى معنى لم يكن ألقى إليه بالأمن قبل. وربما وضح له المعنى بادية ذي بدء، وربما احتاج إلى بحث وإلى سؤال ومداينة، مع أنه كان يظن لطول عهده بتكرار الآيات أنه على علم بكل ما تضمنته فإذا هو فجأة يقف وكأنه لم يقرأ هذه الآية ولم يقف على هذه الكلمة إلا هذه المرة. ويشد به العجب كيف غاب عنه هذا المراد هذا الزمن الطويل، وذلك مصداق قوله ﷺ: - في وصف

(1) سورة الرعد، الآية 4. (صنوان) جمع صنو وهو نخلة أصلها واحد وفروعها شتى. وفي القاموس: النخلتان، فما زاد في الأصل الواحد كل واحدة منها صنو، أو عام في جميع الشجر. (انظر ترتيب القاموس 2: 862).

(2) سورة الذاريات، الآيتان 20، 21.

القرآن - : «ولا يخلق على كثرة الرد ولا تنقضي عجائبه».

وقد جاء التطور الفكري والتقدم العلمي بكثير من النظريات والحقائق العلمية التي لم تكن معروفة عند نزول القرآن وبعده بأجيال. وقد قام فريق من أولي العلم والثقافة بدراسة آيات القرآن المتعلقة بالكون والحياة قديماً وحديثاً، محاولين أن يجدوا من خلال دراستهم هذه ما يشير إلى ما جد من مكتشفات، وإلى استخراج العلوم المختلفة من القرآن الكريم، لأن القرآن ليس خاصاً بجيل من الأجيال، ومن حق كل جيل أن يفهم منه ما يصل إليه بحسه العلمي استنباطاً أو قياساً.

وكان من الطبيعي أن ترد العلوم في القرآن في قالب أصول وكميات، لأن العلم متطور وحقائقه تختلف وتتجدد كلما خطت العلوم خطوة في ميدان الدرس والتجربة والاكتشاف، فيبقى القرآن بأصول علمه مصداقاً دائماً لكل جديد يظهر في كل عصر من العصور، وذلك سر إعجازه وخلوده. فيكون العلم على الدوام في خدمة الآيات العلمية والكونية في القرآن، كشف في الماضي عن بعضها وسيكشف الباقي منها كلما تقدمت العلوم. ويكون القرآن العظيم موافقاً على الدوام للعلم الصحيح لا يناقضه بل يدعمه ويشجع على التجربة. ولا يجافي العقل بل يرعاه ويحثه على التفكير في ملكوت الله والاستفادة منه.

ولا جدال في أن القرآن كتاب هداية لا كتاب علم وتثريب، ولكن في تفسيره علمياً وتحليل آياته الكونية وبيان ما تنطوي عليه من حكم وإشارات من حقائق ما يزيد تلك الهداية تألقاً يزيد المهتدين هدى، كما قال تعالى: ﴿سُرِّبَهُمْ آيَاتُنَا فِي الْآفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ﴾⁽¹⁾.

ولا يكفي إزاء هذه الآية وسواها مجرد التلاوة للتعبد والذكر، بل لا بد من الكشف التفصيلي عما في الكون بسماواته، وأجرامها وكواكبها ومجراتها، بأرضه وحيوانها ونباتها، وبحاره ومياهه وعجائبه، وعما في أنفسنا من عجائب التركيب ودقة الصنع. لا بد من تفسير علمي تفصيلي لهذه اللوحة اللطيفة في هذه الآية وفي سواها، لأن العبرة لا تحصل إلا بالمزيد من الكشف عن الحقائق التي تصور كل جزئية منها عجائب قدرته سبحانه وسعة علمه ورحمته.

وهناك فريق آخر من أولي العلم في القديم والحديث قام بمناهضة هذا الاتجاه مستكراً

(1) سورة فصلت، الآية 52.

هذا المنهج في فهم القرآن الكريم ، ويرون أنه يجب أن تظل نصوص القرآن بعيدة عما يراد بها من توجيه واستدلال ، لأن القرآن - أولاً وقبل كل شيء - كتاب هداية وتوجيه أنزله الله تعالى ليخرج الناس من الظلمات إلى النور، لا ليتحدث عن أسرار البرق والرعد والمطر والرياح وما إلى ذلك .

فإذا تحدث عن آيات الله في الأنفس والأفاق فهو لا يقصد تحقيق نظريات علمية قائمة على التحليل المادي أو الاختبار التجريبي ، وإنما هو لقصده الحث على التأمل والنظر والبحث ليزداد الناس إيماناً مع إيمانهم .

ولكنه من كتب في هذا الموضوع من ذوي الاختصاص في الثقافة القرآنية وغيرهم «وينهم تفاوت في الدوافع والخوافز على هذا العمل منهم من قصد خدمة هذه العلوم وترويجها على حساب القرآن ، ومنهم من أراد خدمة الدين وفهم القرآن على ضوء هذه العلوم»⁽¹⁾ . ومنهم من اقتصد في عمله فجاء عمله مقبولاً إلى حد كبير . ومنهم من تعجل وتسرع فجاء عمله مشوشاً غير خاضع لقوانين اللغة التي نزل بها القرآن ، ولا للقواعد العامة في الشريعة .

موضوع البحث ومنهجه

لذلك اتجهت عنايتي لبحث هذا الموضوع . وهو موضوع جدير بالبحث والدراسة . وعلى الرغم من صعوبته فقد عزمت بمشيئة الله على تناوله ودراسته تحت عنوان :

«التفسير العلمي للقرآن في الميزان»:

ولولم يكن هناك من سبب ودافع يدعوني إلى اختيار هذا الموضوع موضوعاً لرسالتي إلا خدمة كتاب الله والاطلاع على بعض أسرارهِ ومراميه ، والإسهام ولو بجهد المقل في خدمة الثقافة القرآنية لكان كافياً .

كما أنه مما شجعني على اختيار هذا الموضوع أني رأيت في كثير من الشباب المثقف رغبة ملحّة في استجلاء الحقيقة حول هذا الموضوع الذي كثّر فيه الجدل والنقاش بين مؤيد ومعارض .

(1) التفسير والمفسرون ، 8:1 (المقدمة).

كما رأيت عند بعضهم ميلاً إلى الاستزادة من معرفة أسرار الآيات الكونية في القرآن. وهذه ظاهرة تدعو إلى الاستجابة لها.

ويقوم منهج البحث في هذا الموضوع على تتبع ما كتب حول هذا الموضوع بقدر الإمكان، واستعراض أدلة كل من المؤيدين والمعارضين، والموازنة بينهما، ونقد ما يحتاج إلى نقد، وتبيين وجه الحق فيه، مع استعراض بعض الأمثلة للفريقين، فيما كان منها مشتملاً على حقائق علمية ثابتة موافقة لشروط التفسير التي اصطلح عليها العلماء لفهم كتاب الله وتعارفها المسلمون شددنا أزرها ليستفيع بها الدارسون لهذا العلم، والراغبون في التزود من الثقافة القرآنية.

وما كان منها متضمناً غير ذلك بعيدة عما تقتضيه اللغة العربية التي نزل بها القرآن، أو محملة للآيات القرآنية ما لا تحتمل من المعاني، نقدناها وكشفنا - بعونه تعالى - الحق فيها تناولته من مسائل حتى لا يغتر بها من ليس لهم رصيد في الثقافة القرآنية غير متعصب لرأي ولا متحامل على أحد. يحدوني في ذلك الإخلاص لكتاب الله تعالى، والدفاع عنه، والرغبة الصادقة في بيان الحقيقة ناصعة مضيئة، لعل بذلك أضيف إلى الدراسات القرآنية جديداً يعين على مزيد من الفهم لكتاب الله العزيز.

«البحوث السابقة في الموضوع»:

قبل أن أشرع في بحثي رجعت إلى كثير من كتب المحدثين الذين كتبوا حول هذا الموضوع، فوجدتها لا تأخذ طابع الدراسة المستقلة المتكاملة الشاملة لجوانبه السلبية والإيجابية، بل كانت - في أغلب الأحيان - تناقش القضية من طرف واحد، أما من جهة الرفض والمنع أو من جهة التأييد والتشجيع.

ولعل أوفى دراسة وجدتها في هذا الخصوص هي ما كتبه أساذنا المرحوم محمد حسين الذهبي في كتابه (التفسير والمفسرون) حيث تناوله في الجزء الثالث كلون من ألوان التفسير في العصر الحديث، فتناوله بالكلام عند القدامى وعند بعض المحدثين، وعرج على آراء المانعين كالشاطبي من القدامى ومحمود شلتوت ومحمد رشيد رضا وأمين الخولي من المحدثين. كما سجل اختياره في هذا الموضوع مؤيداً بذلك رأي الشاطبي ومدعماً له بأدلة أخرى. كما فعل ذلك من قبله أمين الخولي فيما كتبه تعليقاً على مادة (تفسير) في دائرة المعارف الإسلامية (348:5 - 374).

ثم طبع في كتاب مستقل بعنوان (التفسير، معالم حياته، منهجه اليوم) ثم كرره في كتابه (مناهج تجديد في النحو والبلاغة والتفسير والأدب).

كما وجدت دراسة قام بها الأستاذ عبد المجيد عبد السلام المحتسب في كتابه (اتجاهات التفسير في العصر الحديث) الذي خصص فصلاً فيه لدراسة التفسير العلمي دراسة مفصلة لبعض جوانبه تتضمن الكلام على التفسير العلمي في جذوره القديمة ورواجه في العصر الحديث موضحاً إنكار القدماء ثم المحدثين لهذا الاتجاه، مسجلاً في نهاية بحثه موقفه من هذه القضية، متنبهاً إلى أنه ينكر هذا الاتجاه في التفسير ولا يسوغه ولا يوافق - كما قال - على استخراج النظريات العلمية من الآيات القرآنية.

فاتضح أن هناك جوانب أخرى في الموضوع في حاجة إلى الكشف والبيان حتى تتكامل الدراسة في صورتها النهائية، ويكون الحكم عليها بعد ذلك صحيحاً إلى حد كبير، لأنني لم أجد - فيما قرأت في هذه الكتب - دراسة مفصلة مستقلة واضحة المعالم لهذا اللون من التفسير. وعلى سبيل المثال لا الحصر لم أجد باحثاً تعرض لأدلة المؤيدين للتفسير العلمي بالشرح والتوضيح، مما يدل على أنهم تناولوه من جانب واحد فقط. وإن ذكروا بعض الأمثلة للمؤيدين فإنما هو لردّها أو الاعتراض عليها، فاقنعت بأن هذا الموضوع لم يستوف حقه من الدراسة ولم ينظر إليه النظرة الشاملة العميقة التي تبين ما له وما عليه.

ولا أنكر أنني استفدت من دراسات السابقين التي فتحت أمامي طرق البحث وشجعتني على اختيار هذا الموضوع، كما استفدت من بعض الآراء والملاحظات، وما أرى في ذلك من بأس، فالآراء العلمية ليست وفقاً على من كان له فضل السبق في استنباطها واستنتاجها. وقد آثرت أن أنسب كل قول إلى قائله، لأن الأمانة العلمية تفرض على الباحث ذلك، اعترافاً بالفضل لهؤلاء الباحثين.

ولم يكن من شأن هذا البحث أن يتحدث عن كل ما كتب عن التفسير العلمي في جميع البلاد العربية والإسلامية، فهذا عمل يضيق عنه البحث ويعجز عنه جهد الباحث. لذلك أخذت من كل فريق من المعارضين والمؤيدين أقوى رجاله وأشهر من كتب فيه ليدل عليه.

وقد عنيت بالجانب التطبيقي ليتأكد صدق القضايا التي أعرض لها، وحتى لا يكون هناك شك فيها أسوقه من آراء.

وقد اقتضت طبيعة هذه الدراسة أن تكون في مقدمة وستة أبواب وخاتمة.

أما المقدمة فكانت حول عنوان الموضوع ، وقد تضمنت أربعة مباحث.

الباب الأول: في نشأة التفسير العلمي وموقف العلماء منه . وفيه أربعة فصول.

الباب الثاني: أشهر القائلين بالتفسير العلمي من القدماء والمحدثين . وفيه ثلاثة فصول.

الباب الثالث: أشهر المعارضين للتفسير العلمي قديماً وحديثاً . وفيه فصلان.

الباب الرابع: التفسير العلمي في حاضره وماضيه . وفيه فصلان.

الباب الخامس: القضايا التي تركز حولها التفسير العلمي . وفيه فصلان.

الباب السادس: التفسير العلمي بين المنهج والتطبيق . وفيه ثلاثة فصول.

الخاتمة: في نتائج البحث.

ولقد اعتمدت في اعداد هذا البحث على كثير من المصادر والمراجع التي أشرت إليها في أثنائه، وأثبتها في آخر البحث، مرتبة على حروف الهجاء، مما يسهل على الدارس الرجوع إليها ومعرفتها معرفة قريبة تظل معه حتى يعرف ماذا ترك أسلافه، ومقدار العناية التي بذلوها.

وأمل أن أوفق إلى السير في خطوط هذا المنهج ، وأن يكون في هذا البحث ما يلفت النظر إلى أهم ما ينبغي اعتباره في تفسير الآيات الكونية في القرآن لإدراك مراميها ورؤية أبعادها.

وما توفيقي إلا بالله عليه توكلت وإليه أنيب.

المقدمة

حول عنوان في البحث

المقدمة

حول عنوان البحث

وفيها مباحث

المبحث الأول: معنى التفسير والتأويل والفرق بينهما في اصطلاح المفسرين
المفهوم اللغوي لكلمة التفسير:

يطلق لفظ (التفسير) في اللغة العربية ويراد منه الإيضاح والتبيين . وقد ورد بهذا المعنى في القرآن الكريم في قوله تعالى : ﴿ولا يأتونك بمثل إلا جئناك بالحق وأحسن تفسيراً﴾⁽¹⁾ . أي أحسن بياناً وتفصيلاً ، والتفسير مصدر فسر - بتشديد السين - مضاعف فسر - بتخفيفها - والتضعيف فيه ليس للتعدية بل هو للدلالة على التكثير، تنزيلاً لما يعانیه المفسر من كد الفكر لتحصيل المعاني الدقيقة ، ثم اختيار أنسب الألفاظ لتأديتها منزلة العمل الكثير⁽²⁾ . وأما المخفف فمصدر الفسر ، وكلاهما في اللغة بمعنى الإبانة والكشف . قال في القاموس : «الفسر: الإبانة وكشف المغطى كال تفسير، والفعل كضرب ونصر»⁽³⁾ . وقال في لسان العرب : «الفسر: البيان . . . والتفسير مثله . . . ثم قال: الفسر: كشف المغطى ، والتفسير: كشف المراد عن اللفظ المشكل»⁽⁴⁾ .

(1) سورة الفرقان ، الآية 23 .

(2) التحرير والتنوير ، محمد الطاهر بن عاشور ، الدار التونسية للنشر ، 15:1 .

(3) القاموس المحيط ، مادة (فسر) 110:2 .

(4) لسان العرب ، ط بيروت ، 55:5 .

وقال أبو حيان: «ويطلق التفسير أيضاً على التعرّية للانطلاق. قال ثعلب: فسرت الفرس: عريته لينطلق في حصره. وهو راجع لمعنى الكشف فكأنه كشف ظهره لهذا الذي يريد منه من الجري⁽¹⁾».

وقال أمين الخولي: تلثقي مادتا ف س ر، س ف ر في معنى الكشف. ثم نرى السفر الكشف المادي والظاهر. والفسر: الكشف المعنوي والباطن. والتفصيل منه التفسير كشف المعنى وإبانته⁽²⁾.

ومن هذا الذي تقدم يتبين لنا أن التفسير يستعمل - لغة - في الكشف الحسي كما يستعمل في الكشف عن المعاني. واستعماله في الأخير أكثر من استعماله في الأول⁽³⁾. فالمعنى اللغوي لتفسير القرآن هو توضيح معانيه وبيانها والكشف عن المراد منها.

المفهوم الاصطلاحي لكلمة التفسير:

يرى بعض العلماء أن التفسير ليس من العلوم التي يتكلف لها حد، وذلك لأنه ليس قواعد أو ملكات ناشئة عن مزاولة القواعد كغيره من العلوم العقلية حتى يتكلف له حد، ويكتفي في إيضاحه بأنه بيان كلام الله تعالى، أو أنه المبين لألفاظ القرآن ومفهوماتها⁽⁴⁾.

بينما يرى بعض آخر من العلماء أن التفسير من قبيل العلوم: «لأن مباحثه لكونها تؤدي إلى استنباط علوم كثيرة وقواعد كلية نزلت منزلة القواعد الكلية لأنها مبدأ لها ومنشأ، ولا شك أن ما تستخرج منه القواعد الكلية والعلوم أجدر بأن يسمى علماً من عد فروعه علماً»⁽⁵⁾.

(1) البحر المحيط، ط 2، 1878 م، 13:1.

(2) التفسير معالم حياته، منهجه اليوم، طبعة جماعة الكتاب، ص 5.

(3) التفسير والمفسرون، محمد حسين الذهبي، طبعة دار الكتب الحديثة، 1961 م، 13:1.

(4) التفسير معالم حياته، منهجه اليوم، والتفسير والمفسرون، 14:1.

(5) التحرير والتنوير، 12:1.

ويتبع أقوال الذين عرفوا التفسير نجدهم قد عرفوه بتعاريف كثيرة بعضها مطول وبعضها مختصر موجز. وعند التحقق يمكن ارجاعها إلى واحد منها فهي - وإن اختلفت ألفاظها - متقاربة المعنى وما تهدف إليه.

فقد عرفه بعض العلماء - حسبما نقل السيوطي في كتابه (الاتقان في علوم القرآن) بأنه: «علم نزول الآيات وشؤونها وأقاصيصها والأسباب النازلة فيها، ثم ترتيب مكيتها ومدنيها ومحكمها ومتشابهها وناسخها ومنسوخها وخاصها وعامها ومطلقها ومقيدها ومجملها ومفسرها وحلالها وحرامها ووعداها ووعيدها وأمرها ونهيها وعبرها وأمثالها»⁽¹⁾.

كما عرفه أبو حيان بأنه «علم يبحث فيه عن كيفية النطق بألفاظ القرآن ومدلولاتها وأحكامها الافرادية والتركيبية ومعانيها التي تحمل عليها حالة التركيب وتنتهات لذلك»⁽²⁾.

وهذان التعريفان يعلان الهدف الأول من التعريف هو ما يتعلق بعلوم القرآن التي يحتاج إليها في التفسير دون تعريف التفسير نفسه.

وعرفه الزركشي في كتابه (البرهان في علوم القرآن) بأنه «علم يفهم به كتاب الله تعالى المنزل على نبيه محمد ﷺ وبيان معانيه واستخراج أحكامه وحكمه، واستمداد ذلك من علم اللغة والنحو والتصريف وعلم البيان وأصول الفقه والقراءات ويحتاج لمعرفة أسباب النزول والناسخ والمنسوخ»⁽³⁾. وهذا التعريف أوضح وأيسر وأخصر من التعريفين السابقين عليه. وقد عني بربط الدلالة وبيان المعاني بعلوم اللغة.

وعرفه بعض العلماء بأنه «علم يبحث فيه عن أحوال القرآن المجيد من حيث دلالاته على مراد الله بقدر الطاقة البشرية»⁽⁴⁾. وهذا التعريف - بجانب

(1) الاتقان، ط 3، 1951، 2: 174.

(2) البحر المحيط، 13: 1، 14.

(3) البرهان، ط 21، 1957 م، 13: 1.

(4) محمد أبو سلامة، منهاج الفرقان في علوم القرآن، مطبعة شبرا، 1938 م، 2: 6.

إيجازه - قد جعل هدفه الأعلى على إبراز هداية القرآن وتعاليمه وبيان مراد الله حسب الطاقة البشرية، وهذا قيد مهم، لأن المفسر لا يمكنه القطع بأن هذا مراد الله تعالى، وإلا كان تفسيراً بالرأي المنهى عنه.

التأويل والفرق بينه وبين التفسير:

كان لزاماً على علماء التفسير والمعنيين به ويعلمونه أن يعرضوا لمعنى كلمة (التأويل) كما عرضوا لمعنى كلمة (التفسير) لأن كلا اللفظين ورد على لسان المفسرين وفي كتبهم.

وكان لزاماً عليهم - أيضاً - أن يفرقوا بين اللفظين في مصطلحهم إن كان هناك فرق أو أن يبينوا ترادفهما إن كانا مترادفين يراد بهما شيء واحد.

ونتناول هذه القضية بشيء من التفصيل فنقول:

المفهوم اللغوي لكلمة التأويل:

التأويل - في اللغة - مأخوذ من الأول وهو الرجوع. جاء في القاموس: آل إليه أولاً ومآلاً: رجع وعنه ارتد... ثم قال: «وأول الكلام تأويلاً وتأوله: دبره وقدره وفسّره»⁽¹⁾. وهو وارد بنفس المعنى في لسان العرب⁽²⁾.

المفهوم الاصطلاحي لكلمة التأويل:

كلمة التأويل تطلق عند علماء السلف ويراد بها تفسير الكلام وبيان معناه سواء أكان موافقاً للظاهر أم مخالفاً له، فيكون التأويل والتفسير على هذا مترادفين. وهذا هو ما يعنيه ابن جرير الطبري بقوله في تفسيره: «القول في تأويل قوله تعالى... كذا وكذا» وهو ما يعنيه أيضاً بقوله: «واختلف أهل التأويل في هذه الآية» كما ذهب إلى هذا القول جماعة من العلماء منهم أبو عبيد القاسم بن سلام وابن الأعرابي، وعليه قول مجاهد: إن العلماء يعلمون تأويله - يعني القرآن -⁽³⁾.

(1) القاموس، 3: 331.

(2) اللسان: طبعة بيروت، 11: 33.

(3) التفسير والمفسرون، 1: 17.

وتطلق كلمة التأويل عند علماء السلف أيضاً على نفس المراد بالكلام، فإن كان الكلام طلباً كان تأويله نفس الفعل المطلوب، وإن كان خبراً كان تأويله نفس الشيء المخبر به.

وعلى هذا فالتأويل والتفسير أمران متباينان. وقد قال بهذا القول أبو طالب الثعلبي - حسبنا نقل السيوطي عنه في كتابه الإقتان - حيث قال: «إن التفسير بيان وضع اللفظ إما حقيقة أو مجازاً كتفسير (الصراط) بالطريق وتفسير (الصيب) بالمطر. والتأويل تفسير باطن اللفظ مأخوذ من الأول وهو الرجوع لعاقبة الأمر، فالتأويل إخبار عن حقيقة المراد والتفسير إخبار عن دليل المراد، لأن اللفظ يكشف عن المراد والكاشف دليل»⁽¹⁾. وقال به البغوي حيث قال: «التأويل صرف الآية إلى معنى موافق لما قبلها وما بعدها تحتمله الآية غير مخالف للكتاب والسنة من طريق الاجتهاد، والتفسير هو الكلام في أسباب نزول الآية وشأنها وقصتها»⁽²⁾.

كما صح القول بالتباين بين التفسير والتأويل بدر الدين محمد بن عبد الله الزركشي في كتابه (البرهان في علوم القرآن)⁽³⁾. وقال بعض أصحاب هذا الرأي: إن التفسير هو البيان عن طريق الرواية (التفسير بالمأثور)، والتأويل هو بيان المعاني بطريق الدراية (التفسير بالرأي)⁽⁴⁾.

واشتهر عند المتأخرين أن التفسير هو بيان المعاني التي تستفاد من وضع العبارة، والتأويل هو بيان المعاني التي تستفاد من طريق الإشارة، كما نبه على ذلك الألوسي في تفسيره (روح المعاني) حيث قال - بعد استعراضه للآراء في هذا الموضوع - : «وعندي أنه إن كان المراد الفرق بينهما بحسب العرف فكل الأقوال فيه مخالف للعرف اليوم إذ قد تعورف عند المؤلفين من غير نكير أن التأويل معان قدسية ومعارف ربانية تهل من سحب الغيب على قلوب العارفين. والتفسير غير

(1) الإقتان في علوم القرآن، 2: 173.

(2) معالم التنزيل في التفسير، طبعة المنار، 1945 م، 1: 18.

(3) انظر البرهان، 2: 149.

(4) الإقتان، 2: 173.

ذلك . وإن كان المراد الفرق بينهما بحسب ما يدل عليه اللفظ مطابقة فلا أظنك في مرية من رد هذه الأقوال، أو بوجه ما فلا أراك ترضى إلا أن في كل كشف إرجاعاً وفي كل إرجاع كشفاً - اهـ⁽¹⁾ .

وأما من يرى أن بينهما عمومًا وخصوصًا مطلقاً فيقول: إن التفسير أعم مطلقاً من التأويل، وعليه فكل تأويل تفسير وليس كل تفسير تأويلًا. ومن ارتضى هذا القول وأيده الراغب الأصفهاني فقد قال في كتابه (مقدمة التفسير): «والتأويل من آل يثول إذا رجع والتفسير أعم منه، ثم بدأ يعدد الفروق بينهما فقال: أكثر ما يستعمل التفسير في الألفاظ والتأويل في المعاني كتأويل الرؤيا... والتأويل يستعمل أكثره في الكتب الإلهية، والتفسير يستعمل فيها وفي غيرها. والتفسير يستعمل أكثره في مفردات الألفاظ، والتأويل يستعمل أكثره في الجمل، ثم يقول مفرعاً على ما تقدم: فالتفسير إما أن يستعمل في غريب الألفاظ كالبحيرة والسائبة والوصيلة⁽²⁾ أو في تبين المراد وشرحه كقوله تعالى: ﴿وأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة﴾⁽³⁾، وأما في كلام مضمن بقصة لا يمكن تصوره إلا بمعرفتها نحو قوله تعالى: ﴿إنما النسيء زيادة في الكفر﴾⁽⁴⁾، وقوله تعالى: ﴿وليس البر بأن تأتوا

(1) روح المعاني، ط بولاق، 1301 هـ، المقدمة 4:1، 5.

(2) أي في قوله تعالى: ﴿ما جعل الله من بحيرة ولا سائبة ولا وصيلة ولا حام﴾ - الآية 105 من سورة المائدة.

قال أهل اللغة: البحيرة: الناقة التي تشق أذنبا، يقال: بحرت أذن الناقة أبحرها بحرًا والناقة مبحورة وبحيرة إذا شققها واسعاً، وكان أهل الجاهلية يعرمون البحيرة وهي أن تنتج خمسة أبطن يكون آخرها ذكراً بحروا أذنبا وحرموها وامتنعوا من ركوبها ونحرها ولم تطرد من ماء ولا مرعى وإذا لقيها المعمر لم يركبها. والسائبة: المتروكة، وكانوا في الجاهلية إذا نذر الرجل لقدم من سفر أو سره من مرض أو ما أشبه ذلك قال: ناقتي سائبة فكانت كالبحيرة في التحريم. وأما الوصلة فإن بعض أهل اللغة ذكر أنها الأنثى من الغنم إذا ولدت مع ذكر قالوا: وصلت أخاها فلم يذبحوها. وقال بعضهم: كانت الشاة إذا ولدت أنثى فهي لهم وإذا ولدت ذكراً ذبحوه لأهنتهم وإذا ولدت ذكر أو أنثى قالوا وصلت أخاها فلم يذبحوه لأهنتهم.

(أحكام القرآن للجصاص، طبعة تركيا، 1335 هـ، 2: 485).

(3) سورة البقرة، الآية 42، وسورة الزمل، الآية 18.

(4) سورة التوبة، الآية 37.

البيوت من ظهورها⁽¹⁾. وأما التأويل فإنه يستعمل مرة عاماً ومرة خاصاً مثل الكفر المستعمل تارة في الجحود المطلق وتارة في جحود الباري خاصة، والإيمان المستعمل في التصديق المطلق تارة وفي تصديق دين الحق تارة. وأما في لفظ مشترك بين معان مختلفة مثل لفظ (وجد) المستعمل في الجدة والوجد والوجود⁽²⁾ - اهـ⁽³⁾.

ولعل أحسن ما يقال هنا هو ما قدمنا نقله عن الراغب الأصفهاني: وهو أن التفسير أعم من التأويل وأكثر ما يستعمل التفسير في الألفاظ والتأويل في المعاني، لأن التأويل ملاحظ فيه ترجيح أحد محتملات اللفظ بالدليل، والترجيح يعتمد على الاجتهاد ويتوصل إليه بمعرفة مفردات الألفاظ ومدلولاتها في لغة العرب واستعمالها بحسب السياق ومعرفة الأساليب العربية واستنباط المعاني في كل ذلك.

ومهما يكن من شيء فقد شاع واشتهر أن التفسير أعم من أن يكون بالمأثور أو بالرأي والاجتهاد، وأعم من أن يكون متعلقاً باللفظ أو بالمعنى، وقد أصبح ذلك حقيقة عرفية⁽⁴⁾.

المبحث الثاني: نشأة التفسير ومصادره والمراحل التي مر بها بإيجاز:

بدأت عناية المسلمين بتفسير القرآن الكريم والكشف عن معانيه وأسراره من أول نزوله على رسول الله ﷺ واستمرت هذه العناية إلى يومنا هذا، وستبقى مستمرة ما دام القرآن الكريم وإلى أن يرث الله الأرض ومن عليها وهو خير الوارثين. غير أن معالجة المسلمين للكشف عن معاني القرآن الكريم لم تجر على غط واحد، ولم تكن في مستوى واحد من الفهم والإدراك، وذلك لأن القرآن كلام الله

(1) سورة البقرة، الآية 188.

(2) يقال وجد مطلوبه مجده وجوداً، ووجد ضالته وجداناً، ووجد عليه في الغضب موجدة وجداناً، ووجد عليه في الحزن وجداً - بفتح الواو - ووجد في المال (استغنى) وجداً - مثلة الواو - وجدة. (غتار الصحاح للرازي، طبعة بولاق، 1939 م).

(3) مقدمة التفسير ص 402. ملحقة بتفسير القاضي عبد الجبار (تنزيه القرآن عن المطاعن).

(4) الأسراريات والموضوعات في كتب التفسير، محمد أبو شعبة، طبعة مجمع البحوث الإسلامية، ص 43.

لا تنقضي عجائبه ولا يخلق على كثرة الرد، وكان طبعياً أن يبدأ تفسير القرآن الكريم على صورة ضيقة، لأن القوم الذين نزل عليهم كانوا عرباً خالصاً يعرفون اللسان العربي، ولا يخفى عليهم من معانيه إلا القليل الذي لا يلبث أن يتضح لهم برجعهم فيه إلى رسول الله ﷺ. ثم نجد دائرة التفسير تتسع شيئاً فشيئاً كلما ازداد الغموض على الناس نتيجة بعدهم عن معين العربية التي نزل بها القرآن الكريم واحتياجهم إلى الكشف عن الكثير من معانيه.

التفسير في عصر النبي ﷺ وأصحابه:

لقد نزل القرآن الكريم على رسول الله ﷺ بلسان عربي مبين، فكان العرب يفهمون معانيه ويدركون أغراضه، لأنه على أساليب بلاغتهم وطريقتهم في القول وإن تفاوتوا في هذا الفهم وذلك الإدراك تبعاً لاختلاف مواهبهم العقلية وصلتهم بمجلس رسول الله ﷺ.

والقول بأنهم كانوا يفهمونه بمقياس واحد فيه تعميم واسع وإلغاء للفوارق الفردية، وغير مطابق للواقع. ومن هنا كان قول ابن خلدون في مقدمته: «إن القرآن نزل بلغة العرب وعلى أساليب بلاغتهم فكانوا كلهم يفهمونه ويعلمون معانيه في مفرداته وتراكيبه»⁽¹⁾ فيه مبالغة. ولعل ابن خلدون نفسه فطن لهذا المعنى حيث ذكر بعد ذلك أن في القرآن نواحي في حاجة إلى بيان، فقد كان النبي ﷺ يبين المجمال ويميز الناسخ من المنسوخ ويعرفه أصحابه فعرفوه وعرفوا سبب نزول الآيات ومقتضى الحال منها منقولاً عنه⁽²⁾.

وقد سبق أبو عبيدة معمر بن المثنى المتوفى سنة 210 من الهجرة في كتابه (عجاز القرآن) ابن خلدون بهذا الرأي حيث ذكر أن القرآن ما دام قد أنزل بلسان عربي لم يكن العرب - آنذاك - في حاجة إلى السؤال عن معانيه يقول أبو عبيدة: «قالوا إنما

(1) المقدمة، ط بولاق، 1321 هـ، ص 415.

(2) نفس المصدر، وانظر نشأة التفسير في الكتب المقدسة والقرآن د. السيد أحمد خليل.

أنزل القرآن بلسان عربي مبين، وتصداق ذلك في آية من القرآن⁽¹⁾، وفي آية أخرى: ﴿وما أرسلنا من رسول إلا بلسان قومه﴾⁽²⁾ فلم يحتج السلف ولا الذين أدركوا وحيه إلى النبي ﷺ أن يسألوه عن معانيه، لأنهم كانوا عرب الألسن فاستغنوا بعلمهم به عن المسألة عن معانيه وعما فيه مما في كلام العرب مثله من الوجوه والتلخيص⁽³⁾.

وقد قال ابن قتيبة: إن العرب لا تستوي في المعرفة بجميع ما في القرآن من لغريب والمتشابه، بل لبعضها الفضل في ذلك على بعض، والدليل عليه قول الله - عز وجل - : ﴿وما يعلم تأويله إلا الله والراسخون في العلم﴾⁽⁴⁾، ونحن نذهب إلى أن الراسخين في العلم يعلمونه فأعلمنا - عز وجل - أن من القرآن ما لا يعلمه إلا من رسخ في العلم. ويدل عليه قول بعضهم يا رسول الله: «إنك لتأتينا بالكلام من كلام العرب ما لا نعرفه ونحن العرب حقاً». فقال: إن ربي علمني فتعلمت⁽⁵⁾.

1 - تفسير القرآن للقرآن:

الله - عز وجل - هو أول مبين لكتابه لأنه الأعلم بكلامه ومراده، ولذلك يقول القرآن: ﴿وما يعلم تأويله إلا الله﴾⁽⁶⁾، ويقول تعالى: ﴿ولا يأتونك بمثل إلا جنتك بالحق وأحسن تفسيراً﴾⁽⁷⁾ وقد وعد الله نبيه ببيان القرآن فقال: ﴿لا تحرك به لسانك لتعجل به إن علينا جمعه وقرآنه فإذا قرأناه فاتبع قرآنه ثم إن علينا بيانه﴾⁽⁸⁾. وبالرجوع إلى الآيات التي جاءت فيها كلمة (يسألونك) أو كلمة

(1) الآيات: 193 - 195 ﴿نزل به الروح الأمين على قلبك لتكون من المنذرين بلسان عربي مبين﴾ الشعراء.

(2) سورة إبراهيم، الآية 5.

(3) مجاز القرآن، طبعة الخانجي، 1954، 8:1.

(4) سورة آل عمران، الآية 7.

(5) كتاب المسائل والأجوبة في الحديث واللغة، ط السعادة 1349 هـ، ص 8.

(6) سورة آل عمران، الآية 7.

(7) سورة الفرقان، الآية 23.

(8) سورة القيامة، الآية 16 - 18.

(يستفتونك) والوقوف على تفسيرها وسبب نزولها يتبين أن الله تعالى تولى بيان الأمور وتفسير الأحكام⁽¹⁾. وقد نزل القرآن باللغة العربية مشتملاً على ما هو معروف فيها من الإيجاز والإطناب والإجمال والبيان والإطلاق والتقييد والتعميم والتخصيص، فما كان مجملاً في موضع قد يكون مبيناً في موضع آخر، وما جاء مطلقاً في موضع قد يكون مقيداً في موضع آخر، وهكذا التعميم والتخصيص.

فمن تفسير القرآن للقرآن تفسير المجلد في قوله تعالى: ﴿أحلّت لكم بهيمة الأنعام إلا ما يتلى عليكم غير محلي الصيد وأنتم حرم﴾⁽²⁾ بقوله تعالى: ﴿حرمت عليكم الميتة والدم ولحم الخنزير وما أهل لغير الله به والمنخنقة والموقوذة والمتردية والنطيحة وما أكل السبع إلا ما ذكيتم وما ذبح على النصب﴾⁽³⁾، وتفسير قوله تعالى: ﴿وإذا بشر أحدهم بما ضرب للرحمن مثلاً ظل وجهه مسوداً وهو كظيم﴾⁽⁴⁾ بقوله تعالى: ﴿وإذا بشر أحدهم بالأنثى ظل وجهه مسوداً وهو كظيم﴾⁽⁵⁾. وتفسير قوله تعالى: ﴿وأوفوا بعهدي أوف بعهدكم﴾⁽⁶⁾ بقوله تعالى: ﴿لئن أقمتم الصلاة وآتيتم الزكاة وآمتم برسلي وعزتموه وأقرضتم الله قرضاً حسناً لا كفرن عنكم سيئاتكم ولأدخلنكم جنات تجري من تحتها الأنهار﴾⁽⁷⁾.

ومن حل المطلق على المقيد تقييد الرقبة بصفة الإيمان في كفارة القتل في قوله تعالى: ﴿وما كان لمؤمن أن يقتل مؤمناً إلا خطأ ومن قتل مؤمناً خطأ فتحرير رقبة مؤمنة ودية مسلمة إلى أهله﴾ الآية⁽⁸⁾، وعدم تقييدها في كفارة الظهار في قوله تعالى: ﴿والذين يظهرون من نسائهم ثم يعودون لما قالوا فتحرير رقبة من قبل أن يتأسأ﴾⁽⁹⁾ وفي كفارة اليمين حيث قال: ﴿فكفارته إطعام عشرة مساكين من أوسط

(1) قصة التفسير، أحمد الشرباصي، المكتبة الثقافية، ص 60.

(2) سورة المائدة، الآية 1.

(3) سورة المائدة، الآية 4.

(4) سورة الزخرف، الآية 17.

(5) سورة النحل، الآية 58.

(6) سورة البقرة، الآية 40.

(7) سورة المائدة، الآية 13.

(8) سورة النساء، الآية 91.

(9) سورة المجادلة، الآية 3.

ما تطعمون أهليكم أو كسوتهم. أو تحرير رقبة فمن لم يجد فصيام ثلاثة أيام⁽¹⁾. والمطلق كالقيد في هذا الوصف. ومن حل المطلق على المقيد تقييد الدم المحرم (بالمسفوح) في قوله تعالى: ﴿قل لا أجد فيها أوحى إلي محرماً على طاعم يطعمه إلا أن يكون ميتة أو دماً مسفوحاً أو لحم خنزير فإنه رجس أو فسقاً أهل لغير الله به﴾⁽²⁾. وعدم تقييده بذلك في قوله تعالى: ﴿إنما حرم عليكم الميتة والدم ولحم الخنزير﴾ الآية⁽³⁾ وفي آية المائدة المتقدمة⁽⁴⁾. وتقييد إحباط العمل - والعياذ بالله - بالموت على الكفر في قوله تعالى: ﴿ومن يرتدد منكم عن دينه فيمت وهو كافر فأولئك حبطت أعمالهم في الدنيا والآخرة﴾⁽⁵⁾. وعدم التقييد به في قوله تعالى: ﴿ومن يكفر بالإيمان فقد حبط عمله وهو في الآخرة من الخاسرين﴾⁽⁶⁾.

ومن حمل العام على الخاص تخصيص العموم الوارد في قوله تعالى: ﴿والمطلقات يتربصن بأنفسهن ثلاثة قروء﴾⁽⁷⁾ بقوله تعالى: ﴿يأياها الذين آمنوا إذا نكحتم المؤمنات ثم طلقتموهن من قبل أن تمسوهن فما لكم عليهن من عدة تعتدونها﴾⁽⁸⁾، وبقوله تعالى: ﴿وأولات الأحمال أجلهن أن يضعن حملهن﴾⁽⁹⁾.

ومن تفسير القرآن بالقرآن الجمع بين ما يتوهم أنه مختلف كقوله تعالى في خلق آدم - عليه السلام - مرة ﴿من تراب﴾⁽¹⁰⁾ ومرة من ﴿طين لازب﴾⁽¹¹⁾، وتارة آخر ﴿من حمأ مسنون﴾⁽¹²⁾ ورابعة ﴿من صلصال كالفخار﴾⁽¹³⁾، فهذا تفصيل

(1) سورة المائدة، الآية 91.

(2) سورة الأنعام، الآية 146.

(3) سورة البقرة، الآية 172، وسورة النحل، الآية 115.

(4) سورة المائدة، الآية 4.

(5) سورة البقرة، الآية 215.

(6) سورة المائدة، الآية 6.

(7) سورة البقرة، الآية 226.

(8) سورة الأحزاب، الآية 49.

(9) سورة الطلاق، الآية 4.

(10) مثل قوله تعالى: ﴿كمثل آدم خلقه من تراب ثم قال له كن فيكون﴾ آل عمران: 58.

(11) ﴿أنا خلقناهم من طين لازب﴾ الصافات: 11.

(12) سورة الحجر، الآية 26.

(13) سورة الرحمن، الآية 12.

للأطوار التي مر بها آدم من مبدأ خلقه إلى نفخ الروح فيه، فأول بدايته كان تراباً متفرق الأجزاء ثم أضيف إليه الماء فصار طيناً، ثم ترك حتى أنتن واسود فصار حمأ مسنوناً (أي متغيراً) ثم يبس فصار صلصالاً كالفخار، وعلى هذه الأطوار والأحوال تتخرج الآيات الواردة في خلقه - عليه السلام -.

2 - تفسير الرسول ﷺ للقرآن :

ويعد تفسير الله - تبارك وتعالى - يأتي تفسير الرسول ﷺ، لأنه هو المتلقي للوحي والمبلغ عن الله تعالى، وذلك يكون بالرجوع إليه في حياته وإلى سنته بعد وفاته، وذلك لأن وظيفة الرسول ﷺ البيان كما أخبر الله عنه بذلك في كتابه العزيز بقوله: ﴿وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾⁽¹⁾، فكان الصحابة - رضوان الله عليهم - إذا أشكل عليهم لفظ من ألفاظ القرآن فلم يهتدوا إلى معناه لجأوا إليه فيوضحه لهم ويبينه ويحلي لهم وجه الصواب والحق فيه، وقد اشتملت كتب السنة الصحيحة على كثير من هذا البيان وذلك الإيضاح، وبالرجوع إليها نجد أنها قد أفردت للتفسير باباً، وعلى سبيل المثال نجد البخاري قد ضَمَّنَ صحيحه كتابين هما: كتاب تفسير القرآن وكتاب فضائل القرآن.

ثم إن هذا البيان الحاصل منه ﷺ للقرآن واقع على صور متعددة فقد يكون بياناً لمجمل أو توضيحاً لمشكل أو تخصيصاً لعام أو تقييداً لمطلق، فبيان ﷺ للصلاة وهيتها والزكاة ومقدارها والحج ومناسكه يعتبر بياناً لما أجمله القرآن في شأن هذه العبادات يقول الطبرسي - وهو بصدد تفسير قوله تعالى: ﴿وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَارْكَعُوا مَعَ الرَّاكِعِينَ﴾⁽²⁾ - : (وأقيموا الصلاة) أي أدوها بأركانها وحدودها وشروطها كما بينها النبي ﷺ - (وآتوا الزكاة) أي أعطوا ما فرض الله عليكم في أموالكم على ما بينه الرسول لكم، ثم يقول: وهذا حكم جميع ما ورد في القرآن مجملاً فإن بيانه يكون موكولاً إلى النبي ﷺ كما قال تعالى: ﴿وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ

(1) سورة النحل، الآية 44.

(2) سورة البقرة، الآية 42.

فخذوه وما نهاكم عنه فانتهوا»⁽¹⁾، فلذلك أمرهم بالصلاة والزكاة على طريق الإجمال وأحال في التفصيل على بيانه»⁽²⁾.

ومن توضيحه ﷺ لما أشكل على بعض الصحابة تفسيره للخيط الأبيض والخيط الأسود في قوله تعالى: ﴿وَكُلُوا وَاشْرَبُوا حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَكُمُ الْخَيْطُ الْأَبْيَضُ مِنَ الْخَيْطِ الْأَسْوَدِ مِنَ الْفَجْرِ﴾⁽³⁾ بأنها بياض النهار وسواد الليل، ففي البخاري عن عدي بن حاتم قال: «قلت يا رسول الله: ما الخيط الأبيض من الخيط الأسود؟ هما الخيطان؟ قال: إنك لعريض القفا إذ أبصرت الخيطين ثم قال: لا بل هو سواد الليل وبياض النهار»⁽⁴⁾.

ومن تخصيصه للعام تخصيص الظلم في قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ﴾⁽⁵⁾ بأنه الشرك. فقد جاء في صحيح البخاري عن عبد الله بن مسعود قال: لما نزلت ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ﴾ قال أصحاب رسول الله: أينما لم يظلم نفسه قال: إنه ليس الذي تعنون ألم تسمعوا ما قال العبد الصالح: ﴿إِنَّ الشَّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾⁽⁶⁾ «إنما هو الشرك»⁽⁷⁾. ومن تقيده للمطلق تقييد اليد في قوله تعالى: ﴿وَالسَّارِقُ وَالسَّارِقَةُ فَاقْطَعُوا أَيْدِيَهُمَا﴾⁽⁸⁾ باليمين.

هذا وقد اختلف العلماء في المقدار الذي بينه رسول الله ﷺ وشرحه من معاني القرآن، فذهب بعضهم إلى أنه بين لأصحابه كل معاني القرآن كما بين لهم ألفاظه، ومن القائلين بهذا ابن تيمية مستدلاً على ذلك ببعض الآيات والأثار والمعقول:

(1) سورة الحشر، الآية 7.

(2) مجمع البيان في تفسير القرآن، طبعة دار مكتبة الحياة، 1 : 215.

(3) سورة البقرة، الآية 186.

(4) أخرجه البخاري في كتاب التفسير باب وكلوا واشربوا حتى يتبين لكم الخيط الأبيض من الخيط الأسود من الفجر.

(5) سورة الأنعام، الآية 83.

(6) سورة لقمان، الآية 12.

(7) أخرجه البخاري في كتاب الإيمان ظلم دون ظلم، وفي كتاب التفسير باب ولم يلبسوا.

(8) سورة المائدة، الآية 40.

الدليل الأول: قول تعالى: ﴿وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ﴾⁽¹⁾ قالوا: إن البيان في الآية كما يتناول ألفاظ القرآن يتناول بيان معانيه، وقد بين الرسول ﷺ ألفاظه كلها فلا بد أن يكون قد بين معانيه أيضاً وإلا لكان مقصراً في البيان الذي كلفه الله به وهو ما لا يعقل.

الدليل الثاني: إن الصحابة كانوا إذا تعلموا بعض آيات من القرآن لم يتجاوزوها حتى يعلموها ويعملوا بها، فتعلموا القرآن والعلم والعمل به، لذا كانوا يقيمون مدة طويلة على حفظه مما جعل عبد الله بن عمر مثلاً يحفظ سورة البقرة في ثمانية أعوام، ومن غير شك أن هذه المدة كافية لحفظ اللفظ والمعنى معاً.

الدليل الثالث: قالوا: «إن العادة تمنع أن يقرأ قوم كتاباً في فن من العلم ولا يطلبون شرحه فكيف بالقرآن الذي به العصمة وبه النجاة والسعادة»⁽²⁾.

الدليل الرابع: ما روي عن عمر بن الخطاب - رضي الله عنه - أنه قال: من آخر ما نزل من القرآن آية الربا وإن رسول الله لحق بالرفيق الأعلى ولم يفسرها لهم⁽³⁾. فهذا يدل على أنه كان يفسر لهم كل ما نزل ولم يفسر لهم آية الربا لسرعة لحوقه بالرفيق الأعلى على بعد نزولها، وإلا لم يكن للتخصيص بها وجه⁽⁴⁾.

مناقشة هذه الأدلة:

وقد نوقشت هذه الأدلة بأن الأول يمكن أن يعترض عليه بأن النبي ﷺ وإن كانت وظيفته البيان إلا أن هذا لا يقتضي أنه بين لهم كل معاني القرآن ما أشكل عليهم فهمه وما لم يشكل، وإنما كان يبين لهم ما أشكل عليهم لا كل معانيه.

وبأن الثاني لا يلزم منه أن علم الصحابة بالآيات التي وقفوا عندها حتى

(1) سورة النحل، الآية 44.

(2) ابن تيمية، مقلدة في أصول التفسير، ط 2، 1972م، ص 35 وما بعدها.

(3) ونص الحديث عن سعيد بن المسيب قال: قال عمر: إن آخر ما نزل من القرآن آية الربا، وإن رسول الله ﷺ قبض ولم يفسرها فدعوا الربا والريبة. (مسند الإمام أحمد، ط دار المعارف بمصر، 1: 262).

(4) التفسير والمفسرون، محمد حنين الذهبي، 1، 50.

علموا معناها أن يكون ذلك من رسول الله ﷺ بل يجوز أنهم علموه من اخوانهم الذين هم أعلم منهم بأساليب اللغة ومفرداتها وأقوال العرب وأشعارهم، أو من معرفتهم للغتهم العربية.

أما الدليل الثالث فكل ما يدل عليه هو أن الصحابة كانوا حريصين على فهم القرآن ومعرفة معانيه شأن أي كتاب يقرؤه قوم، ولكن ليس من اللازم أن يكونوا رجعوا إلى النبي ﷺ في كل صغيرة وكبيرة منه⁽²⁾.

بقي الدليل الرابع وهو وفاة النبي ﷺ قبل أن يبين لهم معنى آية الربا، وهذا لا يلزم منه أنه كان يبين لهم معنى كل آية لجواز أن تكون هذه الآية مما أشكل عليهم فهمه فكان لا بد من الرجوع فيها إلى النبي ﷺ شأن غيرها من مشكلات القرآن. إلى جانب أن هذا الحديث إسناده ضعيف لانقطاعه، لأن سعيد بن المسيب الذي رواه عن عمر بن الخطاب لم يسمع من عمر: لأنه لم يدركه إلا صغيراً⁽²⁾.

ومن العلماء من ذهب إلى أنه ﷺ لم يبين للصحابة من معاني القرآن إلا القليل، مستدلين على ذلك بما يلي:

1 - ما أخرجه البزار عن عائشة - رضي الله عنها - قالت: «ما كان رسول الله ﷺ يفسر شيئاً من القرآن إلا آياً بعدد علمه إياهن جبريل»⁽³⁾.

2 - إن بيان النبي ﷺ لكل ما في القرآن من معان متعذر ولا يتصور ذلك إلا في آيات تعدد، والعلم بالمراد يستنبط بأمارات ودلائل. ولم يأمر الله نبيه بالتنصيص على المراد في جميع آياته لأجل أن يكون هناك مجال أمام الناس كي يتفكروا في القرآن ويتدبروا آياته⁽⁴⁾.

(1) التفسير والمفسرون 52:1.

(2) لأن سعيداً ولد عام 13 من الهجرة، وعمر بن الخطاب قتل عام 23 من الهجرة. انظر منسند الإمام أحمد بن حنبل، تحقيق: أحمد شاكر، ط 3، 262:1.

(3) الجامع لأحكام القرآن للقرطبي، 31:1، وتفسير الطبري، 30:1.

(4) الإتقان للسيوطي نقلاً عن الخوري، 174:2.

3- إن الرسول ﷺ دعا لابن عباس فقال: «اللهم فقهه في الدين وعلمه التأويل» فلو كان ﷺ بين لأصحابه كل معاني القرآن لما كان هناك معنى لتخصيص ابن عباس بهذا الدعاء⁽¹⁾.

مناقشة هذه الأدلة:

وقد نوقشت هذه الأدلة بما يلي:

1- بأن استدلالهم بحديث عائشة الذي أخرجه البزار ورواه ابن جرير الطبري بسنده عن هشام بن عروة عن أبيه عن عائشة ضعيف، لأن الحديث منكر وغريب، لأن جعفر بن محمد بن خالد بن الزبير بن العوام القرشي أحد رواة مطعون فيه، قال فيه البخاري: لا يتابع في حديثه. وقال عنه الحافظ أبو الفتح الأزدي: أنه منكر الحديث⁽²⁾. وقال عنه ابن جرير الطبري: «إنه ممن لا يعرف في أهل الآثار»⁽³⁾.

ويقول صاحب مقدمة «كتاب المباني في نظم المعاني» عن هذا الحديث: «إنه يدل على أنه - عليه السلام - كان يحتاج مع ما أنزل عليه من القرآن إلى تفسير آيات يعلمهن إياه جبريل - عليه السلام - وذلك ما كان جبريل يشاهد من الأحوال ما لم يكن يشاهد رسول الله ﷺ فكذلك الصحابة - رضي الله عنهم - قد شاهدوا أحوالاً لم يشاهدها من بعدهم فلا ينكر أن يحتاج من بعدهم إلى تفسيرهن»⁽⁴⁾.

أما ابن عطية فقد حمل هذا الحديث على مغيبات القرآن وتفسير النبي مجمله ونحو هذا مما لا سبيل إليه إلا بتوقيف من الله تعالى⁽⁵⁾.

2- أما القول بأن النبي ﷺ لم يؤمر بالتنصيص على المراد في جميع الآيات لأجل أن يتفكر الناس في آيات القرآن فلا دلالة فيه أيضاً، على أنه بين القليل فقط

(1) انظر القرطبي، 1: 33.

(2) تفسير ابن كثير، 6: 1.

(3) جامع البيان، 30: 1.

(4) مقدمة كتاب المباني في نظم المعاني، ط 2، 1972، ص 262.

(5) مقدمتان في علوم القرآن، ص 2، 1972، ص 262.

من معاني القرآن، لأنه ﷺ مأمور بالبيان، ولو فرض أن جميع القرآن أشكل معناه على الصحابة لكان لزاماً عليه بمقتضى أمر الله له أن يبينه لهم، يضاف إلى ذلك أن بيانه ﷺ للقرآن ليس مقصوداً به الصحابة وحدهم، بل هو لهم ولمن يأتي بعدهم إلى يوم القيامة.

3 - كذلك الاستدلال بدعائه لابن عباس بأنه يدل على أنه بين القليل من معاني القرآن فقط غير مسلم لأنه على فرض تسليم أنه لم يفسر كل ما في القرآن فلا يسلم أنه فسر بعض الآيات فقط لاحتمال أن يكون قد بين ما دعت الحاجة إلى بيانه كما تشهد بذلك كتب السنة الصحاح، ولم يبين جميع معاني القرآن، لأن من معانيه ما استأثر الله بعلمه، ومنه ما لا يحتاج إلى بيان لأنه يفهم من اللغة العربية وأسايلها في البيان.

يقول عبد الله بن عباس - رضي الله عنها - : «التفسير على أربعة أوجه : وجه تعرفه العرب من كلامها، وتفسير لا يعذر أحد بجهالته، وتفسير يعلمه العلماء، وتفسير لا يعلمه إلا الله تعالى»⁽¹⁾. وواضح أنه لم يفسر لهم ما يرجع فهمه إلى معرفة كلام العرب، لأنه بلغتهم نزل إلا في حالات قليلة مثل بيانه للخيط الأبيض والأسود لعدي بن حاتم. ولم يفسر لهم ما تتبادر الأفهام إلى معرفته وهو الذي لا يعذر أحد بجهله لأنه لا يخفى على أحد، ولم يفسر ما استأثر الله بعلمه كقيام الساعة وحقيقة الروح من كل ما يجري مجرى الغيوب التي لم يطلع الله نبيه عليها أو أطلعه ولم يأمره ببيانها.

وقد تولى محمد بن جرير الطبري توضيح بعض هذه الأقسام فقال : «فقد تبين ببيان الله أن مما أنزل الله من القرآن على نبيه ما لا يوصل إلى علم تأويله إلا ببيان الرسول ﷺ وذلك تأويل جميع ما فيه من وجوه أمره - واجبه ونذبه وإرشاده - وصنوف نبيه، ووظائف حقوقه وحدوده وما أشبه ذلك من أحكام آية لم يدرك علمها إلا ببيان رسول الله ﷺ لأمره، وهذا وجه لا يجوز لأحد القول فيه إلا ببيان رسول الله ﷺ له. وأن منه ما لا يعلم تأويله إلا الله وذلك ما فيه من الخبر

(1) أنظر تفسير ابن جرير الطبري، 1: 26. وتفسير ابن كثير، 1: 6. والإنفاق للسيوطي، 2: 182.

عن آجال وأوقات آتية كوقت قيام الساعة وما أشبه ذلك من الأخبار وأن منه ما يعلم تأويله كل ذي علم باللسان الذي نزل به القرآن، فإن ذلك لا يبهره أحد منهم وذلك كسامع لو سمع تالياً يتلو ﴿وإذا قيل لهم لا تفسدوا في الأرض قالوا إنما نحن مصلحون ألا إنهم هم المفسدون ولكن لا يشعرون﴾⁽¹⁾ لم يبهر أن معنى الإفساد هو ما ينبغي تركه مما هو مضر، وأن الإصلاح هو ما ينبغي فعله مما فعله منفعة⁽²⁾.

كما فعل ذلك الطبرسي في تفسيره (مجمع البيان) حيث قال: «فأما الذي لا يعذر أحد بجهله فهو ما يلزم الكافة من الشرائع التي في القرآن وجل دلائل التوحيد. وأما الذي تعرفه العرب بلسانها فهو حقائق اللغة وموضوع كلامهم. وأما الذي يعلمه العلماء فهو تأويل المتشابه وفروع الأحكام. وأما الذي لا يعلمه إلا الله فهو ما يجري مجرى الغيوب وقيام الساعة»⁽³⁾.

3 - تفسير الصحابة :

وبعد وفاته ﷺ تصدى لتفسير القرآن صحابته الكرام، فكانوا يشرحون آيات الكتاب العزيز ويبينون معانيها وأحكامها للناس معتمدين في هذا الشرح وذاك البيان على مصدرين أساسيين هما ما ورد في القرآن من آيات توضح بعضها بعضاً - وهذا أصح طرق التفسير - والمصدر الثاني ما حفظوه عن الرسول ﷺ من تفسير، فإن لم يوجد هذا ولا ذاك اعتمدوا على معرفتهم بأوضاع اللغة العربية وأسرارها ومعرفتهم بعادات العرب وتقاليدهم وأحوال أهل الكتاب في الجزيرة العربية وقت نزول القرآن، إلى جانب احاطتهم بالظروف والملابسات التي صاحبت نزول آيات القرآن، وما لهم من قوة الفهم وسعة الإدراك والعمل الصالح والقلب المستنير، ولقد أوتي ابن عباس حظاً وافراً من ذلك ببركة دعاء رسول الله ﷺ له. كما اشتهر بالتفسير بعض الصحابة إلى جانب ابن عباس، وفي

(1) سورة البقرة، الآتان 11، 12.

(2) تفسير ابن جرير الطبري، 26:1.

(3) مجمع البيان، المقدمة، 27:1.

مقدمتهم عبد الله بن مسعود وعلي بن أبي طالب وأبي بن كعب .

ومن تفسير الصحابي ما روي عن السيدة عائشة أم المؤمنين - رضي الله عنها - لما سأها ابن اختها عروة بن الزبير عن قوله تعالى : ﴿وإن خفتن ألا تقسطوا في اليتامى فانكحوا ما طاب لكم من النساء مثنى وثلاث ورباع فإن خفتن ألا تعدلوا فواحدة أو ما ملكت أيمانكم﴾⁽¹⁾ فقالت : يا ابن اختي هذه اليتيمة تكون في حجر وليها تشركه في ماله ويعجبها مالها وجمالها فيريد أن يتزوجها بغير أن يقسط في صداقها فيعطى مثل ما يعطى غيره فنهوا عن ذلك إلا أن يقسطوا لهن ويبلغوا بهن أعلى مستهن في الصداق وأمروا أن ينكحوا ما طاب لهم من النساء سواهن ، قالت عائشة : ثم إن الناس استفتوا رسول الله ﷺ بعد هذه الآية فيهن فأنزل الله - عز وجل - ﴿ويستفتونك في النساء قل الله يفتيكم فيهن وما يتلى عليكم في الكتاب في يتامى النساء اللاتي لا تؤتونهن ما كتب لهن وترغبون أن تنكحوهن﴾⁽²⁾ قالت : والذي ذكر الله أنه يتلى عليكم في الكتاب الآية الأولى التي قال الله فيها : ﴿وإن خفتن ألا تقسطوا في اليتامى فانكحوا ما طاب لكم من النساء﴾. وقوله الله في الآية الأخرى : ﴿وترغبون أن تنكحوهن﴾ رغبة أحدكم عن يتيمة التي تكون في حجره حين تكون قليلة المال والجمال ، فنهوا أن ينكحوا ما رغبوا في مالها وجمالها إلا بالقسط من أجل رغبتهن عنهن إذا كن قليلات المال والجمال⁽³⁾ .

والمعروف أن الصحابة - رضوان الله عليهم - لم يكونوا على درجة واحدة من الفهم والإدراك وقوة الذاكرة ، يقول مسروق⁽⁴⁾ : جالست أصحاب رسول الله ﷺ فوجدتهم كالإخاذا⁽⁵⁾ ، فالإخاذا يروي الرجل ، والإخاذا يروي الرجلين ، والإخاذا

(1) سورة النساء ، الآية 3 .

(2) سورة النساء ، الآية 127 .

(3) رواه البخاري في كتاب الشركة ، باب شركة اليتيم وأهل الميراث ، وفي كتاب التفسير سورة النساء ، باب وإن خفتن ألا تقسطوا في اليتامى . كما أخرجه مسلم في كتاب التفسير .

(4) مسروق بن الأجدع من خيار التابعين وفضلائهم .

(5) الإخاذا : جمع اخفاة وهي شيء كالغدير يجتمع فيه الماء ، وجمع الإخاذا أخذ مثل كتاب وكتب . (صالح الجوهري 2 : 560) .

يروى العشرة، والإخاذ لو نزل به أهل الأرض لأصدرهم، فوجدت عبد الله بن مسعود من ذلك الإخاذ⁽¹⁾.

فمن مفردات القرآن ما خفي معناه على بعض الصحابة، ولا غرابة في ذلك فاللغة أوسع من أن يحيط بها إنسان مهما بلغ من سعة المعرفة. ولابن عباس - رضي الله عنه - ولا يشك أحد في صدق عربيته، وهو الذي كان يوصف بالبحر وبترجمان القرآن - موافق في هذا الشأن، فقد أخرج أبو عبيد من طريق مجاهد عن ابن عباس قال: «كنت لا أدري ما فاطر السموات والأرض حتى أتاني أعرابيَان يختصمان في بئر فقال أحدهما: أنا فطرتهما يعني ابتدأتها»⁽²⁾، وعنه أيضاً: ما كنت أدري معنى قوله تعالى: ﴿ربنا افتح بيننا وبين قومنا بالحق﴾⁽³⁾ حتى سمعت بنت ذي يزن تقول لزوجها: تعالى أفتتحك تريد أخاصمك⁽⁴⁾. وقال الزركشي: يعني أقاضيك⁽⁵⁾. وهذا عمر بن الخطاب يقرأ - على المنبر - قوله تعالى: ﴿أو يأخذهم على تخوف﴾⁽⁶⁾ ثم يسأل عن معنى التخوف، فيقوم له شيخ من هذيل فيقول: هذه لغتنا التخوف: التنقص، فيقول له عمر: وهل تعرف العرب ذلك في أشعارها؟ فيقول: نعم قال شاعرنا أبو كبير يصف ناقته:

تخوف الرحل منها تامكا قردا كما تخوف عود النبعة السفن⁽⁷⁾

فيقول عمر: عليكم بديوانكم لا تضلوا. قالوا: وما ديواننا؟ قال: شعر الجاهلية فإن فيه تفسير كتابكم ومعاني كلامكم⁽⁸⁾.

وكنتيجة لهذا التفاوت والإدراك لبعض مفردات القرآن كان اختلافهم في

(1) الطبقات الكبرى لابن سعد 105:2.

(2) البرهان في علوم القرآن، 1:293. والإتقان، 1:115.

(3) سورة الأعراف، الآية 88.

(4) الإتقان، 1:115.

(5) البرهان، 1:293.

(6) سورة النحل، الآية 47.

(7) التامك: المرتفع من السنام، والقرد: المتلبذ بعضه على بعض، والسفن: المبرد. المعنى: يصف ناقته وقد أثر الرحل في سنامها وتنقص منها.

(8) تفسير البياضوي، طبعة دار الكتب العربية، 3:182.

فهم بعض معاني القرآن وأحكامه، وإن كان هذا الاختلاف يسيراً بالنسبة لاختلاف من بعدهم من التابعين ومن جاء بعدهم. ومن الأمثلة على ذلك ما روي أن عمر بن الخطاب - رضي الله عنه - استعمل قدامة⁽¹⁾ بن مظعون على البحرين فقدم الجارود سيد عبد القيس من البحرين فقال: يا أمير المؤمنين: إن قدامة شرب فسكر وإني رأيت حداً من حدود الله حقاً علي أن أرفعه إليك فقال عمر: من يشهد معك؟ قال: أبو هريرة فدعا أبا هريرة فقال: بم تشهد؟ قال: لم أره شرب ولكني رأيته سكران يقيء. ثم كتب إلى قدامة أن يقدم عليه من البحرين فقدم، فلما قدم قدامة قال له عمر: إني حادك، قال: والله لو شربت كما يقول ما كان لك أن تحدي قال عمر: ولم؟ قال: لأن الله تعالى يقول: ﴿ليس على الذين آمنوا وعملوا الصالحات جناح فيما طعموا إذا ما اتقوا وآمنوا وعملوا الصالحات ثم اتقوا وآمنوا ثم اتقوا وأحسنوا والله يحب المحسنين﴾⁽²⁾، فأنا من الذين آمنوا وعملوا الصالحات ثم اتقوا وآمنوا ثم اتقوا وأحسنوا شهدت مع رسول الله ﷺ بداراً وأحدأً والخندق، فقال عمر: أخطأت التأويل، أنت إذا اتقيت الله اجتنبت ما حرم الله⁽³⁾، ثم قال عمر: ألا تردون عليه قوله؟ فقال ابن عباس: إن هذه الآيات أنزلت عذراً للماضين وحجة على الباقين، لأن الله تعالى يقول: ﴿يا أيها الذين آمنوا إنما الخمر والميسر والأنصاب والأزلام رجس من عمل الشيطان فاجتنبوه لعلكم تفلحون﴾ فقال عمر لابن عباس: صدقت⁽⁴⁾.

فهذه الواقعة تدل على اختلاف فهم قدامة عن فهم عمر وابن عباس، كما أنها تعطي صورة واضحة تؤكد أن العرب لم يكونوا على مستوى واحد في فهم القرآن.

(1) هو قدامة بن مظعون الجمحي القرشي، أحد السابقين في الإسلام، وهو خال حفصة وعبد الله ابني عمر بن الخطاب وعامل عمر على البحرين. (الإصابة في تمييز الصحابة 3: 228).

(2) سورة المائدة، الآية 93.

(3) احتج قدامة بهذه الآية وخفي عليه سبب نزولها الذي يمنع من ذلك، وهو ما قاله الحسن وغيره: لما نزل تحريم الخمر قالوا: كيف يباخواننا الذين ماتوا وهي في بطونهم، وقد أخبر الله أنها رجس فأنزل الله تعالى: ﴿ليس على الذين آمنوا وعملوا الصالحات جناح﴾ الآية. (البرهان في علوم القرآن: 28: 1 وتفسير ابن كثير، 1: 97).

(4) أحكام القرآن لابن العربي 2: 654، والإصابة في تمييز الصحابة، ط 1، 3: 228.

ومثال ثان: روى البخاري من طريق سعيد بن جبير عن ابن عباس قال: «كان عمر يدخلني مع أشياخ بدر فكان بعضهم وجد في نفسه فقال: لم تدخل هذا معنا ولنا أبناء مثله؟ فقال عمر: إنه من حيث علمتم⁽¹⁾، فدعا ذات يوم فأدخلني معهم، فما رثيت أنه دعاني يومئذ إلا ليرسم. قال: ما تقولون في قوله تعالى: ﴿وَإِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ وَرَأَيْتَ النَّاسَ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ اللَّهِ أَفْوَاجًا﴾ فسبح بحمد ربك واستغفره إنه كان تواباً⁽²⁾؟ فقال بعضهم: أمرنا أن نحمد الله ونستغفره إذا نصرنا وفتح علينا، وسكت بعضهم فلم يقل شيئاً فقال لي: أكذلك تقول يا ابن عباس؟ فقلت: لا، قال: فما تقول: قلت: هو أجل رسول الله ﷺ أعلمه الله له، قال: إذا جاء نصر الله والفتح - وذلك علامة أجلك - فسبح بحمد ربك واستغفره إنه كان تواباً، فقال عمر: ما أعلم منها إلا ما تقول⁽³⁾.

قيمة التفسير المنقول عن الصحابة:

اختلف العلماء في أقوال الصحابة في التفسير هل لها حكم الحديث المرفوع أم هي موقوفة عليهم؟.

ذهب الحاكم النيسابوري إلى أن قول الصحابي في التفسير في حكم المرفوع، حيث نقل عنه قوله: «إن تفسير الصحابي الذي شهد الوحي والتنزيل له حكم المرفوع» هكذا أطلق الحاكم. وقد خالفه ابن الصلاح وغيره في هذا الإطلاق وقالوا: إن ذلك مخصوص بما كان في سبب نزول أو نحوه مما لا مجال للرأي فيه، وأما ما يتعلق باللغة والأحكام الاجتهادية فليس من قبيل المرفوع. قال ابن الصلاح في مقدمته: «ما قيل من أن تفسير الصحابي حديث مسند فإنما ذلك في تفسير يتعلق بسبب نزول آية يخبر به الصحابي أو نحو ذلك كقول جابر - رضي الله

(1) يشير بذلك عمر إلى قرابة ابن عباس من النبي ﷺ أو إلى معرفته وفطنته. (انظر فتح الباري 366:19).

(2) سورة النصر، الآيات 1-3.

(3) رواه البخاري في كتاب التفسير باب قوله: إذا جاء نصر الله والفتح. وانظر فتح الباري بشرح البخاري 1: 366، 367.

عنه - (1): كانت اليهود تقول من أتى امرأته من دبرها في قبلها جاء الولد أحول فأنزل الله - عز وجل - ﴿نَسَاؤُكُمْ حَرْثٌ لَكُمْ فَأْتُوا حَرْثَكُمْ أَنْ تُثْمِتُوا﴾ (2) الآية، فأما سائر تفاسير الصحابة التي لا تشتمل على إضافة شيء إلى رسول الله ﷺ فمعدودة في الموقوفات - اهـ - (3).

كما صرح الحاكم نفسه في كتابه (معركة علوم الحديث) بما يوافق رأي ابن الصلاح ويخالف رأيه المتقدم حيث قال: «ومن الموقوفات الذي يستدل به على أحاديث كثيرة ما حدثناه أحمد بن كامل القاضي قال: حدثنا يزيد بن الهيثم قال حدثنا محمد بن جعفر الفيدي قال حدثنا ابن الفضيل عن أبي سنان عن عبد الله بن أبي الهذيل عن أبي هريرة - رضي الله عنه - في قول الله عز وجل: ﴿لَوْ آخِذُوا بِالْبَشْرِ﴾ (4) قال: «تلقاهم جهنم يوم القيامة فتلفحهم لفحة فلا تترك لحماً على عظم إلا وضعت على العراقيب» وأشباه هذا من الموقوفات تعد في تفسير الصحابة. فأما ما نقول في تفسير الصحابي مسنداً قائماً بقوله في غير هذا النوع، ثم أورد حديث جابر - رضي الله عنه - في قصة اليهود - المتقدم - وقال: «فهذا وأشباهه مسند ليس بموقوف فإن الصحابي الذي شهد الوحي والتنزيل فأخبر عن آية من القرآن أنها نزلت في كذا فإنه حديث مسند» - اهـ - (5).

فالحاكم قيد في كتابه (معركة علوم الحديث) ما أطلقه في المستدرك فاعتمد الناس ما قيد وتركوا ما أطلق (6). وقد علل السيوطي في كتابه (تدريب الراوي) إطلاق الحاكم في كتابه (المستدرك) بأنه كان حريصاً على جمع الصحيح في المستدرك حتى أورد فيه ما ليس من شرط المرفوع. ثم اعترض السيوطي بعد ذلك على الحاكم عدّه لحديث أبي هريرة السابق في تفسير قوله تعالى: ﴿لَوْ آخِذُوا بِالْبَشْرِ﴾

(1) أخرجه البخاري في كتاب التفسير، باب نساؤكم حرث لكم. انظر فتح الباري 257:9، وأخرجه مسلم في كتاب النكاح: جواز جماع امرأته في قبلها... الخ.

(2) سورة البقرة، الآية 223.

(3) مقدمة ابن الصلاح، طبعة دار الحكمة، دمشق، ص 24.

(4) سورة المائدة، الآية 29.

(5) معرفة علوم الحديث، الطبعة المصورة عن طبعة الهند، ص 19، 20.

(6) التفسير والمفسرون 95:1.

من الموقوف، وليس كذلك لأنه يتعلق بذكر الآخرة، وأمور الآخرة مما لا دخل للرأي فيه فهو من قبيل المرفوع⁽¹⁾. والمحققون من العلماء كالحافظ ابن حجر على أن أقوال الصحابة في التفسير لها حكم المرفوع إلى النبي ﷺ بشرطين: شرط في المروي وشرط في الراوي:

الأول: أن يكون مما لا مجال للرأي فيه كأسباب النزول وأحوال القيامة واليوم الآخر ونحوها.

الثاني: ألا يكون الصحابي معروفاً بالأخذ عن أهل الكتاب الذين أسلموا أي معروفاً بالاسرائيليات⁽²⁾.

ومعلوم أن ما حكم عليه بأنه من قبيل المرفوع لا يجوز رده، وأما ما حكم عليه بالوقف على الصحابي ففي الأخذ به وعدم الأخذ خلاف بين العلماء.

ذهب بعض العلماء إلى أنه لا يجب الأخذ به لأنه من اجتهاده، والمجتهد مخطئ ويصيب، والصحابة في اجتهادهم كسائر المجتهدين.

وذهب آخرون إلى وجوب الأخذ به والرجوع إليه لظن سماعهم له من رسول الله ﷺ وعلى احتمال أنه تفسير بالرأي فرأيهم أصوب، لأنهم أعلم الناس بكتاب الله لما شاهدوه من القرائن والأحوال التي اختصوا بها، وما لهم من الفهم الصحيح والعمل الصالح ببركة صحبتهم لرسول الله ﷺ لا سيما علماءهم وكبرائهم كالخلفاء الأربعة وعبد الله بن مسعود وعبد الله بن عباس - رضوان الله على الجميع⁽³⁾.

مميزات التفسير في عهد الصحابة:

نستطيع أن نستخلص مما تقدم أن التفسير في عهد الصحابة يتميز بالسمات الآتية:

(1) تدريب الراوي، ط دار الكتب الحديثة ص 193. وانظر التفسير والمفسرون 1: 94، 95.

(2) الموضوعات والإسرائيليات في كتب التفسير ص 79.

(3) تفسير ابن كثير 3: 1.

- 1- إن التفسير لم يشمل القرآن كله وإنما فسر ما غمض فهمه، وهذا الغموض كان - بطبيعة الحال - يزداد كلما بعد الناس عن عصر النبوة.
- 2- قلة الاختلاف في فهم معاني القرآن.

3- الاكتفاء بالمعاني الإجمالية للآيات وعدم الخوض في التفاصيل، فمثلاً كان يكفي الصحابي أن يفهم من قوله تعالى: ﴿وفاكهة وأبا﴾⁽¹⁾ أنه تعداد لنعم الله سبحانه وتعالى وأنه من جنس النبات دون الخوض في التفاصيل مثل معرفة شكله وعينه، ولهذا لما استشكل سيدنا عمر في فهم معناه رجع إلى نفسه وقال: إن هذا هو التكلف يا عمر⁽²⁾، يقول ابن كثير: وهذا محمول على أنه أراد أن يعرف شكله وعينه وجنسه، وإلا فهو وكل من قرأ هذه الآية يعلم أنه من نبات الأرض لقوله تعالى: ﴿فأنبتنا فيها حباً وعنباً وقضباً...﴾ الآية⁽³⁾. ويقول الزركشي في كتابه البرهان: «وما ذاك بجهل لمعنى (الأب) وإنما يحتمل - والله أعلم - أن الأب من الألفاظ المشتركة في اللغة فخشي إن فسره بمعنى من معانيه أن يكون المراد غيره، ولهذا اختلف المفسرون في معنى الأب على سبعة أقوال»⁽⁴⁾.

ثم أضاف الزركشي وجهين آخرين لتفسير موقف عمر. أحدهما أن يكون خفي عليه معناه، والثاني: تخويف غيره من التعرض للتفسير بما لا يعلم⁽⁵⁾.

- 4- قلة الاختلاف المذهبي حول الآيات القرآنية التي تفيد الأحكام.

5- الإقتصار في التفسير على توضيح المعنى اللغوي الذي فهموه بأخصر لفظ وأوجزه.

(1) سورة عبس، الآية 31.

(2) انظر البرهان في علوم القرآن، 1: 295.

(3) تفسير ابن كثير، ط الحلبي، 4: 473.

(4) الأقوال التي ذكرها الزركشي في معنى (الأب) هي: قيل ما ترعاه البهائم وأما ما يأكله آدمي فحصيد، وقيل: الثبن خاصة، وقيل: كل ما نبت على وجه الأرض، وقيل: ما سوى الفاكهة، وقيل: الثمار الرطبة، وقيل: إن رطب الثمار هو الفاكهة وما سواه هو الأب، وقيل: إنه للأنعام كالفاكهة للناس.

(5) البرهان: 1: 296.

6 - لم يدون من التفسير شيء لأن التدوين لم يحدث إلا في القرن الثاني من الهجرة، وهذا لا يمنع من أن بعض الصحابة أثبت في مصحفه الخاص به بعض التفسير مما جعل بعض المتأخرين يظنها من وجوه القرآن التي نزل بها.

7 - التفسير في هذه المرحلة لم يكن مستقلاً، وإنما كان باباً من أبواب الحديث ثم انفصل عنه فيما بعد وصار يمثل فرعاً من فروع المعرفة الإسلامية له خصائصه ومقوماته.

8 - قلة رجوع الصحابة إلى أهل الكتاب، فهم لم يسألوا أهل الكتاب عن كل شيء، كما أنهم لم يقبلوا منهم كل شيء، بل كانوا يسألون عن أشياء لا تعدوا أن تكون توضيحاً لقصة أو بياناً لما أجمله القرآن منها، مع توقفهم فيما يلقي إليهم فلا يحكمون عليه بصدق ولا كذب ما دام يحتمل كلا الأمرين امتثالاً لقول رسول الله ﷺ: «لا تصدقوا أهل الكتاب ولا تكذبوهم وقلوا آمنا بالذي أنزل إلينا وأنزل إليكم»⁽¹⁾.

التفسير في عهد التابعين:

جاءت بعد طبقة الصحابة طبقة التابعين⁽²⁾ الذين تتلمذوا على الصحابة فتلقوا غالب معلوماتهم عنهم، وبذلك تبدأ مرحلة جديدة للتفسير، وكما اشتهر بعض أعلام الصحابة بالتفسير والرجوع إليهم في استجلاء ما خفي من معنى كتاب الله، اشتهر كذلك بالتفسير أعلام من التابعين تناولوا آيات القرآن بالتفسير ووضحوا لمعاصريهم ما خفي معناه عليهم وشدت إليهم الرحال، وقد اعتمد هؤلاء المفسرون (من التابعين) في فهمهم لكتاب الله تعالى على ما جاء في القرآن نفسه، وعلى ما رواه عن الصحابة عن رسول الله ﷺ وعلى ما رواه عن الصحابة عن تفسيرهم، بالإضافة إلى ما أخذوه من أهل الكتاب مما جاء في كتبهم، وعلى ما

(1) أخرجه البخاري في كتاب التفسير، وفي كتاب الاعتصام بالكتاب والسنة باب: قول النبي ﷺ لا تسألوا أهل الكتاب عن شيء. (انظر فتح الباري 237:9، 101:17).

(2) التابعي: هو من لقي الصحابي وهو مؤمن سواء سمع منه أم لا وسواء طال لقيه به أم لا.

يفتح الله به عليهم من طريق الاجتهاد والنظر والتدبر في كتاب الله تعالى . وقد وصل إلينا كثير من أقوال التابعين في كتب التفسير قالوها بطريق الاجتهاد ولم يصل إلى علمهم فيها شيء عن رسول الله ﷺ أو عن أحد من الصحابة ، والذي دعاهم إلى ذلك هو أن الرسول ﷺ لم يفسر جميع آيات القرآن وإنما فسر ما أشكل فهمه على الصحابة ، ثم تزايدت الحاجة إلى الشرح والإيضاح شيئاً فشيئاً بمقدار بعد الناس عن عصره ﷺ وصحابه فاحتاج المشتغلون بالتفسير من التابعين إلى إكمال تفسير الآيات التي لم يصل إلى علمهم فيها شيء عن رسول الله وصحابه معتمدين على ما عرفوه من لغة العرب وعلى ما صح لديهم من الأحداث التي عاصرت نزول القرآن وغير ذلك من أدوات البحث ووسائل المعرفة .

أشهر مدارس التفسير في عصر التابعين:

ولما انقضى عصر الصحابة أو كاد وصار الأمر من بعدهم إلى تلاميذهم من التابعين انتشر الإسلام وبدأت رقعة تتسع شيئاً فشيئاً ، وتفرق الصحابة في الأقطار موزعين على جميع البلاد التي دخلت في حظيرة الإسلام ، فكان منهم الولاة والقضاة والمعلمون ، وقد حمل هؤلاء معهم إلى البلاد التي انتقلوا إليها ما حفظوه من العلم عن رسول الله ﷺ فتعلمذ عليهم كثير من التابعين وشدت إليهم الرحال لطلب العلم ، فقامت بسبب ذلك مدارس للتفسير في أغلب هذه البلاد برئاسة كبار الصحابة .

فقامت مدرسة⁽¹⁾ للتفسير بمكة وأخرى بالمدينة وثالثة بالعراق . وهذه المدارس الثلاث هي أشهر مدارس التفسير في الأمصار الإسلامية في هذا العهد .

1 - مدرسة التفسير بمكة :

وقد قامت على عبد الله بن عباس - رضي الله عنه - ترجمان القرآن ، فكان

(1) المدرسة المقصود بها هنا معناها الواسع وهو دائرة الحركة العلمية لا البناء الخاص بالتعليم . (فجر الإسلام، أحمد أمين، ط 965م، ص 152).

يجلس لأصحابه من التابعين ويوفر لهم كتاب الله تعالى موضعاً لهم ما أشكل عليهم من معانيه .

وعبد الله بن عباس الذي كان ذا قلب عقول ولسان سؤول، كما وصفه عمر ينطلق في تفسيره للقرآن من نشأته وتكوينه العقلي اللذين كانا يمدانه بمقوماته ويعينانه عليه، فقد عاش على مقربة من رسول الله ﷺ طفلاً وصبياً، كما تأثر بكثير من أعلام الصحابة إلى جانب إحاطته بالآثار الأدبية المتمثلة في الشعر وروايته، يعينه على ذلك حافظة واعية وذاكرة وقادة .

وقد تتلمذ على يديه كثير من التابعين اشتهر من بينهم سعيد بن جبير ومجاهد بن جبر وعكرمة مولا وطاووس بن كيسان اليماني وعطاء بن أبي رباح، وهم يختلفون في الرواية عن ابن عباس قلة وكثرة، وهؤلاء هم الذين خرّج عنهم الإمام البخاري ما وجد في صحيحه من التفسير مسنداً إلى ابن عباس .

يقول ابن تيمية: «وأما التفسير فإن أعلم الناس به أهل مكة لأنهم أصحاب ابن عباس كمجاهد وعطاء بن أبي رباح وعكرمة وغيرهم من أصحاب ابن عباس كطاووس وأبي الشعثاء وسعيد بن جبير وأمثالهم»⁽¹⁾.

2 - مدرسة التفسير بالمدينة :

وإلى جانب مدرسة التفسير بمكة كانت هناك مدرسة ثانية نشأت وترعرعت بالمدينة المنورة، وقد قامت على أبي بن كعب الذي كانت له الشهرة أكثر من غيره من الصحابة رغم أن المدينة كان بها كثير من الصحابة الذين لم يغادروها ولم يرق لهم مفارقتها لاحتضانها رسول الله ﷺ حياً وميتاً . وقد تتلمذ عليه كثير من التابعين اشتهر من بينهم ثلاثة هم : زيد بن أسلم العدوي المدني الفقيه المفسر المتوفى سنة 136 هـ، ومحمد بن كعب القرظي المدني المتوفى سنة 118 هـ، وأبو العالية رفيع بن مهران الرياحي المتوفى سنة 90 هـ، وهؤلاء منهم من أخذ عن أبي بن كعب التفسير مباشرة ومنهم من أخذه عنه بالواسطة .

(1) مقدمة في أصول التفسير، ص 61.

3 - مدرسة التفسير بالعراق :

وإلى جانب مدرستي مكة والمدينة كانت هناك مدرسة ثالثة نشأت بالعراق، وقد قامت على عبد الله بن مسعود - رضي الله عنه - الذي كان قد سكن الكوفة عندما أرسله عمر بن الخطاب أثناء خلافته معلماً ووزيراً، وإن كان هناك غيره من الصحابة أخذ عنهم أهل العراق التفسير إلا أن عبد الله كان له القدح المعلى على غيره من الصحابة نظراً لشهرته في التفسير، لذلك كان أهل العراق يفضلون الاستماع إليه أكثر من غيره، وقد تميزت هذه المدرسة بكثرة الرأي والاجتهاد، ويقول العلماء: إن عبد الله بن مسعود هو الذي وضع الأساس لهذه الطريقة في الاستدلال، ثم توارثها عنه علماء العراق، ومن الطبيعي أن تؤثر هذه الطريقة على التفسير فيكثر تفسير القرآن بالرأي والاجتهاد⁽¹⁾.

وأشهر رجال هذه المدرسة علقمة بن قيس المتوفى سنة 61 هـ ومسروق بن عبد الرحمن المتوفى سنة 63 هـ والأسود بن يزيد النخعي المتوفى سنة 64 هـ والحسن البصري المتوفى سنة 110 هـ وقتادة بن دعامة السدوسي المتوفى سنة 117 هـ وغيرهم. هؤلاء هم مشاهير المفسرين من التابعين، وأغلب أقوالهم في التفسير قد تلقوها عن الصحابة الذين كانوا بمثابة همزة الوصل بينهم وبين رسول الله ﷺ وقليل منها رجعوا فيه إلى أهل الكتاب وما وراء ذلك فمحض اجتهاد لهم، ومن غير شك أنهم كانوا على مبلغ عظيم من العلم ودقة من الفهم لقرب عهدهم من عهد النبوة واتصال ما بين العهدين بعهد الصحابة، بالإضافة إلى أن سليقتهم العربية لم يدنسها اللحن الذي وجد فيها بعد.

ثم حمل أتباع التابعين أمانة العلم فحافظوا على هذا التراث وزادوا عليه بمقدار ما زاد من الغموض وما جدَّ من اختلاف في الرأي، وهكذا حتى وصل إلينا دين الله وكتابه عن طريق التلقي والمشافهة جيلاً بعد جيل، مصداقاً لقوله تعالى: ﴿إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون﴾⁽²⁾.

(1) التفسير والمفسرون؛ 1 : 118.

(2) سورة الحجر، الآية 9. وانظر مناهل العرفان 1: 490.

قيمة التفسير المنقول عن التابعين:

التفسير الذي يرد عن أحد التابعين فيه خلاف بين العلماء فبعضهم عده من المأثور، لأن الغالب أنهم تلقوه عن الصحابة - رضوان الله عليهم - .

وبعضهم عده من التأويل والتفسير بالرأي والاجتهاد لكثرة اختلافهم أكثر من الصحابة . قال الزركشي في البرهان: وفي الرجوع إلى قول التابعي روايتان عن أحمد، واختار ابن عقيل المنع⁽¹⁾. وقال شعبة بن الحجاج وغيره - حسبما نقل ابن تيمية - : «أقوال التابعين في الفروع ليست حجة فكيف تكون حجة في التفسير» يريد بهذا - كما يقول ابن تيمية - أنها لا تكون حجة على غيرهم ممن خالفهم⁽²⁾، «لكن عمل المفسرين على خلافه فقد حكوا في كتبهم أقوالهم لأن غالبها تلقوها عن الصحابة»⁽³⁾.

والتحقيق أنهم إن أجمعوا على شيء فلا يرتاب في كونه حجة ويكون تلقوه عن الصحابة، أما إذا اختلفوا فلا يكون قول بعضهم حجة على بعض ولا على من بعدهم . وحينئذ يرجع المفسر للقرآن إلى لغة القرآن أو السنة أو عموم لغة العرب أو أقوال الصحابة في ذلك فهي الطرق التي يستفاد منها التفسير الصحيح⁽⁴⁾. وذلك لأن التابعين لم يشاهدوا نور النبوة فيغلب على الظن - عند اختلافهم - أن ما يروى عنهم من تفسير القرآن إنما هو من قبيل الرأي لهم فليس له قوة المرفوع إلى النبي ﷺ كما أن ما ينقل عنهم من تفسير يندر فيه الإسناد الصحيح⁽⁵⁾، وكذلك نجد أن عدالة التابعين غير منصوص عليها كما هو الحال في عدالة الصحابة، ولهذا نقل عن أبي حنيفة قوله: ما جاء عن رسول الله ﷺ فعلى العين والرأس، وما جاء

(1) البرهان في علوم القرآن 2: 158، وابن عقيل: هو عبد الله بن محمد بن عقيل، ذكره ابن سعد في الطبعة الرابعة من أهل المدينة.

(2) مقدمة في أصول التفسير ص 105.

(3) البرهان في علوم القرآن 2: 158.

(4) مقدمة في أصول التفسير ص 105. وانظر الإسرائيليات والموضوعات في التفسير ص 83.

(5) مناهل العرفان في علوم القرآن 1: 490.

عن الصحابة تخيرنا، وما جاء عن التابعين فهم رجال ونحن رجال⁽¹⁾.

بالإضافة إلى هذا وذاك نجد أن تفسير التابعين اختلطت به اسرائيليات وخرافات دخلت إليه من زنادقة الفرس تارة ومن بعض مسلمة أهل الكتاب تارة أخرى إما بحسن نية وإما بسوء قصد⁽²⁾.

هذا وقد رويت عن التابعين في التفسير روايات كثيرة ولا سيما تلاميذ ابن عباس: مجاهد بن جبر وسعيد بن جبيرة وعكرمة مولاة وعطاء بن أبي رباح، وغيرهم. وقد ذكر ابن جرير الطبري في تفسيره، (جامع البيان في تفسير القرآن) كثرة كائنة، كما ذكر السيوطي في (الدر المنثور) والبغوي في تفسيره وابن كثير وغيرهم.

مميزات التفسير في زمن التابعين:

تميز التفسير في زمن التابعين بالسلمات الآتية:

1 - بقي التفسير محتفظاً بطابع التلقي والرواية كما كان في عهد الصحابة وعهد الرسول ﷺ غير أن التلقي والرواية في هذه المرحلة قد دخلهما الاختصاص فبعد أن كانا عامين في عصر الصحابة صارا في هذه المرحلة يغلب عليهما جانب الاختصاص، بمعنى أن أهل كل بلد يعنون بالتلقي والرواية عن إمام بلدهم، فأهل مكة عن ابن عباس، وأهل العراق عن عبد الله بن مسعود وهكذا.

2 - ظهرت في الأفق بوادر الاختلاف المذهبي وبخاصة في العقائد فظهرت بعض التفاسير التي تحمل في طياتها هذه المذاهب.

3 - دخل في التفسير كثير من الإسرائيليات⁽³⁾ وذلك لكثرة من دخل من أهل

(1) التفسير والمفسرون 1: 128، واللاقي الحسان في علوم القرآن، موسى شاهين، ط 1، 1968م، ص 367.

(2) مناهل العرفان 1: 490.

(3) الاسرائيليات: جمع اسرائيلية نسبة إلى بني اسرائيل لعجز المركب الإضافي. واسرائيل: هو يعقوب - عليه السلام - وبني اسرائيل: هم أبناء يعقوب ومن تناسلوا منهم فيما بعد.

الكتاب في الإسلام، وكانوا لا يزالون قريبين عهد بالأخبار التي تتصل ببدء الخليقة وأسرار الوجود وكثير من القصص، وكانت النفوس ميالة لسماع التفاصيل عما يشير إليه القرآن من أحداث تتعلق بتلك الأشياء، فتساهل بعض التابعين في رواية هذه الإسرائيليات في التفسير لإشباع رغبات الناس في هذا الخصوص دون تحرر أو حيلة لاعتقادهم أن الناس يستطيعون التفريق بين ما يتفق مع تعاليم الإسلام وما لا يتفق .

4 - كثرة الاختلاف في التفسير عن ذي قبل، وإن كان هو يعد قليلاً بالنسبة لما وقع بعد ذلك في العصور التي تلت التابعين⁽¹⁾.

التفسير بعد عصر التابعين:

وبعد انتهاء المرحلة الثانية بدأت المرحلة الثالثة وهي أطول المراحل التفسيرية زمناً حيث أنها تمتد من بداية عهد التدوين حتى يومنا هذا .

إلا أن التفسير في هذه المرحلة الزمنية الطويلة مرّ خلالها بأدوار وخطوات، فبعد أن كان التفسير يلقي شفاهاً أصبح مدوناً، وأصبح التناقل عن طريق الكتابة بعد أن كان عن طريق الذاكرة والفكر . وقد اندرج في أول الأمر وفي بداية التدوين تحت علم الحديث وكان باباً من أبوابه، ولم يتناول جميع الآيات القرآنية، فرجال الحديث طوّقوا في الأمصار يجمعون أحاديث رسول الله وبعض هذه الأحاديث تتعلق بالتفسير، كما أنها تضم أقوال الصحابة والتابعين .

ومن أشهر الرجال الذين قاموا بذلك: شعبة بن الحجاج المتوفى سنة 160 هـ، وسفيان الثوري المتوفى سنة 161 هـ، ووکیع بن الجراح المتوفى سنة 197 هـ، وسفيان بن عيينة المتوفى سنة 198 هـ، وإيزيد ابن هارون المتوفى سنة 206 هـ، وعبد الرزاق الصنعاني المتوفى سنة 211 هـ، وكان هؤلاء جميعاً من رجال الحديث وكان جمعهم للتفسير يعتبر جمعاً للحديث، ولم يكن جمعهم للتفسير على انفراد واستقلال بل كان باباً من أبواب الحديث، «وقد ضاع أكثر هذه التفاسير فلم يبق منها إلا تفسير سفيان الثوري وقد طبع حديثاً بالهند وتفسير عبد الرزاق بن همام

(1) انظر التفسير والمفسرون 1: 130.

الصنعاني شيخ الإمام البخاري، وتفسيره مخطوط محفوظ بدار الكتب المصرية وتوجد نسخة منه بمكتبة اسطنبول بتركيا، وتفسير مقاتل بن سليمان الذي جمع نسخه وحققه الدكتور عبد الله محمود شحاتة⁽¹⁾.

ثم جاءت بعد هؤلاء طبقات أخرى ألّفت في التفسير، وبذلك خطا التفسير خطوة أخرى وهي خطوة هامة انفصل فيها عن الحديث وفسرت فيه جميع آيات القرآن، وكان مرتباً على حسب ترتيب المصحف الشريف، وكان من بين هؤلاء المفسرين ابن ماجه المتوفى سنة 173، وأبو بكر بن المنذر النيسابوري المتوفى سنة 318، ومحمد بن جرير الطبري المتوفى سنة 310، وابن أبي حاتم المتوفى سنة 327.

وكان التفسير في هذه المرحلة مقتصراً على الرواية وهو ما عرف فيما بعد بالتفسير المأثور⁽²⁾، وقد ضم ابن جرير الطبري إلى ذلك رأيه في التفسير، فإنه ذكر الأقوال ووجهها ورجح ما اختاره منها وزاد على ذلك الإعراب إن دعت إليه الحاجة واستنبط الأحكام من بعض الآيات القرآنية.

ثم خطا التفسير خطوة لم تكن معهودة من قبل وهي حذف الأسانيد فاشتغل كثيرون بالتصنيف والجمع ولكنهم لا ينسبون الأقوال إلى أصحابها، ولهذا اختلط الصحيح بغيره، ولما جاء من بعدهم نقلوا كل ما وجدوه في هذه الكتب التي ألّفها من قبلهم، فدخلت التفسير على أنها صحيحة واعتبرت حقائق ثابتة فيما بعد. ومن هنا أصبح المجال واسعاً لدخول الموضوعات والإسرائيليات التي وجدت في كتب التفسير⁽³⁾، وربما اهتم بعض من اشتغل بالتفسير بجمع شتات الأقوال دون

(1) علوم التفسير، د. عبد الله محمود شحاتة، المكتبة الثقافية 316، سنة 1975م، ص 36.

(2) المأثور اسم مفعول من أثرت الحديث نقلته، والأثر اسم منه، وحديث مأثور أي منقول ينقله خلف عن سلف، والتفسير بالمأثور هو التفسير بما جاء في القرآن نفسه من البيان والتفصيل لبعض آياته وما نقل عن الرسول ﷺ وما نقل عن الصحابة وما نقل عن التابعين من كل ما هو بيان وتوضيح لمراد الله تعالى من نصوص كتابه الكريم. (التفسير والمفسرون 1: 152).

(3) فقد ذكروا في قصص الأنبياء وفي بدء الخلق وظاهرة الزلازل وقصة يأجوج ومأجوج وبرودة الماء الذي في الآبار في الصيف وحرارته في الشتاء أشياء لا يصح أن تذكر في تفسير أعظم كتاب عرفته البشرية، وما لا يتفق مع الحقائق العلمية. (أنظر مناهل العرفان 1: 500).

التحري فيما ينقل وبدون التفات إلى تحرير ما ورد عن السلف ومدى صحة نسبته إليهم، ظاناً أن كل ما ورد عنهم صحيح.

ثم خطا التفسير خطوة واسعة امتدت إلى وقتنا هذا، ألا وهي بداية ظهور التفسير العقلي أو التفسير بالرأي، فبعد أن كان جل اهتمام المفسر منصباً على الرواية بدأ للعقل مجال وأخذ التفسير العقلي يظهر، وأول بداية لذلك كانت بالموازنة بين الآراء وترجيح بعضها على بعض، ثم ازداد في الظهور فدونت العلوم العقلية ودون النحو والصرف، وتشعبت مذاهب الخلاف الفقهي وظهر التعصب المذهبي، وقامت الفرق الإسلامية بنشر مذاهبها والانتصار لها والدفاع عنها، وترجمت كتب الفلسفة ودخلت هذه العلوم والمعارف في التفسير وغلب الجانب العقلي على الجانب النقل والدراية على الرواية، ولكن على الرغم من ذلك فإنه لم يخل ما كتب في التفسير من التفسير بالمأثور وبالأخص فيما يتعلق بالأمور التي لا يستطيع العقل أن يستقل بفهمها وإدراكها، كأسباب النزول وموضوع النسخ وغيرهما «بل وجد من المؤلفين في عصور مختلفة من استطاع أن يقاوم التيار العقلي في التفسير ويفسر القرآن تفسير نقلياً كما فعل ابن كثير المتوفى سنة 774 هـ والسيوطي المتوفى سنة 911 هـ في كتابه الدر المنثور في التفسير بالمأثور»⁽¹⁾.

ثم ألفت بعد ذلك كتب يغلب عليها التأويل والتفسير الاجتهادي لعلماء برعوا في بعض العلوم وبرزوا فيها فصار كل واحد منهم يميل بالتفسير إلى إبراز ما برع فيه، فالنحوي تراه يعرض للتفسير من حيث الإعراب والوجوه المحتملة فيه وغيرها كما فعل الزجاج وأبو حيان، وصاحب العلوم العقلية يذكر في تفسيره أقوال الحكماء والفلاسفة وشبههم ويرد عليها كما فعل الرازي.

والفقيه يغلب على تفسيره الجانب الفقهي واستنباط الأحكام من الآيات وإقامة الأدلة عليها، كما فعل القرطبي والخصاص وغيرهما. والإخباري يغلب على تفسيره ذكر القصص عمن مضى من الأنبياء والأمم والملوك، كما فعل الثعلبي

(1) الضمير والمفسرون: 148:1.

والخازن، وهكذا كل بارع في علم من العلوم غلب على تفسيره ذلك العلم⁽¹⁾.

كما ظهرت - في الوقت نفسه - تفسيرات المبتدعة والباطنية⁽²⁾ والملاحدة⁽³⁾ والشيعية والمعتزلة، اتجهوا بالتفسير ناحية مذاهبهم، وفي سبيل ذلك لوأعنان النصوص إلى خدمة مذاهبهم وخرجوا بها عن معانيها الظاهرة وقواعد اللغة وأصول الشريعة، وإن كان المعتزلة - والحق يقال - أقل المذاهب انحرافاً لقوة أدلتهم وعمق تفكيرهم والتزامهم عربية القرآن واستماتتهم في الدفاع عنه.

فلتأمل في تفسير جار الله محمود بن عمر الزغشري (الكشاف) يجده خدّم القرآن خدمة جليّة وأظهر بلاغة القرآن، ولولا ما فيه من آراء اعتزالية لكان أحسن تفسير في باب، ولهذا كان على المطلع على تفسيره أن يدقق في تعبيره ويحترس كثيراً في فهمه.

وهكذا نجد القرآن الكريم قد ملك على الناس مشاعرهم واستأثر بعنايتهم التي لم يحظ بها كتاب من قبل ولا من بعد، فدرسوا كل شيء يتعلق به.

وهكذا تستمر حركة التفسير بين مد وجز وبين تفسير طويل وتفسير مختصر وتفسير بسيط. وقد ألفت بداية من عصر النهضة الحديثة تفاسير لبعض العلماء فيها محاولات للتجديد والابتكار وطريقة العرض منها ما شمل القرآن كله ومنها ما اقتصر فيه على بعض الأجزاء أو السور، ومنها المقبول الجيد المفيد ومنها غير ذلك. وقد غلب عليها اللون الأدبي الاجتماعي، وبعض محاولات للتفسير العلمي الذي هو موضوع هذا البحث.

(1) رجعت في هذا الموضوع إلى: مناهل العرفان في علوم القرآن للشيخ محمد عبد العظيم الزرقاني 500:1، والتفسير والمفسرون 1: 145-148.

(2) الباطنية: فرقة من الفرق الضالة قالوا: للقرآن ظاهر وباطن والمراد منه باطنه دون ظاهره، ونسبة الباطن إلى الظاهر كنسبة اللب إلى القشر. (الاسرائيليات ص 108).

(3) قوم مالوا عن الحق إلى الباطل ويطعنون في دين الإسلام بنشر الآراء الضالة والأفكار الزائفة مستترين بالإسلام (المراجع السابق ص 109).

المبحث الثالث: التفسير بالرأي وموقف العلماء منه.

تقدم بيان معنى التفسير، أما الرأي فهو يطلق بعدة إطلاقات⁽¹⁾ : يطلق ويراد منه الاعتقاد، جاء في لسان العرب «والرأي : الاعتقاد اسم لا مصدر والجمع آراء»⁽²⁾. ويطلق ويراد به القياس ومنه قولهم : أصحاب الرأي يعنون أصحاب القياس «والمحدثون يسمون أصحاب القياس أصحاب الرأي يعنون أنهم يأخذون بأرائهم فيما يشكل من الحديث أو ما لم يأت فيه حديث ولا أثر»⁽³⁾.

ويطلق الرأي ويراد به الاجتهاد وهو المراد هنا، وعليه فالتفسير بالرأي هو: الكشف عن معاني القرآن بالاجتهاد بعد إلمام المفسر بكلام العرب وطريقتهم في القول ومعرفته للألفاظ العربية ووجوه دلالتها ووقوفه على أسباب النزول ومعرفة الناسخ والمنسوخ.

موقف العلماء منه:

وقف المفسرون من التفسير بالرأي موقفين متعارضين، فبعضهم تشدد في ذلك ومنع أن يفسر القرآن بمجرد الاجتهاد. ورأى أنه لا يجوز لأحد الإقدام على ذلك، وإن كان على درجة عالية من العلم وإنما له أن ينتهي إلى ما ورد عن النبي ﷺ وعن الصحابة الذين شهدوا الوحي والتنزيل أو عن الذين أخذوا عنهم من التابعين⁽⁴⁾.

ومن ذهب إلى هذا ابن تيمية فهو يقول: «فأما تفسير القرآن بمجرد الرأي فحرام»⁽⁵⁾.

وقوم من العلماء كان موقفهم على العكس من ذلك فلم يروا بأساً أن يفسر

(1) الرأي في الأصل مصدر رأى الشيء يراه رأياً، ثم غلب استعماله على المرنى نفسه من باب استعمال المصدر في المفعول، والعرب تفرق بين مصادر هذا الفعل بحسب مجاها فتقول: رأى كذا في النوم رؤيا ورآه في اليقظة رؤية ورأى كذا - لما يعلم بالقلب ولا يرى بالعين - رأياً، ولكنهم خصوه لما يراه القلب بعد فكر وتأمل وطلب لمعرفة وجه الصواب. (أعلام الموقعين، لابن قيم الجوزية، ط دار الكتب الحديثة، 69:1).

(2) لسان العرب 300:14.

(3) المرجع نفسه.

(4) مقابلة التفسير، الراغب الأصفهاني، ص 422.

(5) مقابلة أصول التفسير ص 105.

القرآن بالاجتهاد، فمن كان على قدر من المعرفة بالمؤهلات التي تجعله أهلاً لهذه المهمة فلا عليه أن يفسر باجتهاده بشرط أن يلزم نفسه بمراعاة أساليب اللغة العربية التي نزل بها القرآن وقواعد الشريعة العامة وأصولها.

وكل من المانعين والمجوزين يعزز رأيه ويقويه بالأدلة.

أولاً: المانعون وأدلتهم:

1 - الخشية من القول على الله بغير علم: لأن المفسر بالرأي ليس على يقين بأنه أصاب ما أراد الله تعالى ولا يمكنه أن يجزم بما يقول، وغاية الأمر أنه يقول بالظن والقول بالظن قول على الله بغير علم، والقول على الله بغير علم حرام، كما يدل عليه قوله تعالى: ﴿وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ﴾⁽¹⁾. وقوله تعالى: ﴿وَأَنْ تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾⁽²⁾ المعطوف على المحرمات في قوله: ﴿قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّي الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ... الخ﴾.

وقد ردّ المجوزون هذا الدليل بعدم التسليم بأن الظن قول على الله بغير علم، إذ هو نوع من العلم لأنه إدراك الطرف الراجح، وعلى فرض التسليم بأنه ليس كذلك فالظن إنما يكون منهيّاً عنه إذا كان الوصول إلى العلم اليقيني القطعي ممكناً بأن يوجد نص قاطع من نصوص الشرع أو دليل عقلي موصل لذلك، أما إذا لم يوجد شيء من ذلك فالظن كاف لأنه هو الذي في الإمكان في هذه الحالة، والله تعالى لا يكلف نفساً إلا وسعها، وهو نوع من الاجتهاد، المخطيء له أجر والمصيب له أجران.

2 - أن الله تعالى أضاف البيان إلى رسوله ﷺ مأموراً بالبيان ولكنه لحق بالرفيق الأعلى ولم يبين كل شيء في القرآن، فما ورد عنه فلا مجال للرأي فيه، وما لم يرد عنه فيه شيء ففيه مجال لأولي العلم بعده.

3 - ورد في السنة ما ظاهره تحريم القول في القرآن بالرأي، فمن ذلك ما

(1) سورة الإسراء، الآية 36.

(2) سورة الأعراف، الآية 33.

رواه الترمذي وأبو داود عن جندب أنه قال: قال رسول الله ﷺ: «من قال في القرآن برأيه فأصاب فقد أخطأ»⁽¹⁾. وما رواه الترمذي - أيضاً - وأبو داود عن ابن عباس - رضي الله عنهما - عن النبي ﷺ أنه قال: «اتقوا الحديث عني إلا ما علمتم، فمن كذب علي متعمداً فليتبوأ مقعده من النار، ومن قال في القرآن برأيه فليتبوأ مقعده من النار»⁽²⁾.

وقد أجاب المجوزون عن هذين الحديثين الدالين على المنع بأن المراد بالرأي فيها الرأي الخالي من الدليل. أما الرأي الذي يعضده الدليل فالقول به جائز، أو أن المراد به من قال في القرآن برأيه من غير معرفة منه بأصول العلم وفروعه فتكون موافقته للصواب إن وافقه من حيث لا يعرفه غير محمودة فهي رمية من غير رام، كما يتضح ذلك من عبارة المانعين، يقول ابن تيمية - وهو من المانعين - : (بمجرد الرأي) أي الرأي المحض الذي لا تشهد له سنة أو لغة، ولذلك نجد الألوسي يذكر في تفسيره - بعد أن ساق الحديثين متقدمي الذكر - أنه لا دليل في ذلك - أي في الحديثين - أما - أولاً؛ - فلأن في صحة الحديث الأول مقالاً، قال في المدخل: في صحته نظر. وإن صح فإنما أراد به - والله أعلم - فقد أخطأ الطريق، إذ الطريق الرجوع في تفسير ألفاظه إلى أهل اللغة وفي نحو الناسخ والمنسوخ إلى الأخبار، وفي بيان المراد منه إلى صاحب الشرع، فإن لم يجد هناك وهنا فلا بأس بالفكرة ليستدل بما ورد على ما لم يرد، أو أراد من قال في القرآن قولاً يوافق هواه بأن يجعل المذهب أصلاً والتفسير تابعاً له فيرد إليه بأي وجه فقد أخطأ، أو يقال ذلك في المتشابه الذي لا يعلمه إلا الله تعالى. أو في الجزم بأن مراد الله كذا على القطع من غير دليل.

وأما الحديث الثاني فله معنيان:

الأول: من قال في مشكل القرآن بما لا يصح فهو متعرض لسخط الله تعالى.

(1) سنن الترمذي: أبواب التفسير، 2: 157. وسنن أبي داود، دار الكتب العلمية بيروت، 3: 320.
(2) المرجعان السابقان وفي مسند الإمام أحمد ومن قال في القرآن بغير علم فليتبوأ مقعده من النار مسند ابن عباس.

والثاني: - وصحح - من قال في القرآن قولاً يعلم أن الحق غيره فليتبوأ مقعده في النار.

وأما ثانياً فلأن الأدلة على جواز الرأي والاجتهاد في القرآن كثيرة، وهي تعارض ما يشعر بالمنع - ا هـ -⁽¹⁾.

4 - موقف بعض السلف الصالح من الصحابة والتابعين المتشدد في تفسير القرآن بالرأي، فهذا أبو بكر الصديق - رضي الله عنه - يقول - وقد سئل عن تفسير شيء من القرآن: «أي سماء تظلي وأي أرض تقلني وكيف أصنع وأين أذهب إذا قلت في حرف من كتاب الله بغير ما أراد الله تبارك وتعالى».

كما ورد عن سعيد بن المسيب أنه كان إذا سئل عن الحلال والحرام تكلم وإن سئل عن تفسير آية من القرآن سكت كأن لم يسمع شيئاً⁽²⁾.

وورد عن الشعبي أنه قال: «ثلاث لا أقول فيهن حتى أموت: القرآن والروح والرأي»⁽³⁾. والأصمعي - إمام اللغة المشهور - كان مع علمه الواسع شديد الاحتراز في تفسير القرآن، فإذا سئل عن معنى شيء من ذلك يقول: العرب تقول: معنى هذا كذا ولا أعلم المراد منه في الكتاب والسنة⁽⁴⁾، وغير هذا كثير من الآثار الدالة على تحفظ السلف عن تفسير القرآن بالرأي.

وقد أجاب المجوزون عن هذه الآثار بما يلي:

أولاً: بأنها معارضة بما يخالفها فقد روي عن الصديق - رضي الله عنه - أنه سئل عن الكلاله المذكورة في القرآن فقال: «أقول فيها برأبي فإن كان صواباً فمن

(1) روح المعاني 6:1.

(2) جامع البيان في تفسير القرآن 29:1، وقد روي الأثر بروايات مختلفة.

(3) المرجع السابق 29:1.

(4) الموافقات، طبعة محمد صبيح 1970م، 3:287.

الله، وإن كان خطأ فمني ومن الشيطان: الكلاله كذا وكذا⁽¹⁾، فلما استخلف عمر - رضي الله عنه - قال: «إني لأستحي من الله تبارك وتعالى أن أخالف أبا بكر في رأي رأاه»⁽²⁾.

فسكوت أبي بكر كان عما لا يعلم بدليل قوله: «إذا قلت في القرآن بغير ما أعلم» ويدلّل أنه تكلم في أحكام الشريعة بما علم، وليس الكلام في القرآن بأعظم خطراً من الكلام في الأحكام إذ الكل كلام في دين الله تعالى.

وأما الأصمعي فإن كان امتناعه عن الكلام بما لا يعلم فهو غاية التوفيق وعين الصواب وإن كان مع العلم فذلك إما جود وجبن وإما خروج إلى السلامة واكتفاء بمن تكلم فيه قبله وفي عصره من الأئمة⁽³⁾.

ثانياً: بأن امتناع بعض علماء السلف عن القول في تأويل القرآن وتفسيره إنما كان منهم خشية ألا يبلغوا أداء ما كلفوا به من إصابة القول فيه لا على أن ذلك ممنوع عن علماء الأمة، ولهذا روي عن هؤلاء وغيرهم أقوال في التفسير ولا منافاة لأنهم تكلموا فيما علموه وسكتوا عما جهلوه، وهذا هو الواجب على كل أحد فإنه كما يجب السكوت عما لا علم له به يجب القول فيما سئل عنه مما يعلمه لقوله تعالى: ﴿لَتبَيِّنَنَّهُ لِلنَّاسِ وَلَا تَكْتُمُونَهُ﴾⁽⁴⁾. ولقد روي عن كثير من الصحابة القول في تفسير القرآن مثل: علي بن أبي طالب وعبد الله بن مسعود وعبد الله بن عباس وأبي بن كعب، فلولا أن تفسير القرآن جائز لمن كان أهلاً له لما فعلوه لأنهم كانوا أشد الناس ورعاً وتقوى وخوفاً من الله تعالى. كما ورد التفسير عن كثير من التابعين كسعيد بن المسيب ومجاهد بن جبر والحسن البصري وغيرهم مما يتضح منه أن امتناع من امتنع منهم إنما كان زيادة احتياط ومبالغة في الورع، بالإضافة إلى عدم تعين ذلك عليهم لوجود من هو أهل لذلك.

(1) جامع البيان 4: 191، 192.

(2) المصدر نفسه 2: 192.

(3) الأكسري في علم التفسير، تحقيق: د. عبد القادر حسين، ص 10.

(4) سورة آل عمران الآية 178، وانظر مقدمة ابن تيمية ص 114.

ولذلك نجد ابن تيمية يعقب على مثل هذه المواقف بقوله : «فهذه الآثار الصحيحة وما شاكلها عن أئمة السلف محمولة على تخرجهم عن الكلام في التفسير بما لا علم لهم به ، فأما من تكلم بما يعلم من ذلك لغة وشرعاً فلا حرج عليه ، ولهذا روي عن هؤلاء وغيرهم أقوال في التفسير ، ولا منافاة لأنهم تكلموا فيها علموه وسكتوا عما جهلوه»⁽¹⁾.

ويقول أبو جعفر الطبري في هذا المقام :

«وأما الأخبار التي ذكرناها عن ذكرناها من التابعين بإحجامه عن التأويل فإن فعل من فعل ذلك منهم كفعل من أحجم منهم عن الفتيا في النوازل والحوادث ، مع إقراره بأن الله جل ثناؤه لم يقبض نبيه إليه إلا بعد إكمال الدين به لعباده ، وعلمه بأن الله في كل نازلة وحادثة حكماً موجوداً بنص أو دلالة فلم يكن إحجامه عن القول في ذلك إحجام جاحد أن يكون الله فيه حكم ، ولكن إحجام خائف ألا يبلغ في اجتهاده ما كلف الله به العلماء من عباده . فكذلك إحجام من أحجم عن القول في تأويل القرآن وتفسيره من علماء السلف إنما كان إحجامه عنه حذراً ألا يبلغ أداء ما كلف من إصابة صواب القول فيه ، لا على أن ذلك محجوب عن علماء الأمة غير موجود بين أظهرهم»⁽²⁾.

ثانياً : المجيزون وأدلتهم :

وإذا كانت الأدلة التي استند إليها المانعون للتفسير بالرأي قد أجاب عنها المجيزون بما يجعلها غير ذات جدوى ، وإن علماء الأمة سلفاً وخلفاً قد قالوا في التفسير باجتهادهم مما لم يثبت أخذه بخصوصه من الشرع فقد اتضح أن التفسير بالرأي جائز إذا توفرت لصاحبه أسبابه ومسوغاته .

وقد اعتضد هذا الرأي بالأدلة الآتية :

1 - ورود نصوص كثيرة في القرآن تحت على التدبر والاعتبار بآياته والانتعاز

(1) مقدمة في أصول التفسير ص 114 .

(2) جامع البيان في تفسير القرآن 1: 30.

بعضاته، ولا يعقل أن يكون هناك اعتبار واتعاظ بغير فهم قال تعالى: ﴿أفلا يتدبرون القرآن ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافاً كثيراً﴾⁽¹⁾، وقال تعالى مبكثاً من أعرضوا عن ذكره: ﴿أفلا يتدبرون القرآن أم على قلوب أقفالها﴾⁽²⁾، وقال تعالى: ﴿كتاب أنزلناه إليك مبارك ليدبروا آياته وليتذكر أولو الألباب﴾⁽³⁾.

2- إن النبي ﷺ دعا لابن عباس - رضي الله عنه - بقوله: «اللهم فقهه في الدين وعلمه التأويل» ووجه دلالة هذا الدعاء على الجواز أنه لو كان التأويل مقصوراً على النقل والسمع لم تكن هناك فائدة لتخصيصه ابن عباس بهذا الدعاء، فدل ذلك على أن التأويل الذي دعا به رسول الله لابن عباس أمر آخر وراء النقل والسمع.

3- ثبت عن الصحابة أنهم قرؤوا القرآن واختلفوا في تفسير بعض آياته على وجوه، ومعلوم أنهم لم يسمعوا كل ما قالوه في التفسير من النبي ﷺ إذ لم يبين لهم كل معاني القرآن فلا بد أن يكونوا توصلوا إلى فهم بعضه بعقولهم واجتهادهم. فلو كان التفسير بالرأي محظوراً لكان الصحابة قد خالفوا ووقعوا فيما حرم الله، ونحن نعيدهم من ذلك.

4- لو كان التفسير بالرأي ممنوعاً لوجب أن يكون الاجتهاد ممنوعاً ويستغني عن العقل، والثاني باطل فباب الاجتهاد لم يقفل لمن كان أهلاً للنظر والبحث بعيداً عن جهالة الغرور مستوفياً لشرائط الاجتهاد، والنبي ﷺ لم يفسر جميع آيات القرآن، فلو كان غير جائز لفات كثير من الأحكام والآداب وألوان المعارف والعلوم التي اشتمل عليها القرآن الكريم.

هذه هي أدلة المانعين وأدلة المجيزين، والناظر فيها قد يبدوله أن الخلاف بينهما على حقيقته، ولكن عند التأمل في أدلة المانعين ومعرفة سر تشددهم،

(1) سورة النساء، الآية 82.

(2) سورة محمد، الآية 23.

(3) سورة ص، الآية 29.

وبالرجوع إلى الشروط التي وضعها المجيزون يستفاد من هذا الوضع أشياء⁽¹⁾:

منها: التحفظ من القول في كتاب الله تعالى إلا على بينة، فإن الناس في العلم بالأدوات المحتاج إليها في التفسير على ثلاث طبقات:

أحداها: من بلغ في ذلك مبلغ الراسخين في العلم كالصحابة والتابعين ومن يليهم وهؤلاء قالوا مع التوقي والتحفظ والهيبة والخوف من الهجوم فنحن أولى بذلك منهم إن ظننا بأنفسنا أننا في العلم والفهم مثلهم وهيئات.

والثانية: من علم من نفسه أنه لم يبلغ مبلغهم ولا داناهم، فهذا طرف لا إشكال في تحريم ذلك عليه.

والثالثة: من شك في بلوغه مبلغ أهل الاجتهاد أو ظن ذلك في بعض علومه دون بعض فهذا أيضاً داخل تحت حكم المنع من القول فيه، وكل أحد فقيه نفسه في هذا المجال.

ومنها: أن من ترك النظر في القرآن واعتمد في ذلك على من تقدمه ووكّل إليه النظر فيه غير ملم، وله في ذلك سعة إلا فيما لا بد له منه وعلى حكم الضرورة، فإن النظر فيه يشبه النظر في القياس، وما زال السلف الصالح يتخرجون من القياس فيما لا نص فيه كما يتخرجون من القول في القرآن.

ومنها: أن يكون على بال من الناظر والمفسر للقرآن أنه كلام الله وعند تفسيره له يقول بلسان بيانه: هذا مراد الله من هذا الكلام فليثبت أن يسأله الله تعالى من أين قلت عني هذا؟ فلا يصح له ذلك إلا ببيان الشواهد وإلا فمجرد الاحتمال يكفي أن يقول: يحتمل أن يكون المعنى كذا وكذا بشرط أن تكون صحيحة راجعة إلى أصل معتبر وإلا كانت غير معتبرة ودخل صاحبها تحت أهل الرأي المذموم الذي يصدق عليه قول سيدنا عمر بن الخطاب - رضي الله عنه - : «إنما أخاف عليكم رجلين: رجل يتأول القرآن على غير تأويله، ورجل ينافس

(1) الموافقات للشاطبي، 3: 287-289.

الملك على أخيه»⁽¹⁾، وقوله أيضاً: «ما أخاف على هذه الأمة من مؤمن ينهائهم إيمانهم، ولا من فاسق بين فسقه ولكن أخاف عليها رجلاً قد قرأ القرآن حتى أذلّقه بلسانه ثم تأوله على غير تأويله»⁽²⁾.

قال القرطبي: النهي عن التفسير بالرأي يحمل على أحد وجهين:

أحدهما: أن يكون له في الشيء رأي وإليه ميل من طبعه وهواه فيتأول القرآن على وفق رأيه وهواه ليحتج على تصحيح غرضه.

أما الوجه الثاني: فإنه يتسارع إلى تفسير القرآن بظاهر العربية من غير استظهار بالسماع والنقل فيما يتعلق بغرائب القرآن، وما فيه من الألفاظ المبهمة، ومن الاختصار والحذف والاضمار والتقديم والتأخير. فمن لم يحكم ظاهر التفسير وبادر إلى استنباط المعاني بمجرد فهم العربية كثر غلطه ودخل في زمرة من فسر القرآن بالرأي، والنقل والسماع لا بدّ منه في ظاهر التفسير أولاً ليتقي به مواضع الغلط، ثم بعد ذلك يتسع الفهم والاستنباط - اهـ -⁽³⁾.

ومن هنا يتلخص لنا أمران:

الأول: أن تفسير القرآن بالرأي والاجتهاد نوعان:

النوع الأول: التفسير المذموم وهو التفسير من غير إلمام بالعلوم التي لا بد منها للمفسر بل هو مجرد تخمين دون تدقيق في اللغة ولا في مقاصد القرآن وأسرار الشريعة، أو الاعتداد على البادرة تبدو للقارئ دون أن يتدبر الآية وموقعها من سورتها وأسباب نزولها، وما يوافقها من آيات وآثار أو يخالفها، وشر منه التفسير بالهوى والاستحسان الذي يحمل الآيات القرآنية على ما يقتضيه هواه أو مذهبه دون نزاهة في البحث ولا عناية بالتدبر ولا تجرد عن الهوى. وهذا هو مورد الذم، وعليه يحمل قول القائلين بالمنع.

(1) الموافقات في أصول الأحكام 3: 285.

(2) المرجع نفسه 3: 285.

(3) الجامع لأحكام القرآن 1: 33 وما بعدها.

النوع الثاني: التفسير الممدوح المقبول وهو التفسير المبني على المعرفة الكاملة بالعلوم اللغوية والقواعد الشرعية غير معارض لنقل صحيح ولا عقل سليم، مع بذل غاية الوسع في البحث والاجتهاد، وكان مع ذلك موافقاً للأسلوب العربي والمألوف من أسلوب القرآن، ومنسجماً مع أحكامه ومقاصده.

الأمر الثاني:

أن كلاً من التفسير بالمأثور والتفسير بالرأي المقبول لا ينفك أحدهما عن الآخر، فالتفسير بالمأثور لا يمكن الاقتصار عليه والاكتفاء به، لأن ذلك يؤدي إلى ترك كثير مما يحتاج إلى تفسير من آيات القرآن وسوره.

والتفسير بالرأي لا يستغني هو الآخر عن النقل، لأن المفسر يحتاج إلى ما ورد فيما يتعلق بأسباب النزول والناسخ والمنسوخ وغيرهما من الأمور التي لا يستغني عنها المفسر، ولا بد له من معرفتها، لأنها ترشده إلى المعاني الحقيقية وهي أمور لا طريق إلى العلم بها إلا بالرجوع إلى النقل والسمع.

وما من شك في أن التفسير بالرأي حتى مع استيفائه جميع الشروط التي تجعله عموداً مقبولاً لا مسوغ له إذا عارضه التفسير بالمأثور الذي ثبت لنا بالنص القطعي، لأن الرأي اجتهاد ولا مجال للاجتهاد في مورد النص. أما إذا لم يكن تعارض بين التفسير بالرأي والتفسير بالمأثور فكل منهما يؤيد الآخر ويثبتته⁽¹⁾.

العلوم التي ينبغي توفرها في المفسر

تمهيد:

من حق كل إنسان أن يفهم القرآن لنفسه في حدود إدراكه ومعارفه، ولكن لا يباح أن يفسره للناس من ليس من ذوي الدراية به والأهلية، فمن لم تتوفر فيه

(1) مباحث في علوم القرآن، د. صبحي الصالح، ط 7، 1972م، ص 293.

أسباب التفسير يحرم عليه أن يقوم به حتى يسلم القرآن الكريم من جهل الجاهلين وعبث العابثين وضلال المضلين، وكما لا يجوز للمهندس أن يزاول علاج المرضى، ولا للطبيب أن يمارس الهندسة لأن كليهما لا يحسن مهنة غيره بل يسيء إليها إذا مارسها، فكذلك لا يجوز لغير العالم المتمكن من أسباب التفسير ومقوماته أن يمارسه حتى لا يقول فيه بما يفسد المراد من كلام الله رب العالمين فيضل الناس عن سواء السبيل، لأن الاجتهاد في أي مجال إنما يباح لذوي الخبرة به والدراية⁽¹⁾. ومن هنا وجب على الذي يريد أن يفسر القرآن ويشرح آياته الكريمة أن يعتمد على أسس تعصمه من الوقوع في الخطأ وتحميه من القول على الله بغير علم، وهذه الأسس هي اعتياده على جملة من العلوم، وهذه العلوم هي:

1 - علم اللغة: لأنه بهذا العلم يعرف شرح مفردات الألفاظ ومدلولاتها بحسب الوضع، ولا يكفيه معرفة السير منها، فقد يكون اللفظ مشتركاً وهو يعلم أحد المعنيين والمراد الآخر⁽²⁾.

2 - علم النحو: لأن المعنى يختلف باختلاف الإعراب، ويلاممه بعلم النحو يدرك ذلك.

3 - علم الصرف: لأن به تعرف الأبنية والصيغ، نقل السيوطي عن ابن فارس قوله: «ومن فاته علمه - التصريف - فاته المعظم لأن وجد (مثلاً) كلمة مبهمة فإذا صرفناها اتضحت بمصادرها»⁽³⁾. وقال الزمخشري - وهو بصدد قوله تعالى: ﴿يَوْمَ نَدْعُو كُلَّ أَنَسٍ بِأَمَامِهِمْ﴾⁽⁴⁾ - : «ومن بدع التفاسير أن الإمام جمع أم وأن الناس يدعون يوم القيامة بأسمائهم وأن الحكمة في الدعاء بالأسماء دون الأبناء رعاية حق عيسى - عليه السلام - وإظهار شرف الحسن والحسين وألا يفتضح

(1) التفسير في العصر الحديث، الشيخ مصطفى الطبر الحديدي، ط مجمع البحوث الإسلامية، ص 175.

(2) الانتقان 2: 180.

(3) الانتقان 2: 180. وانظر ما قدمناه على هذه المائة (وجد) في الفرق بين التفسير والتأويل.

(4) سورة الإسراء، الآية 71.

أولاد الزناه⁽¹⁾. ثم يعلق الزغشري على هذا القول وليت شعري أيهما أبدع؟
أصحة لفظه أو بهاء حكمته؟ - اهـ -⁽²⁾. هذا الغلط أوقعه فيه جهله بالتصريف،
فإن أما لا تجمع على إمام⁽³⁾ وإنما تجمع على أمهات وأمات⁽⁴⁾.

4 - إمامه بعلم الاشتقاق: لأن الاسم إذا كان مشتقاً من مادتين مختلفتين
اختلف المعنى باختلافهما كالنبي أهو من النبا بمعنى الخبر فهو مخبر - بكسر الباء - عن
الله فهو فعيل بمعنى فاعل أو مخبر - بفتح الباء - منه فهو فعيل بمعنى مفعول، أو من
النُبة بمعنى الرفعة. وليس من شك في أن المعنى يتغير بتغير أصل الاشتقاق.

5 - إمامه بعلوم البلاغة (المعاني والبيان والبديع) ولعلمي المعاني والبيان
- على وجه الخصوص - مزيد اختصاص بعلم التفسير لأنها وسيلة لإظهار
خصائص البلاغة القرآنية وما تشتمل عليه الآيات من تفاصيل المعاني وإظهار وجه
الإعجاز البياني. قال الزغشري في تفسيره: «علم التفسير الذي لا يتم لتعاطيه
وإجالة النظر فيه كل ذي علم، فالفقيه وإن برز على الأقران في علم الفتاوى
والأحكام، والمتكلم وإن برز أهل الدنيا في صناعة الكلام، وحافظ القصص
والأخبار وإن كان من ابن القرية⁽⁵⁾ أحفظ، والواعظ وإن كان من الحسن البصري
أوعظ، والنحوي وإن كان أنحى من سيبويه، واللغوي وإن علك اللغات بقوة
لحيه لا يتصدى منهم أحد لسلوك تلك الطرائق ولا يغوص من شيء من تلك

(1) تفسير الكشاف، ط بولاق، 1: 459.

(2) نفس المرجع.

(3) الاتقان 2: 181. وقد نسب ذلك إلى الزغشري.

(4) انظر غتار الصحاح ص 25.

(5) ابن القرية: هو أحد بلغاء العرب وخطيب يضرب به المثل، يقال أبلغ من ابن القرية، والقرية: أمه
وقيل جدته، كان إعرابياً يتردد إلى غربي الكوفة، فاتصل بالحجاج بن يوسف فأعجب بحسن منطقه
فأوفده على عبد الملك بن مروان، ولما خلع ابن الأشعث الطاعة بسجستان بعثه الحجاج إليه رسولاً
فالتحق به وشهد معه موقعة (دير الجماجم) بظاهر الكوفة، فلما انهزم ابن الأشعث سبق ابن القرية
أسيراً فقال للحجاج: أقتلي عثرتي واسقني ريشي فإنه ليس جواد إلا كان له كبرة ولا شجاع إلا له
هفوة ولا صارم إلا له نبوة فأبى ثم أمر بقتله، ولما رآه قتيلاً قال: لو تركناه حتى نسمع من كلامه.
الاعلام للزركلي 1: 381. وفيات الأعيان 1: 250 وما بعدها.

الحقائق إلا رجل قد برع في علمين مختصين بالقرآن وهما علم المعاني وعلم البيان» اهـ⁽¹⁾.

6 - الإحاطة بالأحاديث النبوية ليستعين بها على معرفة المجمل والمبهم وغير ذلك مما جاءت السنة شارحة ومبينة له.

7 - العلم بأسباب النزول والظروف التي لا بدت هذا النزول، إذ أن معرفة ذلك تعين على فهم المراد من الآية، والجهل بأسباب النزول يوقع في اللبس والإبهام فتفهم الآية أو الآيات على غير وجهها.

8 - 9 - علم أصول الفقه وأصول الدين: لأن بالأول معرفة الإجمال والتبيين والعموم والخصوص والإطلاق والتقييد، ودلالة الأمر والنهي، وهي أمور لا بد من معرفتها للمفسر. وبالثاني يستطيع أن يستدل على ما يجب في حقه تعالى وما يجوز وما يستحيل، وأن ينظر في الآيات المتعلقة بالنبوات والمعاد والنصوص المتشابهة نظرة صائبة.

10 - علم الناسخ والمنسوخ: وبه يعرف المحكم من غيره وهو أمر مهم في الاهتداء إلى صحيح الأحكام.

11 - العلم بعادات العرب وتقاليدهم وأحوالهم الاجتماعية، فقد كان القرآن ينزل لتصحيح الأوضاع والإرشاد إلى القيم الرشيدة والأخلاق الفاضلة، محارباً الرذائل والعبث والإلحاد راداً دعاوى المشركين مفنداً حججهم «وكيف يفهم المفسر ما قبخته الآيات من عوائدهم على وجه الحقيقة أو ما يقرب منها إذا لم يكن عارفاً بأحوالهم وما كانوا عليه»⁽²⁾.

(1) تفسير الكشاف ج 1 المقدمة ص 3.

(2) تفسير المنار 24:1. وقد ذكر العلماء لذلك أمثلة منها قوله تعالى: ﴿وَأَتَمُوا الْحَجَّ وَالْعُمْرَةَ لِلَّهِ﴾، فهي أمر بالانتهاء دون الأمر بأصل الحج، ذلك لأن العرب كانوا قبل الإسلام يحجون ولكن مع تغيير بعض الشرائع ونقص جملة منها كالوقوف بعرفة وشبه ذلك مما غيروا، فجاء الأمر بالانتهاء لذلك، وجاء النص على إيجاب الحج في قوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ عَلَى النَّاسِ حَجُّ الْبَيْتِ مِنْ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا﴾ آل عمران. (انظر أصول الفقه للشيخ محمد الحصري، ط 1 ص 254).

12 - علم القراءات : إذ بمعرفة القراءة يمكن ترجيح بعض الوجوه المحتملة على بعض .

13 - أن يكون المفسر ملماً بالعلوم الكونية بحيث يمكنه أن يفسر القرآن دون أن يخالف شيئاً أثبتته العلم اليقيني بحيث يستطيع توضيح المعنى الصحيح الذي لا تناقض فيه بين العلم والقرآن ودون خروج على أصول اللغة وقواعد التفسير .
وبالجملة فكل علم يتوقف عليه تفسير شيء من كتاب الله تعالى تجب على المفسر معرفته ، وإلا كان غير مستوف لشروط التفسير .

وهذه العلوم إنما هي لتحقيق أعلى مراتب التفسير ، وهو الذي أشار إليه البيضاوي في مقدمة تفسيره بقوله : « لا يليق لمتعاطيه - التفسير - والتصدي للتكلم فيه إلا من برع في العلوم الدينية كلها أصولها وفروعها ، وفي الصناعات العربية والفنون الأدبية بأنواعها »⁽¹⁾ . أما المعاني العامة التي يستشعر منها المرء عظمة الله والتي يفهمها الإنسان عند إطلاق اللفظ الكريم فهي قدر يكاد يكون مشتركاً بين عامة الناس وهو المأمور به للتدبر والتذكر لأنه سبحانه سهله ويسره⁽²⁾ ولقد يسرنا القرآن للذكر فهل من مدكر⁽³⁾ .

المبحث الرابع: مفهوم التفسير العلمي.

كان الغرض الأول من تفسير القرآن عند قدماء المفسرين من الصحابة والتابعين تبين مراد الله تعالى في العقيدة والأحكام الشرعية المنبثقة عنها والآداب التي جاء بها القرآن لإصلاح النفس وتزكيتها ، والرفع من شأن الفرد والجماعة . وعندما دونت العلوم العربية والعلوم العقائدية والعلوم الكونية وتشعبت مذاهب الخلاف الفقهي وأثيرت مسائل الكلام ، وقامت الفرق الإسلامية بنشر مذاهبها والدعوة إليها ، وترجمت علوم السابقين تعددت مذاهب التفسير وتنوعت مناهجه

(1) أنوار التنزيل وأسرار التأويل ج 1 : المقدمة .

(2) مناهل العرفان 519:1 .

(3) سورة القمر ، الآيات 17 ، 22 ، 32 ، 40 .

واختلفت اتجاهاته ومقاصده، فكان هناك التفسير بالرأي المحمود والتفسير بالرأي المذموم الذي يمثل الاتجاهات المنحرفة في تفسير كتاب الله تعالى، وكان هناك التفسير الموضوعي والتفسير الصوفي والتفسير العلمي.

فما هو التفسير العلمي؟

تقدم معنى كلمة (التفسير) لغة واصطلاحاً. أما العلم فهو في اللغة مصدر يرادف الفهم والمعرفة ويرادف الجزم أيضاً عندما يقابل بالظن أو الشك أو الوهم، ثم تداولت هذا اللفظ اصطلاحات مختلفة، فهو عند الحكماء (صورة الشيء الحاصلة في العقل) وعند المتكلمين (صفة - يتجلى بها الأمر لمن قامت به) أما عند الماديين المحدثين فهو خاص باليقينيات التي تستند على الحس وحده⁽¹⁾.

أما في موضوع البحث فإن المقصود به هو العلوم الكونية والمعارف والصنائع وما جد ويجد في العالم من فنون ومعارف كعلم الهندسة والحساب والهيئة والاقتصاد والاجتماع والطبيعة والكيمياء والحيوان والنبات وعلم طبقات الأرض.

وهذا التفسير للعلم مأخوذ من موقف العلماء الذين تناولوا التفسير العلمي أخذاً ورداً. أما العلوم التي تتصل بالقرآن من ناحية قرآنية أو تتصل به من ناحية هدايته أو إعجازه، والتي تتمثل في العلوم الدينية والعلوم العربية فهي من علوم القرآن. أما العلوم الأولى فإنها وإن دعا القرآن إلى تعلمها وحذقها والتمهر فيها فلا تعدّ من علومه لأن القرآن لم ينزل ليدلّل على نظرية من نظريات الهندسة (مثلاً) ولا ليقرر قانوناً من قوانينها، وكذلك علم الهندسة لم يوضع ليخدم القرآن في شرح آياته أو بيان أسرارها، وهناك فرق كبير بين الشيء يحث القرآن على تعلمه في عموماته أو خصوصاته، وبين العلم يدل القرآن على مسأله أو يرشد إلى أحكامه، أو يكون ذلك العلم خادماً للقرآن بمسأله أو أحكامه أو مفرداته، فالأول لا يعتبر من علوم القرآن بخلاف الثاني⁽²⁾ إلا إذا أردنا من العلم كل ما يدل عليه من

(1) انظر مناهل العرفان 5:1، 6.

(2) مناهل العرفان 17:1.

المعارف سواء كانت دلالة عليه بالتصريح أم بالتلميح وسواء كانت عن قرب أم بعد، وهو ما جرى عليه أصحاب الاتجاه العلمي في التفسير قديماً وحديثاً، وهذه هي نقطة الخلاف بين المانعين للتفسير العلمي وبين المجيزين له.

وقد اعتبر الدكتور محمد الغمراوي التفسير العلمي شاملاً لما عدا الناحية البلاغية⁽¹⁾ فهو - عنده - يشمل الناحية النفسية وكيف أن القرآن نزل ليقود النفس طبق قوانين الفطرة. ويشمل الناحية التشريعية وكيف نزلت أحكام القرآن طبق قوانين الفطرة للأفراد والجماعات. كما يشمل الناحية التاريخية التي لم يكن يعلمها البشر عند نزول ما اتصل بها من آيات القرآن ثم كشف عنها التنقيب الأثري فيما بعد.

وبعد أن عرفنا معنى التفسير ومعنى العلم صار من الممكن معرفة معنى التفسير العلمي، وقد ذكرت له عدة تعريفات:

1 - فقد عرفه الأستاذ أمين الخولي - وتابعه كثير من الباحثين كالدكتور محمد حسين الذهبي في كتابه «التفسير والمفسرون»⁽²⁾ بأنه «التفسير الذي يحكم الاصطلاحات العلمية في عبارات القرآن ويجهد في استخراج مختلف العلوم والآراء الفلسفية منها»⁽³⁾.

2 - وعرفه الدكتور عبد المجيد عبد المحتسب بأنه «التفسير الذي يتوخى أصحابه إخضاع عبارات القرآن للنظريات والاصطلاحات العلمية وبذل أقصى الجهد في استخراج مختلف مسائل العلوم والآراء الفلسفية منها»⁽⁴⁾.

وهذان التعريفان - كما هو ملاحظ - متقاربان وإن اختلفا في بعض الألفاظ. ويمكن أن يلاحظ عليهما أمران:

(1) الإسلام في عصر العلم ص 221.

(2) التفسير والمفسرون ح 140:3.

(3) مناهج تجديد، ط 1 ص 287.

(4) اتجاهات التفسير في العصر الحديث، ط 1، 1973م، ص 247. ومعنى (يتوخى أصحابه) يتحرّون ويقصدون.

الأمر الأول: أن فيها عبارات يفهم منها التحامل على هذا اللون من التفسير مثل: (يحكم الاصطلاحات العلمية في عبارات القرآن) ومثل: «إخضاع عبارات القرآن للنظريات... الخ». وعلى ذلك فكل من يقرأ هذا التعريف أو ذاك وليس له إلمام بهذا الاتجاه في التفسير يحكم عليه بأنه غير جازئ لأنه يخضع عبارات القرآن للنظريات العلمية المتغيرة. وعلى ذلك يمكن أن يقال: إن كل من يعرفه بهذا الشكل إنما يعرفه من وجهة نظره المانعة لهذا الاتجاه في التفسير.

الأمر الثاني: أن هذين التعريفين للتفسير العلمي لا يدلان على الصورة التي يريدونها أصحابه والقاتلون به إذ أنهم لا يعترفون بأنهم في تفسيرهم يحكمون الاصطلاحات العلمية في عبارات القرآن أو يخضعونها للنظريات العلمية - وإن كان قد وقع من بعضهم ذلك - وإنما يقصدون خدمة القرآن ببيان وجه من وجوه الإعجاز فيه وتقريب فهمه إلى عقول الناس في وقت ضعفت فيه الملكات اللغوية وغزا فيه العلم كل شيء في حياة الناس.

ولعل أقرب تعريف للتفسير العلمي الذي يتمشى مع الواقع هو ما عرفه به بعض العلماء بقوله هو:

«التفسير الذي يتحدث عن الاصطلاحات العلمية في القرآن ويجتهد في استخراج مختلف العلوم والآراء الفلسفية منها»⁽¹⁾.

ولنا أن نقول في تعريفه:

هو التفسير الذي يحاول فيه المفسر فهم عبارات القرآن في ضوء ما أثبتته العلم، والكشف عن سر من أسرار إعجازه، من حيث أنه تضمن هذه المعلومات العلمية الدقيقة التي لم يكن يعرفها البشر وقت نزول القرآن، فدل ذلك على أنه ليس من كلام البشر ولكنه من عند الله خالق القوى والقدر.

(1) د. بكرى شيخ أمين، التعبير الفني في القرآن، ط 1 1973م، ص 125.

البَابُ الْأَوَّلُ

فصل تمهیدی

موقف القرآن من العلم .
العلم الذی دعا إلیه القرآن .
لا تعارض من بین القرآن والعلم .

الفصل الأول

فصل تمهيدي

الفصل الاول

فصل تمهيدي

موقف القرآن من العلم:

إن موقف القرآن الكريم من العلم يتضح من الآيات التي تفوق الحصر والتي جاءت موجهة العقل الإنساني إلى دراسة الكائنات التي حوله بتأمل وحرية فكر، وإلى الإقبال على العلوم على اختلاف أنواعها وطلب المزيد منها، فإن القرآن ينادي في الناس ﴿قل انظروا ماذا في السموات والأرض وما تغني الآيات والنذر عن قوم لا يؤمنون﴾⁽¹⁾، ﴿أولم ينظروا في ملكوت السموات والأرض وما خلق الله من شيء﴾⁽²⁾، ﴿أولم يتفكروا في أنفسهم ما خلق الله السموات والأرض وما بينهما إلا بالحق وأجل مسمى﴾⁽³⁾، ﴿إن في السموات والأرض لآيات للمؤمنين وفي خلقكم وما يبث من دابة آيات لقوم يوقنون﴾⁽⁴⁾، ﴿وفي الأرض آيات للموقنين وفي أنفسكم أفلا تبصرون﴾⁽⁵⁾، إلى غير ذلك من الآيات التي تحت على النظر والدراسة والاستفادة من ذلك في الوصول إلى الحقيقة.

كما نجد القرآن - بجانب ذلك - يقرع بأسلوب لاذع من يهملون عقولهم ويكونون أتباعاً لغيرهم، ويتوعددهم بأن جهنم ستكون مقرهم ومشواهم، ويجعلهم

(1) سورة يونس، الآية 101.

(2) سورة الأعراف، الآية 185.

(3) سورة الروم، الآية 8.

(4) سورة الجاثية، الآية 3-6.

(5) سورة الذاريات، الآية 35، 12.

أقل درجة من الحيوان الأعجم ، لأنهم أهدروا عقولهم وإنسانيتهم وانحطوا بها إلى مستوى الحيوان الذي لا عقل له ولا إدراك فكانوا عن الحق غافلين . يقول القرآن الكريم : ﴿ ولقد ذرأنا لجهنم كثيراً من الجن والإنس لهم قلوب لا يفقهون بها ولهم أعين لا يبصرون بها ولهم أذان لا يسمعون بها أولئك كالأنعام بل هم أضل أولئك هم الغافلون ﴾ (1).

كما حث الناس أيضاً على الجلوس في حلقاته والتفصح فيها كلما قدم عليهم قادم حتى تستوعب مجالسه كل راغب فيه ﴿ يأيها الذين آمنوا إذا قيل لكم تفسحوا في المجالس فافسحوا يفسح الله لكم وإذا قيل انشزوا فانشزوا يرفع الله الذين آمنوا منكم والذين أوتوا العلم درجات ﴾ (2).

كما أوجب - في الوقت نفسه - على أهل العلم نشره بين الناس وتعليم الراغبين فيه وحرمة كتمانها ، كما قال تعالى : ﴿ إن الذين يكتُمون ما أنزلنا من البينات والهدى من بعد ما بيناه للناس في الكتاب أولئك يلعنهم الله ويلعنهم اللاعنون إلا الذين تابوا وأصلحو وبينوا فأولئك أتوب عليهم وأنا التواب الرحيم ﴾ (3). روى البخاري عن أبي هريرة - رضي الله عنه - أنه قال : إن الناس يقولون : أكثر أبر هريرة ولولا آيتان في كتاب الله ما حدثت حديثاً ثم تلا : إن الذين يكتُمون إلى قوله : وأنا التواب الرحيم (4).

كما جعل القرآن من الشروط المهمة لمن يتولى أمراً من أمور الناس أن يكون على قدر من العلم ، يشير إلى ذلك اختيار (طالوت) ملكاً على بني إسرائيل في فترة من فترات التاريخ ، لما اتصف به من العلم ، مع صفات أخرى أهله لذلك قال تعالى : ﴿ وقال لهم نبيهم إن الله قد بعث لكم طالوت ملكاً قالوا أنى يكون له الملك علينا ونحن أحق بالملك منه ولم يؤت سعة من المال قال إن الله اصطفاه

(1) سورة الأعراف ، الآية 179.

(2) سورة المجادلة ، الآية 11.

(3) سورة البقرة ، الآية 159.

(4) كتاب العلم باب حفظ العلم ، انظر فتح الباري لشرح البخاري 1: 224.

عليكم وزاده بسطة في العلم والجسم ﴿١﴾.

وهذا نبي الله يوسف - عليه السلام - يعتز بصفة العلم جاعلاً إياها وسيلة إلى تولي المسؤوليات العامة التي تخدم المجتمع ﴿قال اجعلني على خزائن الأرض إني حفيظ عليم﴾ (١).

كما نجد القرآن يشير إلى أن العالم ينبغي أن تكون له شخصيته المستقلة، وتفكيره الخاص به ولا يكون تبعاً لغيره ممن لا علم عنده، لأن من حرم العلم حرم الخير كله، ومن لم يتحل بالمعرفة لا يصح أن يكون قدوة، وهذا المعنى نجده في كثير من آيات القرآن.

ومن أشد المشوقات إلى العلم الداعية إلى تحصيله وطلبه ودراسته قصر الصفات التي تتطلع إليها النفوس العالية وتستريح إليها القلوب الواعية على أهل العلم وحدهم لأنهم بما أوتوا من علم وحكمة يدركون عظمة الخالق من عظمة المخلوق. يقول تعالى: ﴿إنما يخشى الله من عباده العلماء﴾ (٣).

كما خص القرآن أهل العلم وحدهم بفهم الأمثال التي يضررها للناس وكشف ما فيها من أسرار وما ترمي إليه من مقاصد وأهداف، يقول الحق: ﴿وتلك الأمثال نضربها للناس وما يعقلها إلا العالمون﴾ (٤)، وقد جاءت هذه الآية بعد أن ضرب العنكبوت مثلاً للأولياء والشركاء والآلهة التي يتخذها بعض الناس من دون الله، ويقرر أن أوهم البيوت بيت العنكبوت، ثم يبحث قارئ القرآن على معرفة هذا الضعف المتناهي، ثم يعقب بعد ذلك بأن العلماء وحدهم هم الذين يعقلون الأمثال التي يضررها القرآن للعنكبوت وغيرها. وفي هذا حث على طلب

(1) سورة البقرة، الآية 245.

(2) سورة يوسف، الآية 55. وقد أخذ بعض العلماء من هذا أن الإنسان إذا كان كفواً في عمل من الأعمال ولم يكن غيره في كفاءته تعين عليه طلب ذلك العمل، مبيناً كفاءته لقيامه به، ويكون ذلك من النصيحة التي يقدمها لأولي الأمر حتى يتمكن من خدمة المجتمع بتوليته القيام بذلك العمل. وله عند الله ثواب كبير إن لم يقصد غرضاً آخر كتراسة أو جمع مال لمصلحته الشخصية أو جاه وسلطان.

(3) سورة فاطر، الآية 28.

(4) سورة العنكبوت، الآية 43.

العلم واستخدام العقل لمعرفة أسرار الخلق وقدرة الخالق المبدع الحكيم .

والقرآن لم يجعل حداً للعلم يقف الإنسان عنده بل أشار إلى أنه بحر لا ساحل له قال تعالى: ﴿وَفَوْقَ كُلِّ ذِي عِلْمٍ عَلِيمٌ﴾⁽¹⁾، فمن ظن أن العلم له غاية فقد غبنه حقه ووضعه في غير منزلته التي وضعه الله فيها حيث يقول: ﴿وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا﴾⁽²⁾، فعلى المسلم أن يبقى صاعداً في سلم العلم باحثاً عنه متقبلاً عن مسأله ولو استغرق ذلك حياته كلها، ولا يقال له عالم إلا إذا كان مثابراً في طلبه لا يكف عن تحصيله . وقد قيل: «لا يزال المرء عالماً ما طلب العلم فإن ظن أنه علم فقد جهل»⁽³⁾.

ولما كان لأهل العلم هذا الامتياز على غيرهم أنكر الله المساواة بينهم وبين غيرهم من الناس فقال تعالى: ﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ﴾. كما حث القرآن على سؤال أهل العلم وطلب منهم أن يتخصصوا في مسأله ليسألهم الناس ويرجعوا إليهم عند الحاجة فقال: ﴿فاسألوا أهل الذكر إن كنتم لا تعلمون﴾⁽⁴⁾. كما نجد القرآن - أيضاً - ينكر أشد الإنكار على المقلدين لأبائهم وأسلافهم المتبعين لهم، المفتفين آثارهم دون تفكير أو نظر وتأمل، يقول القرآن الكريم: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُم اتَّبِعُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا أَوْ لَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ شَيْئًا وَلَا يَهْتَدُونَ﴾⁽⁵⁾. وقد أقام القرآن دعوته على بينة واضحة وحجة نيرة ليس فيها غموض ولا إبهام ﴿قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ عَلَى بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي﴾⁽⁶⁾.

ولمكانة العلم في الإسلام أقسم الله تعالى (بالقلم) «وسميت به سورة من

(1) سورة يوسف، الآية 76.

(2) سورة الإسراء، الآية 85.

(3) تنسب هذه المقالة إلى ابن المبارك/ عن كتاب البيان في مناهج الإسلام، ص 130. خلف محمد الحسيني الهيئة المصرية للكتاب 1975.

(4) سورة النحل، الآية 43.

(5) سورة البقرة، الآية 170، 171.

(6) سورة يوسف، الآية 108.

سور القرآن⁽¹⁾. وهو أول قسم يقع في القرآن باعتباره أداة من أدوات العلم⁽²⁾. كما أقسم بالكتاب وما يكتب فيه من الأدوات في قوله تعالى: ﴿وكتاب مسطور في رق منشور﴾⁽³⁾ كما تؤكد آية سورة التوبة الحظ الواسع على العلم والتعلم، وذلك في قوله جل شأنه: ﴿فلولا نفر من كل فرقة منهم طائفة ليتفقهوا في الدين ولينذروا قومهم إذا رجعوا إليهم﴾⁽⁴⁾ ذهب بعض العلماء إلى أن المقصود بقوله (نفر) الخروج لطلب العلم، وعليه تكون الآية ليست متعلقة بما قبلها من أمر الجهاد. بل تكون المناسبة بينها وبين ما قبلها أنه لما بين وجوب الهجرة والجهاد وكل منهما سفر لعبادة ذكر السفر الآخر وهو الهجرة لطلب العلم. وذهب بعض المفسرين إلى أن المقصود (بالنفر) الخروج للجهاد، فيكون المعنى وما كان المؤمنون لينفروا إلى الجهاد كلهم بل ينبغي أن تخرج طائفة للجهاد وتبقى طائفة تتفقه في الدين، فإذا رجعت الطائفة التي خرجت فقهرتها الباقية وعلمتها ما نزل من الدين والحلال والحرام، وعلى ذلك فالنفر نفير جهاد على أصله⁽⁵⁾. وهذا هو الأصح لوجهه:

أحدها: أن الآية واردة في سياق النفير للجهاد وتوبيخ القاعدين عليه.

ثانيها: أن النفير إنما يكون في الغزو والجهاد، ولا يقال لمن سافر لطلب العلم أنه نفر، ولا يقال للسفر فيه نفير.

ثالثها: أن الآية تكون قد اشتملت على بيان حكم النافرين للجهاد

(1) هي سورة القلم، والثامنة والستون في ترتيب المصحف.

(2) بعض المفسرين كابن جرير الطبري (11:29) يروي أقوالاً عن بعض الصحابة والتابعين تصرف كلمة القلم إلى القلم الرباني الذي أمره الله بتسجيل أحداث الكون على اللوح الرباني، ولكن الظاهر أن في هذا تكلفاً، وأن الكلمة تعني القلم الذي يكتب به الناس، لأنه أتبعه بكلمة (وما يسطرون) ولو كان المراد القلم الإلهي لقال والقلم وما يسطرون، كما أن الإتساق في المعنى والموضوع بين معنى القلم في هذه السورة وفي قوله (الذي علم بالقلم) تقوي هذا التوجيه. (انظر التفسير الحديث، محمد عزة دروزة، طبعة الحلبي، لات، 43:1).

(3) سورة الطور، الآية 2، 3.

(4) سورة التوبة، الآية 112.

(5) وقد ذكر ابن جرير القولين ورجح القول الأول. انظر جامع البيان 50:11 وما بعدها.

والقاعدين لتلقي العلم، فالتافرون أهل الجهاد والقاعدون أهل التفقه في الدين، والدين إنما يتم بالجهاد والعلم.

وعلى القولين فالآية تفيد الترغيب في التفقه في الدين وتعلمه وتعليمه، لأن ذلك يعدل الجهاد في سبيل الله⁽¹⁾.

وقد رفع القرآن منزلة أهل العلم إلى أعلى الدرجات تكريماً للعلم الذي يحملونه فقال: ﴿يرفع الله الذين آمنوا منكم والذين أوتوا العلم درجات﴾⁽²⁾، كما أشاد القرآن بذكر العلماء إلى درجة أن ضم شهادتهم إلى شهادته تعالى وشهادة ملائكته المقربين في الإقرار بوحدانيته وقيامه بالقسط، وهو فخر عظيم لهم ومقام لم يبلغه غيرهم، يقول تعالى: ﴿شهد الله أنه لا إله إلا هو والملائكة وأولو العلم قائماً بالقسط لا إله إلا هو العزيز الحكيم﴾⁽³⁾. وهذا يدل على فضل العلم وأهله من وجوه كثيرة:

منها: الاستشهاد بهم دون غيرهم من المخلوقات في هذا المقام.

ومنها: اقتران شهادتهم بشهادته تعالى وشهادة ملائكته، وفي هذا تزكيتهم وتعديلهم، فإن الله لا يستشهد من خلقه إلا العدول.

ومنها: وصفه تعالى لهم بأنهم أولو العلم. وهذا يدل على اختصاصهم به وأنهم أهله وأصحابه ليس بمستعار لهم.

ومنها: أنه تعالى شهد بنفسه، وهو أعظم شاهد على أعظم مشهود به، ثم بخيار خلقه وهم ملائكته والعلماء من عباده، ويكفيهم هذا فضلاً وشفراً.

ومنها: أنه تعالى جعل شهادتهم حجة على المنكرين، فهم بمنزلة أدلته وبراهينه الدالة على توحيده.

ومنها: أنه تعالى أفرد الفعل المتضمن لهذه الشهادة الصادرة منه ومن ملائكته

(1) انظر تفسر المنار، 79:11.

(2) سورة المجادلة، الآية 11.

(3) سورة آل عمران، الآية 18.

ومن العلماء، ولم يعطف شهادتهم بفعل آخر غير شهادته. وهذا يدل على شدة ارتباط شهادتهم بشهادته سبحانه⁽¹⁾.

يقول الله تعالى مخاطباً نبيه موسى وهارون - عليهما السلام -: ﴿فاستقيما ولا تتبعان سبيل الذين لا يعلمون﴾⁽²⁾. ويقول لنبينا ﷺ: ﴿ولا تتبع أهواء الذين لا يعلمون إنهم لن يغنوا عنك من الله شيئاً﴾⁽³⁾، ويقول له: ﴿ولئن اتبعت أهواءهم بعد الذي جاءك من العلم مالك من الله من ولي ولا نصير﴾⁽⁴⁾ بل العكس هو الصحيح بمعنى أن يكون الذي أوتي العلم متبوعاً لا تابعاً، يقول الله تعالى على لسان نبيه إبراهيم - عليه السلام - مخاطباً أباه: ﴿يا أبت إني قد جاءني من العلم ما لم يأتك فاتبعني أهدك صراطاً سوياً﴾⁽⁵⁾. ولا غرابة في ذلك فإن أول آية نزلت من القرآن الكريم كانت دعوة إلى العلم والقراءة والكتابة ﴿اقرأ باسم ربك الذي خلق خلق الإنسان من علق اقرأ وربك الأكرم الذي علم بالقلم علم الإنسان ما لم يعلم﴾⁽⁶⁾. يقول الرازي في تفسيره: «من النصوص التي تدل على فضيلة العلم قوله تعالى: ﴿اقرأ باسم ربك﴾. ووجه المناسبة بين خلق الإنسان من علق وبين أمره بالقراءة هي أنه تعالى ذكر أول حال الإنسان وهو كونه علقه، وذكر آخر حاله وهو صيرورته عالماً كأنه تعالى قال: كنت في أول أمرك في تلك الدرجة فصرت في آخر حالك في هذه الدرجة التي هي الغاية في الشرف، وهذا إنما يتم لو كان العلم أشرف المراتب إذ لو كان غيره أشرف منه لكان ذكره في هذا المقام أولى - اهـ - بتصرف⁽⁷⁾.

ويقول الأستاذ محمد عبده: «إنه لا يوجد بيان أبرع ولا دليل أقطع على فضل القراءة والكتابة والعلم بجميع أنواعه من افتتاح الله كتابه وابتدائه الوحي

(1) انظر كتاب مفتاح دار السعادة لابن القيم الجوزية، ط دار الكتب العلمية، لات، 48:1.

(2) سورة يونس، الآية 89.

(3) سورة الجاثية، الآية 18.

(4) سورة البقرة، الآية 120.

(5) سورة مريم، الآية 43.

(6) سورة العلق، الآيات 1-5.

(7) مفاتيح الغيب 279:1.

بهذه الآيات الباهرات⁽¹⁾. وقد فهم المسلمون الأولون ما تدعو إليه هذه الآيات فاتخذوا مساجدهم مدارس وجامعات تدرس فيها العلوم على اختلافها وتنوعها، ولم يقتصر الأمر على علوم الدين التي برعوا فيها، بل أخذوا ينقلون من علوم اليونان، وأخذوا الكثير من علوم الهند والفرس وتناولوها بالبحث والتمحيص وأصلحوها ما بها من أخطاء وأكملوا ما بها من نقص، ثم أضافوا إلى ذخيرة الإنسانية علوماً جديدة لم تكن معروفة من قبل، ولم يجدوا حيثئذ من دينهم ما يمنعهم من التعمق في العلم، بل وجدوا ما يشجعهم ووجدوا من أولي الأمر حذراً وعطفاً ومن الناس إقبالا وسعيًا، حتى ازدهرت مدنهم بنور العلم فكثرت الجامعات وقصدها الطلاب من كل صوب وحذب، يرتشفون من مناهلها العذبة ويجدون فيها الإكرام والتوقير⁽²⁾.

العلم الذي دعا إليه القرآن:

العلم الذي دعا إليه القرآن الكريم هو كل علم ينتفع به الإنسان في حياته العاجلة وحياته الآجلة. ويدخل في ذلك دخولاً أولياً العلم الذي يحتاج إليه لتصحيح عقيدته وعبادته ومعاملاته، المشار إليه بقوله ﷺ: «من يرد الله به خيراً يفقهه في الدين»⁽³⁾. ويدخل فيه كل علم ينتفع به في حياته الحاضرة على هذه الأرض التي حث القرآن الكريم في كثير من آياته على الأخذ بأسبابها بالنظر والتأمل وإعمال الفكر وإجراء التجارب، فالعلم في القرآن علم أعم من العلم الذي يراد لأداء الفرائض والشعائر الدينية لأنه عبادة أعم من عبادة الصلاة والصيام إذ كان خير عبادة لله أن يتدي الإنسان إلى سر الله في خلقه وأن يعرف حقائق الوجود في نفسه ومن حوله ﴿سنريهم آياتنا في الآفاق وفي أنفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق﴾⁽⁴⁾، وعليه «فكل معرفة صحيحة فهي معرفة قرآنية

(1) تفسير جزء عم، ط 1 1322 هـ، ص 123.

(2) القرآن والعلم، أحمد محمود سليمان، ط 2 1974 م، المقدمة ص 12.

(3) رواه البخاري في كتاب العلم: باب من يرد الله به خيراً، وفي كتاب فرض الخمس: باب قوله تعالى: فإن الله حسه، ومسلم في كتاب الزكاة: باب النبي عن المسألة.

(4) سورة فصلت، الآية 52.

إسلامية⁽¹⁾، ولهذا كان العلم في مفهوم القرآن يشمل أنواعاً من العلوم:

الأول: العلم المبني على مسلمات البداهة والفطرة التي فطر الله الناس عليها، والمبني أيضاً على قدرة العقل على إثبات الحقائق بالبرهان كالاعتقاد الجازم بحتمية وجود الخالق وحدانيته وأبديته وعدم تناهي كمالاته، وهو المشار إليه في قوله تعالى: ﴿شهد الله أنه لا إله إلا هو والملائكة وأولو العلم قائماً بالقسط﴾⁽²⁾، وفي قوله: ﴿والراسخون في العلم يقولون آمنا به كل من عند ربنا﴾⁽³⁾. وهذا النوع من العلم يجعل الإنسان شاهداً مع الله الكبير المتعال ومع ملائه الأعلى على أعظم حقيقة عقلية ودينية وكونية وهي وحدانيته تعالى وقبوميته على الوجود كله بالقسط.

والنوع الثاني من العلم في المفهوم القرآني: هو العلم المبني على التجارب الحسية في الطبيعة ومشاهدها، وعلى النظر والتأمل في كل ما خلق الله، وعلى استخلاص قوانين التكوين والهدم والتسخير لقوى الطبيعة، وهو المستفاد من قوله تعالى: ﴿إنما يخشى الله من عباده العلماء﴾⁽⁴⁾، بعد سرد الكائنات والمشاهد الكونية التي وردت في صدر الآية الكريمة، وكما هو مستفاد من قوله تعالى: ﴿ومن آياته خلق السموات والأرض واختلاف ألسنتكم وألوانكم إن في ذلك لآيات للعلمين﴾⁽⁵⁾، وقوله: ﴿وهو الذي جعل لكم النجوم لتهتدوا بها في ظلمات البر والبحر قد فصلنا الآيات لقوم يعلمون﴾⁽⁶⁾، إلى غير ذلك من الآيات.

والنوع الثالث من العلم: هو الذي يحصل عن طريق الوحي الإلهي ولا يأتي عن طريق معاناة الحواس أو العقل في إدراكهما الحقائق الحسية أو العقلية كما هو الشأن في النوعين السابقين، وإنما يأتي عن طريق الوحي الإلهي إلى الروح الإنساني

(1) التفكير فريضة إسلامية، عباس العقاد، ط 1، ص 87.

(2) سورة آل عمران، الآية 18.

(3) سورة آل عمران، الآية 7.

(4) سورة فاطر، الآية 28.

(5) سورة الروم، الآية 22.

(6) سورة الأنعام، الآية 97.

المتمثل في الأنبياء والمرسلين، فهو فيض من علم الله تعالى ينزله على قلب من اصطفاه من عباده، مشتملاً على حقائق بعضها من الغيب المحجوب عن العقول كأخبار البعث والقيامة والحشر والحساب والجنة والنار والملا الأعلى، وبعضها من عالم الوقائع والشرائع والنظم في هذه الحياة كأخبار الأمم الماضية والأحكام الصحيحة في الشريعة والاجتماع والاقتصاد. وكل ذلك ينزل بوحى الله للرسول ليعلمه ويبلغه إلى الناس، وفي هذا يقول القرآن: ﴿ولا تعجل بالقرآن من قبل أن يلقى إليك وحيه وقل رب زدني علماً﴾⁽¹⁾. وغير خاف أن النوع الأول من المفاهيم القرآنية للعلم وهو الحكم العقلي هو في الواقع وراء كل علم مستنبط من المشاهدة والتجارب الحسية لأنه هو الذي يستخدمه الفكر لإدراك الحقائق الحسية والنسب والعلاقات بين الأشياء والتميز بينها وتصنيفها واستخراج قوانينها وأسرارها، لأن الحقائق والقوانين الطبيعية لا تنطق بذاتها ولا تخرج إلى عالم الألفاظ وحدها. وإنما يستخرجها الفكر الإنساني إلى عالم الصيغ والألفاظ ويقتنها ويسجلها في سجل العلوم والحقائق الثابتة في ميراث الإنسانية كلها⁽²⁾.

وقد حاول بعض المستشرقين وتبعهم في ذلك بعض المسلمين حصر العلوم التي حث عليها القرآن في علوم الدين وما يتعلق بها فقط، مدعين أنه زمن نزول القرآن كانت العلوم الدينية تعتبر أرفع العلوم شأنًا وأعظمها قدراً والغاية التي يصبو إليها كل مريد للعلم.

ولكنهم يصدرون في هذا عن سطحية وعدم إلمام كامل وصحيح بتاريخ الإسلام عقيدة وتشريعاً وحضارة، لأنه من المعروف عند الباحثين المنصفين، وهو ثابت تاريخياً، أن القرآن حرك أفكار المسلمين وأثار عقولهم للبحث والنظر حتى صارت المباحث العلمية والدينية كلاً واحداً متكاملًا، وأصبحت المساجد بمثابة

(1) سورة طه، الآية 111.

(2) رجعنا في نقطة العلم في المفهوم القرآني إلى مقال بعنوان: (اللقاء بين الدين والعلم في الإسلام) للأستاذ عبد المنعم خلاف منشور في كتاب: (دراسات في العلم والإيمان في الإسلام) ط الشركة التونسية، ص 87.

معاهد علمية تشع العلم والمعرفة في كل مكان⁽¹⁾.

وحسبنا أن القرآن الكريم عندما نوه بفضل العلم وجلال العلماء إنما عنى العلماء الذين يدركون عظمة الخالق من الخلق، وعننى العلم الذي ينشأ من النظر في النبات والحيوان وشؤون الطبيعة الأخرى⁽²⁾.

قال الله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ ثَمَرَاتٍ مُخْتَلِفًا أَلْوَانُهَا وَمِنَ الْجِبَالِ جُدَدٌ بَيَضٌ وَحُمْرٌ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهَا وَغَرَابِيبُ⁽³⁾ سُودٌ. وَمِنَ النَّاسِ وَالدَّوَابِّ وَأَلْأَنْعَامِ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ كَذَلِكَ. إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ﴾⁽⁴⁾ فبتأمل هذه الآية يتضح أنها لم ترد في سياق الكلام على أمر يتعلق بالعبادات أو المعاملات أو الأخلاق، وإنما وردت في سياق الدلالة على قدرة الله وحكمته في إنزال المطر وخلق النبات والحيوان على اختلاف أنواعها وألوانها، «فالذين علموا - بعد البحث - حكمة الله في إنزاله الماء من السماء وكيفية تجمع هذا الماء في مكانه، والذين علموا بديع صنع الله تعالى في إحداث ما يحدث من تفاعلات العناصر الحية في باطن الأرض حتى تتكون فيها أجنة الثمرات المختلفة في طعومها وألوانها وأشكالها ومقاديرها فتخرج بإذن الله طيبة شهية نافعة للإنسان والحيوان. والذين علموا صنع الله وعظيم قدرته في خلقه، ونظروا نظرة تدبر إلى خلق الجبال وتلوينها من طرائق مختلفة وطبقات متنوعة الألوان بين بيض وحمر وسود.

والذين ينظرون نظرة تدبر في خلق الناس وتكوينهم وفي الدواب وخلقها، واختلاف الألوان في الناس والدواب هم الذين يصدق عليهم وصف العالم بالله الذي يعرفه بجلاله وحكمته وقدرته حق معرفته ويخشاه حق خشيته⁽⁵⁾. بل إن علماء الغرب المنصفين قد شهدوا بسبق علماء الإسلام إلى اكتشافات ونظريات

(1) انظر كتاب، مقترحات على الإسلام، أحمد محمد جمال، طبعة الشعب، 1975م، ص 237.

(2) خلق المسلم، محمد الغزالي، ص 270.

(3) غرابيب جمع غريب، وهو الأسود المتناهي في السواد.

(4) سورة فاطر، الآية 27، 28.

(5) القرآن العظيم، هدايته وإعجازه في أقوال المفسرين، محمد عرجون، طبعة مكتبة الكليات الأزهرية، 1966م، ص 268.

وتجارب طبية ورياضية وفلكية واجتماعية كانت مشاغل على الطريق التي أضاعت طريق البحث لأوروبا، وكان من نتائجها حضارتهم العلمية الحديثة⁽¹⁾.

نعم يدعو القرآن إلى هذه العلوم بشرط أن تكون سبيلاً لمعرفة الحق ومرآة صادقة لمعرفة الكون والتي تستلزم بدورها معرفة الله تعالى. وأما العلم الذي يشغل عن الله وعن الحق فهو في قاموس القرآن مرادف للجهل، يقول تعالى: ﴿يَعْلَمُونَ ظَاهِراً مِّنَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ عَنِ الْآخِرَةِ هُمْ غَافِلُونَ﴾⁽²⁾، ويقول: ﴿أَفَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَهِهُ هَوَاهُ وَأَضْلَهُ اللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَىٰ سَمْعِهِ وَقَلْبِهِ وَجَعَلَ عَلَىٰ بَصَرِهِ غِشَاوَةً﴾⁽³⁾.

والقرآن لا يرضى للباحث عن الحقيقة - أيا كانت - أن يبحث عنها في جو من الفوضى التي تحول دون رؤيتها وتعوق عن الوصول إليها، وإنما يطلب منه أن يبحث عنها في جو من الهدوء يبعث على التأمل والتدبر في روية وحكمة، يقول تعالى مخاطباً نبيه ليوجه المكابرين المعاندين من قومه: ﴿قُلْ إِنَّمَا أَعِظُكُم بِوَاحِدَةٍ أَن تَقُومُوا لِلَّهِ مِثْلِيَ شَئٍ فَلْتَأْمِنُوا وَتَتَذَكَّرُوا﴾⁽⁴⁾. والعلم لا يعيش إلا في جو الحرية وفي ظل الحرية الفكرية نهض علماء المسلمين، فلم يقفوا دون علم من العلوم إلا اقتحموا لجنته، ولا فن من فنون المعرفة إلا خاضوا بحره بشغف بالغ وحب للعلم وتقديس للعقل بأسلوب واقعي يجمع بين نظر العقل⁽⁵⁾ وأصالة الفكر، لأن الإسلام دين القوة والحياة فهو يدعو المؤمنين إلى الأخذ بأسبابها فيقول: ﴿وَأَعِدُوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهَبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ﴾⁽⁶⁾. وقد جاءت الكلمة القرآنية معجزة، فإن المراد بالقوة أسبابها وهي ما يكون به القوة، ولما كانت أسباب القوة وهي أسلحة الحرب وآلات القتال تختلف باختلاف

(1) انظر، مقتربات على الإسلام، ص 237.

(2) سورة الروم، الآية 7.

(3) سورة الجاثية، الآية 23.

(4) سورة سبأ، الآية 46.

(5) القرآن العظيم، هدايته وإعجازه في أقوال المفسرين، ص 322.

(6) سورة الأنفال، الآية 60.

العصور جاءت الكلمة على هذه المرونة الفائقة التي جعلتها صالحة لكل زمان ومكان⁽¹⁾. وبدون شك ليست هناك قوة تستطيع أن تحقق هذا الغرض كالعلم، فهو يكشف عن أسرار الكون ويسخرها لمنفعة الإنسان، وبه يستخرج كنوز الأرض ويستغلها لخير البشرية، وبحكمة العلم تستقيم السياسة فتتجه نحو الخير. كما أن العلم يحفظ على الصناعة قوتها ويحدد لها نشاطها ويعمل على نهوضها وتقدمها. والعلم أساس التقدم في كل ميادين الحياة وأمضى سلاح في محاربة المرض والجهل والفقر. ومن هنا كانت دعوة القرآن إلى العلم وتوجيه النظر إلى بحث الكائنات وتعرف خصائصها وأسرارها للارتفاع بها في بناء حياة حرة كريمة تليق بالإنسان الذي كرمه الله تعالى بالعقل وسخر له ما في الكون.

لا تعارض بين القرآن والعلم:

التعارض بين الشيتين معناه التقابل والتنافي بينهما بأن يدل أحدهما على إثبات والآخر على نفي مثلاً بحيث لا يمكن اجتماع مقتضاهما كأن كلاهما وقف في عرض الطريق فمنع الآخر من السير فيه، وأما إذا كانا غير متنافيين بأن جاز اجتماعهما، فلا يسمى تعارضاً ولو كانا متغايرين⁽²⁾. وعلى ضوء هذه الحقيقة نجد أن القرآن لا يتعارض مع الحقائق العلمية الثابتة والقائمة على اليقين، بل هو يؤيدها ويؤكددها، يقول ابن تيمية: «لا يمكن أن يكون هناك تناقض بين صحيح المنقول وصريح المعقول» أما الآراء والنظريات التي لم تصل إلى درجة الحقائق العلمية الثابتة والتي لا زالت في بداية الطريق وقابلة للخطأ أو التعديل فإن القرآن قد يتعارض معها. فكثير من النظريات التي كانت سائدة في فترة من فترات التاريخ وكان يعتقد أنها ثابتة لا تتغير أثبت العلم المتقدم والبحوث الجديدة بطلانها.

وإذا كان الأمر كذلك فلا بد من التفريق هنا بين الفروض والنظريات العلمية والحقائق الثابتة، إن كل من لهم صلة بالبحث العلمي التجريبي وميادينه

(1) الاسرائيليات والموضوعات في كتب التفسير، ص 75.

(2) انظر، الاسرائيليات والموضوعات في كتب التفسير ص 170.

يعرفون أن المراحل العادية التي يمر بها البحث العلمي حتى يصل إلى الهدف تكون كالآتي:

١ - الفرض:

الفرض العلمي هو رأي يحاول به الباحث تفسير ظاهرة شاهدها في مجال الطبيعة أو شاهدها في ميدان من ميادين العلم المختلفة. وكل فرض علمي قابل للصحة كما هو قابل للبطلان أو التعديل، وصحته أو تعديله أو بطلانه أمور تظهر أثناء التجربة والاختبار.

٢ - النظرية العلمية:

كل فرض يجب أن يخضع لتجارب واختبارات متعددة، ونتائج تلك التجارب هي التي تقرر مصيره، فإذا ما تكاثرت النتائج المؤيدة للفرض إلى أن غلبت عند الباحث نسبة صحته أصبح نظرية علمية.

٣ - الحقيقة العلمية:

إذا ما توافرت النتائج المساندة للنظرية إلى درجة صارت معها مقطوعاً بصحتها غير قابلة للشك أو التعديل ارتفت إلى مستوى الحقيقة العلمية. والحقيقة العلمية هي التي تمثل أصلب أرضية تقف عليها أقدام الباحثين في كل عصر، وهناك حقائق علمية يتوصل إليها عن طريق التجربة الحسية البسيطة.

وهناك حقائق لا يتوصل إليها إلا باستخدام آلات معقدة جداً هي بدورها نتيجة اكتشافات علمية أخرى.

وهناك حقائق علمية تنتج من التفكير المجرد عن طريق الاستنباط العقلي والبرهان النظري البحث^(١).

والقرآن - كما أسلفنا - لا يمكن أن يتعارض مع حقيقة علمية ثابتة ولكن

(1) أصناف المعرفة ومستويات الإيمان عبد الوهاب بوحدية منشورات مجلة الحياة الثقافية ص 30.

بعض الحقائق السائدة والنظريات الرائجة قد يتعارض معها، وذلك دليل على أنها ليست منتهى المعرفة.

يقول الشيخ المراغي: «إن حقائق العلم لا تتناق مع القرآن أبداً، ولكن النظريات العلمية التي لم تستقر بعد بأدلة يقينية ثابتة قد تختلف». وهنا يقف المسلم ويعيد البحث في النظرية، وتكون النتيجة أن النظرية تعدل بعد أبحاث كثيرة، وتظل قضية القرآن كما هي ﴿ألا يعلم من خلق وهو اللطيف الخبير﴾⁽¹⁾.

ويقول الدكتور حمودة عبد العاطي في مقال له: «إن الدين، والإسلام بصفة خاصة، لا يضيره أن يختلف مع العلم في القضايا الكونية أو فلسفة الوجود لأن مجالات الدين والعلم متعددة وبالتالي قد تكون مختلفة. وهذا الاختلاف لا يعني التناقض بين العلم والدين ولا يستلزم أن أحدهما باطل على الإطلاق والآخر صحيح على الإطلاق، الاختلاف قد يكون لأكثر من سبب ولا علاقة له بقضية الصحة والبطلان، بل إنه قد يكون حافزاً للهمم ومقدراً لحب المعرفة والاستطلاع. فاختلاف الدين والعلم إذاً لا ضرر فيه - في هذه الحالة - وإنما ينشأ الضرر عندما يعوق الدين طريق العلم أو عندما يخرج العلم عن نطاقه ويتصدى للدين القويم. ومن حسن الحظ أن الإسلام بريء من مثل هذا لأنه يفرض العلم على المسلم فرضاً، وكتابه الكريم يمجّد العلماء ويشيد بالحقيقة»⁽²⁾.

وخلاصة القول:

إن القرآن الكريم في جميع ما تحدث عنه من تشريع وأدب وأخلاق وسياسة واجتماع واستدلال على العقيدة وعرض لجمال الكون وآياته الباهرة لا يمكن على مر الدهور والأزمان - مهما اتسعت دائرة العلم والاختراع وتقدمت الحضارات المستقيمة - أن تصادم آياته الكريمة علماً مقطوعاً بحقيقة ولا كشافاً عرفت سائر ظروفه التي أحاطت بوجوده ضرورة أن القرآن دستور شريعة إلهية عامة خالدة

(1) سورة الملك، الآية 14. وانظر الوحدة الموضوعية في القرآن، محمد محمود حجازي، ط 1، ص 209.

(2) مجلة الفكر العربي، بيروت، العدد الأول، 1974م.

خاتمة للشرائع السماوية، فهو حق من عند الله، والحق لا يضاد الحق. فإن جاءت هذه المصادمة عمدنا إلى قانون التأويل العربي الصحيح⁽¹⁾، وهو أنه متى عارض الدليل العقلي أو الواقع، القطعي القائم على التجربة والمشاهدة التي لا تحتل الشك الدليل السمعي وجب تأويل الدليل السمعي لأجل مطابقة الدليل العقلي في مقتضاه، لأن الدليل العقلي أصل الدليل السمعي، ولو أبطل الدليل العقلي بالدليل السمعي لزم بطلان الدليل السمعي نفسه. وباب التأويل واسع⁽²⁾.

يقول ابن رشد في كتابه (فصل المقال فيما بين الحكمة والشريعة من الاتصال) ما نصه: «وإذا كانت هذه الشريعة حقاً وداعية إلى النظر المؤدي إلى معرفة الحق فإننا معشر المسلمين نعلم على القطع أنه لا يؤدي النظر البرهاني إلى مخالفة ما ورد به الشرع فإن الحق لا يضاد الحق بل يوافقه ويشهد له... إلى أن يقول: «ونحن نعلم قطعاً أن كل ما أدى إليه البرهان القطعي وخالفه ظاهر الشرع أن ذلك الظاهر يقبل التأويل على قانون التأويل العربي، وهذه القضية لا يشك فيها مسلم، ولا يرتاب بها مؤمن، وما أعظم ازدياد اليقين بها عند من زاول هذا المعنى وجربه وقصد هذا المقصد من الجمع بين المعقول والمنقول - اهـ»⁽³⁾.

ويقول الشيخ محمد عبده:

اتفق أهل الملة الاسلامية - إلا قليلاً ممن لا ينظر إليه - على أنه إذا تعارض العقل والنقل أخذ بما دل عليه العقل وبقي في النقل طريقان: طريق التسليم بصحة المنقول مع الاعتراف بالعجز عن فهمه وتفويض الأمر إلى الله في علمه. والطريقة الثانية:

تأويل النقل مع المحافظة على قوانين اللغة حتى يتفق معناه مع ما أثبتته العقل⁽⁴⁾.

(1) القرآن العظيم، هدايته وإعجازه في أقوال المفسرين، ص 321، 322.

(2) تفسير روح المعاني، طبعة بولاق، 104:9.

(3) فصل المقال، طبعة دار المعارف بمصر، 1972م، ص 31 وما بعدها.

(4) الإسلام والنصرانية مع العلم والمدنية، ط سنة 1320 هـ، ص 61، 62.

ويقول أحد العلماء :

«لقد أحسن علماء المسلمين بتقريرهم أن النص إذا تعارض مع العقل وجب تأويل النص لا لأن النص يكون خاطئاً كلاً، وما قيمة النص إذن؟ وكيف يتأتى الإيمان به؟ بل لأن الإنسان قد يفهم النص خطأ فعليه أن يأخذ بالحقيقة التي رآها، وسيأتي اليوم الذي ينكشف فيه الواقع على وجهه فيرى المؤمن أن النص حق لا ريب فيه، ويجد مدلوله كما ينبغي، لأن الحق لا يتصادم مع حق أبداً»⁽¹⁾.

(1) لماذا أؤمن بالقرآن، هلال علي هلال، ط 2، 1970م، ص 269.

الفصل الثاني

نشأة النفسِ العِاليِّ
وأسبابها

الفصل الثاني

نشأة التفسير العلمي وأسبابها

نشأة التفسير العلمي مرتبطة تمام الارتباط بمزج العلوم الكونية بالتفسير، وذلك لأن القرآن الكريم عندما نزل على رسول الله ﷺ كان الذين خوطبوا به لأول مرة عرباً أكتملت فيهم خصائص العروبة، وإن كانوا مع ذلك أميين لا إلمام لهم بالقراءة والكتابة ففهموا هداية القرآن وإعجازه فهماً سهلاً جارياً على سنن البساطة والفطرة، لم يحتاجوا في فهمه إلى اصطلاحات فنية ولا إلى نظريات علمية. أدركوا إعجازه بسليقتهم العربية السليمة وذوقهم البلاغي الرفيع. وفهموا هدايته بعقولهم الصافية وذكائهم الفطري ولغتهم العربية الفصحى التي نزل بها القرآن والتي لم تدنسها لكنة العجمة، وإذا استعانوا بشيء في فهم هدايته فبالنظر في كتاب الكون وآيات الله في الأفاق، وما خلق الله فيهم وحولهم من عجائب. ثم بما يسمعون من بيان رسول الله ﷺ⁽¹⁾.

وقد جاء القرآن بقيم ومبادئ ارتفعت بالمستوى العقلي للعرب وبخاصة أنه بنى دعوته إلى الإيمان على النظر في الكون وتدبر ظواهره ﴿إن في خلق السموات والأرض واختلاف الليل والنهار والفلك التي تجري في البحر بما ينفع الناس وما أنزل الله من السماء من ماء فأحيا به الأرض بعد موتها وبث فيها من كل دابة وتصريف الرياح والسحاب المسخر بين السماء والأرض لآيات لقوم يعقلون﴾⁽²⁾.

(1) انظر مناهل العرفان، 1: 565 وما بعدها.

(2) سورة البقرة، الآية 163.

ثم جاءت الفتوحات الإسلامية واتسعت رقعة الإسلام ودخل تحت لواء الإسلام أمم وشعوب لا تعرف العربية ولكنها كانت ذات ثقافات علمية وفنية وفلسفية، واختلط المسلمون بشعوب هذه البلاد المفتوحة ولم يغلقوا دونهم منافذ ثقافات هذه الشعوب، فنتج عن ذلك الاختلاط أمران:

الأمر الأول:

فساد اللسان العربي وتطرق اللحن إليه. الأمر الذي حل القائمين على شؤون مصالح المسلمين على وضع ضوابط تعصم اللسان من الخطأ في النطق، وبالتالي فهم كتاب الله وسنة رسوله فهماً صحيحاً. وبذلك نشأت علوم اللغة العربية من نحو وصرف وبلاغة.

الأمر الثاني:

«ترجمت علوم هذه الأمم التي دخلت في الإسلام وأذيعت بين المسلمين على اختلاف أجناسهم، فكان من مقتضى الحكمة التوفيق بينها وبين القرآن من جهة، وفهم القرآن على ضوءها من جهة أخرى، لأن الإسلام ليس عدواً للعمل بل هو صديق العلم وحليفه»⁽¹⁾. ولقد حاول المسلمون منذ البداية أن يكون الإسلام وأصوله قريباً من قلوب هؤلاء حتى تتفتح عيونهم عليه وترتوي قلوبهم به.

وقد بدأت الفلسفة اليونانية وغيرها من علوم السابقين تتسرب إلى أفكار المسلمين في بادئ الأمر ضئيلة مما كان يعرفه العرب من اتصالهم بالفرس والروم، ولكن الاطلاع الكبير على العلوم وعلى الفلسفة لم يتم إلا في عهد الدولة العباسية في بغداد، وعلى الأخص في عهد الخليفة العباسي هارون الرشيد وابنه المأمون عندما ترجمت جميع كتب أفلاطون وأرسطو وغيرها إلى اللغة العربية. وقد نافست المدن الإسلامية - حتى البعيدة منها - بغداد في اقتناء الكتب وطلب العلوم والمعارف حتى بلغت بخارى، تلك المدينة التي نشأ فيها الشيخ الرئيس ابن سينا، وكان

(1) مناهل العرفان، 1: 566.

الطب والعلوم الطبيعية والرياضيات وعلم الفلك. ومن الثابت تاريخياً أن العصر العباسي الأول كان أزهى العصور الإسلامية ازدهاراً بالعلوم والفنون، فمدنية الإسلام بدأت فيه تستقر بعد هدوء حركة الفتح الإسلامي التي كانت طابع العصر الأموي، والثقافة تنتشر في الأمة - كما يقول الدكتور أحمد شلبي - : «إذا هدأت واستقرت أمورها وانتظم ميزان اقتصادها، وجل هذا قد توافر للأمة الإسلامية بعد قيام الدولة العباسية وتمكن السفاح والمنصور من تثبيت أركان الدولة والضرب على أيدي أعدائها»⁽¹⁾.

وكانت النهضة الفكرية عند المسلمين تعتمد اعتماداً واضحاً على نشاط واسع في الترجمة من مختلف اللغات، ففي سنة 145 من الهجرة وضع المنصور حجر الأساس لعاصمته الجديدة (بغداد) ولم تمض سنوات حتى جمع فيها خيرة العلماء من مختلف الجهات، كما شجع على ترجمة كتب العلوم والآداب من اللغات المختلفة إلى اللغة العربية.

وقد استجاب كثير من العلماء لهذه الرغبة ودفعهم التشجيع الأدبي والمادي للإجادة والإكثار⁽²⁾. وكان الخلفاء والأغنياء يبذلون بسخاء للمترجمين مما دفعهم إلى مزيد من بذل الجهد والعطاء⁽³⁾.

ولم يمض وقت كثير على تأسيس بغداد حتى كان العرب المسلمون يقرءون بلغتهم معظم ما كتبه فلاسفة اليونان. ولم يقفوا عند علوم اليونان وحدها بل تجاوزوها إلى علوم الفرس والهنود.

يقول أحمد أمين: «إن مرونة اللغة العربية وسعة الاشتقاق فيها وغيره هو الذي جعلها تستطيع أن تكون لغة القرآن الكريم والحديث وما فيها من معان في منتهى السمو والرفعة، وما فيها من تعبيرات دينية واجتماعية وتشريعية لا عهد للعرب بها في جاهليتهم، كما استطاعت بعد أن تكون أداة لكل ما نقل من علوم الفرس والهند واليونان وغيرهم، وفي نحو ثمانين سنة من بدء العهد العباسي كانت

(1) موسوعة التاريخ الإسلامي والحضارة الإسلامية، أحمد شلبي، ط5، 1974م، 3: 233، 234.

(2) المرجع السابق 3: 246.

(3) المرجع نفسه 3: 251.

خلاصة كل هذه الثقافات مدونة باللغة العربية - اهـ -⁽¹⁾.

ولم يكن المسلمون مترجمين فقط وإنما كانوا مبتكرين ومبدعين في هذه المواد التي نقلوها من اللغات الأخرى إلى لغتهم فقد فسروها وأضافوا إليها شروحات وتعليقات عظيمة القيمة. وقد لعب المسلمون بهذا دوراً كبيراً في خدمة الثقافة العالمية لأنهم أنفذوا هذه العلوم من فناء محقق فبعثوا فيها الحياة⁽²⁾.

قرأ بعض المسلمين هذه الثقافات فلم يرقهم أكثر ما فيها من نظريات وأبحاث لأنهم وجدوها تتعارض مع الدين ولا تتفق معه، فعملوا على الرد عليها وإرشاد الناس إلى ما فيها. وكان على رأس هؤلاء الإمام أبو حامد الغزالي في كتابه المشهور (تهافت الفلاسفة). والفخر الرازي الذي تعرض في تفسيره (مفاتيح الغيب) لنظريات الفلاسفة التي تبدو متعارضة مع الدين ومع القرآن على وجه الخصوص فردها وأبطلها.

على أن الفخر الرازي - مع هذا - قد يفسر الآيات الكونية بما يطابق آراء علماء اليونان في الفلك، فالسموات السبع التي تكرر ذكرها في القرآن (مثلاً) عند الرازي هي أفلاك السيارات السبعة التي قررها اليونان. ولما كان عندهم فلك ثامن للنجوم الثابتة، وفلك تاسع يحيط هو مصدر حركة الأفلاك السبعة عندهم ذكر فخر الدين الرازي أن نص القرآن الكريم على السموات بأنها سبع لا يستلزم ألا تكون أكثر من ذلك، وذلك عند تفسيره لقوله تعالى: ﴿فَسَوَّاهُنَّ سَبْعَ سَمَوَاتٍ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾⁽³⁾. حيث قال:

إعلم أن القرآن هاهنا قد دل على وجود سبع سموات وقال أصحاب الهيئة: أقربها إلينا كرة القمر وفوقها عطاردة ثم الزهرة ثم الشمس ثم المريخ ثم المشتري ثم زحل.

وبعد أن ذكر أن هذا الترتيب لا يعلم إلا من وجهين فصلهما قال: واعلم

(1) ضحى الإسلام، ط8، 1972م، 1:192.

(2) موسوعة التاريخ الإسلامي، أحمد شلبي، 3:152.

(3) سورة البقرة، الآية 28.

أن أصحاب الأرصاد وأرباب الهيئة زعموا أن الأفلاك تسعة. فالسبعة هي هذه التي ذكرناها، والثامن هو الذي حصلت هذه الكواكب الثابتة فيه، وأما الفلك التاسع فهو الفلك الأعظم، وهو يتحرك في كل يوم وليلة دورة واحدة بالتقريب.

ثم ذكر حجتهم على إثبات الفلك الثامن وضعفها من وجوه، وذكر أن من أصحاب الهيئة من قطع بإثبات أفلاك أخرى غير هذه التسعة. ثم حكى عن اضطرابهم وتخبطهم الشديد في مقدار سير الشمس وسببه، وعلق بقوله: واعلم أن هذا الخطب إنما ينبهك على أنه لا سبيل للعقول البشرية إلى إدراك هذه الأشياء وأنه لا يحيط بها إلا علم فاطرها وخالقها، فوجب الاقتصار فيه على الدلائل السمعية. ثم قال: فإن قال قائل: فهل يدل التنصيص على سبع سموات على نفي العدد الزائد؟ قلنا: الحق أن تخصيص العدد بالذكر لا يدل على نفي الزائد - اهـ -⁽¹⁾.

كما وجد من بين فلاسفة المسلمين من حاول التوفيق بين الفلسفة والقرآن، وعلى رأس هؤلاء الرئيس أبو علي بن سينا المتوفى سنة ثمان وعشرين وأربعمائة (428 هـ).

وعلى سبيل المثال عندما عرض لتفسير قوله تعالى: ﴿وَيَحْمِلُ عَرْشَ رَبِّكَ فَوْقَهُمْ يَوْمَئِذٍ ثَمَانِيَةٌ﴾⁽²⁾، نجده يفسر العرش بأنه الفلك التاسع الذي هو فلك الأفلاك، كما يفسر الملائكة الثمانية التي تحمل العرش بأنها الأفلاك الثمانية التي تحت الفلك التاسع، وهذه عبارته قال: «وأما ما بلغ النبي ﷺ عن ربه - عز وجل - من قوله: ويحمل عرش ربك فوقهم يومئذ ثمانية، فنقول: إن الكلام المستفيض في استواء الله تعالى على العرش من أوصافه أن العرش نهاية الموجودات المبدعة الجسمانية، وتدعي المشبهة من المشرعين أن الله تعالى على العرش لا على سبيل الحلول.

هذا وأما في كلام الفيلسفي فإنهم جعلوا نهاية الموجودات الجسمانية الفلك التاسع الذي هو فلك الأفلاك. ويذكرون أن الله تعالى هناك، وعليه لا على

(1) مفاتيح الغيب، الطبعة الشرقية، 1:260. وانظر الإسلام في عصر العلم، د. الغراي، ص255.

(2) سورة الحاقة، الآية 17.

حلول. كما بين أرسطو في آخر كتاب سماع الكيان، والحكماء المشرعون اجتمعوا على أن المعنى بالعرش هو هذا الجرم. هذا وقد قالوا: إن الفلك يتحرك بالنفس لأن الحركات إما ذاتية وإما غير ذاتية، والذاتية إما طبيعية وإما نفسية، ثم بينوا أن نفسها هو الناطق الكامل الفعال، ثم بينوا أن الأفلاك لا تفنى ولا تتغير أبد الدهر، وقد ذاع في الشرعيات أن الملائكة أحياء قطعاً لا يموتون كالإنسان الذي يموت فإذا قيل: إن الأفلاك أحياء ناطقة لا تموت، والحي الناطق الغير ميت يسمى ملكاً، فالأفلاك تسمى ملائكة. ثم يقول:

فإذا تقدم هذه المقدمات وضح أن العرش محمول على ثمانية ووضح تفسير المفسرين أنها ثمانية أفلاك، والحمل يقال على وجهين: حمل بشري وهو أولى باسم الحمل كالحجر المحمول على ظهر الإنسان، وحمل طبيعي كقولنا: الماء محمول على الأرض والنار على الهواء والمعنى - المقصود - هو الحمل الطبيعي لا الأول، وقوله (يومئذ) الساعة والقيامة، فالمراد ما ذكره الشارع أن من مات فقد قامت قيامته⁽¹⁾.

ولا شك أنه كان في عمله هذا بعيداً عن حقيقة الدين وروح القرآن.

هذا هو السبب الأول في نشأة التفسير العلمي، ومعنى هذا أنه نشأ مبكراً ومنذ ترجمت العلوم المختلفة إلى اللغة العربية.

2 - أما السبب الثاني: فيتمثل في كون القرآن الكريم وجه العقل البشري إلى النظر في ملكوت السموات والأرض ليكشف حقائق الوجود ويرفع الحجب عن أسرارهِ وعجائبه ويفسر آياته في الأنفس والأفاق تحقيقاً لقول الحق سبحانه: ﴿سنريهم آياتنا في الأفاق وفي أنفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق﴾⁽²⁾. وكلما عظم شأن الكون المخلوق عظم في أعين الناس شأن خالقه المبدع سبحانه، ووجد الإيمان الراسخ طريقه إلى القلوب النقية الطاهرة ﴿قل انظروا ماذا في السموات

(1) رسائل ابن سينا، ص 128، 129. ولمعرفة المزيد من تفسيرات الفلاسفة انظر التفسير والمفسرون، 87، 86:2.

(2) سورة فصلت، الآية 52.

والأرض وما تغنى الآيات والنذر عن قوم لا يؤمنون^(١). ومن تعبيرات القرآن البليغة أنه تارة يعبر بالنظر إلى الشيء وهو النظر الحسي البسيط الذي يستطيع أن يقوم به كل فرد مهما كانت درجة ثقافته، ومن هذا القبيل قوله تعالى: ﴿أَفَلَا يَنْظُرُونَ إِلَى الْإِبْلِ كَيْفَ خُلِقَتْ وَإِلَى السَّمَاءِ كَيْفَ رُفِعَتْ وَإِلَى الْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ وَإِلَى الْأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ﴾^(٢)، وتارة يعبر بالنظر في الشيء وهو النظر العميق المتأني مثل قوله تعالى: ﴿وَفِي الْأَرْضِ آيَاتٌ لِلْمُوقِنِينَ وَفِي أَنْفُسِكُمْ أَفَلَا تُبْصِرُونَ﴾^(٣).

وإذا كان القرآن هكذا يدعو إلى النظر والتأمل، فمن الطبيعي أن يسعى بعض العلماء إلى الكشف عن أسرار الموجودات «وكلما تعمق المسلمون في العلوم والفلسفة نظروا إلى القرآن من خلالها، فإذا أتت آية في الرعد والبرق شرحوها بكل ما وصل إليه علمهم في الظواهر الجوية، وإذا أتت آية في النجوم والسماء طبقوا ما علموا من علم الهيئة وهكذا»^(٤).

3- يضاف إلى السببين السابقين في نشأة التفسير العلمي سبب ثالث وهو أن القرآن الكريم وصف هذه الأمة التي نزل عليها بأنها خير أمة أخرجت للناس، فلا بد أن تكون هذه الخيرية التي وصفت بها الأمة الإسلامية منسجمة على كل شيء يتعلق بحاضرهم وآجلهم وبالتالي يكون القرآن بوصفه كتاب هذه الأمة جامعاً لكل العلوم التي يحتاج إليها المسلمون، ومن ذلك العلوم التي ترتفع بمستوى الفرد والجماعة في الأمة الإسلامية والمتمثلة في العلوم الكونية.

4- أما السبب الرابع والأخير في هذا الخصوص فيمكن أن يقال فيه: أن القرآن الكريم بوصفه كتاب الإسلام الخالد لم ينزله الله تعالى لجيل معين ثم ينتهي أمره، وإنما أنزله للجميع من كان معاصراً له وقت نزوله ولمن يأتي بعد ذلك بمئات

(1) سورة يونس، الآية 101.

(2) سورة الغاشية، الآية 17-20.

(3) سورة الذاريات، الآية 20، 21.

(4) ضحى الإسلام، 369:1.

لستين. ومن حق كل جيل أن يفهم من القرآن ما يصل إليه بحثه العلمي نصاً أو استنباطاً.

وخلاصة القول: أنه قد تضافرت عوامل متعددة جعلت بعض علماء المسلمين يحاولون أن يستخرجوا من القرآن الكريم كل العلوم دينية أو كونية، وبدأت هذه العلوم تأخذ مكانها في كتب التفسير وتنتزج بها. وكان لذلك آثار كثيرة أهمها:

1 - بيان معاني القرآن وهدايته في ضوء العلوم المختلفة.

2 - الدلالة على كثير من وجوه إعجاز القرآن بما يشتمل عليه من العلوم الكونية والاجتماعية.

3 - مسايرة أفكار الناس ومشاربهم بتفسير القرآن بما يشبع حاجتهم من ثقافات علمية وكونية لأن المفسر لا يفسر لنفسه وإنما يفسر لغيره، فكان من مقتضى أساليب إيضاح هداية القرآن شرح ألفاظ القرآن في الظواهر الطبيعية والعلمية بالطريقة العلمية المألوفة لهم⁽¹⁾.

4 - دفع ما يزعمه بعض الناس من أن هناك عداوة بين العلم والدين.

5 - الإيمان بأن القرآن قد حوى كل ما يحتاج إليه الناس من أنواع السعادة، وأنه صالح لكل زمان، مسابير لجميع العصور⁽²⁾.

ولهذه الأسباب بدأت العلوم الكونية تدخل في التفسير وتنتزج به على اعتبار أن هداية القرآن وإعجازه لا يفهمان فهماً كاملاً إلا عن طريق هذه العلوم والمعارف المختلفة، ولأن الله تعالى دعا الناس كثيراً أن يتأملوا في هذا الكون وأن يقرؤا صحيفة هذا الوجود.

(1) مناهل العرفان 1: 567.

(2) علوم القرآن للشيخ عبد العظيم الغباشي، ص 75، ومناهل العرفان 1: 568.

الفصل الثالث

النفسُ العِليّ
بَيِّنَ الْمُؤَيِّدِينَ وَالْمُعَارِضِينَ

الفصل الثالث

التفسير العلمي بين المؤيدين والمعارضين

نمهيـد:

إن هداية القرآن الكريم خالدة بخلوده، عامة بعموم رسالته . وما أحوج الناس إلى فهم هذه الهداية ولا سيما في عالمنا المعاصر الذي فتن بالعلوم التجريبية وأعمته الظواهر المادية عن النظر في القيم الروحية وهداية السماء، وفي القرآن الكريم دواؤه وتحت راية الإسلام - لا غير - تقدمه وازدهاره، وصدق رب العزة حين يقول: ﴿كتاب أنزلناه إليك لتخرج الناس من الظلمات إلى النور بإذن ربهم إلى صراط العزيز الحميد﴾⁽¹⁾. وإذ يقول: ﴿وأن هذا صراطي مستقيماً فاتبعوه ولا تتبعوا السبل فتفرق بكم عن سبيله﴾⁽²⁾ فإن هذا القرآن يهدي للتي هي أقوم﴾⁽³⁾.

وهداية القرآن عامة باقية تتجدد في أسلوبها بتجدد حياة المجتمع الإنساني، لأن القرآن هو كتاب الله الذي أحاط بكل شيء علماً وهو كتاب ﴿لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد﴾⁽⁴⁾.

(1) سورة إبراهيم، الآية 1.

(2) سورة الأنعام، الآية 154.

(3) سورة الإسراء، الآية 9.

(4) سورة فصلت، الآية 41.

أودع الله فيه من الهداية والمعارف والحقائق الكونية ما يكفل صلاح البشرية ويحقق لها السعادة ما دامت آخذة به قائمة على تعاليمه تقيم موازين الحق والعدل وتستكشف أسرار الطبيعة بوسائلها العلمية المتجددة .

وكل جيل من البشر يقتبس من هذه الهداية الإلهية ما يناسبه في عصره ودرجته من العلوم والمعارف وانطلاق تفكيره في دائرة أصول القرآن الثابتة التي لا تقبل التأويل ولا التبديل .

وعلى هذا فلا يعمل من جيل من الأجيال أن يفسر هداية القرآن بما يخالف أصوله الثابتة في العقيدة والعبادات أو فيما تولى الله شرحه وبيانه كتقسيم الموارث وتحديد أنصبتها وتحريم الفواحش ما ظهر منها وما بطن وما وصى الله به عباده من إقامة العدل والوفاء بالعهد وسائر أصول الفضائل . ولما كانت هداية القرآن عامة شاملة لجميع الناس في مختلف الأزمنة والأمكنة لأن رسالته عامة كان بيانها بأسلوب يجذب القلوب إلى تقبلها واعتناقها ويدعو العقول إلى النظر في حقائقها، ويقرب أصول الإسلام إلى النفوس نقية خالصة بعيدة عما ألصق بها من الشوائب والخرافات والأساطير هو الوسيلة الناجحة لتبليغ رسالة الإسلام⁽¹⁾ .

والقرآن الكريم اشتمل على عقائد أقيمت على براهين تتعلق بآيات الله الكونية في الأنفس والأفاق . وهذا النوع هو خلاصة هدايته التي أنزل بها ولها . وقد ورد في القرآن الكريم كثير من الآيات الكونية حتى بلغت «ثمانمائة آية»⁽²⁾ من مجموع آيات القرآن .

هذا الجانب من القرآن الكريم هو الذي كان تفسيره في ضوء العلم في الأمور الكونية وبالعلوم الإنسانية وربطه بها، محل أخذ ورد بين العلماء على اختلاف المراحل التي مرت بها حركة التفسير منذ أن ترجمت العلوم والفلسفة من اللغات المختلفة إلى اللغة العربية ودونت العلوم حتى يومنا هذا .

(1) القرآن العظيم، هدايته وإعجازه في أقوال المفسرين، ص 152، 153 .

(2) الإسلام في عصر العلم، الغمراوي، ص 267 .

فقد برزت القضية الآتية (هل النص القرآني يمكن أن يشتمل على المعارف كلها فنضاف إليه الفلسفة والعلم التجريبي والفكر الاجتماعي والسلوكي والأخلاقي أو أن القرآن كتاب هداية وتوجيه وما يدل عليه من بعض الآثار العلمية الأخرى ليس إلا للتدبر والاعتاظ وسلامة الإدراك وصدق الاستدلال).

انقسم العلماء إزاء هذه القضية - منذ عصر مبكر - إلى فريقين: فريق يأخذ بتحكيم المصطلح العلمي في القرآن وحمل عبارة القرآن على وجه يطابق ما وصلت إليه علوم العصر، باعتبار أن القرآن (موسوعة) لكل العلوم ما جد منها وما يجد. وبالعكس بعضهم حتى جعل من القرآن الكريم إعجازاً علمياً باشتماله على كل المخترعات والمستحدثات.

بينما الفريق الثاني ينكر هذا الاتجاه ويفرق بين الحقيقة الدينية التي اشتمل عليها القرآن وبين النتائج العلمية المختلفة التي هي نتاج العقول البشرية القاصرة⁽¹⁾.

وسنعرض فيما يلي أهم هذه الآراء بدءاً بأدلة المؤيدين وتثنية بأدلة المعارضين، ثم نعقب على ذلك ببيان ما نعتقد أنه الصواب في هذا الموضوع:

1 - أدلة المؤيدين:

الذين يؤيدون الاتجاه العلمي في التفسير ينطلقون من فكرة مؤداها أن القرآن مشتمل على كل كبيرة وصغيرة من العلوم المختلفة، مستدلين على هذه الدعوى بما يأتي:

أولاً:

إن هناك آية في القرآن تشير إلى أنه قد حوى كل شيء فالله تعالى يقول: ﴿ما فرطنا في الكتاب من شيء﴾⁽²⁾، وكلمة (الكتاب) في الآية الكريمة لها معنيان:

(1) اتجاهات التفسير في مصر في العصر الحديث، عفت الشرقاوي، طبعة 1972 م، ص 371.

(2) سورة الأنعام، ص 38.

اللوح المحفوظ والقرآن الكريم، وقد ذكر الرازي هذين القولين واستظهر أن المراد (بالكتاب) القرآن محتجاً بأن الالف واللام إذا دخلا على الاسم المفرد انصرف إلى المعهود السابق، والمعهود السابق من الكتاب عند المسلمين هو القرآن، فوجب أن يكون المراد من (الكتاب) في هذه الآية القرآن⁽¹⁾.

«فالمعنيان إذن كل منهما مراد ما دام إمام من أئمة التفسير فهمه من الكلمة في الآية الكريمة، ولو شاء الله ألا يفهم من آية أو بعض آية في كتابه إلا معنى واحد لانزلها بحيث لا تفيد في اللغة إلا ذلك المعنى، أما وقد أنزل الله الآية بحيث يفهمها أولو العلم على أكثر من وجه فلا بد أن يكون كل مراد الله تعالى⁽²⁾.

والمعارضون يرون أن سياق الآية يدل على أن المراد (بالكتاب) اللوح المحفوظ، كما أن الآية عليه تكون منسجمة مع قوله تعالى: ﴿وما من دابة في الأرض إلا على الله رزقها ويعلم مستقرها ومستودعها كل في كتاب مبين﴾⁽³⁾ تأييداً للنظائر القرآنية⁽⁴⁾.

وهذا المعنى للكتاب هو الذي اقتصر عليه الزمخشري ولم يذكر غيره⁽⁵⁾، وهو تفسير الحسن وقتادة⁽⁶⁾. ولو سلمنا بأن المراد (بالكتاب) هو القرآن فإن المراد من قوله (من شيء) الشيء الذي هو موضوع الدين الذي أرسل به الرسل وتنزلت به الكتب وهو الهداية، لأن العموم في كل شيء بحسبه⁽⁷⁾.

قال القاسمي في تفسيره - بعد أن ذكر رأي الرازي السابق - : إذا ثبت هذا فلقائل أن يقول: كيف قال تعالى: ﴿ما فرطنا في الكتاب من شيء﴾ مع أنه ليس فيه تفاصيل علم الطب وتفاصيل علم الحساب ولا تفاصيل كثير من المباحث

(1) التفسير الكبير، مفاتيح الغيب، 41:4.

(2) الإسلام في عصر العلم ص 365، 364.

(3) سورة هود، الآية 6.

(4) محاسن التأويل 6:2299.

(5) انظر الكشاف 1:228.

(6) انظر تفسير الألوسي 2:471.

(7) انظر تفسير المنار 7:395.

والعلوم؟ فالجواب أن قوله ﴿من شيء﴾ يجب أن يكون مخصوصاً ببيان الأشياء التي يجب معرفتها والإحاطة بها وبيانها من وجهين:

الأول: أن لفظ التفريط لا يستعمل نفيًا وإثباتًا إلا فيما يجب أن يبين، لأن أحداً لا ينسب إلى التفريط والتقصير في أن لا يفعل ما لا حاجة إليه، وإنما يذكر هذا اللفظ فيما إذا قصر فيما يحتاج إليه.

الثاني: إن جميع آيات القرآن أو الكثير منها دالة بالمطابقة أو التضمن أو الالتزام. على أن المقصود من إنزال هذا الكتاب ببيان الدين ومعرفة الله ومعرفة أحكام الله. وإذا كان هذا التقييد معلوماً من كل القرآن كان المطلق هاهنا محمولاً على المقيّد⁽¹⁾.

ثانياً:

جاء في الحديث الصحيح أن النبي ﷺ سئل عن الحمر الأهلية - عن صدقتها - فقال: ما أنزل عليّ في الحمر شيء إلا هذه الآية الفاذة - المنفردة في معناها - الجامعة ﴿فمن يعمل مثقال ذرة خيراً يره ومن يعمل مثقال ذرة شراً يره﴾⁽²⁾.

قالوا: هذا نص يشهد على أن كل ما دخل تحت نص قرآني عام يعتبر قد نص عليه القرآن لأنه من الواضح أن الحمر الأهلية وصدققتها لم تذكرها الآية وإنما دخلت فيها عن طريق الشمول والعموم⁽³⁾. كما جاء في الحديث الصحيح - أيضاً - أن امرأة جاءت تتهجج لدى سيدنا عبد الله بن مسعود - رضي الله عنه - فيما بلغها عنه من قوله: لعن الله الواشمة والمستوشمة. . . الحديث، وكانت حجتها أنها

(1) محاسن التأويل 2301:6.

(2) سورة الزلزلة، الآية 7، 8. وهذا الحديث أخرجه البخاري في كتاب المزارعة باب شرب الناس والدواب من الأنهار. وفي كتاب الجهاد باب الخيل لثلاثة. انظر فتح الباري بشرح البخاري 405:6. كما أخرجه مسلم في كتاب الزكاة باب اثم مانع الزكاة. انظر صحيح مسلم بشرح النووي، 67:7.

(3) الإسلام في عصر العلم ص 369.

قرأت القرآن فلم تجده فقال لها - رضي الله عنه - : إن كنت قرأته لقد وجدته ،
أما قرأت قوله تعالى : ﴿ وما آتاكم الرسول فخذوه وما نهاكم عنه فانتهوا ﴾⁽¹⁾
قالت : بلى . قال : فإنه ﷺ قد نهى عنه⁽²⁾ .

فهذا - أيضاً - نص في أن الصحابة كانوا يرون أن كل ما أمر به أو نهى عنه
النبي ﷺ فقد نص عليه القرآن بعموم تلك الآية . رغم السياق الذي وردت فيه ،
مما يشهد للقاعدة الأصولية القائلة : « إن العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص
السبب » . واختراعات الإنسان لا يمكن أن يذكر القرآن شيئاً منها بذاته لأنها كانت
مثل مخترعات المستقبل في عالم الغيب ليس لأحدها اسم يذكر به . فلم يكن هناك
طريق لإحاطة القرآن بها إلا عن طريق الإشارة الكافية أو العبارة العامة أو تفسير
الرسول ﷺ لنص قرآني عام⁽³⁾ .

ثالثاً :

استدلوا ببعض الآثار الواردة عن السلف في هذا الشأن ، مثل قول
عبد الله بن مسعود : « من أراد علم الأولين والآخرين فليثور القرآن » . وقول أبي
الدرداء : « لا يفقه الرجل حتى يجعل للقرآن وجوهاً »⁽⁴⁾ ، وما أخرجه ابن جرير عن
ابن مسعود أنه قال : « أنزل في هذا القرآن كل علم وبين لنا فيه كل شيء ، ولكن
علمنا يقصر عما بين لنا في القرآن »⁽⁵⁾ .

رابعاً :

استدلوا بالمعقول فقالوا :

1 - القرآن الكريم هو حجة الله البالغة على عباده وموضع الحجة فيه إعجاز

(1) سورة الحشر ، الآية 7 .

(2) هذا الحديث أخرجه البخاري في كتاب اللباس باب المتفلجات وباب وصل الشعر وباب
التمنصات . انظر فتح الباري شرح البخاري 494:12 وما بعدها . وأخرجه مسلم في كتاب اللباس
والزينة باب تحريم فعل الواصلة . . الخ . صحيح مسلم شرح النووي 105:14 وما بعدها .

(3) الإسلام في عصر العلم ص 369 ، 370 .

(4) البرهان في علوم القرآن 2:154 .

(5) تفسير روح المعاني : 2:471 .

الخلق، وينبغي ألا يكون إدراك إعجازه موقوفاً على فصحاء العرب ومن شاكلهم. فالإنسانية كلها مخاطبة به والإنسانية العجم فيها أكثر من العرب. ولا بد أن يتضح إعجاز القرآن لكل إنسان ولو كان أعجمي اللسان لتلزمه الحجة إن هو امتنع عن الإسلام. وعليه فلا بد أن تكون لإعجاز القرآن جوانب أخرى غير الإعجاز البلاغي وغير التنبؤات التي كانت في ضمير الغيب حين نزل القرآن، تلك الناحية هي الناحية العلمية التي لا يتوقف تقديرها والتسليم بها على معرفة لغة لا تيسر معرفتها لكل أحد.

2- إن الإعجاز العلمي يعجز الملحدون عن أن يجدوا فيه موضعاً للتشكيك فإن الحقيقة العلمية التي يذكرها القرآن لا بد أن تقوم عند كل ذي عقل دليلاً محسوساً على أن خالق هذه الحقيقة هو منزل القرآن.

3- إن القرآن الكريم يحتوي على كثير من الآيات الكونية، ويتوقف على فهمها في ضوء الحقائق العلمية تيسير الدعوة إلى دين الله في هذا العصر عصر العلم⁽¹⁾.

4- إن الله تعالى ملأ كتابه من الاستدلال على العلم والقدرة والحكمة الإلهية بأحوال السموات والأرض وتعاقب الليل والنهار وكيفية أحوال الضياء والظلام وأحوال الشمس والقمر والنجوم، وذكر هذه الأمور وكررها وأعادها مرة بعد أخرى، فلو لم يكن البحث عنها والتأمل في أحوالها جائزاً لما ملأ الله كتابه منها⁽²⁾.

5- إن القرآن الكريم قد أتى بوصف شامل دقيق عن العالم المادي في صورة أصول وجوامع من العلم الدقيق الذي لم يكن أحد يعلمه حين نزل القرآن، وإن العلم الحديث الذي ظهر بعد نزول القرآن قد آيد ما جاء في القرآن من العلم الدقيق بالكائنات وأقام من نفسه شاهداً على صحة ما جاء في القرآن من قبله ولم يعارضه في شيء⁽³⁾.

(1) هذه الأدلة الثلاثة ملخصة من كتاب الإسلام في عصر العلم ص 222.

(2) مفاتيح الغيب 4: 238.

(3) التفسير العلمي للآيات الكونية، حنفي أحمد، ص 437.

6 - إن التفسير العلمي هو الذي يقينا من تعليل بعض الظواهر الكونية تعليلاً باطلاً غير صحيح ، وذلك مثل ما ذكرته بعض كتب التفسير بالمأثور وغيره أن الرعد اسم لملك يسوق السحاب وأن الصوت المسموع منه صوت زجره السحاب أو صوت تسبيحه ، وأن البرق أثر المخراق⁽¹⁾ الذي يزجر به السحاب⁽²⁾ . وما قيل أيضاً في الأرض وأنها مستقرة على ظهر حوت⁽³⁾ ، وما يتعلق بالأجرام السماوية ومن أي العناصر تكوينها⁽⁴⁾ ، وما يعللون به برودة ماء الآبار في الصيف وسخونتها في الشتاء ، وعن منشأ السحاب .

وكيف يكون موقف الداعي إلى الله في المجتمعات العلمية إذا ووجه بمثل هذه التفسيرات التي تخالف المقررات العلمية ، والتي أصبحت في حكم البدهيات والمسلّمات ، مما يعود على الإسلام بالضرر والنقض وينفر عنه المفكرين وذوي العلم والمعرفة . وكما قال الإمام الغزالي : « وضرر الشرع ممن ينصره لا بطريقه أكثر من ضرره ممن يطعن فيه بطريقه وهو كما قيل : عدو عاقل خير من صديق جاهل »⁽⁵⁾ .

7 - لا ينبغي لمفسر للقرآن في عصر العلم أن يكون بمعزل عن العلم أو يقف بمسائل العلم في القرآن عند المفهوم الذي كان يفهمه المفسرون في صدر الإسلام

(1) المخراق: التنديل بلف ليضرب به . الصحاح 14: 1467 .

(2) انظر في هذا تفسير القرطبي (الجامع لأحكام القرآن) في تفسير قوله تعالى : ﴿ فيه ظلمات ورعد وبرق ﴾ البقرة . 1: 217 .

(3) مثل ما حكاه الخازن في تفسيره عند قوله تعالى في سورة لقمان ﴿ فتكن في صخرة أو في السموات أو في الأرض ﴾ الآية . 3: 484 .

(4) جاء في جامع البيان في تفسير القرآن (99: 28) رواية عن أبي جعفر عن الربيع بن أنس قال : السماء أولها موج مكفوف ، والثانية صخرة والثالثة حديد ، والرابعة نحاس والخامسة فضة والسادسة ذهب والسابعة ياقوتة - أهـ . فجاء الرازي بعده وفسر السموات بأنها الكواكب السيارة ، ثم قال : فهذه هي الوجوه التي لا يابأها العقل وما عداها من الوجوه المنقولة عن أهل التفسير فذلك من جملة ما يابأها العقل مثل ما يقال : السموات السبع أولها موج مكفوف . . . الخ . (انظر مفاتيح الغيب 8: 163) . وجاء الألوسي بعدهما وقال : ما حكاه الرازي من أن السماء موج مكفوف ، والثانية صخرة الخ . ليس بمعتبر أصلاً ، ولم يرد بما تضمنه من التفصيل خبر صحيح . انظر تفسير روح المعاني 9: 103 .

(5) تهافت الفلاسفة ، الطبعة الكاثوليكية ، 1962 ، مقدمة ثانية ص 42 .

حيث العلم لا يزال في مهده، ولو فعل لأضر بالإسلام ضرراً بليغاً أو لحرمه من خير كثير، وهو بذلك يتيح الفرصة لأعداء الإسلام أن يصطادوا في الماء العكر فيزعمون أن القرآن يخالف العلم أو يقف حائلاً دون تقدمه⁽¹⁾، وتلك فرية بلا مرية.

هذه هي أدلة أنصار التفسير العلمي للقرآن. وقد بسط معظمها العالم الكيميائي المرحوم الدكتور محمد أحمد الغمراوي في كتابه (الإسلام في عصر العلم).

ولكنه احتاط احتياطاً مفيداً حين وضع القيود المحكمة لهذا التفسير الذي يدعو إليه، وذلك حيث يقول:

«وقبل أن نورد بعض الأمثلة الإيضاحية لهذا التفسير يجب أن ننبه إلى أمرين مهمين:

الأول: أنه لا ينبغي في فهم الآيات الكونية من القرآن الكريم أن نعدل عن الحقيقة إلى المجاز إلا إذا كانت القرائن الواضحة تمنع من حقيقة اللفظ وتحمل على مجازه. إن مخالفة هذه القاعدة الأساسية قد أدت إلى كثير من الخطأ في التفسير.

الثاني: ينبغي ألا نفسر كونيات القرآن إلا باليقين الثابت من العلم، لا بالفروض ولا بالنظريات التي لا تزال موضع فحص وتمحيص. إن الحقائق هي سبيل الحق هي كلمات الله الكونية ينبغي أن نفسر بها نظائرها من كلمات الله القرآنية. أما الحدسيات والظنيات فهي عرضة للتصحيح والتعديل إن لم يكن للإبطال في أي وقت، فسيهلها أن تعرض على القرآن ليتبين مبلغ قربها منه أو بعدها عنه، وعلى مقدار ما يكون بينها وبينه من اقتراب يكون مقدار حفظها من الصواب - اهـ -»⁽²⁾.

فهذان قيدان وضعهما الأستاذ الغمراوي ليحول دون الشطط في التأويل والجموح في التطبيق.

(1) بحوث في تفسير سورة العلق، جمال الدين عياد، توزيع مكتبة دار العروبة، 1961، المقدمة.

(2) الإسلام في عصر العلم ص 223.

2- أدلة المعارضين:

أما الفريق الذي يعارض هذا الاتجاه في تفسير القرآن فتتلخص أدلتهم في منع هذا الاتجاه في التفسير فيما يلي:

أولاً:

إن الفهم الدقيق للألفاظ يحتم علينا فهمها في حدود الاستعمال الذي نزلت فيه، وهذا يحول بيننا وبين التوسع في جعلها تدل على معان لم تعرف بها وقت نزول القرآن.

ثانياً:

يجب الوقوف بعبارات القرآن عندما فهمه العرب الخالص ولا نتجاوز ما ألفوه من علومهم وأدركوه، من معارفهم لأن البلاغة هي مراعاة مقتضى الحال.

ثالثاً:

إن مهمة القرآن دينية اعتقادية وليست علمية⁽¹⁾.

رابعاً:

ينبغي الاستفادة من النظريات العلمية دون اقحامها على القرآن الكريم أو اعتبار أن القرآن مطالب بموافقتها كلما تغيرت من زمن إلى زمن ومن تفكير إلى تفكير⁽²⁾.

خامساً:

إن إدخال التفسيرات العلمية على الإشارات القرآنية، وبالصورة التي جرى

(1) الأدلة الثلاثة ملخصة من كتاب (التفسير - منهج اليوم - معالم حياته) للأستاذ أمين الخولي. وانظر اتجاهات التفسير في مصر في العصر الحديث، عفت الشرقاوي، ص 373 وما بعدها.

(2) الفلسفة القرآنية، للأستاذ عباس العقاد، طبعة دار الهلال 1966، ص 181.

عليها بعض الكتاب والعلماء لا بد وأن تؤدي في القريب أو في البعيد إلى الصراع بين الدين والعلم⁽¹⁾.

سادساً:

التفسير العلمي يحمل أصحابه على تأويل القرآن تأويلاً متكلفاً يتنافى مع الإعجاز ولا يسيغه الذوق السليم⁽²⁾.

سابعاً:

إن النظريات العلمية ليست لها صفة الدوام، وحقائقها ليست مطلقة. فإذا يحدث لو تبين أن إحدى هذه النظريات قد فقدت أهميتها أو ثبت عدم صلاحيتها أو مرت بتعديل جذري؟. ماذا يحدث للقرآن لو ربطناه بمثل هذه النظريات المتقلبة المحتملة وعلقنا صحته على صحة نظريتهم أو عدلوا في مناهجهم ونظرياتهم؟.

الحق أن هذا لا يليق بكتاب مجيد يهدي للتي هي أقوم⁽³⁾.

ثامناً:

إن السلف الصالح - من الصحابة والتابعين ومن يليهم - كانوا أعرف بالقرآن وبعلومه وما أودع فيه، ولم يبلغنا أنه تكلم أحد منهم في شيء من هذا المدعى، ولو كان لهم في ذلك خوض ونظر لبغنا منه ما يدلنا على أصل المسألة إلا أن ذلك لم يكن، فدل على أنه غير موجود عندهم، وذلك دليل على أنه لم يقصد فيه تقرير لشيء مما قالوا⁽⁴⁾.

(1) اسماعيل مظهر، صحيفة الأخبار المصرية، 1961/11/17م (مقال).

(2) تفسير القرآن الكريم، الشيخ عمود شلتوت، الطبعة الخامسة، 1973م، ص 31.

(3) مجلة الفكر العربي، العدد 1 1974م، حمودة عبد العاطي (مقال).

(4) الموافقات، الإمام الشاطبي، 2: 79.

تاسعاً:

إن جعل القرآن الكريم معجزاً لأن آياته تشير إلى أصل العلوم له خطر على إعجاز القرآن، لأن العرب الذين تحداهم القرآن أميون وقد تحداهم بأن يأتوا بسورة من مثله فلم يستطيعوا. وقد سجل القرآن عجزهم.

وإذا قلنا: إن بعض الآيات القرآنية تحوي أصول العلوم الحديثة فمعنى هذا أن القرآن الكريم تحدى أناساً عاجزين ليس لهم حظ في العلوم بالمعنى الدقيق، ومن ثم يكون التحدي باطلاً من أساسه، وهذا مخالف للقرآن نفسه، ولا يقول به أحد⁽¹⁾.

3- تعقيب:

هذه هي أدلة المعارضين والمؤيدين. وهي أطراف من الجدل الكلامي الذي ثار حول موضوع التفسير العلمي للقرآن.

وبالتأمل في وجهة نظر الفريقين يتضح أن القائلين به لا يريدون شيئاً إلا أن يشبوا للعالم أجمع أن القرآن من عند الله وأن منزله هو خالق الكون الذي يعلم السر وأخفى، وقد ضمنه هذه الحقائق العلمية «وأنهم بقدر ما يفعلون من ذلك يضيفون إلى أمجاد القرآن أمجاداً، وإلى براهين صدقه شيئاً جديداً».

والمعارضين له يقولون: إن المقررات العلمية تكون عرضة للتبديل والتغيير، وهم لا يريدون أن يربطوا القرآن وتفسيره بعجلة المتغير، وكفى القرآن شرفاً ومجداً أنه حث على العلم والبحث والنظر ولم يقف حجر عثرة في سبيل التقدم العلمي والفكري⁽²⁾.

وما جعل الأذان تصفي كثيراً للمعارضين لهذا اللون من التفسير أن بعض

(1) متفرقات.

(2) العلم والإيمان في بناء المجتمعات، لاسأذنا عبد الغني عوض الراجحي، طبعة مجمع البحوث الإسلامية، ص 223.

المتحمسين له قد دفعهم الحماس إلى تفسير بعض الآيات القرآنية تفسيراً علمياً جافاً بعيداً عن روح القرآن وأهدافه النبيلة ولا يستند إلى دليل معقول.

فحين يظهر مكتشف عن المكتشفات العلمية يسارع هؤلاء فيقتطعون من كتاب الله ما يوهم صاحب النظر المتسرع أنه يسير مع المكتشف الحديث، ويدعون أن كتاب الله تعالى قد ألقى إليهم بأسراره فهم قادرون على أن يستنبطوا منه قضايا العلم الحديث دون أدنى مراعاة منهم لشروط التفسير السليم لكتاب الله العزيز، وهم مبالغون في دعواهم ويكتبون بلا روية ولا تأمل فيصيرون في ناحية ومخطئون في أخرى، أو يدعون ما لم يؤكد العلم ولم يثبت، والظن لا يغني عن الحق شيئاً، وربما كانت هذه الأخطاء سبباً في حمل كثير من العلماء على التفسير العلمي لآيات القرآن الكريم مع أنهم «يجب عليهم أن يأخذوا أنفسهم بشيء كثير من الحذر والحيلة، فالنزعة التي أخذوا بها أنفسهم نزعة صعبة المراس مخوفة بالأخطار، في حاجة ماسة إلى الوعي والاستقصاء والتسلح لتفسير كتاب الله لا بالعلم الذي نبغوا فيه فقط ولكن بالعلوم الدينية والعربية»⁽¹⁾.

والذي تطمئن إليه النفس بعد النظر في وجهة نظر الفريقين هو أن الذين ينادون بإبعاد القرآن عن التفسير العلمي مصيبون كل الإصابة إذا كان هذا التفسير قائماً على الظن والوهم أو التعسف في التأويل. أما إذا كان مستنداً إلى الصريح من القول معتمداً على اليقين الثابت من العلم، فليس هناك ما يمنع من الاستفادة بنور العلم في إيضاح حقائق القرآن. فهناك حقائق علمية أصبحت الآن لا سبيل إلى انكارها، لأنها ثمرة بحث واستقراء وتجارب طويلة، فإذا رأينا فيها ما يكشف عن جوانب في القرآن لم تعرف من قبل فليس هناك ما يمنع من الاسترشاد بها في فهمه والانتفاع بها في تفسيره.

وإذا كان القرآن كتاب هداية وإرشاد فإن تفسير آياته الكونية بحقائق العلم لا تحول دون هذه الهداية، بل تؤكدتها وتدعو إليها الجاحدين.

أما قول المعارضين: إن القرآن نزل في أمة أمية لا تعرف النظر العلمي

(1) العلم والإيمان في بناء المجتمعات ص 124.

بالمعنى الدقيق فيمكن أن يجاب عنه بأن القرآن الكريم لم ينزل لجيل واحد بل نزل لجميع الأجيال ليأخذ كل جيل من هديه ما يتوصل إليه بتفكيره وبحثه العلمي فيما يتعلق بالأمور الكونية.

وقولهم: إن النظريات العلمية ليست لها صفة الدوام، وهي عرضة للخطأ فهو محل اتفاق بين الفريقين. والذي يجب الأخذ به والاقتصار عليه هو الأمر الثابت من الحقائق العلمية والذي أصبح لا يتطرق إليه الشك أو الاحتمال. فإن القرآن كتاب حقائق كونية وغير كونية تدل عليها آياته المنزلة.

على أن تفسير آية قرآنية أو آيات بما كشفه العلم من سنن كونية ما هو - في واقع الأمر - إلا فهم للآية بوجه من وجوه الدلالة على ضوء ما قال به العلم، وليس معنى هذا أن الآية لا تفهم إلا على هذا الوجه من الوجوه، وعليه فإذا ظهر خطأ النظرية ظهر خطأ فهم الآية على ذلك الوجه لا خطأ الآية نفسها - كما يقول المعارضون - وذلك كما يفهم حكم ما من آية ثم يتبين خطأ فهمه منها بظهور دليل على هذا الخطأ⁽¹⁾.

ولا شك أن القرآن - وهو كلام الله الذي أحاط بكل شيء علماً - لا تبني معانيه على فهم طائفة واحدة ولكن معانيه تطابق الحقائق، وكل ما كان من الحقيقة في علم من العلوم، وكانت الآية لها تعلق بذلك فالحقيقة العلمية مرادة بمقدار ما بلغت إليه إفهام البشر، وبمقدار ما استبلغ إليه. وذلك يختلف باختلاف المقامات ويبني على توافر الفهم، ولكن بشرط ألا يخرج عما يصلح له اللفظ في اللغة العربية، ولا يبعد عن الظاهر إلا بدليل، ولا يكون تكلفاً بيتاً، ولا خروجاً عن المعنى الأصلي حتى يكون في ذلك ك تفسير الباطنية⁽²⁾.

ولقد حذر القرآن العلماء من إبداء الرأي بدون الحجة القاطعة والدليل

(1) انظر كتاب أصول الفقه، عبد الوهاب خلاف، طبعة دار القلم، ص 30.

(2) التحرير والتنوير، الشيخ محمد الطاهر بن عاشور، 38:1، المقدمة الرابعة. والباطنية هم الذين رفضوا الأخذ بظاهر الكتاب الكريم وقالوا: إن للقرآن ظاهراً وباطناً، والظاهر غير مراد وإنما المراد الباطن. وتفسيرهم إحد وكفر لأنها تؤدي إلى نقض الشريعة والخروج عن الإسلام.

الواضح ، كما حذرهم من التقليد لمن سبقهم دون تدبر ودراسة وبحث .

والعلماء الذين درسوا دينهم وفهموه حق الفهم يستطيعون تفسير جزء كبير من القرآن بحقائق العلم الذي برزوا فيه والذي يبحث أسرار الفطرة وطبيعتها وحقيقتها ودلالاتها على وجود الله ، وبخاصة العلماء الذين يفهمون الاتصال الوثيق بين الدين والعلم ، والذين يملأ العلم قلوبهم من خشية الله وعظمته وقدرته التي تتجلى في آياته في الأنفس والآفاق ، جاء في كتاب (الإسلام في عصر العلم) للدكتور الغمراوي قوله - وهو يرد على المعارضين للتفسير العلمي - : «إن بعض المعارضين على أهل التفسير العلمي لكونيات القرآن يتهمونهم بأنهم يبنون تفسيراتهم على نظريات علمية لم تثبت ، وهذا إذا صدق على بعضهم فليس يصدق على جميعهم ، وأغلبيتهم لا يفسرون النص القرآني - وهو الحق - إلا بالحقيقة الثابتة في العلم مدركين أن الدقة والاحتياط لازمان في كل بحث ، وأنها في البحوث القرآنية ألزم منها حتى في العلوم التجريبية ، لأن أهل هذه العلوم بعضهم رقيب على بعض وهي رقابة تكاد تكون معدومة بين الباحثين في القرآن والحديث . وعلى أي حال فالمتعرض لتفسير شيء من الكتاب العزيز عرضة للخطأ وتبعة خطئه واقعة عليه هو لا على الكتاب الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد ، وإلا لاشترطنا في المفسر أن يكون معصوماً من الخطأ وهو شرط مستحيل تحقيقه في غير نبي ، وتكون النتيجة تحريم تفسير آيات القرآن على كل إنسان بعد عهد النبي ﷺ يستوي في ذلك التفسير الكوني وغير الكوني من آيات القرآن - اهـ⁽¹⁾ .

إن هذه الدعوة المخلصة إلى النظر في كتاب الله مع الاستفادة بنور العلم في إيضاح حقائق القرآن الكريم يجب أن يصاحبها وعي بما اصطدمت به عند التطبيقات الأولى في القديم والحديث من أخطاء لتفاديها والبعد عنها .

فنحن نرى أن تفسير فخر الدين الرازي المسمى (مفاتيح الغيب) - على الرغم من محاسنه الكثيرة - قد ملئ بالأراء الفلسفية والعلمية التي فاض بها القرن

(1) الإسلام في عصر العلم ، ص 264 ، 267 .

الخامس الهجري فجاء في بعض مواضعه بعيداً عن الجو القرآني .

كما أن المسألة تكررت في صورة مكبرة في العصر الحديث في مثل تفسير (طنطاوي جوهري) المسمى (تفسير الجواهر) حيث جاء تفسيره الضخم متخماً بمئات المسائل العلمية التي تتحدث عن مظاهر الكون حديث الكيمائي والطبيعي والفلكي والنباتي لمجرد ورود كلمة تحتويها الآية كالرعد أو الأرض أو النحل ، بل كثيراً ما يضع في تفسيره صور النباتات والحيوانات ومناظر الطبيعة وتجارب العلوم⁽¹⁾ .

فمن حق كل مسلم أن يتعمق في النظر إلى كتاب الله تعالى ويقتبس من هديه .

ومن حق كل باحث أمين قادر أن يقدم للناس ما يتدي إليه من فهم صحيح ، ولكن مع مراعاة الكلام الذي يفسره ، فليس كلام الله ككلام البشر .

وقد وصف الله العقلاء بالتفكر في خلق السموات والأرض والاستفادة من ذلك في الوصول إلى الحقيقة الكبرى ﴿ربنا ما خلقت هذا باطلاً سبحانه﴾⁽²⁾ وتلك هي الغاية الظاهرة من طلب النظر والتفكر والاطمئنان عن طريق الحس والعقل إلى جانب الاطمئنان عن طريق النقل الصادق عن الأنبياء والرسل - صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين - .

والاكتماء بالمشاهدة العادية والرغبة عن الإمعان والتفقه هو في الواقع عدم تجاوب مع القرآن فيما طلبه من بحث واستطلاع .

وقد يحتاج المفسر إلى الامام بعلوم المادة ليتسنى له فهم الآيات الكونية ومقاصدها فهماً جيداً ، وليستطيع بالتالي اقناع القارئ والمستمع بما فهم وإلا يفعل ذلك فسيبقى مضمون الآيات محجوباً عنه .

فمثلاً يقول الله تعالى : ﴿يَخْلُقْكُمْ فِي بَطُونٍ أَمْهَاتِكُمْ خَلْقاً مِنْ بَعْدِ خَلْقٍ فِي

(1) انظر ، التفسير والمفسرون 3: 175 .

(2) سورة آل عمران ، الآية 191 .

ظلمات ثلاث ﴿⁽¹⁾﴾، ويقول تعالى - وهو بصدد إقامة البرهان على عظمة الله وجلاله -: ﴿هو الذي جعل الشمس ضياء والقمر نورا وقدره منازل لتعلموا عدد السنين والحساب ما خلق الله ذلك إلا بالحق تفصل الآيات لقوم يعلمون﴾⁽²⁾ ويقول: ﴿فمن يرد الله أن يهديه يشرح صدره للإسلام ومن يرد أن يضله يجعل صدره ضيقاً حرجاً كأنما يصعد في السماء﴾⁽³⁾. فهذه الآيات ونظائرها نقرأ عنها في كتب التفسير فنجد بابها مفتوحاً لفهم جديد وبحث علمي دقيق، فإذا سمعنا وجهة المتخصصين في المجالات المختلفة وضحت لنا المعاني الكامنة لهذه الآيات والإحاطة بالأسرار الكونية فيها، وإن لم نفعل ذلك ضاعت علينا هذه المعاني وضاق بنا نطاق الآيات، وفي الوقت نفسه يوجد عندنا الإحساس بأننا في عزلة عن مقررات علمية في زمن تتوثب فيه الحضارة ويشع العلم في كل مكان⁽⁴⁾.

وعلى ذلك فلو أننا تأملنا في قوله تعالى: ﴿هو الذي جعل الشمس ضياء...﴾ الخ الآية لاحتجنا إلى معرفة السر في التعبير عن الشمس بأنها (ضياء) والقمر بأنها (نور) فلا بد أن يكون هناك سر لهذا التخصيص يرجع إلى طبيعة كل منهما، كما لا يتم الاستدلال بهما على الغرض الذي سيقا من أجله إلا بمعرفة العلة في هذه التفرقة.

وإذا كان الأمر كذلك فإنه من البديهي أن يكون الذي يحاول فهم ألفاظ القرآن ملماً بالظواهر العلمية التي تميز طبيعة الضياء عن طبيعة النور حتى يفهم الآية على حقيقتها التي أنزلها الله في كتابه من أجلها. وحتى يحقق معنى قوله تعالى - في آخر الآية -: ﴿تفصل الآيات لقوم يعلمون﴾.

وليس من الدين في شيء أن يحض الله في كثير من آيات كتابه على النظر في آيات الكون والتفكير فيها، ثم يتقاعده العلماء المسلمون في عصر العلم عما بداه أسلافهم السابقون في العصور المشرقة لحضارة المسلمين.

(1) سورة الزمر، الآية 6.

(2) سورة يونس، الآية 5.

(3) سورة الأنعام، الآية 126.

(4) مجلة منبر الإسلام المعاصرة، عدد 8، 1962، مقال بقلم عبد اللطيف السبكي.

وقد أدى هذا الجُمود وذاك التوقف إلى أن دخل الميدان غير أهله المؤهلين وزجوا بأرائهم غير المدروسة في تفسير القرآن بما أساء إلى كتاب الله تعالى .

إن القرآن كتاب الله والكون خلق الله ، وكتابه سبحانه من المحال أن يكون فيه خطأ أو نقص ، فإذا ما ضل العلم فخالف القرآن في شيء ما فلا بد أن يعود إلى ما أخبر به سبحانه ولو بعد حين عندما تتجلى الحقائق لعقول العلماء ﴿وقل الحمد لله سيريكم آياته فتعرفونها وما ربك بغافل عما تعملون﴾⁽¹⁾ .

خلاصة القول :

وخلاصة القول في هذا الموضوع كما يلي :

أولاً : إن الذين جروا وراء النظريات العلمية في حقها وباطلها مجانبون للصواب ، والذين منعوا الاستفادة من حقائق العلم في إيضاح حقائق القرآن مجانبون للصواب . ونحن لن نذهب إلى ما ذهب إليه الأولون ولا إلى ما ذهب إليه الآخرون فلن نتجاهل الحقائق العلمية في القرآن ، وفي الوقت نفسه لا نلتمس لكل مسألة علمية آية من كتاب الله زاعمين بذلك أنها توافق ما قال به العلم .

وإنما نذهب مذهب الوسط الذي لا إفراط فيه ولا تفريط ، لأنه ما دام القرآن كلام الله والكون خلق الله فلا بد أن تنسجم آيات القرآن مع حقائق العلم .

وقد قال الشيخ المراغي - رحمه الله - كلمة قيمة في هذا الموضوع «يجب ألا نجر الآية إلى العلوم كي نفرسها، ولا العلوم إلى الآية كذلك، ولكن إن اتفق ظاهر الآية مع حقيقة علمية ثابتة فسرناها بها»⁽²⁾ .

ثانياً : إن الحقيقة العلمية إن لم يكن في القرآن ما يؤيدها فليس فيه - قطعاً - ما يعارضها ، نعم قد يكون هناك خلاف بين القرآن وبين بعض النظريات العلمية التي لم تبحث ولم تدرس بعد دراسة كاملة .

(1) سورة النمل ، الآية 93 .

(2) الإسلام والطب الحديث ، عبد العزيز اسماعيل ، تقديم الشيخ المراغي ، 1357 هـ ، ص د .

وعلى ذلك فمن أراد أن يفهم من القرآن مبدءاً علمياً فعليه أن يتخصص في ذلك العلم ويدرسه دراسة كاملة مستوفية، ثم بعد ذلك يأتي للقرآن فيجده قد سبق البحث الحديث والحقائق العلمية، وأتى بالحقائق الرائعة التي لا تقبل شكاً ولا جدلاً، لأنه تنزيل الذي يعلم السر في السموات والأرض، والذي خلق فسوى وقدر فهدى. والذي أعطى كل شيء خلقه ثم هدى.

ثالثاً: إن القرآن في تناوله لتلك الحقائق العلمية لم يقصد البيان العلمي بمعنى أن يعلمنا الكيمياء أو الهندسة أو الطبيعة (مثلاً) لأن القرآن كسائر الكتب السماوية ليست مهمته البحث في الشؤون الكونية والمسائل العلمية والفنية على الشكل المألوف في الكتب الخاصة الموضوعية فيها، وإنما يهدف من وراء ذلك إلى ما هو أعظم من ذلك بكثير وهو تقرير حقيقة الألوهية الحقّة للذي خلق هذا الكون بما فيه من إبداع وإتقان، ولهذا تجده يمس حقائق الكون الموجودة ممّاً يؤدي إلى العبرة والعظة، أما تعلم تلك الحقائق والكشف عن خباياها فهو نشاط ذهني متروك لنا لا علاقة للقرآن الكريم به إلا من حيث الحث عليه والأمر به.

«وأما التوسع في هذا الباب والتكلف فيه كما هو حاصل من كثير من الباحثين فليس من طبيعة هذا القرآن، ولا من طبيعة هذا الدين الذي يقول نبيه لأصحابه: «أنتم أعلم بشؤون دنياكم»⁽¹⁾ لما نهاهم عن تأبير النخل فشاخص»⁽²⁾.

(1) رواه مسلم من حديث أنس وعائشة في واقعة تأبير النخل.

(2) العلم والإيمان في بناء المجتمعات، ص 124.

الفصل الرابع

قضية ترا لا يحجاز
والنفسير العلي

الفصل الرابع

قضية الإعجاز(*) والتفسير العلمي

من رحمة الله تعالى بالناس أن أرسل إليهم الرسل مبشرين ومنذرين مبينين للناس معالم الحق والهداية والخير والإصلاح ﴿لئلا يكون للناس على الله حجة بعد الرسل﴾⁽¹⁾، وليكون الثواب والعقاب ﴿وما كنا معذيين حتى نبعث رسولاً﴾⁽²⁾.

وقد توالى الرسائل السماوية وتتابع وتسايرت التطور البشري، فكان الرسول يبعث إلى قومه خاصة ﴿لقد أرسلنا نوحاً إلى قومه﴾⁽³⁾، ﴿وإلى عاد أخاهم هوداً﴾⁽⁴⁾، ﴿وإلى ثمود أخاهم صالحاً﴾⁽⁵⁾، ﴿وإلى مدين أخاهم شعيباً﴾⁽⁶⁾، و﴿إبراهيم إذ قال لقومه اعبدوا الله واتقوه﴾⁽⁷⁾، ﴿ثم بعثنا من

(*) الإعجاز - بكسر الهمزة - مصدر أعجزه صيره عاجزاً أو وجده عاجزاً، والمعجزة هي ما أعجز به النبي الخصم عند التحدي، سميت بذلك لأن البشر يعجزون عن الإتيان بمثلها، ولذلك كانت دالة على صدق الرسول لأنها بمنزلة قول الله تعالى: صدق عبدي في كل ما يقوله عني.

(1) سورة النساء، الآية 165.

(2) سورة الإسراء، الآية 15.

(3) سورة الأعراف، الآية 58.

(4) سورة الأعراف، الآية 64، وسورة هود، الآية 50.

(5) سورة هود، الآية 60، وسورة الأعراف، الآية 72.

(6) سورة الأعراف، الآية 84، وسورة هود، الآية 83، وسورة العنكبوت، الآية 36.

(7) سورة العنكبوت، الآية 15.

بعدهم موسى بآياتنا إلى فرعون وملائه⁽¹⁾. و﴿إذ قال عيسى ابن مريم يا بني إسرائيل اني رسول الله إليكم﴾⁽²⁾.

وكل هؤلاء الرسل قد دعوا - أول ما دعوا - أقوامهم إلى توحيد الله وإفراده بالعبودية.

ولما تطورت البشرية في بوتقة الصقل والإعداد وبلغت الدرجة التي تؤهلها لاستقبال النظام الكامل الذي ينتظم كل شيء في حياة الإنسان في العاجل والأجل بعث الله محمداً ﷺ بدين هو خاتم الرسالات السماوية، وأنزل عليه كتاباً هو آخر الكتب وخاتم الشرائع الإلهية.

وحين أرسل الله هؤلاء الرسل أيدهم بالدلائل التي تدل على صدقهم فيما يبلغون عن الله، وهي تخالف ما ألفه الناس من السنن الكونية والنواميس الطبيعية وهي المعجزة التي تدل على صدق من ظهرت على يده ليدعن الجاحد ويزداد المؤمن إيماناً. «والمعجزة التي يقدمها الرسول، لتكون دليل صدقه وعنوان رسالته رحمة إلهية بالناس لأنها دليل الإيمان الذي يبتدون إليه»⁽³⁾. وهي أمر خارق للعادة مقرون بالتحدي، سالم عن المعارضة، يظهره الله تعالى على يد مدعي النبوة عند دعواه إياها شاهداً على صدقه⁽⁴⁾.

وكانت معجزات الأنبياء السابقين معجزات مادية تعتمد في ادراكها على الحس، ويكون من بعده التأمل، وكانت حوادث تقع وتنتهي ولا يبقى منها إلا الإخبار بها، فلا يعرفها على اليقين إلا من شاهدها. ولولا أن القرآن الكريم سجلها ما علمنا بها.

أما معجزة محمد ﷺ فكانت من نوع آخر، لم تكن حادثة تقع وتزول من غير بقاء لها إلا بالخبر بل كانت قائمة تخاطب الأجيال يراها ويقرؤها الناس في كل

(1) سورة الأعراف، الآية 102.

(2) سورة الصف، الآية 6.

(3) المجاهات التفسير في مصر في العصر الحديث، ص 270.

(4) الإمتقان 2: 116، ومناهل العرفان 66: 1.

عصر، وهي مناسبة لرسالته ﷺ لعمومها في الأجيال، فكانت معجزته مناسبة لهذه الرسالة الخالدة الباقية التي لا يحدها زمان بل تبقى إلى يوم القيامة⁽¹⁾.

وللمعجزة - بصفة عامة - صفات جوهرية تتلخص في التحدي وملاءمتها لطبيعة المخاطبين بها وغايتها التي تحدد مداها الزماني والمكاني⁽²⁾، وهذه الأمور الثلاثة متحققة في القرآن الكريم تمام التحقق.

أما التحدي فإن أمره مشهور، والنصوص التي تسجله على العرب كثيرة وصريحة، فقد تحداهم أولاً في الإتيان بمثله فقال: ﴿فليأتوا بحديث مثله إن كانوا صادقين﴾⁽³⁾، كما سجل عليهم عجزهم عن الإتيان بمثله ولو كان الجن معيناً لهم وشريكاً معهم فقال: ﴿قل لئن اجتمعت الإنس والجن على أن يأتوا بمثل هذا القرآن لا يأتون بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيراً﴾⁽⁴⁾.

ثم تحداهم بعشر سور منه وقطع عذرهم بقوله: ﴿قل فأتوا بعشر سور مثله مفتريات وادعوا من استطعتم من دون الله إن كنتم صادقين فإن لم يستجيبوا لكم فاعلموا أنما أنزل بعلم الله وأن لا إله إلا هو فهل أنتم مسلمون﴾⁽⁵⁾.

«وإنما قال (مفتريات) من أجل أنهم قالوا: لا علم لنا بما فيه من الأخبار الخالية والقصص البالغة ف قيل لهم (مفتريات) إزاحة لعلهم قطعاً لأعذارهم فعجزوا، فردهم من العشر إلى سورة واحدة من مثله مبالغة في التعجيز لهم فقال: ﴿أم يقولون اقتراء قل فأتوا بسورة مثله وادعوا من استطعتم من دون الله إن كنتم صادقين﴾⁽⁶⁾. وكرر ذلك عليهم فقال: ﴿وإن كنتم في ريب مما نزلنا على عبدنا فأتوا بسورة من مثله وادعوا شهداءكم من دون الله إن كنتم صادقين﴾⁽⁷⁾، ولكن الله

(1) المعجزة الكبرى (القرآن) محمد أبو زهرة، ط دار الفكر العربي، ص 13.

(2) اتجاهات التفسير في مصر في العصر الحديث ص 270.

(3) سورة الطور، الآية 34.

(4) سورة الإسراء، الآية 88.

(5) سورة هود، الآية 13.

(6) سورة يونس، الآية 38.

(7) سورة البقرة، الآية 22.

سجل عليهم أنهم لم يفعلوا ولن يفعلوا، مع أن اللغة لغتهم والكلام كلامهم⁽¹⁾. فعلى الرغم من هذا التحدي المتكرر لم يستطع العرب معارضة القرآن، وعجزوا عن هذه المعارضة مع توفر كل أسبابها ودواعيها.

فلقد جاء القرآن يطلب إلى العرب ترك أديانهم التي ألفوها ورثاستهم التي أحبوها، ويوجب عليهم ما يتعب أبدانهم وينقص أموالهم، ويطالبهم بعداوة أصدقائهم وصداقة أعدائهم بسبب الدين. ولا شك أن كل مطلب من هذه المطالب يكفي لأن يكون سبباً وداعياً إلى المعارضة، لما ينطوي عليه من المشقة البالغة على النفس لا سيما العرب الذين هم أكثر الأمم حمية⁽²⁾، وقد توفر لديهم كل ما يقتضيهم أن ينازلوه وأن يأتوا بمثله، في الوقت الذي انتفت الموانع الحسية والمنعوية من الإتيان بمثله لو كان في مقدورهم، فالقرآن بلسانهم العربي وألفاظه مكتوبة من حروفهم الهجائية التي يكونون منها ألفاظهم وأساليبه على مناجاة أساليبهم، وفيهم ملوك الفصاحة والبلاغة وفرسان السباق في الشعر والخطابة وسائر فنون القول وفيهم أهل الحكمة والأمثال. وقد دعاهم القرآن إلى الإستعانة بمن أرادوا ليكملوا ما نقصهم ويتموا عدتهم.

وهذا التحدي قائم منذ نزول القرآن ومستمر إلى يوم القيامة على حد سواء «لأن القرآن معجزة باقية على الزمن فالتحدي باق معها على الزمن، فهو تحد لأهل كل عصر كما كان تحدياً لأهل العصر الأول تماماً»⁽³⁾.

أما عن الأمر الثاني وهو ملاءمة المعجزة لطبيعة المخاطبين بها، فهي واضحة في معجزة القرآن. وتكفي الإشارة هنا إلى ما كان عليه العرب من البيان والقدرة على تصريفه بالسنتهم وتمكنهم من تذوقه وقدرتهم على الفصل بين الذي هو من كلام البشر والذي هو ليس من كلامهم⁽⁴⁾، وهي حقيقة يؤكدتها التاريخ، وقد

(1) البرهان في علوم القرآن 2: 110.

(2) بحر الدين الرزي، د. فتح الله حليف، دار المعارف بمصر 1969، ص 62.

(3) هامش إعجاز القرآن للباقلاني، بقلم المحقق السيد أحمد صقر، الطبعة الثالثة، دار المعارف بمصر، ص 8.

(4) الطاهرة القرآنية، المقدمة بقلم محمود شاكر ص 25.

فصل القول فيها كثير من الباحثين⁽¹⁾

يقول القاضي عياض المتوفى سنة (544 هـ) في كتابه (الشفاء) يصف بيانهم :
«خصوا من البلاغة والحكم بما لم يخص به غيرهم من الأمم وأوتوا من ذرابة اللسان ما لم يؤت لإنسان، ومن فصل الخطاب ما يقيد الألباب، وجعل الله لهم ذلك طبعاً وخلقة وفيهم غريزة وقوة، يأتون منه على البديهة بالعجب، ويدلون به إلى كل سبب فيخطبون بديهاً في المقامات وشديد الخطب، ويرتجزون به بين الطعن والضرب، ويمدحون ويقدحون، ويتوصلون ويتوصلون، ويرفعون ويضعون، فيأتون من ذلك بالسحر الخلال، ويطوقون من أوصافهم أجمل من سمط اللال، فيخدعون الألباب، ويدللون الصعاب، ويذهبون الإحن، ويهيجون الدمن، ويمرثون الجبان.

ومنهم البدوي ذو اللفظ الجزل والقول الفصل والكلام الفخم والطبع الجوهري والمتزع القوي، ومنهم الحضري ذو البلاغة البارة والألفاظ الناصعة والكلمات الجامعة، والطبع السهل. والتصرف في القول القليل الكلفة الكثير الرونق الرقيق الحاشية. . . (2) إلى آخر ما ذكره عياض في بيان بلاغة العرب ومقدار إدراكهم لجمال الكلمات في رنينها، كما يدرك الصيرفي رنين الحلي الكريمة غير الزائفة من بين ما يعرض عليه (3).

ولقد نفذ القرآن إلى صميم الروح العربية حتى أقر له بالفضل والتأثير المؤمن به والكافر على حد سواء (4)، وما قصة عمر بن الخطاب (5) والوليد بن المغيرة (6) الأخير شاهد على ذلك.

(1) اتجاهات التفسير ص 274.

(2) ذرابة اللسان: حديثه، الإحن: الأحقاد، والدمن: جمع دمنة آثار القوم وما خلفوا.

(3) الشفاء بتعريف حقوق المصطفى، طبعة صبيح، 1956 م، ص 217، 218.

(4) اتجاهات التفسير ص 275.

(5) عندما أسلم وشهد الله بالوحدانية ولرسوله بالرسالة بعد أن قرأ شيئاً من القرآن.

(6) عندما استمع إلى النبي وهو يتلو عليه شيئاً من القرآن فشهد شهادة الحق أولاً، ثم غير رأيه بعد ذلك.

على أن هذه المعجزة الخالدة بوصفها رسالة البشر عامة استطاعت أن تنفذ من هذا الطريق إلى خلق منهج للحياة بأوسع معانيها في كل ظروفها التاريخية والحضارية، فتستطيع أن تحس روح العربية في القرآن كما تحس روح الإنسانية وفطرتها الأصيلة في الوقت نفسه، فالمخاطبون في هذه المعجزة هم البشر جميعاً في كل زمان ومكان⁽¹⁾.

أما الغاية التي تحدد مداها الزمني فإنها تتحقق في القرآن بوصفه معجزة الرسالة الخالدة، فحاجة التبليغ مستمرة لذلك، فقد سلم القرآن من كل تحريف وحفظه الله من كل تغير، وروي متواتراً مضبوطاً، وسيبقى كذلك أبداً، وهي خاصية لم يتصف بها أي كتاب سماوي من قبله⁽²⁾.

وهو معجزة قائمة بذاتها منفصلة عن شخص النبي ﷺ قد اكتسبت صفة البقاء، فلم يقرن دوامها في هذه الدنيا بدوامه.

هذا، وقد وضعت كتب كثيرة على اختلاف العصور الإسلامية تشرح قضية الإعجاز وتبين وجوهه المختلفة.

والذي يهمنا في هذا البحث هو أن نبين أن بعض العلماء في القديم والحديث يرى أن من وجوه الإعجاز في القرآن الكريم اشتغاله على العلوم والمعارف التي لم يعهدها العرب ولا علماء أهل الكتاب، ولم يشتمل عليها كتاب من قبل.

ولكن ليس المقصود من ذلك - كما يقول الشيخ المراغي - أنه اشتمل على جميع العلوم جملة وتفصيلاً وبالأسلوب التعليمي المعروف، وإنما المقصود أنه أتى بأصول عامة لكل ما يهم الإنسان معرفته لصالح دينه ودنياه، ولبلوغه درجة الكمال جسداً وروحاً، وترك لأهل الذكر من المشتغلين بالعلوم المختلفة ليبينوا للناس جزئياتها بقدر ما أوتوا في الزمان الذي هم عاثشون فيه⁽³⁾.

(1) اتجاهات التفسير في مصر في العصر الحديث ص 276.

(2) المصدر السابق ص 277.

(3) الإسلام والطب الحديث، تقديم الشيخ المراغي ص 5.

وهؤلاء يرون أن الإعجاز العلمي أظهر الأدلة الآن على أن القرآن تنزيل من رب العالمين، وبخاصة بعد أن فسدت السليقة العربية وفقدت المعايير البلاغية قيمتها التي كانت عند العرب يوم نزل القرآن.

ومن المعلوم أن القرآن أنزل برسالة خالدة عامة إلى جميع البشر في كل زمان ومكان، ومن هنا كان لا بد - لكي يكون دليلاً على صدق من أنزل عليه ويثبت به - أن يثبت إعجازه لجميع الأمم والشعوب حتى تثبت حجته على جميع من أرسل إليهم، وحيث يجب أن يكون تبيين معالم إعجازه بما يلائم العرب الذين نزل بلسانهم وغير العرب من عامة الناس وخاصتهم تحقيقاً لعموم رسالته⁽¹⁾.

ويرون أن الإعجاز العلمي - في عصر العلم - هو الذي يفهم أعداء الإسلام ويقطع عليهم الكلام إلى معارضته أو مناهضته⁽²⁾، ولا يبقى منقذاً للطاعنين المفرضين، والقرآن معجز من هذا الوجه للبشر جميعاً إعجازاً مستمراً على عمر العصور.

وهذا من جملة ما شمله قول أئمة الدين: إن القرآن هو المعجزة المستمرة على تعاقب السنين، لأنه قد يدرك إعجازه العقلاء من غير الأمة العربية بواسطة ترجمة معانيه التشريعية والحكمية والعلمية والأخلاقية، وهو دليل تفصيلي لأهل تلك العلوم، وإجمالي لمن تبلغه شهادتهم بذلك.

كما أن هذا الوجه من الإعجاز إنما يثبت للقرآن بمجموعه أي بمجموع هذا الكتاب إذ ليست كل آية من آياته ولا كل سورة من سوره بمشتملة على هذا النوع من الإعجاز، ولذلك فهو إعجاز حاصل من القرآن وغير حاصل به التحدي إلا إشارة مثل قوله تعالى: ﴿ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافاً كثيراً﴾⁽³⁾.

فالقرآن قد اشتمل على كثير من العلوم الكونية والاجتماعية، مرت العصور وتقلب أحوال البشر في العلوم، ولم يظهر خطأ قطعي في شيء منها، ولهذا صح

(1) القرآن العظيم - هدايته وإعجازه في أقوال المفسرين ص 133.

(2) عبد الرحيم فودة، مجلة الأزهر، عدد رمضان، 1960.

(3) سورة النساء، الآية 82. التحرير والتنوير، 105:1 المقدمة العاشرة.

أن تجعل سلامته من هذا الخطأ ضرباً من ضروب إعجازه للبشر، وإن لم يكن هذا مما تحدى به الرسول ﷺ قومه، لأنه لم يكن ليظهر إلا من بعده فادخر ليكون حجة ^(١) على أهله.

ويرى هؤلاء العلماء أن مثل هذه المحاولات تكشف عن اتجاه أصيل في قضية الإعجاز، ينتقل من النظرة الجزئية إلى النظرة الجامعة الشاملة التي تتخطى حدود البيئة والعصر، وهو اتجاه له أهميته الجوهرية في رسالة عامة أرسلت إلى الناس كافة وحمل أصحابها أمانة التبليغ ^(٢).

هذه وجهة نظر القائلين: إن إشارة القرآن الكريم إلى حقائق علمية مختلفة لم تكن معروفة عند نزوله لأحد من الناس وقد أثبت العلم بعد ذلك أو سيثبتها دليل على إعجازه وأنه منزل من عند الله تعالى، على النحو الذي تقدم، وأنه صالح للبقاء ومسايرة حياة الناس.

وفي الطرف المقابل لهذا الرأي نجد أن هناك من العلماء من يرى أن هذا لا يصح أن يعد وجهاً من وجوه الإعجاز، وإن كان يثبت أن القرآن من عند الله تعالى، وذلك للأمور التالية:

أولاً: إن جعل الارتباط بين القرآن وبين الحقائق العلمية المختلفة وجهاً من وجوه الإعجاز فيه هو خلط بين علم التفسير وعلم إعجاز القرآن. يقول محمود شاكر: «و غاية التفسير - كما ينبغي أن يعلم - إنما هو بيان معاني ألفاظ مفردة وجمله مجتمعة، ودلالة هذه الألفاظ والجمل على المباني سواء في ذلك آيات الخبر والقصص وآيات الأدب وآيات الأحكام وسائر ما اشتملت عليه معاني القرآن، وهو أمر عن (إعجاز القرآن) بمعزل.

أما الأمر المرتبط بالشعر الجاهلي أو بقضايا الشعر جميعاً والمتصل بأساليب الجاهلية وغير الجاهلية وأساليب العربية وغير العربية ومقارنتها بأسلوب القرآن فهو

(1) تفسير المنار، 1: 207.

(2) تفسير المنار، 1: 208.

علم (إعجاز القرآن) ثم علم البلاغة . . . ولا مناص لتكلم في إعجاز القرآن من أن يتبين حقيقتين عظيمتين قبل النظر في هذه المسألة، وأن يفصل بينهما فصلاً ظاهراً لا يلتبس، وأن يميز أوضح التمييز بين الوجوه المشتركة التي تكون بينهما.

أولاهما: أن إعجاز القرآن - كما يدل عليه لفظه وتاريخه - هو دليل النبي ﷺ على صدق نبوته، وعلى أنه رسول الله يوحى إليه هذا القرآن، وأن النبي ﷺ كان يعرف (إعجاز القرآن) من الوجه الذي عرفه منه سائر من آمن به من قومه العرب، وأن التحدي الذي تضمنته آيات التحدي إنما هو تحد بلفظ القرآن ونظمه وبيانه لا بشيء خارج عن ذلك، فما هو بتحد بالأخبار بالغيب المكنون ولا بالغيب الذي يأتي تصديقه بعد دهر من تنزله، ولا بعلم ما لا يدركه علم المخاطبين به من العرب ولا بشيء من المعاني عما لا يتصل بالنظم والبيان.

ثانيهما: أن إثبات دليل النبوة وتصديق دليل الوحي وأن القرآن تنزيل من عند الله كما نزلت التوراة والإنجيل والزيور وغيرها من كتب الله سبحانه لا يكون منها شيء يدل على أن القرآن معجز، ولا أظن قائلاً يستطيع أن يقول: إن التوراة والإنجيل والزيور كتب معجزة بالمعنى المعروف في شأن إعجاز القرآن من أجل أنها كتب منزلة من عند الله . . . فالقرآن المعجز هو البرهان القاطع على صحة النبوة، أما صحة النبوة فليست برهاناً على إعجاز القرآن، والخلط بين هاتين الحقيقتين وإهمال الفصل بينهما في التطبيق والنظر وفي دراسة إعجاز القرآن قد أدى إلى تخطيط شديد في الدراسة قديماً وحديثاً - اهـ - ما أردنا نقله⁽¹⁾.

وإنما أثرنا نقل هذا النص على طوله لأنه في نظرنا يمثل اتجاهها له قيمته في هذه القضية، فأيات التحدي - كما تقدم - تسجل عجز العرب المعاصرين للنبي ﷺ عن معارضة القرآن، وبما أنهم عجزوا وثبت عجزهم - وهم سادة البيان وأرباب الفصاحة - فالعرب اليوم أولى بالعجز، والأعاجم بالضرورة عاجزون.

قال ابن عطية: «قامت الحجة على العالم بالعرب إذ كانوا أرباب الفصاحة ومظنة المعارضة، كما قامت الحجة في معجزة موسى بالسحرة، وفي معجزة عيسى

(1) الظاهرة القرآنية، تقديم عمود شاكر، ص 16 وما بعدها.

بالأطباء، فإن الله إنما جعل معجزات الأنبياء بالوجه الشهير أبدع ما يكون في زمن النبي الذي أراد إظهاره - اهـ⁽¹⁾. فإعجاز القرآن قد ثبت واستقر وصار فكرة مفروغاً منها لا تحتاج إلى إثبات، وأما اشتماله على العلوم الدينية والتشريعة وتحقيقه مسائل كانت مجهولة للبشر وعجز الزمان عن إبطال شيء منه فهي أمور لا سبيل إلى إنكارها بل يقوم عليها من الأدلة والبراهين ما لا يحصى، غير أنها أدخل في معاني الفلسفة القرآنية منها في بلاغة القرآن، وليست هي مادة التحدي لفصحاء العرب، وإنما تحدي القرآن العرب بأن يأتوا بمثل أسلوبه وأن يعبروا بمثل تعبيره وأن يبلغوا ذروته التي لا تسامى في التصوير.

فما إعجاز هذا القرآن الكريم إلا سحره، ولقد فعل سحره هذا فعله في القلوب في أوائل الوحي قبل أن تنزل آياته التشريعية ونبوءاته الغيبية ونظيرته الكلية إلى الكون والحياة والإنسان⁽²⁾.

ثانياً: إذا كنا لا نجد تناقضاً بين الآيات الكونية المذكورة في القرآن وبين ما يكتشفه العلم في حاضره ومستقبله بل نجد توافقاً وانسجاماً، فليس ذلك دليلاً على إعجازه المرتبط بالتحدي بل هو دليل على أنه منزل من عند الله تعالى، وليس كل ما نزل من عند الله معجزاً فالتوراة والإنجيل وغيرهما من الكتب السماوية نزلت من عند الله ولم توصف بالإعجاز كما وصف القرآن، ولم يقع بها التحدي كما وقع بالقرآن.

ثالثاً: إن الآيات الكونية التنزيلية لا تشمل سور القرآن كلها ولا آياته جميعها، وإنما تقع فقط في بعض السور دون بعضها الآخر، وفي بعض الآيات دون البعض الآخر، ومعلوم أن التحدي وقع بأية سورة من سور القرآن، فكل سورة من سور القرآن فيها إعجاز لا يبلغه أحد ولن يصل إليه أحد.

فلو كان القرآن معجزاً بسبب الإشارات العلمية المتفرقة في ثنايا بعض آياته لكان كثير من سور القرآن التي تخلو من مثل هذه الإشارات بعيدة عن الإعجاز،

(1) مقدمتان في علوم القرآن: مقدمة كتاب المباني ومقدمة ابن عطية ص 279، وانظر الاتفاق 2: 119.

(2) مباحث في علوم القرآن، صبحي الصالح، ص 320، 321.

ولم يقل بذلك أحد حتى القائلين بالإعجاز العلمي⁽¹⁾، لأن قليل القرآن وكثيره معجز، وإذا ثبت أن قليل القرآن وكثيره معجز ثبت أن ما في القرآن من حقائق الأخبار عن الأمم السالفة ومن أنباء الغيب، ومن دقائق التشريع، ومن عجائب أسرار الكون التي لم يعرفها البشر إلا بعد القرون المتطاولة من تنزيله كل ذلك بمعزل عن الذي طوّل به العرب وهو أن يستينوا في نظمه وبيانه انفكاكه من نظم البشر وبيانهم على وجه يحملهم على الاعتراف بأنه كلام رب العالمين، وبهذا الدليل كانوا مطالبين بأن يؤمنوا بأن ما جاء به من أخبار الأمم وأنباء الغيب ودقائق التشريع وعجائب أسرار الكون هو كله حق لا ريب فيه وإن ناقض ما يعرفون⁽²⁾.

رابعاً: إن هذا الوجه من الإعجاز - على القول به - لن يوفق إلى فهمه والإحاطة به إلا من كان من أهل العلم الذي يدرك هذه الحقائق ويعيها ويؤمن بصدقها، فإن لم يكن من أولئك حجب عنه هذا الوجه.

خامساً: في هذا الوجه من الإعجاز - أيضاً - منزلق خطير إذ أن بعض من يدعون العلم يحملون آيات القرآن في هذا السبيل ما لا تحتل. وقد ينسبون إلى العلم ما هو منه براء، رغبة في إثبات إعجاز للقرآن جديد⁽³⁾.

هذه هي وجهة نظر القائلين بأن اشتغال القرآن على الحقائق العلمية لا يعد وجهاً من وجوه الإعجاز في القرآن، وإن كان يدل على أنه منزل من عند الله، كما أنهم قد يتعقبون آراء الفريق الأول بالنقد فيعلقون على قولهم: «إن هذا النوع من المعارف التي جاء في سياق آيات الله وحكمه كانت مجهولة للعرب أو لجميع البشر في الغالب حتى أن المسلمين أنفسهم كانوا يتأولونها ويخرجونها عن ظواهرها لتوافق المعروف عندهم في كل عصر من ظواهر وتقاليده أو من نظريات العلوم والفنون الباطلة»⁽⁴⁾. يعلقون على هذا القول: بأن المسلمين الذين لم يعرفوا أن قرآنهم جاء

(1) ذهب الشيخ محمد الطاهر بن عاشور إلى أن الإعجاز العلمي حاصل بمجموع القرآن، وهو إعجاز حاصل من القرآن وغير واقع به التحدي إلا إشارة.

(2) الظاهرة القرآنية، تقديم عمود شاكر ص 22.

(3) الإسلام والإنسان المعاصر، فتحي رضوان، سلسلة اقرأ (406)، 2975 ص 226.

(4) تفسير المنار 1 : 212.

نؤيداً لحقائق العلوم التي لم يوفق إليها العلماء إلا بعد أن نزل القرآن بأربعة عشر قرناً قد حسن إيمانهم بالقرآن وحسن انتفاعهم بأحكامه وآياته فنشروا نوره وأقاموا دولته ونفذوا أوامره وانتهوا بنواحيه وتآدبوا بأدابه، في حين أن الذين يعرضون الآن علمهم وذكاءهم وقدرتهم على استنباط ما يتفق من آيات القرآن مع العلم الحديث هم أقل الأجيال المسلمة تأثراً بهذا القرآن في شؤون دينهم ودنياهم.

فالقرآن عاش بين المسلمين يفعل فعله في النفوس ولا أحد يعرف هذه الحقائق العلمية، وستمضي سنون طويلة سيتبين للناس حقائق علمية أخرى جاءت في تضاعيف آياته ولا أحد يعرفها، وسيبقى كذلك يفعل فعله في النفوس⁽¹⁾. أما موافقته للحقائق العلمية فهو يدل على أن القرآن كلام الله والكون خلق الله، وما دام الأمر كذلك فلا بد أن تنسجم آياته مع حقائق الكون، ولذلك يلفتنا المولى - جل وعز - بقوله: ﴿ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافاً كثيراً﴾⁽²⁾. «كما أن الأسلوب البياني للقرآن ما دام قد جاء لأمة بيانية فلا بد أن يكون مستوعباً للأداء البياني بكل صوره وبكل معطياته»⁽³⁾.

فإذا ما وجدناه يوافق الحقائق العلمية فإنه لما كان نزل لهداية الناس إلى من أنزله سبحانه فقد اقتضت حكمته تعالى في آياته الكونية التنزيلية أن ينزلها بأسلوب لا يصدم البديهي المسلم به عند الناس فيكذبوه، وفي الوقت نفسه لا ينافي الحقيقة الكونية، فيكون ذلك داعياً إلى تكذيبه إذا سّر الله سبيل الكشف لأولي العلم في مستقبل العصور، وهذا من أعجب عجائب القرآن التي لا تنقضي، ومن أدل الدلائل على أن القرآن حقاً من عند الله، فإن التعبير عن الحقيقة الكونية بأسلوب يطابقها تماماً أو يدل عليها أولي العلم ثم لا يصطدم الناس فيما يعتقدون، ولو كان ما يعتقدونه مخالفاً لتلك الحقيقة، هذا الأسلوب القرآني في التعبير عن

(1) الإسلام والإنسان المعاصر ص 226.

(2) سورة النساء، الآية 82.

(3) الشيخ محمد متولي الشعراوي، القضاء والقدر ومعجزات الرسول، إعداد أحمد فراج، دار الشروق، 1975 م، ص 123.

الحقائق الكونية أمر يعجز عنه البشر ولا يقدر عليه أحد إلا الله الذي أنزل القرآن هدى للناس⁽¹⁾.

وهذه الخاصية لا توجد في غير القرآن الكريم وهي أن ألفاظه مصروغة بحيث يصلح أن يخاطب بها الناس كلهم على اختلاف مداركهم وثقافتهم وعلى تباعد أزمته، ومع تطور علمهم واكتشافاتهم⁽²⁾.

وقد وضع هذه الخاصية في القرآن الدكتور محمد سعيد البوطي في كتابه (من روائع القرآن) فأحسن وأجاد فقال:

ولو أننا أخذنا آية من كتاب الله تتعلق بمعنى تتفاوت في مدى فهمه العقول ثم قرأناها على مسامع خليط من الناس متفاوت في المدارك والثقافة فنجد أن الآية تعطي كلاً منهم من معناها بقدر ما يفهم، وأن كلاً منهم يستفيد منها معنى وراء الذي انتهى عنده علمه. وليس معنى ذلك أن الآية تحتل بذلك وجهين متناقضين أو فهمين متعارضين بل هو معنى واحد، ولكن له سطحاً وعمقاً وجذوراً يتضمنها جميعاً أسلوب الآي، وضرب لذلك أكثر من مثال، فقال: من هذا القليل قوله تعالى: ﴿تبارك الذي جعل في السماء بروجاً وجعل فيها سراجاً وقمراً منيراً﴾⁽³⁾، ومثلها تماماً قوله تعالى: ﴿ألم تروا كيف خلق الله سبع سموات طباقاً وجعل القمر فيهن نوراً وجعل الشمس سراجاً﴾⁽⁴⁾، فهذه الآية وما يشبهها تصف كلاً من الشمس والقمر بمعنيين لهما سطح يفهمه الناس كلهم، ولهما عمق يصل إليه المتأملون والعلماء، ولهما جذور بعيدة يفهمها الباحثون المتخصصون، والآية تحمل بصيغتها هذه الدرجات الثلاث للمعنى، فتعطي كلا حسب طاقته وفهمه، فالعامي من العرب يفهم منها أن كلاً من الشمس والقمر يبعثان بالضياء إلى الأرض وإنما غاير في التعبير تنويعاً للفظ، والمتأمل من علماء العربية يدرك من وراء ذلك أن الآية تدل على أن الشمس تجمع إلى النور الحرارة فلذلك سماها سراجاً،

(1) الإسلام في عصر العلم ص 239.

(2) من روائع القرآن السيوطي: 136 (ط) الثالثة 1972.

(3) سورة الفرقان، الآية 61.

(4) سورة نوح، الآية 15، 16.

والقمر يبعث بضياء لا حرارة فيه ، وهو أيضاً معنى صحيح تدل عليه الآية دلالة لغوية . أما الباحث المتخصص في شؤون الفلك فيفهم من الآية إثبات أن القمر جرم مظلم وإنما يضيء بما ينعكس عليه من ضياء الشمس التي شبهها بالسراج بالنسبة له ، وهو أيضاً معنى صحيح تدل عليه الآية بلغتها وصياغتها ، فيقال : غرفة منيرة إذا انعكس عليها الضوء من سراج في وسطها ، ولا يقال قيس منير ، إذ النور ينبعث من حقيقته وداخله بل يقال قيس مضيء .

فالآية بأسلوبها وصياغتها تخاطب الناس بما يدركونه منها كلاً على حسب استعداداته وطاقته الفكرية ، وبذلك تكون خطاباً مفيداً لكل الناس⁽¹⁾ .

ونظرة العامي إلى قوله تعالى : ﴿فلينظر الإنسان مم خلق﴾ خلق من ماء دافق يخرج من بين الصلب والترائب⁽²⁾ تختلف عن نظرة عالم الحياة (البيولوجي) إليها .

كما أن نظرة العامي إلى السماء وتلألؤ نجومها وسطوع شمسها وقمرها تبعث عنده الإيمان بمدير هذا الكون وعظمته ، والفلكي بمعرفته الواسعة لحركات النجوم وسيرها ونظامها الدقيق وخلقها وأبعادها أقدر على معرفة العظمة وأشد إعجاباً بخالقها ومديرها ، وهكذا الشأن في العامي وعالم النفس . والعامي والفيلسوف كلهم صالح لأن يتأثر بهذا الأسلوب البياني الرائع مع اختلافهم في الاستعداد والمدارك والعواطف «فالقرآن لا يؤلف برهانه تأليفاً منطقياً ولا يتعرض لألفاظ الفلاسفة لأن الدين لم يأت للفلاسفة وحدهم ولا للعلماء وحدهم وإنما اعتمد على الفطرة والعاطفة ، وهما قدر مشترك بين الناس جميعاً»⁽³⁾ .

ومثال آخر من القرآن يختلف فهمه باختلاف الزمن ، قال تعالى : ﴿والخيل والبغال والحمير لتركبوها وزينة ويخلق ما لا تعلمون﴾⁽⁴⁾ .

(1) من روائع القرآن ص 136 .

(2) سورة الطارق ، الآية 5 - 7 .

(3) ضحى الإسلام 3 : 13 .

(4) سورة النحل ، الآية 8 .

لقد قرأ السلف الأول هذه الآية ففهموا منها أن الله تعالى يمتنّ عليهم بأن
ذللّ لهم هذه الأنواع من الحيوان لتكون وسيلة إلى قضاء حوائجهم وبلوغ مآربهم،
وللزينة بانخاذها وكسبها، فإذا قرأوا الجملة التي تليها ﴿ويخلق ما لا تعلمون﴾
ذكروا تفسيرات مختلفة لهذه الجملة.

ويقرؤها المسلم في هذا العصر فلا يشك في أن المراد بها هذه الوسائل
الحديثة الأخرى التي أضيفت إلى الوسائل السابقة والتي ستحدث في مستقبل الأيام
بما لا نعلمه نحن الآن أيضاً.

وهكذا نجد الآية خطاباً لأهل العصور المتابعة كلها وليست خاصة بقوم
دون قوم أو جيل دون جيل، وهيهات أن يقوى البشر على صياغة كلام يكون على
قدر أفهام الناس المتفاوتة وعلومهم المختلفة المتطورة بحيث يشعر كل فريق أن
الكلام على قدر حاجته وفهمه فهو إعجاز يفوق طاقة البشر⁽¹⁾. فالله تعالى الذي
أنزل القرآن - وهو آخر كتاب سماوي - للبشرية جمعاء أنزله بأسلوب بياني رائع
بحيث يفهم أهل كل عصر من العصور من هذا الأسلوب ما يؤدي إلى المقصود أو
يقارب، ولا يخطئ أحدهما الآخر ما دام ذلك الفهم في حدود قوانين اللغة التي
نزل بها وأصول الشريعة التي اشتمل عليها وقواعدها العامة. يقول الرافعي:

إننا نرى أسلوب القرآن من اللين والمطاوعة على التقلب والمرونة في التأويل
بحيث لا يصادم الآراء الكثيرة المتعاقبة التي تخرج بها طبائع العصور المختلفة، فهو
يفسر في كل عصر بنقص عن المعنى وزيادة فيه واختلاف وتمحيص، وقد فهمه
عرب الجاهلية الذين لم يكن لهم إلا الفطرة، وفهمه كذلك من جاء بعدهم من
الفلاسفة وأهل العلوم، وفهمه كذلك زعماء الفرق المختلفة على ضروب من
التأويل، وأثبتت العلوم الحديثة كثيراً من حقائقه التي كانت مغيبة، وفي علم الله ما
يكون من بعد.

وإن ما عهد من كلام الناس لا يحتمل كل ذلك ولا بعضه بل هو كلما كان
أدنى إلى البلاغة كان نصاً في معناه ثابتاً في حيزه، تجمد الكلمة أو الجملة على معنى

(1) من روائع القرآن ص 136.

بعينه قد يستقيم وقد ينتقص، وكيفما قلبته رأيته وجهاً واحداً، وصفة واحدة لأن الفصاحة لا تكون في الكلام إلا إبانة، وهذه لا تفصح إلا بالمعنى المتعين، وهذا المعنى محصور في غرضه الباعث عليه - اهـ -⁽¹⁾.

وفي نهاية هذا الفصل نسجل الملاحظتين الآتيتين:

الملاحظة الأولى:

إن الإعجاز باعتباره مقروناً بالتحدي لا يتحقق على وجهه الأكمل إلا في الإعجاز البياني، لأنه هو الذي يتأتى وجوده في كل سورة من سور القرآن. أما الإعجاز العلمي وغيره من الأوجه الأخرى التي ذهب إليها العلماء فليست بالأمر العام الموجود في كل سورة. وقد جعل سبحانه في صفة كل سورة أن تكون معجزة بنفسها لا يقدر أحد من الخلق أن يأتي بمثلها فقال: ﴿قل فأتوا بسورة من مثله وادعوا من استطعتم من دون الله ان كنتم صادقين﴾⁽²⁾ من غير تعيين سورة بذاتها، فدل ذلك على ما ذكرنا.

الملاحظة الثانية:

أن الدقة في الأداء القرآني الذي يتفق مع ما اكتشفه ويكتشفه العلم من حقائق بحيث لا يوجد تناقض بينهما هو منهج اتبعه القرآن في التعبير عنها في تناسق تام لا نفرة فيه.

وهو راجع إلى الإعجاز البلاغي الذي تحدى به القرآن العرب، كما لا يزال يتحدى الأجيال المتعاقبة.

ولا شك أن الأعجمي حين يجد هذا التوافق والانسجام بين التعبير القرآني وبين الاكتشاف العلمي يتحقق من إعجاز القرآن في بلاغته وهو ما يدعوه ويلح

(1) إعجاز القرآن، الطبعة الرابعة، 1940 م، ص 216، 217.

(2) سورة يونس، الآية 38.

على القائلين بالإعجاز العلمي . يقول المرحوم الدكتور محمد عبد الله دراز:
وهكذا تجد كتاباً مفتوحاً مع الزمان يأخذ كل منه ما يسر له ، بل ترى محيطاً
مترامي الأطراف لا تحده عقول الأفراد ولا الأجيال .
ألم تتركب وسع الفرق الإسلامية على اختلاف منازعها في الأصول
والفروع؟ وكيف وسع الآراء العلمية على اختلاف وسائلها في القديم والحديث؟ .
وهو على لينة للعقول والأفهام صلب متين لا يتناقض ولا يتبدل ، يحتاج به
كل فريق لرأيه ويدعيه لنفسه ، وهو في سموه فوق الجميع يطل على معاركهم
حوله ، وكأن لسان حاله يقول لهؤلاء وهؤلاء : ﴿كل يعمل على شاكلته فربكم
أعلم بمن هو أهدى سبيلاً﴾⁽¹⁾ .⁽²⁾

(1) سورة الإسراء ، الآية 84 .

(2) النبا العظيم ، نظرات جديدة في القرآن ، طعة السعادة ، 1969 ، ص 111 ، 112 .

البَابُ الثَّانِي

أَشْهُرٌ مِّنْ تَنَاوَلَهُ مِنَ الْمُفَسِّرِينَ الْقُدَامَى وَالْمُحْدَثِينَ

الفصل الأول : أشهر من تناوَله من القدامى .
الفصل الثاني : أشهر القائلين بالتفسير العامي
في العصر الحديث بمقالة .
الفصل الثالث : أشهر القائلين بالتفسير العامي
في العصر الحديث باعتدال .

الفصل الأول

أَشْهَرُ مَنْ تَنَاوَلَهُ مِنَ الْقُدَامَى

الغزالي - فخر الدين الرازي - ابن أبي الفضل المرسي
الزكشي - السيوطي

الفصل الاول

اشهر من تناوله من القدامى

أشهر من تناوله من القدامى : (الغزالي، فخر الدين الرازي، ابن أبي الفضل المرسي، والزركشي، السيوطي).

في بداية الحديث في هذا الفصل عن العلماء القدامى الذين قالوا بالتفسير العلمي، تجدر الإشارة إلى أن هؤلاء العلماء - وإن اتفقوا على قضية أن القرآن مشتمل على علوم الأولين والآخرين، وأنه ما من شيء إلا ويمكن استخراجَه من القرآن - يختلفون في أسلوب التطبيق على هذا المبدأ.

فبينما نرى الغزالي يقسم علوم القرآن إلى قريبة المأخذ منه ويعيدته، وأن جميع العلوم ما ذكرها وما لم يذكرها ليست خارجة عن القرآن، ويبقى قوله نظرياً إلى حد بعيد.

نجد فخر الدين الرازي يطبق ذلك عملياً في تفسيره على معارف عصره، وإن كان أغلب العلوم التي طبقها وتناولها هي علوم الفلك والهيئة، بالإضافة إلى حرصه على بيان تفوق الحكمة القرآنية على سائر الطرق الفلسفية. ولو نظرنا إلى ابن أبي الفضل المرسي لوجدناه يبين كيفية استنباط العلماء كل العلوم من القرآن الكريم، ويضيف إليها علوماً أخرى يصفها بأنها من علوم الأوائل مثل الطب والجدل... الخ ما سنعرض له في حينه.

أما الزركشي فلنأنا نجده يكتفي بنقل أقوال من سبقه من العلماء في هذا

الشأن، بالإضافة إلى بعض أمثلة قليلة يقول عنها: إن بعض العلماء استنبطها من القرآن.

وأخيراً نجد السيوطي لا يختلف كثيراً عن سابقه (الزركشي) في نقل أقوال من تقدمه وبعض الأمثلة القليلة، ثم يعلق في نهاية كلامه بعبارة عامة فيقول: «وأنا أقول قد اشتمل كتاب الله العزيز على كل شيء»⁽¹⁾.

والآن إلى تفصيل الحديث عن كل واحد من هؤلاء العلماء:

الإمام أبو حامد الغزالي والتفسير العلمي:

الكاتبون في هذا الموضوع يذهبون إلى أن الإمام أبا حامد الغزالي المتوفى سنة (٥٠٥ هـ) كان إلى عهده أكثر من استوفى هذا القول وأيده وعمل على ترويجه في الأوساط العلمية الإسلامية⁽²⁾ مما يدل على أن هذه الفكرة كانت موجودة قبل الغزالي منذ أن ترجمت العلوم المختلفة إلى اللغة العربية ودونت العلوم المختلفة. بل أننا نستطيع أن نقول أن بذورها كانت موجودة في عصر صحابة رسول الله ﷺ فقد استدلل هؤلاء العلماء بقول عبد الله بن مسعود - رضي الله عنه - : «من أراد علم الأولين والآخرين فليتدبر القرآن» ولكنها كانت في بدايتها. والإمام الغزالي من سادات الصوفية الذين يرون أن لكل كلمة في القرآن ظاهراً وباطناً وحداً ومطلعاً، ولهذا نجده في كتابه (إحياء علوم الدين) يعتد الباب الرابع من أبواب آداب تلاوة القرآن (في فهم القرآن وتفسيره بالرأي من غير نقل) يقول فيه:

«لعلك تقول: عظمت الأمر فيما سبق في فهم أسرار القرآن وما ينكشف لأرباب القلوب الزكية من معانيه فكيف يستحب ذلك، وقد قال ﷺ: «من فسر القرآن برأيه فليتبوأ مقعده من النار»، وعن هذا شنع أهل العلم بظاهر التفسير على أهل التصوف في تأويل كلمات في القرآن على خلاف ما نقل عن ابن عباس وسائر المفسرين، وذهبوا إلى أنه كفر.

(1) الانتقان 2: 130.

(2) أمين الخولي، التفسير معالم حياته ص 20، والتفسير والمفسرون 3: 140.

بل الأخبار والآثار تدل على أن في معاني القرآن متسعاً لأرباب الفهم، قال علي: «إلا أن يؤتي الله عبداً فهماً في القرآن»، وقال ﷺ: «إن للقرآن ظهراً وبطناً وحداً ومطلعاً» وقال أبو الدرداء: «لا يفقه الرجل حتى يجعل للقرآن وجوهاً»، وقد قال بعض العلماء: «لكل آية ستون ألف فهم وما بقي فهو أكثر» وقال آخرون: «القرآن يحوي سبعة وسبعين ألف علم ومائتي علم، إذ لكل كلمة علم ثم يتضاعف ذلك أربعة أضعاف، إذ لكل كلمة ظاهر وباطن وحد ومطلع».

ثم يروي عن ابن مسعود أنه قال: «من أراد علم الأولين والآخرين فليستدبر القرآن» ويعلق عليه بقوله: وذلك لا يحصل بمجرد تفسيره الظاهر.

ثم يقول الغزالي: «وبالجملة فالعلوم كلها داخلة في أفعال الله تعالى وصفاته، وفي القرآن شرح ذاته وصفاته وأفعاله، وهذه العلوم لا نهاية لها. وفي القرآن إشارة إلى مجامعها، والمقامات في التعمق في تفصيله راجع إلى فهم القرآن، وبمجرد ظاهر التفسير لا يشير إلى ذلك بل كل ما أشكل فهمه على النظر واختلاف فيه الخلائق في النظريات والمعقولات ففي القرآن إليه رموز ودلالات عليه يختص أهل العلم بدرورها».

ثم يفصل في كتابه (جواهر القرآن) ما أجمله هنا، فيعقد الفصل الرابع منه ليكيفية انشعاب العلوم الدينية كلها وما يتصل بها من القرآن، فقسم علوم القرآن إلى قسمين:

الأول: علم الصدف والقشر، وجعل منه علوم اللغة والنحو والقراءات وعلم مخارج الحروف، وعلم التفسير الظاهر، ثم رتبها قريباً وبعداً عن القشر واللباب.

الثاني: علم اللباب ويشتمل على معرفة قصص القرآن وما يتعلق بالأنبياء وعلم الكلام وعلم الفقه وأصوله والعلم بالله واليوم الآخر، والعلم بالصراف المستقيم وطريق السلوك. ثم قال:

«وقد أودعنا هذه العلوم بكتب إحياء علوم الدين، فهذه هي مجامع العلم

التي تتشعب من القرآن ومراتبها.

ثم يعقد الفصل الخامس لكيفية انشعاب سائر العلوم من القرآن وفيه يقول: «ولعلك تقول: إن العلوم وراء هذه كثيرة كعلم الطلب والنجوم وهيئة العالم وهيئة بدن الحيوان وتشريح أعضائه، وعلم السحر والطلسمات وغير ذلك، فاعلم أننا إنما أشرنا إلى العلوم الدينية التي لا بد من وجود أصلها في العالم حتى يتيسر سلوك طريق الله تعالى والسفر إليه.

أما هذه العلوم التي أشرت إليها فهي علوم ولكن لا يتوقف على معرفتها صلاح المعاش والمعاد، فلذلك لم نذكرها، . . .

ثم يقول: ثم هذه العلوم ما عددناها وما لم نعددها ليس أوائلها خارجة عن القرآن فإن جميعها مغترفة من بحر واحد لا ساحل له، وإن البحر لو كان مداداً لكلماته لنفد البحر قبل أن تنفذ.

فمن أفعال الله تعالى - وهو بحر الأفعال - مثلاً: الشفاء والمرض كما قال الله تعالى حكاية عن إبراهيم: ﴿وَإِذَا مَرَضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ﴾⁽¹⁾، وهذا الفعل الواحد لا يعرفه إلا من عرف الطب بكماله، إذ لا معنى للطب إلا معرفة المرض بكلماته وعلاماته ومعرفة الشفاء وأسبابه.

ومن أفعاله: تقدير الشمس والقمر ومنازلها بحسبان، وقد قال الله تعالى: ﴿الْشَّمْسُ وَالْقَمَرُ بِحُسْبَانٍ﴾⁽²⁾، وقال: ﴿وَقَدَرَهُ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابِ﴾⁽³⁾، وقال: ﴿وَخَسَفَ الْقَمَرُ وَجَمَعَ الشَّمْسُ وَالْقَمَرَ﴾⁽⁴⁾، وقال: ﴿يُولِجُ اللَّيْلُ فِي النَّهَارِ وَيُولِجُ النَّهَارُ فِي اللَّيْلِ﴾⁽⁵⁾، وقال: ﴿وَالشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ هَآذِلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ﴾⁽⁶⁾.

(1) سورة الشعراء، الآية 80.

(2) سورة الرحمن، الآية 5.

(3) سورة يونس، الآية 5.

(4) سورة القيامة، الآية 8، 9.

(5) سورة الحج، الآية 61، وسورة لقمان، الآية 29.

(6) سورة يس، الآية 38.

ولا يعرف. حفيظة سير الشمس والقمر بحسبان وخسوفهما وولوج الليل في النهار وكيفية تكور أحدهما على الآخر إلا من عرف هيئات تركيب السموات والأرض وهو علم برأسه.

ولا يعرف كمال معنى قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الْإِنْسَانُ مَا غَرَكَ بِرَبِّكَ الْكَرِيمِ الَّذِي خَلَقَكَ فَسَوَّاكَ فَعَدَلَكَ فِي أَيِّ صُورَةٍ مَا شَاءَ رَكَّبَكَ﴾⁽¹⁾ إلا من عرف تشريح الأعضاء من الإنسان ظاهراً وباطناً وعددها وأنواعها وحكمتها ومنافعها، وقد أشار في القرآن في مواضع إليها، وهي من علوم الأولين والآخرين، وفي القرآن مجامع علم الأولين والآخرين.

وكذلك لا يعرف كمال معنى قوله تعالى: ﴿سُوَيْتَهُ وَنَفَخْتَ فِيهِ مِنْ رُوحِي﴾⁽²⁾ ما لم يعلم التسوية والنفخ والروح، ووراءها علوم غامضة يغفل عن طلبها أكثر الخلق، وربما لا يفهمونها إن سمعوها من العالم بها. ثم قال:

«ولو ذهبت أفصل ما تدل عليه آيات القرآن من تفاصيل الأفعال لطال، ولا تمكن الإشارة إلا إلى مجامعها، وقد أشرنا إليه حيث ذكرنا أن من جملة معرفة الله تعالى معرفة أفعاله، فتلك الجملة تشتمل على هذه التفاصيل. فتفكر في القرآن ولتمس غرائبه لتصادف فيه مجامع علم الأولين والآخرين وجملة أوائله، وإنما التفكر فيه للتوصل من جهته إلى تفصيله، وهو البحر الذي لا شاطئ له - اهـ»⁽³⁾.

وهذا المنهج الذي سار عليه الغزالي في تفسير هذه الآيات هو منهج علمي سليم إذا نظرنا إليه في ضوء الهداية القرآنية، على معنى أن من يريد أن يتعرض لتفسير القرآن يجب أن يكون ملماً بالعلوم الشرعية أصولاً وفروعاً وبالعلوم العربية بجميع فروعها إلى جانب إلمامه بالعلوم الكونية ليستطيع في ظلها وظل العلوم الشرعية والعربية أن يبين معالم الهداية القرآنية، وإقامة الحجة على مقاصد القرآن.

(1) سورة الانفطار، الآية 6 - 8.

(2) سورة الحجر، الآية 29، وسورة ص، الآية 71.

(3) جواهر القرآن ص 21 - 30، ط مكتبة الجندي (لات).

فيكون سبيل هذه العلوم الكونية في تفسير القرآن سبيل غيرها من الوسائل التي تساعد على فهم النص القرآني فهماً يحقق الغرض منه⁽¹⁾.

وهذا ما يظهر أن الإمام الغزالي قد قصد إليه، كما يدل عليه تعقيبه على كل الآيات التي ساقها مثل تعقيبه على قوله تعالى: ﴿وَإِذَا مَرَضْتَ فَهُوَ يَشْفِيكَ﴾ بقوله: وهذا لا يعرفه إلا من عرف الطب بكماله، وكذلك تعقيبه على قوله تعالى: ﴿سُوَيْتَهُ وَنَفَخْتَ فِيهِ مِنْ رُوحِي﴾ بقوله: وكذلك لا يعرف كمال معنى هذه الآية ما لم يعلم التسوية والنفخ والروح. وهكذا في كل تعقيباته على ما ساقه من الآيات الكونية.

فخر الدين الرازي والتفسير العلمي:

وقد جاء بعد الإمام الغزالي فخر الدين الرازي المتوفى سنة 606 هـ، فطبق في تفسيره (مفاتيح الغيب) ما جد في البيئة الإسلامية من ثقافة فكرية على آيات القرآن الكريم، مستنداً بذلك على وحدانية الله تعالى وقدرته وإرادته وواسع علمه.

والرازي هو القائل في مقدمة تفسيره هي لسورة الفاتحة:

«اعلم أنه جرى على لساني في بعض الأوقات أن هذه السورة الكريمة - الفاتحة - يمكن أن يستنبط من فوائدها ونفائسها عشرة آلاف مسألة، فاستبعد هذا بعض الحساد وقوم من أهل الجهل والغبي والعناد، وحلوا ذلك على ما ألفوه من أنفسهم من التعلقات الفارغة عن المعاني، والكلمات الخالية عن تحقيق المعاهد والمباني. فلما شرعت في تصنيف هذا الكتاب قدمت هذه المقدمة لتصير كالتنبيه على أن ما ذكرناه أمر ممكن الحصول قريب الوصول» - 1 هـ -⁽²⁾.

وإذا كان الغزالي ومن قبله قد وضعوا الأسس النظرية للتفسير العلمي فإن

(1) القرآن العظيم، هدايته وإعجازه ص 257.

(2) مفاتيح الغيب 1: 1.

الرازي قد طبق ذلك عملياً، وسنذكر أمثلة يتضح منها طريقته في تناوله تفسير بعض الآيات الكونية.

فهو في تفسير قوله تعالى: ﴿الذي جعل لكم الأرض فراشاً والسماء بناء...﴾⁽¹⁾ الآية. يذكر أن كون الأرض فراشاً مشروط بأمور:

الأول: كونها ساكنة، وذلك لأنها لو كانت متحركة لكانت حركتها إما بالاستقامة أو بالاستدارة، فإن كانت بالاستقامة لما كانت فراشاً على الإطلاق، لأن من طفر من موضع عال كان يجب ألا يصل إلى الأرض، لأن الأرض هاوية وذلك الإنسان هاو، والأرض أثقل من الإنسان، والثقلان إذا نزلا كان أثقلهما أسرعهما والأبطأ لا يلحق الأسرع فكان يجب ألا يصل الإنسان إلى الأرض، فثبت أنها لو كانت هاوية لما كانت فراشاً.

أما لو كانت حركتها بالاستدارة لم يمكن انتفاعنا بها كاملاً، لأن حركة الأرض - مثلاً - لو كانت إلى المشرق، والإنسان يريد أن يتحرك إلى جانب المغرب، ولا شك أن حركة الأرض أسرع فكان يجب أن يبقى على مكانه وأنه لا يمكنه الوصول إلى حيث يريد فلما أمكنه ذلك علمنا أن الأرض غير متحركة بالاستقامة ولا بالاستدارة فهي ساكنة» - ١ هـ⁽²⁾.

ثم ذهب الرازي يذكر سبب هذا السكون الذي اعتقد أنه تمت له البرهنة عليه، مع أنه قد أصبح من المسلم به الآن أن الأرض متحركة وليست ساكنة، ولها دورتان: الأولى حول نفسها والثانية حول الشمس.

وقد يلتمس العذر للإمام الرازي في رأيه هذا بأن الأرض لما كانت متسعة جداً ولا تشاهد الحركة فيها في نظر العين المجردة كان القول بسكونها هو الأقرب إلى العقل، وأما حركتها فلا تثبت إلا بدليل، وهو لم يكن ليعلم إلا بإجراء التجارب والملاحظة.

(1) سورة البقرة، الآية 22.

(2) مفاتيح الغيب 1: 223.

ولما ذكر الرازي بقية الشروط التي قال أنها ضرورية ليتحقق كون الأرض فراشاً لنا، نراه يرد على من زعم أن الأرض ليست كرة مستدلاً بهذه الآية فيقول: «ومن الناس من زعم أن الشرط في كون الأرض فراشاً ألا تكون كرة، واستدل بهذه الآية، وهذا بعيد جداً، لأن الكرة إذا عظمت جداً كانت القطعة منها كالسطح في إمكان الاستقرار عليه.

والذي يزيده تقريراً أن الجبال أوتاد الأرض ثم يمكن الاستقرار عليها، فهذا أولى⁽¹⁾.

وفي تفسير قوله تعالى: ﴿إِنْ فِي خَلْقِ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ وَالْفَلَكَ الَّتِي تَجْرِي فِي الْبَحْرِ بِمَا يَنْفَع النَّاسَ وَمَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنَ السَّمَاءِ مِنْ مَاءٍ فَأَحْيَا بِهِ الْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِنْ كُلِّ دَابَّةٍ وَتَصْرِيفِ الرِّيَّاحِ وَالسَّحَابِ الْمُسَخَّرِ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ آيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾⁽²⁾. يعود إلى الأسلوب العلمي فيستدل بهذه الآية على وجود الله وعلى وحدانيته وبرأئه من الضد والند، ويجد فيها ثمانية أنواع من الدلائل على ذلك ويعددتها كما جاءت في الآية.

وقبل أن يعرض الرازي لهذه الأدلة بالتفصيل ويبين كيفية الاستدلال بهذه الأحوال على وجود الصانع ووحدانيته يثير عدة مسائل تتصل بالآية من بينها سبب نزولها، ثم يعود بعد إثارة هذه المسائل إلى بيان كيفية الاستدلال بأحوال السموات والأرض واختلاف الليل والنهار. . . إلى آخر ما ورد في الآية الكريمة.

فبدأ بالنظر في أحوال السماء فطرق موضوعات كثيرة من علم الفلك وعقد لذلك فصولاً: (الفصل الأول) في ترتيب الأفلاك و(الثاني) في معرفة الأفلاك و(الثالث) في مقادير الحركات و(الرابع) في كيفية الاستدلال بهذه الأحوال على وجود الصانع.

ثم ينتقل بعد ذلك إلى بيان معرفة الأفلاك ومقادير حركاتها ويستعرض في ذلك آراء بطليموس وآراء الفلكيين القدماء من الهنود والصينيين والبابليين

(1) المرجع السابق 1: 225.

(2) سورة البقرة، الآية 164.

والمصريين وعلماء الروم والشام، ويعترض عليهم أحياناً.

ثم رجع إلى الأرض وذكر في أحوالها فصلاً، وفي بيان دلالة هذه الأحوال على وجود الصانع فصلاً آخر، وفي بيان دلالة أحوال السماء على وجود الصانع يذكر أربعة عشر وجهاً ترجع جميعها إلى أن الأفلاك رغم اتفاقها في الطبيعة الفلكية إلا أن كلاً منها قد اختص بمقدار معين وحيز معين وشكل معين وحركة معينة وترتيب معين واختلف معين ولون معين.

ولا بد من غصص مدبر يخصص كلاً منها بمقداره وحيزه وشكله وحركته ولونه، ويجعلها على هذا الترتيب العجيب.

ثم يمضي الرازي على هذا النمط في بيان أحوال الأرض وسائر ما جاء في الآية الكريمة من الدلائل التي يستدل بها على وجود الله⁽¹⁾.

وعند تفسير قوله تعالى: ﴿يغشي الليل النهار يطلبه حثيثاً والشمس والقمر والنجوم مسخرات بأمره ألا له الخلق والأمر تبارك الله رب العالمين﴾⁽²⁾.

تكلم على حركة الشمس وحصول الليل والنهار، وعلى حركات الأفلاك. ثم نجده يستشعر استغراب المطالع لتفسيره جلب تلك المسائل المغرقة في علم الهيئة والفلك فيعود إلى التوبة بمنهجه والتعريض بأصحاب التفاسير الآخرين، فيقول:

«وربما جاء بعض الجهال والحمقى وقال: إنك أكثرت في تفسير كتاب الله تعالى من علم الهيئة والنجوم، وذلك على خلاف المعتاد».

فيقال لهذا المسكين: انك لو تأملت في كتاب الله تعالى حق التأمل لعرفت فساد ما ذكرته... ثم قرر ذلك من وجوه.

الأول: إن الله تعالى ملأ كتابه بمثل تلك الاستدلالات الكونية، فلم يكن البحث عنها والتأمل في أحوالها جائزاً لما ملأ الله كتابه منها.

(1) مفاتيح الغيب 2: 56 - 70.

(2) سورة الأعراف، الآية 54.

الثاني: إنه تعالى قال: ﴿أفلم ينظروا إلى السماء فوقهم كيف بنيناها وزيناها وما لها من فروج﴾⁽¹⁾. فهو قد حث على التأمل في كيفية بنائها، ولا معنى لعلم الهيئة إلا هذا.

الثالث: إن الله تعالى رغب التأمل في أبدان الناس بقوله: ﴿وفي أنفسكم أفلا تبصرون﴾⁽²⁾ فما كان أعلى شأنًا وأعظم برهاناً منها أولى بأن يجب التأمل في أحوالها ومعرفة ما أودع الله فيها من العجائب والغرائب.

الرابع: إن الله تعالى مدح المتفكرين في خلق السموات والأرض، ﴿ويتفكرون في خلق السموات والأرض ربنا ما خلقت هذا باطلاً سبحانه﴾⁽³⁾ ولو كان ذلك ممنوعاً منه لما فعل.

الخامس: إن الناس في ذلك التفكير على درجتين: منهم من يكتفي بالاستدلال الإجمالي، ومنهم من يسمو إلى الاستدلال التفصيلي، وإن لكثرة الدلائل وتواليها أثراً في تقوية اليقين وإزالة الشبهات.

ثم ختم هذا البيان بقوله:

«فإذا كان الأمر كذلك ظهر أنه تعالى إنما أنزل هذا الكتاب لهذه الفوائد والأسرار لا لتكثير النحو الغريب والاشتقاقات الخالية من الفوائد والحكايات الفاسدة، نسأل الله العون والعصمة - اهـ⁽⁴⁾.

وعند تفسيره لقوله تعالى: ﴿وإن لكم في الأنعام لعبرة نسقيكم مما في بطونه من بين فرث ودم لبناً خالصاً سائغاً للشاربين﴾⁽⁵⁾ نجده في هذا الموضع أمام أثر يرويه الكلبي عن أبي صالح عن ابن عباس أنه قال:

(1) سورة ق، الآية 6.

(2) سورة الذاريات، الآية 21.

(3) سورة آل عمران، الآية 191.

(4) مفاتيح الغيب 4: 237، 238.

(5) سورة النحل، الآية 66.

«إذا استقر العلف في الكرش صار أسفله فرثاً وأعله دماً وأوسطه لبناً، فيجري الدم في العروق، واللبن في الضرع، ويبقى الفرث كما هو، فذلك هو قوله تعالى: ﴿من بين فرث ودم لبناً خالصاً سائغاً للشاربين﴾ لا يشوبه الدم ولا الفرث.

فيقف الرازي أمام هذا الأثر موقف الناقد الواثق من علمه، البصير بما توصل إليه العلم في عهده في شأن اللبن وفي كيفية تكونه داخل الجسم: جسم الأنثى من الإنسان والحيوان، من الغذاء والدم، فلا يتردد في رد هذا الأثر قائلاً: «والشيء الذي دلت المشاهدة على فساده لم يميز المصير إليه. الدليل الحسي لا يثبت ذلك، فإن هذه الحيوانات تذبح وما رأى أحد في كرشها لا دماً ولا لبناً.

بل الحق أن الحيوان إذا تناول الغذاء وصل ذلك العلف إلى معدته إن كان إنساناً وإلى كرشه إن كان من الأنعام وغيرها، فإذا طبخ وحصل الهضم الأول فيه فما كان منه صافياً انجذب إلى الكبد، وما كان كثيفاً نزل إلى الأمعاء، ثم ذلك الذي يحصل منه في الكبد ينطبخ فيها ويصير دماً، وذلك هو الهضم الثاني، ويكون ذلك الدم مخلوطاً بالصفراء والسوداء وزيادة المائية. أما الصفراء فتذهب إلى المرارة، والسوداء إلى الطحال، والماء إلى الكلية ومنها إلى المثانة. وأما ذلك الدم فإنه يدخل إلى الأوردة وهي العروق النابتة على الكبد وهنا يحصل الهضم الثالث، وبين الكبد وبين الضرع عروق كثيرة، فينصب الدم في تلك العروق إلى الضرع، والضرع لحم غددى رخو أبيض، فيقلب الله تعالى الدم عند انصبابه إلى ذلك اللحم الغددى الرخو الأبيض من صورة الدم إلى صورة اللبن.

ثم يقول: فهذا هو القول الصحيح في كيفية تولد اللبن⁽¹⁾.

فهو بذلك لا يتردد في الأخذ بحقائق الأشياء التي تثبتها التجربة وتدعمها المشاهدة، وتفسرها حقائق العلم.

وعند تفسيره لقوله تعالى: ﴿وأوحى ربك إلى النحل أن اتخذى من الجبال

(1) مفاتيح الغيب: 5: 336، 337.

بيوتاً ومن الشجر وما يعرشون ثم كلي من كل الثمرات فاسلكي سبيل ربك ذللاً
يخرج من بطونها شراب مختلف ألوانه فيه شفاء للناس⁽¹⁾، يطيل القول في وصف
بيوت النحل ودقة هذه البيوت، والعجائب التي في خلق النحل، وكيف أن هذه
البيوت مبنية بطريقة هندسية عجيبة، وكيف اهتدت النحل إلى الأجزاء العلوية
من أطراف الأشجار والأوراق، فيثير عدة مسائل⁽²⁾.

هذا، وقد قصد الرازي من تفسيره للآيات الكونية على هذا المنهج أن يبين
تفوق الحكمة القرآنية على سائر الطرق الفلسفية، وانفراد القرآن بهداية العقول
البشرية إلى غايات الحكمة عن طريق العصمة.

ولهذا نجده يكتب في وصيته التي أملاها وهو على فراش الموت:

«لقد اختبرت الطرق الكلامية والمناهج الفلسفية فما رأيت فيها فائدة
تساوي الفائدة التي وجدتها في القرآن، لأنه يسعى في تسليم العظمة والجلال لله،
ويمنع عن التعمق في إيراد المعارضات والمناقضات، وما ذاك إلا للعلم بأن العقول
البشرية تتلاشى في تلك المضائق العميقة والمناهج الخفية» - اهـ⁽³⁾.

ابن أبي الفضل المرسي⁽⁴⁾ والتفسير العلمي:

كذلك نجد ابن أبي الفضل المرسي في تفسيره - حسبما نقل السيوطي في

(1) سورة النحل، الآية 68 - 69.

(2) مفاتيح الغيب 5: 339.

(3) فخر الدين الرازي، د. فتح الله خليف، ط دار المعارف بمصر 1969، ص 20.

(4) هو: محمد بن عبد الله بن محمد بن أبي الفضل المرسي، نحوي مفسر محدث فقيه. قال عنه ياقوت الحموي: أحد أدباء عصرنا، ومن أخذ من النحو والشعر بأوفى نصيب، وتكلم على المفصل للزمخشري وأخذ عليه عدة مواضع بلغني أنها سبعون موضعاً أقام البرهان على خطئها. وله عدة تصانيف، رحل إلى خراسان ووصل إلى مرو، وقدم بغداد، وأقام بحلب ودمشق ورأته بالموصل، ثم حج ورجع إلى دمشق، ثم انتقل إلى مصر - وأنابها - سنة 624 هـ، ولزم النسك والعبادة والانقطاع. أخبرني أن مولده كان سنة 570 هـ، وأنه قرأ القرآن على ابن غلبون وغيره. وكان يحفظ صحيح مسلم مجرداً عن السند. صنف الضوابط النحوية في علم العربية والإملاء على المفصل، وتفسير القرآن، قصد به ارتباط الآي بعضها ببعض، وألف في أصول الفقه والدين وكتاباً في البديع والبلاغة، وتوفي سنة 655 هـ. (معجم الأدباء 18: 209 - 312).

كتابه: (الإتقان⁽¹⁾ في علوم القرآن)، و (معتزك الأقران في إعجاز القرآن)⁽²⁾ -
يذهب إلى أن القرآن الكريم جامع لعلوم الأولين والآخرين، فهو يقول:

جمع القرآن علوم الأولين والآخرين بحيث لم يحط بها علماً حقيقة إلا المتكلم
بها ثم رسول الله ﷺ خلا ما استأثر به سبحانه وتعالى، ثم ورث عنه معظم ذلك
سادات الصحابة وأعلامهم مثل الخلفاء الأربعة وابن مسعود وابن عباس حتى
قال: لو ضاع لي عقال بعير لوجدته في كتاب الله تعالى.

ثم ورث عنهم التابعون بإحسان، ثم تقاصرت الهمم وفترت العزائم
وتضاءل أهل العلم وضعفوا عن حمل ما حمله الصحابة والتابعون من علومه وسائر
فنونهم. فنوّعوا علومه، وقامت كل طائفة بفن من فنونه.

وبعد أن بينَ هذه الفنون التي أخذتها الملة الإسلامية منه قال:

وقد احتوى على علوم آخر من علوم الأوائل مثل الطب والجدل والهيئة
والهندسة والجبر والمقابلة والنجامة وغير ذلك.

أما الطب فمداره على حفظ نظام الصحة واستحكام القوة، وذلك إنما
يكون باعتدال المزاج بتفاعل الكيفيات المتضادة. وقد جمع ذلك في آية واحدة وهي
قوله تعالى: ﴿وَكَانَ بَيْنَ ذَلِكَ قَوَامًا﴾⁽³⁾. وعرفنا فيه بما يفيد نظام الصحة بعد
اختلاله، وحدوث الشفاء للبدن بعد اعتلاله في قوله: ﴿شَرَابٌ مُخْتَلَفٌ أَلْوَانُهُ فِيهِ
شِفَاءٌ لِلنَّاسِ﴾⁽⁴⁾. ثم زاد على طب الأجساد طب القلوب وشفاء الصدور.

وأما الهيئة ففي تضاعيف سورة من الآيات التي ذكر فيها ملكوت السموات
والأرض وما بث فيها في العالم العلوي والسفلي من المخلوقات.

وأما الهندسة ففي قوله: ﴿انْطَلِقُوا إِلَى ظِلِّ ذِي ثَلَاثِ شُعْبٍ﴾⁽⁵⁾، فإن فيه
قاعدة هندسية وهي أن الشكل المثلث لا ظل له.

(1) انظر الإتقان 2: 126 - 128.

(2) انظر معتزك الأقران، ط دار الفكر العربي، 1: 17 - 22.

(3) سورة الفرقان، الآية 67.

(4) سورة النحل، الآية 69.

(5) سورة المرسلات، الآية 30.

وأما الجدل فقد حوت آياته من البراهين والمقدمات والتناجج والقول بالموجب والمعارضة وغير ذلك، ومناظرة إبراهيم غرود ومحاجته قومه أصل في ذلك عظيم⁽¹⁾.

وأما الجبر والمقابلة فقد قيل: إني أوائل السور فيها ذكر عدد وأيام وأعوام لتواريخ أمم سالفة، وإن فيها تاريخ بقاء هذه الأمة، وتاريخ مدة الدنيا وما مضى وما بقي مضروب بعضها في بعض.

وأما النجامة ففي قوله: ﴿أو أثارة من علم﴾⁽²⁾، وقد فسر به بذلك ابن عباس.

وفيه أصول الصنائع وأسماء الآلات التي تدعو الضرورة إليها كالخياطة في قوله: ﴿وظفقا يخصفان عليهما﴾⁽³⁾، والحدادة في قوله: ﴿آتوني زبر الحديد﴾⁽⁴⁾، ﴿ولأناله الحديد﴾⁽⁵⁾، والنبات في آيات. والنجارة ﴿واصنع الفلك بأعيننا﴾⁽⁶⁾ والغزل ﴿نقضت غزلها﴾⁽⁷⁾. والنسج ﴿كمثل العنكبوت انخدت بيتاً﴾⁽⁸⁾، والفلاحة ﴿أفرأيت ما تمحرون﴾⁽⁹⁾، والصيد في آيات، والغوص ﴿كل بناء وغواص﴾⁽¹⁰⁾، وتستخرجون حلية تلبسونها⁽¹¹⁾، والصياغة ﴿واتخذ قوم موسى

(1) يشير بذلك إلى قوله تعالى: ﴿إذ قال إبراهيم ربي الذي يحيي ويميت قال أنا أحيي وأميت قال إبراهيم فإن الله يأتي بالشمس من المشرق فأت بها من المغرب﴾. الآية 258 من سورة البقرة. وإلى قوله تعالى: ﴿فلما جن عليه الليل رأى كوكباً قال هذا ربي فلما أفل قال لا أحب الأفلين فلما رأى القمر بازغاً﴾. الآيات 77 - 80 من سورة الأنعام.

(2) سورة الأحقاف، الآية 4.

(3) سورة الأعراف، الآية 22، وسورة طه، الآية 118.

(4) سورة الكهف، الآية 96.

(5) سورة سبأ، الآية 10.

(6) سورة هود، الآية 37.

(7) سورة النحل، الآية 92.

(8) سورة العنكبوت، الآية 41.

(9) سورة الواقعة، الآية 63.

(10) سورة ص، الآية 37.

(11) سورة فاطر، الآية 12.

من بعده من حلّهم عجلاً جسداً له خوار⁽¹⁾، والزجاجة صرح عمرد من قوارير⁽²⁾، مصباح المصباح في زجاجة⁽³⁾، والفخارة فاوقد لي يا هامان على الطين⁽⁴⁾، والملاحه أما السفينة فكانت لمساكين يعملون في البحر⁽⁵⁾، والكتابة علم بالقلم⁽⁶⁾، والخبز أحمل فوق رأسي خبزاً⁽⁷⁾، والطبخ بمجل حينذ⁽⁸⁾، والغسل وثيابك فطهر⁽⁹⁾، والقصارة قال الحواريون⁽¹⁰⁾ وهم القصارون. والجزارة إلا ما ذكيتم⁽¹¹⁾، والبيع والشراء في آيات، والصبغ صبغة الله⁽¹²⁾، جدد بيض وحمر⁽¹³⁾، والحجارة وتنتحون من الجبال بيوتاً⁽¹⁴⁾، والكيالة والوزن في آيات. والرمي وما رميت إذ رميت⁽¹⁵⁾ وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة⁽¹⁶⁾.

ثم قال:

«وفيه من أسماء الآلات وضروب المأكولات والمشروبات والمنكوحات وجميع ما وقع ويقع في الكائنات ما يحقق معنى قوله تعالى: ﴿ما فرطنا في الكتاب من شيء﴾⁽¹⁷⁾».

(1) سورة الأعراف، الآية 148.

(2) سورة النمل، الآية 45.

(3) سورة النور، الآية 35.

(4) سورة القصص، الآية 38.

(5) سورة الكهف، الآية 79.

(6) سورة العلق، الآية 4.

(7) سورة يوسف، الآية 36.

(8) سورة هود، الآية 69.

(9) سورة المدثر، الآية 4.

(10) سورة آل عمران، الآية 52. والمائدة، الآية 111. والصف، الآية 14.

(11) سورة المائدة، الآية 4.

(12) سورة البقرة، الآية 138.

(13) سورة فاطر، الآية 27.

(14) سورة الأعراف، الآية 74.

(15) سورة الأنفال، الآية 17.

(16) سورة الأنفال، الآية 60.

(17) سورة الأنعام، الآية 38.

وهذا المنهج الذي انتهجه ابن أبي الفضل المرسبي في بيان اشتغال القرآن على هذه العلوم والفنون هو منهج غريب وبعيد عن مقصد القرآن وهداياته، لأن هذه العلوم والفنون والصنائع والآلات التي ذكرها وجعلها من العلوم التي احتواها القرآن لم يكن المقصود في ورودها في القرآن وروداً عابراً اقتضاه المقام في ذكر قصة أو عظة وعبرة، أو الإشارة إليها في آيات القرآن تقرير أنها علوم ومعارف وفنون أنزل القرآن بمسائلها وقضاياها وموضوعاتها لتبحث في تفسيره كما تبحث في مصانعها ومعاملها بآلاتها ومسائلها التجريبية الخاصة، لأن ذلك مما لا ينبغي أن يكون مما يعرض له القرآن⁽¹⁾. هذا من جهة. ومن جهة أخرى لو تأملنا في هذه الأمثلة التي ساقها وأخذ منها دلالتها على قضايا معينة هي في واقع الأمر لا تدل عليها.

وعلى سبيل المثال لا الحصر: أخذ من قوله تعالى: ﴿أو أثاره من علم﴾ دلالتها على النجامة، مستشهداً بتفسير ابن عباس بذلك. مع أن التفسير السليم لها هو أن المراد بها (بقية من علم الأولين) بذلك فسرهما ابن قتبية. وأصل الكلمة من الأثر وهو الرواية. وبذلك يكون المعنى: أو بقية بقيت عندكم تروونها عن أهل العلم السابقين غير مسطورة في الكتب، وهو توسيع عليهم في أنواع الحجة ليكون عجزهم عن الإتيان بشيء من ذلك أقطع لعذرهم. فهم لا يستطيعون الإتيان بحجة لا من جانب العقل ولا من جانب النقل المسطور المشار إليه بقوله تعالى: ﴿بكتاب من قبل هذا﴾ أو المأثور المشار إليه ﴿أو أثاره من علم﴾.

ولهذا نجد الشوكاني في تفسيره (فتح القدير) يسوق روايات من بينها رواية عن ابن عباس قال: «خط كان يخطه العرب في الأرض» ثم يعلق بقوله:

«ومن أين لنا أن هذه الخطوط الرملية (خط الرمل) موافقة لذلك الخط؟ وأين السند الصحيح، فليس ما يفعله أهل الرمل إلا جهالات وضلالات» - اهـ⁽²⁾.

(1) القرآن العظيم، هدايته وإعجازه ص 256.

(2) فتح القدير، ط 2، 1964، 5: 15.

وكذلك أخذه من قوله تعالى: ﴿انطلقوا إلى ظل ذي ثلاث شعب﴾ دلالتها على قاعدة هندسية وهي أن الشكل المثلث لا ظل له، في حين أن الآية تثبت ظلاً ولكنه مسلوب خصائص الظل، ذلك لأن من شأن الظل أن ينفس عن الذي يأوي إليه ألم الحر، ولكن هذا الظل الذي يؤمر المكذبون بجهنم في الدنيا بالانطلاق إليه في الآخرة وهو ظل لا ظليل أي ليس هو مثل ظل المؤمنين الذي يقول الله في جزائهم: ﴿وندخلهم ظلاً ظليلاً﴾⁽¹⁾. والمراد بالظل هنا في الآية التي استشهد بها: دخان جهنم لكثافته، عبر عنه بالظل تهكماً بهم لأنهم يتشوقون إلى ظل يأوون إلى برده، والشعب جمع شعبة وهي الطائفة من الشيء، وأريد بها طوائف من الدخان، فإن النار إذا عظم اشتعالها تصاعد دخانها من طرفيها ووسطها، لشدة انضغاطه في خروجه منها⁽²⁾.

الزركشي والتفسير العلمي:

بدر الدين محمد بن عبد الله الزركشي المتوفى سنة 794 هـ، من العلماء الذين يرون أنه يمكن استخراج كل شيء من القرآن.

ولهذا نجده في كتابه (البرهان في علوم القرآن) ينقل أقوال بعض الصحابة في هذا الموضوع، كما ينقل أقوال الإمام الغزالي التي ذكرها في كتابه (إحياء علوم الدين)، فهو يعقد فصلاً في حاجة المفسر إلى الفهم والتبحر في العلوم يقول فيه:

«كتاب الله بحره عميق، وفهمه دقيق لا يصل إلى فهمه إلا من تبحر في العلوم وعامل الله بتقواه في السر والعلانية وأجله عند مواقف الشبهات.

واللطائف والحقائق لا يفهمها إلا من ألقى السمع وهو شهيد، فالعبارات للعموم وهي للسمع، والإشارات للخصوص وهي للعقل، واللطائف للأولياء وهي المشاهد، والحقائق للأنبياء وهي الاستسلام...»

وقد قال أبو الدرداء - رضي الله عنه - : «لا يفقه الرجل حتى يجعل للقرآن

(1) سورة النساء، الآية 56.

(2) التحرير والتنوير، 29: 435.

وجوهاً». وقال ابن مسعود: «من أراد علم الأولين والآخرين فليشور القرآن أي لينقر عنه ويفكر في معانيه وتفسيره وقراءته»⁽¹⁾.

وقال ابن سبع (أبو الربيع سليمان بن سبع السبتي) في شفاء الصدور: «هذا الذي قاله أبو الدرداء وابن مسعود: لا يحصل بمجرد تفسير الظاهر، وقد قال بعض العلماء: لكل آية ستون ألف فهم وما بقي من فهمها أكثر. وقال آخر: القرآن يحوي سبعة وسبعين ألف علم ومائتي علم، إذ لكل كلمة علم، ثم يتضاعف ذلك أربعة إذ لكل كلمة ظاهر وباطن وحد ومطلع.

وبالجملة: فالعلوم كلها داخلة في أفعال الله تعالى وصفاته، وفي القرآن شرح ذاته وصفاته وأفعاله، فهذه أمور تدل على أن في فهم القرآن مجاًلاً رجباً ومتسعاً بالغاً، وأن المنقول من ظاهر التفسير ليس ينتهي الإدراك فيه بالنقل، والسمع لا بد منه في ظاهر التفسير ليتقي به مواضع الغلط، ثم بعد ذلك يتسع الفهم والاستنباط.

والغرائب التي لا تفهم إلا باستماع فنون كثيرة، ولا بد من الإشارة إلى جل منها ليستدل بها على أمثالها، ويعلم أنه لا يجوز التهاون بحفظ التفسير الظاهر أو لا، ولا مطمع في الوصول إلى الباطن قبل إحكام الظاهر.

ومن ادعى فهم أسرار القرآن ولم يحكم الظاهر فهو كمن ادعى البلوغ إلى صدر البيت قبل تجاوز الباب»⁽²⁾.

ثم يقول في فصل آخر من هذا الكتاب:

«إن في القرآن علم الأولين والآخرين، وما من شيء إلا ويمكن استخراج منه لمن فهمه الله تعالى، حتى أن بعضهم استنبط عمر النبي ﷺ ثلاثاً وستين سنة من قوله تعالى في سورة المنافقين: ﴿ولن يؤخر الله نفساً إذا جاء أجلها﴾⁽³⁾ فإنها رأس ثلاث وستين سورة، وأعقبها بالتغابن ليظهر التغابن في فقد.

(1) البرهان 2: 154 (هامش) نقلاً عن النهاية لابن الأثير، مادة: نور.

(2) البرهان في علوم القرآن 2: 153 - 155.

(3) الآية 11.

وقوله تعالى غبراً عن عيسى: ﴿قال إني عبد الله آتاني الكتاب وجعلني نبياً وجعلني مباركاً أين ما كنت وأوصاني بالصلاة والزكاة ما دمت حياً وبراً بوالدي ولم يجعلني جباراً شقياً والسلام عليّ يوم ولدت ويوم أموت ويوم أبعث حياً﴾⁽¹⁾ ثلاث وثلاثون كلمة وعمره ثلاث وثلاثون سنة. وقد استنبط الناس زلزلة عام اثنين وسبعمئة من قوله تعالى: ﴿إذا زلزلت الأرض زلزالها﴾⁽²⁾ فإن الألف بائتين والذال بسبعمئة. وكذلك استنبط بعض أئمة العرب فتح بيت المقدس وتخليصه من أيدي العدو من أول سورة الروم بحسب الجمل، وغير ذلك⁽³⁾.

وتعقبنا على هذه الاستنباطات أن القرآن أبعد ما يكون عن هذا الحساب الفلكي، فإنه كتاب هداية ودستور عمل يسعد المسلمون عند العمل بمقتضاه، ويشقون عندما يعرضون عن تعاليمه وأحكامه. كما أنه لا يتعرض لجزئيات المسائل بهذه الصورة الشكلية، وإنما يمس جوهر الموضوع ومناط العبرة.

الجلال السيوطي والتفسير العلمي:

ثم جاء جلال الدين السيوطي المتوفى عام 911 هـ، وصاحب المؤلفات الكثيرة فتابع من قبله من العلماء القائلين بأن القرآن يشتمل على علوم الأولين والآخرين، ففي كتابه الإتقان في علوم القرآن نجده - في النوع الخامس والستين منه - يتكلم على العلوم المستنبطة من القرآن الكريم. كما يجعل اشتغال القرآن على العلوم المختلفة وجهاً من وجوه الإعجاز فيه في كتابه (معترك الأقران) فيسوق الآيات والأحاديث والآثار وأقوال العلماء التي تدل على أن القرآن مشتمل على كل العلوم.

فمن الآيات التي يستشهد بها قوله تعالى: ﴿ما فرطنا في الكتاب من شيء﴾⁽⁴⁾، وقوله تعالى: ﴿ونزلنا عليك الكتاب تبياناً لكل شيء﴾⁽⁵⁾.

(1) سورة مريم، الآية 30 - 33.

(2) سورة الزلزلة، الآية 1.

(3) البرهان في علوم القرآن 2: 181، 182.

(4) سورة الأنعام، الآية 38.

(5) سورة النحل، الآية 89.

ومن الأحاديث ما أخرجه الترمذي وغيره أن رسول الله ﷺ قال: «ستكون فتن قيل: فما المخرج منها؟ قال كتاب الله فيه نبأ ما قبلكم وخبر ما بعدكم وحكم ما بينكم».

وما أخرجه أبو الشيخ عن أبي هريرة أنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إن الله عز وجل لو أغفل شيئاً لأغفل الذرة والخردلة والبعوض».

ومن الآثار ما أخرجه سعيد بن منصور عن ابن مسعود قال: «من أراد العلم فعليه بالقرآن فإن فيه علم الأولين والآخرين».

وما أخرجه ابن أبي حاتم عن ابن مسعود - أيضاً - أنه قال: أنزل في القرآن كل علم وبين لنا فيه كل شيء، ولكن علمنا يقصر عما بين لنا في القرآن.

وأخرج البيهقي عن الحسن قال: أنزل الله مائة وأربعة كتب وأودع علومها في أربعة منها التوراة والإنجيل والزبور والفرقان، ثم أودع علوم الثلاثة في القرآن.

ثم يحكي السيوطي عن ابن سراقه أنه روى في كتاب الإعجاز عن أبي بكر بن مجاهد أنه قال يوماً: ما من شيء في العالم إلا وهو في كتاب الله تعالى، ف قيل له: فإين ذكر الخانات⁽¹⁾ فيه؟ فقال في قوله تعالى: «ليس عليكم جناح أن تدخلوا بيوتاً غير مسكونة فيها متاع لكم»⁽²⁾، فهي الخانات.

وقال غيره: ما من شيء إلا ويمكن استخراجها من القرآن لمن فهمه الله.

ثم يورد السيوطي قول ابن سراقه في إعجاز القرآن يقول:

وقال ابن سراقه: «من بعض وجوه إعجاز القرآن ما ذكر الله فيه من أعداد الحساب والجمع والقسمة والضرب والموافقة والتأليف والمناسبة والتصنيف

(1) الخانات: جمع خان - بالخاء المعجمة - (اسم معرب من الفارسية) بيوت على الطريق بين الحجاز والشام في طريق التجار كانوا يأوون إليها ويحيطون فيها متاعهم للاستراحة، ثم يرتحلون عنها ويستأنفون سيرهم، ومثلها بيوت كانت في بعض طرق المدينة كانوا يضعون بها متاعاً، وقد بناها بعض من يحتاج إليها وارتفق بها غيرهم. (التحرير والتنوير 18:202).

(2) سورة النور، الآية 29.

والمضاعفة، ليعلم بذلك أهل العلم بالحساب انه ﷺ صادق في قوله، وأن القرآن ليس من عنده إذ لم يكن ممن خالط الفلاسفة ولا تلقى الحساب وأهل الهندسة. ويورد قول الراغب الأصفهاني فيقول:

وقال الراغب: إن الله تعالى كما جعل نبوة النبيين بنبوة محمد ﷺ محتمة وشرائعهم من وجه متسخة، ومن وجه مكملة متممة.

جعل كتابه المنزل عليه متضمناً لثمره كنه التي أولاها أولئك كما نبه عليه بقوله: ﴿يتلو صحف مطهرة فيها كتب قيمة﴾⁽¹⁾، وجعل من معجزة هذا الكتاب أنه مع قلة الحجم متضمن للمعنى الجمل بحيث تقصر الأبواب البشرية عن إحصائه. والآلات الدنيوية عن استيفائه، كما نبه عليه بقوله: ﴿ولو أنما في الأرض من شجرة أقلام والبحر يمده من بعده سبعة أبحر ما نفدت كلمات الله إن الله عزيز حكيم﴾⁽²⁾.

ويذكر عن القاضي أبي بكر بن العربي أنه قال في كتابه (قانون التأويل): «علوم القرآن خمسون علماً وأربعمائة علم وسبعة آلاف علم وسبعون ألف علم على عدد كلم القرآن مضروبة في أربعة، إذ لكل كلمة ظهر وبطن وحد ومطلع. وهذا مطلق دون اعتبار التركيب، وما بينهما من روابط، وهذا ما لا يحصى وما لا يعلمه إلا الله.

ثم يعقب الجلال السيوطي على هذه الأقوال وغيرها فيقول:

أما أنواع العلوم فليس منها باب ولا مسألة هي أصل إلا وفي القرآن ما يدل عليها. وفيه عجائب المخلوقات وملوكوت السموات والأرض، وما في الأفق الأعلى وما تحت الثرى... إلى غير ذلك مما يحتاج شرحه إلى مجلدات.

وقد ألفت كتاباً سميت (الإكليل في استنباط التنزيل) ذكرت فيه كل ما استنبط منه من مسألة فقهية أو أصلية أو اعتقادية، وبعضاً مما سوى ذلك، كثير الفائدة جم العائدة يجري مجرى الشرح لما أجملته في هذا النوع.

(1) سورة البينة، الآية 2، 3.

(2) سورة لقمان، الآية 26.



الفصل الثاني

أَشْهَرُ الْقَائِلِينَ بِالنَّفْسِ الْعَالِيَةِ
فِي الْعَصْرِ الْحَدِيثِ بِمُغَالَاةٍ

الفصل الثاني

اشهر القائلين بالتفسير العلمي في العصر الحديث بمغالة

في بداية هذا الفصل لا بد من التنبيه على الأمور التالية :

1 - إذا كان النص القرآني قد وجد على يد بعض من تناولوه بالتفسير العلمي منهجاً يقف أمام النص القرآني وقفة تأملية متعلقة لاستنباط المعاني والتنقيب عنها في حدود النص . فقد وجد على أيدي آخرين منهجاً تأويلياً تعسفياً يغالي أحياناً في الاستنباط على أساس لا يخضع لأي منطق، بل وصل الأمر بالبعض إلى القول «بأن كثيراً من الآيات لا يفهم معناها إلا من درس العلوم الحديثة»⁽¹⁾.

ومن هنا جاء تقسيم الذين تناولوا النص القرآني بالتفسير العلمي في العصر الحديث إلى قسمين : معتدلين ومغالين .

2 - إذا كان العلماء القدامى قد وضعوا للتفسير تعريفات كثيرة تلتقي كلها عند معنى الإبانة لكلام الله تعالى والكشف عن مقاصده، فإنه من الممكن في حدود الإطار العام لهذه التعريفات نفسها أن يعد من التفسير كل نشاط ثقافي يعتمد في تأسيس موقفه على فهم معين للنص القرآني، سواء في ذلك النمط المسلسل الذي ورثناه عن السلف في خطة التفسير أم غير ذلك من الأنماط التي تأخذ شكل المقالة أو طريقة التفسير الموضوعي للقرآن . وبهذا تتسع دائرة التفسير ويصبح أفقه على

(1) الإسلام والطب الحديث، عبد العزيز اسماعيل ص 10 .

هذا شاملاً لكل ألوان التفكير المؤسس على فهم معين للنص القرآني، مهما تكن الصورة الفنية لهذا التفسير⁽¹⁾.

قلنا هذا، لأننا وجدنا ألواناً من التفسير العلمي ومواقف منه في العصر الحديث جاءت في صورة مقالات ومحاولات جدية بالدراسة والتحقيق. ومن هنا وجهت المبادرة إلى تقييمها والكشف عن زائفها، والاعتراف بالجميل منها.

3 - في مطلع هذه الدراسة تجدر الإشارة إلى بيان المقصود بالعصر الحديث في هذا الموضوع لتحديد المساحة الزمنية، وقد يكون من الصعب تحديد الميلاد الحقيقي لشيء ما، فكل جديد هو في حقيقته صورة ما من سابقه مهما يكن حظ الجديد من الأصالة والذاتية، ذلك لأن تاريخ الفكر الإنساني سلسلة متصلة الحلقات جيلاً بعد جيل.

والذين تناولوا هذا الموضوع يعتبرون حركة التجديد في التفسير حصلت بعد مجيء جمال الدين الأفغاني (1839/1897 م) وصرخته المدوية لإيقاظ المسلمين. وكان أول تلاميذه هو الشيخ محمد عبده الذي أخذ يلقي دروساً في تفسير القرآن الكريم على طريقة توحى بتجديد مبادئ الإسلام وربط التعاليم الدينية بالحياة المدنية، وإظهار أن الإسلام لا يتعارض أبداً مع الحضارة والمدنية والتقدم في الحياة⁽²⁾.

فلقد سادت حركة التفسير مرحلة من الركود، حيث ظل المفسرون يستقون من المنايع القديمة دون تجديد يذكر، واقفين في كثير من الأحيان عند تبسيط ما ورثوا من آثار في التفسير. حتى كان العصر الحديث الذي نعمت فيه البلاد الإسلامية بحركة فكرية قوية تدعو إلى الإصلاح في جوانب الحياة المختلفة، وهي التي يقف على رأسها جمال الدين الأفغاني وتلميذه الشيخ محمد عبده.

«فانجهت أنظار العلماء الذين لهم عناية بدراسة التفسير إلى التحرر من قيد هذا الركود، فنظروا في كتاب الله تعالى نظرات، وإن كان لها اعتماد - من غير

(1) انظر المجاهات التفسير في مصر في العصر الحديث : 18، 82.

(2) انظر قصة التفسير، أحمد الشرباصي ص 156.

شك - على ما دونه الأوائل في التفسير، إلا أنها تحمل شيئاً من التجديد والتطور، وكان ذلك بالعمل على التخلص من كل الاستطرادات التي حشرت في التفسير، والعمل على تنقيته من الإسرائيليات والموضوعات التي كادت تذهب بجمال القرآن وجلاله، وتمحيص ما جاء فيه من الأحاديث الضعيفة، وإلباس التفسير ثوباً أدبياً اجتماعياً يظهر روعة القرآن ويكشف عن مقاصده الدقيقة وأهدافه السامية، والتوفيق بجد بالغ وجهد ظاهر من بعض العلماء بين القرآن وما جدّ من نظريات علمية، على تفاوت بين هؤلاء في الغلو والاعتدال - كما سبق القول - وكان ذلك من أجل أن يعرف المسلمون وغير المسلمين أن القرآن - وهو كتاب الإسلام الخالد - يتمشى مع الزمن في كل أطواره ومراحلته⁽¹⁾.

الشيخ محمد عبده والتفسير العلمي:

قلنا: إن أبرز طلائع النهضة الحديثة في تفسير القرآن هو الشيخ الإمام محمد عبده الذي ولد عام ألف وثمانمائة وثمانية وأربعين 1848 م، وتوفي عام ألف وتسعمائة وخمسة 1905 م، وهو يعد صاحب مدرسة التطور الحديث في التفسير وغيره من الأفكار الدينية والاجتماعية، غير أنه لم يترك للناس إلا ثروة يسيرة في التفسير بالقياس إلى مكانته العلمية. فقد ترك تفسيراً لجزء (عمّ) وهو مطبوع في كتاب ذائع شائع بين المثقفين، ولكنه كتاب مدرسي ألفه ليكون مرجعاً للمدرسي مدارس الجمعية الخيرية الإسلامية التي كان له فضل في رعايتها، وهو لهذا لا يكشف كشافاً تاماً عن منهجه في تفسير القرآن، وقد توخى فيه سهولة العبارة وقلة وجوه الإعراب، كما ترك تفسيراً مطولاً لسورة العصر وتفسيراً لبعض الآيات التي يشير حولها أعداء الإسلام كثيراً من الشبهات والأباطيل مثل الآيات:

﴿وما أرسلنا من قبلك من رسول ولا نبي إلا إذا غنى ألقى الشيطان في أمنيه فينسخ الله ما يلقي الشيطان ثم يحكم الله آياته والله عليم حكيم﴾ الآيات⁽²⁾.

(1) انظر التفسير والمفسرون 162:3.

(2) سورة الحج، الآية 50 ' 51.

وقد فند فيها قصة (الغرائق)⁽¹⁾ تنزيهاً للنبي ﷺ عما قيل عنه فيها⁽²⁾.

وكتفسيره للآية ﴿وَإِذْ تَقُولُ لِلَّذِي أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ وَاتَّقِ اللَّهَ وَتُخْفَى فِي نَفْسِكَ مَا اللَّهُ مُبْدِيَةً وَتُخْفَى النَّاسَ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا تَخْفَى﴾⁽³⁾.

وكتفسيره لسورة البقرة وآل عمران والنساء، وكان ذلك تدريساً لتلاميذه في الأزهر الشريف، وقد دون تفسيره لما ذكر تلميذه وترجمان أفكاره الشيخ محمد رشيد رضا⁽⁴⁾.

وبالرجوع إلى تفسير جزء عم نجد أنه يفسر بعض الآيات في ضوء العلم الحديث، ففي تفسير قوله تعالى: ﴿وَإِذَا الْبِحَارُ سَجَرَتْ﴾⁽⁵⁾ يقول:

أما تسجير البحار فهو أن يفجر الزلزال ما بينها حتى تختلط وتعود بحراً واحداً، وهو بمعنى الماء فإن كل واحد منها يمثل حتى يفيض ويختلط بالآخر...

ثم قال: وقد يكون تسجيرها إضرامها ناراً، فإن ما في بطن الأرض من النار إذ ذاك يظهر بتشققها وتمزق طبقاتها العليا، أما الماء فيذهب عند ذلك بخاراً، ولا يبقى في البحار إلا النار.

أما كون باطن الأرض يحتوي على نار فقد ورد به بعض الأخبار، ورد أن البحر غطاء جهنم وإن لم يعرف في صحيحها... ولكن البحث العلمي أثبت ذلك، ويشهد عليه غليان البراكين وهي جبال النار، كما تشهد عليه الزلازل الشديدة التي تشق الأرض والجبال في بعض الأطراف كما وقع في (جاوا) من عدة سنوات، فإن آثار النار في بطن الأرض قد ظهرت فيه ظهوراً لا شبهة تطراً على

(1) الغرائق جمع غريق - بضم أوله المعجم وفتح النون - يطلق على طائر عظيم، وعلى الشاب الأبيض الجميل فهو تشبيه.

(2) انظر القصة وتفصيلها والرد عليها في تفسير التحرير والتنوير 303:17 وما بعدها.

(3) سورة الأحزاب، الآية 37.

(4) انظر اتجاه التفسير، مصطفى الطير الحديدي ص 46 وما بعدها.

(5) سورة التكوين، الآية 6.

الذهن بعده - اهـ⁽¹⁾.

وفي تفسير قوله تعالى: ﴿إِذَا السَّمَاءُ انشَقَّتْ﴾ يقول:

«إنشقاق السماء مثل انفطارها الذي مر تفسيره... وهو فساد تركيبها واختلال نظامها عندما يريد الله خراب هذا العالم الذي نحن فيه، وهو يكون بحادثة من الحوادث التي قد ينجر إليها سير العالم كأن يمر كوكب في سيره بالقرب من آخر فيتجاذبا فيتصادما فيضطرب نظام الشمس بأسره ويحدث من ذلك غمام وأي غمام يظهر في مواضع متفرقة من الجو والفضاء الواسع، فتكون السماء قد تشققت بالغمام واختل نظامها حال ظهوره - اهـ -⁽²⁾».

وقد انتقده بعض العلماء في هذا التفسير لخراب العالم، لأن الكون أعظم من أن يختل نظامه بمجرد ضرب كوكب في آخر من المجموعات الشمسية. فما أكثر المجموعات الشمسية التي تتجاوز الأرقام الحسابية التي عرفها البشر! وما أصغر أفكار البشر في شأن مستقبل العالم خراباً أو عماراً. فمثل ذلك يجب تفويض الأمر فيه إلى الله تعالى فهو علام الغيوب⁽³⁾.

وقد يكون الشيخ محمد عبده قصد بذلك تقريب معاني القرآن وما يخبر به من عقول الناس بما هو معهود عندهم ومسلم لديهم، فصرّب لذلك مثلاً دون أن يقصد أنه أمر لا بد منه⁽⁴⁾.

كما نجد محمد عبده يستعين بسنة الجاذبية⁽⁵⁾ العامة التي لم تكتشف إلا حديثاً

(1) تفسير جزء عم: 26 (ط) بولاق، 1322 هـ.

(2) المصدر نفسه ص 49.

(3) انظر اتجاه التفسير في العصر الحديث، مصطفى الطير، ط مجمع البحوث الإسلامية 2975 م، ص 54.

(4) التفسير والمفسرون: 234:3.

(5) ملخص قانون الجاذبية هو: أن أي جسم مادي يجذب الجسم الذي يحاوره بقوة تتناسب مع حاصل ضرب الكتلتين مقسوماً على مربع المسافة بين الجسمين. وهذا القانون لا يعرف لنا حقيقة الجاذبية والسر فيها ولكن يعبر عن سلوك الجسمين فقط. (الكون بين الدين والعلم) محمد جمال الدين الفندي، ط المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية، الكتاب الرابع عشر، ص 323.

مد نزول القرن بنحو ألف سنة، على تفسير قوله تعالى: ﴿والسما وما
ناها...﴾⁽¹⁾ إذ يقول:

«السما اسم لما علاك وارتفع فوق رأسك، وأنت إنما تتصور عند سماعك
لفظ السما هذا الكون الذي فوقك فيه الشمس والقمر وسائر الكواكب تجري في
مجايرها وتتحرك في مداراتها، هذا هو السما وقد بناه الله أي رفعه وجعل كل
كوكب من الكواكب منه بمنزلة لبنة من بناء سقف أو قبة أو جدران تحيط بك، وشدّ
هذه الكواكب بعضها إلى بعض برابط الجاذبية العامة كما ترتبط أجزاء البناء الواحد
بما يوضع بينها مما تتماسك به - اهـ -»⁽²⁾.

وفي تفسيره لسورة الفيل نراه يجمل معنى آياتها في عبارة موجزة تصور ما في
السورة من هداية وعظة، ثم يقول:

«وكان يمكننا أن نكتفي بذلك المعنى من الآيات ولا نزيد عليه أدنى تفصيل،
وهو كاف في الاعتبار والعظة - وليته فعل - ولكنه تابع الكلام وذكر ما قال أنه تواتر
من الواقعة، إلى أن قال: وفي اليوم الثاني فشا في جند الحبش داء الجدري
والحصبة.

ثم ذكر رواية عكرمة أن أول ما رثيت الحصبة والجدري ببلاد العرب في
ذلك العام... ثم عقب على ذلك بقوله:

«هذا ما اتفقت عليه الروايات ويصح الاعتقاد به» واستطرد قائلاً:

«وقد بينت لنا هذه السورة أن ذلك الجدري أو تلك الحصبة نشأت من
حجارة يابسة سقطت على أفراد الجيش بواسطة فرق عظيمة من الطير مما يرسله الله
مع الريح، فيجوز لك أن تعتقد أن هذا الطير من جنس البعوض أو الذباب الذي
يحمل جراثيم بعض الأمراض، وأن تكون هذه الحجارة من الطين المسموم
اليابس الذي تحمله الرياح فيعلق بأرجل هذه الحيوانات، فإذا اتصل بجسد دخل
في مسامه فأثار فيه تلك القروح التي تنتهي بإفساد الجسم وتساقط لحمه، وإن كثيراً

(1) سورة الشمس، الآية 5.

(2) تفسير جزء عم ص 95.

من هذه الطيور الضعيفة يعد من أعظم جنود الله في إهلاك من يريد إهلاكه من البشر، وأن هذا الحيوان الصغير الذي يسمونه الآن (بالميكروب) لا يخرج عنها.

هذا ما يصح الاعتماد عليه في تفسير السورة، وما عدا ذلك فهو مما لا يصح قبوله إلا بتأويل إن صحت روايته - اهـ -⁽¹⁾.

هذا ما قاله الشيخ محمد عبده في تفسيره لسورة الفيل، وقد أخذت عليه في تفسيره هذا مأخذ كثيرة:

أولاً: أن حديث الجدري والحصبة ما كان ينبغي له أن يعول عليه في تفسير سورة بدأها الله بصيغة التعجب والتعظيم لصنعه بما أنزله بهؤلاء الطغاة تمهيداً لمبعث نبيه محمد ﷺ.

وقد عرض ابن الأثير في كتابه (الكامل في التاريخ) لهذا الحديث فقال: «وقال كثير من أهل السير: إن الحصبة والجدري أول ما رثيا في العرب بعد الفيل، وهذا مما لا ينبغي أن يعرج عليه، فإن هذه الأمراض قبل الفيل منذ خلق الله العالم»⁽²⁾.

ثانياً: قوله، بعد أن ذكر حديث الجدري والحصبة: «هذا ما اتفقت عليه الروايات»، مع أنها في حقيقة الأمر لم تتفق على هذا الذي ذكره، بل ذكرت بعض الروايات أن هذه الطير كانت أشبه ما تكون بالطير المسمى بالخطاف⁽³⁾. وبعضها ذكر أنها أشبه باليعاسيب⁽⁴⁾، وقد أقبلت من جهة البحر في جماعات إثر جماعات حاملة في مناقيرها وأرجلها حجارة صغيرة في حجم الحمصة أو حصي كحصى الخذف فألقته على الجيش الظالم، فتساقط هلاكاً وفناء.

والسورة الكريمة لم تبين نوع الطير الذي رمى أصحاب الفيل بالحجارة ولا

(1) تفسير جزء عم ص 158.

(2) الكامل في التاريخ 1: 199 (ط) الأولى 130 هـ.

(3) نوع من الطيور الليلية.

(4) ذكور النحل وأمرؤها.

وصفت الحجارة التي رمتها، لأن فهم الآية والمقصود منها لا يتوقف على هذا التفصيل.

فالسورة صريحة في أن أسراباً من الطير أرسلها الله على هؤلاء المعتدين فأضعفت قواهم وأبطلت كيدهم، وردتهم على أعقابهم خاسرين.

والحمل على هذا أولى لأنه به تبقى السورة على ظاهرها ويبقى الحادث على وضعه الإعجازي إرهاباً للنبوة الخاتمة.

ثالثاً: إنه لم يعرف في اللغة العربية التي نزل بها القرآن واستعملاتها إطلاق لفظ (الطير) على الحيوان المسمى (بالميكروب) وأن العرب المخاطبون في وقت المواجهة بالخطاب التعجيبى الذي افتتحت به السورة لا يعلمون شيئاً عن هذا الحيوان.

رابعاً: قوله: «وقد بينت لنا السورة الكريمة أن ذلك الجدري وتلك الحصبة نشأت من حجارة يابسة. السورة الكريمة يقرؤها ويحفظها عن ظهر قلب أكثر المسلمين، وهي لم تتعرض لذكر الجدري والحصبة فضلاً عن أن تبين حقيقتيهما ومنشأهما».

خامساً: تفريعه على ما فرضه واقعاً من حديث الجدري والحصبة إنه يجوز لمن يريد فهم معاني القرآن ليؤمن بها أن يعتقد أن هذا الطير الذي أرسله الله على أصحاب الفيل من جنس البعوض أو الذباب الذي يعمل جراثيم الأمراض. وأن هذا الحيوان الذي يسمى (الميكروب) من هذا الطير. فهو تحميل لآيات القرآن فوق طاقة أساليب اللغة العربية، وفوق طاقة أفهام من نزل القرآن لتعجيهم من شأن هذه الحادثة المبدعة إرهاباً لمقدم بعثة خاتم الأنبياء والمرسلين⁽¹⁾.

وفي هذا المعنى يقول الدكتور طه حسين: «فهؤلاء الذين يزعمون أن الطير الأبايل وما رمت به جيش الحبشة أمام مكة إنما كانت وباء من الأويشة، وكانت الحجارة ضرباً من الميكروبات إنهم يقولون هذا من عند أنفسهم، وهم يعلمون

(1) هذه المأخذ مقتبسة من كتاب (القرآن العظيم - هدايته وإعجازه في أقوال المفسرين) ص 241.

حق العلم أن النبي وأصحابه لم يفهموا هذه السورة على هذا النحو، وما كان لهم أن يفهموها على هذا النحو، فهم لم يكونوا يعرفون الميكروب، وما كان لهم أن يعرفوه. - اهـ - (1).

سادساً: ما هو الوباء الذي يصيب في أرض واحدة طائفة من الناس من جنس معين ويستثني بقية سكان البلد. والمعهود في الأمراض السارية انتشارها مع الهواء بين سكان المنطقة دون تفريق (2)، وإن المألوف في الجدري والحصبة لا يتفق مع ما روي من الآثار التي تركها الحادث بأجسام الجيش وقائده، فإن الجدري وكذا الحصبة لا يسقط الجسم عضواً عضواً وأغلفة أغلفة ولا يشق الصدر عن القلب، مع أن هذه الصورة هي التي يوحى بها النص القرآني إجماعاً مباشراً وقريباً، حيث جاء فيه ﴿فجعلهم كعصف مأكول﴾ (3).

الشيخ طنطاوي جوهرى والتفسير العلمى:

ولد الشيخ طنطاوي جوهرى عام 1862 م، وقد نشأ محباً لدينه ذا رغبة قوية في توجيه المسلمين إلى الإيمان الراسخ بالله تعالى عن طريق النظر في ملكوته وآثار نعمته ورحمته (4). وقد كان يؤمن بأن القرآن لا يفسر إلا بالعلم الحديث، فألف تفسيراً للقرآن الكريم سماه (الجواهر في تفسير القرآن الكريم) وضعه في خمسة وعشرين جزءاً، مزج فيه - كما قال - الآيات القرآنية بالعجائب الكونية (5).

ولقد أتم من تأليف هذا التفسير - كما يقول - أن يشرح الله به قلوباً ويهدي به أئمةً وتنقش به الغشاوة عن أعين عامة المسلمين فيفهموا العلوم الكونية.

كما يقرر أن في القرآن من آيات العلوم ما يربو على سبعمائة وخمسين آية، في حين أن علم الفقه لا تزيد آياته الصريحة على مائة وخمسين آية، كما يقرر - في

(1) مرآة الإسلام ص 243. (ط) القاهرة 1966.

(2) التيارات الفكرية الحديثة وأثرها في التفسير، إبراهيم عبد الحميد الكيلاني.

(3) في ظلال القرآن، سيد قطب، ط دار الشروق، 3978:6.

(4) اتجاه التفسير في العصر الحديث، ص 55.

(5) تفسير الجواهر، ط 2، مصطفى الحلبي 2:1.

الوقت نفسه - أن الإسلام جاء لأمم كثيرة، وأن سور القرآن متممات لأُمور أظهرها العلم الحديث.

كما يتحدث عن تفسيره هذا ويصرح بأنه نفحة ربانية وإشارة قدسية وبشارة رمزية أمر به بطريق الإلهام.

وكثيراً ما يهيب بالمسلمين أن يتأملوا في آيات القرآن التي ترشد إلى علوم الكون ويحثهم على العلم بما فيها، ويندد بمن يغفل هذه الآيات على كثرتها، وينعي على من أغفلها من السابقين، ووقف عند آيات الأحكام وغيرها مما يتعلق بأُمور العقيدة. ويكرر هذا القول في كثير من مواضع الكتاب.

طريقته في التفسير:

أما طريقته في تفسيره فإنه يبدأ بالتفسير اللفظي للآيات التي يعرض لها، ثم يتلوه بالشرح والإيضاح والكشف، متوسعاً في الفنون العصرية والعلوم الكونية. . كما نراه ينقل عن التوراة والإنجيل كثيراً.

كما يرد على بعض النصارى والمستشرقين⁽¹⁾.

كما يستشهد بكلام علماء الغرب، وكثيراً ما يشع في تفسيره صور النباتات والحيوانات ومناظر الطبيعة والتجارب العلمية والجداول الإحصائية.

وقد طبق في تفسيره القرآن على النظريات العلمية الحديثة واستخرج هذه النظريات من القرآن، فجاء تفسيره مزيجاً من علوم الأمم قديماً وحديثاً، مع التوفيق بين الآراء الحديثة والأفكار الدينية.

وأول ما يتصفح القارئ هذا التفسير يصادفه تفسيره لسورة الفاتحة، وفيها يظهر تطبيقه لمنهج في التفسير.

ومن ضمن ما جاء في تفسيره لها قوله:

(1) انظر تفسير الجواهر 2: 122.

«لما كان أكثر الناس لا يلحظون العجائب الكائنة فيهم، ولا يعرف نفسه إلا قليل منهم وهم أكابر الحكماء والأولياء وجب أن أبين في هذا المقام بعض رحمته - عز وجل - في العالم المشاهد... وذكر قصة طريفة لرحمة الله ببعض الحيوانات الضعيفة... وبعد كلام طويل أبان فيه اختصاص الحمد بالله تعالى وأن العرب كانوا يحمّدون ملوكهم وأمراءهم والمحسنين منهم. فلما جاء القرآن أمرهم أن يقصروا الحمد على الله تعالى. وكيف أثر ذلك في نفوس العرب حتى فتحوا الأمم شرقاً وغرباً وأخرجوا الناس من جور الأديان إلى عدل الإسلام. أتبع ذلك بهذه الترجمة:

«الشرعة الإسلامية والنظر في الآفاق وفي الأنفس».

وتحت هذا العنوان كتب صفحة ونصفاً في الحض على النظر في آيات العلوم الكونية القرآنية، وذكر أننا ينبغي أن ندرس علوم الهيئة والفلك والحساب والهندسة وعلم المعدن والنبات والحيوان وسائر علوم هذه الدنيا، وأن دراستها من الدين، فيكون علم الدين على قسمين:

العلم الأول: علم الآفاق، والأنفس. والعلم الثاني: علم الشرعة. وبذلك ترى العالم الديني شارحاً للنبات والحيوان، والآخر يدير المعمل الكيماوي، وهذا من قوله تعالى:

﴿سنريهم آياتنا في الآفاق وفي أنفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق﴾⁽¹⁾.

ومن قوله هنا - سورة الفاتحة - ﴿الحمد لله رب العالمين﴾..

ثم ذكر في معنى قوله تعالى: ﴿رب العالمين﴾ أنه تعالى مربّي العوالم كلها ومربيها من حال النقص إلى حال الكمال وغايات التمام، فهو الذي يتعمد النباتات بالتغذية والإنباء، وهكذا الحيوان والإنسان، وكذا العوالم العلوية. وهذه هي التربية التي كان مبدؤها الرحمة. ثم ذكر عدداً من المسائل في هذه التربية: (الأولى) في الدّرة و(الثانية) في القمح و(الثالثة) في تربية الثمرة في النخلة و(الرابعة) في

(1) سورة فصلت، الآية 52.

تربية اللؤلؤ في البحر و (الخامسة) في تربية الجنين في بطن أمه و (السادسة) في تربية الولد باللبن و (السابعة) في التربية الطبية و (الثامنة) في التربية بالمدارس و (التاسعة) في تربية الله للعقول بعلم المنطق لإدراك العلوم العالية، وبلغ ما كتبه في ذلك أربع صفحات.

ثم تكلم عن معنى العالمين، فعرف العالم بأنه ما سوى الله تعالى، وقسمه إلى قسمين: عالم علوي وعالم سفلي. والعلوي هو الكواكب والشمس والقمر والسيارات وأقمارها، ثم وضع ذلك بضرب مثل، ثم قال:

وهذه الشمس وحركاتها ونظامها لا يتسنى لك معرفتها إلا بعلم العدد والحساب والهندسة وعلم الجبر والفلك وهو الذي جعل الشمس ضياء والقمر نوراً وقدره منازل لتعلموا عدد السنين والحساب ما خلق الله ذلك إلا بالحق تفصل الآيات لقوم يعلمون⁽¹⁾.

ثم تكلم عن العالم السفلي وقال: إنه ما في البر من مخلوق حي وما في الأرض من معدن ونبات وحيوان وإنسان. ثم تكلم عن عالم البحار بإسهاب. ثم ذكر النبات والحيوان وعلم التشريح وقال: ألا فليعلم المسلمون أنهم لا يحمدون الله حق حمده ولا يشكرونه حق شكره إلا إذا درسوا هذه العلوم وعرفوا ما تفرع عنها وانتفعوا بها ونفعوا الناس بفوائدها - اهـ.

ثم يستشعر ورود اعتراض عليه، خلاصته: لماذا يحمل الفاتحة ما لا تحتمل؟ ويجيب عنه فيقول:

«لعلك تقول ما لي أراك تحمل الفاتحة وتدخل فيها من العلوم ما لا يعقل، مع أن الناس يقرؤونها ولا يلحظون ما تذكر، ويكررونها صباحاً ومساءً ولا يتنبأ لهم ما تصنع، وإنما تفعل هذا استطراداً لا استنباطاً، وتطويلاً لا تأويلاً، وتعليماً لا تفسيراً، وإكثاراً لا استخراجاً. ثم يتولى الإجابة. وخلاصة جوابه أنه ليس من الضروري أن كل قارئ يلحظ ذلك وما يعقلها إلا العالمون. وذكر أن مثل ذلك

(1) سورة يونس، الآية 5.

كمثل فلاح ركب دابة ومعه ولده واتجه إلى حقله فرأى مهندساً وعالمًا طبيعيًا وحكيماً إلهياً، فكل واحد من هؤلاء يختلف نظرتهم إلى الحقل علواً وانخفاضاً، فيقاس عليها نظرات الناس في الفاتحة» .

وهذا الجواب - في الواقع - غير مقنع فإن القرآن أنزل للهداية لا ليكون موسوعة لكل العلوم، فيجب أن تصرف آياته وكلماته إلى مفهومها اللغوي أو المأثور عنه ﷺ، ومن الممكن تأليف كتب مستقلة عن التفسير في هذه العلوم، ولا مانع من تضمينها إشارات القرآن إليها، باعتباره قد دعا إلى جميع العلوم التي تنفع الناس⁽¹⁾.

يقول الشيخ محمد رشيد رضا:

«وقد ذهب بعض المعاصرين مذهباً بعيداً في تفسير الفاتحة وغيرها من القرآن، حيث يرى أن تفسير لفظ (العالمين) - مثلاً - يقتضي بيان كل ما وصل إليه علم البشر من مدلول هذا اللفظ، وأن تفسير لفظة (الرحمن الرحيم) يقتضي بيان كل ما يعرف من نعم الله وإحسانه بخلقه وإلى خلقه من كل وجه، فاتباع هذا المذهب في تفسير الفاتحة أو آية أو كلمة منها لا يكمل إلا بكتابة ألفوف من المجلدات يدون فيها كل ما وصل إليه علم جميع علماء الأرض في أعيان العالم وصفاتها وأحوالها من أدنى الحشرات إلى أرقى البشر.

وإنَّ عَدَّ مثل هذا من التفسير إضلال عن القرآن، وإنما يحس في التفسير تذكير المؤمن بأن لا يغفل عن ذكر الله والتفكير في آيه ورحمته ونعمه في كل نوع من مخلوقاته عند النظر فيها - ١ هـ -⁽²⁾.

والشيخ الطنطاوي جوهرى، فوق هذا، ينخدع بدعوى علم تحضير الأرواح ودعائه، بل ويؤمن به ويدافع عنه ويستنبطه من القرآن، فهو عند تفسير قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تَذْبَحُوا بَقَرَةً قَالُوا أَتَتَّخِذُنَا

(1) انظر اتجاه التفسير في العصر الحديث، مصطفى الطير، ص 72.

(2) تفسير المنار 12:1.

هزوا قال أعوذ بالله أن أكون من الجاهلين... ﴿الآيات (1)﴾.

نجدّه يعقد بحثاً في عجائب القرآن وغرائبهِ، فيذكر ما انطوت عليه هذه الآيات من عجائب ويذكر من بينها (علم تحضير الأرواح) الذي ظهر أخيراً. والمناسبة التي يستطرد منها إلى هذا البحث هي إحياء الله لقتيل بني إسرائيل لما ضرب بشيء من لحم البقرة التي أمروا بذبحها، فيقول:

«وأما علم تحضير الأرواح فإنه من هذه الآية استخراجهِ، إن هذه الآيات تتلى والمسلمون يؤمنون بها حتى ظهر علم تحضير الأرواح بأمرِكا أولاً ثم بسائر أوروبا ثانياً». ثم ذكر نبذة طويلة عن مبدأ ظهور هذا العلم وكيف كان انتشاره بين الأمم، وفائدة هذا العلم واستغرق ذلك منه خمس صفحات، ثم قال:

«ولما كانت السورة التي نحن بصددِها قد جاء فيها حياة العزيز بعد موته وكذلك حمّاره، ومسألة الطير وإبراهيم الخليل، ومسألة الذين خرجوا من ديارهم فراراً من الطاعون فماتوا ثم أحياهم الله، وعلم الله أننا عاجزون عن ذلك جعل قبل ذكر تلك الثلاثة في السورة ما يرمز إلى استحضر الأرواح في مسألة البقرة، كأنه يقول:

إذا قرأتم ما جاء عن بني إسرائيل في إحياء الموتى في هذه السورة من أواخرها فلا تيأسوا من ذلك فإنّي قد بدأت بذكر استحضر الأرواح فاستحضروها بطرقها المعروفة ﴿فاسألوا أهل الذكر إن كنتم لا تعلمون﴾⁽²⁾، ولكن ليكن محضر الأرواح ذا قلب نقي خالص على قدم الأنبياء والمرسلين كالعزيز وإبراهيم وموسى، فهؤلاء لعلو نفوسهم أريتهم بالمعينة ليطمئنوا وأنا أمرت نبيكم أن يقتدي بهم فقلت: ﴿فبهدهم اقتده﴾⁽³⁾ فاقْتَدُوا بهم في تعلم ما تظْمَنُونَ وتوقنون، ولكن قبل ذلك اقتدوا بالأنبياء في طهارة القلوب وزوال الرجس من النفوس، فإن هذه

(1) سورة البقرة، الآيات 66 - 72.

(2) سورة النحل، الآية 43.

(3) سورة الأنعام، الآية 91.

الأمر إنما تعرف بالتجربة والعمل لا بالقياس العقلي ولا بالنظر والحدس الفكري
- اهـ - (1).

هكذا يقول الشيخ طنطاوي جوهري عن تحضير الأرواح وأخذه من القرآن، وهو أمر غريب في تفسير القرآن لأنه بعيد عن معناه ومن أهدافه وأغراضه السامية، فكيف يسوغ القول بأن علم تحضير الأرواح يستخرج من هذه الآية؟ وهي أبعد، تكون عن ذلك.

وهذا العلم ذاته لم يكن مسلماً به عند المسلمين على الأقل، وكيف يجوز أن نقول القرآن ما لم يقل؟.

«إن علم تحضير الأرواح علم كاذب فلا يوافق الدين على الإيمان به فضلاً عن جعله تفسيراً لآية من القرآن الكريم، ولا يعترف بأخبار الأرواح التي تحضر عن طريقه فهي أرواح جن تكذب بإدعائها أنها الأرواح المطلوب إحضارها ومكالمتها. وكيف يمكن أن تكون صادقة وهي تقول عن نفسها أخباراً غير مطابقة لحالتها التي كانت عليها في الحياة؟ وكيف يمكن استحضار الأرواح حقيقة في حين أن السلطان عليها لله وحده» (2).

إن روح الإنسان - وهي ذلك السر اللطيف الذي خص الله نفسه بعلمه - بعد وفاته تغادر الجسد وتذهب إلى خالقها لتلقى مصيرها وجزاءها ولا سلطان لمخلوق بعد ذلك عليها، فالنفس التي عرفت ربها وأشفقت من عذابه وعملت لمرضاته في مستقرها في البرزخ تنعم بروح وريحان.

وأما النفس التي كفرت بأنعم الله وملأت الأرض ظلماً وطغياناً فهي حبيسة برزخها الأرضي، فالله تعالى يقول:

﴿فأما إن كان من المقربين فروح وريحان وجنة نعيم. وأما إن كان من أصحاب اليمين فسلام لك من أصحاب اليمين، وأما إن كان من المكذبين

(1) تفسير الجواهر 1: 84 - 89.

(2) أنظر اتجاه التفسير في العصر الحديث، مصطفى الطير الحديدي ص 75.

الضالين فتزل من هميم وتصلية جحيم»⁽¹⁾.

ولم يرد في القرآن ولا في السنة المطهرة، ولم يثبت عن أحد من الصحابة والتابعين ما يفيد إمكانية التخاطب مع الموق عن طريق ما يزعمونه تحضير الأرواح.

وكثيراً ما تأزمت أمور ووجدت قضايا لو قال الميت فيها كلمة واحدة لانتهى الأمر.

ولو فرضنا جدلاً أنه أمكن تحضير الأرواح لحدثت عن حياتها الجديدة وعما تجده من نعيم أو يقع عليها من عذاب، وهو ما تباعد عنه المشتغلون بهذا العمل حتى الآن، والذين يشتغلون بهذا العمل يعلمون قبل غيرهم أنهم إنما يستعينون ببعض الأرواح الشريرة ويلبسون عملهم ثوباً علمياً ويطلقون عليه اسماً جديداً ليعبدوا عنهم الشبهات ويتمكنوا من أكل أموال الناس بالباطل تحت ستار من البحث الجاد والتفكير السليم.

أما الروح فهي من أمر الله ولا يعرف سرها إلا الله، ولا يعقل أن هذا المجهول للناس أجمعين في الدنيا يتمكن عاجز عن تدبير أمره باحث عن لقمة العيش التي يحفظ بها حياته ويتمكن من تسخير هذا الذي جهله هو والناس جميعاً بعد الموت ويستقدمه لحضرته ويستنطقه أخباره»⁽²⁾.

وعن هذا الموضوع يحدثنا الدكتور محمد جمال الدين الفندي فيقول:

«ولقد نجم عن تعرف الناس على بعض معالم ما وراء المادة عن طريق الدين أن راحت طائفة منهم تجري محاولات الاتصال بمن في ذلك العالم بطريقة يسمونها (تحضير الأرواح)، ونحن لا نستطيع أن نطلق على تلك المحاولات اسم (التجارب) لاختلافها في جوهرها عن المؤلف في التجارب العلمية، ولعدم إمكان

(1) سورة الواقعة، الآيات 88 - 94.

(2) أنظر، من القرآن وإلى، سلسلة دراسات قرآنية تصدرها الجمعية العامة للمحافظة على القرآن الكريم بمصر، ط 2، ص 201.

تعميم إجرائها. وقد فهم خطأ أن بعض جامعات الغرب أقرت دراسة علم الأرواح، ولكن الحقيقة أن ما وافقت عليه هو دراسات علم النفس على غرار ما هو قائم في بعض جامعاتنا العربية.

ثم يقول:

وأغلب الظن إذا سلمنا ببعض تلك الاتصالات ثم محصناها نجدها إنما تتم عن عالم غير مادي حدثتنا عنه الأديان يسمى عالم الجن - اهـ -⁽¹⁾.

وقال الشيخ طنطاوي بعد كلام طويل على السر في افتتاح بعض سور القرآن بالحروف المقطعة، وذلك أثناء تفسيره لسورة (طه)، قال: قوله تعالى: ﴿الذي أعطى كل شيء خلقه ثم هدى﴾⁽²⁾ كقوله تعالى: ﴿الذي خلق فسوى والذي قدر فهدى﴾⁽³⁾، وهذه فيها الطاء أولاً والهاء ثانياً في (أعطى) و (هدى) فكانه يقال:

إن القرآن يراد منه دراسة سائر العلوم، وسائر العلوم هي التي جاءت في محاوره فرعون وموسى كما جاءت في مقدمة السورة، ويجمعها كلها (أعطى وهدى) وهذان يجمعها (طه) فإذا الطاء والهاء يرمز بهما إلى دراسة العلوم الرياضية والطبيعية والفلكية، وهكذا كل علم في الدنيا لأنها كلها ترجع إلى هذه الجملة.

ثم تسأل قائلاً: لماذا نزل هذان الحرفان أي (طه) في أول هذه السورة؟. وأجاب عن تساؤله: إعلم أن الله علم أن المسلمين سينامون نوماً مخزياً عميقاً فيكتفون من الدين بقشوره ويظنون أن الصلاة والزكاة وما بعدها كافيات فتأخذهم الأمم وتذلهم وتسومهم سوء العذاب، فأنزل الله هذين الحرفين ليجد المسلمون في البحث عن السر فيجدون أنها رمز لأن يقرأوا جميع العلوم، وإذا كان النبي ﷺ يقال له: إن القرآن لم يقتصر على أنك تكثر الصلاة وتشقى بالتعب والنصب في العبادة بل هو أيضاً جاء ليخرج أماً من جهلها ويعلمها فتصلي تبعاً لك وتقرأ العلوم.

(1) الكون بين الدين والعلم ص 24.

(2) سورة طه، الآية 49.

(3) سورة الأعلى، الآية 2، 3.

كل هذه المعاني تؤخذ من (طه) وهناك أيضاً (ها) في قوله تعالى: ﴿مِنْهَا خَلَقْنَاكُمْ﴾⁽¹⁾ مكررة ثلاث مرات. وفي قوله (كلها) كل ذلك جاء بعد قوله (أعطى). ومن عجب أن يجيء في أسباب النزول أنه ﷺ كان يتعب ويشقى لكثرة الرياضة والتهجد والقيام على ساقه فقيل له ما ذكر كأنه يقال: ليست العبادة وحدها هي المقصودة بل هناك التذكرة وقد فهمتها فيما قدمناه أن المسلمين اليوم اكتفوا بالعبادة اللفظية فعليهم أن يتذكروا بدراسة العلوم كلها⁽²⁾.

هكذا يقول، وهو كلام أشبه ما يكون بالأحاجي والألغاز.

وهكذا تتضح النزعة العلمية التي سيطرت على قلم المؤلف وقبلة واضحة جلية. وقد أخذ عليه كثرة الاستطراد والتوغل في قضايا لا تستفاد من الآيات التي يفسرها، وإنما جعل فيها منافذ ينفذ منها إلى مباحث أخرى صارت لبعدها عن موضوع الآية كأنها عناوين لمقالات هامشية.

آراء العلماء والباحثين في تفسير الجواهر

رأينا من هذه الأمثلة القليلة أنه قد توسع في مجال التفسير العلمي حتى أنه ليخيل للناظر فيه لأول وهلة أنه لا ينظر في تفسير القرآن وإنما ينظر في دائرة معارف على القرآن تضمنت شرحاً للتاريخ والأدب والفلسفة والسياسة والاجتماع، حتى أنه لم يخل من ذكر بعض النظريات الهشة للاستدلال بها على أن القرآن حق. وكثيراً ما يقع نظر القارئ لهذا التفسير على بحث في ثنايا الكتاب فيعجب لذكر مثله في تفسير القرآن. مما جعل بعض العلماء في الماضي والحاضر لا يرضون عن مسلكه ويلومونه أشد اللوم، كما يظهر ذلك واضحاً جلياً لمن يتصفح هذا التفسير.

ولذلك نجده في ص 138 من الجزء الثاني عشر يقول:

«لما وصلت إلى هذا المقام اطلع بعض الفضلاء على هذا فقال: يا عجباً كل

(1) سورة طه، الآية 54.

(2) تفسير الجواهر 64:10.

العجب نحن في مقام أن الله له ملك السموات والأرض وليس له ولد ولا شريك وأنه خلق كل شيء فقدره تقديراً، فما لنا ولا رسطاطاليس ونظام دوران الأرض ونظام النمل والحشرات والطيور، يا عجباً كل العجب ان الناس يقولون عنك: أنك مغرم بالبحث في الحيوان والكواكب، فأنت ترجع في كل مقام إلى ما اعتدته بأدنى مناسبة ولأقل سبب. ويظهر أن مسألة التفسير وغيرها ترجع إلى أذهان المفسرين والمؤلفين لا إلى القرآن، وإلا فلماذا نراك دائماً تخوض في مواضع لا علاقة لها بتفسير القرآن، فأين الثريا من الثرى وأين معاوية من علي؟ وكما قال آخر: سارت مشرقة وسرت مغرباً... شتان بين مشرق ومغرب. هذا نهاية الاعتراض.

وهو اعتراض وجيه يؤيده الواقع، وليس للشيخ جواب سديد عنه. وقد أجاب عنه بجواب يقال فيه وفي الاعتراض البيت المتقدم.

وفي ص 250 من الجزء الخامس عشر يقول:

فلما اطلع على هذا صاحبي قال: يا سبحان الله نعم هذا أحسن ولكنه حسن في ذاته، أما هذا التطويل في التفسير فليس تفسيراً بل هو علم وخير لك أن تقول: هذا كتاب علوم لا كتاب لتفسير القرآن، فقلت: بل هو تفسير، فقال: قل ما تشاء ولكني على رأي... الخ الحوار.

كما انتقده في هذا المسلك الشيخ محمد رشيد رضا وإن لم يصرح باسمه حيث قال: «وقلده (الفخر الرازي) بعض المعاصرين بإيراد مثل هذا من علوم العصر وفنونه الكثيرة الواسعة، فهو يذكر فيها يسميه تفسير الآية فصلاً طويلاً بمناسبة كلمة مفردة كالسما والأرض من علوم الفلك والنبات والحيوان تصدقارئها عما أنزل الله لأجله القرآن»⁽¹⁾.

كما انتقده حنفي أحمد - مع أنه من القائلين بالتفسير العلمي - فهو يقول - بعد أن أثنى على الجهود الطيبة التي بذلها من سبقوه -: وأستاذنا المرحوم طنطاوي جوهرى في تفسيره الواسع للقرآن الذي أفاض وأسهب فيه وبين كثيراً من العلوم

(1) تفسير المنار 7:1 (المقدمة).

المختلفة التي تشير إليها الآيات الكونية لولا أنه - رحمه الله - قد زاد في هذا البيان حتى جاوز حدود معاني الآيات، ولم يحاول الجمع بينها فخفي بذلك كثير من حقيقة ومقدار العلم المنزل فيها - اهـ⁽¹⁾.

والخلاصة:

إن تفسير الجواهر يقال فيه - كما قدمنا - وكما قال الشيخ محمد حسين الذهبي: أنه موسوعة ضربت في كل فن من فنون العلم بسهم وافر، مما جعل هذا التفسير يوصف بما وصف به تفسير الفخر الرازي فقليل: فيه كل شيء إلا التفسير بل هو أحق من تفسير الفخر لهذا الوصف وأولى به⁽²⁾. وإن المانعين لهذا التفسير لاحظوا جنوح صاحبه بل ولوعه الشديد باخضاع الآيات القرآنية وقهرها لكي تتحمل الكثير من مسائل العلوم الكونية. وهذا تعسف ظاهر وميل بالقرآن عن مقصده الأسمى وهو سعادة البشرية في الدنيا والآخرة⁽³⁾.

كتاب طبائع الاستبداد ومصارع الاستعباد / التفسير العلمي فيه

مؤلف هذا الكتاب هو السيد عبد الرحمن الكواكبي⁽⁴⁾، وهو عبارة عن مجموع مقالات له نشرها في بعض الصحف المصرية عندما زار القاهرة سنة 1318هـ.

وقد طبع الكتاب واهم اسم مؤلفه ورمز له بـ (الرحالة ك). وفيه نجد

(1) التفسير العلمي للآيات الكونية، ط دار المعارف ص 7.

(2) التفسير والمفسرون 3: 183.

(3) اتجاهات التفسير في العصر الحديث، عبد المجيد المحتسب ص 277.

(4) عبد الرحمن الكواكبي: من الكتاب والأدباء ومن رجال الإصلاح. ولد سنة 1265 هـ وتعلم في حلب (سوريا) وأنشأ فيها جريدة (الشهباء) فأقفلتها الحكومة، وجريدة (الاعتدال) فغلقت. وأسندت إليه مناصب عديدة. ثم حتى عليه أعداء الإصلاح فسعوا به فسجن وخر جميع ماله فرحل إلى مصر وساح سياحتين إلى بلاد العرب وشرقي أفريقيا وبعض بلاد الهند، ثم استقر به المقام في القاهرة إلى أن توفاه الله سنة 1320 هـ. وله من المؤلفات (أم القرى) و (طبائع الاستبداد ومصارع الاستعباد). وكان كبيراً في عقله وهمة وعلمه.

(الأعلام للزركلي، ط 3، 4: 68).

الكواكبي يذكر أن القرآن قد اشتمل على النظريات العلمية التي وجدت، وأنها تؤيد اعجاز القرآن الكريم.

ويصف القرآن بأنه (شمس العلوم وكنز الحكم) ويقرر بأن السر في إحجام العلماء عن تفسير قسمي الآلاء والأخلاق في القرآن وبيان ما يشتمل عليه من العلوم المختلفة هو (أنهم كانوا يخافون مخالفة رأي بعض السلف القاصرين في العلم فيكفرون فيقتلون)، فتحت عنوان (الاستبداد والدين) نجده - بعد أن بين أن القرآن الكريم مشحون بتعاليم إمامة الاستبداد واحياء العدل والتساوي - يحمل على المستبدين من الخلفاء والملوك الأولين الذين حجروا على العلماء والحكماء من تفسير قسمي الآلاء والأخلاق من القرآن تفسيراً مدققاً وقال:

«وهذه مسألة إعجاز القرآن - وهي أهم مسألة في الدين - لم يقدرُوا أن يوفوها حقها من البحث، واقتصروا على ما قاله فيها بعض السلف قولاً مجملاً من أنها قصور الطاقة عن الإتيان بمثله في فصاحته وبلاغته، وأنه أخبر عن أن الروم من بعد غلبهم سيغلبون - مع أنه لو فتح للعلماء مبدأ التدقيق وحرية الرأي والتأليف لأظهروا في ألف من الآيات ألف آيات من الإعجاز بصدق قوله: ﴿ولا رطب ولا يابس إلا في كتاب مبين﴾⁽¹⁾، ولجعلوا الأمة تؤمن بإعجازه عن برهان وعيان لا عن تسليم واذعان.

ثم نراه يبين كيفية اشتغال القرآن على ما جدَّ من نظريات علمية فيقول: ومثال ذلك أن العلم كشف في هذه القرون الأخيرة حقائق وطبائع كثيرة تعزى لكاشفيها ومخترعيها من علماء أوروبا وأمريكا.

والمدقق في القرآن يجد أكثرها ورد التصريح أو التلميح به في القرآن منذ ثلاثة عشر قرناً، وما بقيت مستورة تحت غشاء من الخفاء إلا لتكون عند ظهورها معجزة للقرآن شاهدة بأنه كلام رب لا يعلم الغيب سواه.

وذلك أنهم كشفوا أن مادة الكون هي الأثير، وقد وصف القرآن بدء

(1) سورة الأنعام، الآية 60.

التكوين فقال: ﴿ثم استوى إلى السماء وهي دخان﴾⁽¹⁾.

وكشفوا أن الكائنات في حركة دائمة دائبة، والقرآن يقول: ﴿وآية لهم الأرض الميتة أحييناها وأخرجنا منها حياءً فمته يأكلون...﴾ إلى قوله: ﴿وكل في فلك يسبحون﴾⁽²⁾.

وحققوا أن الأرض منفقة من النظام الشمسي، والقرآن يقول: ﴿أو لم ير الذين كفروا أن السموات والأرض كانتا رتقاً ففتقناهما﴾⁽³⁾.

وحققوا أن القمر منشق من الأرض والقرآن يقول: ﴿أفلا يرون أنا نأتي الأرض ننقصها من أطرافها﴾⁽⁴⁾، ويقول: ﴿اقتربت الساعة وانشق القمر﴾⁽⁵⁾.

وحققوا أن طبقات الأرض سبع والقرآن يقول: ﴿خلق سبع سموات ومن الأرض مثلهن﴾⁽⁶⁾.

وحققوا أنه لولا الجبال لاقتضى الثقل النوعي أن تميد الأرض أي ترتج في دورتها، والقرآن يقول: ﴿والقى في الأرض رواسي أن تميد بكم﴾⁽⁷⁾.

وكشفوا أن التغيير في التركيب الكيماوي بل والمعنوي ناشيء عن تخالف نسبة المقادير، والقول: ﴿وكل شيء عنده بمقدار﴾⁽⁸⁾.

وكشفوا أن للجماادات حياة قائمة بماء التبلور. والقرآن يقول: ﴿وجعلنا من الماء كل شيء حي﴾⁽⁹⁾.

وحققوا أن العالم العضوي - ومنه الإنسان - ترقى من الجهاد، والقرآن

(1) سورة فصلت، الآية 11.

(2) سورة يس، الآيات 33-40.

(3) سورة الأنبياء، الآية 30.

(4) سورة الرعد، الآية 41.

(5) سورة القمر، الآية 1.

(6) سورة الطلاق، الآية 12.

(7) سورة النحل، الآية 15، وسورة لقمان، الآية 9.

(8) سورة الرعد، الآية 9.

(9) سورة الأنبياء، الآية 30.

يقول: ﴿ولقد خلقنا الإنسان من سلالة من طين﴾⁽¹⁾.

وكشفوا ناموس اللقاح العام في النبات، والقرآن يقول: ﴿خلق الأزواج كلها مما تنبت الأرض ومن أنفسهم ومما لا يعلمون﴾⁽²⁾، ويقول: ﴿فأخرجنا أزواجاً من نبات شتى﴾⁽³⁾، ويقول: ﴿اهتزت وربت وأنبتت من كل زوج بهيج﴾⁽⁴⁾، ويقول: ﴿ومن كل الثمرات جعل فيها زوجين اثنين﴾⁽⁵⁾.

وكشفوا طريقة إمساك الظل - أي التصوير الشمسي - والقرآن يقول: ﴿لم تر إلى ربك كيف مد الظل ولو شاء لجعله ساكناً ثم جعلنا الشمس عليه دليلاً﴾⁽⁶⁾.

وكشفوا تسيير السفن والمركبات بالبخار والكهرباء، والقرآن يقول، بعد ذكر الدواب والجواري بالريح: ﴿وخلقنا لهم من مثله ما يركبون﴾⁽⁷⁾.

وكشفوا وجود الميكروب وتأثير الجدري وغيره من المرض، والقرآن يقول: ﴿وأرسل عليهم طيراً أبابيل﴾ أي متتابعة مجتمعة ﴿ترميهم بحجارة من سجيل﴾⁽⁸⁾ أي من طين المستنقعات اليابس.

إلى غير ذلك من الآيات الكثيرة المحققة لبعض مكتشفات علم الهيئة والنواميس الطبيعية.

وبالقياس على ما تقدم ذكره يقتضي أن كثيراً من آياته سينكشف سرها في المستقبل في وقتها المرهون تجديداً لإعجازه، ما دام الزمان وما كرّ الجديدان⁽⁹⁾، فلا

(1) سورة المؤمنون، الآية 12.

(2) سورة يس، الآية 36.

(3) سورة طه، الآية 53.

(4) سورة الحج، الآية 5.

(5) سورة الرعد، الآية 3.

(6) سورة الفرقان، الآية 45.

(7) سورة يس، الآية 42.

(8) سورة الفيل، الآية 3، 4.

(9) الجديدان: الليل والنهار.

بد أن يأتي يوم يكشف العلم فيه أن الجملادات أيضاً تنمو باللقاح كما تشير آية⁽¹⁾ ﴿ومن كل شيء خلقنا زوجين﴾⁽²⁾.

هذا ما قاله عبد الرحمن الكواكبي استدلالاً بآيات القرآن على هذه المخترعات العلمية.

وإذا كان لنا من تعليق على قوله فإننا نقول:

إنه قد تأثر بهذا اللون من التفسير تأثراً كبيراً حتى وصل به الأمر إلى حد الإفراط والمغالاة، وبسبب ذلك صار يتلمس لكل نظرية نصاً من القرآن مدعياً أن هذا وجه من وجوه صدقه ودلائل اعجازه العلمي بعد أن اقتصر علماء السلف - على حد قوله - على أن فصاحته وبلاغته هي سبب إعجازه.

وكان رسالة الإصلاح والدعوة إليه لا تتم إلا بدعوى أن القرآن قد اشتمل على كل صغيرة وكبيرة مما اكتشفه العلماء أو يكتشفونه، وهذا ما لاحظناه عند كثير من هؤلاء المصلحين، مع أن أغلب ما استشهد به من الآيات لا ينطبق ولا يمت بأدنى صلة إلى مدعاة من قريب أو بعيد.

وإن شئت منا لا على ذلك فانظر إلى استدلاله على أن القمر منشق من الأرض بقوله تعالى: ﴿أفلا يرون أنا نأتي الأرض ننقصها من أطرافها﴾، وقوله تعالى: ﴿اقتربت الساعة وانشق القمر﴾ فإن هذا المعنى المزعوم لا تدل عليه أي من الآيتين، وهو معنى بعيد كل البعد عن معناهما، بالإضافة إلى أنه قد يستدل ببعض آية تاركاً ما قبلها وما بعدها.

وهذه الطريقة هي طريقة عقيمة في الاستنتاج. والقرآن في حاجة إلى هذا التكلف.

الإسلام والطب الحديث والتفسير العلمي فيه

هذا عنوان مقالات كان يكتبها الدكتور عبد العزيز اسماعيل في مجلة الأزهر

(1) سورة الذاريات، الآية 49.

(2) طبائع الاستبداد ومصارع الاستعباد، ط حلب، 1957م، ص 43-46.

(نور الإسلام) سابقاً. ثم جمعها في كتاب بهذا العنوان.

وهو يحاول فيما كتبه أن يوفق بين بعض الآيات القرآنية وبين ما أثبتته الطب الحديث.

وقد حمد له هذه النزعة وشجعه عليها الشيخ المراغي من شيوخ الأزهر السابقين، وذلك حيث يقول في تقديمه للكتاب: «قرأت لسعادة الطبيب عبد العزيز اسماعيل نتفاً مما كان يكتب له بمجلة الأزهر تحت عنوان (الإسلام والطب الحديث) فأعجبني منه ما توخاه من التوفيق بين معاني بعض الآيات القرآنية الكريمة وبين مقررات الطب الحديث، وحمدت له هذه النزعة التي لو تحلى بها كل مبرز في فرع من فروع العلم لاجتمع لدينا ذخير عظيم من هذه التطبيقات الثمينة، تستفيد منه النابتة الحديثة زيادة معرفة بإعجاز القرآن وإيقان بأن الله ما فرط في كتابه من شيء»⁽¹⁾.

كما حمد له هذا المجهود - كذلك - الأستاذ محمد فريد وجدي بقوله: «هذا الكتاب يفتح للمتدبرين في آيات القرآن الكريم مجالاً فسيحاً لفهم آياته المشيرة إلى الكائنات الأرضية فهماً يسيغه العلم الحديث ويستهدي عقول الذين يقدسونه، فما أجدره أن ينتشر بين طلبة الجامعة ليكون باعناً لهم على تلاوة القرآن والاستهداء بنوره، وما أخلقه - أيضاً - أن يذاع بين طلاب العلم الديني ليحبب إليهم العلم الحديث، وثبت لهم أنه أصبح أداة لإظهار مكنونات الكتاب الكريم، وإذاعة آياته وإثبات إعجازه»⁽²⁾.

وفي مقدمة الكتاب يعترف المؤلف بأن القرآن ليس بكتاب طب أو هندسة أو فلك، ولكنه يشير أحياناً إلى سنن طبيعية ترجع إلى هذه العلوم، وبما أنه صادر من واضع السنن كلها كان جميع ما جاء به حقاً لاشية فيه، وإن لم يكن ذلك مدركاً وقت نزوله إلا على طريق الإجمال أو التأويل لعدم استبحار العلوم إذ ذاك، ولكن مع الترقي في العلوم فلما كان يعتمد إلى تأويله، وكثر ما وجب أخذه على ظاهره في

(1) الإسلام والطب الحديث، طبعة القاهرة 1957م، ص 5، 6.

(2) المرجع السابق ص 10، 11.

ذلك العهد. ثم يقرر أن كثيراً من الآيات لا يفهم معناها إلا من درس العلوم الحديثة.

فقوله تعالى: ﴿وإن من شيء إلا يسبح بحمده﴾⁽¹⁾، هذه الآية لا يمكن أن يكون العرب الأقدمون قد فهموها إلا من طريق التأويل المؤدي إلى معنى خضوع كل شيء لعظمة الله حتى الجهاد.

مع أن علماء الطبيعة يثبتون الآن حركة دائمة لا تنقطع في ذرات كل شيء لا تراها العين ولا تحس بها سائر المشاعر.

ولنا على قوله هذا مأخذان:

الأول: إن في قوله هذا خطورة، لأن فيه - كما يقول أستاذنا محمد الذهبي -: اتهاماً لأصحاب رسول الله ﷺ ومن بعدهم من السلف الصالح بأنهم لم يفهموا المعاني الحقيقية لبعض آيات القرآن لجهلهم - على حد قوله - بهذه العلوم الحديثة، وهو اتهام نربأ بصحابة رسول الله وسلفنا الصالح عن الاتهام به⁽²⁾.

الثاني: لا داعي لهذا التفسير للآية التي استشهد بها، فالنصوص القرآنية تؤخذ على ظاهر مدلولها، وظاهر هذه الآية أن جميع المخلوقات التي يشتمل عليها الكون تتوجه إلى خالقها بالتسبيح اختياراً وتسخييراً، ولا استحالة في ذلك. لقد بين الله تعالى أن كل شيء في هذا الكون يسبح بحمد الله بطريقته ولغته والإنسان فقط - من بين هذا الكون المسيح بحمد الله هو الذي يوجد من بين أفراد من يشرك بالله ومن يغفل عن تسبيح الله وحده، مع أن الإنسان أولى المخلوقات جميعاً بمعرفة الله وتوحيده وتسبيحه وحده. وقد جاء في قصة داود - عليه السلام - في القرآن ما يؤيد هذا، يقول الله تعالى: ﴿ولقد آتينا داود منا فضلاً يا جبال أوبي معه والطير وألنا له الحديد﴾⁽³⁾. ويقول: ﴿واذكر عبدنا داود ذا الأيد إنه أواب﴾ إنا

(1) الإسراء، الآية 44.

(2) التفسير والمفسرون 3: 168، 169.

(3) سورة سبأ، الآية 10.

سخرنا الجبال معه يسبحن بالعشي والإشراق والطير محشورة كل له أواب»⁽¹⁾، «فلا داعي لتأويل هذه النصوص الصريحة لتوافق مقررات سابقة لنا عن طبائع الأشياء غير مستمدة من هذا القرآن... فكل تصوراتنا عن الكون ينبغي أن تتبع أولاً من مقررات خالق هذا الكون ومبدع هذا الوجود»⁽²⁾.

وقد يكون إسناد التسبيح إلى كثير من الأشياء التي لا تنطق دالاً على أنه مستعمل في الدلالة على التنزيه بدلالة الحال، وهو معنى قوله: ﴿ولكن لا تفقهون تسبيحهم﴾ حيث أعرضوا عن النظر فيها فلم يهتدوا إلى ما يقترن بها من الدلالة على تنزيهه عن كل ما نسبوه إليه من الأحوال النافية للإلهية.

والخطاب في قوله (لا تفقهون) للذين لم يشتهوا له التنزيه عن النقائص التي شهدت الموجودات - حيثما توجه إليها النظر - بتنزيه عنها فلم يحرم من الاهتداء إلى شهادتها إلا الذين لم يقلعوا عن أضدادها، وهم المشركون الذين خاطبهم فيما تقدم في قوله: ﴿إنكم لتقولون قولاً عظيماً﴾⁽³⁾ وقوله: ﴿لو كان فيهما آلهة كما تقولون﴾⁽⁴⁾ أما المسلمون فقد اهتدوا إلى ذلك التسبيح بما أرشدهم إليه القرآن من النظر في الموجودات.

وقد يكون الخطاب عاماً لجميع الناس باعتبار انتفاء تمام العلم بذلك التسبيح، ويدل عليه التعبير بقوله ﴿لا تفقهون﴾ دون أن يقول ﴿لا تعلمون﴾ للإشارة إلى أن المنفى علم دقيق»⁽⁵⁾.

كما يعترف الأستاذ عبد العزيز اسماعيل بأن العلوم مهما تقدمت فهي عرضة للزلزل ينبغي ألا يطبق على الآيات القرآنية الكريمة إلا ما يكون قد ثبت ثبوتاً قطعياً ولم يقبل الشك، فكثير من النظريات العلمية عرضة للتغيير والتبديل، وهذه لا

(1) سورة ص، الآية 17-19.

(2) في ظلال القرآن 27: 3478.

(3) سورة الإسراء، الآية 40.

(4) سورة الإسراء، الآية 42.

(5) تفسير التحرير والتنوير، 5: 114.

يجوز تطبيقها حتى ولو اتفقت مع ظاهرها، إنما يطبق منها ما يكون قد اجتاز دور النظريات وصار حقيقة ثابتة لا شك فيها.

فكل آية كريمة لا تتفق ونظريات العلوم يجب أن تترك حتى تتقدم العلوم، فخلق آدم من طين - مثلاً - لا يتفق ومذهب (دارون) ولا غيره، ولكن الأخيرة قائمة على نظريات وهي عرضة للتغيير، ولم أعثر للآن على آية واحدة لا تتفق وأية حقيقة علمية.

وفي آخر مقدمته يعترف بفضل الشيخ المراغي عليه لأنه أول من شجعه على نشر مقالاته وكان يستمر على تشجيعه كلما ظهر منها شيء، وعنده بأفكاره القيمة التي كان يقدرها حق التقدير⁽¹⁾.

وتحت عنوان (إخراج الحي من الميت وإخراج الميت من الحي) يقول: قيل في تفسير ذلك إنشاء الحيوان من النطفة والنطفة من الحيوان. ولكن النطفة هي حيوانات حية، وكذلك خلق الحيوان من النطفة فهو خلق حي من حي فلا تنطبق عليه الآية الكريمة على هذا التفسير. فإذا قيل: إن معنى الآية خلق آدم من طين أي خلق حي من ميت فهذا صحيح، ولكنه ليس المقصود من الآية - والله أعلم - لأنها تشير إلى أن الخلق شيء عادي يحصل يومياً بدليل ورودها بعد قوله: ﴿تولج الليل في النهار وتولج النهار في الليل﴾⁽²⁾ بالتعاقب وهذا شيء اعتيادي، فالله يضرب لنا مثلاً نشاهده يومياً ودائماً.

والتفسير الحقيقي للآية هو: إخراج الحي من الميت كما يحصل يومياً من أن الحي ينمو بأكل أشياء ميتة، فالصغير مثلاً يكبر جسمه بتغذيته باللبن أو غيره، والغذاء شيء ميت، ولا شك في أن القدرة على تحويل الشيء الميت الذي يأكله إلى عناصر ومواد من نوع جسمه بحيث ينمو جسمه هو أهم علامة تفصل الجسم الحي من الجسم الميت.

(1) الإسلام والطب الحديث ص 15-25.

(2) سورة آل عمران، الآية 27.

وأما إخراج الميت من الحي فهو الإفرازات مثل اللبن (وإن شئت فلعوم الحيوانات أيضاً والنباتات) فإن اللبن سائل ليس فيه شيء حي بخلاف النطفة فإن فيها حيوانات ميتة، وهذه تخرج من الحيوان الحي، وهكذا ينمو الحي من الميت ويخرج الميت من الحي، والله أعلم بمبراهه اهـ⁽¹⁾.

ولقائل أن يقول: إن ما ثبت في العلم من أن في النطفة حياة وكذا في البيضة والنواة حياة هي حياة اصطلاحية لأهل الفن في عرفهم دون العرف العام الذي جاء به التنزيل، وعليه فالتمثيل بخروج الحيوان من النطفة، والنطفة من الحيوان صحيح، بناء على العرف العام⁽²⁾.

وتحت عنوان (الحكمة من تبديل جلود الكفار) يسوق الآية الكريمة ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِنَا سَوْفَ نَصْلِيهِمْ نَاراً كُلَّمَا نَضِجَتْ جُلُودُهُمْ بَدَلْنَاهُمْ جُلُوداً غَيْرَهَا لِيَذُوقُوا الْعَذَابَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَزِيزاً حَكِيمًا﴾⁽³⁾، ثم يقول:

«هذه الآية الكريمة تقول: إن النار كلما أكلت جلودهم بدلهم الله جلوداً غيرها، والسبب في ذلك أن أعصاب الألم هي في الطبقة الجلدية، وأما الأنسجة والعضلات والأعضاء الداخلية فالإحساس فيها ضعيف، ولذلك يعلم الطبيب أن الحرق البسيط الذي لا يتجاوز الجلد يحدث ألماً شديداً بخلاف الحرق الشديد الذي يتجاوز الجلد إلى الأنسجة لأنه مع شدته وخطره لا يحدث ألماً كثيراً.

فالله يقول لنا: إن النار كلما أكلت الجلد الذي فيه الأعصاب نجده كمي يستمر الألم بلا انقطاع، ويذوقوا العذاب الأليم.

وهنا تظهر حكمة الله قبل أن يعرفها الإنسان، وكان الله عزيزاً حكيماً⁽⁴⁾.

وهذا تفسير لا غبار عليه لأنه يتلمس الحكمة حول ما عبر عنه القرآن دون أن يدخل الألفاظ القرآنية في تأويلات متكلفة.

(1) الإسلام والطب الحديث ص 47، 48.

(2) أنظر تفسير المنار، ط 4، 1960 م، 3: 275.

(3) سورة النساء، الآية 55.

(4) الإسلام والطب الحديث، ص 66.

التفسير العلمي للآيات الكونية في القرآن

هذا عنوان كتاب ألفه الأستاذ حنفي أحمد⁽¹⁾، يقول في افتتاح طبعته الأولى: وبعد فقد وضعنا هذا الكتاب بفضل من الله وعون منه تعالى، إذ كانت الحاجة ماسة إليه في هذا الزمان الذي التبس فيه الحق بالباطل وأسميناه (معجزة القرآن في وصف الكائنات) وموضوع هذا الكتاب - كما يدل عليه اسمه - ذو أهمية بالغة لأنه يبحث في تصوير القرآن للكائنات تصويراً يكشف عن دقيق معناه ويبين ما فيه من آيات الإعجاز الدالة على صدق وحيه وسمو رسالته. ويرى المؤلف أنه على الرغم من ذبوع العلم الحديث وتقدمه العظيم في النصف الأول من القرن العشرين فإنه لم يعرف إلى الآن عن دقائق معاني حديث القرآن عن الكائنات سوى نزر يسير. ويرجع السبب في ذلك إلى عوامل شتى أهمها - في رأيه - وراثه العقيدة التي كانت ولا تزال سائدة في الأذهان بأن القرآن رسالة هداية وإرشاد لا شأن لها بأصول العلوم الكونية، وأن حديثه عن الكائنات لا يحتاج في فهمه إلا لمجرد التعقل والخبرة العادية، وأنه بذلك لا يحوي دقائق أو تفاصيل عن طبائع الكائنات تتطلب علماً خاصاً لإبانته وإدراكها.

كما يرى المؤلف أن أهل العلم والفكر قد استبعدوا وجود علم مفصل عن الكائنات في القرآن، ولهذا غاب عنهم مفتاح طريقة البحث فيه، وهو جمع آياته المتفرقة وتبويبها على حسب موضوعاتها ثم بحثها بحثاً كاملاً، وهو المنهج الذي سار عليه في كتابه.

ويرى - أيضاً - أنه من الواجب الاعتراف بالجهود الطيبة التي بذلها بعض أفاضل العلماء المعاصرين في كشف مكنون معاني الآيات الكونية من أمثال الدكتور محمد أحمد الغمراوي والدكتور عبد العزيز إسماعيل والشيخ طنطاوي جوهرى.

(1) حنفي أحمد عالم مصري معاصر من الذين تأثروا بمنهج الشيخ طنطاوي جوهرى في تفسير القرآن إلى جانب ثقافته التي كان لها أثر كبير في منهجه، فهو حاصل على دبلوم المعلمين العليا بمصر ووكالةوريوس في العلوم من جامعة درهام ببريطانيا، وقد شغل منصب عميد مفتشي العلوم ومدير عام لتعليم البنات بوزارة المعارف المصرية سابقاً.

وفي الفصل الأول من المقدمة يقرر أن الناحية العلمية هي إحدى الأوجه التي حصل بها الإعجاز، بل هي الآن أوضح الأوجه لغير من يفهمون اللغة العربية.

ولما كان القرآن منزلاً لجميع الناس في كل زمان ومكان من أهل العربية وغيرهم، ويصعب على غير العرب إدراك معجزته الكبرى في بلاغته وأسلوبه كان لهم من معجزاته الأخرى عن طريق ترجمة معانيه ما يمكنهم من إدراك إعجازه، ويلزمهم الحجة بصدق دعواه، إذ يفني نقل المعاني دون النص الأصلي بالغرض المقصود في هذا الشأن.

وطريقته في البحث أنه يجمع الآيات التي تدور حول موضوع واحد ثم يكون منها بعد الجمع والترتيب والاستنباط الأصول والقواعد العامة. وقد ضرب لذلك مثلاً من عديد الأمثلة التي يقوم عليها البحث في كتابه فقال: «وردت النجوم في ثلاث عشرة آية ووردت باسم السموات في آيات أخرى متعددة، وهذه الآيات وتلك تفيد خصائص علمية شتى عن النجوم، فمنها ثلاث تتحدث عن حالتها من حيث الضياء والحركة والسكون، وأخرى عن علوها وهي:

1 - يقول الله تعالى: ﴿وهو الذي جعل لكم النجوم لتهتدوا بها في ظلمات البر والبحر﴾⁽¹⁾.

2 - وقال تعالى: ﴿وعلامات وبالنجم هم يهتدون﴾⁽²⁾.

3 - وقال تعالى: ﴿والسما والطارق وما أدراك ما الطارق النجم الثاقب﴾⁽³⁾.

وقد وضع المفسرون هذه الآيات كل آية في موضعها من السورة التي وردت فيها على حسب ظاهرها الذي تدل عليه المشاهدة العادية.

(1) سورة الأنعام، الآية 97.

(2) سورة النحل، الآية 16.

(3) سورة الطارق، الآية 1 - 3.

ففسروا الأولى بمعنى أنه تعالى جعل النجوم ليهتدي بضيائها الناس في ظلمة الليل على الأرض.

والثانية: بأنه تعالى جعلها ترى كعلامات ثابتة في السماء كالجبال والأنهار يهتدي بها الناس - أيضاً - في ظلام الليل.

والثالثة: بأن الطارق معناه الآتي أو الظاهر ليلاً ونهاراً وأن الشاقب معناه المضيء، مع أن القرآن استعمله للأجسام المتقدمة المضئية كالنار في وصف الشهب والسراج. وبالإجمال فقد فسروا الطارق النجم الشاقب بمعنى النجم الذي يظهر ليلاً مضيئاً بضياء يثقب الظلام. وظاهر هذه الآيات في مجموعها يفيد أنه تعالى جعل النجوم تظهر في الليل مضئية في السماء كالعلامات لكي يهتدي بها الناس في ظلمات البر والبحر.

وما من شك في أن هذه المعاني من دلائل قدرة الله العظيمة وحكمته البالغة ما ينتفع به الناس في الإيمان بالحق جل وعلا.

ولكن الباحث الخبير بأحوال النجوم وبما يقتضيه نظام البحث، يجمع بين هذه الآيات ثم يبحثها فيجد فيها ما يستلفت النظر، يجد أنه تعالى قد اختص النجوم بالذكر في الآية الأولى دون الكواكب - مع أنها نيرات مثل النجوم وضياؤها يصل إلى الأرض مثل ضياء النجوم في الليل - فيستدل من ذلك على أن هذا التخصيص بالنجوم فيه إشارة إلى أن النجوم هي مصدر الضياء الأصلي في السماء، وأن ضياء الكواكب غير أصلي فيها بل هو مكتسب من ضياء النجوم ولذلك لم يذكرها. أرايت وجه الحكمة في الذكر؟ إنها حكمة العلي القدير.

ويجد أن قوله ﴿لتهتدوا بها﴾ وفي الآية الثانية ﴿وبالنجم هم يهتدون﴾ معناه لتهتدوا بذاتها وبذات النجوم هم يهتدون، أي أن الباء للسببية مثل قولك يكتب بالقلم⁽¹⁾، وأن الهداية حاصلة من ذات النجوم فيكون ضوؤها ذاتياً، أو بعبارة

(1) تمثله بهذا غير صحيح لأن الباء فيه للاستعانة - وهي الداخلة على المستعان به أي الوسيلة التي بها حصل الفعل - أما باء السببية فهي الداخلة على سبب الفعل وعلته التي من أجلها حصل مثل قوله تعالى: ﴿فكلاً أخذنا بذنبه﴾ العنكبوت: 40.

أخرى يرى من قوله: ﴿وبالنجم﴾ إشارة قوية إلى أن ضياء النجوم ذاتي وصادر منها.

ويجد أنه تعالى وصف النجوم بلفظ الثاقب في الآية الثالثة الذي تستعمله العرب في وصف النار ولهب السراج واستعمله تعالى في وصف الشهب بقوله: ﴿فأتبعه شهاب ثاقب﴾⁽¹⁾. والشهب معروفة عند الناس بينها أجسام نارية مضيئة فيستدل منه مع الإشارتين الواضحتين سابقتي الذكر على أن النجم الثاقب معناه: النجوم المتقدة المضيئة بذاتها كالنار أو السراج، أو بعبارة أخرى يرى الأخذ بالمعنى الكامل للثاقب وهو أن النجوم أجرام نارية ملتبهة ومضيئة معاً، وهذا فيما يختص بحال الضياء في النيرات.

ويرى الباحث في الآية الثالثة أنه تعالى وصف النجوم (بالبطارق) ومعناه: القادم والآتى ليلاً، ثم استعمل للقادم مطلقاً فيستدل منه على أنه تعالى نعت النجوم بالحركة في السماء، ولكنه في الوقت نفسه يرى أن هذا المعنى يتعارض مع مشاهدة النجوم ثابتة في السماء، كما نص تعالى بذلك في الآية الثانية، فتدفعه روح البحث إلى النظر في الآيات المختلفة ليرى كيف يقول تعالى: إن النجوم متحركة وفي الوقت نفسه يقول إنها ترى ثابتة فيعثر على ضالته في آية رابعة في قوله تعالى: ﴿تنزيلاً ممن خلق الأرض والسماوات العلى﴾⁽²⁾ التي يصف فيها ارتفاع السماوات عن الأرض بأنه ارتفاع عظيم جداً فوق ما يمكن تقديره فيعلم من ذلك أنه تعالى قد قال: أن النجوم ترى ثابتة وقال ما يعارضه بأنها متحركة ولكنه أزال هذا التعارض الظاهري ببيان بعدها الساقع عن الأرض فدل بذلك على أن ثبوتها المشاهد ظاهري، وذلك كما تدل المشاهد العادية على الأرض حين ترى العين الأجسام المتحركة بسرعة والبعيدة جداً كأنها ساكنة غير متحركة.

وبالإجمال يرى الخبير بحال الكائنات في حدود معاني هذه الآيات الأربع بعد جمعها وبحثها معاني دقيقة عن صفات النجوم، من صريح النص تارة،

(1) سورة الصافات، الآية 10.

(2) سورة طه، الآية 4.

وبالإشارة القوية المحدودة تارة أخرى، وأن هذه الصفات تتفق فعلاً مع ما وصل إليه العلم الحديث، وهذا ما لا يراه الناظر غير العليم بالكائنات.

وهذه المعاني الدقيقة عن النجوم تفيد دلائل تزيد من المعرفة والإيمان بقدرة الله تعالى، كما تفيد صفات عن النجوم لم يكن يعرفها أحد عند (ظهور)⁽¹⁾ القرآن، ثم أظهرها البحث العلمي الدقيق بعد ذلك بقرون عديدة.

ومغزى ذلك أنها صادرة من لدن خبير عليم بأحوال الكائنات وليست من كلام البشر، وهذه وتلك هي الغاية الخاصة من المعاني الدقيقة للآيات الكونية⁽²⁾.

وفي موضوع (آيات الشهب والحاصب أو الحجارة من سجل المرسلات من السماء على شياطين الجن والإنس) يذكر إيضاح المفسرين - كعادته في كل موضوع - ومن بينهم رأي الشيخ محمد عبده الذي قدمناه في بداية هذا الفصل ثم يعلق عليها.

وفيما يختص في معنى (الطير الأبابل) في سورة الفيل يضرب صفحاً عن دلالة اللغة وسياق الآية ليأتي برأي جديد خلاصته أن المقصود بالطير؛ الحجارة نفسها لأنها - على رأيه - كالطير في الكثرة ولأن هذه الحجارة كانت من السرعة بحيث لا يقوى الطير على إصالتها لأهدافها أي على قذفها بهذه السرعة الهائلة حتى تدمر فيقول:

«وحيث تبين مما تقدم - فيما ساقه من إيضاح - أن حجارة قوم لوط وحجارة

(1) التعبير في جانب القرآن (بظهوره) بدل نزوله غير سديد. لقد جاء التعبير بلفظ الإنزال في الكتاب والسنة، قال تعالى: ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ﴾ وقال: ﴿شَهْرَ رَمَضَانَ الَّذِي أُنْزِلَ فِيهِ الْقُرْآنُ﴾ وقال: ﴿وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ﴾. وقال تَبَّ: ﴿إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ أَنْزَلَ عَلَى سَبْعَةِ أَحْرَفٍ - الحديث - وكان التعبير بمادة الإنزال وما تصرف منها أو التقى معها - كما قال العلماء - للتنبؤ به شرف هذا الكتاب نظراً لما تشير إليه هذه المادة من علو منزل هذا الكتاب علواً كبيراً (انظر ماحل العرفان 1: 35). هذا إلى جانب أن التعبير بمادة الظهور في جانب القرآن لا يليق، لأن الظهور - كما في لسان العرب - (بدو الشيء الخفي) والقرآن ليس جسماً حتى يعبر عنه بالظهور بعد الخفاء.

(2) التفسير العلمي للآيات الكونية في القرآن، ط دار المعارف المصرية، لات، ص 38-41.

أصحاب الفيل شيء واحد فإني أرى الأخذ برأي المفسرين دون رأي الشيخ محمد عبده في أن الحجارة من سجيل هي التي أهلك أصحاب الفيل على الصورة التي أوضحوها: لأنها كانت من نوع حجارة قوم لوط ذات القدرة العظيمة على التدمير.

بيد أني أخالفهم جميعاً في أن تلك الحجارة رمتها طيور حقيقية، إذ المعقول والمعروف أن الطير مهما كان قوياً فليس له قدرة على قذف حجارة يحملها بحيث يكسبها سرعة سقوط هائلة مدمرة مثل سرعة حصباء قوم لوط. وأن المقصود من الطير في قوله: ﴿طيراً أبابيل ترميهم بحجارة من سجيل﴾⁽¹⁾ إنما هو نفس الحجارة التي رجم بها أصحاب الفيل لأنها في حركة سقوطها عليهم كانت طيراً في الهواء، إذ الطير في اللغة - كما قال الشيخ محمد عبده في ايضاحاته -: هو كل ما يطير أو يتقل في الهواء، فالطائرة التي تحمل المسافرين والمقذوف الذي ينطلق في الهواء، وما تحمله الرياح ويتقل في الهواء من أجسام كل منها يطلق عليه لفظ الطير، كما يطلق على الطائر الحقيقي.

أما كيف انتشر وباء الجدري والحصبة بين جنود أبرهة أصحاب الفيل بعد رجهم بالحجارة فتعليله سهل وبسيط، فالحجارة التي رموا لها كانت مدمرة للغاية فمزقت - بطبيعة الحال - جلودهم وهشمت عظامهم وأحدثت فيها جروحاً عميقة وخطيرة، ولم تكن وسائل الاسعاف الطبي السريع للطوارئ متوفرة لدى الجيش على نطاق واسع وكاف بالنسبة لظروفهم، فأدت هذه الحالة السيئة إلى تفشي الأمراض بين الجنود وخاصة الميكروبية المعدية أو الوبائية ومنها وباء الجدري والحصبة اهـ.

هذا التأويل الذي ذهب إليه واختاره في تفسير قصة إهلاك أصحاب الفيل يؤخذ عليه المآخذ التي تقدمت عند تفسير الشيخ محمد عبده لهذه القصة. ويضاف إليها مآخذ أخرى في تفسيره الطير بالحجارة:

1 - إن فيه صرف اللفظ عن الحقيقة إلى المجاز والتمثيل من غير سبب يدعو

(1) سورة الفيل، الآية 3، 4.

إلى ذلك، إلا إذا كان ممن يستكثرون على قدرة الله تعالى أن تجعل من الطير الضعيف قوة هائلة تستطيع إهلاك من يريد الله إهلاكه، أو ممن يقيسون الأمور بمقاييس العقل، ونحن نعيذه من ذلك.

2 - إن القرآن في جميع الآيات التي ذكر فيها إهلاك قوم لوط - عليه السلام - عبر بالحجارة وبالخاصب فهو يقول: فلما جاء أمرنا جعلنا عاليها سافلها وأمطرنا عليها حجارة من سجيل منضود مسومة عند ربك⁽¹⁾ ويقول: ﴿فجعلنا عاليها سافلها وأمطرنا عليهم حجارة من سجيل﴾⁽²⁾، ويقول: ﴿لنرسل عليهم حجارة من طين مسومة عند ربك للمسرفين﴾⁽³⁾، ويقول: ﴿إنا أرسلنا عليهم حصاباً إلا آل لوط نجيناهم بسحر﴾⁽⁴⁾.

كما جاء التعبير بالخاصب في قوله تعالى: ﴿فكلاً أخذنا بذنبه فمنهم من أرسلنا عليه حصاباً ومنهم... الآية﴾⁽¹⁾.

فلو كان المقصود من الطير هو الحجارة لجاء التعبير القرآني بذلك. أما وقد عبر القرآن بقوله: ﴿وأرسل عليهم طيراً أبابيل ترميهم بحجارة من سجيل﴾ فلا بد أن يكون هذا التعبير مقصوداً في الدلالة على معناه الظاهر منه.

3 - إن كل أحد يفرق بين (وأرسل عليهم حجارة ترميهم بحجارة)، وبين النص القرآني، ذلك أنه أول الطير بالحجارة فما أن يكون أحد اللفظين تكراراً لا معنى له وأما أن يكون له معنى غير ما يفيد اللفظ الآخر.

4 - لو كان هذا الفهم صحيحاً وأن المراد من الطير هي الحجارة نفسها لقال العرب الذين تحداهم القرآن، وكانوا يتحينون لو يجدون أي مغمز فيه وأكثرهم قد

(1) سورة هود، الآية 81، 82. و﴿من سجيل﴾ من طين متحجر ﴿منضود﴾ متظم متابع بعضه يتبع بعضاً ﴿مسومة﴾ معلمة للعذاب.

(2) سورة الحجر، الآية 74.

(3) سورة الذاريات، الآيتان، 33، 34.

(4) سورة القمر، الآية 34.

(5) سورة العنكبوت، الآية 40.

سمع بحادثة الفيل إن لم يكن قد شاهدها عياناً، لقالوا: إن القرآن لا يذكر الحقيقة لأنه قال أرسل عليهم طيراً أبابيل ترميهم بحجارة مع أنه لا وجود لطير، وهذا خلاف الواقع، فالواقع أن العرب قد سمعوا بهذه الحادثة وتناقلوها حتى عدوها من الأحداث العظام التي يؤرخون بها، وقد وجدوا القرآن أخبر عنها كما وقعت وكما شاهدها أو سمعوا بها، ولا أدل على ذلك من اختلافهم في شكلها ولونها، وقد وصفها القرآن (بأبابل) وهي جمع إبالة - بكسر الهمزة وتشديد الباء - الحزمة من الخطب - شبت جماعة الطير في تضامها بإبالة الخطب، والمعنى «جماعات من الطير كثيرة»⁽¹⁾.

والقرآن لم يذكر نوع الطير ولا وصفه لأن فهم الآية لا يتوقف عليه فكفى أن يكون هلاك هؤلاء المعتدين على أيدي طير، مع أنهم مصحوبون بالفيل، وكفى بين الفيل والطير من فروق!!

وفي الفصل الثاني من الباب الثاني يعقد المبحث الثالث عن مد الأرض وتمهيداً وجعل وإلقاء الرواسي فيها، فيسوق عدة آيات في هذا الخصوص، ومن بينها الآيات الآتية:

قوله تعالى: ﴿وهو الذي مد الأرض وجعل فيها رواسي وأنهاراً ومن كل الثمرات جعل فيها زوجين اثنين يغشي الليل النهار﴾⁽²⁾ وقوله تعالى: ﴿وجعلنا في الأرض رواسي أن تميد بهم وجعلنا فيها فجاً سبلاً لعلهم يهتدون﴾⁽³⁾، وقوله تعالى: ﴿وألقي في الأرض رواسي أن تميد بكم﴾⁽⁴⁾، وقوله تعالى: ﴿والأرض مددناها وألقينا فيها رواسي وأنبتنا فيها من كل شيء موزون﴾⁽⁵⁾ وقوله تعالى: ﴿والأرض مددناها وألقينا فيها رواسي وأنبتنا فيها من كل زوج بهيج﴾⁽⁶⁾ وقوله

(1) التحرير والتنوير 550:30.

(2) سورة الرعد، الآية 3.

(3) سورة الأنبياء، الآية 31.

(4) سورة النحل، الآية 15.

(5) سورة الحجر، الآية 19.

(6) سورة ق، الآية 7.

تعالى: ﴿أَلَمْ نَجْعَلِ الْأَرْضَ مَهَادًا وَالْجِبَالَ أَوْتَادًا﴾^(١).

وبعد أن ساق إيضاح المفسرين لمعنى الألفاظ الواردة في هذه الآيات جاء بالمعنى العام فقال: «قد صارت المعاني العامة للآيات بعد إيضاح ألفاظها واضحة، ولذلك سنكتفي بعرض إيضاح المفسرين لما أولوه منها ويحتاج إلى تعليق عليه، قالوا في قوله: ﴿جَعَلْ فِيهَا رَوَاسِي﴾ «وجعلنا في الأرض رواسي» ﴿وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَاسِي﴾ «وألقي في الأرض رواسي» ان الرواسي هي الجبال وأن معناها أنه تعالى بُنِيَ الجبال على الأرض لكي تسكن ولا تميل أو تهتز بالناس إذ كان الاعتقاد قديماً أنها ساكنة غير متحركة، وقال المرحوم الشيخ محمد عبده في قوله: ﴿وَالْجِبَالَ أَوْتَادًا﴾ ما معناه أنه تعالى جعل الجبال لتثبيت الأرض ومنعها من الاهتزاز والاضطراب كما تثبت الخيام بشدها إلى الأوتاد، وأنه لولا الجبال لكانت الأرض دائمة الاضطراب بما في جوفها من المواد الدائمة الجيشان، أي أنه - أي الشيخ محمد عبده - كان يعتقد أن الأرض متحرك من غير اهتزاز أو اضطراب وأن الجبال هي التي تحول بينها وبين الاهتزاز والاضطراب.

وبعد أن علق على ما نقله من أقوال المفسرين، وتحت عنوان المعاني العامة للآيات نجده يفسر الرواسي بينها عبارة عن أراضي جامدة راسية غير الجبال لكي لا تميل ولا تهتز بالناس عند إقامتهم عليها^(٢).

والذي يؤخذ عليه في هذا التفسير هو:

1 - ان القرآن في كل الآيات التي جاء فيها ذكر الرواسي كان تعبيره بحرف الجر (في)^(٣)، وعلى حسب تفسيره لها باعتبارها جزءاً من الأرض يكون المقام لحرف الجر (من) التي تفيد أو من معانيها التبعية.

2 - كيف يفسر قوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا فِيهَا - الْأَرْضَ - رَوَاسِي شَاخِحَاتٍ﴾^(٤)

(1) سورة النبا، الآية، 6، 7.

(2) التفسير العلمي للآيات الكونية في القرآن، ص 398.

(3) تنظر الآيات المتقدمة.

(4) سورة المرسلات، الآية 27.

على اعتبار أن الرواسي هي الأرض الجامدة الراسية غير الجبال، فهذه الآية تصفها بأنها شامخات ومعناها - كما قال الراغب الأصفهاني - عاليات، ومنه شمع بأنفه عبارة عن الكبر⁽¹⁾، وفي القاموس المحيط: (شمخ الجبل) علا وطال⁽²⁾.

3- مما يدل على أن المراد بالرواسي في جميع الآيات التي وردت فيها هي الجبال أن الله تعالى عندما يذكر الجبال كثيراً ما يقرن بها الأنهار، وهذا واضح في الآيات السابقة مما يدل على أن الجبال لها دخل كبير في نزول المطر. ومن المعلومات العامة أن الأنهار مرد منابعها إلى الجبال.

والعلم يقول: إن أهم العوامل الطبيعية لتبريد الهواء الجوي هي الرياح والجبال فالجبال العاليات الشامخات - كما وصفها الحق سبحانه - في تعرضها للرياح الأفقية المنخفضة تجبرها على الصعود إلى أعالي الجو حيث تبرد ويتكاثف بخار الماء فيها إلى سحب، كما أن قمم الجبال العالية التي تكون دائماً مكسوة بطبقة من الجليد تبرد السحاب الذي يمر بها وتعمل على تكثيفه وإنزال الماء منه.

الأستاذ عبد الرزاق نوفل والتفسير العلمي⁽³⁾.

الأستاذ عبد الرزاق نوفل أصدر عدة مؤلفات تدور حول التفسير العلمي. وهو يقول في أحد كتبه: «إن البشرية وجدت في القرآن الكريم أوجه الإعجاز المختلفة البيانية والتشريعية والخلقية والإنسانية، وفي عصر وجد العلماء في آياته الشريفة معجزة علمية ضخمة يكفي لأن ينشر بها الإسلام في أوساط العلم والعلماء، وفي كل مكان لا يعرف أهله لغة القرآن.

(1) المفردات ص 268.

(2) القاموس 1: 262.

(3) عبد الرزاق نوفل كاتب مصري معاصر وعالم جامعي، ألف كثيراً من الكتب التي تعالج قضية الإعجاز العلمي في القرآن وتبين أن الإسلام دين العلم والمعرفة، وتلمس الحكمة في أحكام الإسلام وفرائضه. تخرج في كلية الزراعة بعد أن درس العلوم المختلفة فيها من نبات وحيوان وحشرات وتشرح، ويقول إنه بقي ستة عشر عاماً بعد تخرجه يعيد قراءة ما درسه ويتابع ما وصل إليه العلم من تقدم يقضي على كل شبهة يركن إليها الملحد أو المتشكك. (انظر كتابه الله والعلم الحديث - المقدمة).

ويقول: «إن الله تعالى قد يمدّه بفيض منه فأصدر عدة مؤلفات في هذه الناحية كان منها (القرآن والعلم الحديث) الذي ضمنه بعض آيات القرآن الكريم العلمية، وأوجه الإعجاز فيها. ولما توصل العلم إلى حقائق مثيرة في قطاعاته المختلفة، ووجد أن آيات القرآن الكريم قد سبقت كذلك إلى هذه الحقائق فرأى أن يعرضها على قرائه الذين يلتمس منهم أن يروا أن هذه المحاولات إن أصاب فيها فمن فضل الله وإن لم يصب فإنما هو خطأ منه، والآية الشريفة أبعد وأقدس من أن يناها الخطأ.

وقد أحسن في اقتراض الخطأ والصواب فيما فسر به الآيات الكونية القرآنية وفي قوله: إن كان قد أخطأ فالخطأ منه، وأما الآية الشريفة فهي أبعد وأقدس من أن يناها الخطأ.

وقد ألف كتابه (الله والعلم الحديث) الذي عقد فيه فصلاً (للععجاز العلمي في القرآن) عالج فيه ربط بعض الآيات القرآنية بالعلوم الحديثة.

ثم أتبع كتابه السابق بكتاب (الإسلام والعلم الحديث) لفائدة المسلمين وغيرهم ممن يودون أن يعرفوا حقائق هذا الدين.

كما ألف كتاباً بعنوان (بين الدين والعلم) يثبت فيه أنه لا تعارض ولا جفوة بين الدين والعلم إطلاقاً.

وفي كتابه (القرآن والعلم الحديث) ينطلق عبد الرزاق نوفل من فكرة أساسية عند القائلين بالتفسير العلمي وهي صلاحية القرآن لكل زمان ومكان لأن فيه إشارات إلى كل مستحدث من العلوم.

ويرى عبد الرزاق نوفل أن القرآن معجزة علمية قد حوى أصول العلم الحديث وسبق إلى كل مستحدث من العلوم، وأن هذا الوجه من الإعجاز كان لإقناع غير العرب بمعجزة القرآن، وأنه السبيل إلى تبليغ الدعوة الإسلامية لغير الناطقين بالضاد.

ويقول: إن اليوم الذي ننشر فيه على العالم بلغاته المختلفة ما قد سبق القرآن

إلى القول به وأثبتته التقدم العلمي في مختلف العلوم هو اليوم الذي نكون فيه قد أدينا الرسالة وأبلغنا الدعوة وأظهرنا معجزة القرآن لغير العرب⁽¹⁾.

كما نراه يدافع عن اتجاهاته في تفسير بعض آيات القرآن الكريم علمياً فيقول في كتابه (بين الدين والعلم): «وقد يكون لبعض المعارضين الحق إذا كان ما ندعوا إليه هو التفسير بنظريات علمية، ولكن لم يتجه أي إنسان مخلص في دعوته إلى النظريات العلمية بل إلى الحقيقة العلمية. والفارق بين النظرية العلمية والحقيقة العلمية كبير وكبير جداً، إذ أن النظرية العلمية والحقيقة العلمية كبير وكبير جداً، إذ أن النظرية العلمية هي ما لم يقم الدليل على صحتها بدرجة تجعلها حقيقية غير قابلة للتطور أو التغيير أو التبديل».

ثم ضرب للفرق بين النظرية والحقيقة العلمية مثلاً فقال:

كان من المعروف أو لا أن الأرض منبسطة بدليل أن الإنسان إذا نظر أمامه يراها هكذا منبسطة، ولم تكن هذه حقيقة علمية ولم ترتفع إلى درجتها، بل عندما رأى العلماء أنه عند رصد السفن في البحار فإن أول ما يرى منها أعلاها قالوا بنظرية كروية الأرض، ولم تقرر كروية الأرض كحقيقة إلا بعد أن أضيف إلى هذا الدليل أدلة متعددة وضعت موضع الاختبار القياسي فقيست أبعادها وأخذت أقطارها وصورت من خارجها فإذا بها كروية، وعندئذ أصبحت كروية الأرض حقيقة، فهل من خوف الآن من أن نجد الأرض غير ذلك.

فإذا فسرنا الآيات الشريفة الواردة في القرآن والتي تشير إلى كروية الأرض قبل أن يصل العلم إلى ذلك بعشرات المئات من السنين أيكون هناك من خوف على هذه الآيات ونكون قد عرضناها لنظريات متغيرة؟!

ثم هذه الأوجه في هذه الآية الواحدة والتي وصل المفسرون إلى ما يقرب من عشرة أوجه فيها ما ضرَّ لو زادت وجهاً علمياً مؤكداً؟!

ثم هل إذا ظهر العلم بعد ذلك بحقيقة أخرى تغاير ما فسرت به الآية، هل

(1) القرآن والعلم الحديث، ط 2، لات، ص 30.

يمكن أن يقول قائل: إن الخطأ في الآية؟ أم ترى سيقول الناس: لقد أخطأ المفسر. كما أن مما قد يثيره الخصوم الشك في تفسير كل آية في موضع من القرآن تفسيراً بغير تفسير آية مماثلة في سورة أخرى لاسيما الآيات العلمية أو التشريعية.

إن إعجاز القرآن ليظهر بوضوح أكثر إذا ما درست آيات الموضوع الواحد وربطت بعضها ببعض وفسر بعضها بعضاً، وثم التعليق عليها بما أوضحه العلم، وهكذا فإنه لا تعارض بين العلم والدين إطلاقاً⁽¹⁾.

ويلوم عبد الرزاق نوفل من فسر بعض الآيات تفسيراً علمياً لا يتفق مع سياق الآية مثل تفسير الآيات ﴿والفجر وليال عشر﴾ والشفع والوتر والليل إذا يسر هل في ذلك قسم لذي حجر⁽²⁾، ومحاولة الربط بينها وبين تحنيط القراعنة لأجسادهم حيث كان يتم ذلك في الفجر بعد عشر ليال، وكذلك تفسير الآيات ﴿والتين والزيتون وطور سينين﴾ وهذا البلد الأمين⁽³⁾ بادعاء أن هذه الآيات تشير إلى (بوزا) حيث بات ليلة تحت شجرة من فصيلة التين، والزيتون إشارة إلى رسالة عيسى وطور سينين إشارة إلى رسالة موسى، وهذا البلد الأمين رمز النبوة المحمدية.

والمعروف أن بوزا يقرر أنه لم يرسل من السماء ولا نزل عليه وحى أو كتاب، كما أنه لا يقول بالآخرة، فكيف يربط البعض بينه وبين باقي المرسلين؟

كما يرى أن من الأسباب التي قد يتخذها الخصوم - يقصد المعارضين للتفسير العلمي - سبيلاً إلى إشاعة معارضة العلم للإسلام المحاولات الفردية لتفسير القرآن بأكمله ويقول: إن هذا من أخطر ما يمكن على التفسير، إذ لا يمكن للفرد مهما كانت طاقته ودرجة علمه القيام بتفسير آيات القرآن كلها، فكيف يعلم الإنسان متفرداً بكل ما تضمنه القرآن الكريم من علوم وإعجاز إلماً بما يجعله على درجة من العلم تمكنه من القيام بهذا العمل الضخم الجليل الخطير⁽⁴⁾؟!

(1) بين الدين والعلم، ط 1، ص 144-146.

(2) سورة الفجر، الآيات 1-5.

(3) سورة التين، الآيات 1-3.

(4) بين الدين والعلم، ص 147.

البروتين النباتي والحيواني

يفسر عبد الرزاق نوفل تحت هذا العنوان قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قُلْتُمْ يَا مُوسَى لَنْ نَصْبِرَ عَلَى طَعَامٍ وَاحِدٍ فَادْعَ لَنَا رَبَّكَ يُخْرِجْ لَنَا مِمَّا تُنْبِتُ الْأَرْضُ مِنْ بَقْلِهَا وَقِثَّائِهَا وَفُومِهَا وَعَدَسُهَا وَبَصَلَهَا، قَالَ أَتَسْتَبْدِلُونَ الَّذِي هُوَ أَدْنَى بِالَّذِي هُوَ خَيْرٌ؟﴾⁽¹⁾ فيقول:

إنها تقرر أن البقول والعدس والبصل أدنى وأقل خيراً مما كان يأكله قوم موسى وهو المن والسلوى وهما نوع من الحلوى وطير يرجح أن يكون المعروف (بالسمان)، ولم يعرف مقدار ما في هذه الآية من علم إلا بعد أن تقدمت العلوم في التغذية والصحة الغذائية، فلم يصل العلم إلا أخيراً إلى أن الأفضلية ليست في مقدار ما تحويه المواد الغذائية بل في نوع ما تحويه من مكونات التغذية.

وقد أصدرت لجنة الأبحاث بانجلترا تقريراً ضمنته حقائق هامة وصلت إليها، وأهمها أن قيمة المواد الزلالية تختلف في نوعها وفي المقدار الذي يمنع المواد الزلالية المكونة للأنسجة من أن تحترق، وأن البقول يضر الإكثار منها، حتى أن التقرير نصح بعدم إعطائها للأطفال مطلقاً، وبالقلة منها للكبار.

ولم يعرف إلا أخيراً أن المواد البروتينية أو الزلالية، والتي تعتبر أهم مكونات البقول، ولو أنها مصدر طاقة لتوليد الحرارة والنشاط إلا أنها مرهقة لأجهزة الجسم في تحويلها إلى هذه الطاقة، ولهذا ينصح الطب الحديث بالاعتماد على النشويات كمصدر للطاقة، وأن البروتينات أو المواد الزلالية الموجودة في الحيوان تفضل تلك الموجودة في البقول تفضيلاً كبيراً، وتعتبر الأنواع التي ذكرها القرآن أكثر المواد احتواءً على المواد البروتينية أو الزلالية.

ففي كل مائة جرام من الفاصوليا والبسلة واللوبيا الجافة 21 جراماً من هذه المواد الزلالية، وفي العدس 20 جراماً وفي البيض 10 وفي الخبز 6 جرامات.

(1) سورة البقرة، الآية 60. والبقل كل نبات ليس له ساق. والقشاء: نوع من الفاكهة يشبه الخيار. والفوم: الثوم والحنطة أيضاً والحمص وسائر الحبوب التي تخبز.

ومن أعجب ما يلاحظ أن الطير وهو الذي كان يأكله القوم يحتوي نفس النسبة تماماً من المواد الزلالية أي 21 جراماً في كل مائة جرام، ولكنها من نوع آخر غير نوع المواد الزلالية التي في البقول، فالقرآن قد قارن بين الطير والبقول وهما متساويان في نسبة المواد الزلالية، وقرر حقيقة علمية لم تظهر إلا أخيراً أو هي أن البروتين الحيواني خير من البروتين النباتي الذي هو أدنى - اهـ⁽¹⁾.

وتحت عنوان (وحدة الخلق) تناول بالتفسير العلمي قوله تعالى: ﴿هو الذي خلقكم من نفس واحدة وجعل منها زوجها ليسكن إليها فلما تغشاها حملت حملاً خفيفاً﴾⁽²⁾ فقال:

«إن النفس الواحدة هي البروتون وأن زوجها هو الاليكترون وهما العنصران اللذان تتألف منها الذرة . . . ويقول بعد كلام كثير عن الجسيمات التي تتألف منها الخلية: «وهذه الحقيقة العلمية التي يتبها العصر الحديث قد جاء بها القرآن الكريم منذ ألف وأربعمائة سنة في صراحة ووضوح، إذ تقرر الآية (189) من سورة الأعراف أن كل ما خلقه الله إنما خلقه من نفس واحدة وجعل منها زوجها أليست هذه البروتونات والاليكترونات: الكهارب الواحدة موجبة وسالبة أي النفس الواحدة الزوجية الجنس بين موجب وسالب، وكذلك الآية الأولى من سورة النساء ﴿يأياها الناس اتقوا ربكم الذي خلقكم من نفس واحدة وخلق منها زوجها﴾ والآية (98) من سورة الأنعام ﴿وهو الذي أنشأكم من نفس واحدة﴾ وغيرها من الآيات التي تشير إلى وحدة الخلق.

ولقد وجد العلماء الكهرياء الموجبة في البروتون والسالبة في الاليكترون وتساويهما تماماً هما السبب في بقاء الذرة وحفظ توازنها وسكونها لتعادل الكهرياء، وأن أي اختلاف طفيف لا يتصوره العقل يؤدي إلى تحطيم الذرة والوجود.

وقد قرر القرآن الكريم هذه الحقيقة في الآية (189) من سورة الأعراف إذاً فسبب سكون النفس الواحدة هو زوجها، وهذا ما قرره العلم بالنسبة لسكون

(1) القرآن والعلم الحديث، ص 81، 82.

(2) سورة الأعراف، الآية 189.

البروتون والالكترون باختلافهما وتساويهما في الكهرباء . - ا هـ -⁽¹⁾ .

هذا ما قاله وادعى أن الآية المذكورة قررته، والمعروف أن معنى (قررته) أنها نصت عليه نصاً لا يقبل التأويل فهل الأمر كذلك؟

لقد كان يكفيه أن يقرأ الآية كاملة ويتأمل ألفاظها جيداً وما تدل عليه من معنى حتى يفسرها تفسيراً ليس فيه شطط ولا جموح .

فهل يمكن أن يقال : إن البروتين تغشى الالكترون فحملت منه حملاً خفيفاً فمرت به فلما أثقلت دعوا الله ربهما لئن آتيتنا صالحاً لنكونن من الشاكرين⁽²⁾ .
وأيضاً فإن الخطاب في قوله تعالى : ﴿خلقكم من نفس واحدة﴾ ليس للكون كله سموات وأرضه وجميع عناصره ومركباته بل هو خطاب للبشر بدليل ضمير المخاطبين العقلاء أو لا ، وبداية الآية الأولى من سورة النساء التي ساقها المؤلف نفسه ثانياً ، فكيف صح عنده هذا الفهم الموغل في العلمية ، كما أنه لم يعهد في الأساليب العربية إطلاق (النفس) على عناصر كيميائية ، وأن قوله تعالى : ﴿وبث منها رجالاً كثيراً ونساء﴾⁽³⁾ قد بين أن من هذه الزوجية يخلق رجال ونساء . . .
فهل من التفاعلات الكيميائية في جميع الكائنات يوجد رجال ونساء؟! .

وتحت عنوان (انشقاق القمر) يفسر قوله تعالى : ﴿اقتربت الساعة وانشق القمر﴾⁽⁴⁾ فيقول :

«إن القمر قد قرب من الأرض ، وأن هذا الاقتراب وإن كان يسير حثيثاً⁽⁵⁾ ، إلا أنه بتوالي العصور سيجعل القمر يقترب من منطقة تفوق الجاذبية منها تلك التي تجعله على بعده من الأرض الذي يحفظه ، وإن أول علامة على دخول منطقة الخطر

(1) القرآن والعلم الحديث ، ص 155 .

(2) أنظر مجلة الأزهر ، عدد خاص بالقرآن الكريم رمضان 1390 هـ مقال بقلم الدكتور عبد الواحد وافي .

(3) سورة النساء ، الآية 1 .

(4) سورة القمر ، الآية 1 .

(5) لعلها بطيئاً ، لأن حثيثاً ضد المعنى الذي يقصده .

هو حدوث زلازل مدمرة في القمر. هذه الزلازل سترداد عنفاً كلما اقترب من الأرض حتى يصل الحال بشدة الزلازل التي تشق القمر إلى زلزلة عنيفة دائمة تسبب انشقاقه، وإذا انشق وتهاوى مكوناً طبقات حول الأرض كما في زحل، أفلا يؤثر ذلك على جاذبية كواكب وأجرام أخرى تمسكها جاذبية القمر نفسه؟

أولا يكون ذلك إيداناً باختلال الجاذبيات بين الكواكب الكبيرة فتتهاوى إلى الأرض أو يسبب ذلك اختلالاً في جاذبية الكواكب الكبيرة فتتهوي الأرض إلى الشمس أو إلى ما لا نعرفه أو ننصوره، وهلا يكون ذلك دليلاً على قيام الساعة ويكون انشقاق القمر بذلك دليلاً على اقترابها؟.

أولا يكون القرآن قد سبق العلم بذلك بعدة قرون؟.

أولا يلقي ذلك بضوء على تفسير الآية الأولى من سورة القمر؟.

أما القول: بأن القصد في هذه الآية هو حادث انشقاق للقمر وقع، فالتاريخ لم يحدثنا عن حادث وقع كهذا. . .

وأما الآية الثانية في سورة القمر ﴿وإن يروا آية يعرضوا﴾ الخ. فإنها تكون عند انشقاق القمر إذ سيظل بعض الكافرين على كفرهم فلا يعتبرون، وسيقول بعض الملحدين: إن هذا قد يكون من أعمال السحر، فلا يهتمون بالرغم من هذه الظاهرة التي تكون بعدها الساعة - اهـ⁽¹⁾.

هذا ما ذهب إليه عبد الرزاق نوفل في هذا الموضوع استدلالاً واستنتاجاً وتأييداً. ولكن الذي عليه الأكثرون من العلماء أن مجمل السورة يخالف ما ذهب إليه، فحادثة انشقاق القمر هي على ظاهرها قد وقعت معجزة له ﷺ كما فهمتها الأجيال المتعاقبة من علماء المسلمين علماء اللغة وعلماء الدين.

وقد جاءت الآية التالية - التي أولها تأويلاً بعيداً عن سياقها وبعيداً عن فهمها - تصف عناد قريش ومكابرتهم فيما رأوا بأعينهم ورآه غيرهم معهم وموعدة إياهم ومنذرة بعاقبة كل من يكذب الرسل عناداً أو اتباعاً للهوى رغم الآيات.

(1) القرآن والعلم الحديث، ص 183، 184.

وقد جاء التهديد والوعيد بعد ذلك جلياً واضحاً لما عقب الله تعالى على حديث أولئك المكذبين بتوجيه الخطاب إلى قريش ومن كذب بآية انشقاق القمر يسألهم منكراً ومحذراً ومنذراً ومقيماً عليهم الحجة بالغة فيقول: ﴿أكفاركم خير من أولئكم؟ أم لكم براءة في الزبر؟ أم يقولون نحن جميع منتصر، سيهزم الجمع ويولون الدبر﴾⁽¹⁾.

وهذه الآيات قد جاءت عقب قوله: ﴿ولقد جاء آل فرعون النذر كذبوا بآياتنا كلها فأخذناهم أخذ عزيز مقتدر﴾⁽²⁾ مما يدل على أن كلمة (آية) الواردة في أول السورة هي من جنس الآيات الواردة في قوله ﴿كذبوا بآياتنا كلها﴾ حتى يتم التطابق بين المكذبين المشار إليهم في أول السورة من قريش والمكذبين من الأمم السابقة، فلا بد أن يكون انشقاق القمر آية من ذلك القليل أجراها الله على يد نبيه محمد ﷺ حتى تقوم الحجة على من كذب من قريش.

قال الألوسي: «ويؤيد هذا الذي عليه الأكثرون قوله تعالى: ﴿وإن يروا آية يعرضوا﴾ فإنه يقتضي أن انشقاق القمر آية رأوها وأعرضوا عنها»⁽³⁾. بالإضافة إلى أن الأحاديث الصحيحة قد جاءت مجمعة على انشقاق القمر بالفعل، ولقد بلغت تلك الأحاديث من القوة والكثرة ما جعل الحافظ ابن كثير يصرح في تفسيره بأن انشقاق القمر ثابت بالأحاديث المتواترة بالأسانيد الصحيحة⁽⁴⁾. «وهو حادث واجه به القرآن المشركين في حينه، ولم يرو عنهم تكذيب لوقوعه، فلا بد أن يكون قد وقع فعلاً بصورة يتعذر معها التكذيب ولو على سبيل المراء الذي كانوا يمارونه في الآيات لو وجدوا منفذاً للتكذيب. وكل ما روي عنهم أنهم قالوا: سحرنا، ولكنهم هم أنفسهم اختبروا الأمر فعرفوا أنه ليس بسحر، فلو كان قد سحرهم فإنه لا يسحر المسافرين خارج مكة الذين رأوا الحادث وشهدوا به حين سئلوا عنه»⁽⁵⁾.

(1) سورة القمر، الآيات 43 - 45.

(2) سورة القمر، الآية 41، 42.

(3) روح المعاني، ط بولاق الأولى 1301 هـ، 7: 272.

(4) تفسير ابن كثير 4: 261.

(5) في ظلال القرآن مجلد 6: 3426.

أما ادعاؤه بأن التاريخ لم يحدثنا عن حادث وقع كهذا فيكفي للرد عليه ثبوت ذلك بالأحاديث الكثيرة الواردة بالأسانيد الصحيحة. قال الحافظ ابن كثير: «وهذا أمر متفق عليه بين العلماء أن انشقاق القمر قد وقع في زمان النبي ﷺ وأنه كان إحدى المعجزات الباهرات، وقد ثبت من عدة روايات من بأنها رواية مسلم والبخاري له من طرق متعددة»⁽¹⁾.

أما قوله: إن انشقاق القمر حادث في الطبيعة لا يمكن أن يهمل أو لا يدون فلا تذكره تواريخ الطبيعة أو الجغرافية⁽²⁾.

فإنه نفس ما قيل في الماضي من أنه لو وقع لجاء متواتراً واشترك أهل الأرض في معرفته ولما اختص بها أهل مكة.

والجواب عليه - كما ذكره الحافظ ابن حجر -: أن ذلك وقع ليلاً وأكثر الناس نيام والأبواب مغلقة وقل من يرصد السماء إلا النادر، وقد يقع بالمشاهدة في العادة أن ينكشف القمر وتبدو الكواكب العظام وغير ذلك، ولا يشاهدها إلا الآحاد فكذلك الانشقاق كان آية وقعت في الليل لقوم سألوا أو اقترحوا فلم يتأهب غيرهم لها. ويحتمل أن القمر ليلتشد كان في بعض المنازل التي تظهر لبعض أهل الآفاق دون بعض كما يظهر الكسوف لقوم دون قوم⁽³⁾. وأيضاً فإن القمر ليس ظهوره في وقت واحد لأهل الأرض فإن مواقيت طلوعه تختلف باختلاف البلدان في ساعات الليل والنهار وفي مسامحة السماء⁽⁴⁾.

والخلاصة أن خبر انشقاق القمر خبر مستفيض وهو معدود في مباحث المعجزات من كتب السيرة ودلائل النبوة كما أنه لا ينافي انشقاق القمر الذي سيحصل عند القيامة الذي يفهم من آيات أخرى مثل قوله تعالى: ﴿فإذا برق البصر وخسف القمر وجمع الشمس والقمر يقول الإنسان يومئذ أين المفر﴾⁽⁵⁾.

(1) تفسير ابن كثير 4: 261، وانظر فتح الباري بشرح البخاري 10: 240.

(2) القرآن والعلم الحديث ص 184.

(3) فتح الباري بشرح البخاري 8: 184.

(4) تفسير التحرير والتنوير 27: 170.

(5) سورة القيامة، الآيات 7-10.

الفصل الثالث

أشهرَ القائلينَ بِالتفسيرِ العائمي
فِي العصرِ الحديثِ باعتمادِ

الفصل الثالث

اشهر القائلين بالتفسير العلمي في العصر الحديث باعتدال

سأذكر في هذا الفصل مجموعة من الباحثين من أصحاب الاتجاه العلمي في تفسير القرآن الكريم، يعتبرون معتدلين إلى حد كبير، والتفاوت بينهم قليل. وقضية الاعتدال والمغالاة في هذه القضية مرجعها إلى كثرة المؤاخذات التي تؤخذ على من يحاول إقحام القرآن في كل صغيرة وكبيرة، وفي كل قضية من قضايا العلم، ولا ترجع إلى القلة والكثرة في هذا الخصوص.

ويجب أن يكون معلوماً أن الباحثين الذين تقدم الحديث عنهم في الفصل السابق اعتبروا مغالين، لأن كثيراً من الأمثلة التي حاولوا فيها تطبيق ما قال به العلم على ما جاء في القرآن كانت عليها ملاحظات ترجع إلى أشياء أساسية في قضية التفسير، هذا من جهة. ومن جهة أخرى ليس معنى كونهم مغالين في هذه الأمثلة التي ذكرناها أن تترك تفسيراتهم وبحوثهم نسبياً منسياً، ليس هذا مقصوداً، وإنما المقصود هو أن يؤخذ التفسير العلمي بحذر شديد سواء ورد في كتب وبحوث من تقدم ذكرهم أم ورد في كتب غيرهم من الباحثين والكاتين.

الشيخ محمد بخيت المطيعي(*) والتفسير العلمي

من القائلين بالتفسير العلمي والساكنين منهجه الشيخ محمد بخيت

(*) أحد علماء الأزهر وأحد رواد الإصلاح الذين تأثروا بأراء وأفكار جمال الدين الأفغاني. ولد سنة 1882 وتوفي سنة 1935م، وقد تولى الإفتاء بالديار المصرية.

المطيعي ، فقد ألّف كتاباً أسماه (تنبيه العقول الإنسانية لما في آيات القرآن من العلوم الكونية والعمرائية) قال في مقدمته :

«إن هذا الدين الذي يرجع في مأخذه إلى كتاب الله وهو القرآن الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد، هذا القرآن الذي يقول الله فيه : ﴿ما فرطنا في الكتاب من شيء﴾ ويقول - سبحانه وتعالى - فيه : ﴿ونزلنا عليك الكتاب تبياناً لكل شيء وهدى ورحمة وبشرى للمسلمين﴾⁽¹⁾.

دلت هاتان الآيتان على أن هذا الكتاب الذي هو الأصل الذي يرجع إليه الدين الإسلامي والأساس الذي ينبني الإسلام عليه، لم يفرط فيه من شيء، وأنه تبيان لكل شيء فهو مبين لكل شيء بين في نفسه لا يحتاج إلى ما يبينه، وإنما خفاء بعض ما يراد منه ويرمي إليه يرجع إلى قصور عقول البشر لا إليه في ذاته، فهو دال بعباراته وإشارات على حقائق الأشياء كلها وصفاتها وشؤونها وحركاتها في الكيفيات والكميات، شامل لجميع المباحث الباحثة عن حقائق الأعيان الكونية في العوالم كلها سماوية وأرضية وجوية وجسمانية وروحانية وظلمانية ونورانية، دال ومشمتم على جميع القوانين، فلم يترك شاردة ولا واردة ولا صغيرة ولا كبيرة عما يحتاج إليه نوع الإنسان إلا أحصاها وأتى عليها بعبارته أو إشارته، حاضاً للإنسان الذي فطره الله وخلقته مستعداً للنظر والبحث في تلك العلوم على التفكير فيها وبذل الجهد في استخراجها وتمحيص مسائلها والأخذ منها، فكان ذلك الكتاب بحراً لا ساحل له عذباً فرائاً يغترف منه كل إنسان بحسب استعداده وعلى حسب مشربه⁽²⁾.

ونجده - بعد أن يفسر قوله تعالى : ﴿والله أخرجكم من بطون أمهاتكم لا تعلمون شيئاً وجعل لكم السمع والأبصار والأفئدة لعلكم تشكرون﴾⁽³⁾ - يقول :

هذا قليل لخصناه من كثير قاله المحققون من المفسرين في تفسير هذه الآية، ومنها يعلم مقدار ما دلت عليه من العلوم الكونية والعمرائية والحكمية، وعلى

(1) سورة الأنعام، الآية 38. وسورة النحل، الآية 89.

(2) تنبيه العقول الإنسانية، ط السعادة، 1948، المقدمة ص 6 وما بعدها.

(3) سورة النحل، الآية 78.

مقدار العلوم التي اشتمل عليها القرآن وحقيقة الدين الإسلامي الذي هو مستمد منه وأنه دين العلم والعمل . وما يعوزه إلا أن ينهض به أهله الذين اعتنقوه وأن يعتنوا بعلومه ويجدوا ويبتعدوا في تحصيلها على اختلاف أنواعها حتى يتضح لهم أن كل ما يحتاجون إليه منها موجود في كتابهم القرآن الذي لم يفرط فيه من شيء . فما من شيء يفتقره مخترع أو يكتشفه مكتشف إلا وتجده عند التحقيق - أن القرآن أتى عليه بمنطوق عبارته أو إشارته أو مفهوم الموافقة أو المخالفة⁽¹⁾ .

وتحت عنوان (دوران الأرض وأخذه من القرآن) كتب يقول : قال الله تعالى : ﴿الذي جعل لكم الأرض فراشاً﴾⁽²⁾ ، وقال : ﴿أمن جعل الأرض قراراً وجعل خلالها أنهاراً﴾⁽³⁾ ، وقال : ﴿الذي جعل لكم الأرض مهاداً﴾⁽⁴⁾ وقال : ﴿هو الذي جعل لكم الأرض ذلولاً﴾⁽⁵⁾ وقال : ﴿كل في فلك يسبحون﴾⁽⁶⁾ وقال : ﴿وترى الجبال تحسبها جامدة وهي كمرٍ للسحاب صنع الله الذي أتقن كل شيء﴾⁽⁷⁾ .

كل هذه الآيات تدل بظاهرها على أن الأرض متحركة ودائرة ، كما هو قول (فيثاغورس)⁽⁸⁾ قديماً وقول علماء الهيئة اليوم ، وذلك أنه ثبت بالمشاهدة الصحيحة أن الأرض على شكل كرة مفرطحة نحو قطبيها منتفخة عند خط الاستواء ، وقد أطبق المحققون من المفسرين وجميع علماء الكلام وفلاسفة الاسلام أن الأرض كرة

(1) المصدر نفسه ص 24 ، 25 . والمنطوق : هو ما دل عليه اللفظ في محل النطق . والمفهوم : ما دل عليه اللفظ في غير محل النطق . ومفهوم الموافقة : هو ما يوافق حكمه المنطوق . ومفهوم المخالفة : ما يخالف حكمه المنطوق . (الاتقان 2: 31 ، 32) .

(2) سورة البقرة ، الآية 22 .

(3) سورة النمل ، الآية 63 .

(4) سورة طه ، الآية 53 .

(5) سورة الملك ، الآية 15 .

(6) سورة الأنبياء ، الآية 33 ، وسورة يس ، الآية 39 .

(7) سورة النمل ، الآية 88 .

(8) فيثاغورس : فيلسوف اغريقي رياضي قديم ، عاش في القرن السادس ق.م ومات أول القرن الخامس 497 ق.م ، كَوّن مدرسة علمية عظيمة وجهت مهمل إلى دراسة الرياضيات والهندسة وعلوم الصوت والموسيقى . (مع الله في السماء) كتاب الهلال 1976/311م د . أحمد زكي ص 52 .

وعدوا انكار ذلك مكابرة. فمن أقام الدليل على خلاف ذلك فقد أراد التشكيك في اليقينيات وكابر نفسه وأنكر حسه، فلا يعول عليه ولا يلتفت إليه، فكان انتفاخها نحو خط الاستواء وتفرطحها نحو القطبين دليلاً حسيماً يدل على أن الأرض كانت سائلة في مبدأ خلقها وأنها متحركة بحركة رجوية ودائرة على محورها، وذلك لأن الكرة إذا كانت صلبة كالتي من العاج - مثلاً - لا يتغير شكلها ولو دارت على محورها قروناً كثيرة. وأما إذا كانت سائلة أو عجينة انتفخت نحو وسطها وتفرطحت نحو قطبيها، وبذلك جمدت قشرتها أيضاً وبردت.

ولو كانت ساكنة لبقيت جرمًا غازيًا سائلاً فلا تصلح لأن تكون فراشاً ولا مهداً ولا ذلولاً، فثبت بذلك حركتها على محورها التي بها يتعاقب الليل والنهار. وأما حركتها حول الشمس فسيبها أن الشمس أكبر جرمًا من الأرض أضعافاً مضاعفة، وكلما كان الجرم أكبر كان أكثر وأقوى جاذبية من الأصغر، فالشمس هي التي تجذب الأرض إليها من كل الجوانب، لما تقرر على وجه ما ذكر في علم رفع الأنفال بالتجربة العملية الصحيحة.

وبذلك تبين أن هذه الآيات بظاهرها تدل على أن الأرض ليست منقاداً إلى حركة رجوية بها تدور على محورها ويتكون منها تعاقب الليل والنهار فقط بل تتحرك أيضاً حركة أخرى حول الشمس تتكون منها السنة وفصولها.

وأما قول الله تعالى: ﴿وكل في فلك يسبحون﴾ فوجه دلالة أن القاعدة العربية في الضمير الذي يعود على المضاف إليه الذي ناب عن التنوين في لفظ ﴿كل﴾ أنه يجوز فيه الإفراد والتثنية إن كان مرجعه الحقيقي مثنى، فالتثنية لمراعاة المعنى والإفراد للفظ، وقد جاء الضمير في قوله ﴿يسبحون﴾ جمعاً فكان مرجعه جمعاً. وعلى هذا اتفق المفسرون، غير أنهم أولوا ذلك بتأويل شتى ما دعاهم إلى ارتكابها إلا اعتقاد ما قالته البطليموسية⁽¹⁾ من اليونان من أن الأرض ساكنة، مع

(1) البطليموسية: سمة إلى بطليموس من علماء الهيئة والتاريخ والجغرافيا، وله النظرية البطليموسية التي تقول بأن الأرض ثابتة وبأن الفلك يدور حولها. وهو يوناني الأصل مصري النشأة، عاش أبان القرن الثاني الميلادي، وهو من مشاهير علماء الإغريق ممن كان لهم أثر في تاريخ الفكر الإسلامي. وقد

أنه لم يَقم دليل على سكُون الأرض بل الدليل قائم على دورانها، فلا داعي للتأويل بل يجب أن تبقى الآيتان على ظاهرهما. ويعود الضمير على الأجرام الثلاثة التي هي الأرض والشمس والقمر.

وأما قوله تعالى: ﴿وترى الجبال تحسبها جامدة وهي تمرّ مرّ السحاب...﴾ الآية. فوجه دلالتها على دوران الأرض أن معناها: أنا نرى الجبال نظنها بحسب ما يتراءى لنا ساكنة وهي في الواقع ونفس الأمر تمرّ مرّ السحاب وتسير سيراً حثيثاً، وما ذلك إلا لأن الأرض متحركة بحركة سريعة جداً، والجبال تسير وتتحرك تبعاً لها، لأنه لا جائز أن تكون الجبال متحركة هذه الحركة وحدها والأرض ساكنة، لأنه لو كان الأمر كذلك لانفصلت الجبال عن الأرض، وهو خلاف المشاهد. فتبين أن حركتها إنما هي بالتبعية لحركة الأرض⁽¹⁾.

ولا جائز أن يكون ما نراه على الوجه الذي جاءت به الآية وقت النفخة الأولى أو النفخة الثانية كما قيل بذلك، لأنه في كل من الوقتين لا يكون هناك بقاء ولا وجود للجبال على الأرض على الوجه الذي يلائمه قوله تعالى في الآية ﴿صنع الله الذي أتقن كل شيء﴾ لأن يوم النفختين هو اليوم الذي ترتجف فيه الجبال وتكون كثيباً مهيلاً⁽²⁾، وهو اليوم الذي ينسف الله فيه الجبال نفساً فيذرهما قاعاً صفصفاً⁽³⁾ لا ترى فيها عوجاً ولا أمتاً⁽⁴⁾، هو اليوم الذي تكون فيه الجبال كالعهن المنفوش⁽⁵⁾ والناس كالفرأش المبثوث⁽⁶⁾، إلى غير ذلك من الأحوال والأحوال التي لا

تردد اسمه كثيراً في المراجع العربية.

(ما دل عليه القرآن مما يعضد الهيئة الجديدة القديمة)، البرهان: محمود شكري الأوسمي، ط 1 ص 4. والقاموس الإسلامي، أحمد عطية، ط 1، 1963، 325:1.

(1) فكما أن السحاب لا يتحرك بذاته، وإنما يتحرك تبعاً لحركة الرياح كذلك حركة الجبال تابعة أيضاً، وما دامت ثابتة وراسية كالأوتاد في الأرض إذا لا بد أن تكون حركتها تابعة لحركة الأرض.

(2) رملًا مجتمعاً (مهيلًا) سائلاً بعد اجتماعه.

(3) قاعاً: خالياً. صفصفاً: مستوية كأن أجزاءها على صف واحد.

(4) عوجاً: اعوجاجاً. ولا أمتاً: نتوءاً وارتفاعاً.

(5) العهن المنفوش: الصوف المندوف لتطايير أجزائها في الجو.

(6) الجراد المنتشر بموج بعضهم في بعض للحيرة.

يتناسب أن يقال ويخاطب كل من يصح منه الرؤية ﴿وترى الجبال...﴾ الآية. لأن مثل هذا القول إنما يقال لحض الناس المخاطبين على النظر في ذلك الصنع المتقن، والتفكير فيما اشتمل عليه من الحكم ليزدادوا إيماناً و يقيناً، وليس يوم النفختين صالحاً لمثل هذا.

ثم قال:

إذا علمت كل ما قدمناه في خلق السموات والأرض تعلم أن العاقل المنصف إذا نظر في هذه اللطائف التي اشتملت عليها تلك الآيات القرآنية وما دلت عليه من تدبير الصانع الحكيم نظر منصف مجرداً عن التعصب، علم علماً يقيناً واعتقد اعتقاداً جازماً أن القرآن قد اشتمل على كثير من مباحث العلوم العمرانية والكونية، وأن كل ما قيل غير ذلك فرية بلا مرية، كيف وقد دلت على أن الله تعالى حكيم مقتدر عليم، حيث جعل الأرض كرة دائرة لتكون فراشاً ومهداً وذلولاً لنا⁽¹⁾.

الشيخ عبد الحميد بن باديس والتفسير العلمي

كان الشيخ عبد الحميد بن باديس يؤمن بأن القرآن هو المحور الذي تركز عليه نهضة المسلمين، وكان يرى أن إصلاح الفرد هو أساس صلاح المجتمع، وصلاح الفرد يعتمد على صحة عقيدته وسمو خلقه، وأن الإنسان يحتاج إلى ثلاثة عوامل

-
- (1) تنبيه العقول الإنسانية لما في آيات القرآن من العلوم الكونية والعمرانية، ص 79، 80.
- (2) عبد الحميد بن محمد بن مصطفى بن باديس، مفكر جزائري، يعد في طبعة قادة الفكر وزعماء الإصلاح في الوطن العربي الإسلامي، وهو رئيس جمعية العلماء المسلمين بالجزائر من بدء قيامها سنة 1931 إلى وفاته. ولد في فسطاطية وأتم دراسته في الزيتونة بتونس، وأصدر مجلة (الشهاب) وهي مجلة علمية دينية أدبية، وكان شديد الحملات على الاستعمار، وحاولت الحكومة الفرنسية في الجزائر إغراءه بتوليته رئاسة الأمور الدينية فامتنع، واضطهد وأودى وخاض معارك رهيبة ضد ما كان يسود الجزائر آنذاك من دعوات التنصير والفرسة ومحاربة العروبة والدين ونشر الفرقة بين أبناء البلد الواحد من عرب وبربر، وهو متأثر في تفكيره بكبار المجددين أمثال جمال الدين الأفغاني والإمام محمد عبده والشيخ الطاهر بن عاشور الذي كان يلقيه بشيخه والشيخ محمد رشيد رضا، وقد توفي وهو لم يتجاوز الخمسين من عمره في 16 ابريل 1940 م.

رئيسية هي: الفكر والإرادة والعمل، والفكر يعتمد على العقل، والإرادة على الخلق، والعمل يعتمد على البدن.

وقد جمعت دروس التفسير التي كان يلقيها على تلاميذه في كتاب تحت عنوان (تفسير ابن باديس) أو (مجالس التذكير من كلام الحكيم الخبير).

وكان ابن باديس يمتاز بملكة بيانية وسعة اطلاع على السنة، وتفقه فيها وغوص على أسرارها وإحاطة، وباع مديد في علم الاجتماع البشري، وإلمام بمنتجات العقول ومستحدثات الاختراع ومستجدات العمران.

وقد أتم تفسيره للقرآن الكريم تدريساً على تلاميذه في خمس وعشرين عاماً، ولكن لم يدون من تفسيره إلا القليل. وتوفي الإمام فضاع على الأمة الكثير من تفسيره، ولم يوجد إلا القليل من تلك الدروس التي كان يكتبها (فوائح) لأعداد مجلة (الشهاب) ويسميتها (مجالس التذكير)، وهي نموذج صادق من فهمه للقرآن وتفسيره له، وكان يحرص في تفسيره على التماس العبرة ومواطن العظة وكيفية تنفيذ الجانب العلمي في الآية، وحتى يعلم ما هي معطيات الآية فيطلبها منها وما ليس منها فلا يقصرها عليه.

وكان أحد المراجع التي يرجع إليها في تفسيره تفسير الرازي - كما ذكر في مقدمة دروسه - فكان من الطبيعي أن يكون من أنصار الاتجاه العلمي في التفسير، وكما يتبين ذلك واضحاً من النماذج الآتية:

في تفسير قوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَا اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ آيَتَيْنِ فَمَحَوْنَا آيَةَ اللَّيْلِ وَجَعَلْنَا آيَةَ النَّهَارِ مَبْصُورَةً لِّتَبْتَغُوا فَضْلاً مِّن رَّبِّكُمْ وَلِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ وَكُلُّ شَيْءٍ فَصْلَانَهُ تَفْصِيلاً﴾⁽¹⁾ يقول:

«جعل الشيء هو وضعه على حالة أو كيفية خاصة فيها - الليل والنهار - حادثان مسيران بتدبير وتقدير و (الليل) هو الوقت المظلم الذي يغشى جانباً من الكرة الأرضية عندما تكون الشمس منيرة لجانبها المقابل، و (النهار) هو الوقت

(1) سورة الإسراء، الآية 12.

الذي يتجلى على جانب الكرة المقابل للشمس فتضيئه بنورها. ولا يزالان هكذا متعاقبين على جوانب هذه الكرة وأمكتها يكور الليل على النهار بأن يحل محله في جزء من الكرة - وجزء الكرة مكور - فيكون النهار مكوراً بحكم تكور المحل، وكذلك النهار يكور عليه فيحل محله من الكرة فيكون أيضاً مكوراً بحكم تكور المحل، وإنما جعلنا تكوير أحدهما على الآخر بحلوله في محله، لأنه لا يمكن تكويره عليه بحلوله عليه في نفسه لأنها ضدان لا يجتمعان، وليس جسمين يحل أحدهما على الآخر.

و(الآية) هي العلامة الدالة، وكان الليل والنهار آيتين يتعاقبهما مقدرين بأوقات متفاوتة بالزيادة والنقص في الطول والقصر على نظام محكم وترتيب بديع بحسب الفصول الشتوية والصيفية وبحسب الأمكنة ومناطق الأرض المناطق الاستوائية والقطبية الشمالية والجنوبية وما بينها حتى يكونا في القطبين ليلة ويوماً في السنة ليلة فيها ستة أشهر هي شتاء القطبين، ويوم فيه ستة أشهر هو صيفهم.

فهذا الترتيب والتقدير والتيسير دليل قاطع على وجود خالق حكيم قدير لطيف خبير.

(فمحونا) المحو: الإزالة إزالة الكتابة من اللوح وإزالة الآثار من الديار، فمحو آية الليل إزالة الضوء منها، وهذا يقتضي أنه كان فيها ضوء ثم أزيل، فتفيذ الآية أن القمر كان مضيئاً ثم أزيل ضوءه فصار مظلماً.

وقد تقرر في علم الهيئة أن القمر جرم مظلم يأتيه نوره من الشمس، واتفق علماء الفلك في العصر الحديث - بعد الاكتشافات والبحوث العلمية - أن جرم القمر - كالأرض - كان منذ أحقاب طويلة وملايين السنين شديد الحمو والحرارة ثم برد، فكانت إضاءته في أزمان حموه وزالت لما برد.

لنقف خاشعين متذكرين أمام معجزة القرآن العلمية، ذلك الكتاب الذي جعله الله حجة لنبيه ﷺ وبرهاناً لدينه على البشر مهياً ترقوا في العلم وتقدموا في العرفان. فإن ظلام جرم القمر لم يكن معروفاً أيام نزول الآية عند الأمم إلا أفراداً قليلين من علماء الفلك، وأن حموه أولاً وزواله بالبرودة ثانياً ما عرف إلا في هذا

العصر الأخير، والذي تلا هذه الآية وأعلن هذه الحقائق العلمية منذ أربعة عشر قرناً نبي أمي من أمة أمية كانت في ذلك العهد أبعد الأمم عن العلم، فلم يكن ليعلم هذا ويقول إلا بوحى من الله الذي خلق الخلائق وعلم حقائقها، وكما أفادت الآية زوال نور القمر بعد أن كان بمقتضى لفظة ﴿فمحوها﴾ ومدلولها لغة فإنها تشير إلى أن نوره مكتسب، وتوهم إلى أنه من الشمس، وذلك لأننا نرى فيه نوراً، مع علمنا أن نوره قد أزيل نعلم قطعاً أن ذلك النور ليس فيه.

وإذا كان مذكوراً مع الشمس المبصرة في الاستدلال والامتنان ومعاقباً مصاحباً لها في الظهور فنوره جاء منها وهي التي أبصرته - اهـ⁽¹⁾.

كما يرى الإمام ابن باديس أن الإعجاز العلمي أعظم وأعم من غيره من أوجه الإعجاز، فهو يقول في تفسير قوله تعالى - رداً على الكفار الذين زعموا أن القرآن أساطير الأولين - : ﴿قل أنزله الذي يعلم السر في السموات والأرض إنه كان غفوراً رحيماً﴾⁽²⁾.

«القرآن أعجز العرب ببلاغته حتى عرفوا وعرف العلماء بلسانهم المرتاضين ببيانهم أنه ليس مثله من طوق البشر.

هذه هي الناحية الظاهرة في إعجاز القرآن والاستدلال به له ولن أتى به ﷺ. وهناك ناحية أخرى هي أعظم وأعم وهي ناحيته العلمية الذي يذعن لها كل ذي فهم من جميع الأمم في كل قطر وفي كل زمن، وهذه الناحية هي التي احتج بها في هذا الوطن، فقد استدل على أن القرآن لا يمكن أن يكون أتى به محمد من عنده، ولا يمكن أن يستعين عليه بغيره، ولا أن يكون من أوضاع الأوائل بأنه ينطوي على أشياء من أسرار الكون لا يعلمها إلا خالقه.

فمن ذلك ما أنبأ به من أسرار الأمم الخالية، وبين من أسرار الكتب الماضية وما أنبأ من أحداث مستقبلية، وما ذكر من حقائق كونية كانت لذلك العهد عند

(1) تفسير ابن باديس، ط الكيلاني الصغير، 1964 م، ص 58 - 61.

(2) سورة الفرقان، الآية 6.

جميع البشر مجهولة كالزوجية في كل شيء، وسبح الكواكب في الفضاء، ومسير الشمس إلى مستقر مجهول معين عند الله لها، وغير ذلك من أسرار العمران والاجتماع وما تصلح عليه حياة الإنسان مما تتوالى على تصديقه تجارب العلماء إلى اليوم وإلى ما بعد اليوم، فكتاب اشتمل على كل هذه الأسرار لا يمكن أن يأتي به مخلوق - اهـ⁽¹⁾.

كما أن الإمام ابن باديس يرى أن القرآن يشوق إلى العلوم الكونية، وأنه يجب على المسلمين أن يقوموا بذلك حتى يعود إليهم مجدهم الذي أضاعوه. فهو يقول في تفسير قوله تعالى: ﴿أَلَّا يَسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي يُخْرِجُ الْخَبْءَ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَيَعْلَمُ مَا يَخْفُونَ وَمَا يَعْلَنُونَ﴾⁽²⁾.

«من أساليب الهداية القرآنية إلى العلوم الكونية أن يعرض علينا القرآن صوراً من العالم العلوي والسفلي في بيان بديع جذاب ويشوقنا إلى التأمل فيها والتعمق في أسرارها، وهنا يذكر لنا ما خبأه في السموات والأرض لنشتاق إليه وننبعث في البحث عنه واستجلاء حقائقه ومنافعه بدافع غريزة حب الاستطلاع ومعرفة المجهول، وبمثل هذا انبعث أسلافنا في خدمة العلم واستثمار ما في الكون إلى أقصى ما استطاعوا ومهدوا بذلك السبيل لمن جاء بعدهم. ولن نعزّزهم إلا إذا فهمنا الدين فهمهم وخدمنا العلم خدمتهم» - اهـ⁽³⁾.

كما يرى - أيضاً - أن الزمن خير مفسر للقرآن، وأن العلماء بكتاب الله وسنة رسوله لا يتلقونها بالفكر الخامد والفهم الجامد. وذلك حيث يقول:

«إن القرآن كتاب الدهر ومعجزته الخالدة فلا يستقل بتفسيره إلا الزمن، وكذلك كلام نبينا ﷺ المبين له. فكثير من فنون الكتاب والسنة الواردة في معضلات الكون ومشكلات الاجتماع لم تفهم أسرارها ومغازيها إلا بتعاقب الأزمنة وظهور ما يصدقها من سنن الله في الكون.

(1) تفسير ابن باديس، ص 212.

(2) سورة النمل، الآية 25.

(3) المصدر السابق، ص 350.

وكم فسرت لنا حوادث الزمن واكتشافات العلم من غرائب آيات القرآن ومتون الحديث، وأظهرت منها للمتأخرين ما لم يظهر للمتقدمين، وأرتنا مصداق قوله ﷺ في وصف القرآن: «لا تنفسي عجائبه».

والعلماء القوامون على كتاب الله وسنة رسوله لا يتلقونها بالفكر الجامد والفهم الجامد، وإنما يترقبون من سنن الله في الكون وتدبيره في الاجتماع ما يكشف لهم عن حقائقها، ويكولون إلى الزمن وأطواره تفسير ما عجزت عنه أفهامهم. وقد أثر عن جماعة من فقهاء الصاحبة بالقرآن قوْلهم: في بعض هذه الآيات: «لم يأت مصداقها أو تأويلها بعد». يعنون أنه آت، وأن الآتي به حوادث الزمان ووقائع الأكوان، وكل عالم بعدهم فلانما يعطي صورة زمنه بعد أن يكشف بها نفسه. - اهـ⁽¹⁾.

الشيخ محمد مصطفى المراغي⁽²⁾ والتفسير العلمي

كان الشيخ المراغي معنياً في تفسيره باختيار الآيات التي تظهر للناس أن القرآن لا يقف في سبيل العلم، بل يطلق للعقل العنان حتى يهتدي إلى عظمة نواميس الله في كونه، وأنه لا يناقض قواعده ونظرياته الصحيحة.

وفي تقريره له لكتاب (الإسلام والطب الحديث) للطبيب عبد العزيز إسماعيل نجده غير متحمس إلى التفسير العلمي على الرغم من إشادته بالكتاب وثنائه على مؤلفه ومدحه، فهو يقول: «لست أريد من هذا - ثناء على الكتاب ومؤلفه - أن أقول: إن الكتاب الكريم اشتمل على جميع العلوم جملة وتفصيلاً بالأسلوب التعليمي المعروف، وإنما أريد أن أقول: إن الكتاب أتى بأصول عامة

(1) تفسير ابن باديس، ص 488.

(2) ولد الشيخ محمد مصطفى المراغي في بلدة (مراغة) من قرى صعيد مصر سنة 1881 م، كان لأمع الذكاء منذ طفولته، وكان عظيم الشخصية، نشأ محباً للإسلام عنده رغبة صادقة في تنقيته مما ألصقه به أعداؤه. تولى القضاء في مصر والسودان حتى وصل إلى وظيفة قاضي القضاة، ثم انتهى به الأمر شيخاً للأزهر. وقد تولى هذا المنصب مرتين الأولى سنة 1929 والثانية سنة 1935 م. وكان للشيخ المراغي دروس يحضرها كبار القوم والعلماء والطلاب في رمضان من كل سنة. ولم يترك تفسيراً كاملاً، وقد توفي سنة 1945 م. (انجاء التفسير في العصر الحديث، ص 86 وما بعدها).

لكل ما يهيم الإنسان معرفته والعمل به ليلعب درجة الكمال جسداً وروحاً، وترك الباب مفتوحاً لأهل الذكر من المشتغلين بالعلوم المختلفة ليبينوا للناس جزئياتها بقدر ما أوتوا منها في الزمان الذي هم عائشون فيه»⁽¹⁾.

كما كان الشيخ المراغي يكره صبغ القرآن بالفلسفة وتطوير القرآن للنظريات العلمية، ويرى أن في ذلك خطراً عظيماً على كتاب الله، وفي ذلك يقول، تحت عنوان (غرور المسلمين بالعقل والفلسفة): «وجد الخلاف بين المسلمين في العقائد والأحكام الفقهية، ووجد عندهم مرض آخر هو الغرور بالفلسفة وتأويل القرآن ليرجع إليها، وتأويله لبعض النظريات العلمية التي لم يقر قرارها، وذلك خطر عظيم على الكتاب، فإن للفلاسفة أوهاماً لا تزيد على هذيان المصاب بالحمى، والنظريات العلمية التي لم تستقر بعد لا يصح أن يرد إليها كتاب الله»⁽²⁾.

ولكنه كان - في الوقت نفسه - يجب لمفسر القرآن أن يلم بما يقدر عليه من العلم لينبه به الأذهان إلى عظمة الله وفي ذلك يقول:

«ليس من غرض مفسر كتاب الله أن يشرح عالم السموات ومادته وأبعاده وأقداره وأوزانه، لكنه يجب أن يلم بطرف يسير منه، ليدل به على القدرة الإلهية، ويشير إليه للعظة والاعتبار»⁽³⁾.

ومع إنكار الشيخ المراغي تفسير القرآن بالنظريات العلمية لا يرى بأساً إن اتفق ظاهر الآية مع حقيقة علمية ثابتة في تفسير تلك الآية في ضوء هذه الحقيقة فهو يقول:

«يجب ألا نجر الآية إلى العلوم كي نفسرها، ولا العلوم إلى الآية كذلك، ولكن إن اتفق ظاهر الآية مع حقيقة علمية ثابتة فسرناها بها»⁽⁴⁾.

(1) الإسلام والطب الحديث، المقدمة.

(2) الدروس الدينية للشيخ المراغي، سنة 1356 هـ، كتاب الهلال عدد 238 / 1970 م ص 42.

(3) المصدر السابق، ص 62.

(4) الإسلام والطب الحديث، تقديم الشيخ المراغي، ص 5.

ويفهم من قوله هذا أنه ينكر إخضاع الآيات القرآنية للنظريات العلمية فقط، أما فهم الآيات القرآنية في ضوء الحقائق الثابتة والقواعد المستقرة فلا يرى مانعاً منه .

نماذج من تفسيره العلمي :

عند تفسيره لقوله تعالى : ﴿خلق السموات بغير عمد ترونها﴾⁽¹⁾ يقول :

«السموات مجموع ما نراه في الفضاء فوقنا من سيارات ونجوم وسدائم، وهي مرتبة بعضها فوق بعض تطوف دائرة في الفضاء، كل شيء منها في مكانه المقدر له بالقانون الإلهي وهو نظام الجاذبية، ولا يمكن أن يكون لها عمد، والله ممسكها ومجرها إلى الأجل المقدر لها .

فلذا قيل : إن نظام الجاذبية - وهو التاموس الإلهي - قائم مقام العمد ويطلق عليه اسم العمد جاز أن نقول : إن لها عمداً غير منظورة، وإذا لاحظنا أنه لا يوجد شيء تعتمد عليه وجب أن نقول : إنه لا عمد لها، وأقدار الأجرام السماوية وأوزانها أقدار وأوزان لا عهد لأهل الأرض بها، والأرض نفسها إذا قيست بهذه الأجرام ليست إلا هباءة دقيقة في الفضاء .

ثم قال :

«قرر الكتاب الكريم أن الأرض كانت جزءاً من السموات وانفصلت عنها . وقرر الكتاب الكريم أن الله استوى إلى السماء وهي دخان، وهذا الذي قرره الكتاب الكريم هو الذي دل عليه العلم . وقد قال العلماء : أن حادثاً كونياً جذب قطعة من الشمس وفصلها عنها، وأن هذه القطعة بعد أن مرت عليها أطوار تكسرت وصارت قطعاً، كل قطعة منها صارت سيارةً من هذه السيارات طافت حول الشمس وبقيت في قبضة جذبها والأرض واحد من هذه السيارات فهي بنت الشمس، والشمس هي المركز لكل هذه السيارات .

فليست الأرض هي مركز العالم كما ظنه الأقدمون، بل الشمس هي مركز

(1) سورة لقمان، الآية 10 .

هذه المجموعة والشمس وتوابعها ترى صغيرة في العالم السماوي . وأين هي من الشعري اليمانية التي قال فيها : ﴿وأنه رب الشعري﴾⁽¹⁾ .

فهذا النجم قدرته على إشعاع الضوء تساوي قدرة الشمس 26 مرة وقدرته على إشعاع الحرارة مثل قدرته على إشعاع الضوء .

فلو فرض أن الشعري اليمانية حلت محل الشمس يوماً من الأيام لانتهد الحياة فجأة بغليان الأنهار والمحيطات والقارات الجليدية التي حول القطبين . وضوء الشعري اليمانية يصل إلينا بعد ثمان سنوات ، وضوء الشمس يصل إلينا بعد ثمان دقائق ، فانظر إلى هذا البعد السحيق⁽²⁾ .

وقال في تفسير قوله تعالى : ﴿وألقي في الأرض رومي أن تميد بكم﴾⁽³⁾ : أي خلق الجبال في الأرض لثلا تميد الأرض وتضطرب .

ثم قال : وليبان هذا يمكن أن نقول باختصار :

إن الأرض بعد انفصالها عن الشمس وعكوفها على الدوران حولها على بعد منها وصلت بعض موادها إلى حالة السيولة بعد أن كانت مواداً ملتبهة ، وتكونت عليها قشرة صلبة بعد تتابع انخفاض الحرارة أحاطت بما في جوفها من المواد المنصهرة ، ثم تتابعت البرودة على القشرة فتجعدت وحدث من التجعد نتوءات وأغوار ، فالجبال الأولى نتوء القشرة الصلبة التي غلقت الأرض ، وهناك جبال جدت من اشتداد الضغط في الرواسب التي في قاع البحر ، وجبال نارية جدت من

(1) سورة النجم ، الآية 49 .

(2) الدروس الدينية ص 61 - 64 . وقد أخذ على الشيخ المراغي في تفسيره لهذه الآية قوله : إن الكتاب الكريم قرر - هكذا بصيغة الجزم والإيمان - الأمر الذي كان ينبغي له أن يتحرز من التصريح الجازم به لأنه يناقض مبداه في عدم تأويل القرآن ليرجع إلى بعض النظريات العلمية ، فلو أن الشيخ المراغي قرر أن أسلوب الآية صالح لأن يفهم منه ما يقرره العلم الصحيح مع صلاحته لفهم ما قرره الأئمة السابقون لكان ذلك أنسب لمقامه العلمي ويرايه الذي قرره صراحة في تحجيب القرآن التأويل الذي يعرضه للهزات التي استحدثها العلم . (أنظر كتاب القرآن العظيم - هدايته وإعجازه في أقوال المفسرين ص 237) .

(3) سورة لقمان ، الآية 10 .

خروج الحمم النارية من وسط الأرض وتداخلها في الطبقات حتى صارت كأوتاد مغروزة فيها، والجبال كلها تتحمل الضغوط الرسوبية على جدرانها وتوزعها وتغير اتجاهها وتكسر حداثتها، وتساعد بذلك على بقاء الطبقة المفككة الصالحة للإنبات، وهي التي يغتذي بواسطتها الحيوان والإنسان وتحفظها من أن تغور.

فالجبال أولاً حبست النار في جوف الأرض وصيرت الأرض بعد ذلك صالحة للحياة، والجبال توزع ضغوط الطبقات. ثم بعد ذلك تكسر حدة العواصف والرياح فهي حافظة للأرض من الميدان الذي يجيء بأسباب من داخل الأرض، والذي يجيء بسبب العواصف والرياح - اهـ⁽¹⁾.

د. محمد عبد الله دراز والتفسير العلمي⁽²⁾

برجعنا إلى كتاب المرحوم الشيخ محمد عبد الله دراز (مدخل إلى القرآن الكريم) وجدناه لا يرى مانعاً من التفسير العلمي ما دام ذلك بعيداً عن المبالغات، ففي خاتمة هذا الكتاب يسوق ثلاثة أدلة على أن القرآن من عند الله تعالى:

أولاً: حقائق دينية وأخلاقية وتاريخية.

ثانياً: حقائق علمية.

ثالثاً: تنبؤات المستقبل.

وتحت عنوان «حقائق علمية» كتب يقول:

(1) الدروس الدينية ص 64.

(2) د. محمد عبد الله دراز: عالم واسع الأفق يمتاز بوقار العلماء وجراة الأبطال، درس الفلسفة والأخلاق وعلم الاجتماع في فرنسا بين سنتي 1948/1937 ثم عاد إلى مصر فدرس علم مقارنة الأديان في جامعة القاهرة، كما درس الأخلاق في جامعة الأزهر. وفي أثناء تدريسه ألف كتابه العظيم (النبا العظيم - نظرات جديدة في القرآن) و (نظريات الإسلام) و (الصوم تربية وجهاد) و كتابه القيم (الدين). وتوفي بالباكستان سنة 1958م أبان حضوره الندوة العالمية للأديان. و كتابه (مدخل إلى القرآن الكريم) هو موضوع الرسالة الفرعية من رسالتي الدكتوراه اللتين تقدم بهما إلى جامعة السربون ونال بها درجة الدكتوراه مع مرتبة الشرف الأولى عام 1947. وقد ترجم هذا الكتاب إلى اللغة العربية الأستاذ محمد عبد العظيم علي، وراجع د. السيد محمد بدوي.

إن القرآن في دعوته إلى الإيمان والفضيلة لا يسوق الدروس من التعاليم الدينية والأحداث الجارية وحدها، وإنما يستخدم في هذا الشأن الحقائق الكونية الدائمة، ويدعو عقولنا إلى تأمل قوانينها الثابتة لا بغرض دراستها وفهمها في ذاتها فحسب وإنما لأنها تذكر بالخالق الحكيم القدير.

ونلاحظ أن هذه الحقائق التي يقدمها تتفق تماماً مع آخر ما توصل إليه العلم الحديث:

1 - مثل المنبع الخفي الذي يخرج منه العنصر الجنسي للإنسان ﴿خلق من ماء دافق يخرج من بين الصلب والترائب﴾⁽¹⁾.

2 - المراحل التي يمر بها الإنسان وهو في بطن أمه ﴿فإننا خلقناكم من تراب ثم من نطفة ثم من علقه ثم من مضغة مخلقة وغير مخلقة﴾⁽²⁾.

3 - عدد التجويفات المظلمة التي يتم الخلق بداخلها ﴿يخلقكم في بطون أمهاتكم خلقاً من بعد خلق في ظلمات ثلاث﴾⁽³⁾.

4 - المنشأ المائي لجميع المخلوقات الحية ﴿وجعلنا من الماء كل شيء حي﴾⁽⁴⁾.

5 - تكوين المطر ﴿الله الذي يرسل الرياح فتثير سحاباً فيسقطه في السماء كيف يشاء ويجعله كسفاً فترى الودق يخرج من خلاله﴾⁽⁵⁾.

6 - دائرية السماء والأرض ﴿يكور الليل على النهار ويكور النهار على الليل﴾⁽⁶⁾.

(1) سورة الطارق، الآيتان 6، 7.

(2) سورة الحج، الآية 5.

(3) سورة الزمر، الآية 6.

(4) سورة الأنبياء، الآية 30.

(5) سورة الروم، الآية 48.

(6) سورة الزمر، الآية 5.

7 - كروية الأرض غير المكتملة عند الأقطاب ﴿أفلا يرون أنا نأتي الأرض ننقصها من أطرافها﴾⁽¹⁾.

8 - مسير الشمس إلى نقطة معلومة ﴿والشمس تجري لمستقر لها﴾⁽²⁾.

9 - تعايش الحيوانات في جماعات تشبه المجتمعات الإنسانية ﴿وما من دابة في الأرض ولا طائر يطير بجناحيه إلا أمم أمثالكم﴾⁽³⁾.

10 - وصف حياة النحل بصفة خاصة ﴿وأوحى ربك إلى النحل أن اتخذ من الجبال بيوتاً ومن الشجر وما يعرشون ثم كلي من كل الثمرات فاسلكي سبل ربك ذللاً﴾⁽⁴⁾.

11 - ثنائية النبات والمخلوقات الأخرى ﴿سبحان الذي خلق الأزواج كلها مما تنبت الأرض ومن أنفسهم وما لا يعلمون﴾⁽⁵⁾، وهي حقيقة علمية كان يجهلها عصر الرسول ﷺ.

12 - التلقيح بواسطة الرياح ﴿وأرسلنا الرياح لواقح﴾⁽⁶⁾.

وبعد استشهاده بهذه الآيات على موافقة الحقائق القرآنية للحقائق العلمية التي توصل إليها العلم في العصر الحديث قال:

إنه عند اختياره للآيات التي استشهد بها فيما تقدم حرص على تلافي ما يعاب به على الطريقة التوضيحية المعروفة (بالتأويل) والتي تلخص في تفسير آيات القرآن بحيث تتفق نتائج التفسير مع النتائج العلمية المقررة.

ثم نجده يعيب على بعض المفسرين المحدثين الذين فعلوا ذلك فيقول:

(1) سورة الأنبياء، الآية 44. وهذا المعنى غير مسلم فهمه من هذه الآية. انظر فصل صور من التفسير العلمي المردود في هذا البحث.

(2) سورة يس، الآية 38.

(3) سورة الأنعام، الآية 38.

(4) سورة النحل، الأيتان 68، 69.

(5) سورة يس، الآية 36.

(6) سورة الحجر، الآية 22.

«ولكن الحماس دفع بعض المفسرين المحدثين إلى المبالغة في استخدام هذه الطريقة التوفيقية لصالح القرآن بحيث أصبحت خطراً على الإيمان ذاته، لأنها إما أن تقلل من الاعتماد على معنى النص باستنتاجه ما لا تحتمله ألفاظه وجمله، وإما أن نعول أكثر مما يجب على آراء العلماء، وحتى على افتراضاتهم المتناقضة أو التي يصعب التحقق من صحتها. وبعد أن نستبعد هذه المبالغات عن البحث نرى أن من مقتضيات الإيمان التي لا غنى عنها أن نضاهي الحقائق الفورية التي نجدها في القرآن مع نتائج العلماء المنهجية البطيئة.

والقرآن ذاته يدعونا إلى البحث والكشف عن مصدره الرباني، وذلك بتدبره وبتأمل آيات الخالق التي أودعها في الكون وفي أنفسنا لنصل إلى الدليل القاطع على صدقها المطلق ﴿أفلا يتدبرون القرآن ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافاً كثيراً﴾⁽¹⁾، ﴿سنريهم آياتنا في الآفاق وفي أنفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق أولم يكف بربك أنه على كل شيء شهيد﴾⁽²⁾.

ثم يشيد بمنهجه في استشهاده بالآيات المتقدمة على ما ذكر فيقول: ولكن الأمثلة السابقة هذه لا تتطلب تفسيراً أو تأويلاً، وإنما تتضمن تطابقاً عجيباً بين التوضيح القرآني ذاته وبين التوضيح العلمي الذي ثبت بعد بحوث طويلة خلال العصور والأجيال التي انتهت إلى النتائج المقطوع بصحتها بفضل إسهام رجال متخصصين كل في فرعه المحدود.

ثم يضيف قوله متسائلاً:

هل في هذا مجرد صدفة؟ هل يمكن في عصر الجاهلية أن يتعرض رجل مجرد من أية معدات فنية ومعتمد على علمه الطبيعي الخاص وعلى مشاهداته المحدودة

(1) سورة النساء، الآية 82.

والآية تشبه القياس المركب من مقدمتين إحداهما منطوق بها والأخرى مضمرة واضحة الدلالة ولذلك حذفت، والتقدير: القرآن ليس من عند غير الله، وكل ما ليس من عند غير الله هو من عند الله، بيان حقيقة الصغرى بما ذكر في الآية، وبيان صحة الكبرى بالانحصار القسمة، إذ ليس هناك قسم ثالث. وقال: لوجدوا ولم يقل لأدركوا للإشارة إلى إدراكه من غير تأمل ولا تفكر.

(2) سورة فصلت، الآية 52.

- بالإضافة إلى ما اشتمل عليه كتابه من حلول في الأخلاق والدين والفلسفة
- لعلوم التشريح والأرصاد الجوية والكونية والنفسية للحيوان والإنسان وفروع
أخرى كثيرة تتطلب إمكانيات فنية دقيقة وتجارب جماعية متكاملة، وأن يعطينا في
كل موضوع حقائق عالمية خالدة من غير أن يترك في أي مجال أثراً ولو طفيفاً ينم عن
عصره أو بيئته أو حتى خياله الشخصي^{(1)؟!}

وحيد الدين خان والتفسير العلمي (*)

وحيد الدين خان ألف كتاباً بعنوان (الإسلام يتحدى) وفيه يعقد باباً
يتحدث فيه عن القرآن وعن أوجه الإعجاز فيه.

وتحت عنوان (القرآن والكشوف الحديثة) يتحدث عن صدق القرآن وحقيقته
ويقول:

«إنه على الرغم من نزول القرآن قبل قرون كثيرة من عصر العلوم الحديثة لم
يتمكن أحد من إثبات أية أخطاء علمية فيه، ولو أنه كان كلاماً بشرياً لكان هذا
ضرباً من المستحيل».

ثم يوضح ذلك فيقول: «نزل القرآن في عصر لم يكن الإنسان يعرف فيه
عن الطبيعة إلا القليل النادر، وكانوا يرون أن الأمطار تنزل من السماء، وأن
الأرض مستوية كالفراش، وأن السماء مسقف الأرض، وكانوا يرون أن النجوم
مسامير لامعة من الفضة مركبة في قبة السماء أو أنها قناديل معلقة في الفضاء، وكان
أهل الهند الأقدمون يؤمنون بأن الأرض محمولة على أحد قرني البقرة (الأم) وهي
حين تقوم بنقل الأرض من قرن إلى آخر يحدث زلزال على البسيطة، وكان العلماء

(1) مدخل إلى القرآن الكريم، ط 1، 1971م، ص 176، 177.

(*) وحيد الدين خان: كاتب هندي، وهو أحد ثلاثة يتولون قضية الإسلام في العصر الحديث في وجه
الزحف الفكري المعادي للإسلام، أبو الأعلى المودودي وأبو الحسن الندوي وحيد الدين خان،
وكتابه الذي بين أيدينا ألفه باللغة الأردية، وقام بتعريفه نجله (ظفر الإسلام خان)، كما قام بتحقيق
نصه ومراجعته وكتابة مقدمة له د. عبد الصبور شاهين.

يرون أن الشمس ساكنة بلا حراك، وأن الأرض تدور حولها إلى أن جاء كوبرنيك (1543/1473) وعرض فكرته الشهيرة عن حركة الشمس.

وهكذا تقدم العلم رويداً رويداً إلى أن زادت قوة المشاهدة والدراسة لدى الإنسان فكشف عن أشياء كثيرة، والآن لا نجد جزءاً مآ من معلوماتنا عن أجزاء الجسم وشعب العلم المختلفة إلا وقد تغيرت نظرتنا إليه كلية، وثبت بطلان عقائد العصر القديم، وبدل هذا بكل صراحة على أنه لا وجود لكلام إنساني تدوم صحته، لأن الإنسان يتكلم عما هو معروف من المعتقدات والعلوم في عصره. إنه يسرد ما وجدته في زمنه سواء وقع كلامه في دائرة الشعور أو اللاشعور، ولذلك لا نجد كتاباً مضى عليه حين من الدهر إلا وهو مملوء بالأغلاط والأخطاء من سائر نواحيه، نظراً إلى الكشوف الجديدة في كل الميادين.

ولكن مسألة القرآن الكريم تختلف تمام الاختلاف عن هذه الكلية فهو حق وصادق في كل ما قال، كما كان في القرون الغابرة، ولم يطرأ على مقاله أي تغير رغم مضي قرون وعصور طويلة. وهذا في نفسه دليل على أن منبعه - عقل -⁽¹⁾ جبار يحيط بالأزل وبالأبد علماً، وهو يعلم سائر الحقائق في صورها النهائية والحقيقية ولا يخضع علمه ومعرفته لحواجز الزمان والمكان والأحوال. ولو كان هذا الكلام صادراً عن بشر محدود النظر والعلم لكان الزمان قد أبطله منذ عصور عديدة، كما يحدث لكل كلام إنساني في مستقبله⁽²⁾.

ثم أورد بعض الأمثلة التي تدل صراحة - كما قال - على أن القرآن الكريم يحيط بالحقائق التي لم تعرف إلا في عصرنا هذا، وإن كانت إحاطته هذه ضمن إشارات غير مقصودة لذاتها.

(1) تعبيره عن الله بأنه عقل جبار غير سديد، فإنه لم يرد في النقل أن العقل من أسمائه تعالى أو أنه يصح إطلاقه عليه تعالى، مع أنه من المعلوم أنه يجب أن نلتزم في جانب الله ما ورد لأن أسمائه تعالى وصفاته توقيفية على الصحيح، كما أنه - في الوقت نفسه - لا يصح عقلاً إطلاق هذا اللفظ على الله تعالى لأن العقل معنى والله تعالى ذات مخالفة لكل الذوات وفوق كل تصور، فالكلمة التي تدل على (المعنى) لا يصح إطلاقها على الذات، فإن العقل ليس هو العاقل.

(2) الإسلام يتحدى، ط 1، 1970 م، ص 205 وما بعدها.

وقبل أن يورد هذه الأمثلة مهد لذلك بالجواب عما عساه يعترض به المانعون للتفسير العلمي بأن النظريات العلمية قد تبطل كلياً أو جزئياً فيقول:

«إن مطابقة كلمات القرآن وألفاظه للكشوف الحديثة مبنية على أن العلم الحديث قد استطاع الكشف عن أسرار الواقعة موضوع البحث، فتوفرت لدينا مواد نافعة لتفسير الإشارات القرآنية في ذلك الموضوع، ولو أن دراسة المستقبل في موضوع ما تبطل واقعة من وقائع العلم الحديث كلياً أو جزئياً فليس هذا بضائر مطلقاً صدق القرآن، بل معناه أن المفسر أخطأ في محاولته لتفسير إشارات قرآنية مجملة.

ثم يضيف قوله:

«وإني لعلّى يقين راسخ بأن الكشوف المقبلة سوف تكون أكثر إيضاحاً للإشارات القرآن، وأكثر بياناً لمعانيه الكامنة».

ثم نجلده يقسم الآيات القرآنية المتعلقة بهذا الجانب إلى نوعين:

الأول: ما عرف عنه الإنسان حتى ذلك العصر أموراً جانبية وسطحية - كما قال.

الثاني: ما لم يعرف عنه الإنسان شيئاً مطلقاً، ويقول:

إنه على الرغم من أن القرآن ليس كتاباً في العلوم والهندسة، لأن ذلك يتنافى الهدف الحقيقي من نزوله - وهو إصلاح العقل الإنساني وتركيبته - إلا أنه من إعجاز القرآن أنه تكلم في لغة العلم قبل كشفه، كما أنه استعمل كلمات وتعبيرات لم تستوحشها أذواق الأقدمين ولا معارفهم، على حين أحاطت بكشوف العلم الحديث.

ثم يقوم باستعراض لبعض الآيات القرآنية شارحاً إيها في ضوء ما أثبتته العلم الحديث فيقول:

«إن القرآن الكريم ذكر قانوناً خاصاً (بالماء) في سورتين: هما الفرقان

والرحمن في قوله تعالى: ﴿وَهُوَ الَّذِي مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ هَذَا عَذْبٌ فَرَاتٌ وَهَذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ وَجَعَلَ بَيْنَهُمَا بَرْزَخاً وَحِجْراً مُّحْجُوراً﴾⁽¹⁾ وفي قوله تعالى: ﴿مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ يَلْتَقِيَانِ بَيْنَهُمَا بَرْزَخٌ لَا يَبِغْيَانِ﴾⁽²⁾.

إن الظاهرة الطبيعية التي يذكرها القرآن في هذه الآيات معروفة عند الإنسان منذ أقدم العصور وهي أنه إذا ما التقى نهران في ممر مائي واحد فهما أحدهما لا يدخل - لا يذوب - في الآخر، وهناك على سبيل المثال نهران في (تشانغام) بباكستان الشرقية إلى مدينة (أركان) في بورما، ويمكن مشاهدة النهرين مستقلاً أحدهما عن الآخر، ويبدو أن خيطاً يمر بينهما حداً فاصلاً، والماء عذب في جانب وملح في جانب آخر. وهذا هو شأن الأنهار القريبة من السواحل، فهما البحر يدخل ماء النهر عند حدوث (المد البحري) ولكنهما لا يختلطان. ويبقى الماء عذباً تحت الماء الأجاج، وهكذا شاهدت عند ملتقى نهرى (الكنج والجامونا) في مدينة (الله آباد) فهما على رغم التقائهما لم تختلط مياههما، ويبدو أن خيطاً فاصلاً يميز أحدهما عن الآخر.

إن هذه الظاهرة كانت معروفة لدى الإنسان القديم، ولكن قانونها لم يكشف إلا منذ عشرات من السنين، فقد أكدت المشاهدات والتجارب أن هناك قانوناً ضابطاً للأشياء السائلة يسمى (قانون المد السطحي) وهو يفصل بين السائلين، لأن (تجاذب) الجزيئات يختلف من سائل لآخر، ولذا يحتفظ كل سائل باستقلاله في مجاله.

وقد استفاد العلم الحديث كثيراً من هذا القانون الذي عبر عنه القرآن الكريم بقوله سبحانه: ﴿بَيْنَهُمَا بَرْزَخٌ لَا يَبِغْيَانِ﴾ وملاحظة هذا البرزخ لم تخف عن أعين القدماء، كما لم تتعارض مع المشاهدات الحديثة.

ونستطيع بكل ثقة أن نقول: إن المراد من (البرزخ) إنما هو (المط أو التمدد السطحي) الذي يوجد في المائين، والذي يفصل أحدهما عن الآخر.

(1) سورة الفرقان، الآية 53.

(2) سورة الرحمن، الآيتان 17، 18.

وجاءت في القرآن بيانات مماثلة، وعلى سبيل المثال ﴿الله الذي رفع السموات بغير عمد ترؤها﴾⁽¹⁾، هذه الآية مطابقة لما كان يراه الرجل القديم، فإنه كان يشاهد عالماً كبيراً قائماً بذاته في الفضاء ومكوناً من الشمس والقمر والنجوم، ولكنه لم ير لها أية ساريات أو أعمدة. والرجل الجديد يجد في هذه الآية تفسيراً لمشاهداته التي تثبت أن الأجرام السماوية قائمة دون عمد في الفضاء اللانهائي. بيد أن هناك (عمداً غير مرئية) تتمثل في قانون (الجاذبية) وهي التي تساعد كل هذه الأجرام على البقاء في أمكنتها المحدودة. وقد قال القرآن عن الشمس والنجوم: ﴿كل في فلك يسبحون﴾⁽²⁾، وكان الإنسان في العصر الغابر يشاهد أن النجوم تتحرك وتبتعد عن أمكنتها بعد وقت معين، ولذلك لم يكن هذا التعبير القرآني موضع دهشتهم واستغرابهم، ولكن البحوث الحديثة قد خلعت على هذه التعبيرات ثوباً جديداً، فليس هناك تعبير أروع ولا أدق من السباحة لدوران الأجرام السماوية في الفضاء البسيط اللطيف.

وقال القرآن عن الليل والنهار: ﴿يغشي الليل النهار يطلبه حثيثاً﴾⁽³⁾. إن هذه الآية الكريمة تشرح للإنسان القديم سر مجيء الليل بعد النهار، ولكنها تحوي إشارة رائعة إلى دوران الأرض محورياً وهو الدوران الذي يعتبر سبب مجيء الليل والنهار، طبقاً لمعلوماتنا الحديثة.

وسوف أذكر القراء - هنا - بأن من بين المشاهدات التي أدلى بها رجل الفضاء الرومي (جاجارين)⁽⁴⁾ بعد دورانه في الفضاء حول الأرض أنه شاهد (تعاقياً سريعاً) للظلام والنور على سطح الأرض بسبب دورانها المحوري حول الشمس.

ثم يقول:

وهناك بيانات كثيرة جداً من هذا القبيل في القرآن الكريم. ثم يمضي قائلاً:

(1) سورة الرعد، الآية 2.

(2) سورة الأنبياء، الآية 33، وسورة يس، الآية 40.

(3) سورة الأعراف، الآية 54.

(4) مركبة الفضاء فوستك 1 في 12 إبريل سنة 1961 م.

«إن القرآن الكريم تناول موضوعات لم يعرف عنها الرجل القديم شيئاً مما على الإطلاق، كاشفاً الغطاء عن أسرار بالغة الأهمية ثبت صدقها بعد الدراسات الحديثة»⁽¹⁾.

ثم يعرض بعض الأمثلة من مختلف فروع العلوم الحديثة :

وعلى سبيل المثال مما ذكره يقول : جاء في القرآن الكريم غير مرة أن الجبال أرسيت في الأرض حفاظاً على توازنها، ومن ذلك قوله تعالى : ﴿وَأَلْقَى فِي الْأَرْضِ رَوَاسِي أَنْ تَمِيدَ بِكُمْ﴾⁽²⁾. ولقد ظل العلم الحديث جاهلاً بهذه الحقيقة طوال القرون الثلاثة عشر الماضية، ولكن دارسي الجغرافيا الحديثة يعرفونها جيداً تحت اسم (قانون التوازن)، ولا يزال العلم الحديث في مراحل البدايات بالنسبة إلى أسرار هذا القانون.

وقد جاء في القرآن الكريم أنه قد مضى على الأرض زمن طويل سواها الله خلالة، قال تعالى : ﴿وَالْأَرْضُ بَعْدَ ذَلِكَ دَحَاها أَخْرَجَ مِنْهَا مَاءها ومرعاها﴾⁽³⁾، وهذه الآية تطابق مطابقة عجيبة أحدث الكشوف العلمية وهو (نظرية تباعد القارات) أو انتشارها، ومغزى هذه النظرية أن جميع القارات كانت في وقت من الأوقات أجزاء متصلة ثم انشقت وبدأت تنقذف أو تنتشر من تلقاء نفسها، وهكذا وجدت قارات تحول دونها بحار واسعة.

لقد ورد في الآية المذكورة آنفاً لفظة (الدحو) ومعناه : تسوية الشيء ونشره كما يقال : دحا المطر الحصى عن وجه الأرض.

ثم يقول :

لسنا نملك أمام هذا التوافق المدهش بين ما ورد في الماضي البعيد وما اكتشف بالأمس القريب إلا أن نؤمن بأن هذا الكلام صادر عن موجود يحيط علمه بالماضي والحال والمستقبل على السواء.

(1) الإسلام يتحدى، ص 212 وما بعدها.

(2) سورة النحل، الآية 15، وسورة لقمان، الآية 9.

(3) سورة النازعات، الأيتان 30، 31.

وإن الباحث في القرآن الكريم يجد أمثلة لا حصر لها من هذا القبيل الذي أشرنا إلى بعضه، وهو دليل قطعي على أن القرآن صادر عن عقل غير إنساني. وتؤكد البحوث التي اضطلع بها العلماء في العصر الحاضر بطريقة مذهشة صدق تكلم النبوة التي وردت في القرآن الكريم ﴿سزيرهم آياتنا في الأفاق وفي أنفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق﴾⁽¹⁾.

مصطفى صادق الرافعي^(*) والتفسير العلمي

عندما نقرأ كتاب (إعجاز القرآن والبلاغة النبوية) لمؤلفه الأستاذ مصطفى صادق الرافعي نجده يعقد مبحثاً خاصاً لموضوع (القرآن والعلوم) وفيه يقرر أن للقرآن وجهاً اجتماعياً من حيث تأثيره في العقل الإنساني. وهو معجزة التاريخ العربي خاصة، ثم هو بآثاره النامية معجزة أصلية في تاريخ العلم كله على بسط هذه الأرض من لدن ظهر الإسلام إلى ما شاء الله لا يذهب بحقها اليوم أنها لم تكن من قبل إلا سبياً فإن في الحق ما يسع الأشياء وأسبابها جميعاً.

وليس يرتاب عاقل ممن يتدبرون تاريخ العلم الحديث ويستقصون في أسباب نشأته ويتبثون عند الخاطر من ذلك إذا أقدموا عليه، وعند الرأي إذا قطعوا به أنه لو لم يكن القرآن الكريم لكان العالم اليوم غير ما هو في كل ما يستطيل به، وفي تقدمه وانسباط ظل العقل فيه وقيامه على أرجائه، وفي نموه واستبحار عمرانه، فإنه كان أصل النهضة الإسلامية، وهذه كانت - على التحقيق - هي الوسيلة في استبقاء علوم الأولين وتهذيبها وتصفيها، وإطلاق العقل فيما شاء أن

(1) سورة فصلت، الآية 52، الإسلام يتحدى ص 224، 225.

(*) مصطفى صادق الرافعي أديب وكاتب مصري معاصر، يتمتع بأسلوب بياني رائع، غني في أول حياته بالشعر وطمع في أن يكون أمير الشعراء، وهو من شعراء المعاني الذين اهتموا بها كل الإهتمام يؤدونها بأي لفظ تهباً لهم. وكانت له نظرات نقدية جديدة في وقت مبكر من حياته الأدبية ودعا إلى الإهتمام بجوهر الشعر وروحه لا إلى قشوره ومظاهره، وأن تكون نظرات الشعراء شاملة لا جزئية، وذم التكلف الذي يفرض فيه الفكر على الإرادة والإرادة على العاطفة. له كثير من الكتب القيمة مثلها: وحي القلم وتاريخ آداب العرب وإعجاز القرآن والسنة النبوية (انظر كتاب في الأدب الحديث، عمر الدسوقي، ط 1966م، 2: 282). توفي بمسقط رأسه بمدينة طنطا 1938م.

يرتفع منها، وأخذ على ذلك بالبحث والنظر والاستدلال والاستنباط وتوفير مادة الروية عليه بما كان سبباً في طلب العلم للعمل ومزاولة هذا لذلك إلى صفات أخرى، ليس هذا موضع بسطها⁽¹⁾.

ثم نراه يذكر بعض ما نقله السيوطي في الإتقان والإكليل عن أبي الفضل المرسي في اشتغال القرآن على سائر العلوم، ويعلق على استخراج علم المواقيت من القرآن فيقول:

قال بعض المتأخرين: إن الميقات مشار إليه في القرآن بقوله تعالى: ﴿رفيع الدرجات﴾⁽²⁾ قال: فإن عدد (رفيع) بحساب الجمل ثلاثمائة وستون وهي عدد درج الليل والنهار. ثم يقول الرافعي: «وإذا أطلق حساب الجمل في كلمات القرآن كشف منه كل عجائب العصور وتوارى عنها وأسرارها، ولولا أن هذا الخارج عن غرض الكتاب (يقصد كتابه إعجاز القرآن) لجثنا منه بأشياء كثيرة من القديم والحديث»⁽³⁾.

ويذكر الرافعي أن بعض العلماء استخرج من القرآن ما يشير إلى مستحدثات الاختراع وما يحقق بعض غوامض العلوم الطبيعية، وبسطوا كل ذلك بسطاً ليس من غرضه فيستقصى فيه، على أن هذا ومثله إنما يكون فيه إشارة ولمحة. ثم يقول:

«ولعل متحققاً بهذه العلوم الحديثة لو تدبر القرآن وأحكم النظر فيه، وكان بحيث لا تعوزه أداة الفهم ولا يلتوي عليه أمر من أمره لاستخرج منه إشارات كثيرة توميء إلى حقائق العلوم وإن لم تبسط من أنبائها، وتدل عليها، وإن لم تسمها بأسماؤها، بلى وإن في هذه العلوم الحديثة على اختلافها لعوناً على تفسير بعض القرآن والكشف عن حقائقه، وإن فيها لجمالاً⁽⁴⁾ ودربة لمن يتعاطى ذلك يحكم بها

(1) إعجاز القرآن والبلاغة النبوية، ط 4 1940 م، ص 108، 109.

(2) سورة غافر، الآية 14.

(3) المصدر السابق ص 113، 114.

(4) يقال: الفرس في جملة - يفتح الجيم والميم - راحته حيث يكون مجتمعاً غير مضطرب، والكلمة تدل على الكثرة والاجتماع، والجموم: البر كثر الماء، وأجعت الفرس: رجعت إليه قوته واجتمعت.

من الصواب ناحية ومحرز من الرأي جانباً، وهي تفتق له الذهن وتواتيه بالمعرفة الصحيحة على ما يأخذ فيه، وتخرج له البرهان وإن كان في طبقات الأرض وتنزل عليه الحجة وإن كانت في طباق السماء، ولا جرم أن هذه العلوم ستدفع بعد تمحيصها واتصال آثارها الصحيحة بالنفوس الإنسانية إلى غاية واحدة وهي تحقيق⁽¹⁾ الإسلام وأنه الحق الذي لا مرية فيه.

ثم يقرر الرافعي أن القرآن الكريم أشار إلى نشأة هذه العلوم وإلى تمحيصها وغايتها وأن من أدلة إعجاز القرآن أن يخطيء الناس في بعض تفسيره على اختلاف العصور لضعف وسائلهم العلمية حيث يقول:

«وقد أشار القرآن الكريم إلى نشأة هذه العلوم وإلى تمحيصها وغايتها على ما وصفناه سابقاً، وذلك قوله تعالى: ﴿سنريهم آياتنا في الأفاق وفي أنفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق﴾⁽²⁾. ولو جمعت أنواع العلوم الإنسانية كلها ما خرجت في معانيها من قوله تعالى: ﴿في الأفاق وفي أنفسهم﴾ هذه آفاق، وهذه آفاق أخرى، فإن لم يكن هذا التعبير من الإعجاز الظاهر بداهة فليس يصح في الأفهام شيء. ذلك وإن من أدلة إعجاز القرآن الكريم أن يخطيء الناس في بعض تفسيره على اختلاف العصور لضعف وسائلهم العلمية ولقصر حباهم أن تعلق بأطراف السموات أو تحيط بالأرض ثم تصيب الطبيعة نفسها في كشف معانيه، فكلما تقدم النظر وجمت العلوم ونازعت في الكشف والاختراع واستكملت آلات البحث، ظهرت حقائقه الطبيعية ناصعة حتى كأنه غاية لا يزال عقل الإنسان يتطلع إليها، وحتى كأن الآلات حينها توجه لآيات السماء والأرض توجه لآيات القرآن أيضاً»⁽³⁾.

كما نجد الرافعي يثني على الغازي أحمد مختار باشا العالم الرياضي والفلكي المشهور⁽⁴⁾ لأنه ألّف كتاباً أسماه «سرائر القرآن» بناء على سبعين آية من كتاب الله

(1) أي إثبات أنه حق من عند الله.

(2) سورة فصلت، الآية 52.

(3) إعجاز القرآن والبلاغة النبوية ص 124 وما بعدها.

(4) كان الغازي أحمد مختار باشا من أعظم علماء الرياضة، وقد ألّف كتاباً في الفلك اسمه (رياض =

تعالى فسرها بأخر ما وصل إليه العلم الحديث في الطبيعة والفلك، فإذا هي في القرآن منطق السماء عن نفسها لا يتكذب ولا يزيغ ولا يلتوي، وإذا هي تثبت أن هذا الكتاب الكريم أيضاً سبق العقل الإنساني ومخترعاته بأربعة عشر قرناً إلى زمننا، وما ذلك إلا فصل من الدهر وستعقبه فصول بعد فصول.

ثم يقول الرافعي :

إن في ذكر الآيات الكونية والعلمية في القرآن دليلاً على إعجاز آخر فهو بذلك يومئ إلى أن الزمن متجه في سيره إلى الجهة العلمية القائمة على البحث والدليل. وإن الإنسانية ذاهبة في أرقى عصورها إلى هذا المذهب، فإن أسفر الصبح وبقي بعض الناس نياماً لا يرونه وقد ملأ الدنيا فذلك من عمى النوم في أعينهم، وآخرون لا يرونه من نوم العمى في أعينهم، والصبح فوق هؤلاء وهؤلاء - اهـ -⁽¹⁾.

كما نجد الرافعي ينقل عن داود الأنطاكي المتوفى سنة 1008 هـ تفسيراً لقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ سَلَالَةٍ مِنْ طِينٍ ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نَظْفًا فِي قَرَارٍ مَكِينٍ. ثُمَّ خَلَقْنَا النَّظْفَةَ عِلْقَةً فَخَلَقْنَا الْمَضْغَةَ فَخَلَقْنَا الْمُضْغَةَ عِظَامًا فَكَسَوْنَا الْعِظَامَ لَحْمًا ثُمَّ أَنشَأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ﴾⁽²⁾، ويصفه بأنه الحكيم والعلامة. وقبل أن ينقل تفسيره قدم له بقوله:

«ولا تنس أن الآية أنزلت على نبي أُمِّي في قوم لا يعرفون كثيراً ولا قليلاً من علم التشريح أو علم التكوين، ثم إنها كذلك ليس في صناعتها البيانية شيء مما

= المختار) وقضى السنين الطويلة وهو يراقب سير العلم ويتتبع خطوات تقدمه، وما فاتته شيء من النظريات الرياضية قديمها وحديثها إلا وقف عليه، وقد ختم حياته الحافلة بالعلم والعمل بتأليف كتاب سماه (سرائر القرآن في تكوين وإفناء وإعادة الأكوان) وهو مؤلف من مقدمة وثلاثة فصول وخاتمة: الفصل الأول منه في كيفية تكوين العالم ووجود الحياة، والفصل الثاني في يوم القيامة أو خاتمة عمر الدنيا، والثالث في الأبحاث والآيات القرآنية المتعلقة بإعادة الخلق (إعجاز القرآن ص 13، 131). وكان الأصل منه مكتوباً باللغة التركية، وقد نفذت نسخته جميعاً، وكنت أود الرجوع إليه والاطلاع عليه إلا أن ذلك لم يكن في الإمكان.

(1) إعجاز القرآن، ص 125، 126.

(2) سورة المؤمنون، الآية 12-14.

تتحسن به البلاغة فيبين بنفسه ويجعل الكلام شأنًا في تمييزه واستخراج معانيه كالاستعارة والكناية ونحوهما، ولكنها قائمة على دقائق التركيب العلمي والملاءمة كل الملاءمة بينها وبين دقائق التعبير، فيها إعجاز في المعنى ثم إعجاز في الصورة مع أنها في غرضها وسياقها مظنة أن لا يكون فيها من ذلك شيء، إذ هي عبارة علمية تسرد سرداً على التقرير والحكاية. وهذا عما يسمو بإعجازها سموً على حدة فإنه يصنع فوق البلاغة ما تكون البلاغة في العادة والطبيعة فوقه. وكل ما هذه سبيله من الآيات العلمية في القرآن الكريم فأنت لا بد واجد فيه من قوة المعاني أكثر مما في العقل العربي من قوة الفهم وقوة التعبير لتكون قوة الدلالة فيه يوم تنهيا وسائلها العلمية دليلاً من أقوى أدلة الإعجاز.

وبعد ذلك نقل التفسير لهذه الآية. والذي يهمننا هو تعليقه على بعض ألفاظ الآية الكريمة، فعند قوله تعالى ﴿من سلالة﴾ علق بقوله: السلالة: الخلاصة قالوا لأنها تسلسل من الكدر... وعبارة ﴿من سلالة من طين﴾ تحتمل معاني كثيرة، بل أنت لا تحجد معنى علمياً في خلق الإنسان الأول إلا انطبقت عليه، فجاءت العبارة في الآية الكريمة تتسع لمذهب القائلين بالنشوء ولمذهب القائلين بالخلق ولمذهب انتقال الحياة إلى هذه الأرض من سلالة من عالم آخر وهكذا.

وفي وصف القرار بأنه ﴿مكين﴾ إعجاز يفهمه الأطباء والذين درسوا التشريح، فقد ثبت أن الرحم مجهز في تكوينه وفي خصائصه بما يمكن أشد التمكين للجرثومة التي يكون منها اللقاح، ففيها غطاء لها عجيبة خلقت لذلك خلقاً، ثم مواد منفرة لوقايتها وحفظ الحياة عليها والدفاع عنها أن تقتلها المواد الحامضة، وذلك كلمة تجده في تشريح كلمة ﴿مكين﴾.

﴿النفطة علقه﴾ لم يكن العرب يعرفون من كلمة (العلقة والعلق) إلا أنها الدم الجامد، ولكن الكلمة في الآية إعجاز كإعجاز ﴿مكين﴾ التي تقدم شرحها، فقد ثبت في آخر ما انتهى إليه علم تكوين الجنين أن الجرثومة التي يكون منها اللقاح في ماء الرجل تعلق رأسها نازعة كاللسان فتهاجم البيضة في الرحم وتبعجها بسلحتها فتخرقها وتعلق بها فإذا هما قد امتزجا، فهذا هو السر في تسمية التحول

الأول للنظفة ﴿علقة﴾. وتأمل قوله ﴿فجعلنا﴾ فإن فيها كل هذه الحركة أن الجرثومة والبويضة. ثم يقول:

«ولقد قرأت هذه الآية الكريمة على طيب مسيحي محقق فاضل من أصدقائنا ونبهناه إلى هذه الدقائق فيها فقال: آمنت بما أنزل على محمد»⁽¹⁾.

وبعد أن ساق تفسير داود الأنطاكي قال الرافعي:

وأنت لو عرضت ألفاظ هذه الآية على ما انتهى إليه علماء تكوين الأجنة وعلماء التشريح وعلماء الوراثة النفسية لرأيت فيها دقائق علومهم كأن هذه الألفاظ إنما خرجت من هذه العلوم نفسها، وكان كل علم وضع في الآية كلمته الصادقة، فلا تملك بعد هذا أن تجد ختام الآية ما ختمت هي به من هذا التسيب العظيم ﴿فتبارك الله﴾⁽²⁾.

د. محمد أحمد الغمراوي(*)

الدكتور محمد أحمد الغمراوي يرى أن في القرآن إعجازاً علمياً لا يجرؤ المكابر أو الملحد أن يجد موضعاً للتشكيك فيه، فأيات القرآن التي تتضمن الإعجاز العلمي - وهي لا تقل عن ثمانمائة آية كونية - تعد دليلاً محسوساً على أن القرآن من عند الله وهو الحق الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، وأن إعجازه ليس مقصوراً على العرب وفصائحهم بل يتعدى ذلك إلى البشرية جمعاء في كل

(1) إعجاز القرآن، ص 132-134 (هامش).

(2) المصدر السابق ص 137.

(*) الغمراوي من الرعيل الأول الذين أسهموا في بناء الثقافة الإسلامية، فهو أحد خمسة أرسوا لجنة التأليف والترجمة والنشر المشهورة في مصر، ومن المؤسسين لجمعية الشبان المسلمين، ومن الذين عنوا بدراسة سنن الله في الكون. وقد اشترك في ترجمة بعض المعارف الغربية من العلوم الكونية والفلسفة والتربوية. وهو أستاذ متخصص، وكان يشغل أستاذ الكيمياء بكلية الصيدلة بجامعة القاهرة، وكانت له اتصالات وثيقة بالبحوث القرآنية، الأمر الذي جعل إدارة الأزهر توكل إليه التدريس في كلية أصول الدين، كما حفلت المجلات الإسلامية بمقالاته المختلفة في البحوث القرآنية المتعلقة بالآيات الكونية.

بقاع الأرض، فهي مخاطبة به ومطالبة بالتسليم له دون نظر إلى جنس أو لغة أو لون.

وينبه الدكتور الغمراوي إلى القاعدة التي ينبغي أن تتبع في فهم الآيات العلمية وتفسيرها، إذ يجب أمران:

أولهما: التمسك بالحقيقة في التفسير وعدم العدول عنها إلى المجاز إلا إذا كان ثمة دليل على أن سياق الكلام يمنع من حقيقة اللفظ كما هو، وحيث لا مفر من العدول عنها إلى المجاز.

ثانيهما: ينبغي ألا تفسر الآيات الكونية في القرآن إلا باليقين الثابت من العلم لا بالنظريات التي لا تزال موضع فحص وتمحيص، وهي عرضة للتصحيح إن لم يكن للإبطال في أي وقت.

ثم يأخذ في شرح نماذج من الآيات الكونية ذكرت في القرآن منذ أربعة عشر قرناً، وهي تتفق في مفهوماتها ومكتشفات العلم الحديث، أو على الأقل لا تتعارض مع مفهوم العلم ومكتشفاته العديدة ومنجزاته العظيمة.

ويبدأ هذه الأمثلة بفاتحة الكتاب ﴿الحمد لله رب العالمين﴾ فيقول:

إن العرب لم يكونوا يدركون إلا عالماً واحداً هو الذي يعيشون فيه، والناس إلى اليوم لا يتحدثون إلا عن عالم واحد هو العالم المحس، وربما ظنوا أنها عوالم الإنس والجن والملائكة، أو عوالم الحيوان والنبات والجماد. ثم جاء علم الفلك بمراقبه ومراصده وتحليلاته الرياضية وغير الرياضية فأثبت أن هناك عوالم مجرية أخرى مترامية الأبعاد تعد بالملايين. فعالمنا فيه أرض تدور حول الشمس، فلماذا لا يكون في تلك العوالم الأخرى عالم شبيه بعالمنا تكون فيه أرض تدور حول شمس وتكون بها حياة؟! والقرآن ينبئنا أن في الكون سبع سموات بقوله تعالى: ﴿ثم استوى إلى السماء وهي دخان فقال لها وللأرض ائتيا طوعاً أو كرهاً قالتا أتينا طائعين فقضاهن سبع سموات في يومين وأوحى في كل سماء أرضها وزينا السماء

الدنيا بمصاييح وحفظاً ذلك تقدير العزيز العليم»⁽¹⁾.

كما ينبثق أن في الكون - أيضاً - سبع أرضين كما يشير إلى ذلك قوله تعالى: ﴿الله الذي خلق سبع سموات ومن الأرض مثلهن﴾⁽²⁾، فالأرضون سبع لتحقيق المثلية المنصوص عليها في الآية لا أنها سبع في أرضنا هذه كما فهم الناس ويفهمون، فأرضنا واحدة مهما تعددت طبقاتها، ويؤكد ذلك قول الرسول ﷺ: «اللهم رب السموات السبع وما أظللن ورب الأرضين وما أقللن» إذ اعتبر المعنى الحقيقي لكلمة ﴿سبع﴾ دون اللجوء إلى المجاز الذي يدل على الكثرة البالغة. فليس المراد بكلمة ﴿العالمين﴾ في آية الفاتحة إذاً مجرد عالم الإنس والجن والملائكة أو عالم الحيوان والنبات والجماد كما كان مفهوماً سائداً من قبل، بل هو عالم فلكي بما يشمل من سموات وأرضين كما نخبرنا الآية الكريمة⁽³⁾.

وتحت عنوان (جري الشمس) يفسر قوله تعالى: ﴿والشمس تجري لمستقر لها ذلك تقدير العزيز العليم﴾⁽⁴⁾ فيقول:

«في هذه الآية معجزة علمية لم تكن تخطر لأحد على بال حتى كشف عنها علم الفلك الحديث بعد أن تمهياً له من آلات الرصد وأدوات التحليل الضوئي ومن القدرة على تفسير النتائج التي توصل إليها عن طريقها مما أدى به إلى الكشف عن مقدار كتلة الشمس وأنها قدر كتلة الأرض 333 ألف مرة تقريباً تجري في ملكوت الله الواسع بسرعة تزيد على ضعف ما يسمونه بالقمر الصناعي في دورته حول الأرض ألا يكون في إخبار القرآن بجري الشمس هذا، قبل أن يؤق الإنسان من العلم والمقدرة ما يكشفه له بحيث تمر القرون بعد نزول القرآن والبشرية كلها في غفلة من جريها وجهل به، أكبر دليل على أن الذي أنزل القرآن هو رب الشمس سبحانه الذي خلقها وأجراها وقدر لها ذلك المجري؟!».

(1) سورة فصلت، الآية 11، 12.

(2) سورة الطلاق، الآية 12.

(3) تفسيره للعالمين بهذه العوالم الأخرى الشبيهة بعالمنا ذات أرض وساء وفيها حياة هو تفسير بغير اليقيني الثابت من العلم، وهو مخالف لما اشترطه في جواز التفسير العلمي.

(4) سورة يس، الآية 38.

فالفعل (تجري) ينطبق في أعين الناس على حركة الشمس من المشرق إلى المغرب، وهو بنصه يعبر عن حركة حقيقية أثبتتها العلم للشمس بسرعة مخصوصة قدروها بنحو اثني عشر ميلاً في الثانية في اتجاه مخصوص في فضاء الله. والفعل لا يدل على حركة انتقالية ذاتية للشمس فحسب ولكن يدل أيضاً على عظيم تلك الحركة إذ الجري - طبعاً - أدل على السرعة من المشي أو السير، ولو كانت الشمس غير متحركة في الواقع وكان الفعل - تجري - معبراً عن الحركة الظاهرة فقط لكان من الممكن أن يقول الملحدون: أن قوله: ﴿والشمس تجري الخ...﴾ هي من عند إنسان يصف ما يرى. أما وقد ثبت للشمس جري حقيقي في فضاء الله متعين المقدار والاتجاه بعد نحو اثني عشر قرناً من عصر القرآن فدل ذلك على أن القرآن من عند الله⁽¹⁾.

دلائل دوران الأرض حول نفسها وحول الشمس

كان الناس يعتقدون أن الأرض ثابتة لا حراك بها: إذ ليس للأرض حركة محسوسة في الظاهر كحركة الشمس النسبية من المشرق إلى المغرب. وقد لبث الناس قروناً حتى بعد نزول القرآن على ذلك الاعتقاد.

ولكن القرآن فيه دلالات متعددة على حركة الأرض بنوعيتها جاءت عن طريق الإشارة لا صريح العبارة مراعاة لمقتضى الحال في خفائها وعدم إحساس الناس بها. فلو أن القرآن صارحهم بحركة الأرض - وهم يحسبونها ساكنة - لكذبوه، فكان من الحكمة البالغة ومن الإعجاز البلاغي في الأسلوب أن ينبه الناس في كتاب الله إلى آيته سبحانه في حركة الأرض حول محورها، وفي حركتها حول الشمس بمختلف الإشارات، فقد وصف الليل - عند القسم به - بالإدبار تارة ﴿والليل إذ أدبر﴾⁽²⁾، وبالإقبال والإدبار كليهما في قوله: ﴿والليل إذا عسعس﴾⁽³⁾ لأن الفعل معناه أقبل ظلامه أو أدبر، ووصفه بالسري في قوله:

(1) الإسلام في عصر العلم، ط 1973 م، ص 229 وما بعدها.

(2) سورة المدثر، الآية 33.

(3) سورة التكويم، الآية 17.

﴿والليل إذا يسري﴾⁽¹⁾ وكلها أوصاف تقتضي الحركة، وهي كناية عجيبة عن حركة الأرض اليومية لا تفهم حقيقتها إلا إذا تذكرنا أن الظلمة هي الأصل في جو الأرض في النصف غير المقابل للشمس، وإلا إذا تصورنا الأرض تدور حول محورها دورة في اليوم من المغرب إلى المشرق أمام الشمس ليتعاقب الليل والنهار فيها على كل مكان من الأرض.

كما يدل على ذلك - أيضاً - قوله تعالى: ﴿يغشي الليل النهار يطلبه حثيثاً﴾⁽²⁾ فالمغشي يصح أن يكون الليل أو النهار، لأن التعبير يحتملها كما يقول الزمخشري. وعلى ذلك فهو يشملهما، إذ لو كان أحدهما هو وحده المغشي لا الآخر لجاء التعبير القرآني نصاً في ذلك لا يحتمل غيره، وإذا فكل من الليل والنهار يطلب الآخر حثيثاً بإذن الله كي يغشاه على جهة التجدد والاستمرار، كما تفيده صيغة المضارعة في الفعلين مع الحالية في الفعل الثاني.

ثم هناك آية أخرى تكاد تكون نصاً صريحاً في ذلك وهي قوله تعالى: ﴿يكور الليل على النهار ويكور النهار على الليل﴾⁽³⁾، والتكوير، اللف والي يقال: كار العمامة على رأسه وكورها، فالله تعالى يلف الليل على النهار بلف محوري حقيقي للأرض التي هي محل الليل، ويلف النهار على الليل بلي حقيقي لأشعة ضوء الشمس في غلاف الأرض الهوائي الذي تملؤه الظلمة وهي تدور. كما أن في الفعل (يكور) المكرر مرتين دلالة على كروية الأرض بكروية جوها الذي يشغله ويتعاوره الليل والنهار على التجدد على كل بقعة من بقاع الأرض.

وفي هذا غناء عن الإستشهاد على كروية الأرض بكلمة (دحاها) في قوله تعالى: ﴿والأرض بعد ذلك دحاها﴾⁽⁴⁾،

(1) سورة الفجر، الآية 3.

(2) سورة الأعراف، الآية 54.

(3) سورة الزمر، الآية 6.

(4) سورة النازعات، الآية 30.

أما حركة الأرض السنوية حول الشمس ففي القرآن الكريم دالتان عليها على الأقل:

إحدهما: عن طريق الإشارة إلى أثرها في الليل والنهار من حيث تداخل أحدهما في الآخر من جهة الطول والقصر على تتابع الفصول الناشئة من تلك الحركة. وذلك في مثل قوله تعالى: ﴿يُولِجُ اللَّيْلُ فِي النَّهَارِ وَيُولِجُ النَّهَارُ فِي اللَّيْلِ﴾ في عدة آيات⁽¹⁾. تؤكد له من ناحية وتنبيهاً من الله لعباده أن يتطلبوا سر هذه الظاهرة الكونية التي يحسونها من ناحية أخرى.

أما الدلالة الثانية فهي أهم لأنها إشارة تكاد تكون صريحة، وتلك هي دلالة قوله تعالى: ﴿وَتَرَى الْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِيَ تَمُرُّ مَرَّ السَّحَابِ صُنِعَ اللَّهُ الَّذِي أَتَقَنَ كُلَّ شَيْءٍ﴾⁽²⁾. والسحاب كما هو معروف لا يتحرك بذاته ولكنه ينتقل محمولاً على الرياح، فكذلك الجبال يراها الرائي فيظنها جامدة في مكانها وهي تمر بسرعة محمولة أيضاً وليس لها حامل إلا الأرض، فالأرض إذا هي المسرعة بها كما تسرع الرياح بالسحاب، وكلا الأمرين من صنع الله الذي أتقن كل شيء.

وليس عجباً أن يفوت المفسرين جميعاً هذا المعنى، لأنهم لم يكونوا يعرفون أن للأرض حركة ما لا يومية ولا سنوية، ومن هنا صرفوا المعنى عما يقتضيه المفعول المطلق في الآية⁽³⁾ من أن الظاهرة التي لفت الله الإنسان إليها في الآية هي ظاهرة كونية فيها من إتقان الصنع ما يدل على جلال حكمته وقدرته سبحانه، وما ينافي ما سماه قدامى المفسرين نقضاً لسنن الله في الكون يوم القيامة من نسف الجبال نسفاً وغيرها من أشرار الساعة.

ومن لطيف المناسبة أن تشير الآية ﴿أَلَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا اللَّيْلَ لَيْسَكُنَا فِيهِ وَالنَّهَارَ مَبْصُراً﴾⁽⁴⁾ إلى ظاهرة تنشأ من إحدى حركتي الأرض، وأن تشير آية

(1) سورة لقمان، الآية 29. وسورة الحج، الآية 59.

(2) سورة النمل، الآية 90.

(3) ﴿صُنِعَ اللَّهُ﴾

(4) سورة النمل، الآية 88.

﴿وترى الجبال...﴾ الخ . إلى الحركة الأخرى تلك الإشارة الواضحة العجيبة .
ومن حكمة الله أن جعل بين الآيتين آية تتعلق بيوم البعث لتصرف الأذهان بها عن
المعنى الذي لم تكن لتعقله قبل أن يأذن الله بالكشف عن سنة الله في حركة الأرض
حول الشمس كسائر من السيارات التي أقسم الله بها⁽¹⁾ .

ظلمة السماء

وهناك آية أخرى متعلقة بالسماء وهي قوله تعالى : ﴿وأغسطس ليلها﴾⁽²⁾ يقيم
الله بها الحجة على منكري البعث بالأجساد . والمفسرون جميعاً فسروا الليل في الآية
بالليل الذي يعرفونه في الأرض ، على الرغم من أن الضمير في (ليلها) راجع إلى
السماء قبلها في قوله : ﴿أنتم أشد خلقاً أم السماء بناها﴾⁽³⁾ .

حتى جاء العلم الحديث فاستنبط من كون الضوء في ذاته لا يرى ، وإنما يرى
أثره منعكساً على المرئيات التي يظهر أثر الضوء فيها مشتتاً كإضاءة عامة ، استنبط
من ذلك أن السماء إذا تجاوزنا جو الأرض نجدوها سوداء حالكة بالنهار والشمس
طالعة ، إذ ليس فيها ما يعكس الضوء إلى أعيننا لو علونا جو الأرض ، ثم جاء
عصر الفضاء ، وصعد رواده في سفنه فشاهدوا السماء فعلاً حالكة السواد وأرسلوا
صوراً التقطوها للقمر وهم يطوفون به وصوراً للأرض مرئية من القمر ، فإذا به
وبالأرض منيران بأشعة الشمس المنعكسة عنهما في سواد حالك عم الصور هو سواد
السماء حول القمر وفوق الأرض .

(1) الدكتور الغمراوي وغيره استدلوا بآية النمل على حركة الأرض من حركة الجبال التي تحدث عنها
الآية لأن حركة الجبال تابعة لحركة الأرض ، كما أن حركة السحاب تابعة لحركة الرياح . والمفسرون
- كما أشار الغمراوي - يقولون : إن سياق الآية بين سابقها ولحقها لا يسمح بهذا الفهم والآية
تصور مشهداً من المشاهد التي ستكون عند نهاية الدنيا . وحجة الغمراوي ومن يوافقه أن الآية
ليست كذلك لأن يوم القيامة لا يتصور فيه وجود الجبال ، كما أشار إلى ذلك بحيث يوجه إليها النظر
لإثبات أنها من صنع الله . والمخالفون لهم على أن الآية إلى جانب السياق الذي وردت فيه يقولون :
إن الحركة ليست خاصة بالجبال وإنما كل شيء على الأرض متحرك لا فرق بين الجبال والوهاد
وغيرها .

(2) سورة النازعات ، الآية 29 .

(3) سورة النازعات ، الآية 27 .

وظلمة ليل السماء تكفي في الدلالة عليها كلمة (ليل) أما شدة تلك الظلمة فبدل عليها الفعل (أغطش) فلو كان يغني عنه الفعل (أظلم) لنزل القرآن به لأنه أنس وأوضح بدلاً من (أغطش) الذي يدل على الشدة. ولو أن المفسرين القدامى منهم والمحدثين لم يغفلوا دلالة مرجع الضمير المضاف إليه الليل ولم يصرفوه إلى ليل الأرض برغم رجوعه صراحة إلى السماء. لو أنهم أخذوا بظاهر الآية كما كان ينبغي لقالوا: إن للسماء ليلاً غير ليل الأرض وإن لم يعرفوه، ولكان هذا وحده سبباً إجمالياً إلى حقيقة لم يعرف العلم تفصيلها إلا بعد نزول القرآن بعدة قرون.

رد الغفراوي على المانعين للتفسير العلمي

نجد في كثير من الأحيان يرد على المانعين للتفسير العلمي فهو يقول مثلاً: «يعيب بعض الناس من مخطيء (المتعصبين لهذه التفسيرات العلمية) كما يسمونهم مثلاً أخذهم بظاهر قوله تعالى: ﴿أو لم ير الذين كفروا أن السموات والأرض كانتا رتقاً ففتقناهما﴾⁽¹⁾ من أن السماء والأرض كانتا ملتحمتين أي كانتا كتلة واحدة ثم انفصلت إحدهما عن الأخرى...»

إن الآية الكريمة من عجائب الإعجاز العلمي، لأنها سبقت علماء الفلك المحدثين إلى ما قرروه من أن الكون كله قبل أن تتشكل عوالمه ومجراته ونجومه كان كياناً سديماً غير متميز بفضه عن بعض، ثم أخذ يتميز ويتطور لا يدرون بالضبط كيف وإن نسبوه إلى فعل الجاذبية العامة. وواضح أن السموات - بالجمع لا بالإنفراد - هي والأرض تشمل الكون كله وحالته السديمية الأولى قبل أن يتخلق سموات وأرضين.

وكان هؤلاء المعارضين يريدون ألا يفهم من الآيات الكونية في القرآن إلا ما كان يفهمه العرب الذين نزل القرآن بينهم، فيلجأ بعضهم إلى تفسير ابن كثير ليخرج منه بتفسير ابن عباس لآية سورة الأنبياء من أن السموات كانت رتقاً لا تقطر، وكانت الأرض رتقاً لا تنبت، فلما خلق الله الأرض أهلاً فتق هذه بالمطر

(1) سورة الأنبياء، الآية 30.

ووفق هذه بالنبات. وغاب عنهم أن القرآن ليس مراداً به العرب وحدهم بل البشرية كلها، يفهم من آياته أهل كل عصر بقدر ما آتاهم الله من العلم، فتجدد حجة الله على الناس بتجدد إعجاز القرآن العلمي من غير تكلف ولا تعسف، فالمعنى الفلكي العلمي الحديث ألبس للآية الكريمة وأمكن من معنى ابن عباس كما هو ظاهر من نسبة عدم الأمطار إلى السموات بالجمع، مع أن الذي ارتضوه لا ينطبق إلا على سماء السحاب في أرضنا هذه، في حين أن السموات بالجمع أساسية في فهم الآية على المعنى العلمي طبق ما قرره الفلكيون المحدثون.

أما الاستشهاد لمعنى ابن عباس بقوله تعالى: ﴿ففتحننا أبواب السماء بماء منهمر﴾⁽¹⁾ فمن الواضح أنه استشهاد في غير موضعه، لأن الآية وصف لبدء الطوفان في قصة نوح لا لغياث أهل الأرض بماء السماء.

وقد ذهب بعضهم - أي المعارضين - إلى أن هناك طائفة كبيرة من العلماء تقول: إن الأرض خلقت مستقلة لا انفصلاً من الشمس فقالوا: إن القرآن الكريم نفسه قد بين لنا في آيات أخرى الطريقة التي خلق الله بها الأرض والسماء فين ذلك في صورة تدل دلالة واضحة على أن خلق كليهما كان مستقلاً عن خلق الأخرى بل كان له زمن غير زمن الآخر، وذكروا آيات سورة فصلت ﴿قل أثنتكم لتكفرون بالذي خلق الأرض في يومين...﴾ الآيات⁽²⁾ معنيين عليها بقولهم:

«إنها تدل صراحة على أن كل واحدة منها كان خلقها مستقلاً عن الأخرى ومنفصلاً عنه»⁽³⁾ مع أن هذه الآيات الكريمة تفصيل لما أجملته آية سورة الأنبياء لكن لا على ما فهموا منها من خلق السماء والأرض في زمنين مختلفين، فالفتق بالمعنى الفلكي يقتضي اتحاد الزمن، إذ انفصال الأرض يقتضي حتماً وجود السماء وإن كانت سديمية دخانية على ما وصف الله سبحانه في ثالث آيات سورة فصلت:

(1) سورة القمر، الآية 11.

(2) 8 - 11.

(3) هذا الرد هو للدكتور علي عبد الواحد وافي ورد في مجلة الأزهر، وسيأتي بيان موقفه من التفسير العلمي في مكانه من هذا البحث، وهذا الموضوع كثرة الجدل بين المجيزين والماتنين وسيأتي له مزيد بيان في القضايا التي تركز حولها التفسير العلمي من هذا البحث.

﴿ثم استوى إلى السماء وهي دخان﴾ ولا تمنع (ثم) الدالة على التراخي عن اتحاد زمن الخلق، فالسما كانت سدّمية حين انفصلت الأرض عن شمسها في اليوم الأول أو الطور الأول من خلق الأرض، ودلت (ثم) على أن الأيام الثلاثة أو الأحقاب الثلاثة التي تحققت فيها الأطوار الباقية من خلق الأرض، وكان آخرها تقدير أقواتها فيها كنص الآية (10). لم تكن تلك الأحقاب كافية لخروج السماء السدّمية الأولى إلا إلى الدخانية⁽¹⁾.

ويقول في موضع آخر مدافعاً عن اتجاهه في التفسير العلمي :

«نسب إلينا البعض أننا نرى تفسير الآيات الكونية بجعلها مطابقة لنظريات علمية حديثة، وهذا ما لم نذهب إليه قط، وما لا يمكن أن يفهم من شيء كتبناه. بل لقد اشترطنا في التفسير العلمي للقرآن أن تكون المطابقة بين الآي القرآني وبين الحقائق الكونية، فلا يطابق بين الآي القرآني والنظريات التي لا تزال محل فحص وتمحيص عند أهلها، اللهم إلا للحكم عليها بالصحة أو البطلان بموافقتها أو مخالفتها للقرآن⁽²⁾».

هذه الأمثلة التي ذكرناها قليل من كثير مما ساقه الدكتور محمد أحمد الغمراوي ليؤكد أن الآيات القرآنية الكونية تشير إلى إعجاز القرآن العلمي في عصر العلم.

الدكتور محمد جمال الدين الفندي والتفسير العلمي

الدكتور محمد جمال الدين الفندي⁽³⁾ له تعليقات علمية على بعض آيات

(1) الإسلام في عصر العلم، ص 262، 264.

(2) المرجع السابق، ص 265.

(3) الدكتور الفندي هو رئيس قسم الفلك وأستاذ الطبيعة الجوية لكلية العلوم جامعة القاهرة، وهو عضو بالمجلس الأعلى للشؤون الإسلامية بمصر. له مؤلفات عديدة في مجال تخصصه، منها: قصة الكون، وقصة السموات والأرض، والصعود إلى المريخ والغبار الذري والقرآن والعلم. ومن روائع الإعجاز في القرآن الكريم. كما ترجم بعض الكتب، وله أيضاً كثير من البحوث العلمية المبتكرة نشرت بالمجلات العلمية في أمريكا وبريطانيا.

القرآن الكريم في كثير من كتبه. ويرى أنه كان من الطبيعي أن تقف رسالات السماء عندما نضج العقل البشري وصار عصر العلم على الأبواب وأن تقوم رسالة السماء - القرآن - على مخاطبة العقول المفتوحة والبصائر النيرة ليتفكروا في خلق السموات والأرض.

ويقول في كتابه (القرآن والعلم): «إن في القرآن العديد من الآيات العلمية التي تمّ فهمها وأمكن التعليق عليها، وإظهار جوانب الإعجاز فيها، الأمر الذي دعاه إلى تأليفه كتابه هذا ليبرهن بالحجة والدليل القاطع على أن خالق الكون هو نفسه الذي أنزل هذا القرآن الكريم، وأن القرآن يتفق مع جلال الصنع»⁽¹⁾.
ويقول في كتاب آخر:

«إنه عندما يتحدث عن الإعجاز العلمي في القرآن لا يعني على الإطلاق أن القرآن يسوق الحقائق العلمية مفصلة كاملة كما يفعل أي مرجع علمي مختص فليست هذه رسالة القرآن. وإنما يتوفر الإعجاز العلمي عن طريق صياغة أغلب الحقائق العلمية كقضايا عامة مع الخوض في التفاصيل أحياناً، والإنباء بما لم يتوصل إليه الناس بعد أو يتعرفوا على تحقيقه أو تقرير ما هم مختلفون فيه.

وثمة ناحية أخرى هي أن التطلع إلى الاعجاز العلمي في القرآن هو في حد ذاته أكبر حافز لنا يحملنا على الاستزادة من العلم، ويقول: أنه يعني بالعلم العلم التجريبي»⁽²⁾.

ويقول - أيضاً -: أنه لا يأخذ بالنظريات المتطورة ولكن بالحقائق الثابتة التي صارت بعيدة عن الشبهات مثل: سبح الكواكب حول الشمس، وإثارة الرياح للسحب، ونقص الضغط الجوي بالبعد عن سطح الأرض. ومثل هذه الحقائق العلمية هي التي سوف يعتمد عليها في سلسلة تعليقاته العلمية على بعض آيات القرآن الكريم⁽³⁾.

(1) القرآن والعلم، ط 1 1968 م، ص 16.

(2) من روائع الإعجاز في القرآن الكريم، ط المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية 1969م، ص 107.

(3) القرآن والعلم، ص 16.

كما نجده يرد على المانعين للتفسير العلمي بأنهم غير مصيبين في رأيهم هذا وأن الحقائق العلمية لا خوف عليها في تفسير آيات القرآن على ضوءها فيقول:

«وهناك فريق من المسلمين لا يقرون التفسير العلمي لبعض آيات القرآن لأسباب عديدة لكنهم نسوا أن هذا جانب من علوم القرآن يجب ألا يغفل الإجهاد فيه، بعد أن صار العلم هو اللغة التي يفهمها كل الناس، والحجة التي يتقبلونها عن طيب خاطر. وبعد أن أسرفنا في دراسة كثير من العلوم الأخرى التي جاء بها القرآن، وقد يخيّل للبعض منا (خطأ) أن الحقائق العلمية التي نسلم بها اليوم عندما يصيها شيء من التطور بتقدم ركب العلم يمكن أن يؤدي ذلك إلى قلبها رأساً على عقب، بحيث يصبح في يوم من الأيام الأسود أبيض مثلاً، ولكن شيئاً من ذلك لا يمكن أن يحدث، فالتعديلات التي قد تطرأ على بعض الحقائق العلمية هي بمثابة إضافات أو تعميمات، بمثل هذا القدر فقط يمكن أن تتطور الحقائق العلمية، وإلا كان العلم واهياً لا قيمة له ولا يعتد به.

وإنه يعتقد أنه حتى لو فرض جدلاً أنه اتضح فيما بعد خطأ بعض ما أورده من مادة علمية - وهو أمر غير محتمل قط - (كما يقول) فإن ذلك لن يمس كتاب الله في شيء. ويقول:

«إن مزايا القرآن الفريدة أن بعض آياته تحتمل العديد من التفسيرات السليمة مثل الآية الخاصة بتلقيح الرياح لبعض النباتات لتخصب أو للسحب لتجود بالمطر، وهذا جانب مهم جداً من إعجاز القرآن هضم به كافة الحضارات السابقة منذ نزل حتى يومنا هذا، وسوف يستمر الحال هكذا حتى قيام الساعة⁽¹⁾.

وبين موقفه في التفسير العلمي للقرآن، ويصل في النهاية إلى أنه ضرورة من ضرورات العصر فيقول:

ولما كنا بصدد الكلام عن الإعجاز العلمي في القرآن فسوف نتعرض - بطبيعة الحال - لآيات هي من صميم العلم بما حوت من تفصيلات، وأخرى

(1) القرآن والعلم، ص 19 وما بعدها.

تعرض قضايا علمية عامة. وسوف تضرب الأمثلة لمن يتوقعون وجود تفصيلات علمية في كتاب الله العزيز، على غرار ما يقع تحت أيديهم من المراجع. لكننا نقول هؤلاء وأمثالهم: وهل فصل القرآن الكريم أبسط الأشياء وأهمها كالعبادات؟ هل ذكر لنا عدد الركعات لكل صلاة؟ وهل عمد إلى بيان تفاصيل تلك الفروض ووسائل أدائها كما فصل الرسول ﷺ؟

ما من شك في أن أموراً كثيرة من أمور ديننا تركها القرآن للحديث والسنة كما ترك تفاصيل أغلب الأمور العلمية لاجتهاد علماء المسلمين في مختلف العصور. ثم من قال: أن الفقهاء والأئمة المجتهدين اتفقوا في تفسيرهم لكل ما تعرضوا لتفسيره من كتاب الله؟ ألم تحدث خلافاً قائمة إلى الآن؟. ولكن هل أثر ذلك على الجوهر واللب؟!

إن هذا التحليل يقودنا إلى اعتبار التعليقات العلمية على القرآن الكريم ضرورة من ضرورات العصر، لأنه في ضوء تلك التعليقات يسلم الناس بأن خالق الكون هو نفسه الذي أنزل القرآن وأوحى به⁽¹⁾.

نماذج من تعليقاته العلمية على بعض آيات القرآن

في كتاب (القرآن والعلم) وفي الباب السادس منه (القرآن والعلوم الطبيعية الأرضية) يعلق على عدة آيات ومن بينها الآية الكريمة ﴿وَأَرْسَلْنَا الرِّيحَ لَوَاحِجٍ فَأَنْزَلْنَا مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَسْقَيْنَاكُمُوهُ وَمَا أَنْتُمْ لَهُ بِخَازِنِينَ﴾⁽²⁾ فيقول:

«إن القرآن الكريم كان أول كتاب ربط إثارة السحب ونزول المطر بإرسال الرياح، وهي حقيقة علمية لم يعرفها البشر إلا في عصر النهضة، إذ نذكر هذه الآية في إعجاز أخاذ حقيقتين علميتين:

الأولى: إن الرياح إنما تلقح السحب لتجود بالمطر.

(1) القرآن والعلم، ص 33، 34.

(2) سورة الحجر، الآية 22.

الثانية : إن هذا المطر لا سبيل إلى خزنه على الدوام في مكان معين من غير أن يتسرب إلى البحر ليتم العملية الطبيعية التي نعرفها اليوم باسم (الدورة المائية) أو دورة الجو المائية التي تتم بين الجو وماء الأرض ، وأن الرياح التي اكتشف العلم أنها من أهم العوامل الأساسية في تلقيح كثير من النباتات نجدها تلتفح السحاب ليجود بالمطر كذلك .

إن تلقيح الرياح عملية تتضمن إمداده بأكداش من جسيمات صغيرة مجهرية هي التي تتجمع عليها جزئيات بخار الماء لتكون نقط المطر النامية . وأعجب العجب أن العلماء يحاولون في عصرنا هذا تلقيح السحب صناعياً بالطائرات أو بمولدات خاصة عن طريق مدها (بنوى التكاثف) هذه عندما يعجز الهواء أو تعجز الرياح عن أداء هذه المهمة طبيعياً .

ومن البديهي أن هذه الآية قد نزلت في زمن لم يكن الناس يعرفون فيه انطلاق مياه البحر على هيئة أبخرة تحملها الرياح حتى إذا ما برد الهواء في مناطق تكون السحب تكاثفت أبخرة المياه التي يحملها وتحولت إلى نقط من الماء لا تلبث أن تسقط على هيئة مطر يتجمع ماؤه في المجاري والأنهار التي تصب بدورها في المحيطات والبحار لتعود الكرة من جديد .

ولقد كان الرأي السائد أن ماء المطر إنما يأتي هكذا من السماء ، ولم يكن يخطر ببال أحد أن الرياح هي التي تثير السحاب الذي يجمود بالمطر حتى أثبت علم الأرصاد الجوية أخيراً في عصر النهضة العلمية أن الأصل في إثارة السحب ونزول المطر هو إرسال الرياح لتتجمع في مكان معين .

بل إن آخر تقسيم علمي أجري لأنواع السحب والأمطار عمل بحيث تطابق أوصافها طبيعة انسياب الرياح التي تثيرها ، فهناك السحب الركامية التي تصاحب التيارات الهوائية الرأسية ، وهناك السحب الطباقية التي تصاحب انسياب طبقة من الهواء بأكملها في اتجاه صاعد ، ومن الأولى تنزل الرخات ، ومن الثانية يهطل المطر⁽¹⁾ .

(1) القرآن والعلم ص 140-142 .

وقال الدكتور الفندي ، تعليقاً على قوله تعالى : ﴿ألم تر أن الله يزجي سحاباً ثم يؤلف بينه ثم يجعله ركاماً فترى الودق يخرج من خلاله وينزل من السماء من جبال فيها من برد فيصيب به من يشاء ويصرفه عن من يشاء يكاد سنا برقه يذهب بالأبصار﴾⁽¹⁾.

تصف هذه الآية الكريمة بدقة معجزة تكوين السحابة الركامية الممطرة ، إلا منذ عشرات السنين فقط ، فهذه السحب الضخمة إنما تتألف من وحدات صغيرة يتم تجمع كل اثنتين أو أكثر منها لتكون السحب الركامية التي تنمو رأسياً أو تصير كالجبال كما تنص الآية الكريمة . وعندما تكتمل السحب الركامية غموها يمكن عادة أن نميز فيها طبقات ثلاث هي : المنطقة السفلى أو منطقة نقط الماء الثابتة ، والمنطقة الوسطى وهي منطقة نقط الماء فوق المبرد ، ثم المنطقة العليا وهي منطقة بلورات الثلج ، وعندما تلائم الظروف الجوية غمو بلورات الثلج في قسم السحب وازدياد حجمها تهبط البلورات النامية إلى المنطقة الوسطى ، وهنا تبدأ قصة سقوط رخات المطر ، وذلك لأنه بمجرد أن تتواجد بلورات الثلج داخل منطقة فوق التبريد وتتصادم كلها أو بعضها مع نقط الماء فوق المبرد يتجمد جزء كبير من هذه النقط فوراً ويتم تجمد الجزء الباقي على التدريج إذا ظل في منطقة من الجو درجة حرارتها تحت الصفر ، ويتبع ذلك نشاط ملحوظ في عمليات التكاثف ، وفي نفس الوقت تنشط عمليات التصادم بين كافة هذه المكونات ، ويلتصق بعضها ببعض فيتكون البرد خصوصاً إذا كانت المنطقة الوسطى نامية غمواً كاملاً مما يفسر لنا قوله تعالى : ﴿وينزل من السماء من جبال فيها من برد﴾ أي أن السحابة تكون قد اكتمل غموها إلى أعلى وتضخمت كالجبال وهو شيء لا بد منه ولا يتوفر إلا في السحب الركامية وحدها .

ولا يقف الإعجاز العلمي للآية عند هذا الحد بل نجدها تربط بين البرد والبرق ، وقد دلت التجارب العلمية الحديثة على أن المكونات الثلجية عندما تنمو أو تنصهر تكتسب شحنات كهربائية . . . وتشير الآية كذلك إلى أن أهم أخطار

(1) سورة النور ، الآية 42 .

البرق الذهاب بالبصر، والعجيب أن هذا هو عين ما يعانيه الطيارون من أخطار في حالات عواصف الرعد خصوصاً في المناطق الحارة الرطبة، حيث تبلغ ومضات البرق في الدقيقة الواحدة (40) ومضة أو شرارة هائلة فيصابون بفقد البصر ولا يقوون على الاستمرار في قيادة الطائرات⁽¹⁾.

الشيخ محمد الطاهر بن عاشور^(*) والتفسير العلمي

أردت أن أعرف موقف الشيخ محمد الطاهر بن عاشور من التفسير العلمي فرجعت إلى تفسيره (التحرير والتنوير) فوجدته في المقدمة الرابعة من مقدمات تفسيره (فيما يحق أن يكون غرض المفسر) بعد أن بين المقاصد الأصلية للقرآن وشرحها، قال:

إن غرض المفسر بيان ما يصل إليه أو ما يقصده من مراد الله تعالى في كتابه بآتم بيان يحتمله المعنى ولا ياباه اللفظ من كل ما يوضح المراد من مقاصد القرآن، أو ما يتوقف عليه فهمه أكمل فهم، أو يخدم المقصد تفصيلاً وتفرعاً، مع إقامة الحجة على ذلك إن كان به خفاء، أو لتوقع مكابرة من معاند أو جاهل.

وانتهى إلى القول: بأن طرائق المفسرين للقرآن ثلاث:

1- أما الإقتصار على الظاهر من المعنى الأصلي للتركيب مع بيانه وإيضاحه، وهذا هو الأصل.

2- وأما استنباط معان من وراء الظاهرة تقتضيها دلالة اللفظ أو المقام ولا

(1) القرآن والعلم، ص 127-129 بتصرف.

(*) الشيخ محمد الطاهر بن عاشور عالم فاضل ومفكر معاصر، من علماء تونس المشهود لهم بالعلم. تولى القضاء أكثر من عشر سنين ثم تولى الإفتاء، كما تولى مشيخة الجامع الأعظم جامع الزيتونة. أشهر مؤلفاته تفسير القرآن الذي سماه (تحرير المعنى السديد وتنوير العقل الجديد من تفسير الكتاب المجيد) واختصر هذا الاسم باسم (التحرير والتنوير من التفسير) اهتم فيه ببيان أوجه الإعجاز ونكت البلاغة العربية وأساليب الاستعمال وبيان المناسبة بين الآيات، كما اهتم بتبيين معاني المفردات في اللغة العربية بضبط وتحقيق مما خلت من ضبط كثير منه قواميس اللغة. كما قدم قبل تفسير كل سورة بجمل أغراضها، حتى يكون القارئ على بينة من أمرها. وقد طبع هذا التفسير. توفي - رحمه الله - في مارس 1973م.

يجافها الاستعمال ولا مقصد القرآن . وتلك هي مستتبعات التراكيب .

3 - وأما جلب المسائل وبسطها : إما لمناسبة بينها وبين المعنى ، أو لأن زيادة فهم المعنى متوقفة عليها ، أو للتوفيق بين المعنى القرآني وبين بعض العلوم مما له تعلق بمقصد من مقاصد التشريع لزيادة تنبيه إليه أو لرد مطاعن من يزعم أنه ينافيه ، لا على أنها مما هو مراد الله من تلك الآية بل لقصد التوسع .

ففي الطريقة الثانية قد فرّع العلماء وفصلوا في الأحكام وخصوصها بالتأليف الواسعة ، فلا يلام المفسر إذا أتى بشيء من تفاريغ العلوم مما له خدمة للمقاصد القرآنية وله مزيد تعلق بالأمور الإسلامية ، مثل أن يفسر ما حكاه الله تعالى في قصة موسى مع الخضر بكثير من آداب المعلم والمتعلم ، وكذا تقرير مسائل من علم التشريع لزيادة بيان قوله تعالى - في خلق الإنسان - : ﴿ من نطفة ثم من علقه ﴾⁽¹⁾ فإنه راجع إلى المقصد ، وهو مزيد تقرير عظمة القدرة الإلهية .

وفي الطريقة الثالثة تجلب مسائل علمية من علوم لها مناسبة بمقصد الآية إما على أن بعضها يوميء إليه معنى الآية ولو بتلويح ما ، وإما على وجه التوفيق بين المعنى القرآني وبين المسائل الصحيحة من العلم حيث يمكن الجمع ، وإما على وجه الاسترواح من الآية كما يؤخذ من قوله تعالى : ﴿ ويوم نسير الجبال ﴾⁽²⁾ أن فناء العالم يكون بالزلازل ، ومن قوله تعالى : ﴿ إذا الشمس كورت ﴾⁽³⁾ أن نظام الجاذبية يختل عند فناء العالم .

وشرط كون ذلك مقبولاً أن يسلك فيه مسلك الإيجاز فلا يجلب إلا الخلاصة من ذلك العلم ولا يصير الاستطراد كالفرض المقصود له .

ثم قال : وللعلماء في سلوك هذه الطريقة الثالثة - على الإجمال - آراء :

فأما جماعة منهم فيرون من الحسن التوفيق بين العلوم غير الدينية والآنها

(1) سورة الحج ، الآية 5 .

(2) سورة الكهف ، الآية 46 .

(3) سورة التكويد ، الآية 1 .

وبين المعاني القرآنية، ويرون القرآن مشير إلى كثير منها.

وفي هذا الخصوص ذكر رأي ابن رشد الحفيد في فصل المقال. وذكر طريقة الغزالي والرازي وابن العربي وقال: إن صنيعهم يقتضي التبسط وتوفيق المسائل العلمية حيث ملأوا كتبهم من الاستدلال على المعاني القرآنية بقواعد العلوم الحكيمة وغيرها، وعلق بقوله:

«ولا شك أن الكلام الصادر عن علام الغيوب سبحانه وتعالى لا تبني معانيه على فهم طائفة واحدة، ولكن معانيه تطابق الحقائق، وكل ما كان من الحقيقة في علم من العلوم، وكانت الآية لها تعلق بذلك فالحقيقة العلمية مرادة بمقدار ما بلغت إليه أفهام البشر وبمقدار ما ستبلغ إليه، وذلك يختلف باختلاف المقامات ويبني على توفر الفهم».

ثم وضع الشروط التي يراها لازمة لذلك فقال:

وشرطه ألا يخرج عما يصلح له اللفظ عربية، ولا يبعد عن الظاهر إلا بدليل، ولا يكون تكلفاً بيناً، ولا خروجاً عن المعنى الأصلي حتى لا يكون في ذلك كتفاسير الباطنية.

ثم ذكر الرأي المقابل لهذا الرأي وخصّ بالذكر الإمام الشاطبي فذكر رأيه الذي أبداه في كتابه الموافقات، ثم قال:

إن رأيه - الشاطبي - هذا مبني على ما أسسه من كون القرآن لما كان خطاباً للأمين وهم العرب فإنما يعتمد في مسلك فهمه وإفهامه على مقدرتهم وطاقتهم، ومبني على أن الشريعة أمية وردّ عليه.

ثم قال:

وأنا أقول: إن علاقة العلوم بالقرآن على أربع مراتب:

الأولى: علوم تضمنها القرآن كأخبار الأنبياء والأمم وتهذيب الأخلاق والفقه والتشريع والإعتقاد والأصول والعربية والبلاغة.

الثانية : علوم تزيد المفسر علماً كالحكمة والهيأة وخواص المخلوقات .
الثالثة : علوم أشار إليها القرآن أو جاءت مؤيدة له كطبقات الأرض والطب والمنطق .

الرابعة : علوم لا علاقة لها بالقرآن إما لبطلانها كالزجر والعيافة ، وإما لأنها لا تعين على خدمته كعلم العروض والقوافي⁽¹⁾ .

وفي المقدمة العاشرة من هذه المقدمات (في إعجاز القرآن) يذهب إلى أن وجوه الإعجاز في القرآن راجعة إلى ثلاث جهات :

الجهة الأولى : بلوغه الغاية القصوى مما يمكن أن يبلغه الكلام العربي من حصول كفيات في نظمه مفيدة معاني دقيقة ونكتاً من أغراض الخاصة من بلغاء العرب مما لا يفيد أصل وضع اللغة .

الجهة الثانية : ما أبدعه القرآن من أفانين التصرف في نظم الكلام مما لم يكن معهوداً في أساليب العرب ولكنه غير خارج عما تسمح به اللغة .

الجهة الثالثة : ما أودع فيه من المعاني الحكيمة والإشارات إلى الحقائق العقلية والعلمية ، مما لم تبلغ إليه عقول البشر في عصر نزول القرآن وفي عصور بعده متفاوتة . ويقول :

إن إعجاز القرآن من الجهتين الأولى والثانية متوجه إلى العرب ، إذ هو معجز لفصحائهم وخطبائهم وشعرائهم مباشرة ، ومعجز لعامتهم بواسطة إدراكهم أن عجز مقارعيه عن معارضته مع توفر الدواعي عليه هو برهان ساطع على أنه قد تجاوز طاقة جميعهم . ثم هو بذلك دليل على صدق المنزل عليه لدى بقية البشر الذين بلغ إليهم صدق عجز العرب بلوغاً لا يستطيع إنكاره لمعاصريه بتواتر الأخبار ، ولئن جاء بعدهم بشواهد التاريخ . والقرآن معجز من الجهة الثالثة للبشر قاطبة إعجازاً مستمراً على مر العصور ، لأنه قد يدرك إعجازه العقلاء من غير الأمة العربية بواسطة ترجمة معانيه التشريعية والحكمية والعلمية والأخلاقية ، وهو دليل تفصيلي

(1) التحرير والتنوير، ط 1984 م ، 1: 41 - 45 .

لأهل تلك المعاني، وإجمالي لمن تبلغه شهادتهم بذلك.

كما أن هذه الجهة من الإعجاز إنما تثبت للقرآن بمجموعه، إذ ليست كل آية من آياته ولا كل سورة من سوره بمشتملة على هذا النوع من الإعجاز، ولذلك فهو إعجاز حاصل من القرآن وغير حاصل به التحدي إلا إشارة نحو قوله تعالى: ﴿ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافاً كثيراً﴾⁽¹⁾. وإعجازه من هذه الجهة للعرب ظاهر، إذ لا قبل لهم بتلك العلوم كما قال الله تعالى: ﴿ما كنت تعلمها أنت ولا قومك من قبل هذا﴾⁽²⁾، وإعجازه لعامة الناس أن تحيي تلك العلوم من رجل نشأ أمياً في قوم أميين - أ هـ⁽³⁾.

من هذه النصوص التي قدمناها يتضح أن الشيخ محمد الطاهر بن عاشور من العلماء الذين لا يرون مانعاً من الاستفادة بما أثبتته العلم في إيضاح حقائق القرآن وكل ما كان من الحقيقة في علم من العلوم، وكان النص القرآني له تعلق به فالحقيقة العلمية مرادة سواء فهمت من النص أم لم تفهم. وقد وضع لذلك قيوداً حتى لا يصير الأمر مفتوحاً لكل ما يسمى علماً.

كما يرى أن من وجوه الإعجاز في القرآن اشتغاله على الحقائق العقلية والعلمية، وحتى لا يرد عليه أن الإعجاز مقرون بالتحدي وأنه ثابت لكل سورة من سور القرآن صرح بأن هذا الوجه من الإعجاز حاصل من القرآن وغير حاصل به التحدي صراحة، كما أنه ثابت للقرآن بمجموعه لا بجميعة. وتطبيقاً لهذا نراه في تفسيره يذكر رأي علماء الهيئة، وقد يعترض عليهم⁽⁴⁾ ويرد قولهم.

هذه نماذج مختلفة من جهود أصحاب الإتجاه العلمي في تفسير القرآن قديماً وحديثاً. وقد تبين لنا أنهم يتفاوتون فيما بينهم قرباً وبعداً من المصطلح العلمي، ففي الوقت الذي وجدنا فيه من يتوسع في هذا الإتجاه ويغالي فيه حتى يجعل من

(1) سورة النساء، الآية 82.

(2) سورة هود، الآية 49.

(3) التحرير والتنوير، 1: 104، 129.

(4) أنظر تفسير التحرير والتنوير، 1: 385 وما بعدها.

من القرآن (موسوعة) علمية مشتملاً على كل صغيرة وكبيرة من المخترعات والمكتشفات حتى يذهب إلى القول: بأن القرآن لا يفهم إلا في ضوء العلوم الحديثة. وجدنا منهم من يقتصد في هذا الاتجاه ويقرر بأن القرآن الكريم لم ينزل الله لشرح وتفصيل العلوم والفنون الكونية، ولكن من مزايا القرآن أنه حث على العلوم الكونية في كثير من آياته. وأنه على الرغم من نزوله قبل قرون عديدة من اكتشاف كثير من الحقائق العلمية لم يتمكن أحد من إثبات أية أخطاء علمية فيه، وأن عجائب المخلوقات تذكر للتنبيه على حكمة الله فيها.

وفي نهاية هذا الباب بفصله الثلاثة نورد الملاحظات التالية :

الملاحظة الأولى : إن ما ذكرته في الفصلين السابقين ليس هو تحديداً لمن اتجهوا هذا الاتجاه في تفسير القرآن بل نجد إلى جانب من ذكر بعض الكتب والمقالات التي يحاول مؤلفوها وكتابوها الربط بين ما تخصصوا فيه من فروع العلم والمعرفة وبين القرآن الكريم مثل :

1 - (كشف الأسرار النورانية القرآنية فيما يتعلق بالأجرام السماوية والأرضية والحيوانات والنباتات والجواهر المعدنية) لمؤلفه محمد بن أحمد الاسكندراني من علماء القرن الثالث عشر الهجري .

2 - (تبيان الأسرار الربانية في النبات والمعادن والخواص الحيوانية) لنفس المؤلف . وقد طبع هذا الكتاب في سوريا سنة 1300 هـ⁽¹⁾ .

3 - دروس سنن الكائنات لمؤلفه محمد توفيق صدقي .

4 - إعجاز القرآن في علم طبقات الأرض لمؤلفه محمد محمود إبراهيم .

5 - القرآن والعلوم الحديثة لمؤلفه أحمد كامل ضو .

6 - ما دل عليه القرآن مما يعضد الهيئة الجديدة القومعة البرهان السيد محمود شكري الألوسي .

(1) التفسير والمفسرون 3:163 . التفسير معالم حياته ، منهجه اليوم ص 21.

7 - القرآن والطب للدكتور محمد وصفي .

8 - المقالات التي ينشرها تباعاً الدكتور البشير التركي في (مجلة العلم والإيمان) تحت عنوان (الإعجاز العلمي في القرآن). ولم نتعرض لذكرها بالتفصيل، لأن ذلك يطول بالبحث من جهة ولأن الاستيعاب والاستقصاء غير ممكن في هذا الموضوع من جهة أخرى، إذ ما من يوم إلا وفيه تطبيق له أو دعوة ملحة إليه .

الملاحظة الثانية: إن أصحاب هذا الإتجاه في التفسير يريدون أن يفهم القرآن في ضوء ما أثبتته العلم الحديث، وهذا شعور جميل وطيب، ولكن هذه الدعوى تكون صادقة وصحيحة إذا فهم القرآن في حدود ألفاظه وكما تفيد إشارات. ذلك لأن بعضهم - أحياناً - يحملون ألفاظ القرآن من المعاني ما لا تحتل، وأحياناً يفسرونه بنظريات لا تزال في مرحلة الشك والنظر وقابلة للتغيير أو التعديل، ولا يصح أن يفهم القرآن على أنه دال على الشيء ونقيضه مثلاً. بل الواجب أن يفهم ما ورد في القرآن على أنه حقائق مسلمة فما وافقه من العلوم قبلنا دلالة عليه.

أما إذا نظرنا إلى القرآن الكريم على أنه كتاب شامل لمسار النجوم ومجال الأفلاك والمواقيت، أو على أنه كتاب نبات لأنه أشار إلى مسائل خاصة بالنبات والزروع والمحاصيل الزراعية، أو على أنه كتاب في علم الأحياء لأنه ذكر النطفة والعلق والجنين.

إذا نظرنا إليه بهذه النظرة فإننا نخرجه عن طبيعته وأهدافه السامية. في القرآن الكريم إشارات إلى كثير من فروع المعرفة، وما ورد فيه منها فهو الكلمة الأولى والأخيرة، لأنه كلام الله تعالى المحيط بكل شيء علماً.

ولكن ليس من الصواب أنه كلما وصل العقل الإنساني إلى الكشف عن غامض من غوامض الكون نسرع إلى القرآن لنجد فيه أصلاً أو دلالة على هذا الكشف، فما أكثر ما يتغير العلم وينسخ جديده القديم.

الملاحظة الثالثة: يجب أن يدرس الكون في القرآن على أنه حقائق ثابتة هي

موضع التسليم من المؤمن بالله تعالى وبالقرآن، فلا تجعل حقائقه موضع شك، بل إن الإيمان بالقرآن يوجب الإيمان بكل ما جاء فيه . ولا يصح أن نترك ظاهر القرآن ونتجه إلى تأويله إلا أن يكون الظاهر يقبل التأويل، وتكون حقائق العلم الثابتة تقتضي الأخذ بالتأويل الذي يتحملة القرآن من غير تعسف ولا خروج بالألفاظ إلى غير معانيها.



وبعد أن قدمنا في هذا الباب بفصوله الثلاثة أشهر من انحاز إلى هذه الفكرة، وانجبه هذا الاتجاه في التفسير أو أيده ودعا إليه قديماً وحديثاً. فلإننا نقدم الآن الجانب الآخر من القضية، وهو أشهر المعارضين قديماً وحديثاً.

البَابُ الثَّالِثُ

أَشْهُرُ الْمَعَارِضِينَ لِلنَّفْسِ الْعَالِيَةِ قَدِيمًا وَحَدِيثًا

الفصل الأول : أشهر المعارضين له من القدام
(الإمام الشاطبي)

الفصل الثاني : أشهر المعارضين له في العصر الحديث

الفصل الأول

الشَّاطِطِي

وَمَوْقِفُهُ مِنَ النَّفْسِ الْعَالِي

الفصل الاول

الشاطبي وموقفه من التفسير العلمي

إذا كان بعض العلماء من قدماء المفسرين قد ارتضوا التفسير العلمي، وجعلوا القرآن جامعاً لعلوم الأولين والآخرين كما سبق، فإن بعضاً آخر من العلماء سكّت عنه أو عارضه وأنكره.

وفي مقدمة هؤلاء المعارضين الإمام أبو إسحاق إبراهيم بن موسى بن محمد الغرناطي الشهير بالشاطبي⁽¹⁾. فهو في كتابه الذائع الصيت (الموافقات في أصول الأحكام) يحمل على القائلين بأن القرآن يحوي جميع علوم الأولين والآخرين.

(1) فقيه أندلسي مالكي المذهب، وهو منسوب إلى شاطبة (مدينة بشرق الأندلس ازدهرت إبان الحكم العربي، كانت تلي بلنسية من حيث الأهمية) موطناً وإلى غرناطة مسكناً، توفر على علوم اللغة والتفسير وأصول الفقه وألف فيها، واعتبر من الفقهاء المجتهدين المجددين، مؤلفاته كثيرة ونفيسة، منها: الاعتصام ويتضمن التعريف بالبدعة ومآخذها وأحكامها، طبع لأول مرة بالقاهرة عام 1913 بمقدمة لمحمد رشيد رضا ثم طبع في عام 1970م. وكتاب بعنوان التعريف بأسرار التكليف اشتهر باسم (الموافقات في أصول الأحكام) وقد أقامه على ركنين: علم اللغة التي نزلت الشريعة بها، وعلم أسرار الشريعة ومقاصدها وبناء على خمسة أقسام:

القسم الأول في المقدمات العلمية المحتاج إليها في تهذيب المقصود، والقسم الثاني في الأحكام وما يتعلق بها من حيث تصورها والحكم بها أو عليها، والقسم الثالث في المقاصد الشرعية في الشريعة وما يتعلق بها من الأحكام. القسم الرابع في حصر الأدلة الشرعية، والقسم الخامس في أحكام الاجتهاد والتقليد والمتصفين بكل منها وما يتعلق بذلك من التعارض والترجيح والسؤال والجواب. وقد توفي الشاطبي بعد حياة حافلة بالعلم والتأليف يوم الثلاثاء في اليوم الثامن من شعبان 790هـ الموافق 1388م. (القاموس الإسلامي، ط 1 2976، 12:4، 13).

ويرى أن علم التفسير مطلوب فيما يتوقف عليه فهم المراد من الخطاب، فإذا كان المراد معلوماً فالزيادة على ذلك تكلف.

فتفسير قوله تعالى: ﴿أفلم ينظروا إلى السماء فوقهم كيف بنيناها وزيناها وما لها من فروج﴾⁽¹⁾ بعلم الهيئة الذي ليس تحته عمل غير سائق، ولأن ذلك من قبيل ما لا تعرفه العرب، والقرآن إنما أنزل بلسانها وعلى معهودها، وكذلك القول في كل علم يعزى إلى الشريعة لا يؤدي فائدة عمل ولا هو بما تعرفه العرب.

ثم زاد الشاطبي ذلك توضيحاً فقال:

«فقد تكلف أهل العلوم الطبيعية وغيرها الاحتجاج على صحة الأخذ في علومهم بآيات من القرآن وأحاديث عن النبي ﷺ. كما استدل أهل العدد بقوله تعالى: ﴿فاستل العادين﴾⁽²⁾ وأهل الهندسة بقوله تعالى: ﴿أنزل من السماء ماء فسالت أودية بقدرها﴾⁽³⁾ الآية، وأهل التعديل النجومى بقوله تعالى: ﴿الشمس والقمر بحسبان﴾⁽⁴⁾، وأهل المنطق في أن نقيض الكلية السالبة جزئية موجبة بقوله: ﴿إذ قالوا ما أنزل الله على بشر من شيء قل من أنزل الكتاب الذي جاء به موسى﴾⁽⁵⁾ الآية. وعلى بعض الضروب العملية والشرطية بأشياء أخرى. وأهل خط الرمل بقوله سبحانه: ﴿أو أثارة من علم﴾⁽⁶⁾، وقوله عليه الصلاة والسلام: «كان نبي يخط في الرمل»: إلى غير ذلك مما هو مسطور في الكتب، وجميعه يقطع بأنه مقصود لما تقدم.

وبه تعلم أن قوله تعالى: ﴿أو لم ينظروا في ملكوت السموات والأرض وما خلق الله من شيء﴾⁽⁷⁾ لا يدخل فيه من وجوه الاعتبار وعلوم الفلسفة التي لا عهد

(1) سورة ق، الآية 6.

(2) سورة المؤمنون، الآية 114.

(3) سورة الرعد، الآية 17.

(4) سورة الرحمن، الآية 5.

(5) سورة الأنعام، الآية 91.

(6) سورة الأحقاف، الآية 4.

(7) سورة الأعراف، الآية 185.

للعرب بها ولا يليق بالأميين الذين بعث فيهم النبي ﷺ - جملة سهلة سمحة - اهـ⁽¹⁾.

هذا ما قاله الشاطبي، ولكن إذا نظرنا للحديث الصحيح «بلغوا عني ولو آية وحدثوا عن بني إسرائيل ولا حرج ومن كذب علي متعمداً فليتبوأ مقعده من النار»⁽²⁾ وقوله: «نضر الله امرءاً سمع منا حديثاً فبلغه كما سمعه فرب مبلغ أوعى من سامع»⁽³⁾ من جهة. وإلى أن القرآن نزل للناس كافة، وأنه ليس مخاطباً به خصوص العرب في العهد الأول لها بل للعرب كلهم في عهدهم الأول وغيره وغير العرب كذلك إذا نظرنا بهذا النظر فإنه لا يمكن الوقوف بالقرآن ويعلموه وأسراره وإشاراته عندما يريد الإمام الشاطبي.

وكيف يصح ما يدعوا إليه من ذلك وقد ثبت أن القرآن لا ينضب معينه، والخير في الاعتدال، فكل ما لا تساعد عليه اللغة ولا يدخل في مقاصد التشريع يعامل المعاملة التي يريدها الشاطبي.

أما ما لا تمنعه اللغة التي نزل بها، ويدخل في مقاصد الشريعة ولو بوجه ما فلا يوجد مانع من إضافته إلى الكتاب العزيز، ومنه ما يتعلق بالنظر في مصنوعات الله للتدبر والاعتبار وتقوية الإيمان وزيادة الفهم والبصيرة في الدين⁽⁴⁾.

وعلى ذلك ننظر في قوله تعالى: ﴿أَوْ لَمْ يَنْظُرُوا إِلَى السَّمَاءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَاهَا﴾ الآية التي ساقها الشاطبي، فإن القصد منه الاعتبار بالحالة المشاهدة لكل الناس، فلو زاد المفسر ففصل تلك الحالة وبين أسرارها وعللها بما هو مبين في علم الهيئة كان قد زاد المقصد خدمة الآية إيضاحاً.

وكذلك تقرير مسائل من علم التشريع لزيادة بيان قوله تعالى في خلق

(1) الموافقات، ط مصطفى محمد، 1: 51-56.

(2) رواه البخاري عن عبد الله بن عمرو بن العاص كتاب بدء الخلق باب ما ذكر عن بني إسرائيل. (انظر فتح الباري 7: 309).

(3) سنن الدرامي 1: 76.

(4) انظر تعليق الشيخ عبد الله دراز على الموافقات 1: 55 بالهامش.

الإنسان: ﴿من نطفة ثم من علقة﴾⁽¹⁾ فإنه راجع إلى المقصد وهو تقرير عظمة القدرة الإلهية⁽²⁾ على بعث الناس من قبورهم وإحيائهم بعد موتهم، كما هو سياق الآيات.

وفي المسألة الثالثة من النوع الثاني الذي عقده لبيان قصد الشارع في وضع الشريعة للفهام يذهب الشاطبي إلى أن شريعة الإسلام شريعة أمين لأن أهلها كذلك، وهذا أجرى على اعتبار المصالح التي يقصدها الشارع من التشريع. ويسوق الأدلة من الكتاب والسنة على ما ذهب إليه من أمة الشريعة فيقول:

«ويدل على ذلك أمور:

أحدها: النصوص المتواترة اللفظ والمعنى كقوله تعالى: ﴿هو الذي بعث في الأميين رسولا...﴾ الآية⁽³⁾، وقوله: ﴿فآمنوا بالله ورسوله النبي الأمي الذي يؤمن بالله وكلماته...﴾ الآية⁽⁴⁾. وفي الحديث «بعثت إلى أمة أمة»⁽⁵⁾ لأنهم لم يكن لهم علم بعلم الأقدمين.

ثم يقول:

والأمي: منسوب إلى الأم وهو الباقي على أصل ولادة الأم لم يتعلم كتاباً ولا غيره فهو على أصل خلقته التي ولد عليها⁽⁶⁾.

(1) سورة الحج، الآية 5.

(2) انظر تفسير التحرير والتنوير 42:1، 43.

(3) سورة الجمعة، الآية 2.

(4) سورة الأعراف، الآية 158.

(5) رواه الترمذي في نزول القرآن على سبعة أحرف، وقال: حسن صحيح.

(6) أو هو أشبه بأمة منه بأبيه لأن النساء في العرب ما كن يعرفن القراءة والكتابة وما تعلمنها إلا في الإسلام، فصار تعلم القراءة والكتابة من شعائر الحرائر دون الإمام، كما قال عبيد الراعي - وهو شاعر إسلامي -:

هن الحرائر لا ربات أخرة سود المحاجر لا يقرآن بالسور
أما الرجال ففيهم من يقرأ ويكتب.

وقيل منسوب إلى الأمة أي الذي حاله حال معظم الأمة المعهودة عندهم وهي الأمة العربية، وكانوا في الجاهلية لا يعرف القراءة والكتابة إلا القليل منهم، ولذلك يصفهم أهل الكتاب، كما قال الله =

وفي الحديث - أيضاً - «نحن أمة أمية لا نحسب ولا نكتب الشهر هكذا وهكذا»⁽¹⁾.

وقد فسر معنى الأمية في الحديث بمعنى ليس لنا علم بالحساب ولا الكتاب، ونحوه قوله تعالى: ﴿وما كنت تتلو من قبله من كتاب ولا تخطه بيمينك...﴾ الآية⁽²⁾. وما أشبه ذلك من الأدلة الموثقة في الكتاب والسنة الدالة على أن الشريعة موضوعة على وصف الأمية لأن أهلها كذلك - اهـ -⁽³⁾.

وموقف الإمام الشاطبي في هذه القضية لا يقوم على دعائم من الأصول القوية التي تسنده لأنه:

أولاً: إذا كان المقصود بكون الشريعة أمية ما يتعلق منها بالأحكام التكليفية فمسلم لأنه عام يجب أن يفهمه العرب والجمهور ليتمكن الامتثال. أما إذا كان عاماً فهو غير مسلم لأن الأسرار والحكم والمواظ والمواظ وما يدق على فهم الجمهور بينما يفهمه بعض الخواص بحسب ما يسره الله لهم وما وفقهم إليه، وذلك هو الواقع لمن تتبع الناظرين في كتاب الله تعالى على عمر العصور، يفتح الله على إنسان بشيء ولم يفتح به على الآخرين، وإذا عرض عليهم أقروه. على أنه ليست كل الأحكام التكليفية التي وردت في الكتاب والسنة واضحة لكل الناس وإلا لما كان هناك خواص مجتهدون وغيرهم مقلدون ونجد الاختلاف في الفهم حتى في عصر الصحابة. وكل ما يؤخذ من الحديث «نحن أمة أمية» أن التكاليف لا تتوقف في امتثالها على وسائل علمية⁽⁴⁾.

ثانياً: أن الآيات والأحاديث التي ساقها تدليلاً على أن الشريعة أمية لأن

= عنهم في قوله: ﴿ذلك بأنهم قالوا ليس علينا في الأميين سبيل﴾ (انظر تفسير التحرير والتنوير 133:9).

(1) صحيح البخاري، كتاب الصوم، باب قول النبي ﷺ لا نكتب ولا نحسب. (انظر فتح الباري، ط الحلبي، 5: 28).

(2) سورة العنكبوت، الآية 48.

(3) الموافقات 2: 69، 70.

(4) تعليق الشيخ عبد الله دراز، الموافقات 2: 69 هامش.

أهلها كذلك هي ليست أدلة له، لأنها إنما جاءت - في الواقع - لإثبات أمية النبي ﷺ تحقيقاً لمعجزة القرآن الكريم وإظهار الدلالة على صدق رسالة من أرسل به. والامية: وصف خص الله به من رسله محمداً ﷺ إتماماً للإعجاز العلمي العقلي الذي أيده الله به فجعل الامية وصفاً ذاتياً له ليظهر أن كماله النفساني كمال لدني إلهي لا واسطة فيه للأسباب المتعارفة للكمالات. وبذلك كانت الامية وصف كمال فيه مع أنها في غيره وصف نقصان، لأنه لما حصل له من المعرفة وسداد العقل ما لا يحتمل الخطأ في كل نواحي معرفة الكمالات، وكان على يقين من علمه وبينه من أمره مما هو أعظم مما حصل للمتعلمين صارت أميته آية على كون ما حصل له إنما هو من فيوضات إلهية.

كما جاءت للتنبيه على واقع الأمة العربية في أنها أمة أمية لم تكن تعرف العلم بالتعلم والدراسة والكتابة والقراءة، وأنها اختيرت - على وصفها هذا - لحمل أعظم رسالة سماوية تؤاخي العقل وتصادق العلم وتحمل أمانة خلافة الله في الأرض: وذلك أدخل في إثبات معجزة القرآن وشريعة الإسلام.

ولا دخل لامية النبي ﷺ التي فسرها العلماء بأنه كان لا يكتب ولا يقرأ ولم يجلس إلى العلماء لمداومة العلم، كما يدل على ذلك ما ساقه الشاطبي في أدلته من نحو قوله تعالى: ﴿وما كنت تتلو من قبله من كتاب ولا تخطه بيمينك﴾ الآية في إثبات أن الشريعة أمية⁽¹⁾. ويتأكد هذا المعنى بأمور:

الأول: أن مقاصد الشريعة راجعة إلى عموم رسالته وهو معجزة باقية، فلا بد أن يكون فيه ما يصلح لأن تتناوله أفهام البشر في كل زمان ومكان، وبخاصة في عصور انتشار العلوم في الأمة.

الثاني: أن العلماء من سلف هذه الأمة قالوا: إن القرآن لا تنقضي عجائبه، وهو على حد قول القائل:

يزيدك وجهه حسناً كلما زدتَه نظراً

(1) القرآن العظيم، هدايته وإعجازه في أقوال المفسرين، ص 260.

ولو كان كما قال الشاطبي لانقضت عجائبه بانحصار جميع معانيه .

الثالث : إن من وجوه إعجاز القرآن أنه تضمن المعاني الكثيرة مع الإيجاز في اللفظ .

الرابع : إن مقدار أفهام المخاطبين به ابتداء - وهم العرب - لا يقتضي إلا أن يكون المعنى الأصلي مفهوماً لديهم ، فأما ما زاد على المعاني الأساسية فقد يتهيأ لفهمه أقوام ويحجب عنه آخرون ، فرب مبلغ أوعى من سامع ورب حامل فقه إلى من هو أفقه منه⁽¹⁾ .

ثم يسوق الشاطبي دليلاً عقلياً على دعواه فيقول :

«إن الشريعة التي بعث بها النبي الأمي ﷺ إلى العرب خصوصاً وإلى من سواهم عموماً إما أن تكون على نسبة ما هم عليه من وصف الأمية أولاً ، فإن كان كذلك فهو معنى كونها أمية - أي منسوبة إلى الأميين - وإن لم تكن كذلك لزم أن تكون على غير ما عهدوا فلم تكن لتنزل من أنفسهم منزلة ما تعهد ، وذلك خلاف ما وضع عليه الأمر فيها ، فلا بد أن تكون على ما يعهدون ، والعرب لم تعهد إلا ما وصفها الله به من الأمية ، فالشريعة إذاً أمية - أ هـ -⁽²⁾ .

هذا الدليل الذي ساقه الشاطبي لإثبات أن الشريعة أمية قد عكس عليه على النحو الآتي : أن الشريعة التي بعث بها النبي ﷺ إلى الناس كافة - ومنهم العرب الأميون - إما أن تكون على نسبة ما كان وتكون عليه عامة الإنسانية في أممها وشعوبها من العلم والمعرفة الحاصلة والمتجددة إلى يوم القيامة أو لا تكون كذلك . فإن كانت على نسبة ما عليه الإنسانية المبعوث إليها رسول الله ﷺ من خصائص الفكر الإنساني في العلم والمعرفة وما يكون لها في مستقبل حياتها من التفكير العلمي المستكشف لحقائق الكون وأسرار الطبيعة ، وذلك هو معنى كونها شريعة علمية على معنى أن كتابها فتح للعقل الإنسانية مجالات البحث والتفكير وحث على

(1) تفسير التحرير والتنوير ، 44:1 ، 45 .

(2) الموافقات 70:2 .

العلم والمعرفة بما لم يبلغه كتاب سواه . وإن لم تكن كذلك لزم أن تكون على غير ما تعهد الإنسانية وما تعرف من تاريخها العلمي وأطوارها الفكرية فلم تكن لتنزل من أنفس الأمم والشعوب العالمة التي تعنى بالمعرفة المتجددة منزلة ما عهدوا، وذلك خلاف ما جاءت به الشريعة ووضع عليه أمرها، فلا بد أن تكون على ما تعهد الإنسانية .

فالشريعة إذا علمية لا تقف أبداً دون البحث العلمي ولا تأبى أن تؤاخي العلم والمعرفة، وهي بهذا تنافي الأمية في طبيعتها وحقيقتها . وأمية نبيها ﷺ مفخرة لها ومعجزة لنبيها وكتابه .

كما أن أمة العرب واقع تاريخي تحدث عنه النبي ﷺ في صدد بيان حكم شرعي يتعلق بعامة من كان في عصره مؤمناً برسائله وهم جمهور العرب الذين كانوا أميين لا يقرؤون ولا يحسبون . ولم يكن الإسلام آنذاك قد امتد إلى الأمم التي تقرأ وتحسب وهي بلا شك لو وصلت إليها الدعوة لم يحكم عليها بالأمية التي هي واقع العرب في وقت نزول الشريعة . والأحكام الشرعية تناط بأعم الوسائل المحققة عند كافة الخلق لأن التشريع للكافة لا للخاصة⁽¹⁾ .

كما أن هناك رداً مختصراً على دعوى الشاطبي أن الشريعة أمية وهو أن هذا يؤدي إلى أن نزول القرآن على هذه الأمة لم يقصد منه انتقال العرب من حال إلى حال وهذا باطل .

ثم ذكر الإمام الشاطبي دليلاً آخر على أن القرآن قد نزل على ما يعهد العرب فقال :

«لوم يكن - القرآن - على ما يعهدون لم يكن عندهم معجزاً ولكانوا يخرجون عن مقتضى التعجيز بقولهم : هذا على غير ما عهدنا، وهذا ليس بمفهوم ولا معروف، فلم تقم الحجة عليهم به، ولذلك قال سبحانه : ﴿ولو جعلناه قرآناً

(1) القرآن العظيم، هدايته وإعجازه ص 261 .

أعجبياً لقالوا لولا فصلت آيات أعجمي وعربي⁽¹⁾ فجعل الحجة على فرض كون القرآن أعجبياً، ولما قالوا: «إنما يعلمه بشر» رد الله عليهم بقوله: ﴿لسان الذي يلحدون إليه أعجمي وهذا لسان عربي مبين﴾⁽²⁾. ولكنهم أذعنوا لظهور الحجة، فدلّ على أن ذلك لعلمهم به وعهدهم بمثله مع العجز عن مماثلته، وأدلة هذا المعنى كثيرة⁽³⁾.

وهذا الدليل - كسابقه - عكس على الإمام الشاطبي بأنه لو لم يكن القرآن في هدايته العامة الشاملة لجميع ما يقوم بحاجة الإنسانية الفكرية والاجتماعية قياماً عاماً باقياً ببقاء رسالته على الأرض على ما تعهد الإنسانية كلها باعتبارها مدعوة للإيمان برسالة القرآن من العلم والمعرفة الشاملين لجميع فنونها لم يكن عندهم معجزاً، ولكان كثير من الأمم والشعوب يخرجون عن مقتضى التعجيز بقولهم: هذا على غير ما عهدنا ونعهد، فأسلوبه وألفاظه وعباراته ليست من أسلوبنا وألفاظنا وعبارتنا فليس لنا بها عهد ولا معرفة، ومعانيه قاصرة على ما يعهد الأميون من المعاني المعهودة لهم، وليس فيه مما نعهد من المعاني العلمية شيء فلا تلزمنا الحجة به⁽⁴⁾.

على أنه يمكن أن يقال: ما المانع أن تأتي الشريعة في قالب عربي معجز للعرب من الإتيان بمثله بحيث يفهمون معناه والغرض منه، وإن كانوا محتاجين في التعرف عن أسرار حكمه إلى وسائل أخرى قد تكون غير متوفرة لديهم ويفهمها من يأتي بعدهم، فربّ مبلغ أوعى من سامع.

ذلك لأن حجية القرآن عليهم جاءت من جملة أمور: أهمها عندهم أنه كلام من جنس كلامهم في كل شيء إلا أنه بأسلوبه أعجزهم عن الإتيان بمثله.

وما ساقه الإمام الشاطبي من الآيات خاص بأسلوب القرآن وعباراته

(1) سورة فصلت، الآية 44.

(2) سورة النحل، الآية 103.

(3) الموافقات 71:2.

(4) القرآن العظيم، ص 263.

والفاظه، والمراد بها الإحتجاج على العرب بأن التحدي وقع بكتاب عربي مبين، فلو نزل بأسلوب وعبارات غير عربية لقالوا - دفعاً لحجيتهم عليهم - : لولا أنزل بلساننا وعبارتنا، إذعانهم لحجيتهم إنما كان باعتبار الأسلوب والألفاظ لا باعتبار المعاني وفنون الهداية والعلوم والمعارف، لأن كثيراً من هذه المعاني لم يكن من معهود العرب ومعارفهم⁽¹⁾.

ثم عقد الشاطبي فصلاً تحدث فيه عن علوم العرب التي كان لهم اعتناء بشأنها، فجاءت الشريعة فصحت ما هو صحيح وزادت عليه، وأبطلت ما هو باطل، كما بينت منافع ما ينفع ومضار ما يضر.

فمن علومها علم النجوم وما يختص بها من الإهتمام في البر والبحر، واختلاف الأزمان باختلاف سيرها وتعرف منازل النيرين وما يتعلق بهذا المعنى، وهو معنى مقرر في أثناء القرآن في مواضع كثيرة كقوله تعالى: ﴿هو الذي جعل لكم النجوم لتهتدوا بها في ظلمات البر والبحر﴾⁽²⁾. وقوله: ﴿وبالنجم هم يهتدون﴾⁽³⁾، وقوله: ﴿والقمر قدرناه منازل حتى عاد كالعرجون القديم لا الشمس ينبغي لها أن تدرك القمر ولا الليل سابق النهار وكل في فلك يسبحون﴾⁽⁴⁾، وقوله: ﴿هو الذي جعل الشمس ضياء والقمر نورا وقدره منازل لتعلموا عدد السنين والحساب﴾⁽⁵⁾، وقوله: ﴿وجعلنا الليل والنهار آيتين فمحونا آية الليل وجعلنا آية النهار مبصرة﴾⁽⁶⁾، وقوله: ﴿ولقد زينا السماء الدنيا بمصابيح وجعلناها رجوماً للشياطين﴾⁽⁷⁾، وقوله: ﴿يسئلونك عن الأهلة قل هي مواقيت للناس والحج﴾⁽⁸⁾، وما أشبه ذلك - اهـ⁽⁹⁾.

(1) القرآن العظيم، هدايته وإعجازه في أقول المفسرين ص 264.

(2) سورة الأنعام، الآية 97.

(3) سورة النحل، الآية 16.

(4) سورة يس، الآية 39، 40.

(5) سورة يونس، الآية 5.

(6) سورة الإسراء، الآية 12.

(7) سورة الملك، الآية 5.

(8) سورة البقرة، الآية 189.

(9) المفاقات، 72:2.

ويقال للإمام الشاطبي :

أنه لو لم يكن للعرب علم بسير النجوم إلا بالمقدار الذي ينسبه إليهم ، فهذه الآيات يمكنهم فهمها بعد لفت نظرهم إليها لأنها لا تحتاج إلا إلى التدبر في تطبيقها بطريق المشاهدة . على أن علم النجوم لم يكن لجمهورهم بل للبعض القليل منهم الذي كان يستعمل دليلاً للقوافل في سير الليل . وقد أشار القرآن إلى ذلك في قوله : ﴿ وهو الذي جعل لكم النجوم لتهتدوا بها في ظلمات البر والبحر ﴾ . ومع ذلك فلم يتوقف الجمهور في فهمها .

ثم قال الشاطبي :

ومنها - علوم العرب - علوم الأنوار وأوقات نزول المطر وإنشاء السحاب وهبوب الرياح المثيرة له ، فينّ الشرع حقها من باطلها فقال تعالى : ﴿ هو الذي يرிகم البرق خوفاً وطمعاً وينشئ السحاب الثقيل ويسبح الرعد بحمده ﴾ الآية⁽¹⁾ . وقال : ﴿ أفرايتم الماء الذي تشربون أنتم أنزلتموه من المزن أم نحن المنزلون ﴾⁽²⁾ . وقال : ﴿ وأنزلنا من المعصرات ماء ثجاجاً ﴾⁽³⁾ . وقال : ﴿ وتجعلون رزقكم أنكم تكذبون ﴾⁽⁴⁾ . قال : شكركم تقولون : مطرنا بنوء كذا وكذا وينجم كذا وكذا⁽⁵⁾ . وفي الحديث : « أصبح من عبادي مؤمن بي وكافري بي - الحديث في الأنواء »⁽⁶⁾ . وفي الموطأ - مما انفرد به - : « إذا نشأت بحرية ثم تشاءمت فتلك عين غديقة »⁽⁷⁾ . وقال عمر بن الخطاب للناس - وهو على المنبر والناس تحته - : « كم بقي من نوء الثريا ؟ ، فقال له العباس : بقي من نوئها كذا وكذا » ، فمثل هذا مبين للحق من الباطل في أمر الأنواء والأمطار . وقال تعالى : ﴿ وأرسلنا الرياح لواقح

(1) سورة الرعد ، الآيتان 12 ، 13 .

(2) سورة الواقعة ، الآيتان 68 ، 69 .

(3) سورة النبا ، الآية 14 . والمعصرات : السحابات التي تحمل ماء المطر ، واحدها معصرة اسم فاعل أي تنزل إنزالاً شبيهاً بالعصر ، ثجاجاً : منصباً بقوة .

(4) سورة الواقعة ، الآية 82 .

(5) جامع الترمذي ، كتاب التفسير سورة الواقعة .

(6) صحيح البخاري : كتاب الأذان ، باب يستقبل الإمام الناس إذا سلم .

(7) الموطأ : كتاب الاستسقاء ، باب الاستمطار بالنجوم .

فانزلنا من السماء ماء فأسقيناكموه ﴿١﴾ وقال: ﴿الله الذي أرسل الرياح فتثير سحاباً فسقناه إلى بلد ميت فأحيينا به الأرض بعد موتها﴾ ﴿٢﴾ «إلى كثير من هذا» ﴿٣﴾.

وما قيل في علم النجوم يقال في علم الأنواء، وهو أن العرب لم يكونوا جميعاً على علم به بل كان للبعض منهم، ولذلك بدليل ما رواه عن عمر وسؤاله العباس. فإذا كان مثل عمر ليس عارفاً فما ذلك إلا لأن هذا يختص به جماعة منهم. وقد قال تعالى قبل قوله: ﴿أفرأيتم الماء الذي تشربون﴾: ﴿أفرأيتم ما تمنون﴾ ﴿٤﴾، وقال بعدها: ﴿أفرأيتم ما تحرثون﴾ ﴿٥﴾ فهل كان للعرب من علوم الزراعة وتكوين المني وخلق الإنسان ما تفهم به مثل هذه الآيات؟

ومثل قوله تعالى: ﴿من ماء دافق يخرج من بين الصلب والترائب﴾ ﴿٦﴾ ومثل قوله تعالى: ﴿أيحسب الإنسان أن نجمع عظامه بلى قادرين على أن نسوي بنائه﴾ ﴿٧﴾، فإن تسوية الأصابع على ما هي عليه يعد من أدق تكوين الإنسان وكمال صنعته، إن هذا لا يفهمه العرب إلا على سبيل الاجمال وهو دلالة على كمال قدرة الله تعالى وإرادته وحكمته، ومع ذلك وجه إليهم الخطاب به، وقد فهم سره أكثر في هذا العصر، ولكن الفهم العام وهو الاستدلال بهذه الأمور الكونية على الصانع الحكيم القادر حاصل لكل من توجه إليه الخطاب بفهمها.

والرسول ﷺ بعث بهذا الكتاب ليخرج به الناس من الظلمات إلى النور بتعليم ما لم يعلموا وتصحيح ما أخطأوا فيه وتوجيه همتهم وعقولهم إلى ما فيه إصلاحهم بالعلم والعمل سواء أكان لهذا كله أصل عند العرب أم لم يكن له

(1) سورة الحجر، الآية 22.

(2) سورة فاطر، الآية 9.

(3) الموافقات 2: 73.

(4) سورة الواقعة، الآية 58.

(5) سورة الواقعة، الآية 63.

(6) سورة الطارق، الآيتان 6، 7.

(7) سورة القيامة، الآيتان 3، 4.

أصل . ولا علاقة - مطلقاً - بين كون الشريعة أمية وكون كل ما جاءت به منطبقاً على ما عند العرب ، وإعجاز القرآن شيء آخر لا يتوقف على ما قاله الإمام الشاطبي (1) .

ثم يقول الشاطبي : «ومنها - علوم العرب - علم التاريخ وأخبار الأمم الماضية ، وفي القرآن من ذلك ما هو كثير وكذلك في السنة . ولكن القرآن احتفل في ذلك وأكثره من الإخبار بالغيوب التي لم يكن للعرب بها علم لكنها من جنس ما كانوا ينتحلون . قال تعالى : ﴿ذلك من أنباء الغيب نوحيه إليك وما كنت لديهم إذ يلقون أقلامهم أيهم يكفل مريم﴾ (2) . وقال تعالى : ﴿تلك من أنباء الغيب نوحيها إليك ما كنت تعلمها أنت ولا قومك من قبل هذا﴾ (3) . وفي الحديث قصة أبيهم إبراهيم وإسماعيل عليهما السلام في بناء البيت ، وغير ذلك مما جرى . . .

ومنها - علوم العرب - ما كان أكثره باطلاً أو جميعه كعلم العيافة والزجر والكهانة وخط الرمل والضرب بالحصى والطيرة ، فأبطلت الشريعة من ذلك الباطل ونهت عنه كالكهانة والزجر وخط الرمل ، وأقرت الفأل لا من جهة تطلب الغيب ، فإن الكهانة والزجر كذلك ، ويكثر هذه الأمور تحرص على علم الغيب من غير دليل . فجاء النبي ﷺ بجهة من تعرف علم الغيب مما هو حق محض وهو الوحي والإلهام ، ويبقى للناس من ذلك بعد موته - عليه السلام - جزءاً من النبوة وهو الرؤية الصالحة وأنموذج من غيره لبعض الخاصة وهو الإلهام والفراسة .

ومنها : علم الطب ، فقد كان في العرب منه شيء لا على ما عند الأوائل بل مأخوذ من تجارب الأميين غير مبني على علوم الطبيعة التي يقررها الأقدمون . وعلى ذلك المساق جاء في الشريعة لكن على وجه جامع شاف قليل يطلع منه على كثير فقال تعالى : ﴿وكلوا واشربوا ولا تسرفوا﴾ (4) . وجاء في الحديث التعريف ببعض الأدوية لبعض الأدوية ، وأبطل من ذلك ما هو باطل كالتداوي بالخمر والرقي التي

(1) من تعليق الشيخ عبد الله دراز ، الموافقات 2: 73 .

(2) سورة آل عمران ، الآية 44 .

(3) سورة هود ، الآية 49 .

(4) سورة الأعراف ، الآية 29 .

اشتملت على ما لا يجوز شرعاً.

ومنها: التفنن في علم فنون البلاغة والخوض في وجوه الفصاحة والتصرف في أساليب الكلام وهو أعظم متحلاتهم، فجاءهم بما أعجزهم من القرآن الكريم. قال تعالى: ﴿قُلْ لِّئِنْ اجْتَمَعَتِ الْإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلَى أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيراً﴾⁽¹⁾.

ومنها: ضرب الأمثال، وقد قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِي هَذَا الْقُرْآنِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ﴾⁽²⁾ إلا ضرباً واحداً وهو الشعر فإن الله نفاه وبرا الشريعة منه، قال تعالى في حكاية عن الكفار: ﴿أَنَّا لَتَارَكُوا أَلْهَتَنَا لِشَاعِرٍ مَجْنُونٍ بَلْ جَاءَ بِالْحَقِّ وَصَدَقَ الْمُرْسَلِينَ﴾⁽³⁾ أي لم يأت بشعر فإنه ليس بحق، ولذلك قال تعالى: ﴿وَمَا عَلَّمْنَاهُ الشَّعْرَ وَمَا يَنْبَغِي لَهُ...﴾ الآية⁽⁴⁾، وبين معنى ذلك في قوله تعالى: ﴿وَالشُّعْرَاءُ يَتَّبِعُهُمُ الْغَاوُونَ أَلَمْ تَرَأَهُمْ فِي كُلِّ وَادٍ يَبْتَغُونَ وَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ مَا لَا يَفْعَلُونَ﴾⁽⁵⁾ فظهر أن الشعر ليس مبنياً على أصل ولكنه هيمان على غير تحصيل وقول لا يصدقه فعل، وهذا مضاف لما جاءت به الشريعة إلا ما استثنى الله تعالى.

فهذا نموذج ينبهك على ما نحن بسبيله بالنسبة إلى علوم العرب الأمية⁽⁶⁾.

ثم بعد هذا البيان الذي يوضح فيه الشاطبي أن الشريعة في تصحيح ما صححت وإبطال ما أبطلت قد عرضت من ذلك إلى ما تعرفه العرب من العلوم ولم تخرج عما ألفوه نراه يزيد هذا البيان إيضاحاً، ويتوجه باللوم إلى من أضافوا للقرآن كل علوم الأولين والآخرين معتقداً أنهم قد تجاوزوا به الحد في دعواهم على القرآن، وذلك حيث يقول في المسألة الرابعة من مسائل النوع الثاني من المقاصد، أعني مقاصد وضع الشريعة للافهام، فيقول:

(1) سورة الإسراء، الآية 88.

(2) سورة الروم، الآية 58، وسورة الزمر، الآية 27.

(3) سورة الصافات، الآيتان 36، 37.

(4) سورة يس، الآية 69.

(5) سورة الشعراء، الآيات 224-226.

(6) المرافقات 73:2 وما بعدها.

«ما تقرر من أمية الشريعة وأنها جارية على مذاهب أهلها، وهم العرب،
ينبغي عليه قواعد:

منها: أن كثيراً من الناس تجاوزوا في الدعوى على القرآن الحدّ فأضافوا إليه
كل علم يذكر للمتقدمين أو المتأخرين من علوم الطبيعيات والتعاليم⁽¹⁾ والمنطق
وعلم الحروف وجميع ما نظر فيه الناظرون من هذه الفنون وأشباهها، وهذا إذا
عرضناه على ما تقدم لم يصح.

ثم احتج الشاطبي لرأيه هذا بما عرف عن السلف من نظرهم في القرآن
فقال:

«إن السلف الصالح - من الصحابة والتابعين ومن يليهم - كانوا أعرف
بالقرآن وبعلومه وما أودع فيه، ولم يبلغنا أنه تكلم أحد منهم في شيء من هذا
المدعى سوى ما تقدم، وما ثبت فيه من أحكام التكليف وأحكام الآخرة وما يلي
ذلك، ولو كان لهم في ذلك خوض ونظر لبغنا منه ما يدلنا على أصل المسألة، إلا
أن ذلك لم يكن، فدلّ على أنه غير موجود عندهم، وذلك دليل على أن القرآن لم
يقصد فيه تقرير لشيء مما زعموا. نعم تضمن علوماً هي من جنس علوم العرب أو
ما ينبغي على معهودها مما يتعجب منه أولوا الألباب ولا تبلغه إدراكات العقول
الراجعة دون الإهتمام بأعلامه والإستشارة بنوره، أما أن فيه ما ليس من ذلك
فلا⁽²⁾.

ويقال للإمام الشاطبي:

أما أصل الموضوع فمسلم، وهو أنه لا يصح أن يتكلف في فهم كتاب الله
بتحميله ما لا حاجة بالتشريع والهداية إليه من أنواع العلوم الكونية. ولكن من
غير المسلم قصره بطريق القطع على ما عند العرب في علمها ومألوفها، فهذا ما لا
سبيل إليه ولا حاجة تدعو إليه.

(1) المقصود بالتعاليم: الرياضيات من الهندسة والحساب والجبر.

(2) الموافقات 2: 79.

وكيف يصح هذا والله تعالى يقول: ﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقُرْآنُ لَعَلَّكُمْ تُذَكَّرُونَ﴾ (١) ولو أراد الله مجرد حفظ اللفظ والوقوف عند ظاهره فقط لكان ذكر الآذان وما هو نعتها من الاستماع يغني عن الألباب وكان الاستماع يغني عن التدبر. كما أنه لو كان مقصوراً على ما عند العرب لما تنافس العلماء في الإزدياد منه ولكانوا مستوين في درجات العلم به، وهذا لا يصح، وهو خلاف الواقع.

وعدم نظر المسلمين الأوائل في هذا لا يدل على تحريم النظر ممن جاء بعدهم، فالقرآن للأجيال كلها إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها.

ولو قصرنا القرآن على ما عند العرب وقت نزوله لأصبح القرآن الآن غير ذي جدوى ووضوح بالنسبة لحياة الناس ومعاملاتهم التي جددت والتي ستجد، ولكن القرآن على عكس ذلك صالح لكل زمان ومكان.

ثم أخذ الشاطبي - بعد ذلك - في ذكر بعض ما استند إليه أصحاب التفسير العلمي من الأدلة فقال:

«وربما استدلووا على دعواهم بقوله تعالى: ﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَانًا لِّكُلِّ شَيْءٍ﴾ (٢)، وقوله تعالى: ﴿مَا فَرَطْنَا فِي الْكِتَابِ مِنْ شَيْءٍ﴾ (٣) ونحو ذلك، وبفواتح السور وهي مما لم يعهد عند العرب وبما نقل عن الناس فيها، وربما حكى من ذلك عن علي بن أبي طالب - رضي الله عنه - وغيره أشياء .

ثم أخذ بعد هذا في الرد على هذه الأدلة فقال:

«فأما الآيات فالمراد بها عند المفسرين ما يتعلق بحال التكليف والتعبد أو المراد بالكتاب في قوله: ﴿مَا فَرَطْنَا فِي الْكِتَابِ﴾: اللوح المحفوظ، ولم يذكروا فيها ما يقتضي تضمينه لجميع العلوم العقلية والعقلية. وأما فواتح السور فقد تكلم

(١) سورة ص، الآية ٢٩.

(٢) سورة النحل، الآية ٨٩.

(٣) سورة الأنعام، الآية ٣٨.

الناس فيها بما يقتضي أن للعرب بها عهداً كعدد الجمل الذي تعرفوه من أهل الكتاب حسباً ذكره أصحاب السير، أو هي من التشابهات التي لا يعلم تأويلها إلا الله تعالى وغير ذلك. وأما تفسيرها بما لا عهد به فلا يكون ولم يدعه أحد ممن تقدم فلا دليل فيها على ما ادعوا. وما ينقل عن عليٍّ أو غيره في هذا لا يثبت، فليس بجائز أن يضاف إلى القرآن ما لا يقتضيه، كما أنه لا يصح أن ينكر منه ما يقتضيه، ويجب الإقتصار في الاستعانة على فهمه على كل ما يضاف علمه إلى العرب⁽¹⁾ خاصة، فيه يتوصل إلى علم ما أودع من الأحكام الشرعية، فمن طلبه بغير ما هو أداة له ضل عن فهمه وتقول على الله ورسوله فيه» - ١ هـ -⁽²⁾.

ورأي الشاطبي هذا مبني على ما أسسه من كون القرآن لما كان خطاباً للأميين - وهم العرب - فإنما يعتمد في مسلك فهمه وإفهامه على مقدرتهم وطاقاتهم، وأن الشريعة أمية، وهو أساس تعرضنا لما أخذ عليه فيما تقدم. ولزيادة الإيضاح نقول:

إنه على رأي الشاطبي لا يجوز أن يبحث أحد في الآيات الكونية ليتوصل إلى فهم دقيق مثل البحث في آيات سورة النحل في تكوين اللبـن والعسل⁽³⁾ وما فيهما من الأعاجيب لا يجوز له أن يتوصل إلى ذلك من علم حياة النحل وحياة الحيوان ذي اللبن لأنه لم ينقل فيما سبق نسبة علم الحيوان إلى العرب، ولم ينقل أحد أنهم اشتغلوا به، مع أنه لا يمكن أن تتم العظة والإعتبار الذي يشير إليه القرآن في آخر كل آية منها ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَةً لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ و﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ لا يتم ذلك على وجهه الأكمل إلا بمعرفة تكوين العسل واللبن في علم حياة النحل وعلم حياة الحيوان.

والواقع أن كتاب الله كتاب مفتوح مع الزمن للناس كلهم يأخذ منه كل على

(1) لوقال: جمهور الناس لا خاصتهم لكان أحسن، لأن الخطاب به لكل من بلغه يستوي في ذلك العرب وغيرهم قال تعالى: ﴿وَأَوْحِي إِلَىٰ هَٰذَا الْقُرْآنِ لِأَتْلُوهُ بِهٖ وَمَنْ بَلَغَ﴾ (الأنعام، الآية 19).

(2) المواضع 80:2 وما بعدها.

(3) الآيات 66 - 69 من سورة النحل ﴿وَإِنْ لَكُمْ فِي الْأَنْعَامِ لَعِبْرَةٌ نَّظِيرَكُمْ بِمَا فِي بَطُونِهِ مِنْ بَيْنِ فَرْثٍ وَدَمٍ لِّبَأٍ عَظِيمٍ سَائِغًا وَلِلشَّارِبِينَ...﴾ إلى قوله: ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾.

قدر استعداده، وإلا لاستوى العرب أنفسهم في فهمه، والأمر ليس كذلك، وقد قال علي بن أبي طالب - رضي الله عنه - وقد سئل هل خصكم رسول الله ﷺ - بشيء - إلا فهماً يعطاه الرجل في كتاب الله⁽¹⁾.

وأما عدم تناول السلف لهذه العلوم بالكلام فإن كان فيما ليس راجعاً إلى مقاصده فنحن نوافقه عليه، وإن كان فيما يرجع إليها فلا يسلم وقوفهم فيها عند ظواهر الآيات، بل قد بينوا وفصلوا وفرعوا فكان ذلك في علوم عنوانها، ولا يمنعنا ذلك أن نقتفي آثارهم في علوم أخرى راجعة لخدمة مقاصد القرآن أو لبيان سعة العلوم الإسلامية. أما ما وراء ذلك فإن كان ذكره لإيضاح المعنى فذلك تابع للتفسير أيضاً، وإن كان فيما زاد على ذلك فهو ليس من التفسير ولكنه قد يكون تكملة للمباحث العلمية واستطراداً في العلوم لمناسبة التفسير ليكون المفسر أوسع قريحة وأطول باعاً في العلوم⁽²⁾.

وعذر الإمام الشاطبي - رحمه الله رحمة واسعة - في وقوفه في هذا الجانب المقابل لجانب القائلين: بأن القرآن جمع علوم الأولين والآخرين فجاء فيه الطب والهندسة والجبر والمقابلة إلى آخر هذه القائمة من العلوم التي تتغير وتتطور من جيل إلى جيل. ولا شك أن هذا إغراق في تحميل القرآن مما لم يقصد إليه.

وقضية موقف القرآن من العلم قديمة وحديثة وأصوله وفروعه ينبغي ألا ينظر إليها بهذه النظرة التي ذهب إليها من جعل القرآن كتاباً يحتوي على مسائل العلوم الطبيعية والحرف والصناعات.

كما ينبغي ألا ينظر إليها بهذه النظرة الضيقة التي تقف بالقرآن في هدايته ومعانيه وعلومه عند معهود العرب الأميين.

وإنما ينبغي أن ينظر فيها على أساس أن القرآن كتاب هداية وإعجاز ودعوة إلى الله القادر الحكيم الذي أحاط بكل شيء علماً، وأنه أنزل من عند الله بشريعة

(1) تعليق الشيخ دراز في هذا الموضوع 81:2.

(2) تفسير التحرير والتنوير 45:1.

خالدة خاتمة للشرائع الإلهية، قائمة على نظام شامل للحياة.

وقد اقتضت دعوة القرآن وهدايته أن تكون حجة عقلية تقوم على النظر في الكون وآياته تعالى في الأنفس والأفاق وبيان ما فيها من آثار قدرة الله وحكمته. وصدق الله العظيم في قوله: ﴿سنريهم آياتنا في الأفاق وفي أنفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق﴾⁽¹⁾.

ولا يمكن الوصول إلى إقامة هذه الحجة لتكون برهاناً يقنع غير المؤمنين من أبناء الإنسانية في حاضرها ومستقبلها إلا إذا اعتمدت على دعائم البحث المتواصل⁽²⁾ الذي يصل بصاحبه إلى هداية الله ورضوانه.

(1) سورة فصلت، الآية 52.

(2) أنظر، القرآن العظيم، هدايته وإعجازه في أقوال المفسرين ص 264.

الفصل الثاني

أشهر المعارضين للتفسير العليّ
في العصر الحديث

الفصل الثاني

أشهر المعارضين للتفسير العلمي في العصر الحديث

إذا كنا قد وجدنا من العلماء والكتاب في العصر الحديث من سلك منهج التفسير العلمي في فهم القرآن وتأثر به في مؤلفاته أو دعا إليه، فإننا نجد بجوار هؤلاء - أيضاً - من العلماء من لم يرض هذا المنهج ولم يستغ أن تفهم آيات القرآن الكريم على هذا الوجه، بل ردّ هذه الفكرة على أهلها والداعين إليها وتناولها بالنقد والتفنيد. فلم يقف العلماء في هذا العصر - كما يقول الشيخ محمد الذهبي - موقف الإجماع على قبول هذا المنهج في التفسير، بل نراهم مختلفين في قبوله والقول به كما كان الشأن بين من كان قبلهم من العلماء الأقدمين⁽¹⁾.

وبعد أن قدمنا في الفصل السابق موقف الإمام الشاطبي في هذه القضية، وهو أشهر المعارضين من القدامى.

نقدم في هذا الفصل أشهر المعارضين في العصر الحديث.

محمد رشيد رضا وموقفه من التفسير العلمي

إذا كنا قد قدمنا أن الإمام الشيخ محمد عبده كان يميل إلى الاتجاه العلمي في

(1) أنظر التفسير والمفسرون، 3: 184.

التفسير فإننا نرى الآن تلميذه وترجمان أفكاره محمد رشيد رضا⁽¹⁾ ينحو باللائمة على الذين اتجهوا في تفسيرهم الاتجاه العلمي، ويخص بالذكر من القدماء فخر الدين الرازي، ومن المحدثين صاحب تفسير الجواهر الشيخ طنطاوي جوهرى وإن لم يصرح باسمه، وذلك حيث يقول:

«كان من سوء حظ المسلمين أن أكثر ما كتب في التفسير يشغل قارئه عن مقاصد القرآن العالية وهدايته السامية، فمنها ما يشغل عن القرآن بمباحث الإعراب وقواعد النحو واستنباطات الفقهاء المقلدين وتأويلات المتصوفين، وتعصب الفرق والمذاهب بعضها على بعض، وبعضها يلفته عنه بكثرة الروايات وما مزجت به من خرافات الإسرائيليات. وقد زاد الفخر الرازي صارفاً آخر عن القرآن هو ما يورده في تفسيره من العلوم الرياضية والطبيعية وغيرها من العلوم الحادثة في الملة على ما كانت عليه في عهده كالهئية الفلكية اليونانية وغيرها.

وقلده بعض المعاصرين بإيراد مثل ذلك من علوم هذا العصر وفنونه الكثيرة الواسعة، فهو يذكر فيما يسميه تفسير الآية فصلاً طويلة بمناسبة كلمة مفردة كالسما والأرض من علوم الفلك والنبات والحيوان تصدّ قارئها عما أنزل الله لأجله القرآن.

نعم إن أكثر ما ذكر من وسائل فهم القرآن فنون العربية لا بد منها، واصطلاحات الأصول وقواعده الخاصة بالقرآن ضرورية كقواعد النحو والمعاني

(1) فقيه ومصلح ديني ولد بقرية القلمون من نواحي طرابلس الشام عام 1865 م ونشأ وتعلم بها، ثم انتقل إلى طرابلس والتحق فيها بالمدرسة الوطنية الإسلامية وتوفّر على علوم اللغة والقرآن والفقه، وبدأت عنده نزعة إلى التصوف ورغبة مبكرة للعمل في ميدان الوعظ والإصلاح وتأثر بتعاليم جمال الدين الأفغاني الإصلاحية وما كان ينشر منها في مجلة العروة الوثقى التي أصدرها الأفغاني بالاشتراك مع الشيخ محمد عبده في باريس. ارتحل محمد رشيد رضا إلى مصر واتصل بالإمام محمد عبده الذي أصبح أستاذاً له ورائداً له في منهجه الإصلاحية، وأصدر مجلة المنار وجعل الهدف منها نشر مباحث حول الإصلاحات الدينية والاجتماعية ومعاربة البدع وأسباب التخلف. تشمل مؤلفاته تفسير القرآن وضعه في ضوء منهج التفسير الذي اختطه الشيخ محمد عبده في دروسه بالأزهر، صدر منه اثنا عشر جزءاً فقط، وله كتاب (الوحي المحمدي) (وشبهات النصارى وحجج الإسلام) وغيرها. توفي بالقاهرة عام 1935 م. (القاموس الإسلامي 2: 537).

وكذلك معرفة الكون وسنن الله تعالى فيه، كل ذلك يعين على فهم القرآن
- اه-⁽¹⁾.

الشيخ محمود شلتوت وموقفه من التفسير العلمي

من المعارضين للتفسير العلمي والقائلين بوجوب ابعاد القرآن عن تعريضه
للنظريات العلمية الشيخ محمود شلتوت، أحد شيوخ الأزهر السابقين⁽²⁾.

فهو يتناول هذه القضية بالبيان في مقدمة تفسيره لبعض سور وآيات
القرآن⁽³⁾، حيث تحدث عن ناحيتين يجب تنزيه التفسير عنهما وهما:

1 - ناحية استخدام آيات القرآن لتأييد الفرق والخلافات المذهبية.

2 - وناحية استنباط العلوم الكونية والمعارف النظرية الحديثة منه.

ويمهد للكلام على ذلك بقوله:

وإذا كان المسلمون قد تلقوا كتاب الله بهذه العناية واشتغلوا به على هذا
النحو الذي أفادت منه العلوم والفنون، فإن هناك - مع الأسف الشديد - ناحيتين
كان من الخير أن يظل القرآن بعيداً عنها احتفاظاً بقديسيته وجلاله، هاتان
الناحيتان هما: ناحية استخدام آيات القرآن لتأييد الفرق والخلافات المذهبية،
وناحية استنباط العلوم الكونية والمعارف النظرية الحديثة منه. وأحب أن أثبت هنا
- بين يدي ما سأكتبه من التفسير - رأيي في هاتين الناحيتين واضحاً فأقول:

(1) تفسير المنار، ط 1954 م، 7:1 - المقدمة.

(2) محمود شلتوت، فقيه ومصلح ولد عام 1893، حفظ القرآن وتعلم مبادئ اللغة بقرنته ثم درس في
الأزهر وعمل به مدرساً، وكان من جماعة كبار العلماء وعضواً بالمجمع اللغوي، وفي عام 1957 م
عين وكيلاً للجامع الأزهر ثم عين شيخاً للأزهر في السنة التي تليها. يجارب الجمود والعصية
المذهبية، وتشمل مؤلفاته فقه القرآن والسنة وتفسير القرآن ومقارنة المذاهب، والإسلام عقيدة
وشرعة، والفناوى، وتنظيم العلاقات الدولية في الإسلام. توفي في يناير 1964.

(3) وكان - رحمه الله - قد تناولها قبل ذلك بالبحث في العدد 407، 408 من السنة التاسعة لمجلة
الرسالة سنة 1941 م.

تأويل القرآن وفق المذاهب، وهذه هي الناحية الأولى. وبعد أن بين رأيه فيها بوضوح قال:

وأما الناحية الثانية فإن طائفة أخرى هي طائفة المثقفين الذين أخذوا بطرف من العلم الحديث وتلقنوا أو تلقفوا شيئاً من النظريات العلمية والفلسفية والصحية وغيرها أخذوا يستندون إلى ثقافتهم الحديثة ويفسرون آيات القرآن على مقتضاها، نظروا في القرآن فوجدوا الله سبحانه وتعالى يقول: ﴿ما فرطنا في الكتاب من شيء﴾⁽¹⁾ فتأولوها على نحورين لهم أن يفتحوا في القرآن فتحاً جديداً ففسروه على أساس من النظريات العلمية المستحدثة وطبقوا آياته على ما وقعوا عليه من قواعد العلوم الكونية، وظنوا أنهم بذلك يخدمون القرآن ويرفعون من شأن الإسلام ويدعون له أبلغ دعاية في الأوساط العلمية والثقافية.

نظروا في القرآن على هذا الأساس فأفسد ذلك عليهم أمر علاقتهم بالقرآن وأفضى بهم إلى صور من التفكير لا يريدها القرآن، ولا تتفق مع الغرض الذي من أجله أنزله الله، فإذا مرت بهم آية فيها ذكر للمطر أو وصف للسحاب، أو حديث عن الرعد أو البرق تهللوا واستبشروا وقالوا: هذا هو القرآن يتحدث إلى العلماء الكونيين ويصف لهم أحدث النظريات العلمية عن المطر والسحاب، وكيف نشأ وكيف تسوقه الرياح. وإذا رأوا القرآن يذكر الجبال أو يتحدث عن النبات والحيوان وما خلق الله من شيء قالوا: هذا حديث القرآن عن علوم الطبيعة وأسرار الطبيعة. وإذا رأوه يتحدث عن الشمس والقمر والكواكب والنجوم قالوا: هذا حديث يثبت لعلماء الهيئة والفلكيين أن القرآن كتاب علمي دقيق.

ثم ينحوب باللائمة على من فسر بعض الآيات القرآنية تفسيراً علمياً لا يتفق مع سبب النزول ولا مع سياق الآية أو سباقها فيقول:

«ومن عجيب ما رأينا من هذا النوع أن يفسر بعض الناظرين في القرآن قوله تعالى: ﴿فارتقب يوم تأتي السماء بدخان مبين يغشى الناس هذا عذاب اليم﴾⁽²⁾ بما

(1) سورة الأنعام، الآية 38.

(2) سورة الدخان، الآيتان 10، 11.

ظهر في هذا العصر من الغازات السامة والغازات الخائفة التي أنتجها العقل البشري فيما أنتج من وسائل التخريب والتدمير، يفسرون الآية بهذا ويغفلون عن قوله تعالى: ﴿ربنا اكشف عنا العذاب إنا مؤمنون﴾ * أن لهم الذكرى وقد جاءهم رسول مبين، ثم تولوا عنه وقالوا معلم مجنون⁽¹⁾.

وأغرب من هذا وأعجب أن يفسر بعض هؤلاء المفسرين الحديثين شأنًا غيبياً من شؤون الله الخاصة ولم ينزل بتفصيله وحي ولم يطلع الله على حقيقته أحداً من خلقه ببعض الظواهر الحاضرة التي اكتشفها العلم واهتدى إليها بنو الإنسان. يفسر (الكتاب المبين) و (الإمام المبين) الذي نخصي فيه الحسنات والسيئات وتعرض على أصحابها يوم القيامة بالتسجيل الهوائي للأصوات ويقول:

أظهر العلم الحديث ذلك بالمخترعات البشرية واستخدمه الإنسان فيما يختص بالأصوات، ولا يبعد أن يستخدمه فيما يختص بحفظ الحركات والسكنات والخواطر النفسية. والله القادر خلق الكون على هذه السنن لغاية أسمى من ذلك هي محاسبة الناس يوم القيامة وعرض أعمالهم عليهم كشریط مسجل يضم جميع حركات الناس وسكناتهم وخواطرهم وأقوالهم وما قدموا من عمل.

يقولون هذا ويفسرون به قوله تعالى: ﴿علمها عند ربّي في كتاب لا يضل ربّي ولا ينسى﴾⁽²⁾. وقوله تعالى: ﴿وكل إنسان ألزمناه طائره في عنقه ونخرج له يوم القيامة كتاباً يلقاه منشوراً﴾⁽³⁾، ويهجمون على الغيب بما لم يأذن به الله. ومجدون من العلماء من يؤيدهم ويشجعهم ويذكّهم ويتمنى أن يكثر الله من أمثالهم.

ثم يبين جوانب الخطأ في هذا التفسير فيقول:

«هذه النظرة للقرآن خاطئة من غير شك، لأن الله تعالى لم ينزل القرآن ليكون كتاباً يتحدث فيه إلى الناس عن نظريات العلوم ودقائق الفنون وأنواع

(1) سورة الدخان، الآيات 12 - 14.

(2) سورة طه، الآية 51.

(3) سورة الإسراء، الآية 13.

المعارف . وهي خاطئة من غير شك لأنها تحمل أصحابها والمفسرين بها على تأويل القرآن تأويلاً متكلفاً يتنافى مع الإعجاز ولا يسيغه الذوق السليم . وهي خاطئة لأنها تعرض القرآن للدوران مع مسائل العلوم في كل زمان ومكان . والعلوم لا تعرف الثبات ولا القرار ولا الرأي الأخير، فقد يصح اليوم في نظر العلم ما يصبح غداً من الخرافات ، فلو طبقنا القرآن على هذه المسائل العلمية المتقلبة لعرضناه للتقلب معها وتحمل تبعات الخطأ فيها ولأوقعنا أنفسنا بذلك موقفاً حرجاً في الدفاع عنه .

ثم يختم حديثه قائلاً :

«فلندع للقرآن عظمته وجلاله ونحفظ عليه قدسيته ومهابته، ولنعلم أن ما تضمنه من الإشارة إلى أسرار الخلق وظواهر الطبيعة إنما هو لقصد الحث على التأمل والبحث والنظر ليزداد الناس إيماناً مع إيمانهم . وحسبنا أن القرآن لم يصادم ولن يصادم حقيقة من حقائق العلوم تطمئن إليها العقول .

قيل يا رسول الله : ما بال الهلال يبدو دقيقاً مثل الخيط ثم يزيد حتى يعظم ويستوي ويستدير، ثم لا يزال ينقص ويدق حتى يعود كما كان لا يكون على حالة واحدة؟ فنزل قوله تعالى : ﴿يسألونك عن الأهلة قل هي مواقيت للناس والحج وليس البر بأن تأتوا البيوت من ظهورها ولكن البر من اتقى وأتوا البيوت من أبوابها﴾⁽¹⁾ . وإنك لتجد هذا في سؤالهم عن الروح حيث يقول الله تعالى : ﴿يسألونك عن الروح قل الروح من أمر ربي وما أوتيتم من العلم إلا قليلاً﴾⁽²⁾ . أليس في هذا دلالة واضحة على أن القرآن ليس كتاباً يريد الله به شرح حقائق الكون، وإنما هو كتاب هداية وإصلاح وتشريع ؟ - اهـ⁽³⁾ .

الأستاذ أمين الخولي(*) وموقفه من التفسير العلمي

الأستاذ أمين الخولي كان شديد الإعجاب بالإمام محمد عبده فتأثر به وسلك

(1) سورة البقرة، الآية 189 .

(2) سورة الإسراء، الآية 85 .

(3) تفسير الكريم، الأجزاء العشرة الأولى، ط 5، 1973 م، المقدمة ص 11 - 14 .

(*) أمين الخولي : شخصية جمعت بين الاتصال بالحضارة الغربية ومناهجها في الدراسة وبين الدراسة =

سبيله في الدعوة إلى تجديد حياة التفسير القرآني، وكان الشعار الذي اتخذته لنفسه في حركة التجديد هو (أول التجديد قتل القديم فيها).

وفي كتابه (التفسير - معالم حياته - منهجه اليوم) نجد دراسة تحليلية للإتجاه العلمي في التفسير، فيعرف التفسير العلمي بأنه «التفسير الذي يحكم الإصطلاحات العلمية في عبارة القرآن ويبحث في استخراج مختلف العلوم والآراء الفلسفية منها».

وعضي قائلاً:

وقد وقع ذلك على رغم ما قرر في ميادين علمية إسلامية مختلفة من قواعد فهم عبارة القرآن، واتسع القول في احتواء القرآن جمل العلوم جميعاً. فشمل إلى جانب العلوم الدينية - اعتقادية وعملية وظاهرة وخفية - سائر علوم الدنيا. ويذكر أمين الخولي أن هذه النزعة استمرت وأصبحت فيما يبدو وجهاً من تعليل إعجاز القرآن أو بيان صلاحية الإسلام للحياة.

وإذا كان هذا التفسير قد ظهر في مثل محاولة الفخر الرازي ضمن تفسيره للقرآن، فقد وجدت بعد ذلك كتب مستقلة في استخراج العلوم من القرآن وتتبع الآيات الخاصة بمختلف العلوم. وراجت هذه الفكرة في العصر المتأخر فأخرجت لنا مثل كتاب (كشف الأسرار النورانية القرآنية فيما يتعلق بالأجرام السماوية

= الدينية والعربية. فقد تخرج في مدرسة القضاء الشرعي عام 1920 م ثم ارتحل إلى أوروبا فقرأ كثيراً من الأدب الغربية، كما ألم بحركة الإشتراق ومناهج أصحابها في الدراسة، وما كاد يستقر به الأمر أستاذاً في الجامعة المصرية حتى تولى تدريس البلاغة العربية والتفسير ثم الأدب المصري. وكان عضواً لمجمع اللغة العربية وله جهود في مجالات البحث والتفكير الإسلامي، إلى جانب مجالات عديدة في الأدب واللغة. وقد أبان عن منهجه في التجديد فيما كتبه تعليقاً على مادة (تفسير) في دائرة المعارف الإسلامية، وقد دعا إلى دراسة النص القرآني موضوعات بحيث تجمع الآيات المتعلقة بموضوع واحد ثم تدرس وتفسر مع ملاحظة الحسن القرآني في استعمال المادة الواحدة، ولم يترك الرجل عملاً كاملاً في التفسير سوى مجموعة أحاديث سبأها (من المهدي القرآني) غير أن الذين تولوا هذه الطريقة من بعده حاولوا أن يفسروا بعض السور القصار متأثرين بمنهجه، وسماوا ذلك بالتفسير البياني للقرآن. وقد توفي عام 1965 م. (أنظر دراسات في القرآن للدكتور السيد أحمد خليل، ط دار المعارف 1971 م، ص 145.

والأرضية والحيوانية والنباتات والجواهر المعدنية).

ويمضي الأستاذ أمين الخولي منكرًا هذا الاتجاه العلمي في تفسير القرآن معتمداً على أقوال الإمام الشاطبي وأدلته، ومضيفاً إليها أخرى جديدة من عنده ومن عند بعض المحدثين فيقول:

إذا كان الاتجاه إلى التفسير العلمي قديماً، وكانت العناية به أكثر نوعاً ما في العصر المتأخر فإن المخالفة في صحة هذا التفسير قديمة أيضاً، ولعله اليوم أقل رواجاً عند المثقفين. فأما المخالفة القديمة فيه فهي ما يبيده الأصولي الأندلسي أبو إسحاق إبراهيم بن موسى الشاطبي المتوفى سنة 790 هـ في كتابه (الموافقات) في أثناء أبحاثه عن القرآن، إذ تكلم أولاً عن أن هذه الشريعة المباركة أُمِية لأن أهلها كذلك. . . . وبعد أن بين رأي الشاطبي وأدلته على ما ذهب إليه قال:

«وإذا كان هذا هو الرأي القديم العهد في فهم القرآن فهماً يجعله مصدر العلوم المختلفة ويأخذ كلمه باصطلاحات حادثة بعده بأزمة غير قصيرة، فإنك لتضم إلى هذا البيان من النظرات الحديثة ما يؤيده ويعززه، فمنها:

1 - الناحية اللغوية في حياة الألفاظ وتدرج دلالتها لو ملكنا منها ما لا بد لنا أن نملكه في تحديد هذا التدرج وتاريخ ظهور المعاني المختلفة للكلمة الواحدة، وعهد استعمالها فيها لوجدنا من ذلك ما يحول بيننا وبين هذا التوسع العجيب في فهم ألفاظ القرآن وجعلها تدل على معان وإطلاقات لم تعرف لها ولم تستعمل فيها، أو إن كانت تلك الألفاظ قد استعملت في شيء منها فباصطلاح حاد في الملة بعد نزول القرآن بأجيال.

2 - الناحية الأدبية أو البلاغية - إن شئت - والبلاغة فيما يقال؛ مطابقة الكلام لمقتضى الحال، فهل كان القرآن على هذا النحو المتوسع من التفسير العلمي كلاماً يوجه إلى من خطب به من الناس في ذلك العهد مراداً به تلك المعاني المذكورة، مع أنها معان من العلم لم تعرفها الدنيا إلا بعد ما تجاوزت آماداً فسيحة، وجاهدت جهاداً طويلاً ارتقى به عقلها وعلمها؟! . وهب هذه المعاني العلمية المدعاة كانت هي المعاني المرادة بالقرآن، فهل فهمها أهل العربية منه إذ

ذاك وأدركوها؟! وإذا كانوا قد فهموها فما لنهضتهم العلمية في علوم الحياة المختلفة لم تبدأ بظهور⁽¹⁾ القرآن ولم تقم على هذه الآيات الشارحة لمختلف نظريات العلوم المفهومة لدقائقها.

وإذا كانت لم تفهم منها ولم يدركها أصحاب اللغة الخالص من عبارتها - كما هو الواقع فعلاً - فكيف تكون معاني القرآن المرادة؟ وكيف تكون تلك الألفاظ مفهومة لها؟ وهل هذه هي المطابقة لمقتضى الحال؟

وأمام هذه الاستفهامات الكثيرة التي أتى بها الأستاذ أمين الخولي ننبه إلى أمر ربما يكون مفيداً في هذا الخصوص، وهو أن من خصائص الأسلوب القرآني التي لا توجد في غيره من الكلام أن ألفاظه مصوغة بحيث تصلح أن يخاطب بها الناس كلهم على اختلاف مداركهم وثقافتهم وعلى تباعد أزمتههم وبلدانهم، ومع تطور علومهم واكتشافاتهم، فالآية الواحدة فهم منها المسلمون الأولون المعنى المراد كما كان في عصرهم، ويفهم منها من جاء بعدهم كما تطور في زمنهم، على أن كلا الفهمين من المدلولات القريبة للآية وليس من قبيل التكلف أو تحميل اللفظ ما لا يحتمل، ولكن الفهم الثاني كان مطوياً عن السابقين لعدم وجود ما يفهم به إذ ذاك، وليس معنى ذلك - أيضاً - أن الآية تحتمل وجهين متناقضين أو فهمين متعارضين كلا بل هو معنى واحد، ولكن له أبعاداً يتضمنها جميعاً أسلوب الآية⁽²⁾.

كما أن الأسلوب الذي جاء التعبير به في القرآن الكريم عن آيات الله الكونية أسلوب جمع بين البيان والإجمال في آن واحد بحيث يمرّ النظم الكريم على سامعيه في كل جيل وقبيل فإذا هو فيما سبق له من دلالة الإنسان وهدايته إلى الله، ثم إذا هو مجمل التفاصيل يختلف الخلق في معرفة تفاريعه ودقائقه باختلاف ما لديهم من مواهب ووسائل وعلوم وفنون⁽³⁾.

(1) انظر ما لاحظناه على هذا التعبير، وأن الأولى التعبير بنزول القرآن ص 202 من هذا البحث.

(2) انظر كتاب من روائع القرآن للدكتور محمد سعيد البوطي ص 136 وما بعدها ففيه أمثلة كثيرة في هذا الخصوص.

(3) مناهل العرفان في علوم القرآن 2: 251-252.

3- وهناك الناحية الدينية - أو الاعتقادية - وهي التي تبين مهمة كتاب الدين - وهل هو كتاب يتحدث إلى عقول الناس وقواهم العاملة عن مشكلات الكون وحقائق الوجود العلمية . وكيف يسير ذلك حياتهم ويكون أصلاً ثابتاً لهم تختم به الرسائل المساوية، كما هو الشأن في القرآن، مع أن هؤلاء المتدينين لا يقفون من معرفة هذه الحقائق عند غاية محدودة ولا يتتهون منها عند مدى ما، فكيف تؤخذ جوامع الطب والفلك والهندسة والكيمياء من القرآن وهي جوامع لا يضبطها اليوم أحد الا تغير ضبطه لها بعد يسير من الزمن أو كثير، وما ضبطه منها القدماء قد تغير عليهم فيما مضى، ثم تغير تغيراً عظيماً فيما تلا.

ثم يخلص الأستاذ الخولي إلى القول؛ بأن الحق المبين أن كتاب الدين لا يعني بهذا من حياة الناس ولا يتولاه بالبيان ولا يكفيهم مثنوته حتى يلتمسوه عنده ويعدوه مصدراً فيه . ثم يقول:

وأما ما اتجهت إليه النوايا الطيبة من جعل الإرتباط بين كتاب الدين والحقائق العلمية المختلفة ناحية من نواحي بيان صدقه أو إعجازه أو صلاحيته للبقاء... الخ . فربما كان ضرره أكثر من نفعه، على أنه إن كان لا بد لأصحاب هذه النوايا ومن لف لفهم من أن يتجهوا إليه ليدفعوا مناقضة الدين للعلم فلعله يكفي في هذا وفي ألا يكون في كتاب الدين نص صريح يصادم حقيقة علمية يكشف البحث أنها من نواميس الكون ونظم وجوده، وحسب كتاب الدين بهذا القدر صلاحية للحياة ومسايرة للعلم وخلاصاً من النقد.

على أني حين أسمع بهذا القدر في سبيل إرضاء رغبات هؤلاء الطبيي النية لا أنسى أن أذكرهم بأن التناول الفني لحقائق الكون ومشاهده هو التناول الذي يقصد به الدين رياضة وجدانات الناس ويوجهه لعامتهم وخاصتهم وعلمائهم وأنصاف علمائهم بل لجهلائهم - أيضاً -، كما هي مهمة الدين والغاية من تلاوة كتابه بينهم جميعاً، وهذا التناول إنما يقوم على المشهور البادي من ناحية روعته في النفس ووقعه على الحواس وانفعال الناس به لا من ناحية دقائق قوانينه ومنضبط نواميسه في معادلات جبرية أو أرقام حسابية أو بيان جاف لخصائصه وحقائقه.

وبقيام هذا التناول على المشاهد والمدرک بادي الرأي والمؤثر في النفس المثير للإنفعال لا يجب الوفاء فيه بحماية الحقائق العلمية والخصائص المجربة لهذه العوالم الموصوفة والمناظر التي لا يراد من تناولها إلا إثارة الشعور بجلالها وجمالها ودلالاتها على عظمة القوة المدبرة لها المحققة لنظامها، ولو التزم في شيء من هذا تصحيح المقررات العلمية لأخل هذا الإلتزام كثيراً بالأهداف الفنية الوجدانية التي يريد الدين تحقيقها ونفع الحياة بها عن طريق التأمل المتدين والإعتبار النفسي العاطفي المريح قبل كل شيء آخر.

ومن هنا قد يبدو في تعبير القرآن ما يظهر متعارضاً مع شيء من المقررات العلمية وإن أمكن التوفيق بينهما، ولا أحسب أن عليه بأساً بشيء من هذا ولا فيه ضير. فخير لأصحاب هذه الرغبات الذين يبنون الصدق والإعجاز أو الصلاحية لكتاب الدين بهذا النحو من التفسير العلمي خير لهم أن يقدرُوا مثل هذا الإعتبار، فلا يتكلفون ما يتكلفون من ربط الكتاب بالعلم.

على أنهم إن كانوا لا بد فاعلين فحسبهم - كما تقدم - ألا يكون في القرآن نص صريح يصادم حقيقة علمية دون أن يمكن التوفيق بينه وبينها - اهـ -⁽¹⁾.

الأستاذ عباس محمود العقاد (*) وموقفه من التفسير العلمي

الأستاذ عباس العقاد يجيب في كتابه (الفلسفة القرآنية) عن سؤال وجه إليه من طالب من طلاب العلم والمشتغلين بالدراسات الدينية بشأن رأيه في التفسير العلمي الذي يذهب إليه طائفة من المفسرين. وعن سؤال آخر من طالب بكلية الطب عن تفسير قوله تعالى: ﴿فلما رأوه عارضاً مستقبل أوديتهم قالوا هذا عارض ممطرتنا بل هو ما استعجلتم به ريح فيها عذاب أليم تدمر كل شيء بأمر ربها

(1) التفسير - معالم حياته - منهجه اليوم، ط جماعة الكتاب 1944م ص 19-27. وقارن بمنهج تبهديد، ط دار المعرفة ص 287-296.

(*) الأستاذ عباس محمود العقاد مفكر وكاتب وشاعر كبير. له أكثر من ثمانين كتاباً في مختلف الدراسات الأدبية والإسلامية، كما ترجم لعدد من أعلام الإسلام وفق منهج يختلف عن مناهج المؤرخين. كان عضواً بالجامع اللغوية في القاهرة ودمشق وبغداد. توفي سنة 1964م. عن كتاب (منهج البحث في العلوم الإسلامية) د. محمد الدسوقي ص 207 هامش.

فأصبحوا لا ترى إلا مساكنهم كذلك نجزي القوم المجرمين⁽¹⁾.

ويقول صاحب السؤال: «أليس من الممكن أن نعتبر هذه الآية الشريفة إشارة مبكرة من القرآن الكريم إلى القذيفة الذرية، ودليلاً قاطعاً على سبق القرآن العلمي الذي أمكن إثباته في مواضع كثيرة»⁽²⁾؟.

وبعد أن يعبر الاستاذ العقاد عن اغتباطه بهذه الاسئلة وأمثالها، لأنها تدل - كما يقول -: على بحث الشباب المتعلم في أمور عقيدته وحرصه على الفهم المستقل أنفة من التقليد أو التسليم بغير دليل، وأن الاسئلة من هذا القبيل ليست بالامر الجديد في العالم الإسلامي، يقول:

«إن الامر الذي لا محل فيه للخلاف أن الإنسان العصري مطالب بفهم كتبه المقدسة وفهم ما توجهه على ضميره من الفرائض والشعائر والواجبات، ولكن هل معنى هذا أن الكتب المقدسة لا تفهم إلا كما فهمها المخاطبون بها لأول مرة؟ أو معناه أنها تفهم في كل عصر على حسب النظريات العلمية التي انتهت إليها أبنائهم؟

لا هذا ولا ذاك فيما نعتقد هو الفهم المطلوب من المكلف المخاطب بالكتاب. فإن المسلم مأمور في القرآن بالتفكير والتأمل والتدبر، والاستقلال بذلك عن الآباء والأجداد وأخبار الزمن القديم وأئمة الدين فيه.

وليس الخطاب مقصوراً على العرب الأميين ولا هو بمقصود على أبناء القرن العشرين، ولكنه عام مطلق لكل عصر ولكل مكان، إذ ليس من المعقول أن يفكر الإنسان على نسق واحد في جميع العصور. إننا مطالبون بأن نفهم القرآن الكريم في عصرنا كما كان يفهمه العرب الذين حضروا الدعوة المحمدية لو أنهم ولدوا معنا وتعلموا ما تعلمناه وعرفوا ما عرفناه، واعتبروا بما نعتبره من حوادث الحاضر وحوادث التاريخ منذ الدعوة المحمدية إلى اليوم.

ولكن التفكير العصري شيء وإقرار النظريات العلمية المتجددة شيء

(1) سورة الأحقاف، الآية 24.

(2) الفلسفة القرآنية، ط دار الهلال، 1966م، ص 179.

آخر. . . فينبغي أن نستفيد من النظريات العلمية دون أن نقحمها على القرآن الكريم أو نعتبر أن القرآن الكريم مطالب بموافقتها كلما تغيرت من زمن إلى زمن ومن تفكير إلى تفكير. ولهذا كان من الخطأ أن نقرر أن القرآن الكريم يؤيد النظرية السديمية في نشأة المنظومة الشمسية أو نشأة الكواكب عموماً من دخان المجرة المشهودة أو دخان المجرات الأخرى التي لا ترى بالعين ولا بالمنظير.

فقد تعاقبت النظريات منذ أيام العالم الطبيعي (بوفون) إلى اليوم عن نشأة المنظومة الشمسية ولم تزل ينقض بعضها بعضاً حتى الساعة. هل نشأت المنظومة الشمسية من الإصطدام بمذنب عابر في الفضاء؟ هل نشأت من التقاء شمسين متعارضتين؟ هل نشأت من انفجار الشمس نفسها وتطاير أجزائها ثم عودتها إلى فلكها بفعل الجاذبية؟ هل نشأت من تجمع السديم وجوده؟

كل أولئك آراء يقول بها بعض العلماء ولا يستقر منها رأى واحد إلى قرار، ومن شاء فليفهم أن النظرية السديمية هي النظرية الدخانية على وجه من الوجوه، ولكن ليس له أن يجعل رأيه هذا عقيدة من العقائد القرآنية التي يكفر بالدين من يعارضه فيها، وليس له أن ينفيها بغير حجة قاطعة من القرآن الكريم.

وكل ما يجب على المسلم أن يؤمن به أن كتابه الإلهي يأمر بالبحث والتفكير ولا ينهيه عنه، ولا يصده عن النظر والتأمل في مباحث الوجود وأسرار الطبيعة وخفايا المجهول كيفما كان، ولكنه لا يأمره بالتهاون بالتوفيق بين نصوصه وبين نظريات العلوم كلما ظهرت منها نظرية بعد نظرية يحسبها العلماء ثابتة مقررة وهي عرضة بعد قليل للنقض أو التعديل، بل لا يأمره الكتاب بالتوفيق بين الكيفيات التي يفهمها العلم والكيفيات التي يقدرها العقل لفهم المسائل الكونية في بدائها الأولى ونهايتها الأخيرة بين طوايا الغيب المجهول، لن يفهم منه أنه يوم من أيام عمر الإنسان قبل أن يوجد، وقبل أن توجد الأرض التي خلق عليها الإنسان.

فنحن مطالبون بأن نفهم القرآن الكريم، ومطالبون بأن نفكر وأن نستفيد لأفكارنا من علوم العصر الذي نعيش فيه، ولكننا لا نطالب في عصر من العصور بأن نعلق إيماننا بتفسير النظريات العلمية، وهي لا تستقر عسراً واحداً على تفسير

غير قابل للنقض أو للتعديل والتحوير»⁽¹⁾.

ويقول الأستاذ العقاد في خاتمة الكتاب :

«ولم نشأ أن نستدل على قداسة القرآن بما ظهر من نظريات العلم الحديث، إذ القرآن لا حاجة به إلى مثل هذا الإدعاء، لأنه كتاب عقيدة يخاطب الضمير، وخير ما يطلب من كتاب العقيدة في مجال العلم أن يحث على التفكير، ولا يتضمن حكماً من الأحكام يشل حركة العقل في تفكيره أو يحول بينه وبين الاستزادة من العلوم حيثما استطاع.

ومن الخطأ أن نتلقى كل نظرية علمية كأنها حقيقة دائمة نحملها على معاني القرآن، لأن النظريات العلمية لا تثبت على قرار بين جيل وجيل - اهـ -»⁽²⁾.

الأستاذ محمد عزة دروزة والتفسير العلمي:

الأستاذ محمد عزة دروزة⁽³⁾ صاحب (التفسير الحديث) ألف كتاباً كمقدمة لهذا التفسير بعنوان (القرآن المجيد) وفيه يعقد فصلاً يتحدث فيه عن كتب المفسرين ومناهجهم. ومما يأخذه على المفسرين أن بعضهم يحاول استنباط النواميس العلمية والفنية واستخراج الأفلاك والمطر وأطوار النشوء وغو الأحياء وانفتاح الأرض والسماء والذرة والكهرباء. الخ من بعض الآيات القرآنية. أو يحاولون تطبيق النظريات العلمية والفنية المتصلة بنواميس الكون والتكوين والشمس والقمر، والسماء والأرض والحياة والكهرباء والبرق والرعد على بعض الآيات القرآنية ليدللوا على احتواء القرآن أسس هذه النظريات أو نواتها مما أخذ يستفيض في الكتب والمجلات بل والصحف منذ أواخر القرن السابق. وتفسير

(1) الفلسفة القرآنية، ص 184.

(2) الفلسفة القرآنية ص 188.

(3) هو الأستاذ محمد عزة دروزة النابلسي الفلسطيني، المولود سنة 1888 م صاحب التفسير الحديث. وهو يقع في اثني عشر جزءاً. والصور القرآنية فيه مرتبة على حسب النزول. وللأستاذ دروزة عدة كتب أخرى منها: عصر النبي ﷺ وسير النبي ﷺ من القرآن، والدستور القرآني في شؤون الحياة، والقرآن المجيد، وهو بمثابة مقدمة لتفسيره المذكور.

الجواهر للشيخ طنطاوي جوهرى الذي صدر في أوائل القرن الحاضر مثال عجيب لهذه المحاولات والتطبيقات⁽¹⁾.

ثم بين جوانب الخطأ - في نظره - لهذا الاتجاه أو الولع - كما يسميه - فقال : «والثغرة في هذا هو ما يفيد ويؤهم هذا الولع من أن ما ورد في القرآن من الإشارات والتنبيهات والتعابير مقصود لذاته وماهياته وما يؤدي هذا إليه من صرف هذه الإشارات والتنبيهات والتعابير عن هدفها الوعظي والتدعيمي للدعوة أولاً. ومن إخراج محتويات القرآن في نطاق هذا الهدف وقديسته إلى نطاق الجدل والبحث والنفي والإثبات في حقائق النظريات العلمية والفنية الكونية، وما تتعرض له هذه النظريات من تبدل وتطور وجدل ثانياً.

في حين أن تلك التمحلات قائمة على الظن والتخمين، ومنها ما هو متهافت جداً من جهة، وأن أسلوب الآيات القرآنية - من جهة أخرى - واضح الدلة على اقتصار ما احتوته على الهدف المذكور وعدم استهدافه التقارير العلمية والفنية في ماهية الخلق والتكوين ونواميسها، حيث هو أسلوب خطابي موجه إلى مختلف طبقات الناس بقصد إيقاظ ضمائرهم ولفت أنظارهم إلى ما يقع تحت مشاهداتهم من مشاهد الكون العظيمة، وما يروونه من مظاهر نواميسه، وما يتمتعون به من مختلف تلك المشاهد وهذه النواميس في مختلف حياتهم على الوجه الذي يفهمونه منها، وتمتلىء أذهانهم بها. وبقطع النظر عن ماهياتها لذاتها. والتدليل بهذا الأسلوب العام الموجه إلى مختلف الطبقات على وجود الله وعظمته وقدرته وشمول حكمه وتصرفه ووحدته واستحقاقه وحده للخضوع والعبادة وصحة الدعوة إليه وواجب طاعته فيما يأمر وينهى بواسطة أنبيائه وتنزيله مما يستطيع أن يلمسه كل من أنعم النظر في الآيات القرآنية.

ثم ساق ما قاله الإمام الغزالي في كتابه (تهافت الفلاسفة) بصدد تقسيم مذاهب الفلاسفة، وأضاف إليه قوله :

«إن عظمة شأن القرآن هي في روحانيته القوية النافذة، وفي قوة هدايته

(1) القرآن المجيد، ط المكتبة العصرية، لبنان، بدون تاريخ، ص 248، 249.

الخالدة، وفيما احتواه من أسس ومبادئ ومثل عليا تستجيب لحاجات الإنسانية المتنوعة على كر الدهور وتنوع الظروف، وأن الواجب الأعظم هو التزام حدود هذه الأسس والمبادئ والمثل وتجليتها وإزالة كل ما يشوش عليها ويعرقل بروزها أو إهماله والإنصراف عنه - اهـ -⁽¹⁾.

وعند تفسيره لقوله تعالى: ﴿بلى قادرين على أن نسوي بنانه﴾ يقول: ولقد قرأنا مقالاً أراد كاتبه أن يجعل صلة بين اختصاص البنان بالذكر وبين ما ظهر حديثاً من علم بصمات الأصابع، وما صار له من خطورة في إثبات شخصيات الناس، وتمشياً مع الفكرة التي سادت بعض الناس من استخراج النظريات العلمية والفنية والكونية من الكلمات والآيات القرآنية للتدليل على صدق القرآن وإعجازه، ومعجزات الله المشار إليها فيه. وفي هذا - في اعتقادنا - تحميل لكلمات القرآن وآياته غير ما تحتمل، وإخراج له من نطاق قدسيته وغايته، وتعرض له للجدل والنقاش⁽²⁾.

ولقد نزل القرآن بلسان العرب على قوم يفهمونه، وأمر الله نبيه ﷺ بشرحه وتبيينه. والنظريات العلمية لم تكن معلومة ولا مكشوفة ولا يصح لمسلم - مهما حسنت نيته - أن يدعي أن النبي ﷺ لم يكن يعرف جميع ما تضمنته آيات القرآن، أو أن الله - عز وجل - أبقى الأسرار الكونية التي لم تكن مكشوفة ولا معلومة خافية عن النبي ﷺ⁽³⁾.

ويقول - أيضاً - في موضع آخر من تفسيره:

«ولا نريد أن نسلم بأن القرآن احتوى إشارات إلى أمور فنية وعلمية لم تكن

(1) القرآن المجيد، ط المكتبة العصرية، لبنان ص 248 - 251.

(2) في هذا النص الكريم بالذات لا أرى أن هناك تحميلاً لكلمات القرآن ما لا تحتمل، ولا إخراجاً للقرآن عن غايته، فهذا التفسير هو عبارة عن التماس الحكمة من وراء ذكر القرآن للبنان بالخصوص من بين سائر الأعضاء مع أن المناسبة بين السؤال والجواب كانت تقتضي أن يكون الجواب بلى قادرين على أن نسوي عظامه، فاختيار البنان من بين الأعضاء الأخرى الدقيقة لا بد أن يكون لحكمة قد تكون هذه الحكمة هي ما كشف عنه العلم الحديث.

(3) التفسير الحديث، ط عيسى الحلبي، 1962 م 7:2

معروفة ولا مدركة على حقيقتها من قبل النبي ﷺ وسامعي القرآن. ونرى أن هذا مما لا تتحمله أهداف القرآن ولا عباراته من جهة. وفيه إخراج له عن نطاقه الإرشادي إلى مجال البحث والنقد من جهة أخرى⁽¹⁾.

وعند تفسيره لقوله تعالى: ﴿وَأَيُّ لَهِمَّ اللَّيْلِ نَسْلَخُ مِنْهَا النَّهَارَ فَإِذَا هُم مَّظْلُمُونَ. وَالشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَهَا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ. وَالْقَمَرَ قَدَرْنَاهُ مَنَازِلَ حَتَّىٰ عَادَ كَالْعُرْجُونِ الْقَدِيمِ...﴾ الآيات⁽²⁾.
يعلق بقوله:

«ولقد جرى بعض المفسرين والباحثين قديماً وحديثاً على الوقوف عند هذه الآيات وأمثالها لاستنباط قواعد فنية كونية منها، أو تطبيق نظريات علمية عليها، وبخاصة في صدد حركات الشمس والقمر وتعاقب الليل والنهار، والإدلاء بآراء متنوعة هي أدخل في نطاق التكليف والتزبد بل والغلو أكثر منها في نطاق الحقيقة، في حين أن الآيات في مجموعها وأسلوبها وروحها تحمل الدليل على أن القصد منها هو لفت نظر الناس جميعاً بأسلوب يفهمونه إلى ما يشاهدونه من مظاهر قدرة الله وكونه، كما هو الشأن في جميع الآيات المماثلة، بقطع النظر عما أقام الله سبحانه الكون عليه من نواميس ونسب وقواعد دقيقة محكمة النظام مطردة السير والجريان.

ونحن نرى في مثل هذه المحاولات إخراجاً للقرآن الكريم عن هدفه الوعظي والتذكيري، وتعرضاً له للتعديل والجرح اللذين يرافقان عادة الأبحاث العلمية، على غير طائل ولا ضرورة⁽³⁾.

الشيخ محمد عبد العظيم الزرقاني

الشيخ محمد عبد العظيم الزرقاني مؤلف كتاب (مناهل العرفان في علوم

(1) المصدر السابق 44:2.

(2) سورة يس، الآيات 37 - 39.

(3) التفسير الحديث 222:2.

القرآن) الذي هو أوفى الكتب الحديثة في علوم القرآن وأدقها علماً وأوسعها باعاً. في المبحث السابع عشر الذي عقده لبيان إعجاز القرآن وما يتعلق به، وتحت عنوان (موقف القرآن من العلوم الكونية) يقول الشيخ الزرقاني: «إن القرآن كتاب هداية وإعجاز، وعلى هذا فلا يليق أن نتجاوز به حدود الهداية والإعجاز حتى إذا ذكر فيه شيء من الكونيات فإنما ذلك للهداية ودلالة الخلق على الخالق، ولا يقصد القرآن مطلقاً من ذكر هذه الكونيات أن يشرح حقيقة علمية في الهيئة والفلك أو الطبيعة والكيمياء، ولا أن يحل مسألة حسابية أو معادلة جبرية أو نظرية هندسية، ولا أن يزيد في علم الطب باباً ولا في علم التشريع فصلاً، ولا أن يتحدث عن علم الحيوان أو النبات أو طبقات الأرض... إلى غير ذلك».

ثم بين رأيه فيما يقوم به بعض العلماء من الربط بين حقائق القرآن وبين ما أثبتته العلم فقال:

«ولكن بعض الباحثين طاب لهم أن يتوسعوا في علوم القرآن ومعارفه فنظموا في سلكها ما بدا لهم من علوم الكون، وهم في ذلك مخطئون ومسرفون، وإن كانت نيتهم حسنة وشعورهم نبيلاً. ولكن النية أو الشعور مهما حسناً لا يسوغان أن يحكي الإنسان غير الواقع ويحمل كتاب الله على ما ليس من وظيفته خصوصاً بعد أن أعلن الكتاب نفسه هذه الوظيفة وحددها مرات كثيرة في مثل قوله تعالى: ﴿ذلك الكتاب لا ريب فيه هدى للمتقين﴾⁽¹⁾ وقوله: ﴿قد جاءكم من الله نور وكتاب مبين يهدي به الله من اتبع رضوانه سبل السلام...﴾ الآية⁽²⁾، وأيضاً إن عظمة القرآن لا تتوقف على أن نتحل له وظيفة جديدة ولا أن نحمله مهمة ما أنزل الله بها من سلطان. بالإضافة إلى أن القرآن قد دعا إلى هذه العلوم في جملة ما دعا إليه من البحث والنظر والانتفاع بما في الكون من نعم وعبر ﴿قل انظروا ماذا في السموات والأرض﴾⁽³⁾ ﴿وسخر لكم ما في السموات وما في الأرض جميعاً منه

(1) سورة البقرة، الآية 1.

(2) سورة المائدة، الآيتان 17، 18.

(3) سورة يونس، الآية 101.

إن في ذلك لآيات لقوم يتفكرون ﴿١﴾.

إن القرآن حين عرض لهذه الكونيات أشعرنا أنها مربية له تعالى ومقهورة لمراده، ونفى عنها ما علق بأذهان كثير من الضالين الذين توهموها آلهة وزعموها ذات سلطان وتأثير بينها هي خاضعة لقدرة الله وسلطانه ﴿إن الله يمسك السموات والأرض أن تزولا ولئن زالتا...﴾ الآية (٢).

كما أن القرآن حين يعرض لآية كونية في معرض الهداية يتحدث عنها حديث المحيط بعلوم الكون الخبير بأسرار السموات والأرض الذي لا تحفى عليه خافية... وذلك هو الذي بهر بعض المشتغلين بالعلوم الكونية وأوقع من أوقع منهم في الإسراف واعتبار هذه العلوم من علوم القرآن. وإن الأسلوب الذي اختاره القرآن في التعبير عن آيات الله الكونية أسلوب يجمع بين البيان والإجمال في آن واحد بحيث يمرّ النظم الكريم على سامعيه في كل جيل وقبيل فإذا هو واضح فيما سبق له من دلالة الإنسان وهدايته إلى الله، ثم إذا هو مجمل التفاصيل يختلف الخلق في معرفة تفاريحه ودقائقه باختلاف ما لديهم من مواهب ووسائل وعلوم وفنون (٣).

ثم ضرب لذلك مثلاً بالآية الحكيمة ﴿ومن كل شيء خلقنا زوجين لعلكم تذكرون﴾ (٤). فإنها مرّت على بني الإنسان منذ نزلت إلى الآن ففهموا منها جميعاً أن الله تعالى يدل على قدرته وإبداعه وكماله بأنه خلق من الأشياء متنوعات مختلفة الأشكال والخصائص. لكنهم اختلفوا بعد ذلك فالأوائل يؤثر عنهم أن الزوجين - في الآية الكريمة - هما الأمران المتقابلان تقابلاً مآ لا بخصوص الذكورة والأنوثة، روي عن الحسن أنه فسر الزوجين بالليل والنهار، والسماء والأرض، والشمس والقمر، والبر والبحر، والحياة والموت. وهكذا عدد أشياء وقال: كل اثنين منها زوج، والله تعالى فرد لا مثيل له.

(١) سورة الجاثية، الآية ١٢.

(٢) سورة فاطر، الآية ٤١.

(٣) مناهل العرفان في علوم القرآن، ط ٣ القاهرة ٢٥٢: ٢٥٢.

(٤) سورة الذاريات، الآية ٤٩.

أما المتأخرون ففهموا أن الزوجين في الآية هما الأمران المتقابلان بالذكر والأنوثة ويقولون: إنه ما من شيء في الوجود إلا منه الذكر والأنثى سواء في ذلك الإنسان والحيوان والجماد وغيرها مما لا نعلم، مستدلين على ذلك بقوله سبحانه: ﴿سبحان السذي خلق الأزواج كلها مما تنبت الأرض ومن أنفسهم ومما لا يعلمون﴾⁽¹⁾.

ويقولون: إن أحدث نظرية في أصول الأكوان تقرر أن أصول جميع الكائنات تتكون من زوجين اثنين⁽²⁾.

ثم قال الشيخ الزرقاني: ولا أحب أن نتوسع في هذا، فبين أيدينا أمثلة كثيرة ومؤلفات جمة تموج وتضطرب باستنباط علوم الكون من القرآن، أو بتفسير القرآن وشرحه بعلوم الكون مما لا نرى حاجة إليه، خصوصاً بعد أن تبين لنا أن العلوم الكونية خاضعة لطبيعة الجزر والمد، وأن أبحاثاً كثيرة لا تزال قلقة حائرة بين إثبات ونفي. فما قاله علماء الهيئة بالأمس ينقضه علماء الهيئة اليوم، وما قرره علماء الطبيعة في الماضي يقرر غيره علماء الطبيعة في الحاضر، وما أثبتته المؤرخون قديماً ينفيه المؤرخون حديثاً، وما أنكروه الماديون وأسرفوا في إنكاره باسم العلم أصبحوا يشتونه ويسرفون في إثباته باسم العلم أيضاً، إلى غير ذلك مما زعزع ثقتنا بما يسمونه العلم.

فهل يليق بعد ذلك أن نحاكم القرآن إلى هذه العلوم المادية القلقة بينما القرآن هو تلك الحقائق الإلهية القارة الثابتة.

إن القرآن لا يفر من وجه العلم ولكنه يدعو إليه ويقيم بناءه عليه وليس من الحكمة والإنصاف أن نحاكم المعارف العليا إلى المعارف الدنيا⁽³⁾.

ثم نقل عن الشيخ عبد العزيز جاورش قوله:

ليست مهمة القرآن - كسائر الكتب السماوية - البحث في الشؤون الكونية

(1) سورة يس، الآية 36.

(2) مناهل العرفان: 252:2.

(3) مناهل العرفان 253:2.

والمسائل العلمية والفنية على النحو المألوف في الكتب الخاصة الموضوعة فيها⁽¹⁾
- اهـ - ما أردنا نقله بتصرف يسير.

ولكن الشيخ الزرقاني يذهب في المبحث الأول من كتابه هذا إلى أن في القرآن إعجازاً علمياً حيث يقول:

إن القرآن الكريم في طريقة عرضه للهداية والإعجاز على الخلق قد حاكم الناس إلى عقولهم وفتح عيونهم إلى الكون وما في الكون من سماء وأرض وبر وبحر وحيوان ونبات وخصائص وظواهر ونواميس وسنن، وكان القرآن في طريقة عرضه هذه معجزاً كل الإعجاز، لأن حديثه عن تلك الكونيات كان حديث العليم بأسرارها الخبير بدقائقها المحيط بعلومها ومعارفها، على حين أن هذا الذي جاء بالقرآن رجل أمي نشأ في أمة أمية جاهلة لا صلة لها بتلك العلوم وتدوينها، ولا إلمام لها بكتبتها ومباحثها. فأن يكون لرجل أمي كمحمد ذلك السجل الجامع لتلك المعارف كلها إن لم يكن تلقاه من لدن حكيم عليم. قال تعالى - مقررأ هذا الإعجاز العلمي - : ﴿وما كنت تتلو من قبله من كتاب ولا تخطه يمينك إذأ لارتاب المبطلون﴾⁽²⁾.

ثم قال :

ولعل من الحكمة أن أسوق نموذجين من القرآن على سبيل التمثيل أولهما في سورة النور إذ يقول الله تعالى : ﴿لم تر أن الله يزجي سحاباً ثم يؤلف بينه ثم يجعله ركاماً فترى الودق يخرج من خلاله...﴾ الآية⁽³⁾، فهذا النص الكريم يتفق مع أحدث النظريات العلمية في الظواهر الطبيعية من سحب ومطر وبرق.

النموذج الثاني : يقول الله تعالى في سورة القيامة مبيناً ومقررأ كمال اقتداره على إعادة الإنسان وبعثه بعد موته : ﴿أيحسب الإنسان أن نرجعه عظامه بلى

(1) المصدر نفسه 2:254.

(2) سورة النكبات، الآية 48.

(3) سورة النور، الآية 42.

قادرين على أن نسوي بنانه ﴿⁽¹⁾﴾.

أرجو أن تقف قليلاً عند تخصيص (البنان) بالتسوية في هذا المقام . ثم تستمع بعد ذلك إلى علم تحقيق الشخصية في عصرنا الأخير وهو يقرر أن أدق شيء وأبدعه في بناء جسم الإنسان هو تسوية البنان ، حتى أنه لا يمكن أن نجد بناناً لأحد يشبه بنان آخر بحال من الأحوال . وقد انتهوا من هذا إلى أن حكّموا البنان في كثير من القضايا والحوادث ﴿فتبارك الله أحسن الخالقين﴾⁽²⁾⁽³⁾.

سيد قطب⁽⁴⁾ وموقفه من التفسير العلمي

سيد قطب له رأي في التفسير العلمي للقرآن ذكره في تفسيره (في ظلال القرآن) عند تفسير قوله تعالى : ﴿يسألونك عن الأهلة قل هي موافيت للناس والحج . . .﴾ الآية⁽⁵⁾ حيث قال : «إن الله حدثهم عن وظيفة الأهلة في واقعهم وفي حياتهم ، ولم يحدثهم عن الدورة الفلكية للقمر وكيف تتم ، وهي داخلية في مدلول السؤال : ما بال الهلال يبدو دقيقاً . . . الخ ؟ . كذلك لم يحدثهم عن وظيفة القمر في المجموعة الشمسية أو في توازن حركة الأجرام السماوية ، وهي داخلية في مضمون السؤال : لماذا خلق الله الأهلة ؟ .

فما هو الإيجاء الذي ينشئه هذا الاتجاه في الإجابة؟

يقول سيد قطب : «إن القرآن كان بصدد إنشاء تصور خاص ونظام خاص

(1) سورة القيامة ، الآيتان 3 ، 4 .

(2) سورة المؤمنون ، الآية 14 .

(3) أنظر مناهل العرفان 18:1 ، 19 .

(4) كاتب ومفكر إسلامي معاصر ولد سنة 1906 . تخرج في كلية العلوم بالقاهرة سنة 1933 م . اشتغل بالصحافة والتدريس . له عدة مؤلفات في النقد والأدب والتفسير والدراسات الإسلامية ، وتشمل مؤلفاته (مشاهد القيامة في القرآن) و (هذا الدين) ، والتصوير الفني في القرآن ، والعدالة الإجتماعية في القرآن ، وفي ظلال القرآن ، وهو تفسير يتميز بأن المؤلف اتخذ أسباب النزول منهجاً لدراسة ، يقع في نحو خمسة آلاف صفحة متوسطة . وله كذلك معالم الطريق . توفي بالقاهرة عام 1966 م . (القاموس الإسلامي 3: 589) .

(5) سورة البقرة ، الآية 189 .

ويعتبر خاص، والإجابة العلمية عن هذا السؤال ربما كانت تمنح السائلين علماً نظرياً في الفلك إذا هم استطاعوا بما كان لديهم من معلومات قليلة في ذلك الحين أن يستوعبوا هذا العلم. ولقد كان ذلك مشكوكاً فيه كل الشك، لأن العلم النظري من هذا الطراز في حاجة إلى مقدمات طويلة كانت تعد بالقياس إلى عقلية العالم كله في ذلك الزمان معضلات.

من هنا عدل عن الإجابة التي لم تنتهياً لها البشرية، ولا تفيدها كثيراً في المهمة الأولى التي جاء القرآن من أجلها، وليس مجالها على أية حال هو القرآن إذ القرآن قد جاء لما هو أكبر من تلك المعلومات الجزئية، ولم يجيء ليكون كتاب علم فلكي أو كيمائي أو طبي كما يحاول بعض المتحمسين له أن يلمسوا فيه هذه العلوم. أو كما يحاول بعض الطاعنين فيه أن يلمسوا مخالفاته لهذه العلوم. إن كلتا الحالتين دليل على سوء الإدراك لطبيعة هذا الكتاب ووظيفته ومجال عمله.

إن مجاله هو النفس الإنسانية والحياة الإنسانية، وإن وظيفته أن ينشئ تصوراً عاماً للوجود وارتباطه بخالقه، ولوضع الإنسان في هذا الوجود وارتباطه بربه، وأن يقيم على أساس هذا التصور نظاماً للحياة يسمح للإنسان أن يستخدم كل طاقاته، ومن بينها طاقته العقلية التي تقوم هي بعد تنشئتها على استقامته وإطلاق المجال لتعمل - بالبحث العلمي - في الحدود المتاحة للإنسان، وبالتجريب والتطبيق وتصل إلى ما تصل إليه من نتائج ليست نهائية ولا مطلقة بطبيعة الحال.

وبعد أن بين سيد قطب أغراض القرآن ومقاصده بهذا الإيجاز بين رأيه في أصحاب الاتجاه إلى التفسير العلمي فقال:

وإني لأعجب لسذاجة المتحمسين لهذا القرآن الذين يحاولون أن يضيفوا إليه ما ليس منه، وأن يحملوا عليه ما لم يقصد إليه وأن يستخرجوا منه جزئيات في علوم الطب والكيمياء والفلك وما إليها كأنما ليعظموه بهذا ويكبروه.

إن القرآن كتاب كامل في موضوعه، وموضوعه أضخم من تلك العلوم كلها، لأنه هو الإنسان ذاته الذي يكشف هذه المعلومات وينتفع بها. والبحث والتجريب والتطبيق من خواص العقل في الإنسان، والقرآن يعالج - بناء على

هذا - الإنسان نفسه، بناء شخصيته وضميره وعقله وتفكيره. كما يعالج بناء المجتمع الإنساني الذي يسمح لهذا الإنسان بأن يحسن استخدام هذه الطاقات المذخورة فيه. وبعد أن يوجد الإنسان السليم التصور والتفكير والشعور، ويوجد المجتمع الذي يسمح له بالنشاط، يتركه القرآن يبحث ويجرب ويخطئ ويصيب في مجال العلم والبحث والتجريب.

كذلك لا يجوز أن نعلق الحقائق النهائية التي يذكرها القرآن أحياناً عن الكون بفروض العقل البشري ونظرياته، ولا حتى بما نسميه (حقائق علمية) مما ينتهي إليه بطريق التجربة القاطعة في نظره.

إن الحقائق القرآنية حقائق نهائية قاطعة مطلقة. أما ما يصل إليه البحث الإنساني - أياً كانت الأدوات المتاحة له - بحكم المنهج الإنساني ذاته - أن نعلق الحقائق النهائية القرآنية بحقائق غير نهائية، وهي كل ما يصل إليه العلم البشري.

هذا بالقياس إلى الحقائق العلمية. والأمر أوضح بالقياس إلى النظريات والفروض التي تسمى علمية، ومن هذه النظريات والفروض كل النظريات الفلكية وكل النظريات الخاصة بنشأة الإنسان وأطواره، وكل النظريات الخاصة بنفس الإنسان وسلوكه، وكل النظريات الخاصة بنشأة المجتمعات وأطوارها، فهذه كلها ليست (حقائق علمية) حتى بالقياس الإنساني، وإنما هي نظريات وفروض كل قيمتها أنها تصلح لتفسير أكبر قدر من الظواهر الكونية أو الحيوية أو النفسية أو الاجتماعية إلى أن يظهر فرض آخر يفسر قدر أكبر من الظواهر أو يفسر تلك الظواهر تفسيراً أدق، ومن ثم فهي قابلة دائماً للتغيير والتعديل والنقص والإضافة، بل قابلة لأن تنقلب رأساً على عقب بظهور أداة كشف جديدة أو بتفسير جديد لمجموعة الملاحظات القديمة.

وكل محاولة لتعليق الإشارات القرآنية العامة بما يصل إليه العلم - من نظريات متجددة متغيرة أو حتى بحقائق علمية ليست مطلقة كما أسلفنا - تحتوي:

أولاً: على خطأ منهجي أساسي، كما أنها تنطوي على معان ثلاثة كلها لا تليق بجلال القرآن الكريم:

الأولى - هي الهزيمة الداخلية التي تخيل لبعض الناس أن العلم هو المهيمن والقرآن تابع، ومن هنا يحاولون تثبيت القرآن بالعلم، أو الإستدلال له من العلم. على حين أن القرآن كتاب كامل في موضوعه ونهائي في حقائقه. والعلم ما يزال في موضوعه ينقض اليوم ما أثبتته بالأمس، وكل ما يصل إليه غير نهائي ولا مطلق، لأنه مقيد بوسط الإنسان وعقله وأدواته، وكلها ليست من طبيعتها أن تعطي حقيقة واحدة نهائية مطلقة.

الثانية - سوء فهم طبيعة القرآن ووظيفته، وهي أنه حقيقة نهائية مطلقة تعالج بناء الإنسان بناء يتفق مع طبيعة هذا الوجود وناموسه الإلهي حتى لا يصطدم الإنسان بالكون من حوله، بل يصادقه ويعرف بعض أسراره، ويستخدم بعض نواميسه في خلافته.

الثالثة - هي التأويل المستمر - مع التمحل والتكلف - لنصوص القرآن كي نحملها ونلث بها وراء الفروض والنظريات التي لا تثبت ولا تستقر، وكل يوم يجد فيها جديد، وكل أولئك لا يتفق وجلال القرآن.

وبعد أن أوضح سيد قطب جوانب الخطأ في ربط الحقائق القرآنية بالفروض والنظريات بل والحقائق العلمية التي ليست مطلقة قال:

إن ذلك لا يعني ألا ننتفع بما يكشفه العلم من نظريات ومن حقائق عن الكون والحياة والإنسان في فهم القرآن كلاً إن هذا ليس هو الذي عنيّا بذلك البيان. ولقد قال الله تعالى: ﴿سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْآفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ﴾⁽¹⁾.

ومن مقتضى هذه الإشارة أن نظل نتدبر كل ما يكشفه العلم في الآفاق وفي الأنفس من آيات الله، وأن نوسع بما يكشفه مدى المدلولات القرآنية في تصورنا.

ثم شرح بالأمثلة المنهج الصحيح في الإنتفاع بالكشوف العلمية في توسيع مدلول الآيات القرآنية وتعميقها دون تعليقها بنظرية خاصة أو بحقيقة علمية

(1) سورة فصلت، الآية 52.

خاصة تعليق تطابق وتصديق فقال :

يقول القرآن - مثلاً - : ﴿وخلق كل شيء فقدره تقديراً﴾⁽¹⁾ ثم تكشف الملاحظات العلمية أن هناك موافقات دقيقة وتناسقات ملحوظة بدقة في هذا الكون : الأرض بهيئتها هذه ، وبعيد الشمس عنها هذا البعد ، وبعيد القمر عنها هذا البعد ، وحجم الشمس والقمر بالنسبة لحجمها ، وبسرعة حركتها هذه ، ويميل محورها هذا ، ويتكوين سطحها هذا ، وبآلاف من الخصائص هي التي تصلح للحياة وتوائمتها ، فليس شيء من هذا كله فلتة عارضة ولا مصادفة غير مقصودة . . .

هذه الملاحظات تفيدنا في توسيع مدلول ﴿وخلق كل شيء فقدره تقديراً﴾ وتعميقه في تصورنا ، فلا بأس من تتبع مثل هذه الملاحظات لتوسيع هذا المدلول وتعميقه ، وهكذا . . .

هذا جائز ومطلوب .

ولكن الذي لا يجوز ولا يصح علمياً هذه الأمثلة الأخرى :

يقول القرآن الكريم : ﴿ولقد خلقنا الإنسان من سلالة من طين﴾⁽²⁾ ثم توجد نظرية في النشوء والإرتقاء تفترض أن الحياة بدأت خلية واحدة ، وأن هذه الخلية نشأت في الماء ، وأنها تطورت حتى انتهت إلى خلق الإنسان ، فنحمل هذا النص القرآني ونلهث وراء النظرية لنقول : هذا هو ما عناه القرآن .

لا . إن هذه النظرية أولاً ليست نهائية فقد دخل عليها من التعديل في أقل من قرن من الزمان ما يكاد يغيرها نهائياً ، وقد ظهر فيها من النقص المبني على معلومات ناقصة عن وحدات الوراثة التي تحتفظ لكل نوع بخصائصه ولا تسمح بانتقال نوع إلى نوع آخر ما يكاد يبطلها ، وهي معرضة غداً للنقض والإبطال . بينما الحقيقة القرآنية نهائية ، وليس من الضروري أن يكون هذا معناها فهي تثبت

(1) سورة الفرقان ، الآية 2 .

(2) سورة المؤمنون ، الآية 12 .

فقط أصل نشأة الإنسان، ولا تذكر تفصيلات هذه النشأة.

وهي نهائية في النقطة التي تستهدفها وهي أصل النشأة الإنسانية وكفى ولا زيادة، ويقول القرآن الكريم: ﴿والشمس تجري لمستقر لها﴾⁽¹⁾ فيثبت حقيقة نهائية عن الشمس وهي أنها تجري. ويقول العلم: إن الشمس تجري بالنسبة لما حولها من النجوم بسرعة قدرت بنحو اثني عشر ميلاً في الثانية، ولكنها في دورائها مع المجرة التي هي واحدة من نجومها تجري جميعاً بسرعة نحو ألف وسبعمائة ميل في الثانية. ولكن هذه الملاحظات الفلكية ليست هي عين مدلول الآية القرآنية.

إن هذه تعطينا حقيقة نسبية غير نهائية قابلة للتعديل أو البطلان. أما الآية القرآنية فتعطينا حقيقة نهائية - في أن الشمس تجري - وكفى، فلا تعلق هذه بتلك أبداً.

ويقول القرآن الكريم: ﴿أولم ير الذين كفروا أن السموات والأرض كانت رتقاً ففتقناهما﴾⁽²⁾. ثم تظهر نظرية تقول: «إن الأرض كانت قطعة من الشمس فانفصلت عنها».

فنحمل النص القرآني ونلهث لندرك هذه النظرية العلمية ونقول: هذا ما تعنيه الآية القرآنية. لا... ليس هذا هو الذي تعنيه. فهذه نظرية ليست نهائية. وهناك عدة نظريات عن نشأة الأرض في مثل هذا المستوى من ناحية الإثبات العلمي.

أما الحقيقة القرآنية فهي نهائية ومطلقة، وهي تحدد فقط أن الأرض فصلت عن السماء. كيف؟ ما هي السماء التي فصلت عنها؟ هذا ما لا تتعرض له الآية. ومن ثم لا يجوز أن يقال: عن أي فرض من الفروض العلمية في هذا الموضوع: إنه المدلول النهائي المطابق للآية⁽³⁾ - اهـ.

(1) سورة يس، الآية 38.

(2) سورة الأنبياء، الآية 30.

(3) في ظلال القرآن، ط دار الشروق 1975 م، المجلد الأول 180 - 184.

وفي موضع آخر من هذا التفسير يؤكد هذا التصور ويرد على من يقول بالإعجاز العلمي فيقول:

«والذي ننبه إليه بشدة هو ضرورة عدم قصر النص القرآني على كشف علمي بشري قابل للخطأ والصواب، وقابل للتعديل والتبديل كلما اتسعت معارف الإنسان وكثرت وتحسنت وسائله للمعرفة.

فإن بعض المخلصين من الباحثين يسارعون إلى المطابقة بين مدلول النصوص القرآنية والكشوف العلمية تجريبية أو افتراضية، بنية بيان ما في القرآن من إعجاز، فالقرآن معجز سواء طبقت الكشوف العلمية المتأرجحة نصوصه الثابتة أم لم تطابقها، ونصوصه أوسع مدلولاً من حصرها في نطاق تلك الكشوف القابلة دائماً للتبديل والتعديل بل للخطأ والصواب من الأساس.

وكل ما يستفاد من الكشوف العلمية في تفسير نصوص القرآن هو توسيع مدلولها في تصورنا كلما أطلعنا العلم على شيء مما تشير إليه إشارات مجملة آيات الله في الأنفس والأفاق دون أن يحمل النص القرآني على أن مدلوله هو هذا الذي كشفه العلم. إنما جواز أن يكون هذا بعض ما يشير إليه - اهـ⁽¹⁾.

د. علي عبد الواحد وإي (*)

من المعارضين للتفسير العلمي الأستاذ علي عبد الواحد وإي، وقد وصفه في أحد مقالاته في مجلة الأزهر بأنه جناية كبرى، كما وصف القائلين به بأنهم أساءوا أبلغ إساءة إلى الإسلام والقرآن.

ويبتدىء مقالته تلك بقوله: «يدعو بعض الكتاب إلى تفسير جديد للقرآن يسمونه التفسير العصري أو العلمي، ويعنون بذلك أن يفسر ما ورد في القرآن من آيات كونية تفسيراً يكشف عما تنطوي عليه - في نظرهم - من حقائق علمية لم يبتد

(1) المصدر السابق، المجلد 6: 3451.

(*) د. علي عبد الواحد وإي عضو المجمع الدولي لعلم الاجتماع ورئيس قسم الدراسات الفلسفية والاجتماعية بجامعة القاهرة سابقاً، وعميد كلية التربية بجامعة الأزهر سابقاً.

إليها الباحثون إلا بعد نزول القرآن بعدة قرون، ويقولون: إنهم بذلك يضيفون إلى وجوه إعجاز القرآن التي سجلها القدامى وجهاً جديداً وهو إنبأؤه عن حقائق وقوانين كونية كانت مجهولة في العصر الذي أرسل فيه الرسول - عليه الصلاة والسلام - .

ثم بين رأيه في هذه القضية موضحاً أن ما ورد في القرآن من آيات كونية إنما كان القصد الأول والأخير منه حث العقول على النظر في محتويات الكون وتدبر ما تسير عليه من سنن للتدليل على عظيم قدرة الله وإتقان صنعه، فقال:

ولكننا بالإستقراء لما ورد في القرآن الكريم من آيات كونية لا نجد فيها ما يمكن تطويعه لهذه الدعوة. فقد عرض القرآن في أكثر من موضع لظواهر الكون، ولكنه حرص كل الحرص في كل موضع من هذه المواضع على ألا يفرض نظرية علمية معينة على العقول، وألا يدخل في تفاصيل هذه الأمور، وإنما استحث العقول على النظر في هذه الظواهر وحض الناس على التأمل في شؤونها لإدراك كنهها، وللوقوف على ما تسير عليه من قوانين. وأثار في نفوسهم حب الاستطلاع حيال الأمور التي لا تثير الإنباء بطبيعتها لتكرر حدوثها، وسيرها على وتيرة واحدة، وإيلاف الناس النظر إليها كتتابع الليل والنهار، وجري الشمس والقمر والكواكب، وتعاقب الفصول وتناسل الحيوان، وتكاثر النبات، ونزول المطر وإحياء الأرض به، وطفو السفن على الماء وظواهر الرعد والبرق، وما إلى ذلك من الأمور التي لا تسترعي انتباه الناس، فبين لهم أن هذه الأمور نفسها جديرة بالتأمل، وأن فيها مجالاً كبيراً للنظر والبحث.

والآيات القرآنية التي وردت في هذا الصدد تجل عن الحصر ولا تكاد تخلو منها سورة من سور القرآن، ولكننا لا نشتم في أي آية منها رائحة لفرض نظرية. علمية معينة، ولا يقصد القرآن بالتوجيهات الواردة فيها إلا ما ذكرناه من حث العقول على النظر في محتويات الكون وتدبر ما تسير عليه من سنن واستنباط القوانين العامة التي تحكمها ليتخذ الناس من ذلك دليلاً على عظيم قدرته تعالى وإتقان صنعه.

ثم ترك القرآن بعد ذلك لكل فرد كامل الحرية في الأخذ بما تهديه إليه ملاحظاته وتجاربه في هذه الشؤون، واعتناق ما يقتنع بصحته من نظريات.

ثم يزيد ذلك توضيحاً مستدلاً على ذلك من القرآن نفسه ويخلص إلى القول: بأن القرآن ليس كتاب فلك ولا علوم، وإنما هو كتاب عقيدة وشريعة وتنظيم اجتماعي وهداية للناس إلى الصراط المستقيم، على شاكلة قوله:

«ولا أدل على ذلك من أن القرآن في إجابته على سؤال وجهه إلى النبي ﷺ عن مراحل القمر وأسباب تزايد قرصه وتناقصه، قد تحاشا أن يدخل في تفاصيل هذه الأمور الفلكية وقوانينها حتى لا يفرض نظرية علمية على العقول كما فعلت الكاثوليكية المنحرفة من قبل، وحتى لا يحجر على الأذهان النظر في الأمور، واكتفى بأن يذكر بعض فوائد الأهلة، وأنها تحدد مواقيت الشهور والأيام التي تؤدي فيها شعائر الحج، وفي هذا يقول الله تعالى: ﴿يسألونك عن الأهلة قل هي مواقيت للناس والحج﴾⁽¹⁾. فكانه يقول لهم: يكفي أن تعلموا فيما يتعلق بصلة الأهلة بشؤون الدين أنها مواقيت للناس في الشهور والصيام وشعائر الحج، وما إلى ذلك.

أما ما وراء هذه الأمور من أسباب تزايد قرص القمر وتناقصه وخسوفه أحياناً أو حجبته عن النظر وعلاقته بالشمس والأرض. أما هذه الظواهر وما إليها فأترك لعقولكم كامل الحرية في بحثها والاهتداء إلى كنهها وأسبابها.

وليس القرآن كتاب فلك ولا علوم حتى يشرح هذه الظواهر، وإنما هو كتاب عقيدة وشريعة وتنظيم اجتماعي وهداية للناس إلى الصراط المستقيم.

وبعد أن قدم الأستاذ علي عبد الواحد وافي وجهة نظره في هذه القضية وأدلته على ما يراه، ألقى باللائمة على من استجاب لهذه الدعوة من العلماء الذين قدموا نماذج لهذا النوع من التفسير واصفاً إياهم بأنهم أساءوا إلى الإسلام والقرآن من غير شعور منهم. ثم بين مظاهر هذه الإساءة من عدة وجوه:

(1) سورة البقرة، الآية 189.

1- إنهم يتعسفون كل التعسف في تفسير آيات الكتاب الكريم وتحميلها ما لا تحتل من المعاني وما لم يفهمه العرب منها، ولا يمكن أن يفهمه منها ملم باللغة العربية وأساليبيها في البيان حتى يتاح لهم أن يقرروا أن القرآن قد سبق البحوث الحديثة فيما قالت به من نظريات وما كشفت عنه من قوانين. والأمثلة على ذلك تجل عن الحصر فيما يخرجها هؤلاء من كتب وما ينشرونه من مقالات.

2- إن الأمر لا يقتصر على تعسفهم في تفسير آيات الذكر الحكيم وتحميلها ما لا تحتل، بل إنهم كذلك بمسلكهم هذا يعرضون كلام الله للكذب والتكذيب، وذلك أن كثيراً من النظريات العلمية ليست ثابتة ولم تقل الكلمة النهائية فيما تعالجه من ظواهر. وقد تظهر كشوف أخرى تبين عن خطئها أو عن نقصها، فإذا فسرنا كتاب الله على وجه يتفق مع نظرية حاضرة، ثم ظهر عدم صحتها فيما بعد، فإن هذا يدعو إلى تكذيب كتاب الله، أو على الأقل إلى زعزعة ثقة الناس بحقائقه.

3- إنهم بذلك يصمون القرآن بوصمة هو منها بريء، إذ يحاولون بذلك أن يظهروه بمظهر كتاب يقرر النظريات العلمية، على أنها عقائد دينية نزل بها الوحي الأمين من قبل الله تعالى، وهذا مخالف لاتجاه الإسلام وروحه، ولما بحث عليه القرآن من التأمل في ظواهر الكون واستنباط قوانينها العامة، ولما يقرره من مبادئ سامية تتعلق بحرية التفكير.

صحيح أننا نجد بعض آيات من القرآن يمكن أن تؤول من غير كبير تعسف تأويلاً يجعلها مقررّة لبعض النظريات التي قال بها العلم الحديث، ولكننا لا نجد آية من هذه الآيات يسلم تأويلها على هذا الوجه من انحراف عن الفهم الصحيح.

واليكُم مثلاً الآية التي طالما ردها المتعصبون لهذه التفسيرات العلمية وهي قوله تعالى: ﴿أولم ير الذين كفروا أن السموات والأرض كانتا رتقاً ففتقناهما﴾⁽¹⁾. فهم يذهبون إلى أن معنى هذه الآية أن السماء والأرض كانتا ملتحمتين أي كانتا

(1) سورة الانبياء، الآية 30.

كتلة واحدة، ثم انفصلت كلتاها عن الأخرى. وهذا التفسير يتفق مع نظرية علمية حديثة تقرر أن المجموعة الشمسية كانت كتلة واحدة، ثم انفصلت أجزاؤها بعضها عن بعض، ومن هذه الأجزاء الأرض، وأصبح كل جزء يدور حول الشمس. ولكن تفسير الآية على هذا الوجه - وإن لم ينطو على تعسف كبير في دلالة الألفاظ - تفسير غير سليم من عدة وجوه:

1- إن القرآن حينما يتحدث عن السماء أو عن السموات يقصد بها شيئاً آخر متميزاً عن الشمس والكواكب، كما يظهر ذلك من التأمل في مئات الآيات التي وردت فيها كلمة السماء أو كلمة السموات.

2- إن المأثور عن ابن عباس وابن عمر في تفسير هذه الآية أن السماء والأرض كانت كلتاها ملتحة متماسكة لا فرجة فيها ففتح الله السماء بالمطر وشق الأرض بالنبات. فقد جاء في تفسير الحافظ ابن كثير لهذه الآية عن ابن عمر: أن رجلاً أتاه يسأله عن السموات والأرض كانت رتقاً ففتقناها. قال: اذهب إلى ذلك الشيخ فاسأله (مشيراً إلى ابن عباس) ثم تعال فأخبرني بما قال لك. قال: فذهب إلى ابن عباس فسأله فقال له: نعم كانت السموات رتقاً لا تمطر، وكانت الأرض رتقاً لا تنبت، فلما خلق الله للأرض أهلاً فتق هذه بالمطر وفتق هذه بالنبات. فرجع الرجل إلى ابن عمر فأخبره فقال ابن عمر: صدق ابن عباس. الآن قد علمت أنه قد أوتي في القرآن علماً⁽¹⁾.

وهذا متفق مع المعنى اللغوي لكلمة (الرتق)، لأن الرتق - في اللغة - هو الالتحام والتماسك. ويؤيد هذا التفسير قوله تعالى بعد ذلك مباشرة: ﴿وجعلنا من الماء كل شيء حي﴾ أي جعل من الماء الذي فتق عنه السماء كل شيء حي في الأرض من نبات وغيره. ويؤيده كذلك أن القرآن يعبر في مواضع أخرى كثيرة عن نزول المطر كأنه نتيجة لفتح السماء بعد أن كانت ملتحة، ويعبر عن ظهور النبات كأنه نتيجة لشق الأرض بعد أن كانت متماسكة الأجزاء، قال تعالى: ﴿فتفتحنا أبواب السماء بماء منهمر﴾⁽²⁾ وقال: ﴿فلينظر الإنسان إلى طعامه أنا صبينا الماء صباً

(1) تفسير ابن كثير، ط الحلبي 3: 177.

(2) سورة القمر، الآية 11.

ثم شققنا الأرض شقاً فأنبثنا فيها حباً وعنباً وقضباً وزيتوناً ونخلًا... ﴿ الآية (1) .

3 - إن الله يمين على الكفار بهذه الظواهر، ولا يعقل أن يمين عليهم بشيء مجهول لهم، لأن النظرية التي تقرر أن المجموعة الشمسية كانت كتلة واحدة ثم انفصلت أجزاؤها بعضها عن بعض، لم تكن معروفة وقت نزول القرآن .

4 - إن هذه النظرية غير مسلم بها من جميع العلماء، بل إن هناك طائفة كبيرة منهم تذهب إلى أن الأرض خلقت خلقاً مستقلاً، ولم تكن جزءاً من الشمس . ولا يصح أن نفسر آيات القرآن وفق نظريات مشكوك في صحتها .

5 - إن القرآن الكريم نفسه قد بين لنا في آيات أخرى الطريقة التي خلق الله تعالى بها الأرض والسماء، فبين ذلك في صورة تدل دلالة واضحة على أن خلق كليهما كان مستقلاً عن خلق الأخرى، بل كان له زمن غير زمن الأخرى، وذلك إذ يقول: ﴿ قل أنتم لتكفرون بالذي خلق الأرض في يومين وتجعلون له أنداداً ذلك رب العالمين وجعل فيها رواسي من فوقها وبارك فيها وقدر فيها أقواتها في أربعة أيام سواء للسائلين . ثم استوى إلى السماء وهي دخان فقال لها وللأرض ائتيا طوعاً أو كرهاً قالتا أتينا طائعين فقضاهن سبع سموات في يومين وأوحى في كل سماء أمرها وزينا السماء الدنيا بمصابيح وحفظاً ذلك تقدير العزيز العليم ﴿ (2) .

إن هذه الآيات تدل صراحة على أن كل واحدة منها كان خلقها مستقلاً عن الأخرى ومنفصلاً عنه (3) - اهـ - المقال .

تحولوا عن هذه البدعة

هذا عنوان مقال كتبه الأستاذ إسماعيل مظهر (*) في يوميات الأخبار المصرية

(1) سورة عبس، الآيات 24 - 32 . ينظر ما كتبه الدكتور الغمراوي رداً على هذا الرأي في الفصل الثالث من الباب السابق .

(2) سورة فصلت، الآيات 8 - 11 .

(3) مجلة الأزهر العدد التاسع من السنة الثانية والأربعين، يناير 1971، ص 708 - 713 .

(*) الأستاذ إسماعيل مظهر: هو عضو المجمع المصري للثقافة العلمية وصاحب مجلتي المصور الشهرية =

بتاريخ 1961/11/17 م، وفيه يحمل على القائلين بالتفسير العلمي والداعين إليه، ويعتبر ذلك بدعة ابتدعها أولئك الذين يعتقدون أن القرآن بتفسيره تفسيراً علمياً يصبح كامل الإعجاز من جميع الوجوه. كما يتخذ الأستاذ إسماعيل مظهر من بعض النماذج من التفسير العلمي ذريعة لذلك الموقف. كما يعتقد أن إدخال التفسيرات العلمية على الإشارات القرآنية، وبالصورة التي جرى عليها بعض الكتاب والعلماء لا بد وأن يفضي عما قريب أو بعيد إلى الصراع بين الدين والعلم. ويرى أن النزوع إلى التفسير العلمي للآيات القرآنية لا بد وأن يفضي إلى تحميل الألفاظ ما لا تحتل أو إلى تأويل العبارات القرآنية تأويلاً إنفعالياً.

وينهي مقاله بأن الواجب أن ندعو إلى التحول عن هذه البدعة المؤسسية فإنها ككل بدعة ضارة غير نافعة.

يقول الأستاذ إسماعيل مظهر:

«لست أدري ما خطب أولئك الذين يحاولون أن يقحموا في تفسير القرآن الكريم دلالات علمية، وأن يتخذوا من تلك الدلالات أو الإشارات أو العبارات العامة وسيلة إلى إثبات إعجاز القرآن عن طريق قراءة الغيب والتنبؤ بما سوف يكون عليه العلم الإنساني في الأزمان المتتالية، كأنما هم بموقفهم هذا يريدون أن يزيدوا إعجاز القرآن إعجازاً على إعجازه، أو أنهم يعتقدون أن القرآن بتفسيره تفسيراً علمياً على ما يفهم من العلم في عصرنا الحاضر يصبح كامل الإعجاز من جميع نواحي الفكر.

ومعني إسماعيل مظهر قائلاً:

«لقد فشلت هذه البدعة فشواً كثيراً بين المؤلفات، وتآلفت في خدمتها اللجان تلو اللجان، ومن يديرنا لعلنا عما قليل نعقد لها المؤتمرات، ونبذل في سبيلها الجهد والمال، الدليل على هذا مقدمة كتاب في تفسير القرآن جاء فيها:

«تفسر الآيات التي تتضمن حقائق علمية أو تشير إليها بما تدل عليه عباراتها

= والأسبوعية ومحررها، وصاحب ترجمة كتاب (بين الدين والعلم) تاريخ الصراع بينهما في العصور الوسطى إزاء علوم الفلك والجغرافيا والنشوء، تأليف اندروسكوت.

وإشاراتهما، وتذكر الحقائق التي تشير إليها الآية في الهامش .

ثم جاء فيها بعد ذلك :

«وكان لا بد أن يكون لهذا التفسير تعليقات للعلماء في الكون والطب والنفس والاجتماع وغيرها من العلوم، لتبين بعض ما أشار إليه القرآن الكريم من معان في هذه العلوم لم تكن معروفة وقت نزوله، ويكون ذكرها من دلائل إعجازه، ولكن لوحظ في هذا ألا يكون فيه تحميل لألفاظ القرآن ما لا تحتمل أو تأويل لها تأويلاً لا تقبله العبارة، أو يكون فيه تكلف»⁽¹⁾.

يقول إسماعيل مظهر بعد نقل هذه العبارات من مقدمة التفسير الذي ذكره تعليقاً عليه :

وقد نستدل من العبارات الأخيرة أنها كانت مثار مناقشة بين فريق يتطرف في التفسير العلمي على القواعد الحديثة وفريق مقتصد يأنف من تحميل ألفاظ القرآن ما لا تحتمله، أو تأويلها تأويلاً لا تقبله العبارة القرآنية . ولقد أشعر أيضاً أن الفريق الثاني قد غلب على أمره فلم بتفسير بعض الآيات علمياً، وهو عالم بأن ذلك سيكون فيه تحميل لألفاظ القرآن ما لا تحتمل، وتأويل لها تأويلاً لا تقبله العبارة . غير أن هذا الاحتياط لم يأت بأثر في الابتعاد عن التحمل والتأويل، فذهب بعض العلماء - ساحمهم الله - إلى أن غسل النحل شفاء من كل الأمراض، كيف لا وقد نص القرآن على أن فيه شفاء للناس .

واني لأعتقد أن إدخال التفسيرات العلمية على الإشارات القرآنية، وبالصورة التي جرى عليها بعض الكتاب والعلماء لا بد من أن يفضي عما قريب أو بعيد إلى الحالة التي كانت سبباً في ذلك الصراع المؤسي بين رجال اللاهوت الممثلين للدين ورجال العلم في عصر النهضة الأوروبية وفي حدود العصر الحديث .

(1) التفسير الذي يعنيه الكاتب ونقل منه النصوص سالفة الذكر هو (المنتخب في تفسير القرآن الكريم) الذي أصدره المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية في جمهورية مصر العربية بواسطة لجانه المختلفة المؤلفة من كبار العلماء . والنص الذي ساقه الكاتب في مقدمة التفسير المذكور من الجزء الأول ط القاهرة 1381 هـ ص 5، 6 .

وإن النزوع إلى التفسير العلمي لآيات من القرآن لا بد مفض إلى تحميل الالفاظ ما لا تحمل ، وإلى تأويل العبارات تأويلاً انفعالياً من شأنه أن يسوق في النهاية إلى صراع بين الذين يقولون بالتفسير العلمي ، والذين يقولون بالتفسير حسب الظاهر فتجدد المعركة عندنا بمثل ما كانت عليه عند أهل النصرانية من قبل ، ولكن لا ينبغي أن تتجدد المعركة بنفس الصورة التي لابتها في تلك العصور ، فليس من الطبيعي أن تقول الآن محاكم أشبه بمحاكم التفتيش تحرق وتقتل بالظن والشبهة ، فإن روح العصر لا تتسع لمثل هذا . ولكن المعركة إذا هي وطيسها فسوف تقوم على تفكيرية عقيدية يهاجم فيها الشك إيمانية الدين ، ويهاجم فيها الإيمان شكية العلم ، ولا يصيب الدين أو العلم من ذلك كله إلا خسران مبین ، وتعثر خطى التقدم الفكري في تلك الطريق الزلقة الملتوية . قد ينشأ عن هذه النزعة مواقف لا تحمد عقباها ، فإذا فرضنا مثلاً أن العلم قد انتهى إلى نظرية أو حقيقة تناقض ظاهر آية من الآيات فماذا يكون موقف رجال الدين من العلم ؟ وماذا يكون موقف رجال العلم من الدين ؟ .

على أنه من أخص خصائص العلم التغير لا الثبات ، فإذا كان بعض المسلمين قد فسر الآية التي وردت في الشمس وأنها تجري لمستقر لها ، بحسب نظام بطليموس الفلكي وقال : إن الأرض هي مركز النظام وأن الشمس وبقية السيارات يدورن من حولها ، ثم جاء (كوبرنيكوس)⁽¹⁾ وأثبت نقيض ذلك ، وأن الشمس هي الشابتة ، وأن الأرض والسيارات يدورن من حولها ، وزال عن هذه النظرية بل عن هذه الحقيقة كل شك وأصبحت تدرس في مدارس الصغار عندنا . فماذا يكون موقف الآية من حقيقة العلم ؟ ، وماذا يكون موقف العلم من قدسية الآية ؟ .

كذلك إذا فسرنا الآيات التي تحض على التفكير في خلق السموات والأرض تفسيراً بمقتضى علم القرن الثامن عشر ، ثم فسرناها بمقتضى علم القرن التاسع

(1) كوبرنيك (1472 - 1543 م) البولوني الذي ترك الكهوت وعمل في الفلك ، وقال منجراً على تعاليم الكنيسة وقتئذ : إن الأرض ليست مركزاً ثابتاً للعالم بل الأرض كوكب كغيره يدور حول محوره ويدور مع السيارات حول الشمس .

عشر، ثم بمتقضى علم القرن العشرين، ونحن نعلم أن علم القرن الثامن عشر يكاد لا يكون له وجود في القرن العشرين. فماذا يكون موقف الآيات من هذا الإرتجاج. والذي يظهر فيه علم قرن مضى كأنه عبث أطفال إلى جانب علم القرن الذي يتلوّه؟.

القرآن والعلم:

لا شك في أن القرآن الكريم أول كتاب منزل حض على تحصيل العلم والتفكير في خلق السموات والأرض، وفي خلق الإنسان والحيوان، ليكون ذلك العلم سبيلاً إلى الإيمان بالغيب عن اعتراف عقلي بعلاقة تربط بين العلة والمعلول والسبب والمسبب.

أما أن نتخذ من الآيات الكريمة سبيلاً إلى خلق علاقة بين إشاراتها وبين الذرة، كما عرفت في العصر الحديث لنقول: إن القرآن عرف الذرة علمياً قبل عصرنا بقرون عديدة، وأن ذلك دليل على إعجازه فقول مدخول بكثير من شكية العلم مناف لإيمانية الدين.

إن من أبعد الأشياء عن الحقائق المعروفة أن هنالك رابطة علمية بين الآية التي تنص على أن الله يمسك السموات والأرض أن تزولا⁽¹⁾ وبين إفناء ما في الكون عن طريق تحطيم الذرة.

يقول قائل:

وعلى أية حال فإن إمكان زوال السموات والأرض مسألة يقرها العلم ولا ينكرها ويفسرهما تفسيراً طبيعياً، ثم يقول: على أية حال فإن الآية الكريمة إنما تشير في إعجاز رائع إلى إمكان إفناء ما في الكون من سدم ومجرات إذا هي: تغير نظام توزيعها بأن تداخلت مثلاً أو اعترض بعضها بعضاً أثناء سبجها في الفضاء. ثم

(1) نص الآية ﴿إِنَّ اللَّهَ يُمْسِكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ أَنْ تَزُولَا وَلَئِنْ زَالَتَا إِنْ أَمْسَكَهُمَا مِنْ أَحَدٍ مِنْ بَعْدِهِ إِنَّهُ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا﴾. (سورة فاطر، الآية 41).

هي بالإضافة إلى تقرير تلك الحقيقة تظهر ضعف الكائنات جميعاً وعجزها عن إمساك السموات والأرض من الزوال إذا قدر الخالق لها تلك النهاية .

ثم هو (القائل) يستشهد على ذلك بآيات لا تمت بشيء إلى هذا الأمر مثل الآية الكريمة ﴿يَوْمَ تَبْدُلُ الْأَرْضَ غَيْرَ الْأَرْضِ وَالسَّمَوَاتِ﴾⁽¹⁾ ، والآية ﴿يَوْمَ نَطْوِي السَّمَاءَ كَطَيِّ السِّجْلِ لِلْكِتَابِ﴾⁽²⁾ إلى آخر ما هنالك .

يقول الأستاذ إسماعيل مظهر، تعليقاً على ما نقله من هذا التفسير:

الحق أنني عندما أقرأ مثل هذا الكلام يخيل إليّ أنني رجعت إلى الوراء قروناً عدة وأني أجلس إلى القديس (أوغسطين) أو (يوحنا سقوطن)، أو أفلوطين السكندري ، وأني اعتزلت القرن العشرين وما فيه اعتزالاً لا شيء إلا لأن إيماني بالقرآن الكريم وبمحمد ورسالته النورانية فوق كل هذه المباحكات الفارغة، وأنها ليست بحاجة إلى تفسيرات علمية تثبت إعجازها، وأن كل تفسير علمي على هذه الطريقة مضعف لإعجازها لا مثبت له . فقد يتغير العلم صباح غد ولا يتبقى له منه إلا إقحام الدين فيه أو إقحامه في الدين أي إقحام المتغير في الثابت، وإخراج الثابت إلى صفة المتغير.

فواجبنا إذاً أن ندعو إلى التحول عن هذه البدعة المؤسسية فإنها ككل بدعة ضارة غير نافعة - اهـ - المقال .

تحليل وتعقيب

تلك آراء بعض المفكرين والعلماء في التفسير العلمي للقرآن عرضتها دون تعقيب عليها في أغلب الأحيان ، وهي على اختلاف قائلها تلتقي عند رأي واحد ، وهو الإنكار الشديد على من حاولوا أو يحاولون تفسير القرآن الكريم في ضوء العلم أو ربط القرآن بالعلم في فروضه ونظرياته ، ويمكن أن نستخلص منها وجهات النظر التالية :

(1) سورة إبراهيم ، الآية 50 .

(2) سورة الأنبياء ، الآية 103 .

1 - إن القرآن الكريم كتاب عقيدة وشريعة بما فيها من أحكام وآداب وتنظيم اجتماعي وهداية للتي هي أقوم، وليس من مقاصده الدخول في بحوث علمية، ويكفيه أنه حث على النظر والتفكير وأنه لم يصادم ولن يصادم حقيقة علمية.

2 - إن هذا اللون من التفسير صارف للناس عن هداية القرآن ومقاصده الأساسية.

3 - إن النظريات العلمية عرضة للتغيير والتبديل يوماً بعد يوم، فإذا ربطنا بها آيات القرآن فقد عرضناها للذبذبة في مدلولها تبعاً لنظريات العلم وتغيراته. ومن هنا وجب عدم تعليق الحقائق القرآنية النهائية المطلقة القاطعة بفروض من العقل البشري ونظرياته.

4 - واجبنا ألا نتكلف هذا اللون من التفسير حتى ولو كان صحيحاً أحياناً، فإنها صحة غير مضمونة الدوام.

ونحن بقدر ما نشكرهم ونؤيدهم على هذه الغيرة على كتاب الله نود أن يكون العلم مساعداً على فهم القرآن فهماً دقيقاً على معنى أن العالم الباحث يحاول فهم القرآن في ضوء مقررات العلم إذا استطاع، فإن كان حقاً ثابتاً فذاك هو المطلوب، وإن لم يكن كذلك فعليه تبعة خطئه، والآية بجلالها وقداستها لا يشوبها خطأ الفهم كما لم يشبها خطأ التفاسير الأخرى. ونحن نوافقهم على عدم فتح الباب على مصراعيه لكل من هب ودب ولكل حدس وتخمين على حساب العلم لكل زاعم، لأن الاحتياط لكتاب الله واجب، على المسلمين عموماً، وعلى علماء الأمة على وجه الخصوص.

وهم معذورون في اتخاذ هذا الموقف وخشيتهم من الإندفاع في تفسير القرآن بنظريات العلم خوفاً من تأويله بنظريات فاسدة وأوهام باطلة، والذي يجب أن يعتمد عليه هو الحق الذي لا ينكره العقل ولا يجافيه الدين ولا تشوبه ريبة التحكم وتطويع الآيات للنظريات الغضة والأفكار الوليدة.

فمن الحق أن القرآن يأمرنا بالبحث والنظر والتعلم والإحاطة بكل ما نستطيع إدراكه من دقائق العلم وحقائقه .

وليس من الحق أن نزعّم أن كل ما تستنبطه العقول مطابق لما في القرآن مندرج في ألفاظه ومعانيه، فإن كثيراً من آراء العلماء التي يستنبطونها أول الأمر لا تعدو أن تكون من النظريات التي يصح منها ما يصح ويبطل منها ما يبطل، ولا تستغني على الدوام من التعديل وإعادة النظر من حين إلى آخر. فالقرآن ليس كتاب نظريات علمية مفترضة أو شارحاً لحقائق علمية ثابتة أو معملاً تجري فيه التجارب ليتوصل منها إلى نتائج علمية تخالف المعارف عليه أو تؤكده، وإنما هو كتاب هداية للبشرية تسعد إذا سارت على تعاليمه، وتشقى إذا ضلت عنها.

وهو منهج متكامل لحياة الفرد والمجتمع لينطلق في الحدود التي رسمها له دون أن يلجأ إلى تفصيلات وجزئيات علمية وتجارب عملية، وإنما يدع ذلك للعقل بعد أن يأخذ حظه من التقويم ليعمل على صلاح البشرية وإسعاد الخليقة .

كما أن تطبيق النظريات العلمية على النصوص القرآنية لا يتمشى مع سنة التطور التي هي سنة العلم، ومن ثم لا ينبغي أن نجري بالنص القرآني وراء أية نظرية علمية، وإنما نتقبلها فقط حين لا تخالف الحقائق المجملية التي ذكرها القرآن وقررها .

. وعلى الرغم من هذه التحفظات التي ذهب إليها هؤلاء العلماء والباحثون أو الضوابط التي وضعها البعض منهم فإن هذا اللون من التفسير قد فشا وراج في العصر الحديث رواجاً كبيراً. وكل يوم يطلع علينا أنصاره بنماذج منه أو بدعوة إليه وتأييد له. فما هي الأسباب التي أدت إلى هذا؟ .

هذا هو ما سنحاول أن نسلط عليه الضوء في الفصل الآتي من الباب الرابع من هذا البحث .

البَابُ الرَّابِعُ

التفسيرِ العَلِيِّ بَيْنَ الْمَاضِي وَالْحَاضِرِ

الفصل الأول : رواج التفسير العلمي في العصر الحديث
واسبابه .

الفصل الثاني : موازنة بين التفسير العلمي في ماضيه
وماضييه .



الفصل الأول

رَوَاجُ التَّفْسِيرِ الْعِلْمِيِّ فِي الْعَصْرِ الْحَدِيثِ وَأَسْبَابُهُ

الفصل الاول

رواج التفسير العلمي في العصر الحديث وأسبابه

عاش العالم الإسلامي خلال فترات من تاريخه، وفي الأيام الأخيرة من الحكم العثماني بالذات في عزلة سياسية واقتصادية وحضارية، فلم يصله عنصر من العناصر المكونة للحضارة الحديثة، في الوقت الذي استحكمت فيه النهضة الأوروبية وتقدمت في الأفكار والفنون والآداب، وقطعت شوطاً بعيداً في التفكير والبحث وما نتج عنها من انبثاق المعارف وظهور الاكتشافات العلمية التي غيرت الحياة في العالم في القرن التاسع عشر الميلادي عما كانت عليه فيما سبق من قرون، وفمدى الإدراك الحسي قد اختلف عما كان عليه باكتشاف النظارة والمجهر فضلاً عن آفاق الإدراك العقلي التي تغيرت بالإكتشافات الرياضية والمعارف الكونية⁽¹⁾.

ولقد تأخر المسلمون علمياً في هذا القرن كما تأخروا سياسياً واقتصادياً في الوقت الذي أخذ فيه الأوروبيون في اقتباس معظم العلوم والمعارف من تراث عرب الأندلس التي انتهت هي الأخرى بعد انقسام المسلمين فيها شيعاً وأحزاباً، وتضاءل الفكر حتى عند العلماء من المسلمين.

وقد يدل على ذلك ما ذكره الألوسي المفسر المتوفى سنة 1270 هـ في تفسيره في الكلام على تسخير الريح لربي الله سليمان من سورة الأنبياء: ﴿ولسليمان الريح

(1) التفسير ورجاله، محمد الفاضل بن عاشور، ط 2 1972 م، ص 212.

عاصفة تجري بأمره إلى الأرض التي باركنا فيها وكنا بكل شيء عالمين»⁽¹⁾ حيث استطرد فيه إلى الكلام على ما وصل إليه العلماء في أوروبا من المحاولات الأولى للطيران فقال ما نصه :

«ومن العجب أن أهل لندن قد أتعبوا أنفسهم منذ زمان بعمل سفينة تجري مرتفعة في الهواء إلى حيث شاءوا بواسطة أبخرة يجسونها فيها، اغتراراً بما ظهر منذ سنوات من عمل سفينة تجري في الماء بواسطة آلات تحركها أبخرة فيها، فلم يتم لهم ذلك ولا أظنه يتم حسب إرادتهم على الوجه الأكمل . وأخبرني بعض المطلعين أنهم صنعوا سفينة تجري في الهواء لكن لا إلى حيث شاءوا بل إلى حيث ألفت رحلها»⁽²⁾.

ولا شك أن الألوسي - في هذا - كان أسوأ حالاً من الجبرتي المؤرخ، فقد ذكر ما شاهده يوماً في المعهد العلمي الفرنسي الذي أنشأه الفرنسيون أثناء احتلالهم لمصر، وكان مما شاهده الفلكة المستديرة التي يديرون بها الزجاجات فيتولد من حركتها شرر يطير بملاقاة أدنى شيء كثيف ويظهر له صوت وطقطقة، وإذا أمسك علاقتها شخص ولو خيطاً لطيفاً متصلاً بها ولمس آخر الزجاجات الدائرة أو ما قرب منها بيده الأخرى ارتج بدنه وارتعد جسمه وطقطقت عظام أكتافه وسواعده بركة سريعة . ومن لمس هذا اللامس أو شيئاً من ثيابه أو شيئاً متصلاً به حصل له ذلك ولو كانوا ألفاً أو أكثر . ثم قال : ولهم فيها أمور وأحوال وتراكيب غريبة تنتج منها نتائج لا تسعها عقول أمثالنا»⁽³⁾.

فلم يحاول الجبرتي في هذا أن ينتقص من قيمة علوم أوروبا وآثارها في هذا

(1) سورة الأنبياء، الآية 80.

(2) روح المعاني في تفسير القرآن والسبع المثاني، 380:5.

(3) تاريخ الجبرتي: ح 3:37 (ط) 1322 هـ والجبرتي هو عبد الرحمن الجبرتي مؤرخ مصري ولد بمصر وتعلم في الأزهر، ونسبه إلى جبرت وهي الزيلع في بلاد الحبشة . عينه نابليون حين احتلاله لمصر كاتباً في الديوان، وكان مفتي الحنفية في عهد عمده علي باشا . وأشهر مؤلفاته التاريخ المعروف باسمه قيد فيه حوادث مصر من سنة 1100 إلى سنة 1234 هـ . وقد توفي سنة 1240 هـ بعد أن كف بصره . (الاعلام للزركلي، ط 3، 4: 74، 75).

العصر، وإن كان قد نزل بعقله وعقل علماء المسلمين في عصره حيث ذكر أن ما شاهده من ذلك لا تسعه عقولهم، وهو شعور بالعجز زائد عن الحد، وقد يدعو إلى اليأس من النهوض إلى مثل ما وصلوا إليه. ولكنه على كل حال أقل ضرراً من ذلك التعجب لأن فيه - مع هذا - شعوراً بالنقص، والشعور بالنقص أول مراتب الإصلاح.

«فقد فتح الشرق عينيه على الوجود الذي واجهه من جديد بعد نومه العميقة، ونظر إلى الدنيا التي كان قد أعرض عنها وذهل عن مراقبتها برهة قصيرة فيما يحسب، فإذا هي غير الدنيا التي كان قد عرفها قبل إعراضه وذهوله، وإذا هو كالرجل الذي أماته الله مائة عام ثم بعثه قال: كم لبثت؟ قال: لبثت يوماً أو بعض يوم»⁽¹⁾. فقد بدأت شمس المعارف الضاحية على الشرق تميل إلى مغربها في الأفق الأوروبي «فقد حرم الشرق من العلم والثروة والسلاح والحرية والمكانة السياسية وهي عدة الأمم في تنازع البقاء»⁽²⁾.

ولعل من أهم الأسباب التي أدت إلى تخلف العالم الإسلامي في العلم والصناعة أن العلوم التي تقوي ملكة العقل وتعين على نجاح الصناعات وجلب الثروة قد تأخرت جملة واحدة بعد القرن العاشر الهجري، وأصبحت العلوم الطبيعية والرياضية والتاريخية ينظر إليها على أنها من علوم الكفر، وصار ينظر إلى من له إلمام خفيف بفرع من فروعها على أنه قد تحلل من معتقداته ومقدساته.

وجاء عصر المتجربين على الفتيا يقولون بتحريم هذه العلوم، مع أنها كانت تقرأ في مدارس المسلمين من القرن الثالث إلى القرن التاسع في جملة العلوم التي لها مساس بالشرع⁽³⁾.

هذا، وقد أصبح التعليم تقريباً في المدارس والجامعات في البلاد الإسلامية لا يرتبط ارتباطاً صحيحاً بالإسلام، وصار الطالب عند تخرجه يعرف عن نابليون

(1) التفسير ورجاله ص 209.

(2) الإسلام في القرن العشرين، عباس العقاد، ط 1، 1954، دار الكتب الحديثة، ص 96.

(3) الإسلام والحضارة العربية، محمد علي كرد، 49:2. (ط) الثانية 1959.

وأمثاله من الأوروبيين أكثر مما يعرفه عن نظام الإسلام وتاريخه وزعمائه.

ومع الإستعمار الشرس في مطلع العصر الحديث أصاب العالم الإسلامي ما يشبه الدوار من جرّاء التفوق المادي للحضارة الغربية، ولم يفق من هذه الصدمة حتى أصابته عقدة الشعور بالنقص التي عمل الإستعمار جاهداً على ترسيخها فيه، فتصور البعض أنه لا شفاء منها إلا بالإنسلاخ عن جذور الأصالة الإسلامية والانتفاء إلى الغرب المتفوق الظاهر. وفي الطرف المقابل كان فريق آخر يتشبث بكل مخلفات الماضي في رجعية ذاهلة عن سير الزمن وتحديات العصر. ووجد كل من الفريقين ما يرهف إحساسه بالعقدة في مخدرات الغزو الفكري.

الفريق الأول وجدوا حاجتهم فيما تسلط عليهم من إلحاح فكري وثقافي أقنعهم بأن الشريعة الإسلامية هي سر التخلّف، وأن ميراثنا الروحي هو المسؤول عن جمودنا.

والفريق الثاني وجدوا في اجتراح أمجاد الماضي ما يغني فاطمأنوا إلى أنه ليس في الإمكان أبدع مما كان⁽¹⁾.

مما تقدم نستطيع أن نقول: إن أحوال المسلمين كانت تسير نحو التدهور والإنحطاط الفكري، وبخاصة في القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين. ويقابل ذلك نهوض عند الغرب الصليبي وتقدم علمي سريع واختراعات وثورة صناعية. وتبع ذلك هجوم الدول الإستعمارية على بلاد المسلمين والإستيلاء على خيراتها.

واختلط الأمر على المسلمين وزاغت أبصارهم لما رأوا من تنظيم الغرب وصناعاته واختراعاته، فلم يفرقوا بين التقدم العلمي في الغرب وأفكاره وأنظمتهم وحضارته التي تقوم على فصل الدين عن الحياة. فالعلم عام يؤخذ من أي جهة. أما الفكر والنظام والحضارة فهي خاصة.

وقد ذهب بعض الباحثين إلى أن الإسلام في هذا العصر مرّ في مراحل، كان

(1) القرآن وقضايا الإنسان، د. عائشة عبد الرحمن، ط 1، ص 309.

أولها ما يمكن أن يعنون له بعنوان (الإسلام في قفص الاتهام) حيث وقف دعاة الإسلام في القرن الماضي يدافعون عن الإسلام على أنه متهم في قفص. فالإسلام - كما يقولون - : ليس منافياً للرقى ولا مانعاً من التقدم، ولا معارضاً للعلم والعقل، فكان الإسلام مجرم يراد أن يدافع عنه.

ثم جاء عهد آخر خرج الإسلام فيه من قفص الاتهام، ولكنه أصبح يقاس بمقاييس غيره أو يقوم بقيم غير قيمه.

فالإسلام صالح لأنه مبني على الديمقراطية، والإسلام يستحق البقاء والخلود لأنه متطور، والإسلام حسن لأن فيه كذا وكذا⁽¹⁾ من الأفكار.

وهذه الأفكار والمبادئ والقيم والمقاييس إنما استعيرت من مذاهب أخرى، فكان الأصل أننا نؤمن بمذاهب معينة هي في خارج إطار الإسلام، ثم نحاول بعد ذلك أن نقوم الإسلام بهذه القيم التي نستعيرها.

والمرحلة الثالثة هي مرحلة الذاتية بالنسبة للإسلام، فلإسلام مقاييسه الخاصة ومعايره الذاتية، فهو ليس صالحاً لأنه موافق للديمقراطية أو الاشتراكية أو الرأسمالية أو لأن فيه حرية فردية أو لأن فيه مصلحة الجماعة.

إن للإسلام مقاييسه في الخير والشر والحق والباطل، ولا نعني بهذا أن هذه المقاييس ليست لها جذور عقلية ترتد إليها، ولكنها جذور عميقة من دوحته، وفروع مشتقة من أصل شجرتها. تلك هي المرحلة التي بدأت في العصر الحاضر أو بدأت ثلاثتها في عدد من المؤلفات، وفي عدد من الرؤوس المفكرة في العالم الإسلامي. وهي المرحلة التي يتنبأ الأستاذ محمد المبارك بأنها ستكون مرحلة الإسلام في المستقبل القريب⁽²⁾.

فكان على القادة في الفكر الإسلامي أن يأخذوا أماكنهم في هذا الموقع الخطير ليرسموا للأمة الإسلامية طريقها الصحيح في ضوء الكتاب الذي حققت به

(1) يكنى بكذا وكذا عن العدد المبهمة قليلة وكثيره.

(2) الفكر الإسلامي الحديث في مواجهة الأفكار الغربية، محمد المبارك. 52251 (ط) الثالثة 1973 م.

وجودها وحمت بقاءها، ويقدموا لها من قيمه الخالدة ما تواجه به تحديات العصر العلمي دون أن يمزقها صراع مفتعل بين العقيدة والعلم، ودون أن يشغلها جدل عقيم في قيمة الكتاب الذي جعل الإيمان بالعلم عقيدة وديناً، وكان لواء الحضارة الإسلامية في دورها القيادي .

إن تحديات العصر قومية وحضارية هي التي جعلت بعض المفكرين يلحون على تفسير القرآن تفسيراً علمياً لتحديد موقف الدين من العلم من ناحية، ولإشعار المسلمين بدورهم القيادي بهذا الكتاب من ناحية أخرى . ويقدر ما تقسو هذه التحديات تشتت الحاجة إلى تأمين هذا الموقع الفكري الخطير من حيث مسابرة الزمن ودفع التقدم وحتمية التطور⁽¹⁾ .

هذا إلى جانب أن المدرسة العقلية كانت في هذه الفترة تواجه النزعة الخرافية الشائعة التي تسيطر على العقلية العامة، كما تواجه سيل الأساطير والإسرائيليات التي حشيت بها كتب التفسير والرواية في الوقت الذي وصلت فيه الفتنة بالعلم الحديث إلى ذروتها، وموجة الشك في مقولات الدين إلى قمته، فقامت هذه المدرسة تحاول أن ترد إلى الدين اعتباره، على أساس أن كل ما جاء به موافق للعقل .

وفي هذه الفترة بالذات بدأ بعض المفكرين ينظرون في كتاب الله تعالى فحسبوا أن فيه إشارات إلى أصول العلوم ولسان حالهم يقول: إذا كتتم أيها الغربيون تفوقتم علينا في العلم والصناعة فإن كتابنا، القرآن، ليس سبب تأخرنا وتحلفنا بل إنه يحوي أصول العلوم، وقد كان هذا في وقت كان يروج فيه بعض المبشرين والمستشرقين لفكرة مؤداها أن تخلف المسلمين يرجع إلى تمسكهم بالقرآن⁽²⁾ .

ومن هذا المنطلق تجدد الجذور القديمة للتفسير العلمي الظروف الملائمة والتربة الصالحة للإمتداد والنماء، وتشتد هذه النزعة في بداية القرن العشرين حيث

(1) القرآن وقضايا الإنسان، د. عائشة عبد الرحمن، ص 310، 311.

(2) اتجاهات التفسير في العصر الحديث، د. عبد المجيد المنحصب، ص 261.

ذهب كثير من العلماء يحاولون تعويض ما فات أمتهم من سبق في مضمار العلوم إلى تلمس تفسير للقرآن يثبت سبق إشارة القرآن لهذه العلوم، ويدعون من ثم إلى تحقيق هذه الإنجازات العلمية ومنافسة الغرب في ميدانه.

ولا أدل على ذلك مما يذكره الشيخ طنطاوي جوهري في تفسيره من حين لآخر من الدوافع والأسباب لتفسير القرآن علمياً من مثل قوله:

«وإني على رجاء أن يؤيد الله هذه الأمة بهذا الدين وينسج على منوال هذا التفسير المسلمون، وليقرآن في مشارق الأرض ومغاربها مقروناً بالقبول، وليولعن بالعجائب السماوية والبدائع الأرضية الشبان الموحدون، وليرفعن الله مدنيتهن إلى العلا، وليكونن داعياً حثيثاً إلى درس العوالم العلوية والسفلية، وليقومن من هذه الأمة من يفوقون الفرنجة في الزراعة والطب والمعادن والحساب والهندسة والفلك وغيرها من العلوم والصناعات»⁽¹⁾. ومثل قوله: «إن آباءنا برعوا في الفقه، فلنبرع نحن الآن في علم الكائنات لنقم به لترقى الأمة»⁽²⁾. وقوله: «يا ليت شعري كيف يفوز الفرنجة بهذه العلوم ويقتسمون البحار والطرق البحرية ويختصون بعلم النجوم، ويحرم المسلمون من كل ذلك لأنهم جهلوا دينهم جهلاً تاماً إلا ظواهر العبادات، اللهم إني أبرأ إليك من الكتمان وأنت أحكم الحاكمين، فقد نصحت لهم جهدي وإني ذاهب إليك وقد فعلت ما في طاقتي بنشر الكتب وتأليف هذا التفسير»⁽³⁾.

كما أن من أسباب رواج التفسير العلمي في العصر الحديث، إضافة إلى ما تقدم ما يلي:

1 - ليس هناك ما يدفع هذا الخطر المحدث بإيمان المثقفين ثقافة غير إسلامية من شباب الإسلام إلا أن يؤكد لهم من جديد أن القرآن هو - حقاً - كتاب الله الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، ولا يمكن عقلاً أن يكون من عند

(1) تفسير الجواهر، 3:1، المقدمة.

(2) المصدر السابق 56:25.

(3) المصدر نفسه 82:4.

محمد، كما يزعم لهم الغرب على ألسنة مستشرقيه . وإثبات أن القرآن هو حقاً كتاب الله عن طريق الإعجاز البياني والبلاغي لم يعد - كما يقولون - : يكفي اليوم لإقناع المثقف المتشكك . وليس ذلك فقط لأن مثقف اليوم لا يدري من علم العربية وذوقها ما يدرك به هذا الإعجاز، ولكن أيضاً لأن الإعجاز العلمي في القرآن طريق حسن في هذا العصر العلمي⁽¹⁾ .

2- زيادة تلاقي القرآن الكريم مع حقائق العلم المقررة بعد الإكتشافات الحديثة، فلقد ثبت بهذا أن القرآن الكريم قد أشار مجملأً أو مفصلاً في مناسبات مختلفة إلى مجموعة من الحقائق العلمية التي لا تقبل الجدل .

والنتيجة الطبيعية لهذا التلاقي هي غو حركة التفسير العلمي كلما حقق العلم جديداً فأثبت ما أشار إليه القرآن منذ مئات السنين⁽²⁾ .

3 - إحساس المفسر في العصر الحديث بتقدير كبير لنتائج العلم الذي سيطر على كل شيء في حياة الإنسان مما جعله يصادف إعجاباً بالغاً . لذلك فإننا نغتنب كثيراً حين يحقق العلم توافقاً ما بينه وبين أخلد ما ندين به أعني القرآن الكريم، لأن هذا التوافق يخلص البعض من المفكرين من أزمة الإحساس بالتخلف التي تؤرقه⁽³⁾ .

(1) الإسلام في عصر العلم، د. الغمراوي ص 174 .

(2) أنظر اتجاهات التفسير في مصر في العصر الحديث، عفت الشراوي ص 390 .

(3) المصدر السابق .

الفصل الثاني

موازنة بين النفسِ العالِيِ
في حاضِرِه وماضِيِه

الفصل الثاني

موازنة بين التفسير العلمي في حاضره وماضيه

بعد أن تناولنا بالدراسة والبحث التفسير العلمي في الحاضر والماضي ودور المعارضين قديماً وحديثاً لهذا الإتجاه في التفسير القرآني، قد يكون من المفيد عقد موازنة بين الإتجاه إليه في الماضي والإتجاه إليه في الحاضر.

وأول ما يظهر للباحث أن المسلمين كانوا كلما ازدادوا صلة بالحضارة الإنسانية والثقافات المختلفة ازدادت حاجتهم إلى تفسير القرآن في ثوب جديد لمواجهة القيم الوافدة والفلسفات الدخيلة.

فعندما ترجمت الثقافات المختلفة إلى اللغة العربية في العصر العباسي وجدنا من العلماء المسلمين من حاول التوفيق بين هذه الثقافات وبين القرآن، كما وجدنا في الطرف المقابل من يرد عليها ولا يرتضيها. وكلا الفريقين المؤيد والمعارض يستمد منهجه من القرآن الكريم.

وعندما استشعر المسلمون خطر الإنهيار السياسي والفكري في العصر الحديث انطلقت حركة التفسير العلمي مرة أخرى وبعثت فيها الحياة من جديد على نطاق أوسع وبصورة أكبر من ذي قبل.

وهكذا يتضح لنا أثر الالتقاء بالثقافات الوافدة في تجديد حركة التفسير.

ثانياً: إن النص القرآني قد واجه خلال عصور التطور الثقافي معارف جديدة

ناستطاع أن يكون مصدر إلهام يستوحيه المفسرون بقدر تمكنهم في الثقافة وسعة الالاق في المعارف الإنسانية والعلم بحقائق الوجود الكبرى . وكلما ازداد المفسر علماً بأسرار الكون والنفس البشرية زاد كشفه عن أعماق النص القرآني وجمالاته الخفية .

ثالثاً: تين لنا أن موقف المفسرين المحدثين القائلين بالتفسير العلمي كان أوسع مجالاً وأكثر تناولاً بعد أن تطورت المدنية وأصبح العالم الإسلامي يعاني آلام الإحتلال الأجنبي وانخفاض مستوى الثقافة .

رابعاً: إن الطابع الغالب على التفسير العلمي في مرحلته الأولى كان منهج الإستدلال العقلي والبرهان المنطقي على وجود الله تعالى وقدرته وإرادته وعلمه ، كما يلاحظ ذلك في تفسير الفخر الرازي ومن سلك منهجه من المفسرين وعلمه ، كما يلاحظ ذلك في تفسير الفخر الرازي ومن سلك منهجه من المفسرين ، بينما نجد المفسرين المحدثين يحاولون بالتفسير العلمي أن يشبوا إعجاز القرآن من الناحية العلمية .

خامساً: المفسرون القدامى كانوا خلال مواجهة الموجات المستحدثة في كثير من الأحيان يتجهون إلى البحث النظري والأسلوب الفلسفي لما يعرض في قضايا وأحكام فيظل الصراع فلسفياً غالباً . بينما المفسرون في العصر الحديث يميلون إلى التطبيق العملي . وقد يتجاوز المفسر عن تفصيلات بيانية أو لغوية إسراعاً منه في الوصول إلى غرضه وتجنباً للقارئ أن تثقله تفصيلات بيانية عن متابعة الهدف الذي يحرص على إبرازه ، وقد تكون بضاعته في النواحي البلاغية واللغوية بضاعة مزجاة .

سادساً: إن الإتجاه إلى التفسير العلمي يأخذ في الزيادة يوماً بعد يوم مع مرور الزمن ، ويتدرج إلى مزاحمة اتجاهات التفسير الأخرى ، حتى ليكاد يخلو له الميدان اليوم . وسواء أرضي منكر هذا الإتجاه في التفسير أم لم يرضوا فإن شيوع التفسير العلمي أصبح حقيقة معروفة ، وما زال أنصاره يزدادون يوماً بعد يوم ، وكل يوم يطلع علينا دعواته بتفسير آية أو آيات أو دعوة إليه وتأييد له .

ومما يلفت النظر في هذا المجال أن الأغلبية من أصحاب الاتجاه العلمي في العصر الحديث هم من غير العلماء المتخصصين في علوم اللغة والشريعة، وإنما هم مثقفون بثقافات علمية أخرى استهوتهم فكرة المزاجية بين العلم والدين وشغفوا بخلق توازن بين المجالين فراحوا يؤلفون ويكتبون.

سابعاً: لقد حاول المفسرون المحدثون من أصحاب هذا الاتجاه تحكيم المنهج العلمي في التفسير حتى الأحكام ذات الصبغة الفقهية، نراهم يحاولون أن يقدموا عليها الدليل العقلي محاولين أن يتلمسوا لها حكماً مما أثبتته العلم الحديث، وهذا ما لا نجده عند المفسرين القدماء، كما كان من تأثير الثقافة الحديثة أيضاً محاولة بعض المفسرين الاستفادة من علم النفس الحديث.

ثامناً: لاحظنا أن المفسر في العصر الحديث حين يتنبه إلى التخلف الشديد الذي يجياه المسلمون يعمد إلى النص القرآني يشده شداً ليؤيد به وجهة نظره في مسابقة الإسلام لحياة الحضارة والتمدن الحديث باعتباره ديناً عالمياً صالحاً لجميع الشعوب والأزمان وملابس الحضارة. تماماً كما كان يفعل المفسر القديم حين يأخذ في توجيه النص القرآني توجيهاً مذهبياً أو عقلياً.

تاسعاً: إن المفسر الحديث لا يترك مناسبة تتصل بالاتجاهات العلمية الحديثة، تمرّ دون أن يحاول الكشف عن دعوة القرآن إلى العلم وحثه عليه.

ومجد الباحث المعاصر كتباً كثيرة تستخدم النصوص القرآنية لتقييم الدليل على أن الإسلام قد سبق الحضارة الغربية بقرون طويلة إلى إعلان مكانة الفكر والمعرفة. ومن هنا يبدو التطور الواضح الذي طرأ على الاتجاه العلمي في تفسير القرآن.

فلقد كان المفسرون القدماء من أصحاب هذا الاتجاه يتحركون داخل الإطار العام للنص. أما في العصر الحديث فقد أصبح هذا الاتجاه أكثر حركة وأوسع إطاراً، وذلك ناشئ عن التوسع في التأثر بالثقافة الغربية والحضارة الحديثة.

عاشراً: مما يجدر ذكره - ونحن نتلمس السمات البارزة للإتجاه العلمي في التفسير بين الماضي والحاضر - أن المفسرين في الماضي لم يكونوا يقصدونه بالذات في تأليفهم وهم يتناولون تفسير القرآن، وإنما يأتي به المفسر ضمن المباحث التي يسوقها شرحاً للآية أو الآيات باعتباره من المباحث المكملة لفهم الآية.

أما في العصر الحديث فقد وجدنا الكثير من الباحثين يخصصونه بالتأليف ويتناولون الآيات الكونية بالشرح والتعليق في ضوء تخصص ذلك الباحث أو المؤلف.

حادي عشر: إن التفسير العلمي لم تنضح معالمه، ولم يأخذ طابعه الحالي إلا في التفسير الحديث. أما في التفسير القديم فقد كان وجوده تلقائياً، ولم يسم أحد من المفسرين القدامى بهذا الاسم، وإنما كانوا يقولون: إن القرآن يشمل كل علم يذكر للأولين والآخرين، كما قال الإمام الشاطبي - رحمه الله -:

«إن كثيراً من الناس تجاوزوا في الدعوى على القرآن الحد، فأضافوا إليه كل علم يذكر للمتقدمين أو المتأخرين من علوم الطبيعيات والتعاليم والمنطق وعلم الحروف وجميع ما نظر فيه الناظرون من هذه الفنون وأشباهها»⁽¹⁾.

وعليه فالتفسير العلمي في الماضي كان يشمل استنباط أي علم من القرآن كما نفيده عبارة الشاطبي المتقدمة الذكر، وكما تناوله فعلاً الإمام الرازي، فهو يشمل العلوم النظرية مثل المنطق والفلسفة إلى جانب العلوم الطبيعية.

أما في التفسير الحديث فالمقصود به - بالدرجة الأولى - العلم الطبيعي الذي يخضع للملاحظة والتجربة والاختبار، وعلى ذلك فمدلول التفسير العلمي في الماضي كان أوسع منه في العصر الحديث.

«فالعلوم الحديثة التي هي في الواقع علوم الطبيعة وعلوم الكون والحياة كانت في السابق هي الفلسفة أو هي بعضها، ثم افترق العلم عن الفلسفة منذ نحو ثلاثة قرون، واختص العلم بدراسة كل ما يحس أو يأتي في توابع الإحساس،

(1) الموافقات في أصول الأحكام 2: 79.

وانصرفت الفلسفة تشتغل بما وراء ذلك بما وراء الطبيعة فيما لا يحس وتشتغل بضروب أخرى من المعاني .

واختلفت طرائق العلم الحديث عن طرائق الفلسفة ، فالعلم مؤسس على التجربة يجريها العالم ويتبع نتائجها ، وعلى الملاحظة يأتيها ويرصد نتائجها ثم هو يعمل عقله في هذه النتائج⁽¹⁾ .

ثاني عشر : من السمات البارزة في الفرق بين التفسير العلمي عند القدامى والمحدثين أن المفسرين القدامى اقتصروا في تفسير الآيات الكونية على إيضاح كل آية في موضعها من كتاب الله العزيز منفصلة عن باقي الآيات المشابهة لها في الموضوع . ولم يحاول أحد منهم - فيما أعلم - أن يجمع كل طائفة من الآيات المنزلة في الموضوع الواحد كخلق السماء أو الحيوان أو النبات مثلاً ، ثم يتناولها بالبحث والربط بينها ، ويستخرج قضايا علمية منها كما فعلوا في استنباط الأحكام الشرعية وما اتصل بها من آيات الأحكام . على عكس ما حدث في العصر الحديث ، فقد وجد من العلماء من جمع الآيات الكونية المتعلقة بكل موضوع على حدة ثم قارن بينها واستخرج القضايا العلمية منها ، كما فعل الأستاذ حنفي أحمد في كتابه (التفسير العلمي للآيات الكونية في القرآن) .

(1) مع الله في السماء ، د . أحمد زكي ، كتاب الهلال رقم 311 ، 1976 ص 19 .

البَابُ الْخَامِسُ

القَضَايَا الَّتِي تَرَكَّزَ حَوْلَهَا التَفْسِيرُ الْعِلْمِيُّ

الفصل الأول : القضايا الكونية.

الفصل الثاني : القضايا النفسية.

الفصل الأول

القضايا الكونية



الفصل الاول

القضايا الكونية⁽¹⁾

تبين لنا بعد الدراسة للتفسير العلمي أنه يتركز حول القضايا الكونية التالية :

أصل الكون - شكل الأرض كما تحدث عنها القرآن وأثبت العلم الحديث -
قضية السموات السبع في القرآن وفي العلم - قضية الحياة على الكواكب الأخرى
- قضية أصل الإنسان كما صرح به القرآن وتناولته البحوث العلمية .

1 - أصل الكون

لقد شغلت مشكلة أصل الكون جهود كثير من رجال العلم والدين والفلسفة من جميع الأديان ، لأن الكتب المقدسة لم تذكر متى خلق العالم ولا في أي سنة⁽²⁾ ، وذلك - في تقديري - راجع إلى أن الكتب المقدسة بصفة عامة والقرآن بصفة خاصة لا يعنينا في قليل أو كثير أن يعلم الناس هذه القضية ، لأن معرفتها

(1) المقصود بالقضايا الكونية : القضايا المتعلقة بالكون المشهود عدا الإنسان من حيث هو روح وعقل واختيار . أما البدن من حيث خلقه وسنن الله فيه فداخل في الكون ، والنفس أيضاً خلقها الله ، وله سبحانه في خلقها وفي سلوكها سنن . لكن العرف جرى في فهم الآيات الكونية القرآنية أنها الآيات المتعلقة بغير نفس الإنسان . (انظر الإسلام في عصر العلم للغمراوي ص 245) . ومن هنا جاء تقسيم القضايا إلى قضايا كونية وقضايا نفسية .

(2) اتجاهات التفسير في مصر في العصر الحديث ، الشرقاوي ص 378 .

لن يترتب عليها فائدة دينية ولا دنيوية .

ولكن حب الاستطلاع والمعرفة دفع ببعض الباحثين في جميع العصور إلى تناول هذه القضية وإثارة الجدل حولها، ولكن من جانب آخر، وهو المادة التي خلق منها العالم . أما قضية تاريخ وجوده فلم يستطع أحد أن يزعم لنفسه أنه وصل فيها إلى تاريخ محدد مقبول .

فعند (طاليس) مثلاً - وهو أول فيلسوف ظهر عند الاغريق (640 ق. م) - أن الكون كله نشأ من أصل واحد وهو الماء، وأن كل ما طرأ عليه من تغيرات واختلاف في مظاهره ما هي إلا تحولات نجمت عنه لوجود عناصر في الماء أثرت فيه وحولته إلى أشياء . فالصخور مثلاً ما هي إلا ماء تجمد وطال عليه الزمن فتحول إلى هذه الصخور، والتراب ما هو إلا فتات الصخر تنثر نتيجة تأثير الهواء . والهواء هو ماء تبخر فتحول إليه، والسحاب بخار تكاثف، والنار ما هي إلا حرارة تولدت من احتكاك الأجسام التي تجمدت عن الماء . فكل شيء يرجع في أصله إلى الماء .

ثم جاء بعد طاليس (أنكسياندر) وقال : إن أصل الكون هو المبهم أو اللامتناهي (ويعني به الهواء أو الفراغ الذي ليس له حدود) ، ومن هذا اللامتناهي خرجت السموات إلى أعلا، والمحيطات إلى أسفل، ومن المحيطات إذ تبخرت تحت الشمس خرج أول المخلوقات المائية الحية . ومنه تطور النسل إلى الطيور والحيوانات حتى بلغ آخر خليفة أرضية ألا وهي الإنسان⁽¹⁾ .

وفي رأي (أناكسيانز) الذي ظهر بعد أنكسياندر بحوالي قرن أن هذا الجوهر الأولي هو الهواء، وأن هذا الهواء خلال حركته اللانهائية يتكاثف فتكون منه أشياء مادية كالنار والرياح والسحاب والماء والتراب والمعدن والصخر . وكل هذه الصور الصلبة لتكاثف الهواء تكون مادة العالم .

أما مظهر الهواء الأكثر رقة فهو نفس العالم .

(1) أعلام الفلاسفة كيف نفهمهم، هنري توماس، ترجمة متري أمين، تقديم الدكتور نجيب محمود، ط القاهرة 1964 م، ص 70 .

أما (هيرقليطس) فاعتقد أن جوهر الكون الأصلي هو النار⁽¹⁾.

أما علماء الطبيعة فيرون أن أصل الكون نشأ من غاز ساخن متخلخل يملأ الفضاء ويحتوي على دقائق المادة ويتحرك باستمرار، وقد اعترته في قديم الزمن هزات قوية واضطرابات شديدة جزأت هذا الغاز أو القسم الأكبر منه إلى قطع من السحب المتكاثفة، وانتشر الباقي منه في الفضاء.

ولما كانت هذه السحب الغازية تحمل بين ثناياها قوتي التجاذب انفصمت منها أجزاء أخرى مختلفة المقادير في أحجامها، وأخذ شكل الجميع يتقلص ويتكتل على أشكال دائرية تلف حول نفسها وتدور بسرعة هائلة، مما أدى إلى تفرطحها على أشكال عدسية فتكون من ذلك النجوم، ونشأت المجرات التي أخذت في التباعد عن بعضها بعضاً نتيجة للتمدد المستمر.

ولما كانت هذه النجوم الغازية قد تكون أجرامها على أشكال كروية الشكل نتيجة لدورانها حول نفسها أخذت هذه الكتل تتقلص تحت تأثير التجاذب بين أجزائها فزاد لذلك التفافها حول نفسها وزادت كثافتها، وارتفعت درجة حرارتها مما تسبب عنه تولد طاقة حرارية عظيمة الإشعاع.

ويرى علماء الفلك أن السيارات تكونت من الشمس، إلا أنهم اختلفوا في كيفية نشوئها، فبعضهم يرى أن نشوء السيارات كان نتيجة لسرعة دورانها مما سبب انفصام قطع غازية منها كأقراص العجين بتأثير القوة المركزية الدافعة. ثم أخذت هذه الأقراص تتكاثف وتتقارب مع بعضها بعضاً وتدور حول أمها الشمس، ثم أخذت في التمدد شيئاً فشيئاً مما أدى إلى تقلصها وازدياد السرعة في التفافها حول نفسها، وإلى انفصام أجزاء منها لنفس الأسباب التي أدت إلى انفصالها عن الشمس، وهي ما يسمى بالأقمار.

ويرى البعض الآخر منهم أن نشوء السيارات كان نتيجة التصادم مع نجم آخر مجهول يساوي حجم الشمس أو أكبر تنأثرت أجزاء منها ثم أخذت بعامل

(1) أعلام الفلاسفة كيف نفهمهم، ص 71.

انجذابها إليها تدور حولها في أفلاك دائرية، ثم حدث لها تكاثف بسبب برودتها فتكونت منها الأسرة الشمسية. أو أن النجم مرّ في مجال الشمس عندما كانت أقل حرارة وأكبر حجماً وهي في حالة غازية فجذب منها لساناً طويلاً، ثم انفصل عنها هذا اللسان وتجزأ إلى أجزاء مختلفة المقادير، فأخذت هذه الأجزاء تدور حول الشمس دورات قلقة، وبعد انسحاب النجم أخذت تنتظم دوراتها، ثم انفصل من هذه الأجزاء في حال غازيتها قطع صغيرة فتكون منها التوابع⁽¹⁾.

هذه المحاولات في تفسير أصل الكون لها نظائرها في بعض كتب التفسير القديمة.

فقد نقل الزمخشري عند تفسير قوله تعالى: ﴿ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ﴾⁽²⁾ قيل: كان عرشه قبل خلق السموات والأرض على الماء، فأخرج من الماء دخاناً فارتفع فوق الماء وعلا عليه، فأيس الماء فجعله أرضاً واحدة ثم فتحها فجعلها أرضين، ثم خلق السماء من الدخان المرتفع... قيل خلق الله السموات وما فيها في يومين الخميس والجمعة وفرغ في آخر ساعة من يوم الجمعة فخلق فيها آدم، وهي الساعة التي تقوم فيها القيامة - اهـ-⁽³⁾.

وقد روى الأستاذ عبد الرزاق نوفل، نقلاً عن بعض كتب التفسير، روايات عجيبة في تفسير بعض الآيات القرآنية قال:

«روت الرواة بالفاظ مختلفة ومعان متفقة أن الله تعالى لما أراد أن يخلق السموات والأرض خلق جوهره خضراء أضعاف أطباق السموات والأرض، ثم نظر إليها نظر هيبه فصارت ماء ثم نظر إلى الماء فعلا وارتفع منه زبد ودخان وبخار وأرعد من خشية الله، فمن ذلك اليوم يرعد إلى يوم القيامة، وخلق الله من ذلك الدخان السماء فذلك قوله تعالى: ﴿ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ وَهِيَ دُخَانٌ﴾⁽⁴⁾ أي قصد

(1) أضواء من القرآن على الإنسان ونشأة الكون والحياة، عبد الغني الخطيب، دار الفتح بدمشق، ط 1، 1970 م، ص 63 - 65.

(2) سورة فصلت، الآية 11.

(3) تفسير الكشاف، ط بولاق 2: 285.

(4) سورة فصلت، الآية 11.

وعمد إلى خلق السماء. وخلق من ذلك الزبد الأرض فأول ما ظهر من الأرض على وجه الماء مكة فدحا الله الأرض من تحتها فلذلك سميت (أم القرى) يعني أصلها، وهي قوله تعالى: ﴿والأرض بعد ذلك دحاهما﴾⁽¹⁾.

ولما خلق الله الأرض كانت طبقاً واحداً ففتقها وصيرها سبعة وذلك قوله تعالى: ﴿أولم ير الذين كفروا أن السموات والأرض كانتا رتقاً ففتقناهما﴾⁽²⁾. ثم بعث الله تعالى من تحت العرش ملكاً فهبط إلى الأرض حتى دخل تحت الأرضين السبع فوضعها على عاتقه، ولم يكن لقدميه قرار فأهبط الله تعالى من أعلى الفردوس ثوراً له سبعون ألف قرن وجعل قرار قدمي الملك على سنامه، ولم يكن لقوائم الثور موضع قرار فخلق الله صخرة خضراء فاستقرت قوائم الثور عليها وهي الصخرة التي قال لقمان لابنه: ﴿يا بني إنها إن تك مثقال حبة من خردل فتكن في صخرة أو في السموات أو في الأرض يأت بها الله﴾⁽³⁾.

إلى آخر هذه الخرافات التي يبدو فيها تدخل الأسطورة الشعبية في تفسير أصل الكون⁽⁴⁾.

لذلك رأى بعض الباحثين أنه قد يكون من المفيد تلخيص كتب التفسير من هذه الإسرائيليات والأساطير ومحاولة كتابة تفسير علمي صحيح⁽⁵⁾.

ولا شك أن هذه الفكرة جيدة بالنسبة لشقها الأول وهو تلخيص كتب التفسير من الشوائب العالقة بها، وهو ما فعله كثير من العلماء المخلصين مثل أستاذنا المرحوم محمد حسين الذهبي في كتابه (الإسرائيليات في التفسير والحديث) والأستاذ محمد أبو شهبه في كتابه (الإسرائيليات والموضوعات في كتب التفسير) وغيرهما.

(1) سورة النازعات، الآية 30.

(2) سورة الأنبياء، الآية 30.

(3) سورة لقمان، الآية 15. بين الدين والعلم، عبد الرزاق نوفل، ص 135 وما بعدها.

(4) اتجاهات التفسير في مصر في العصر الحديث ص 380.

(5) اتجاهات التفسير في مصر في العصر الحديث، ص 380.

وأما بالنسبة للشق الثاني وهو كتابة تفسير علمي ، فقد يكون هذا التفسير العلمي مؤقتاً أيضاً إلى أن تجدد حقائق أخرى تغير من نظرة الناس إلى الكون ويصبح هو أيضاً بدوره من الخرافات. ويكون تفسير بعض الآيات القرآنية المتعلقة بالكون يأخذ الطابع الفكري للعصر. وهذا ما حصل بالفعل في تفسير بعض الآيات، وهو ما لا يصح الذهاب إليه.

وقد تصور المحدثون أصل الكون في ضوء النظريات العلمية الحديثة. فهناك النظرية الخاصة بنشأة الكون عموماً. وتتلخص في أن الكون قبل أن يأخذ صورته الحالية كان حشداً هائلاً متجمعاً في أبسط صورة لقوى الذرات المتصلة الواقعة تحت ضغط هائل لا يكاد يتصوره العقل، وأن جميع أجرام السماء اليوم ومحتوياتها بما فيها المجموعة الشمسية والأرض كانت مكدسة تكديساً شديداً في كرة لا يزيد نصف قطرها على ثلاثة ملايين من الأميال. وبعد ذلك حدث انفجار عظيم لذلك السائل النووي انتشرت بسببه مادة الكون فيما حولها من أجواء انتهت بتكوين مختلف أجرام السماء المختلفة المنفصلة بما فيها المجموعة الشمسية⁽¹⁾.

وهناك النظرية الخاصة بتكوين المجموعة الشمسية، وهي تقرر أن الغيم الكوني حول الشمس بدأ في التمدد في الفضاء البارد، وأخذت حبيبات الغاز الذي يتألف منه القيام بالتكثف على الذرات الغبارية ذات الحركة السريعة، ثم تجمدت هذه الذرات بالتصادم والتراكم وهي تجبس في داخلها كميات من الغاز الثقيلة، وازداد التراكم والتجمع على ممر الأحقاب حتى تكونت الكواكب والأقمار والأرض على أبعاد مناسبة... الخ⁽²⁾.

وقد أخذ بعض المفسرين المحدثين ببعض هذه النظريات فيرون أن مجموع السموات والأرض كان مادة واحدة متصلاً ببعض أجزائها ببعض على كونه ذرات غازية كالدخان. ولما كان ذلك الفتق في الأجرام انفصل جرم الأرض عن جرم الشمس وصارت الأرض قطعة مستقلة باثرة ملتبهة، وكانت مادة (الأوكسيجين

(1) المنتخب في التفسير، المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية، تعليق الخبراء ج 5 الملحق ص 6.

(2) المنتخب في التفسير، ج 5 الملحق ص 5.

والأيدروجين) تتبخر من الأرض بما فيها من الحرارة فتتلاقى في الجو برودة تجعلها ماء فينزل على الأرض فيبرد من حرارتها، وما زال كذلك حتى صارت الأرض كلها ماء وتكونت بعد ذلك اليابسة فيه، وخرج النبات والحيوان وكل شيء حي من الماء⁽¹⁾.

كما نجد بعض المفسرين يربط بين بحوث العلماء التي تهتم بقصة خلق الكون وبين آيات القرآن، حيث فسرت الآية الكريمة ﴿أولم ير الذين كفروا أن السموات والأرض كانتا رتقاً ففقتنهما﴾ في ضوء نظرية (السديم) الذي انفصل إلى أجزاء مكوناً الشمس والأرض والنجوم، والذي ثبت بتقدم البحوث أنه غاز عالق به مواد صلبة ويقولون:

إن «اللفظ الوحيد الذي يمكن إطلاقه علمياً على السديم هو الدخان»⁽²⁾، وهو الذي ورد ذكره في القرآن الكريم في قوله: ﴿ثم استوى إلى السماء وهي دخان﴾. «وبذلك قرر العلم الحديث أن الأرض والشمس والنجوم - أي السماء والأرض وما فيها - إنما كانت سديماً انفصل إلى أجزاء. وقد سبق القرآن هذا العلم بعشرات المئات من السنين»⁽³⁾.

«وإن الآية الكريمة من عجائب الإعجاز العلمي في القرآن لأنها سبقت علماء الفلك المحدثين إلى ما قرروه من أن الكون كله قبل أن تتشكل عوالمه ومجراته ونجومه كان كياناً سديماً غير متميز بعضه عن بعضه ثم أخذ يتميز ويتطور لا يدرون بالضبط كيف وإن نسبوه إلى فعل الجاذبية»⁽⁴⁾.

وفي دراسة مفصلة لبعض الباحثين يجد القارئ فصلاً طويلاً عن نشوء السموات والأرض يستنبط منه الباحث طبيعة المادة الكونية الأولى وكيف سواها الله إلى سبع سموات غير أرضية وأتم خلقها في يومين - أي نوبتين - في زمنين

(1) تفسير المنار 61:2.

(2) القرآن والعلم الحديث، عبد الرزاق نوفل، ص 162.

(3) الله والعلم الحديث، عبد الرزاق نوفل، ص 140.

(4) الإسلام في عصر العلم، الغمراوي، ص 192.

مجهولين . . . إلى آخر القضايا التي يقدمها في تفسيره لآيات القرآن في الكون . ثم يقابل بين هذه القضايا التي يقدمها القرآن عن نشوء السموات والأرض وبين القضايا العلمية التي يقول : أنها تتفق معها⁽¹⁾ . وينتهي الباحث إلى أن القرآن قد أتى بوصف شامل دقيق لأصل العالم تارة بصريح النص وغالباً بإشارات فيه واضحة ومحدودة مما يتفق مع آخر ما وصل إليه العلم الحديث⁽²⁾ .

ولكن هذه النظرية السديمية التي وثق بها هؤلاء الباحثون والتي يعتد بها العلم الحديث ليست إلا حلقة واحدة من نظريات كثيرة تنابعت في تفسير أصل الكون ، وهي لا تعدو أن تكون فرضاً من الفروض يقبل النقص والزيادة بل يقبل النقض والتفنيد ، ولم يتته العلماء بعد إلى قرار متفق عليه⁽³⁾ .

وفي كل زمان تسود نظرية منها وتجتمع الأدلة الظاهرة على صدقها . ثم يأتي بعد ذلك ما ينقضها ويهدمها تماماً . ومن يدري لعل هذه النظرية التي يبالغ العلماء في الاعتداد بها اليوم يأتي في غد ما ينقضها من أساسها⁽⁴⁾ .

فهذه الآراء ما هي إلا استنتاجات تصورها الفلكيون ولكن الحقيقة لا يعلمها إلا خالق الكائنات سبحانه .

كما أن تفسير آية رتق السموات والأرض بنظرية الانفصال الشمسي التي قال بها العلم الحديث بعيد عن مقصد الهداية القرآنية لا يفهمه من أسلوب البيان القرآني إلا من قصده متأولاً ، لأن الصفة يجب أن تكون معلومة للمخاطب . ومن غير شك أن نظرية الانفصال لم تكن معلومة لهؤلاء المخاطبين بل ولا لأجيال بعدهم . والقرآن لم ينزله الله لهداية العلماء وحدهم ، وإنما نزل لهداية البشرية جمعاء على اختلاف مستويات عقولهم وثقافتهم⁽⁵⁾ .

وقصارى ما يقال : إن النظرية الفلكية القائمة اليوم لا تعارض المفهوم

(1) التفسير العلمي للآيات الكونية في القرآن ، ص 200 ، 229 .

(2) المصدر السابق ص 237 .

(3) الفلسفة القرآنية ، ص 188 .

(4) اتجاهات التفسير في مصر في العصر الحديث ، ص 382 .

(5) القرآن العظيم ، هدايته وإعجازه في أقوال المفسرين ، ص 140 .

الإجمالي لهذا النص القرآني السابق عليها بأجيال⁽¹⁾.

والقول المأمون في تفسير الآية الكريمة: إن السموات والأرض كانتا رتقاً فانفتقتا في زمن من الأزمان، أما أن يكون الرجوع في ذلك إلى النظرية السديمية فهو المجازفة بالرأي في غير علم وفي غير حيلة وفي غير دليل⁽²⁾. أو يقال: إن الآية تشير إلى طورين تعاقبا: طور الاتصال فيما بين أجزاء المادة، وطور الانفصال لتلك الأجزاء وتفرع العالم منها إلى علوي مظهره السموات وما حوت من أفلاك وكواكب وسفلي مظهره الأرض وما اشتملت عليه من جبال راسية وفجاج واسعة ومياه جارية.

وبهذا نستطيع أن نقول:

إن القرآن الكريم في أسلوبه المعجز وفي إشاراتهِ اللطيفة عن نشأة الكون وأصل الوجود قد وضع يد الإنسان على مفاتيح الحلول ليستفيد منها بحسب طاقته الإنسانية التي أودعها الله فيه. فعليه أن يبذل جهده ويستفرغ إمكانياته ويستعمل ملكاته ومواهبه العقلية والفطرية بنفسه ليتوصل إلى الحلول الصحيحة والنتائج المفيدة، والإطلاع على أسرار الكون ليعبد الله عن علم ويمجده عن معرفة⁽³⁾.

وها هو ذا القرآن الكريم يرغبنا في سبر الأغوار وتقصي الأسرار لمعرفة الصورة الصحيحة التي وجد عليها الكون لأول مرة فيأمرنا بالسير في الأرض والتأمل الدقيق فيقول: ﴿قل سيروا في الأرض فانظروا كيف بدأ الخلق﴾⁽⁴⁾. ولكنه في الوقت نفسه لا يميلنا على مصادرنا البشرية المحدودة وحدها وهي غير كافية ولا وافية، وإنما يعرض علينا نموذجاً من نماذج هذا الخلق الأول مشفوعاً بالأرقام مقروناً بذكر الأيام لميلاد الأرض وجبالها الراسيات وما فيها من المعادن والخيرات والأقوات، ثم للسموات السبع الطباق وهي دخان، وذلك في قوله

(1) في ظلال القرآن، 4: 2376.

(2) الفلسفة القرآنية، ص 189.

(3) أضواء من القرآن على الإنسان ونشأة الكون والحياة، ص 89، 90.

(4) سورة العنكبوت، الآية 19.

تعالى: ﴿قُلْ أَنتُمْ لَكُمْ تَكْفُرُونَ﴾ والذي خلق الأرض في يومين وتجعلون له أنداداً ذلك رب العالمين. وجعل فيها رواسي من فوقها وبارك فيها وقدر فيها أقواتها في أربعة أيام سواء للسائلين. ثم استوى إلى السماء وهي دخان فقال لها وللأرض ائتيا طوعاً أو كرهاً قالتا أتينا طائعين فقضاهن سبع سموات في يومين وأوحى في كل سماء أمرها وزينا السماء الدنيا بمصابيح وحفظاً ذلك تقدير العزيز العليم ﴿١﴾.

وأخيراً فإن قضية بدء الخلق تعرض لها العلماء المؤمنون وغير المؤمنين قديماً وحديثاً. وليس حديثهم في ذلك بالغاً مبلغ اليقين مهما تكن الثقة بقوة عقولهم وسلامة تفكيرهم وتوافر قدرتهم على البحث والاستقصاء. لأنه ليس هناك وسائل علمية تثبت هذا ثبوتاً قاطعاً. وكل ما ذكره في هذا الشأن لا يزيد على أنه ضرب في مجالات الفروض أو تخليق في أجواء المجهول.

ومع أن المنصف لا يستطيع أن يحدد ما بذلوا من جهد، هو كذلك لا يستطيع أن يطمئن إلى ما ظفروا به من نتائج، وسند المسلم في ذلك قول الحق جل وعلا: ﴿ما أشهدتهم خلق السموات والأرض ولا خلق أنفسهم﴾ (٢)، صدق الله العظيم (٣).

2- شكل الأرض

من القضايا التي يتناولها أصحاب الاتجاه العلمي في التفسير شكل الأرض من حيث الكروية وعدمها، والحركة وعدمها، محاولين دائماً أن يوفقوا بين ما جاءت به آيات القرآن عندما تصف الأرض أو تتحدث عنها، وبين ما يقوله علماء الهيئة ويثبت العلم الحديث.

وقد جاءت الآيات الكثيرة في القرآن التي تتحدث عن الأرض لتلفت أنظار الناس إليها والتأمل فيها لتدلهم على وجود الله تعالى ووحدانيته وعظيم قدرته

(١) سورة فصلت، الآيات 8-11.

(٢) سورة الكهف، الآية 50.

(٣) مع القرآن الكريم، الشيخ أحمد الباقوري، ط الآداب، 1970م، ص 257 وما بعدها.

وكامل علمه، لأن الناس على رغم حياتهم على ظهرها وانتفاعهم بخيراتها فالآلاف والعادة يمكن أن تنسيهم النظر إليها والتفكر فيها.

ولم يذكر في القرآن أثناء ذلك شيء يخالف ما أثبتته أو يشبهه العلم اليقيني.

لقد قال علماء الهيئة: إن الأرض كروية الشكل وإنها متحركة وأقاموا على ذلك دلائلهم المعلومة في كتبهم، وأنها على عظمها سابحة في الفضاء، وليست لها حافة ينتهي إليها من يجوب سطحها، ومثلوا ذلك بما إذا مشت ذبابة على (بطيخة) معلقة فهي لا تنتهي إلى حافة وكذلك الأرض الكروية الشكل السابحة في الفضاء، ليس لها حافة ينتهي إليها من يجوب سطحها.

كما ذهبوا إلى أن لها حركة يومية وهي دورانها حول محورها، ويترتب عليها الليل والنهار، وحركة أخرى سنوية حول الشمس وترتب عليها الفصول الأربعة. كما قالوا: إن لها حركة ثالثة مع المجموعة الشمسية كلها.

ولقد ظل المفكرون يعتقدون أن الأرض مبسوطة «وكان طبعياً أن يروا ذلك فهذا هو الرأي المشاهد المشترك بين الناس، كما أنه من الطبيعي، كذلك، أن نجد من أهل الأرض إلى اليوم من لا يؤمن بتكور الأرض اعتقاداً على رأي العين»⁽¹⁾.

وظلوا على هذا الاعتقاد حتى جاء بعض فلاسفة الإغريق فقرر أنها كروية. وعندما تقدم العلم في العصر الحديث بمراصد وآلاته قرر أنها ليست كروية تامة التكوين، بل هي منبعجة عند خط الاستواء ومفلطحة عند القطبين، أي أنها بيضاوية الشكل، وهذا المعنى تفيده لفظة (دحاهة) التي وصفها القرآن بها على بعض معانيها.

ويرى بعض الباحثين أن المفسرين لم يفهموا من هذه اللفظة ذلك المعنى الذي قصد إليه القرآن، ويلتمس لهم العذر في ذلك لأنه ما كان يخطر ببالهم أن هذه الأرض التي يشاهدونها صباح مساء مبسوطة هي مدحوة أي مثل البيضة، لذلك كانوا يتركون المعنى الذي يفهم من اللفظ ويسندون إليه معنى آخر هو ذلك

(1) مع الله في السماء، د. أحمد زكي، ص 36.

المعنى الذي يظهر لهم من ظاهر الأرض وهم يشاهدونها فيقولون عند تفسيرهم للآية دحاها؛ أي بسطها. كما يرى هذا الباحث أن اللغويين يبدو أنهم كانوا في حيرة لأنهم إذا اتجهوا إلى تفسير اللفظة التفسير اللغوي الخالص يتجهون إلى المعنى الذي يهدف إليه القرآن، فإذا عرضوا إلى تفسير لفظة القرآن نفسها تحفظوا وتابعوا المفسرين⁽¹⁾.

يقول هذا الباحث: «لنعرض أمام القارئ نوعاً مما دونه تلك القواميس عن معاني هذه الكلمة (دحاها) لكي نرى مبلغ محاولة هؤلاء المفسرين التوفيق بين ظاهر ما يرون وبين معنى الآية التي نحن بصدددها، وهم لا يعلمون أنهم كانوا مجانبين للصواب⁽²⁾.

(أ) دحا البطن: عظم واسترسل إلى أسفل.

(ب) الأدحى والأدحية والأدحوة: مبيض النعام في الرمل ومنزل للقمر.

(ج) وبمعنى مكان يجري فيه القمر ومكان يظهر فيه للناس.

(د) والبسط ﴿والأرض بعد ذلك دحاها﴾ أي بسطها.

وهذه المعاني - عدا الرابع منها - لا نجد فيه إشارة من قريب أو بعيد إلى معنى

(1) انظر القرآن والعلم، أحمد محمود سليمان، دار الكتاب العربي، ط 2، 1974م، ص 26.

(2) الحق أن من معاني (الدح) عند العرب البسط، قال أمية بن أبي الصلت:

دحوت الأرض فسويتها وأنت على طيها قادر

كما أن من معاني التسوية، قال زيد بن عمرو بن نفيل:

وأسلمت وجهي لمن أسلمت له الأرض تحمل صخراً ثقلاً

دحاها فلما استوت شدها وأرمى عليها الجبالا

كما أن من معانيه درجة الأشياء القابلة للدرجة لاستدارتها كالجوز والكرات ونحوها. وفي حديث أبي رافع «كنت ألاعب الحسن والحسين بالمداحي» وهي أحجار أمثال القرصة - جمع قرص - كانوا يحفرون الحفرة ويدحون فيها بتلك الأحجار، فإن وقع الحجر فيها غلب صاحبها، وإن لم يقع غلب. قال بعض الفضلاء: ولعل المعنى الأخير هو المراد. وفي ذلك دلالة أو إشارة إلى أنها كرة أو كالكرة في الاستدارة. والمراد على جميع المعاني: الإمتنان بتهيئتها لسكنى الأحياء وتقليبهم في أرجائها فوق الاستدلال على البعث. (انظر تفسير القرطبي 205:19، ولسان العرب 252:14، وتفسير جزء عم، مع مقدمات التفسير للشيخ محمد المبارك عبد الله، ط محمد صبيح، ص 44.

(بسط)، ولكنها تدل على أشياء مستديرة أو صفتها الإستدارة. فمبيض النعام في الرمل مستدير شأنه شأن البيض، ولكنه ليس تام الإستدارة بل إنه منبعج من ناحية ومفلطح من ناحية، ولا يزال العرب حتى اليوم يطلقون على البيضة كلمة (دحية) فدحا معناها العربي في الحقيقة جعل كشكل البيضة، وهو أدق تعبير على شكل الأرض، فهي كالبيضة منبعجة عند خط الإستواء وليست مستديرة ولكنها بيضاوية، وهذا مطابق لقول القرآن تمام المطابقة.

وهذه الحقيقة لم يدركها بدقتها إلا العلم الحديث، بينما أظهرها القرآن الكريم منذ ستين وثلاثمائة وألف - اهـ -⁽¹⁾.

ولعل في قوله تعالى: ﴿يَكُونُ اللَّيْلُ عَلَى النَّهَارِ وَيَكُونُ النَّهَارُ عَلَى اللَّيْلِ﴾⁽²⁾ إشارة إلى كرويتها بكروية جوها الذي يشغله ويتعاوره الليل والنهار على التجدد أعلى كل بقعة من بقاع الأرض. والتكوير: اللف والي يقال: كار العمامة على رأسه وكورها⁽³⁾. كما أن التكوير لا يكتمل معناه إلا مع كروية الأرض وحركتها اليومية إذ لا يكون معنى التكوير واضحاً لو أننا تصورنا الأرض مبسوطة كما كان رأي الأقدمين لأن قوله تعالى: ﴿يَكُونُ اللَّيْلُ عَلَى النَّهَارِ وَيَكُونُ النَّهَارُ عَلَى اللَّيْلِ﴾⁽⁴⁾، وقوله تعالى: ﴿يَغْشَى اللَّيْلُ النَّهَارَ يَطْلُبُهُ حَثِيئاً﴾⁽⁵⁾ يتجلى فيها كلها معنى التلاحق، وأن تكوير كل منها على الآخر يجري في آن واحد، فكلما لَفَّ الليل على النهار في جزء من الأرض لف مثله النهار على الليل في الجزء الذي يليه. ولا يتصور هذا المعنى مع تصور الأرض مبسوطة ساكنة لأنها لو كانت كذلك فلن الشمس إذا طلعت عليها أثارها من أولها إلى آخرها دفعة واحدة، وإذا غابت عنها أظلمت دفعة واحدة⁽⁶⁾.

(1) القرآن والعلم، أحمد محمود سليمان، ص 27، 28.

(2) سورة الزمر، الآية 5.

(3) تفسير الكشاف، 2: 259.

(4) سورة الحج، الآية 61، وسورة لقمان، الآية 29.

(5) سورة الأعراف، الآية 54.

(6) قصة الإيمان بين الفلسفة والعلم والقرآن، الشيخ نديم الجسر، المكتب الإسلامي ط 3، 1969، ص 321.

كما أن في الشريعة دلائل كثيرة تدل على كرويتها، منها اعتراف الأئمة باختلاف المطالع، فإن الصبح في بعض البلاد يوافق المساء في بلاد أخرى، وطلوع الهلال في بعض الأفاق يوافق غيوبته في بلاد أخرى⁽¹⁾.

يقول أبو الفدا في كتابه تقويم البلدان:

«أما جملة الأرض فكروية الشكل حسبما ثبت في علم الهيئة بعدة أدلة، منها: أن تقدم طلوع الكواكب وتقدم غروبها للمشرقين على طلوعها وغروبها للمغربيين يدل على استدارتها شرقاً وغرباً، وارتفاع القطب والكواكب الجنوبية، وانحطاط الشمالية للواغليين⁽²⁾ في الجنوب بحسب وغولها، وتركب الاختلافين للسائرين على سمت بين السمتين وغير ذلك دليل على استدارة جملة باقي الأرض - اهـ -⁽³⁾.

وقد يورد بعض الناس الذين لا يفرقون بين الظن والعلم ومن لا يمعن النظر في فهم الكلام البليغ أشياء يزعم أنها حقائق علمية جاء القرآن على خلافها. ومن واجب المفسر التصدي لإزاحة مثل هذه الشبه والتبيين بالطريق المنطقي أن ما أورد على القرآن لم يصل إلى درجة الحقائق العلمية أو يذهب في التفسير على وجه يلائم بلاغة القرآن، وفي الوقت نفسه لا يخالف ما قرره العلم وأقام الدليل على أنه قطعي لا يلابسه شك.

فبعض الناس فهم من قوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ بَسَاطَةً لِّتَسْلُكُوا مِنْهَا سَبِيلًا فِجَاجًا﴾⁽⁴⁾ وقوله تعالى: ﴿وَالْقَى فِي الْأَرْضِ رَوَاسِي أَنْ تُمِيدَ بِكُمْ﴾⁽⁵⁾ ما ينفي كروية الأرض ودورانها، مخالفًا ما أثبتته العلم وأقام أدلته عليه. مع أن الفهم الدقيق للآيتين لا يدل على هذا المدعى، فإن البسط - كما تقول المعاجم - اللغوية - : نقيض القبض⁽⁶⁾ لا ضد الاستدارة والكروية حتى تنفيها

(1) ما دل عليه القرآن مما يوافق الهيئة الجديدة، المكتب الإسلامي ط 1، 1960 م، ص 69.

(2) الواغليين: الذاهبين والسائرين.

(3) تقويم البلدان، ص 3.

(4) سورة نوح، عليه السلام، الآية 19.

(5) سورة النحل، الآية 15، وسورة لقمان، الآية 10.

(6) أنظر لسان العرب، 129:9 مادة (بسط) وقال الله تعالى: ﴿وَاللَّهُ يَقْبُضُ وَيَبْسُطُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾

(البقرة، الآية 223).

الآية التي وردت في سياق نعمة الله على عباده في تذليل الأرض وسلوك الإنسان بسهولة وفجاجها.

قال الألوسي: ﴿والله جعل لكم الأرض بساطاً﴾ تتقلبون عليها كالسباط وليس فيه دلالة على أن الأرض مبسطة غير كروية - كما في البحر وغيره - لأن الكرة العظيمة يرى كل من عليها ما يليه مسطحاً . ثم إن اعتقاد الكروية أو عدمها ليس بأمر لازم في الشريعة، لكن كرويتها كالأمر اليقيني وإن لم تكن حقيقة - اهـ⁽¹⁾.

والميدان في اللغة: الحركة فقط أو الحركة مع الإضطراب. جاء في لسان العرب «ماد الشيء يمد ميداً تحرك ومال. وماد السراب: اضطرب. وماد ميداً: تمايل. قال الفراء: سمعت العرب تقول: المَيْدِي الذين أصابهم الميْد من الدوار»⁽²⁾، فالذي تنفيه الآية الحركة مع الإضطراب المؤدي إلى الزلازل فيما يؤديه خلق الجبال وتوزيعها من توازن واستقرار بفضل الله، وهذا لا ينافي حركة الأرض اليومية والسنوية التي قال بها علم الفلك، فإن الله تعالى لو لم يخلق في الأرض الجبال لمادت أي اضطربت، بل في ذلك إشارة قوية إلى حركة الأرض، فإن الذي يخشى منه أن يمد ويضطرب هو الجسم المتحرك لا الساكن، فلما ألقى فيها الرواسي انتفى ذلك، ولو أنها اضطربت في حركتها اليومية لساء عيش البشر عليها سوءاً لا يقدره ولا يدرك أي نعمة الله على الناس في امتنانه إلا من اضطربت به السفينة في البحر أو الطائرة في الهواء وطال عليه ذلك ثم ذهب ما كان به حين هدأ البحر أو سكن الهواء بدخول المرفأ أو النزول في المطار، وليتصور الإنسان بعد ذلك ماذا يكون حاله لو أن ذلك الإضطراب استمر به طول الحياة»⁽³⁾.

ووجه كون الإلقاء مانعاً من اضطراب الأرض أنها كسفينة على وجه الماء، والسفينة إذا لم يكن فيها أجرام ثقيلة تضطرب وتميل من جانب إلى جانب بحركة

(1) روح المعاني، 9: 180.

(2) لسان العرب مادة (ميد).

(3) الإسلام في عصر العلم، د. الغمراوي، ص 299.

أذن شيء، وإذا وضعت فيها أجرام ثقيلة استقرت، فكذا الأرض لو لم تكن عليها هذه الجبال لاضطربت.

والمقصود أن جعل الرواسي فيها لا يعارض حركتها بوجه من الوجوه، كما أن السفينة إذا كان فيها أجرام ثقيلة تمنع اضطرابها وميلها من جانب إلى جانب لا ينافي حركتها⁽¹⁾، كما أنه ليس في قوله تعالى: ﴿وإلى الأرض كيف سطحت﴾⁽²⁾ دلالة على عدم كروية الأرض لأنها في النظر مسطحة، وقد تكون في الحقيقة كرة إلا أنها لعظمها لا تدرك كرويتها⁽³⁾. ولا ينافي كرويتها ما يدل بظاهرها على المد والفرش مثل قوله تعالى: ﴿وهو الذي مَدَّ الأرض﴾⁽⁴⁾، ومثل قوله تعالى: ﴿الذي جعل لكم الأرض فراشاً﴾⁽⁵⁾ لأن المراد من هذه الأمور ما يحصل به الإنتفاع لمن عاش عليها ولا يلزم من ذلك نفي كرويتها، لأن الكرة العظيمة - لعظمها - ترى كالسطح المستوي وكأن كل قطعة منها سطح مفروش يصح القعود والنوم عليه، والكرة كلما عظمت قربت أقواس سطحها إلى الخط المستقيم، وما على الأرض من الجبال والأودية والبحار لا يخرجها عن الكروية، فإن أعظم جبل بالنسبة إليها كنسبة سبع عرض شعيرة إلى كرة قطرها ذراع⁽⁶⁾.

قال الألوسي في تفسير قوله تعالى: ﴿وهو الذي مَدَّ الأرض﴾ والحق الذي لا ينكره إلا جاهل أو متجاهل أن ما ظهر منها - الأرض - كروي حساً، ولذلك تختلف أوقات الصلاة في البلاد، فقد يكون الزوال ببلد ولا يكون ببلد آخر، وهكذا الطلوع والغروب وغير ذلك. وكروية ما عدا ذلك لا يعلمه إلا الله تعالى. نعم إنها لعظم جرمها الظاهر يشاهد كل قطعة وقطر منها كأنه سطح، وهكذا كل دائرة عظيمة، وبذلك يعلم أنه لا تنافي بين المد وكونها كروية. وزعم ابن عطية أن ظاهر

(1) ما دل عليه القرآن مما يعضد الهيئة الجديدة، محمود الألوسي، ص 29.

(2) سورة الغاشية، الآية 20.

(3) غرائب القرآن ورجائب الفرقان، النيسابوري، ط 1، 81:30 بهامش الطبري.

(4) سورة الرعد، الآية 3.

(5) سورة البقرة، الآية 21.

(6) ما دل عليه القرآن، ص 69.

الشرعية يقتضي أنها مسطحة، وكأنه يقول بذلك وهو خلاف ما يقتضيه الدليل - اهـ - (1).

كما يقول بعض العلماء: «إن من فهم من قوله تعالى: ﴿الذي جعل لكم الأرض فراشاً والسماء بناءً﴾ (2) أو نظائرها أن الأرض غير كروية، أو أن السماء جسم محيط بالأرض قطعة واحدة أو قطعاً متلاصقة لا فرجة فيها، فما عرف من اللغة إلا اصطلاح الفنون، ولا من الكون إلا ما به يحسون. والواجب أن نأخذ علم الأشياء من أخبار الحق بحسب اللغة العربية استعمالاً من أهلها الأصليين. ومن النظر العقلي في نفس الأشياء بتعرفها كما أحالنا عليه قوله تعالى: ﴿قل انظروا ماذا في السموات والأرض﴾ (3) فكيف يقول عن حقائقها وأوصافها من لم يطع أمر الله بالنظر فيها فلم يعلم منها إلا ما وقع تحت إحساسه بعد ما قامت البراهين على كذب كثير منه كروية لون السماء أزرق، وليس الزرقة إلا لون الهواء» (4).

كما لا ينافي حركة الأرض أيضاً قوله تعالى: ﴿الله الذي جعل لكم الأرض قراراً﴾ (5) وقوله تعالى: ﴿أمن جعل الأرض قراراً﴾ (6) لأن (قراراً) بمعنى مستقراً لا بمعنى قارة غير مضطربة (7)، وإذا كانت هذه الآيات القرآنية لا تخالف ما أثبتته علم الفلك من حركات الأرض نظرياً فإن الأدلة على دورانها وبخاصة حول الشمس غير حاصلة على صفة الأدلة المحسوسة التي لا يمكن الخلاف فيها، ولذلك نرى من العلماء والرياضيين من لا يزالون يتشككون في ذلك ويشككون غيرهم، فإن من العلماء من ذهب إلى أن في القرآن ما يدل على حركتها. فقد تقدّم لنا أن الشيخ محمد بخيت المطيعي استدل على حركة الأرض بآيات من القرآن وجعل ذلك تحت عنوان (دوران الأرض وأخذه من القرآن) وأتى بعدة آيات مثل قوله تعالى: ﴿الذي

(1) تفسير روح المعاني 4: 137.

(2) سورة البقرة، الآية 21.

(3) سورة يونس، الآية 101.

(4) حكم المثاني تفسير للقرآن الكريم، السيد أحمد خليل، ط 1، 1968 م، ص 68.

(5) سورة غافر، الآية 64.

(6) سورة النمل، الآية 63.

(7) روح المعاني، 6: 300.

جعل لكم الأرض مهاداً⁽¹⁾ وقوله تعالى: ﴿هو الذي جعل لكم الأرض ذلولاً⁽²⁾ وقوله: ﴿كل في فلك يسبحون⁽³⁾ وقوله تعالى: ﴿وترى الجبال تحسبها جامدة وهي تمر مر السحاب... الآية⁽⁴⁾.

كما رأينا الدكتور محمد أحمد الغمراوي يستدل على دوران الأول هو الآخر بآيات من القرآن ويقول: إن القرآن فيه دلالات متعددة على حركة الأرض بنوعها جاءت من طريق الإشارة لا صريح العبارة مراعاة لمقتضى الحال في خفائها وعدم إحساس الناس بها، فلو أن القرآن صارحهم بحركة الأرض وهم يحسبونها ساكنة لكذبوه، فكان من الحكمة البالغة ومن الإعجاز البلاغي في الأسلوب أن ينبه الناس في كتاب الله إلى آيته سبحانه في حركة الأرض حل محورها وفي حركتها حول الشمس بمختلف الإشارات.

ثم يسوق الآيات التي يراها تدل على ذلك مثل قوله تعالى: ﴿والليل إذا أدبر⁽⁵⁾ وقوله: ﴿والليل إذا عسعس⁽⁶⁾ وقوله: ﴿والليل إذا يسري⁽⁷⁾. ويقول: إن هذه أوصاف تقتضي الحركة وهي كناية عجيبة عن حركة الأرض لا تفهم على حقيقتها إلا إذا تذكرنا أن الظلمة هي الأصل في جو الأرض كما يدل على ذلك قوله تعالى: ﴿يغشي الليل النهار يطلبه حثيثاً⁽⁸⁾ ويقول: هناك آية أخرى تكاد تكون صريحة في ذلك وهي قوله تعالى: ﴿يكور الليل على النهار ويكور النهار على الليل⁽⁹⁾. أما حركتها حول الشمس ففي القرآن دالتان عليها على الأقل إحداهما عن طريق الإشارة إلى أثرها في الليل والنهار من حيث تداخل

(1) سورة طه، الآية 53.

(2) سورة الملك، الآية 15.

(3) سورة الأنبياء، الآية 33، وسورة يس، الآية 39.

(4) سورة النمل، الآية 88.

(5) سورة المدثر، الآية 32.

(6) سورة التكويد، الآية 17.

(7) سورة الفجر، الآية 4.

(8) سورة الأعراف، الآية 54.

(9) سورة الزمر، الآية 5.

أحدهما على الآخر من جهة الطول أو القصر. أما الدلالة الثانية فهي أهم لأنها إشارة تكاد تكن صريحة، وتلك هي دلالة قوله تعالى: ﴿وترى الجبال... الخ﴾ الآية⁽¹⁾.

وهناك من العلماء من يرى أن تطبيق علم الفلك القديم والحديث على ما جاء في القرآن الكريم يعتبر نهجاً غير محمود على كلام الله تعالى، ذلك لأن القرآن إنما جاء بالقواعد العامة والنواميس الكلية التي لا يعترضها تبديل ولا تحوير. فالساعي في تطبيق العلوم الفلكية على آياته الكريمة يكون ملوماً⁽²⁾. ويكفي القرآن أنه لا توجد آية من آياته تتناقض مع ما ثبت أو يثبت من الحقائق الفلكية.

3 - السموات السبع في القرآن الكريم والتفسير العلمي

السماء: في لغة العرب هي كل ما يعلو غيره. قال الراغب الأصفهاني: سماء كل شيء أعلاه، قال بعضهم: كل سماء بالإضافة إلى ما دونها فسماء وبالإضافة إلى ما فوقها فأرض إلا السماء العليا فإنها سماء بلا أرض. وحمل على هذا قوله تعالى: ﴿الله الذي خلق سبع سموات ومن الأرض مثلهن﴾⁽³⁾.

وقد وردت كلمة السماء في القرآن الكريم بمعان متعددة:

جاءت بمعنى سقف البيت في قوله تعالى: ﴿من كان يظن أن لن ينصره الله في الدنيا والآخرة فليمدد بسبب إلى السماء﴾⁽⁴⁾. وجاءت بمعنى السحاب في قوله تعالى: ﴿أنزل من السماء ماء فسالت أودية بقدرها...﴾ الآية⁽⁵⁾. وجاءت بمعنى المطر في قوله تعالى: ﴿يرسل السماء عليكم مدراراً﴾⁽⁶⁾ أي يرسل المطر عليكم غزيراً كثيراً. وهذا المعنى هو الذي عناه الشاعر العربي في قوله:

(1) انظر فصل القائلين بالتفسير العلمي في العصر الحديث ص 260.

(2) محمد فريد وجدي، الإسلام في عصر العلم، ط 3، 1967م، ص 490.

(3) سورة الطلاق، الآية 12. مفردات غريب القرآن، ط الميمنية 1334هـ، ص 243.

(4) سورة الحج، الآية 15.

(5) سورة الرعد، الآية 17.

(6) سورة نوح، الآية 11.

إذا نزل السماء بأرض قوم رعيناه وإن كانوا غصباً

يعني إذا نزل المطر رعيانا نباته على الرغم من غضب أصحاب الأرض . كما جاءت بمعنى الجهة قال تعالى : ﴿قد نرى تقلب وجهك في السماء فلنولينك قبلة ترضاها﴾ - الآية (1) . كما جاءت بمعنى الجرم المعهود بعينه في قوله تعالى : ﴿ولقد زينا السماء الدنيا بمصابيح﴾ (2) وفي قوله : ﴿ولقد جعلنا في السماء بروجاً وزيناها للنظرين﴾ (3) وغيرهما من الآيات .

كما جاءت بمعنى الفضاء الواسع في قوله تعالى : ﴿الله الذي يرسل الرياح فتثير سحاباً فيبسطه في السماء كيف يشاء ويجعله كسفاً فترى الودق يخرج من خلاله﴾ (4) .

أما السموات بلفظ الجمع فقد وردت في كثير من آيات القرآن الكريم ، وقيدت بلفظ السبع في بعض الآيات الأخرى . وهي من المسائل التي لم يوفق الله الناس إلى معرفة حقيقتها على وجه لا اعتراض عليه .

وقد وقف الباحثون يلتمسون لها مدلولاً ، وانتقلوا هنا وهناك ثم لم يصلوا إلى ما ينطبق عليه الوصف الذي ذكر في القرآن . ولكنهم مع ذلك آثروا أن يحددوا المدلول الذي رأوا أنه ينطبق على السموات السبع .

فمن المفسرين من فهم أن السموات السبع هي السيارات في المنظومة الشمسية ، وأنها هي المقصودة بهذا في القرآن الكريم حيثما ذكرت السموات السبع . وقد نقل هذا الرأي عن بعض علماء الفلك الشيخ القاسمي في تفسيره (محاسن التأويل) فقال : «اعلم أن لفظ السماء يطلق لغة على كل ما علا الإنسان ، فإن هذا اللفظ من السمو وهو العلو ، فسقف البيت سماء ، والكواكب سموات ، فالسموات السبع المذكورة كثيراً في القرآن الشريف هي هذه السيارات السبع وهي

(1) سورة البقرة ، الآية 143 .

(2) سورة الملك ، الآية 5 .

(3) سورة الحجر ، الآية 16 .

(4) سورة الروم ، الآية 48 . كسفاً : قطعاً . الودق : المطر .

طابق أي أن بعضها فوق بعض لأن فلك كل منها فوق فلك غيره⁽¹⁾.

ولكن هذا الفهم بعيد للأسباب التالية:

أولاً: إن القرآن الكريم قد ذكر السماء وأراد بها الجرم المعهود غير هذه النجوم والكواكب في كثير من الآيات. ويجب الإيمان بما جاء في القرآن الكريم وفق مفاهيم اللغة العربية لأنه كتاب عربي أنزله الله الذي خلق جميع الكائنات⁽²⁾.

ثانياً: إن الله تعالى يقول: ﴿إنا زينا السماء الدنيا بزينة الكواكب﴾⁽³⁾. وما به الزينة غير ما له قطعاً وإلا كانا شيئاً واحداً، فلو كانت السماء المذكورة في القرآن هي الكواكب لزم أن تكون مزينة بنفسها وهو باطل لأن الشيء إنما يزين بغيره.

ثالثاً: قال تعالى: ﴿ألم تروا كيف خلق الله سبع سموات طباقاً وجعل القمر فيهن نوراً وجعل الشمس سراجاً﴾⁽⁴⁾. ومن المعلوم أن المَجْعول غير المَجْعول فيه، فلو كانت السموات هي الكواكب لكانت هي نفسها وهو باطل.

رابعاً: قال تعالى: ﴿إذا السماء انفطرت وإذا الكواكب انتشرت﴾⁽⁵⁾ فجعل الكواكب غير السماء، وقال: ﴿إذا الشمس كورت وإذا النجوم انكدرت﴾⁽⁶⁾ ثم يقول بعد ذلك: ﴿وإذا السماء كَشِطَّتْ﴾⁽⁷⁾، فقد ذكر في سورة الإنفطار انفطار السماء وانتشار الكواكب، وذكر في سورة التكويم: انكدار النجوم، ثم ذكر بعد ذلك كشط السماء، ولو كانت السموات والكواكب شيئاً واحداً لما عددها ووصف ما يحصل لكل منها بوصف غير الوصف الآخر، مما يدل على أن السموات غير الكواكب⁽⁸⁾.

(1) محاسن التأويل، ط عيسى الحلبي، 1970، 5877:16.

(2) انظر كتاب أضواء من القرآن على الإنسان ونشأة الكون والحياة، ص 95.

(3) سورة الصافات، الآية 6.

(4) سورة نوح، الآيتان 15، 16.

(5) سورة الإنفطار، الآيتان 1، 2.

(6) سورة التكويم، الآيتان 1، 2. كورت: لُفَّت من كورت العمامة إذا لَفَقْتَهَا، والمراد هنا رفعت.

(7) سورة التكويم، الآية 11. كَشِطَّتْ: قلعت كما يقلع الشقف.

(8) أضواء من القرآن على الإنسان ونشأة الكون والحياة، ص 99.

خامساً: كثير من العلماء يقولون: إن الكواكب ليست مغروزة في السماء، ولا عماسة لها وإنما هي بين السماء والأرض فتكون السماء من البعد بمنزلة ما لا يرونها من النجوم⁽¹⁾.

سادساً: إن الفلكيين الذين ذكروا السيارات السبع أدخلوا الكرة الأرضية بينها، ولم يجعلوا الأرض مقابلة للسماء⁽²⁾.

على أن الفلكيين المتأخرين قد كشفوا عن سيارات أخرى لم تكن معروفة للأقدمين وهي النجيمات وأورانوس ونبتون وبلوتو، وكان الكشف عن هذه السيارات متأخراً، فأخبرها لم يكتشف إلا في شهر مارس 1930، ولا تزال في هذا الفلك الشمسي أجرام سماوية - كالمذنبات والشهب - تدخل في عداد السيارات ويدور بعضها حول الشمس في مدة أقصر من مدة الدورات التي حسبت لأورانوس ونبتون وبلوتو⁽³⁾.

وبهذا الكشف تصبح السموات، على ما قاله هؤلاء، عشراً وليست سبعة كما قرر القرآن، ولهذا أدعوا أن سكوت الوحي عن ذكر ما زاد على سبع سموات لا ينفي وجود الزيادة، بمعنى أن العدد لا مفهوم له، وليس حتماً أن يكون كما ذكر. وضربوا لذلك مثلاً قوله تعالى: ﴿استغفر لهم أو لا تستغفر لهم إن تستغفر لهم سبعين مرة فلن يغفر الله لهم﴾⁽⁴⁾ فالعدد في هذه الآية لا مفهوم له والغرض هو الكثرة المطلقة بدليل أن الثمانين أيضاً لا تجعل للغفران موضعاً ولا التسعين ولا المائة.

ولكن هذا المثال وإن صح فيه القول الذي قيل فإنه ليس مثل عدد السموات يشير إليها القرآن ويعلن أنها سبع والعدد هنا جوهري في المسألة. كما قالوا: إن الحكمة في الإقتصار على ذكر السموات السبع أن المخاطبين في ذلك العهد ما كانوا مقتدرين على النظر والتفكير في غير السموات السبع أو السيارات

(1) انظر مجلة الأزهر (نور الإسلام) عدد شعبان 1350هـ، 1931، ص 576.

(2) التفكير فريضة إسلامية، عباس العقاد، ط 1، دار القلم، ص 90.

(3) المصدر السابق، ص 91، 92.

(4) سورة التوبة، الآية 80.

السبع التي عرفها الأوائل واشتهر أمرها عند عامة الناس يومئذ⁽¹⁾.

وجمهور المسلمين على أنها سبع سموات، كما جاءت بذلك نصوص القرآن الكثيرة الصريحة، ولا شك أن تكرار ذكرها مصحوباً بعددها يدل على التأكيد، فقد ذكرت السموات بعددها في سورة البقرة في قوله تعالى: ﴿ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ فَسَوَّاهُنَّ سَبْعَ سَمَوَاتٍ﴾⁽²⁾ وفي سورة الإسراء في قوله تعالى: ﴿يَسْبَحُ لَهُ السَّمَوَاتُ السَّبْعُ وَالْأَرْضُ وَمَنْ فِيهِنَّ﴾⁽³⁾. وفي سورة المؤمنون في قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعَ طَرَائِقٍ﴾. وفي قوله تعالى: ﴿قُلْ مَنْ رَبُّ السَّمَوَاتِ السَّبْعِ وَرَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ﴾⁽⁴⁾. وفي سورة فصلت في قوله تعالى: ﴿فَقَضَاهُنَّ سَبْعَ سَمَوَاتٍ فِي يَوْمَيْنِ وَأَوْحَىٰ فِي كُلِّ سَمَاءٍ أَمْرَهَا﴾⁽⁵⁾، وفي سورة الطلاق: ﴿اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَوَاتٍ وَمِنَ الْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ﴾⁽⁶⁾، وفي سورة الملك: ﴿الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَوَاتٍ طِبَاقًا مَا تَرَىٰ فِي خَلْقِ الرَّحْمَنِ مِن تَفَافُوتٍ﴾⁽⁷⁾ وفي سورة نوح - عليه السلام - ﴿أَلَمْ تَرَوْا كَيْفَ خَلَقَ اللَّهُ سَبْعَ سَمَوَاتٍ طِبَاقًا وَجَعَلَ الْقَمَرَ فِيهِنَّ نُورًا وَجَعَلَ الشَّمْسُ سِرَاجًا﴾⁽⁸⁾، وفي سورة النبأ: ﴿وَبَيْنَنَا فَوْقَكُمْ سَبْعًا شَدَادًا وَجَعَلْنَا سِرَاجًا وَهَّاجًا﴾⁽⁹⁾.

فهذه آيات فيها تحديد لعدد السموات بأنها سبع، وتكرارها بهذا الشكل في هذه السور يدل على ما ذكرنا، وكان مقتضى هذا أنه يجب التمسك بالنص، ولو خالف العدد عند اليونان. لكن العلماء لم يفعلوا بل تجرأوا وقالوا: إن العدد لا مفهوم له، قاله القدماء وقاله المحدثون⁽¹⁰⁾.

(1) تفسير جزء تبارك، عبد القادر المغربي، ط القاهرة، 1947 م، ص 4.

(2) سورة البقرة، الآية 29.

(3) سورة الإسراء، الآية 44.

(4) سورة المؤمنون، الآيتان 17، 86.

(5) سورة فصلت، الآية 12.

(6) سورة الطلاق، الآية 12.

(7) سورة الملك، الآية 3.

(8) سورة نوح، الآية 15.

(9) سورة النبأ، الآية 12.

(10) الإسلام في عصر العلم، د. محمد الغمراوي، ص 256.

وإن كان العلم لم يستطع حتى يومنا هذا تحديد مفهوم دقيق للسموات السبع، فعدم معرفتها لا يدل على عدم وجودها، فإن عدم الوجود لا يدل على عدم الوجود، فكم من الكواكب جهلها الأولون لعدم وجود الوسائل الكافية عندهم لكشفها فأثبتها من جاء بعدهم بوسائلهم التي تسرت لهم. وسيأتي آخرون يكتشفون أشياء ما خطرت للمعاصرين على بال⁽¹⁾، وتبقى الحقيقة الباقية ﴿وما أوتيتم من العلم إلا قليلاً﴾⁽²⁾.

كما أن هناك من العلماء من قال: إن السموات السبع يصح أن يراد بها مدارات الكواكب السيارة التي تدور حول الشمس. ويصح أن يراد بها الطبقات المختلفة التي تحيط بالأرض⁽³⁾.

وهو أيضاً تفسير غير دقيق، لأن الله تعالى وصف السموات في القرآن الكريم بأوصاف هي من خواص الأجسام ولوازمها كالفطر والطي والإنشقاق. قال الله تعالى: ﴿لقد جئتم شيئاً إدا يكاد السموات يتفطرن منه وتنشق الأرض وتخر الجبال هداً﴾⁽⁴⁾. فهذه الآية تدل على أن السموات جرم، لأن الفطر من عوارض الجسم الصلب فإنه يقال: إناء مفطور، ولا يقال ثوب مفطور. وقال تعالى: ﴿يوم نظوي السماء كطي السجل للكتاب﴾⁽⁵⁾، وقال تعالى: ﴿ويوم تشقق السماء بالغمام ونزل الملائكة تنزيلاً﴾⁽⁶⁾. كما قال تعالى في وصف السماء: ﴿بناها رفع سمكها فسواها﴾⁽⁷⁾ وقال: ﴿أفلم ينظروا إلى السماء فوقهم كيف بنيناها وزيناها﴾⁽⁸⁾، والبناء في لغة العرب معروف. وقال تعالى: ﴿وفتحت السماء فكانت أبواباً﴾⁽⁹⁾ والأبواب لا تكون إلا في الأجسام. وقال تعالى: ﴿وجعلنا

(1) أضواء من القرآن، ص 96.

(2) سورة الإسراء، الآية 85.

(3) المنتخب في التفسير، تعليق الخبراء، 16:1.

(4) سورة مريم، الأيتان 90، 91. إذا: عظيماً منكراً.

(5) سورة الأنبياء، الآية 103.

(6) سورة الفرقان، الآية 25.

(7) سورة النازعات، الأيتان 27، 28.

(8) سورة ق، الآية 6.

(9) سورة النبأ، الآية 19.

السما سقفاً محفوظاً⁽¹⁾ والسقف معلوم عند العرب⁽²⁾.

أما قوله تعالى: ﴿والسحاب المسخر بين السماء والأرض﴾⁽³⁾ فهو صريح في أن السماء ليست هي الطبقات الغازية المحيطة بالأرض لما تفيد كلمة (بين) من أن هذا الفضاء الذي فوقنا منته بالسماء وفيه يجري السحاب. أما حديث المعراج الثابت في الكتب الصحيحة⁽⁴⁾ فهو دليل آخر على أن السموات أجرام، فلقد أخبر ﷺ وهو المنعوت بالصدق والأمانة حتى من أشد أعدائه والمناوئين له - بأنه عرج به جبريل إلى السماء الدنيا ثم إلى السماء الثانية ثم إلى الثالثة وهكذا حتى السابعة. وقد وصف بعض ما رأى من آيات ربه الكبرى، وقد زكاه القرآن في قوله: ﴿ما زاغ البصر وما طغى لقد رأى من آيات ربه الكبرى﴾. وفي هذا الحديث ذكر أبواب السماء على وجه صريح⁽⁵⁾، وهو أمر ممكن أخبر به الصادق فلا حاجة إلى التأويل⁽⁶⁾.

وعليه فالواجب على المسلم أن يثبت السماء كما أثبتها القرآن بدون أن يتعرض لبيان جواهرها وتحليل عناصرها وشرح ما يكتنفها، فإن نصوص القرآن لم تتعرض لذلك. وأما ما تذكره بعض كتب التفسير من أن السماء الدنيا من فضاء والثانية من ذهب إلى آخره فهي أخبار إسرائيلية لا يعول عليها ولا يلتفت إليها، فالقرآن لم ينزل لشرح الأكوان شرحاً طبيعياً، ولم يتعرض لبيان عناصرها ومكوناتها، وإنما تعرض لها من حيث ما فيها من دلائل على قدرة الله وعظمته بما تشتمل عليه من إتقان التدبير وجميل الصنع. أما البحوث الطبيعية فقد تركها للعقول ولم يمنع منها بل ندب إليها وحث عليها.

(1) سورة الأنبياء، الآية 32.

(2) المسائل الكافية، تأليف عماد بن يوسف الكافي التونسي، ط القاهرة، 1934، ص 140.

(3) سورة البقرة، الآية 164.

(4) رواه البخاري في كتاب أحاديث الأنبياء باب المعراج.

(5) قال الحافظ بن حجر: وفي الحديث من الفوائد أن للسماء أبواباً حقيقة وحفظة موكلين بها (أنظر فتح

الباري بشرح البخاري)، مصطفى الحلبي، 1959، 217:8.

(6) أنظر ما دل عليه القرآن، ص 38.

السموات السبع وغزو الفضاء

من المسائل التي تتعلق بالسموات غزو الفضاء والوصول إلى الكواكب، فقد يقع في أذهان بعض الناس أن القرآن يمنع من غزو الفضاء والصعود إلى الكواكب، لأنه أخبر بأن السماء سقف محفوظ حيث قال: ﴿وجعلنا السماء سقفاً محفوظاً وهم عن آياتها غافلون﴾⁽¹⁾، وبأن ظاهر بعض الآيات يفيد أن الكواكب ومن بينها القمر هي بداخل السموات فلا يمكن الوصول إليها.

وبتأمل ما ورد في القرآن الكريم من الآيات المشتملة على الشمس والقمر والكواكب يتبين أنه ليس فيها ما يدل دلالة صريحة على عدم إمكان الوصول إلى القمر أو غيره من الكواكب، لأنه ليس فيها ما يدل على أنها في داخل السماء ولا أنها ملصقة بها، وإنما تدل على أنها في السماء وأنها زينة لها. ولفظ السماء - كما سبق - يطلق على كل ما علا وارفع، فكل شيء علاك فأظلك فهو سماء⁽²⁾.

وعليه يكون معنى الآيات مثل قوله تعالى: ﴿تبارك الذي جعل في السماء بروجاً وجعل فيها سراجاً وقمراً منيراً﴾⁽³⁾ وقوله: ﴿ألم تروا كيف خلق الله سبع سموات طباقاً وجعل القمر فيهن نوراً وجعل الشمس سراجاً﴾⁽⁴⁾ أن الله تعالى جعل هذه الكواكب في مدار بين السماء والأرض وسماه سماء لعلوه. وقد ذكر الله تعالى أن الشمس والقمر يجريان في فلك في آيتين من كتابه الكريم هما قوله تعالى: ﴿وهو الذي خلق الليل والنهار والشمس والقمر كل في فلك يسبحون﴾⁽⁵⁾ وقوله تعالى: ﴿ولا الشمس ينبغي لها أن تدرك القمر ولا الليل سابق النهار وكل في فلك يسبحون﴾⁽⁶⁾. ولو كانا ملصقين بالسماء لم يوصفا بالسبح، لأن السبح في اللغة العربية هو العوم في الماء ونحوه.

(1) سورة الأنبياء، الآية 32.

(2) تأويل مشكل القرآن، لابن قتيبة، ط 2، 1973 م، ص 358.

(3) سورة الفرقان، الآية 61.

(4) سورة نوح، الآيتان 15، 16.

(5) سورة الأنبياء، الآية 33.

(6) سورة يس، الآية 40.

وقد ذكر محمد بن جرير الطبري أن الفلك في لغة العرب هو الشيء الدائر، وذكر في معناه عدة أقوال عن السلف. ونقل عن عبد الرحمن بن أسلم أنه قال: «الفلك الذي بين السماء والأرض من مجاري النجوم والشمس والقمر، وقرأ «تبارك الذي جعل في السماء بروجا»⁽¹⁾ وقال: تلك البروج بين السماء والأرض ليست في الأرض»⁽²⁾.

وقال النسفي: «والجمهور على أن الفلك موج مكفوف (مجموع) تحت السماء تجري فيه الشمس والقمر والنجوم»⁽³⁾.

وقال الألوسي: وقال أكثر المفسرين: هو موج مكفوف تحت السماء يجري فيه الشمس والقمر»⁽⁴⁾.

وعلى هذا القول في تفسير الفلك لا يبقى إشكال في أن الوصول إلى القمر أو غيره من الكواكب لا يخالف الأدلة السمعية، ولا يلزم منه قدح فيما دل عليه القرآن من كون الشمس والقمر في السماء.

ومن زعم أن المراد بالأفلاك السموات المبنية فليس لقوله حجة يعتمد عليها، بل ظاهر الأدلة النقلية يدل على أن السموات السبع غير الأفلاك.

ويحتمل أيضاً أنه تعالى أراد (بالسما) في الآيات المتقدمة وغيرها: السماء الدنيا ولم يرد سبحانه أن البروج في داخلها وإنما أراد أنها بقربها وتنسب إليها، وهذا معروف في لغة العرب يقال: فلان مقيم في المدينة وهو مقيم في ضواحيها وحولها، كما أن وصفه تعالى للكواكب بأنها زينة السماء لا يلزم منه أيضاً أن تكون ملصقة بها، بل يصح أن تكون زينة لها وإن كانت منفصلة عنها وبينها وبينها فضاء، وذلك كما يزين الإنسان سقف بيته بالثريات الكهربائية من غير ضرورة إلى إلصاق ذلك،

(1) سورة الفرقان، الآية 61.

(2) جامع البيان، 18:17. بروجاً: جمع برج وأصله القصر العالي البناء وقد اعتبرت للكواكب كالمنازل للقمر.

(3) مدارك التنزيل وحقائق التأويل 78:3.

(4) روح المعاني 352:5.

ومع ذلك يقال في اللغة العربية: فلان زين سقف بيته. قال الألوسي: «والسماء الدنيا منتهى دائرة يتحرك فيها أعلى كوكب من السيارات وبينها وبين هذه الأرض بعد بعيد. . وتزين هذه السما بالكواكب لظهورها فيها على ما يشاهده فلا يضر في ذلك كونها كلاً أو بعضاً فوقها أو تحتها. ولم يبق دليل على أن شيئاً من الكواكب مغروزة في شيء من السموات كالقص في الخاتم والمسار في اللوح، بل في بعض الأخبار ما يدل على خلافه»⁽¹⁾.

وأما قوله تعالى: ﴿وجعل القمر فيهن نوراً وجعل الشمس سراجاً﴾ فلا يلزم منه - على جهة القطع - أن تكون القمر والشمس في داخل السموات حملاً للظرفية على معناها الحقيقي، فقد يكون المعنى أن نورهما في السموات لا أجرامهما فأجرامهما خارج السموات ونورهما في السموات. جاء في تفسير القرطبي ما يلي: وقال قطرب⁽²⁾: (فيهن) بمعنى معهن⁽³⁾، وقال الكلبي: أي خلق الشمس والقمر مع خلق السموات والأرض. وقال جلة أهل اللغة في قول امرئ القيس:

وقد يعمن من كان آخر عهده ثلاثين شهراً في ثلاثة أحوال
إن (في) بمعنى (مع)⁽⁴⁾. وقول بعض علماء الفلك: إن القمر في السماء الدنيا وعطارد في الثانية والزهرة في الثالثة والشمس في الرابعة والمريخ في الخامسة والمشتري في السادسة وزحل في السابعة ليس حجة يعتمد عليها، لأن أقوالهم - غالباً - مبنية على التخمين والظن لا على قواعد شرعية وأسس قطعية. يدل على هذا ما قاله ابن كثير في تفسيره لقوله تعالى: ﴿ألم تروا كيف خلق الله سبع سموات طباقاً وجعل القمر فيهن نوراً﴾ - الآية قال: (طباقاً) أي واحدة فوق واحدة.

(1) روح المعاني 104:9.

(2) أبو علي محمد بن المستنير النحوي، أخذ عن سيويه وغيره ولقبه سيويه بقطرب لأنه كان يخرج فيراه بالأسحار على بابه فيقول له: ما أنت إلا قطرب ليل، والقطرب دويبه تدب ولا تفتر. له كثير من المصنفات منها: إعراب القرآن، ومجاز القرآن، والأصوات، والعلل في النحو وغيرها. توفي سنة 206 هـ. (بغية الوعاة في طبقات الأدباء والنحاة 242:1).

(3) من معاني (في) المصاحبة كما هنا وكما في قوله تعالى: ﴿قال ادخلوا في أمم قد خلت من قبلكم من الجن والإنس في النار﴾.

(4) الجامع لأحكام القرآن، 304:18.

وهل هذا يتلقى من جهة السمع فقط أو هو من الأمور المدركة بالحواس بما علم من التسيير والكسوفات فإن الكواكب السبعة السيارة يكشف بعضها بعضاً فأدناها القمر في السماء الدنيا وهو يكشف ما فوقه، وعطارد في الثانية والزهرة في الثالثة... الخ. وأما بقية الكواكب - وهي الثوابت - ففي فلك ثامن يسمونه فلك الثوابت، والمتشرعون منهم يقولون: هو الكرسي، والفلك التاسع وهو الأطلس والأثير عندهم الذي حركته على خلاف حركة سائر الأفلاك، وذلك أن حركته مبدأ الحركات وهي من المغرب إلى المشرق وسائر الأفلاك عكسه من المشرق إلى المغرب ومعها يدور سائر الكواكب تبعاً ولكن للسيارة حركة معاكسة لحركة أفلاكها فإنها تسير من المغرب إلى المشرق وكل يقطع فلكه بحسبه، فالقمر يقطع فلكه في كل شهر مرة والشمس في كل سنة مرة وزحل في كل ثلاثين سنة مرة، وذلك بحسب اتساع أفلاكها، وإن كانت حركة الجميع في السرعة متناسبة... ثم قال ابن كثير:

هذا ملخص ما يقولونه في هذا المقام على اختلاف بينهم في مواضع كثيرة لسنا بصدد بيانها - اهـ - (1).

فقول ابن كثير: على اختلاف بينهم... الخ يدل على أن علماء الفلك غير متفقين على ما نقله عنهم آنفاً من كون القمر في السماء الدنيا... الخ. ولو كانت لديهم أدلة قطعية على ما ذكروا لم يختلفوا، ولو فرضنا أنهم اتفقوا على ما ذكر فاتفقهم ليس بحجة.

فظاهر الأدلة السابقة وكلام الكثير من أهل العلم كما حكاه النسفي والألوسي أن جميع الكواكب ومنها الشمس والقمر تحت السموات وليست في داخل شيء منها، وبذلك يعلم أنه لا مانع من أن يكون هناك فضاء بين الكواكب والسماء الدنيا يمكن أن تسير فيه المركبات الفضائية ويمكن أن تنزل على سطح القمر أو غيره من الكواكب (2).

(1) تفسير ابن كثير، 4: 425.

(2) رجعنا في هذا الموضوع إلى جانب كتب التفسير إلى مقال للشيخ عبد العزيز بن باز في مجلة الوعي الإسلامي، العدد 143 نوفمبر 1976 م.

ولعل هذا يفسر لنا جانباً من التسخير الذي امتن الله به على الإنسان في قوله تعالى: ﴿ألم تروا أن الله سخر لكم ما في السموات وما في الأرض وأصبح عليكم نعمه ظاهرة وباطنة﴾⁽¹⁾، وقوله تعالى: ﴿وسخر لكم ما في السموات وما في الأرض جميعاً منه إن في ذلك لآيات لقوم يتفكرون﴾⁽²⁾. فقد صرحت هذه الآيات بتسخير كل ما في السموات وما في الأرض لهذا الإنسان، ويتأمل هذه الحقيقة جيداً يعلم أنه لا يوجد أي خطر ديني من وصول الإنسان بالتأمل والبحث إلى معرفة الكثير من حقائق الكون المختلفة من حوله قريباً كان أو بعيداً، كما لا يوجد أي مانع ديني من وصول الإنسان بعد ذلك إلى اكتشاف هذه الحقائق بالحواس والمشاهدة كاجتياز طبقات الفضاء واكتشاف الكواكب القريبة أو البعيدة عن كسب بل والصعود إليها والإقامة فيها إن أمكن ذلك، إذ أن هذا كله يدخل ضمن معنى (التسخير) الذي عبر به القرآن، بل إن هذه الكلمة لتتطابق ببيان القول بأن الإنسان يستطيع - إن هو أعمل كامل عقله وتفكيره - أن يسبر أغوار كثير من الحقائق الكونية وأن يهتدي إليها بالفكر والمشاهدة، وإلا لم تكن كلمة (التسخير) جارية على حقيقتها ولا متضمنة كامل معناها.

فكل من استنهض عقله للتأمل والعلم وصبر على اجتياز سبيله أمكنه أن يميّط اللثام، يستوي في ذلك المؤمن والكافر والصالح والفاجر، لأن الله تعالى قد قسم مقومات الإنسانية على الجميع وأعطاهم العقل والتفكير، وكل ما هنالك من فرق هو أن المؤمن مدفوع بدافع إيماني خاص به - إلى جانب دافع حب الاستطلاع الذي يشترك فيه العقلاء كلهم - إلى إدراك حقائق الكون وكشف أسرارها، فهو لا يزال يدفع إلى ذلك دفعاً كلياً تلا قوله تعالى: ﴿قل انظروا ماذا في السموات والأرض﴾⁽³⁾ وقوله تعالى: ﴿أولم ينظروا في ملكوت السموات والأرض وما خلق الله من شيء﴾⁽⁴⁾، وغيرهما من الآيات لا من أجل منافسة غير شريفة في ميدان

(1) سورة لقمان، الآية 20.

(2) سورة الجاثية، الآية 12.

(3) سورة يونس، الآية 101.

(4) سورة الاعراف، الآية 185.

الدعاية الكاذبة وبسط النفوذ وإقامة أسباب الطغيان، ولكن من أجل تسخير ما يمكن تسخيره من ذلك في سبيل تحقيق مزيد من مقومات السعادة لبني الإنسان في ظل العبودية الكاملة لله عز وجل⁽¹⁾.

بل إن هذا التطور الحديث في العلم وتسخير بني الإنسان قد أراده الله تعالى ليعيد الإيمان به مرة أخرى كأقوى ما يكون بين صفوف القوم الذين كفروا به إن ما أدى إلى ضعف الإيمان بالله هو هذه المنجزات التي استطاع الإنسان الحديث أن يحققها على الأرض بحيث أصبح قادراً عليها. ولكن هذا الفتح العلمي الجديد سيضع الإنسان مرة أخرى على عتبة المجهول واللا نهائي. سوف يكتشف الإنسان المنطلق إلى الفضاء أن كوكبه الأرضي قد تضاءل حتى أصبح ذرة أو أهون من الذرة في كون الله الفسيح.

ومرة أخرى وقد خرج الإنسان إلى الفضاء سيجس بالعجز أمام الكون الذي تؤلف المجموعة الشمسية كلها مجرد خلية من بلايين البلايين من خلاياه. وهكذا سيجد نفسه مهوراً أمام عظمة الخالق الأعظم جل جلاله⁽²⁾.

وهذا يتضح أنه لا حاجة إلى ذلك التكلف الذي ذهب إليه بعض القائلين بالتفسير العلمي من أن القرآن أشار إلى غزو الفضاء والصعود إلى الكواكب بقوله تعالى: ﴿يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ إِنَّ اسْتَطَعْتُمْ أَنْ تَنْفِلُوا مِنْ أَقْطَارِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ فَانْفِلُوا لَا تَنْفِلُونَ إِلَّا بِسُلْطَانٍ﴾⁽³⁾، ويقول تعالى: ﴿لَتَرْكِبُنَّ طِبْقاً عَنْ طِبْقٍ﴾⁽⁴⁾ فإن الآيتين لا تدلان على ذلك، وسيأتي الحديث عن ذلك والرد على هذا في الباب القادم من هذا البحث.

4 - قضية الحياة على الكواكب الأخرى غير الأرض

من القضايا التي شغلت أصحاب الاتجاه العلمي في التفسير قضية الحياة على

(1) كبرى اليقينيّات الكونية، د. محمد سعيد رمضان البوطي، ص 276.

(2) تفسير الفاتحة وجزء عم للأستاذ أحمد حسين، ط المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية، 1972، ص 104.

(3) سورة الرحمن، الآية 31.

(4) سورة الإنشقاق، الآية 19.

الكواكب الأخرى. ولم يصل العلماء حتى اليوم إلى شيء يعول عليه حول هذه القضية.

ومن المسلم به أنه حيثما وجدت ظروف مناسبة للحياة فهناك حياة، وليس بشرط أن تكون على شكل هذه الحياة التي نعهد لها على الأرض، فمن الجائز جداً أن تكون على صورة لا ندركها.

فمن الممكن أن توجد كائنات عاقلة مثل الجنس البشري أو غيره على أي كوكب تكون ظروفه ملائمة لوجود الحياة عليه، هذا من الناحية العقلية البحتة. يقول بعض الحكماء:

إن لم يكن في فضاء الأفلاك وسعة السموات خلأ، فكيف يليق بحكمة الباري جلّت قدرته تركها فارغة مع شرف جوهرها، فإنه لم يترك مقر البحار المالحة المظلمة فارغاً حتى خلق فيه الحيوانات وغيرها، ولم يترك جو الهواء الرقيق حتى خلق فيه أنواع الطيور، ولم يترك البراري اليابسة والجبال حتى خلق فيها الهوام والحشرات⁽¹⁾.

وقد يكون من المفيد أن نبحث هذه القضية من ناحيتين:

الناحية العلمية والناحية الدينية لنرى ما وصلت إليه بحوث العلماء بالنسبة للناحية الأولى، وما قاله المفسرون من قدامى ومحدثين بالنسبة للناحية الثانية.

1 - الناحية العلمية:

لما تقدمت علوم الفلك والطبيعة أقام العلماء والباحثون المراصد للكواكب وقاموا بالرحلات الفضائية، وهبط بعضهم على سطح القمر، وهم يحاولون إنشاء محطة فضاء لينطلقوا منها إلى الكواكب الأخرى مثل كوكب الزهرة والمريخ للبحث عن معرفة جوها وتكوينها وصلاحيات الحياة عليهما عملياً بعد الدراسة التي قاموا بها نظرياً.

(1) أضواء من القرآن على الإنسان ونشأة الكون والحياة، ص 229.

وكلما تقدمت العلوم زاد البحث وكثرت رحلات الفضاء واكتشف كثير من المستور من أسرار الكون ، وتبين للإنسان أن ما كشفه من الكون ما هو إلا جزء ضئيل جداً مما لم يستطع كشفه ومعرفته بعد .

إن علماء الفضاء والفلك لا يزالون مجدين في البحث يحاولون استخدام سفن الفضاء في الإتصال ببعض الكواكب للكشف عن أسرارها ومعرفة الكائنات الحية التي تعيش فيها ، فأكثر هؤلاء العلماء مؤمنون بأن في الكواكب أحياء ما دامت مقومات الحياة موجودة ومتوفرة فيها كلها أو بعضها . لذلك يبحث العلماء الآن عن مقومات الحياة في بعض الكواكب بإجراء التجارب المختلفة .

وقد أسفرت نتائج البحث التي قاموا بها حتى الآن على ما يلي :

القمر : دلت البحوث الحديثة التي أجريت على القمر أن جوّه خال من مقومات الحياة المناسبة للأحياء لأنه يخلو من الماء والهواء اللازمين للحياة ، ولكنه لا يخلو من المعادن والجبال والأودية .

الزهرة والمريخ : بيئتهما صالحة لسكنى الأحياء على سطحهما ، والمريخ خاصة ليس فيه ما يمنع من كونه داراً للأحياء ، وتوجد حياة نباتية قطعاً على المريخ .

عطارد : لا حياة فيه قطعاً لأنه لا جوله ، ولصغر حجمه لا يستطيع جذب الهواء والاحتفاظ به .

المشتري : لا يصلح للحياة لتميع غازاته ولشدة الضغط عليه ، ويشترك معه في هذه الصفات زحل .

أورانوس ونبتون : لا يصلحان للحياة مع وجود الجو ، لكن شدة البرد فيها لا تطاق لبعدهما عن الشمس .

بلوتو : لا حياة فيه ، وليس صالحاً لحياة البشر لبرودته أيضاً ، ومما تقدم يتضح أن الزهرة والمريخ هما أصلح الكواكب لسكنى الأحياء عليهما ، وليس هناك

مانع من وجود حياة فيها⁽¹⁾.

يقول بعض العلماء:

إن في الكون نجومًا وشموسًا لا عد لها، وهذه كواكبها وما يتبعها من مذنبات وشهب ونيازك. ولقد دلت المراسد على وجود (75) مليوناً من العوالم تشبه عالمنا، وكلما تقدم العقل البشري وارتفعت آلات الرصد تجلّى للإنسان اتساع الكون بصورة أوضح وأجلى، وثبت له أن ما كشفه من الكون إن هو إلا جزء ضئيل جداً مما لم يستطع اكتشافه بعد، فكون «هذه حالته وهذا اتساعه من الطبيعي أن يكون فيه من الكواكب ما اجتاز ويجتاز الأدوار التي مرت وتمر على الأرض، ومن المحتمل جداً أن تكون بيئة بعض هذه الكواكب صالحة لسكنى أحياء أو ظهور حياة عليها. ثم يقول:

وأخيراً إذا سئلت عن رأيي في مسألة الحياة على الكواكب اكتفيت بالجواب التالي: ليس الغريب أن تكون بعض الأجرام السماوية مسكونة وعامرة بالأحياء بل الغريب ألا تكون كذلك - اهـ -⁽²⁾.

هذا ما قاله العلم وأكدته العلماء، «ولا شك أن العلم استنتج هذا استنتاجاً من مقابلة الأشباه بالأشباه والأمثال بالأمثال، وإلا فالعلماء اليوم لم يتوصلوا بوسائلهم العلمية الحاضرة إلى مشاهدة هذه الأحياء»⁽³⁾.

فماذا عن الدين؟

يقول كثير من المفسرين: إن هناك كثيراً من الآيات القرآنية تشير إلى أن في السموات حياة وأحياء - وهم يقصدون طبعاً غير الملائكة. كما يعبرون عن الكواكب بالسموات إما على أنها سماء لغة، أو على رأي من لا يفرق بين السموات والكواكب، بل يعتبر الكواكب هي السموات. وقد قدمنا هذا الرأي وما عليه من

(1) الإنسان بين العلم والدين، شوقي أبو خليل، ط الإنشاء بدمشق، 1970، ص 140.

(2) قدرى حافظ طوقان في كتابه (الكون العجيب ص 77) ونقلناها عن كتاب الإنسان بين العلم والدين، شوقي أبو خليل، ص 141.

(3) أضواء من القرآن، ص 230.

مأخذ واعتراضات في القضية التي قبل هذا الموضوع مباشرة. ومن هذه الآيات التي استدلوا بها قوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ مِنْ دَابَّةٍ وَالْمَلَائِكَةُ وَهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ﴾⁽¹⁾ فإنه خص الملائكة بالذكر لفضلهم أولاً، وللإشارة إلى وجود مخلوقات أخرى غير الملائكة ثانياً. وفي سورة الأنبياء ﴿وَلَهُ مِنْ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَنْ عِنْدَهُ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِ وَلَا يَسْتَحْسِرُونَ﴾⁽²⁾ فهذه الآية تدل على أن كل من في السموات والأرض من الأحياء العقلاء ملك لله وحده، وأن المقربين عنده من الملائكة لا يستكبرون عن عبادته ولا يكلون. وفي سورة النمل يقول الله تعالى: ﴿قُلْ لَا يَعْلَمُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ الْغَيْبَ إِلَّا اللَّهُ وَمَا يَشْعُرُونَ أَيَّانَ يَبْعَثُونَ﴾⁽³⁾ وهذه الآية - أيضاً - ناطقة بأن من في السموات والأرض من العقلاء لا يعلمون الغيب لأن الغيب خاص بالله وحده. وفي سورة الرحمن ﴿يَسْأَلُهُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ كُلُّ يَوْمٍ هُوَ فِي شَأْنٍ﴾⁽⁴⁾، وهذه الآية تنطق هي الأخرى بأن في السموات والأرض أحياء عقلاء يسألون ربهم لاحتياجهم إليه في كل شيء.

ولعل أصرح آية في هذا الموضوع، وكما استدلوا بها هي قوله تعالى: ﴿وَمَنْ آيَاتُهُ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا مِنْ دَابَّةٍ وَهُوَ عَلَى جَمْعِهِمْ إِذَا يَشَاءُ قَدِيرٌ﴾⁽⁵⁾. فهذه الآية تدل على أن الله تعالى خلق في السموات دواب كما خلق في الأرض دواب، والدلالة فيها على ذلك من وجهين:

أولاً: أنه تعالى قابل بين الدابة والملك في آية السجود المتقدمة ﴿وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ مِنْ دَابَّةٍ وَالْمَلَائِكَةُ﴾ فدل ذلك على أن المراد بالدابة غير الملائكة.

ثانياً: أنه تعالى في سورة النور قال: ﴿وَاللَّهُ خَلَقَ كُلَّ دَابَّةٍ مِنْ مَاءٍ فَمِنْهُمْ مَنْ

(1) سورة النحل، الآية 49.

(2) سورة الأنبياء، الآية 19.

(3) سورة النمل، الآية 67.

(4) سورة الرحمن، الآية 27.

(5) سورة الشورى، الآية 27.

يمشي على بطنه ومنهم من يمشي على أربع⁽¹⁾. دلت هذه الآية على أن الدابة مخلوقة من الماء في حين أن الملائكة مخلوقة من النور، وأنها موصوفة بأن بعضها يمشي على بطنه... الخ. وهذه الأوصاف لا تصدق على الملائكة. ولهذا نجد الزمخشري يقول عند تفسيره لهذه الآية - بعد أن ذكر تأويلين - :

«ولا يبعد أن يخلق في السموات حيواناً يمشي فيها مشي الأناسي على الأرض، سبحانه الذي خلق ما نعلم وما لا نعلم من أصناف الخلق - اهـ»⁽²⁾.

وقال أبو السعود العمادي عند تفسيرها: «(من دابة) من حي على إطلاق اسم المسبب على السبب، أو مما يدب على الأرض، فإن ما يختص بأحد الشيتين يصح نسبته إليهما». وقد جوز أن يكون للملائكة مشي مع الطيران فيوصفون بالديب، وأن يخلق الله في السموات حيواناً يمشون فيها مشي الأناسي على الأرض كما ينبيء عنه قوله تعالى: ﴿وَيَخْلُقُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾⁽³⁾.

وقال الرازي - بعد أن ذكر آراء أخرى - : «(الثالث) لا يبعد أن يقال أنه خلق في السموات أنواعاً من الحيوانات يمشون مشي الأناسي على الأرض»⁽⁴⁾. وهناك رأي آخر قال به ابن المنير السكندري في حاشيته على الكشف حيث اعترض على الزمخشري بأن إطلاق الدابة على الأناسي بعيد في عرف اللغة فكيف بالملائكة، وادعى أن الأصح كون الدواب في الأرض لا غيروما في أحد الشيتين يصدق أنه فيهما في الجملة، فالآية - على رأيه - على حد قوله تعالى: ﴿يُخْرِجُ مِنْهَا - البحرين - اللؤلؤ والمرجان﴾⁽⁵⁾ مستدلاً بقوله تعالى: ﴿وَبِثَّ فِيهِمَا مِنْ كُلِّ دَابَّةٍ﴾⁽⁶⁾ فإنه يدل على اختصاص الدواب بالأرض، لأن مقام الإطنا ب يقتضي ذكره لو كان. كما أن الكرخي اعترض هو الآخر على الزمخشري ومن تابعه في جواز

(1) سورة النور، الآية 43.

(2) الكشف للزمخشري، 2: 298.

(3) سورة النحل، الآية 8. إرشاد العقل السليم، ط محمد صبيح، 5: 35.

(4) مفاتيح الغيب، 7: 395.

(5) سورة الرحمن، الآية 20.

(6) سورة البقرة، الآية 164.

أن يكون للملائكة مثي مع الطيران حيث قال :

«وما ذهب إليه الزمخشري من أن يكون للملائكة مثي مع الطيران فيوصفون بالديب كما يوصف به الأناسي أو يخلق الله تعالى في السموات حيوانات يمشون مثي الأناسي على الأرض بعيد عن الأفهام لكونه على خلاف العرف العام، ولأن الشيء إنما يكون آية إذا كان معلوماً ظاهراً مكشوفاً. ومن ثم أهمل القاضي ذكره - اهـ -⁽¹⁾ .

فابن المنير اعترض على الزمخشري مستدلاً بأن إطلاق الدابة على الملائكة على خلاف عرف اللغة من جهة وبأن آية البقرة قد خصصت وجود الدابة بالأرض من جهة أخرى، والكرخي اعترض على الزمخشري مستدلاً بأن ذلك على خلاف العرف العام من جهة وبأن الشيء إنما يكون حجة إذا كان معلوماً من جهة ثانية .

أما القاضي البيضاوي الذي لم يذكر هذا القول فقد حمل الآية على المجاز المرسل بإطلاق اسم الدابة على الحي مجازاً من إطلاق اسم المسبب على السبب، أو يكون هناك تجوز في النسبة أو في أداة الظرفية بجعل ما في أحد الشيتين فيهما⁽²⁾ .

وهذا القول نسبة القرطبي إلى الفراء أيضاً⁽³⁾ .

ثم يأتي شهاب الدين محمود الألوسي فيرد على هذه الاعتراضات ويرجع ما يقول به بعض علماء الفلك والأرصاد وما ذهب إليه كل من الزمخشري والرازي وأبي السعود العمادي وغيرهم فيقول مجيباً عن اعتراض ابن المنير بأن آية البقرة خصت الدابة بالأرض، ولو كان في السموات دواب لذكرت، لأن المقام يقتضي ذلك، يجيب عن ذلك بقوله : إن آية البقرة لما كانت كلاماً مع الغبي والفهم والمسترشد والمعاند، جيء فيه بما هو معروف عند الكل وهوبت الدواب في الأرض، وأما ما في سورة الشورى فجيء به مدحجاً مختصراً لما تكرر في القرآن ولا سيما في هذه السورة من كمال قدرته على كل ممكن فقليل : ﴿ومن آياته خلق

(1) أنظر الفتوحات الإلهية على تفسير الجلالين للشيخ الجمل 4:64، 65.

(2) أنوار التنزيل وأسرار التأويل، 4:54.

(3) الجامع لأحكام القرآن 16:39.

السموات والأرض وما بث فيهما من دابة ﴿ مؤثراً على لفظ الخلق ليدل على التكثير الدال على كمال القدرة، وبين بقوله تعالى: ﴿من دابة﴾ تعميماً وتغليظاً لغير ذوي العلم في السموات والأرض تحقيقاً للمخلوقية، فقد ثبت في صحاح الأحاديث ما يدل على وجود الدواب في السماء من مراكب أهل الجنة وغيرها، وكذلك ما يدل على وجود ملائكة كالأوعال⁽¹⁾. بل لا يبعد أن يكون في كل سماء حيوانات ومخلوقات على صور شتى وأحوال مختلفة لا نعلمها، ولم يذكر في الأخبار شيء منها فقد قال تعالى: ﴿ويخلق ما لا تعلمون﴾.

وأهل الإرصاء اليوم⁽²⁾ يتراءى لهم بواسطة نظاراتهم مخلوقات على جرم القمر لكنهم لم يتحققوا أمرها لنقص ما في آلائهم، على ما يدعون. ويحتمل أن يكون فيما عدا القمر، ونفي ذلك ليس من المعلوم من الدين بالضرورة ليضر القول به.

ثم أتى الألوسي ببعض تأويلات من بينها تأويل (الدابة) بالحي وقال: وكل ذلك - على ما فيه - لا يحتاج إليه لأن الإحتياج إلى ذلك عدول عن الظاهر ولا يعدل عنه إلا إذا دل الدليل على خلافه، وأين ذلك الدليل؟! بل هو قائم على وجود الدواب في السماء كما هي موجودة في الأرض - اهـ -⁽³⁾.

والقائلون بوجود أحياء على غير الكوكب الأرضي وبخاصة المحدثين منهم يرتبون عليه قولهم: إن الآية إلى جانب إشارتها إلى ذلك تقرر إمكان اتصال أهل الأرض بسكان الكواكب الأخرى عندما يحين الوقت وهو عين ما يوجه إليه العلماء اهتمامهم اليوم، ويقولون: قد يكون الجمع والاتصال في الدنيا بواسطة سفن الفضاء أو على متن أمواج الأثير، وهو أكثر احتمالاً.

ولكن عند التأمل فيما تفيد الآية وملاحظة الآيات الأخرى التي تفيد نفس المعنى نجد أن الجمع الذي تشير إليه الآية الكريمة - والله أعلم بمراده - إنما هو

(1) الأوعال المشبه بها جمع وعل، وهوتيس الجبل.

(2) توفي الألوسي سنة 1270 هـ.

(3) روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني 525:7 وما بعدها.

الجمع يوم القيامة للحساب بعد البعث. فمن أساء القيامة (يوم الجمع) وقد ورد في نفس هذه السورة قول الله تعالى: ﴿وتنذر يوم الجمع لا ريب فيه فريق في الجنة وفريق في السعير﴾⁽¹⁾، وعلى ذلك فالآية لها نظائر كثيرة وردت في القرآن الكريم وكلها تفيد الجمع يوم القيامة قال تعالى: ﴿هذا يوم الفصل جمعناكم والأولين﴾⁽²⁾ وقال تعالى: ﴿فكيف إذا جمعناهم ليوم لا ريب فيه﴾⁽³⁾ وقال تعالى: ﴿ونفخ في الصور فجمعناهم جمعاً﴾⁽⁴⁾ وقال تعالى: ﴿ليجمعنكم إلى يوم القيامة لا ريب فيه﴾⁽⁵⁾.

وعلى هذا فالمقصود بالجمع إنما هو الجمع بين الخلوقات في الآخرة لا في الدنيا وأن معنى الآية الكريمة أن هذه الأحياء المبتوثة التي لا يعلم الإنسان منها إلا اليسير ولا يدرك منها بوسائله المحدودة إلا القليل المشهور. هذه الأحياء التي تدب في السموات والأرض يجمعها الله تعالى حيث يشاء لا يضل منها فرد واحد ولا يغيب.

ثم ما أجل التعبير القرآني الذي قابل بين مشهدين مشهود البتة ومشهد الجمع، ولو كان المراد ما يفيد الجمع في الدنيا لجاء التعبير بصورة وهو على الجمع بينهم أو اجتماعهم. أما وقد جاء التعبير القرآني هكذا على جمعهم الذي يفيد - فيما أعتقد - جمعاً لا خيار لهم فيه ولا حيلة لهم في الفرار منه، فإنه يكاد يكون نصاً في الجمع يوم القيامة أي حشرهم بعد البعث للحساب العادل.

5 - قضية أصل الإنسان

تمهيد:

الذي يجب على المسلم أن يعلمه عن الإنسان وواقعه هو الإيمان بأنه من

(1) سورة الشورى، الآية 5.

(2) سورة المرسلات، الآية 38.

(3) سورة آل عمران، الآية 25.

(4) سورة الكهف، الآية 95.

(5) سورة الأنعام، الآية 13، وسورة النساء، الآية 86.

أفضل المخلوقات وأشرفها بدليل قوله تعالى: ﴿ولقد كرّمنا بني آدم وحملناهم في البر والبحر ورزقناهم من الطيبات وفضلناهم على كثير ممن خلقنا تفضيلاً﴾⁽¹⁾، وليس بعد تكريم الله تكريم ولا بعد تفضيله تفضيل. والإيمان كذلك بأنه مخلوق من حيث الجنس من عنصر التراب ومتكاثر من حيث النوع من الإنسان الأول آدم - عليه السلام - . وأنه مخلوق منذ النشأة الأولى في أتم مظهر وأحسن تقويم لقوله تعالى: ﴿ولقد خلقنا الإنسان في أحسن تقويم﴾⁽²⁾ وقوله تعالى: ﴿يأيها الإنسان ما غرّك بربك الكريم الذي خلقك فسواك فعدلك في أي صورة ما شاء ركبك﴾⁽³⁾ وقوله تعالى: ﴿وصوركم فأحسن صوركم ورزقكم من الطيبات﴾⁽⁴⁾.

فالإنسان مخلوق من حيث الجنس من عنصر التراب، لأن القرآن قرر أن آدم - عليه السلام - خلق من تراب ومن طين ومن حمأ مسنون ومن صلصال كالفخار، وهي عناصر كلها ترجع إلى جوهر واحد هو التراب، ومنه تفرعت هذه الأحوال. قال تعالى: ﴿إذ قال ربك للملائكة إني خالق بشراً من طين فإذا سويته ونفخت فيه من روحي فقعوا له ساجدين﴾⁽⁵⁾ وقال تعالى: ﴿وإذ قال ربك للملائكة إني خالق بشراً من صلصال من حمأ مسنون﴾⁽⁶⁾، وقال تعالى: ﴿ومن آياته أن خلقكم من تراب ثم إذا أنتم بشر تنتشرون﴾⁽⁷⁾.

فهذه الآيات - وسواها كثير - تشير إلى أن الله تعالى خلق آدم ابتداءً من الطين على هذا الشكل وبهذه الصورة، ولم تشر أية آية في القرآن الكريم إلى تحول الإنسان من نوع إلى نوع آخر، بل على العكس أشارت الآيات إلى مراحل تطوره على الحالة التي ينتقل فيها طوراً بعد طور كما هو عليه الآن. قال الله تعالى: ﴿يأيها

(1) سورة الإسراء، الآية 70.

(2) سورة التين، الآية 4.

(3) سورة الإنفطار، الآيات 6 - 8.

(4) سورة غافر، الآية 64.

(5) سورة ص، الآيتان 71، 72.

(6) سورة الحجر، الآيتان، 28، 29.

(7) سورة الروم، الآية 20.

الناس إن كنتم في ريب من البعث فإننا خلقناكم من تراب ثم من نطفة ثم من علقة ثم من مضغة مخلقة وغير مخلقة لنبين لكم ونقر في الأرحام ما نشاء إلى أجل مسمى ثم نخرجكم طفلاً ثم لتبلغوا أشدكم ومنكم من يتوفى ومنكم من يرد إلى أرذل العمر لكي لا يعلم بعد علم شيئاً⁽¹⁾.

إن مكانة الإنسان في القرآن الكريم هي أشرف وأسمى مكانة له بين الكائنات جميعاً، فهو الكائن العاقل المفكر المدبر المكلف الذي سخر الله له ما في السموات وما في الأرض ومكنه فيها وأحل له الطيبات ورزقه منها، وهو الذي كرمه الله بالعلم وبالقدرة على العمل والتفكير دون سائر الكائنات، وهو الذي حل الأمانة بفطرته الإنسانية ولم يحملها أحد من خلق الله. ولهذا نجد القرآن الكريم يتحدث عن الإنسان حديثاً مستفيضاً يتناول خلقه ومنشأه وطبيعته وخصائصه ومكانته بين الكائنات الأخرى ومركزه في هذا الكون.

ومن الأدب مع كتاب الله تعالى أن نكل علم ما لم يبينه الله عز وجل إلى علمه وحده، اللهم إلا ما كان خاضعاً من ذلك لوسائل البحث والتجربة والمشاهدة، فقد دعانا كلام الله تعالى إلى البحث عن الحقيقة والتنقيب عن اليقين في ذلك.

ولئن كانت نتائج العلم الحديث وحقائق الدين تقاربت في أصل الكون في رأي بعض الباحثين فاستطاعوا التوفيق بين ما جاء في كتاب الله وبين ما قال به العلم الحديث، فإنهم وقفوا حيارى أمام مسألة أصل الإنسان. فإن المفسرين والباحثين - ما عدا القليل منهم - على الرغم من نصرتهم للمطابقة بين العلم والدين وقفوا للهجوم على نظرية دارون في أصل الإنسان⁽²⁾.

لهذا فإن العلماء الذين رحّبوا كثيراً بالنظرية السديمية في تفسير أصل الكون وقفوا طويلاً في وجه نظرية التطور يعلنون حربهم عليها ومعارضتهم لها.

(1) سورة الحج، الآية 5.

(2) صاحب نظرية النشوء والإرتقاء، وقد ولد سنة 1809 وتوفي سنة 1882 م. وهو صاحب كتاب (أصل الأنواع) الذي أحدث به صّجة كبرى في علم التاريخ الطبيعي سنة 1859 م.

وهذه النظرية ظهرت في القرن التاسع عشر على يد دارون الإنجليزي ، وقد دعم نظريته ببعض الحفريات والهيكل العظمية القديمة .

ولكن نظرية التطور ليست وليدة العصر الحديث ، بل هو رأي قديم قال به فلاسفة اليونان وعرفه مفكرو العرب⁽¹⁾ .

«و غاية ما بين (دارون) وبين القدامى الذين كان لهم نظر في هذا الإتجاه أن (دارون) دخل بهذا المذهب إلى ميدان العلم التجريبي ، فدارون لم يكن فيلسوفاً ولم يكن من همه أن ينظر إلى الوجود نظر الفلاسفة وأن يخرج إلى الناس بمذهب فلسفي ، وإنما هو عالم من علماء الحياة اتصل بالطبيعة واستغرق في الكشف عن أسرارها بالملاحظة والتجربة ، فكشف له من وراء هذا البحث الدائب المتصل أن الحياة نسيج واحد⁽²⁾ ، فحاول أن يفسر علاقة الموجودات بعضها ببعض على هذا الأساس .

ونظرية التطور في أصل الإنسان لا تستند إلى براهين قطعية بل تقوم على فروض وتخمينات انطلقت من غيالات القائلين بها متأثرين ببواعث سياسية والحادية ضد تعاليم الكنيسة التي وقفت موقف العداء الشديد فحجرت عليهم التفكير ومنعتهم من إبداء آرائهم ونشرها بين الناس ، وعاملت من خالف تعاليمها بقسوة وعنف ، فكان شبح المحاكم يملاً قلوبهم رعباً ، فلما ضعف سلطان الكنيسة تنفسوا الصعداء وقاموا بنشر هذه الأفكار نكاية برجال الدين وإمعاناً في إسقاط قيمتهم وإظهارهم للناس بمظهر الدجالين ، فصاغوا هذه الآراء والأفكار وأخرجوها في قوالب علمية ليخدعوا بها الناس وليؤثروا على ضعف العقول الذين يتلقون كل جديد من الآراء دون تحقيق أو تمحيص⁽³⁾ .

وهكذا لم يكن دارون صاحب مذهب التطور ، وإن كان هو الذي شرح حقيقته وأفصح عن مضمونه في أسلوب العلم ومنطق الفلاسفة⁽⁴⁾ .

(1) الإنسان في القرآن الكريم للعقاد ، ط دار الهلال ، 1971 ، ص 71 .

(2) الله ذاتاً وموضوعاً ، عبد الكريم الخطيب ، ط 2 ، دار الفكر العربي ، 1971 ، ص 229 .

(3) أضواء من القرآن على الإنسان ونشأة الكون والحياة ، ص 178 .

(4) الله ذاتاً وموضوعاً ، عبد الكريم الخطيب ، ص 228 .

وقد تولى الأستاذ العقاد في كتابه (الإنسان في القرآن الكريم) عرض الملاحظات العربية القديمة في هذا الشأن، وأشار إلى القزويني في كتابه (عجائب المخلوقات) وإلى إخوان الصفا في رسالتهم العاشرة، وابن مسكويه في كتابه (تهذيب الأخلاق) وابن خلدون في مقدمته حيث نجد شذرات مختلفة تلتقي مع نظرية الارتقاء في بعض الجوانب وإن اختلف الباعث على ذلك⁽¹⁾.

يقول ابن خلدون: ثم انظر إلى عالم التكوين كيف ابتدأ من المعادن ثم النبات ثم الحيوان، على هيئة بديعة من التدرج، آخر أفق المعادن متصل بأول أفق النبات مثل الحشائش وما لا بذر له. وآخر أفق النبات مثل النخل والكرم متصل بأول أفق الحيوان مثل الخبز والصدف ولم يوجد لهما إلا قوة اللمس فقط، ومعنى الإتصال في هذه المكونات أن آخر أفق منها مستعد بالإستعداد القريب أن يصير أول أفق الذي بعده، واتسع عالم الحيوان وتعددت أنواعه، وانتهى في تدرج التكوين إلى الإنسان صاحب الفكر والروية - اهـ-⁽²⁾.

ولكن ابن خلدون لم يكن إلا باحثاً عن إمكان الوحي واتصال الإنسان باللائكة، وقد دعاه ذلك إلى أن ينظر نظرة شاملة للوجود، فرأى تلك الروابط التي تربط كل عالم بالعالم الذي دونه والعالم الذي فوقه، والتي تلاقت مع نظرية دارون في بعض الجوانب⁽³⁾.

آراء العلماء في نظرية النشوء والارتقاء

قوبل مذهب النشوء والارتقاء بثورة عارمة من جميع العلماء الدينيين وبعض العلماء الطبيعيين في الغرب والشرق الإسلامي على حد سواء. إلا أن العلماء الدينيين عدلوا أخيراً عن التحريم بقوة القانون إلى مناقشة المذهب البراهين العلمية، فأخذ فريق منهم في تفسير المذهب بالمعنى الذي يوافق الروايات الدينية

(1) أنظر الإنسان في القرآن الكريم، فصل التطور قبل مذهب التطور، ص 81 - 89.

(2) مقدمة ابن خلدون، ص 92.

(3) الله ذاتاً وموضوعاً، ص 233.

بمعانيها الرمزية، وأخذ فريق آخر في إنكاره بالأدلة العلمية التي استند إليها العلماء ولا يزالون يستندون إليها إلى هذه الأيام⁽¹⁾.

ولعل أجمع الكتب التي تعرضت لمناقشة هذه النظرية - كما يقول الأستاذ العقاد - : كتاب (الله والإنسان في الكون) الذي قام بتأليفه نخبة من الباحثين الدينيين يعرفون وجهة النظر الكاثوليكية في تحقيق كل مسألة تبحث في الأصول، ومنها أصل المادة وأصل العقيدة، وأصل الإنسان⁽²⁾.

وقد استفاد المؤلفون لهذا الكتاب من جميع المعارك العلمية التي انتشرت بعد الحرب العالمية الأولى ولم تكن متداولة بين الكتاب اللاهوتيين في الربع الأول من القرن العشرين، وأمعنوا في التفصيلات التشريحية التي كانت مجملة في الفوارق الواسعة بين تركيب الفرد وتركيب الإنسان، ولا سيما الفوارق المميزة للإنسان الناطق وهو قوام الفصل بين النوع الأدمي وعامة الأنواع العليا.

فهذا الفارق في الملكات العقلية يقابله فارق دقيق في تكوين الدماغ يبين استحالة النطق بغير هذا التركيب الإنساني الخاص بدماغ الإنسان دون سواه. فالرأس الإنساني يحتوي جميع المناطق التي في رؤوس القردة ولكنها تخصص بمناطق أخرى تسمى المناطق الثانوية، أبرزها تلك المنطقة الخاصة بمراكز الألفاظ الكلامية، وهي مستحيلة بغير الإتصال الوثيق بأجهزة الكلام من عضلات الوجه والفم والبلعوم مع جهاز التنفس سواء من جانب حركات الحس ومراكز اللمس والسمع بل والبصر كذلك، فهناك مركز للنطق في مقدمة مراكز الحركة في الوجه، ومراكز بصرية للكلام في المنطقة الجدارية ومراكز سمعية في الفص الصدغي. وفقدان مراكز الحركة يستتبع العجز عن الحركات المقابلة الضرورية للنطق بغير تعطيل عمل اللسان والشفيتين.

وهكذا أبرز هؤلاء العلماء مواضع الشبهة في أدلة مذهب النشوء وقرائنه التي لم ترتفع إلى قوة الدليل، فهم يوسعون الفارق غاية التوسع المحتمل في حدود

(1) الإنسان في القرآن الكريم، ص 91.

(2) المرجع السابق، ص 93.

المقررات العلمية، ولا يدعون فارقاً خفياً منها إلا وضحوه وكبروه وبلغوا به غاية الشكل، وياعدوا بينه وبين مرجحات اليقين⁽¹⁾.

كما قوبل المذهب باعتراض شديد من علماء الطبيعة الذين ناقشوه بالأدلة العلمية وطلبوا من دعائه دليلاً محسوساً على فعل الانتخاب الطبيعي في تحول الأنواع ولا سيما نوع الإنسان. فالمعترضون عليه طلباً للأدلة الطبيعية لا يقلون عدداً ولا اعتراضاً عن المعترضين اللاهوتيين⁽²⁾.

كما تصدى للرد على هذا المذهب في الشرق الإسلامي عامة نخبة من المفكرين وقادة الإصلاح من بينهم جمال الدين الأفغاني في رسالته (الرد على الدهريين).

يقول جمال الدين الأفغاني، متحدثاً عن مذهب النشوء والارتقاء:

«رأس القائلين بهذا القول (دارون) وقد ألف كتاباً في بيان أن الإنسان كان فرداً ثم عرض له التنقيح والتهذيب في صورته بالتدرج على تنالي القرون المتطاولة، ويتأثير العوامل الطبيعية الخارجية حتى ارتقى إلى برزخ (اوران اوتان) ثم ارتقى من تلك الصورة إلى أول مراتب الإنسان.

ثم يقول متهمكماً ساخراً: «وعلى زعم دارون هذا يمكن أن يصير البرغوث فيلاً بمرور القرون وكر الدهور، وأن يتقلب الفيل برغوثاً كذلك، فإن مثل دارون عن الأشجار القائمة على غابات الهند، والنباتات المتولدة من أزمان بعيدة لا يجدها التاريخ إلا ظناً وأصولها تضرب في بقعة واحدة وفروعها تذهب في هواء واحد، وعروقها تسقى بماء واحد، فما السبب في اختلاف كل منها عن الآخر في بنيتها وشكل أوراقه وطوله وقصره وضخامته ورقته، فأي فاعل خارجي أثر فيها حتى خالف بينها مع وحدة المكان والماء والهواء؟! أظن لا سبيل إلى الجواب سوى العجز عنه.

(1) الإنسان في القرآن الكريم، ص 94.

(2) المرجع السابق، ص 95.

ثم يقول: «وكأنني بهذا المسكين وما رماه في مجاهل الأوهام ومهامه⁽¹⁾ الخرافات الأقرب المشابهة بين القرد والإنسان، وكان ما أخذ به من الشبه الواهية إلهية يشغل بها نفسه عن آلام الحيرة وحسرات العماية.

ومن واهياته ما كان يرويه دارون من أن جماعة كانوا يقطعون أذنان كلابهم، فلما واطبوا على ذلك قروناً صارت الكلاب تولد بلا أذنان، كأنه يقول: حيث لم تعد للذئب حاجة كُفَّت الطبيعة عن هبته.

وهل صمت أذن هذا المسكين عن سماع خبر العبرانيين والعرب وما يجرونه من الختان ألوفاً من السنين ولا يولد مولود حتى يخنن. وإلى الآن لم يولد واحد منهم مخوناً إلا لإعجاز⁽²⁾.

ويقرر الدكتور حلليم عطية سريال في كتابه (تصدع مذهب دارون والإثبات العلمي لعقيدة الخلق) أن الحلقة المفقودة ناقصة بين طبقات الأحياء وليست بالناقصة بين الإنسان وما دونه فحسب، فلا توجد حلقات بين الحيوانات الأولية ذات الخلية الواحدة والحيوانات ذوات الخلايا المتعددة، ولا بين الحيوانات الرخوة ولا بين المفصليات، ولا بين الحيوانات اللافقرية والفقرية، ولا بين الأسماك والحيوانات البرمائية، ولا بين الأخيرة والزحافات والطيور، ولا بين الزحافات والحيوانات الثديية. وقد ذكرتها على ترتيب ظهورها في العصور الجيولوجية.

ثم قال بعد ذلك: إن هناك مسألة منطقية وهي معرفة كيف استطاع المخلوق الذي يعتبره التحوليون الحلقة المفقودة بين القرد والإنسان أن يعيش بين الحيوانات الضارية التي تحيط به، فإن أصحاب نظرية النشوء يقولون: إن هذا المخلوق كان أضعف عقلاً من الإنسان الحالي، فكيف يمكن لمخلوق ضعيف

(1) مهامه: جمع مهمه وهي الصحراء الواسعة التي يهلك عابرها، فلذا عبرها بسلام فاز بحياته، ولذا سميت مغارة.

(2) لإعجاز أي معجزة إلهية: رسالة الرد على الدهريين، تحقيق محمود أبو رية، الناشر دار الكرنتك، لات، ص 42 - 45.

العقل والجسم أن يعيش وحوله الأسود والفيلة والنمور وغيرها من الحيوانات المفترسة⁽¹⁾.

هذا هو موقف بعض العلماء الدينيين والطبيين من نظرية التطور. وقد أذاع البروفسور (هورذل) العالم الذري بياناً بتاريخ 10 مارس 1956 قال فيه : لا يوجد دليل واحد من ألف أن الإنسان من سلالة القرد، بل إن التجارب قد دلت على أن الإنسان منذ عشرة ملايين عام يعيش بعيداً عن القردة وقدم للمتحف الطبيعي بمدينة (بال) قطعة من فك إنسان يرجع تاريخها إلى عشرة ملايين عام⁽²⁾. وبتاريخ 13 مارس 1956م أعلن في أمريكا أن الدكتور (دويتز) المشرف على الأبحاث بجامعة كولومبيا أيد نظرية (هورذل) وقال : أن نظرية داروين لا تستند إلى أي دليل علمي، وأن الكائنات إنما خلقت مستقلة الأنواع استقلالاً تاماً⁽³⁾.

وهنا نلاحظ ما يلي :

1 - إن نظرية التطور هذه ليست مما يتعلق بالمحسوسات والملاحظات، فلا سبيل إلى البحث لها عن دليل من التجربة المحسوسة المباشرة، ذلك لأن البحث ليس متعلقاً بالإنسان الحالي حتى يكون الموضوع خاضعاً لما ذكر، وإنما هو متعلق باكتشاف ناحية تاريخية فيه مرت وانقضت، وكل ما يمكن الإستعانة به في البحث هنا إنما هو وسائل البحث الإستردادي، وشتان بينها وبين برهان التجربة والملاحظة. كما أن هذه النظرية من جهة أخرى ليست مما يخضع لقانون التلازم أو القياس الصحيح القائمين على أساس الإستقراء التام، إذ هي محاولة استكشاف لتاريخ بعيد موغل في القدم ليس بيننا وبينه أي برهان علمي قاطع⁽⁴⁾.

وعلى ذلك فلا أمل في أن تصبح هذه النظرية حقيقة علمية في يوم من الأيام، كما يرى البعض.

(1) نظراً لعدم حصولنا على الكتاب اكتفينا بالرجوع إلى كتاب الأستاذ العقاد (الإنسان في القرآن الكريم) ص 116، 117.

(2) الله والعلم الحديث، عبد الرزاق نوفل، ص 197،

(3) المرجع السابق، ص 197.

(4) كبرى اليقنيات الكونية، ط دار الفكر العربي، ص 246.

ومن التعدي على الحقيقة والعلم اعتقاد آراء قامت على الظن والتخمين أنها حق وأنها مذهب علمي يتبناه علماء ويدافعون عنه، فالعلم هو كشف المعلوم على ما هو به في الواقع فهو يقين، واليقين حق. ولكن الآراء والنظريات ظن، والظن لا يغني عن الحق شيئاً. كما أنه من المحتمل أن يكونوا مخطئين في أدلتهم التي استدلو بها. والدليل إذا تطرق إليه الإحتمال سقط به الإستدلال كما هو معترف به عقلاً وعلماً.

2- إنه من المؤكد في القرآن أن الله خلق آدم وزوجته حواء وأنها أصل النوع الإنساني، وأنه خلق آدم من الطين ونفخ فيه من روحه وجعله بشراً سوياً. أما كيفية ذلك وما هي التفاصيل الدقيقة والزمن الذي استغرقه فهذا غير صريح في القرآن ولكن الله تعالى يقول: ﴿ما أشهدتهم خلق السموات والأرض ولا خلق أنفسهم﴾⁽¹⁾. كما أن مجموع النصوص القرآنية في خلق آدم - عليه السلام - وفي نشأة الجنس البشري ترجح أن إعطاء هذا الكائن خصائصه الإنسانية ووظائفه المستقلة كان مصاحباً لخلقه، وأن الترقى في تاريخ الإنسان كان ترقياً في بروز هذه الخصائص وغيرها وتدريبها واكتسابها الخبرة العامة، ولم يكن ترقياً في وجود الإنسان من تطور الأنواع حتى انتهت إلى الإنسان، كما تقول الدارونية⁽²⁾.

ورغم ما طرأ على هذه النظرية من تعديلات وما لاقته من معارضة فقد شاعت في العالم شيوعاً عجيباً أدى ببعض المفكرين المسلمين أن يتلمسوا لها دليلاً من القرآن أو توفيقاً بينها وبين آياته.

فيأتي كاتب ليقدم لنا نظرية التطور بصراحة مستشهداً بتأويله لبعض الآيات مثل قوله تعالى: ﴿وقد خلقكم أطواراً﴾⁽³⁾ وقوله تعالى: ﴿ولقد خلقناكم ثم صورناكم ثم قلنا للملائكة اسجدوا لآدم﴾⁽⁴⁾، ويقول: وفي هذه الآية يحدد أن خلق الإنسان تم على مراحل زمنية، والزمن بالمعنى الإلهي طويل جداً ﴿وإن يوماً

(1) سورة الكهف، الآية 50.

(2) في ظلال القرآن، 8: 1214.

(3) سورة نوح - عليه السلام -، الآية 14.

(4) سورة الأعراف، الآية 10.

عند ربك كآلف سنة مما تعدون»⁽¹⁾. وفي موضع آخر «تخرج الملائكة والروح إليه في يوم كان مقداره خمسين ألف سنة»⁽²⁾ ثم يقول: «فإذا قال الله للملائكة اسجدوا لآدم، فمعنى هذا أن آدم جاء عبر المراحل من التخليق والتصوير والتسوية استغرقت ملايين السنين بزماننا وأياماً بزمان الله الأبدي».

وقال في قوله تعالى: «وقد خلقكم أطواراً» معناها أنه كانت قبل آدم صور وصنوف من الخلائق جاء هو ذروة لها «هل أتى على الإنسان حين من الدهر لم يكن شيئاً مذكوراً»⁽³⁾ إشارة إلى مرحلة بائدة من الدهر لم يكن الإنسان يساوي فيها شيئاً يذكر، وقال في قوله تعالى: «ولقد خلقنا الإنسان من سلالة من طين» هي إشارة صريحة بأن الإنسان لم يخلق من الطين ابتداءً، وإنما خلق من سلالات جاءت من الطين، وهناك مرحلة متوسطة بين الإنسان والطين هي سلالات عديدة متلاحقة كانت تمهيداً لظهور نوع الإنسان المثقوب⁽⁴⁾.

كما يقول الكاتب أيضاً: «وفي سورة السجدة نستشف حكاية التطور من استطراد الآيات 7، 8، وفي هذه الآيات نقرأ أن الله هو الذي أحسن كل شيء خلقه وبدأ خلق الإنسان من طين ثم جعل نسله من سلالة من ماء مهين ثم سواه ونفخ فيه من روحه وجعل لكم السمع والأبصار والأفئدة قليلاً ما تشكرون»⁽⁵⁾.

ويضيف قائلاً: «في البدء كان الطين ثم كانت سلالة من ماء مهين وهو السائل المنوي يقذف من ذكور الحيوانات إلى إناثها ليحدث به التكاثر والانتقال من سلالة إلى سلالة». ثم كانت التسوية والتخليق والتطور عبر هذه السلالات، وأخيراً جاء النفخ فينفخ الله العقل أو الضمير أو الحرية في ذروة هذه السلالات، فجاء الإنسان ثم تطور هذا الإنسان ليصبح ذلك الأدمي الراقي الذي نعرفه بحاله من سمع وبصر وفؤاد. وذكر الطين في البداية ثم التسوية ثم النفخ، هذا

(1) سورة الحج، الآية 45.

(2) سورة المعارج، الآية 4.

(3) سورة الإنسان، الآية 1.

(4) القرآن، محاولة لفهم عصري، د. مصطفى محمود، ط دار الشروق، 1973م، ص 53-55.

(5) سورة السجدة، الآيات 6-8.

الإستطراد. بهذا السياق المتسلسل ينفي عن الذهن أن آدم جاء دفعة واحدة من الطين وتقتصر تفسيراً تطورياً لنشأة الخلق - اهـ - (1).

إن حكاية أن الأنواع انحدرت من أصل واحد وأنها تباينت إلى شجرة من الفصائل والأنواع نتيجة تباين الظروف والبيئات كانت احتمالاً مرجحاً أقرب إلى الصحة تقوم عليه الشواهد، فالوشيجة العائلية تربط كل الخلائق بالفعل. والتشريح يقول أنها ترتبط ببعضها البعض بصلة رحم قريب. أما حكاية أن الترقى حدث بالحوافز الحياتية وحدها ويدون يد هادية، فلم تعد مقنعة وسقطت من غربال الفكر المدقق المحقق - اهـ - (2).

هذا ما ذهب إليه الكاتب وادعى أن الآيات دالة عليه وهو غير سديد:

أولاً: لأن المراد بالاطوار في قوله: ﴿وَقَدْ خَلَقَكُمْ أَطْوَارًا﴾ (3) الأطوار التي يعلمونها، وهي دالة على رفقه بهم في ذلك التطور فهو تعريض بكفرهم النعمة لأن الأطوار دالة على حكمة الخالق وعلمه وقدرته، فإن تطور الخلق من طور النطفة إلى طور العلقة إلى طور المضغة إلى طور العظم الذي كسي لحماً طرياً إلى طور خروجه طفلاً إلى طور الصبا إلى طور بلوغ الأشد إلى طور الشيخوخة، وطور الموت على الحياة وطور البلى على الأجساد بعد الموت، كل ذلك والذات واحدة دليل على تمكن الخالق من كفايات الخلق والتبديل في الأطوار، وهم يدركون ذلك بأدنى التفات الذهن فكانوا محققين بأن يتوصلوا به إلى معرفة عظمة الله وتوقع عقابه، لأن الدلالة على ذلك قائمة بأنفسهم (4). هذا ما عليه الأكثر. أو المراد بها ما عليه البشر في أفرادهم وجماعاتهم من حالات الصلاح والفساد والسعادة والشقاوة والخير والشر والفضيلة والرذيلة، تصنيف النام إلى هذه الأصناف

(1) المصدر السابق، ص 66.

(2) القرآن، محاولة لفهم عصري، ص 47.

(3) الأطوار: جمع طور (بفتح فسكون) وهو المرة من الأفعال أو من الزمان، وأريد من الأطوار هنا ما يحصل في المرات والأزمان إلا تعدد ما يحصل فيها، فهو تعدد بالنوع لا بالتكرار (التحرير والتنوير 201:29).

(4) انظر تفسير التحرير والتنوير، 201:29، وتفسير جزء تبارك للشيخ عبد القادر المغربي، ص 128.

وتخصيص كل فريق منهم بحالة دون حالة وشأن دون شأن دليل على وجود إله حكم مدبر مريد يختص من شاء بما يشاء⁽¹⁾.

ثانياً: إن فهمه لأية السلالة فهم سقيم، فإن المقصود من السلالة - كما عليه المفسرون - هو الخلاصة، بمعنى أن آدم - عليه السلام - خلق من خلاصة من الطين. وليس المقصود كما فهم الكاتب. وآية السجدة التي استشف منها الكاتب ما ذهب إليه من حكاية التطور هي في الواقع عليه لا له كما ادعى. فإن الآية تقرر أنه تعالى خلق قبل آدم خلقاً أحسنه ثم بعد ذلك خلق آدم من طين ثم جعل نسله من ماء مهين، ثم بعد خلق آدم من الطين نفخ فيه الروح وجعل له السمع والبصر. والروح هي التي بها الحياة وليست كما فسرهما بأنها العقل أو الضمير أو الحرية!¹⁹

ونظرية التطور تفترض الإرتقاء والأصلح، ولهذا فإن أي دعوى للتطور من أجل التحسين باطلة بعد أن قال الله عما خلقه قبل آدم: ﴿أحسن كل شيء خلقه﴾. وبدأ خلق الإنسان من طين ﴿ولا شك أن هذا الطين ليس أحد المخلوقات النامية. ثم إن الله تعالى ذكر نفخ الروح بما يدل على أنها بعد خلق الإنسان حيث أتى بلفظ (ثم) الدال على الترتيب الزمني، ومعنى هذا أن المخلوقات التي سبقتها وهي ذات أرواح - كالقردة - لا يمكن أن يكون المتطور منها والمتشعب عنها هو الإنسان الذي كان من طين وبلا روح.

إن الكاتب قد رسم صورة لآدم - عليه السلام - تتناقض مع جانب التكريم الإلهي الذي خصه الله به، وخالف نصوص القرآن الصريحة في ذلك، وفسره بنظرية التطور، مع أنها لا زالت نظرية. وقد تخلى عنها أكثر مؤيديها، كما أخطأ الكاتب في تفسير (الجنة) حيث فسرهما بأنها كوكب خلق الله آدم فيها بشراً وروحاً في أحسن تقويم. ثم لما هبط إلى الأرض رده إلى أسفل سافلين فجعله مجرد (جرثومة) - على حد تعبير الكاتب - في طين المستنقعات إلى نقطة بدء أولى هي الخلية. ثم تدرج تطويره من خلية عبر خمسة آلاف مليون سنة حتى صار آدم

(1) تفسير جزء تبارك، عبد القادر المغربي، ص 128.

الأرض، محاكياً آدم في الجنة في الصورة، والمثال الذي خلقه الله في الملكوت، ولكنه في هذه الحالة وبعد مسيرة خمسة آلاف مليون سنة يكون آدم جديداً يولد وعمره صفر ويكده ليعيش ثم يموت.

وهكذا جنح خيال الكاتب مستنداً إلى الآية الكريم ﴿لقد خلقنا في أحسن تقويم ثم رددناه أسفل سافلين﴾⁽¹⁾ تاركاً الآية اللاحقة لها من سورة التين، وذلك لصعوبة الربط بينها وبين ما ذهب إليه في تفسير الآية الأولى التي سبقتها، لأن الآية اللاحقة وهي قوله تعالى: ﴿إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات فلهم أجر غير ممنون﴾⁽²⁾ تؤذن باستثناء المؤمنين الصالحين من المردودين إلى الخلية التي فسر بها ﴿أسفل سافلين﴾ وهو لا يقول بذلك. فالكل في نظره ارتد إلى الخلية الأولى تبعاً لأصلهم آدم الذي رد إليها⁽³⁾.

ولا شك أن هذه المحاولات لتفسير خلق آدم والربط بين ما بينه القرآن منها وبين هذه النظرية هي ابتعاد عن مقصد القرآن وتقديمه في صورة نظريات علمية مهزوزة لا تتصل بمقصد القرآن من قريب أو بعيد.

(1) سورة التين، الآيتان 4، 5.

(2) سورة التين: الآية 6.

(3) اتجاه التفسير في العصر الحديث، الشيخ مصطفى الطبر الحديدي، ص 182.

الفصل الثاني

القضايا النفسية

الفصل الثاني

القضايا النفسية

التفسير النفسي وثيق الصلة بالتفسير العلمي أو هو جانب منه، كما يرى ذلك الدكتور محمد أحمد الغمراوي الذي جعل التفسير العلمي شاملاً لما عدا الناحية البلاغية.

وإذا كان علم النفس يعتبر من ضمن العلوم الحديثة التي لاقت إهتماماً بالغاً في العصر الحديث لصلته بالجسم والروح، فإن القرآن الكريم قد جاء بما يمكن أن يعتبر القواعد الأساسية لهذا العلم وفي الجوانب المضيئة منه بالذات.

فلتهذيب النفس البشرية وإصلاحها سلك القرآن منهجاً نفسياً هو سبيل التدرج وعدم المفاجأة، وذلك في كثير من تشريعاته، ومن بينها تحريم ما كان أمره متفشياً في نفس المجتمع العربي حين نزل القرآن مثل الخمر والربا. فتحريم الخمر لم ينزل مرة واحدة وإنما أخذ طابع التدرج، فأول آية نزلت في ذلك هي قوله تعالى: ﴿ومن ثمرات النخيل والأعناب تتخذون منه سكراً ورزقاً حسناً﴾⁽¹⁾ وفيها يجعل القرآن الخمر في مقابلة الرزق الحسن، وفي ذلك إشارة إلى أنها ليست منه وهي همسة جديرة بأن تلقى بمضمونها في وجدان المسلم أن الخمر ما دامت كذلك فالأولى به الإبتعاد عن تناولها.

(1) سورة النحل، الآية 67.

ثم نزل قوله تعالى: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ قُلْ فِيهِمَا إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ وَإِثْمُهُمَا أَكْبَرُ مِنْ نَفْعِهِمَا﴾⁽¹⁾ وفيها إشارات قوية ترك في وجدان المسلم فكرة ضرر الخمر لأن إثمها أكبر من نفعها. وإذا غلب الإثم فكيف يستساغ الشيء؟! ومن جهة أخرى هذه الآية تهيئة لمرحلة أكبر من الأولى، وبخاصة إذا لوحظ - مع ذلك - تقديم الإثم على النفع في الآية ووصفه بالكبر ﴿قُلْ فِيهِمَا إِثْمٌ كَبِيرٌ﴾ وتأخير ذكر المنافع مع تخصيصها بالناس، حتى ذهب بعض العلماء إلى أن هذه الآية هي المحرمة للخمر، مستدلاً على ذلك بأن المفسدة إذا ترجحت على المصلحة اقتضت تحريم الفعل. هذا بالإضافة إلى أن فيها الإخبار بأن فيها الإثم الكبير، والإثم أما العقاب أو سببه، وكل منها لا يوصف به إلا المحرم⁽²⁾:

والآية الثالثة التي نزلت في شأن الخمر هي قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقْرَبُوا الصَّلَاةَ وَأَنْتُمْ سُكَارَى حَتَّى تَعْلَمُوا مَا تَقُولُونَ﴾ الآية⁽³⁾، وهي أيضاً تلقي في وجدان المسلم التنافر بين الخمر وبين ركن من أركان الإسلام هو عباده وعليه مداره وهي الصلاة، وهي موزعة على اليوم والليلة في أوقات متقاربة غالباً فلم يبق هناك من الوقت ما يتسع للسكر والإفاقة منه قبل الصلاة، وبذلك ضاق وقت تعاطيها وقلت الفرص التي تتسع لها.

أما الآية الرابعة فهي قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالْأَنْصَابُ وَالْأَزْلَامُ رَجَسٌ مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تَفْلَحُونَ﴾⁽⁴⁾، وقد نزلت بعد أن تهيأت النفوس واستعدت لتلقي التحريم القطعي والنهائي.

كما أن القرآن حوى تفصيلاً لمعظم الأصول النفسية التي يصدر عنها سلوك الإنسان ابتداء من البحث في النفس ما هي؟ وما أصلها؟ وما مصيرها؟ إلى كثير من أحوالها التي تدفع المرء إلى المعيشة في هذه الحياة مثل الدافع إلى طلب الطعام والمال والولد والزينة والرئاسة. كما صور القرآن ألواناً من الخوارج النفسية

(1) سورة البقرة، الآية 217.

(2) انظر تفسير روح المعاني للآلوسي، 1: 413.

(3) سورة النساء، الآية 43.

(4) سورة المائدة، الآية 92.

والعواطف البشرية كالحقد والغيرة والحد والوسوسة وغير ذلك⁽¹⁾.

كما أن القرآن نبهنا إلى حقيقة تنبه إليها علماء النفس أخيراً وهي أن الله زود النفس البشرية بحارس أمين سماه علماء النفس باسم الرقيب، وعربه بعض الباحثين باسم الضمير. والقرآن أطلق عليه ﴿النفس اللوامة﴾⁽²⁾، «وهي النفس التي تنبه الإنسان إلى ما وقع فيه من أخطاء وتلومه عليها وتحفزه على إصلاح هذه الأخطاء»⁽³⁾.

ولم يكتف القرآن بإبراز هذه الجوانب بل وضع طريقاً ورسم منهجاً لإصلاحها والتسامي بها، فهو يدعو إلى إشباع الغرائز ولكن بطريقة مشروعة وفي غير مبالغة أو إسراف، فلا رهبانية في الإسلام ولا حرمان ولكن توسط واعتدال ﴿يأياها الناس كلوا مما في الأرض حلالاً طيباً﴾⁽⁴⁾ ﴿يا بني آدم خذوا زيتكم عند كل مسجد وكلوا واشربوا ولا تسرفوا إنه لا يحب المسرفين﴾⁽⁵⁾.

ويعارض المتأدبين بالزهد في الطيبات هاتفاً بهم: ﴿قل من حرم زينة الله التي أخرج لعباده والطيبات من الرزق قل هي للذين آمنوا في الحياة الدنيا خالصة يوم القيامة﴾⁽⁶⁾. والقرآن لا يقر الكبت المدمر الذي يحطم النفس من داخلها، وإنما يأمر الشاب الذي أحس بداعي الغريزة الجنسية بالزواج إن استطاع. ويوجه الأمر إلى أولي الشأن في المجتمع المسلم بإعانة العاجز عن الزواج والوقوف معه فيقول: ﴿وأنكحوا الأياامى منكم والصالحين من عبادكم وإمائكم إن يكونوا فقراء يغنهم الله من فضله﴾⁽⁷⁾ فإن لم يستطع فعليه أن يمارس نشاطاً محبباً يمتص طاقته لينجو من

(1) الدرامات النفسية عند المسلمين والغزالي بوجه خاص، عبد الكريم العثان، تقديم الدكتور الاهواني ص5 (ط) الأولى 1963.

(2) في قوله تعالى: ﴿لا أقسم بيوم القيامة ولا أقسم بالنفس اللوامة﴾ (سورة القيامة) الآيتان 1، 2.

(3) فلسفة المعرفة في القرآن الكريم، علي عبد العظيم، ط مجمع البحوث الإسلامية، 1973، ص291.

(4) سورة البقرة، الآية 167.

(5) سورة الأعراف، الآية 29.

(6) سورة الأعراف، الآية 30.

(7) سورة النور، الآية 32.

أخطار هذه الغريزة، وهو ما يعرف في علم النفس بالتسامي - تحويل مجرى الغريزة، في تيار مناسب يتفق مع تعاليم المجتمع - والصوم أحد هذه الوسائل التي تضعف أثر الغريزة وهو نشاط روحي مثمر «يا معشر الشباب من استطاع منكم الباءة فليتزوج فإنه أغض للبصر وأحصن للفرج، ومن لم يستطع فعليه بالصوم فإنه له وجاء»⁽¹⁾.

وهكذا يقال في غريزة حب التملك وغريزة حب البقاء وغيرها مما يدل على تجاوز الشريعة مع النفس البشرية وإمدادها بعوامل التسامي والإزدهار. ولقد كان المنهج السماوي ولا يزال هو المنهج الأمثل لعلاج أمراض النفس وتوفير الصحة النفسية للإنسان في حياته، وذلك لأنه منهج منزل من عند الله خالق النفس وهو العليم بما يصلحها.

«وفي قصة الذين تخلفوا عن غزوة (تبوك)⁽²⁾ التي قادها رسول الله ﷺ بنفسه يتحدث القرآن عن بعض ما سمي في علم النفس الحديث بعذاب الضمير ومعاناة الشعور بالذنب. وهؤلاء الثلاثة هم: كعب بن مالك، ومرارة بن الربيع، وهلال بن أمية، تخلفوا رغم الاعلان عن الغزوة والتجهيز لها. فلما مضت الغزوة أحسوا بالإنثم وبأزمة نفسية كادت تعصف بهم إلى أن نزل فيهم حكم الله ﷻ وعلى الثلاثة⁽³⁾ الذين خلفوا حتى إذا ضاقت عليهم الأرض بما رحبت وضاقت عليهم أنفسهم وظنوا أن لا ملجأ من الله إلا إليه ثم تاب عليهم ليتوبوا إن الله هو التواب الرحيم»⁽⁴⁾.

فلو تصورنا ذلك الإنسان المذنب، وقد ضاقت عليه الأرض على وسعها.

(1) هذا الحديث أخرجه البخاري في كتاب الصوم في باب الصوم لمن خاف على نفسه العزبة. وفي كتاب النكاح في باب قول النبي: من استطاع الباءة. وفي باب: من لم يستطع الباءة فليصم. ومسلم في كتاب النكاح باب: الترغيب في النكاح.

(2) وكانت بين المسلمين والروم وكانت أيام حدة وشدة، وتسمى غزوة العرة أيضاً.

(3) معطوف على النبي في قوله تعالى: «لقد تاب الله على النبي والمهاجرين والأنصار...» وعلى الثلاثة. والثلاثة كانوا من الأنصار.

(4) سورة التوبة، الآية 119.

ثم ضاقت عليه نفسه وكأنها قفص يضغظه داخله لوجدنا أروع صورة رسمت دقة الشعور بالخزي والإحساس بالإثم كما تصورها أحدث كتابات علم النفس⁽¹⁾.

والآية التي تصور مشهد أصحاب الكهف الذين تعاقبت عليهم السنين فتحولوا إلى صورة تفزع القلب وتروع النفس فتقول: ﴿لو اطلعت عليهم لوليت منهم فراراً ولملئت منهم رعباً﴾⁽²⁾ وعلم النفس الآن يقول: إن الإنسان قد يفزع من خطر فإذا غريزة حب البقاء تدفعه بعيداً عن مصدر الخطر، لأن مجرد إحساسه بالخطر يحشد فيه قوة غير عادية لا يمكن أن يحصل عليها في حالة الإطمئنان.

فالآية تصور الحالة التي تملك الإنسان عندما تتور فيه غريزة حب البقاء فيلوذ بالفرار. . ويزداد إحساس القارئ بعمقها في ضوء الدراسات النفسية. وهذه الغريزة هي التي استولت على موسى - عليه السلام - فولى مدبراً حين رأى عصاه تتلوى وتهتز صاعدة هابطة، وجرى بعيداً عن مكان الخطر الذي يخشى منه على نفسه ﴿فلما رآها تهتز كأنها جان ولى مدبراً ولم يعقب﴾⁽³⁾ فناداه ربه: ﴿يا موسى أقبل ولا تخف إنك من الأمين﴾⁽⁴⁾.

وهنا نجد للدكتور محمد أحمد خلف الله ملاحظة نفسية عن الفرق بين وصف عصا موسى بأنها جان مرة وأنها حية مرة أخرى «فالقرآن في استعماله لهذه الألفاظ إنما يقصد إلى ما تثيره الألفاظ من انفعالات وما توحى به من عواطف، وهو إنما يستعمل لفظ الجان حين يقصد إلى الحديث عن موسى - عليه السلام - لتصوير عاطفة الخوف وغريزة الهرب، وذلك عند رؤية العصا تتحرك. ولذا نراه يقول بعد لفظ الجان (ولى مدبراً) والجان فيما نرى مثير للخوف ينفر منه الناس ويولون ما أسعفتهم أرجلهم. ويستعمل القرآن لفظ الثعبان أو الحية حين يقصد إلى تصوير ما حصل بين موسى والسحرة أو موسى وفرعون وبعبارة أخرى حين لا

(1) سيكولوجية القصة في القرآن (رسالة دكتوراه) التهامي نغره، الشركة التونسية للتوزيع، 1974م، ص269.

(2) سورة الكهف، الآية 18.

(3) سورة القصص، الآية 31.

(4) سيكولوجية القصة في القرآن، ص270.

يقصد إلى تصوير خوف موسى⁽¹⁾.

عرف بعض المفسرين في العصر الحديث هذه الصلة بين القرآن وبين النفس الإنسانية فدعوا إلى العناية بدراسة النشاط الوجداني على اختلاف صوره «ليكون متفهم القرآن ومفسره خبيراً بما يمارسه القرآن من رياضة للوجدانات والقلوب وسياسته للأنفس والأرواح، وكيف تلتطف لذلك كله. وماذا استخدم من حقائق في هذه المطالب الوجدانية والمرامي القلبية»⁽²⁾.

وهنا نجد جهداً مكماً لجهود الذين قالوا بالتفسير العلمي للقرآن.

وقد أكد الأستاذ أمين الخولي في كتابه (مناهج تجديد) على أن قضية الإعجاز الأدبي للقرآن إنما تفهم على وجهها الصحيح إذا اتصل تفسير هذا الإعجاز بفهم عالم النفس البشرية، وذلك حيث يقول:

«فهذا القرآن إنما يعلل إيجازه وإطنابه وتوكيده وإشثارته وإجماله وتفصيله وتكراره وإطالته وتقسيمه وترتيبه ومناسبته يعلل كل أولئك وما إليه بالأمور النفسية لا غير، وما قام من تحليل مثل هذا الأصل النفسي فهو الدقيق المنضبط، وما جاوز ذلك فهو ادعاء وتمحل أو أشبه بذلك غالباً. وعلى هذا يمكن أن يدرك إعجاز القرآن الفني وامتياز الأدبي بأن يقال: إن القرآن قد راعى قواعد نفسية عن مظاهر الاعتقاد ومسارب الإنفعال ونواحي التأثير وجوانب الإنقياد، وألم من هذا بما آيد حجته وأظهر دعوته، وكان مثل ذلك من الخبرة بشؤون النفس الإنسانية مما لم يهتد إليه العلم إذ ذاك فوق أن يهتدي إليه الأمل البادي.

فقد جاء القرآن بهذه الرعاية للنفسيات نسجاً دقيقاً على مثل نفسية لم يكن لمتفنن قدرة عليها، ولا سبيل إليها في عهد نزوله فضلاً عن التزامها هذا الإلتزام ورعايتها هذه المراعاة في دقة وعمق»⁽³⁾.

(1) الفن القصصي في القرآن، ط مكتبة الانجلو المصرية، ص 50.

(2) مناهج تجديد الأستاذ أمين الخولي، ط دار المعرفة، ص 328.

(3) مناهج تجديد، ص 330.

ثم إن التحليل النفسي لبعض ما ورد في القرآن لا تخلو منه بحوث السابقين وتفسيرهم، وإن خلت من مصطلحات علم النفس الحديث ومناهجه وموضوعاته. فالدعوة إلى التفسير النفسي ليست جديدة تماماً على الفكر الإسلامي⁽¹⁾. نجد من ذلك مثلاً ملاحظة الزمخشري المتوفى سنة 538هـ عن التكرار في قوله تعالى: ﴿ومن حيث خرجت فول وجهك شطر المسجد الحرام، وحيثما كنتم فولوا وجوهكم شطره﴾⁽²⁾ فقد نبّه إلى أن التكرار لتأكيد أمر القبلة وتشديده لأن النسخ من مظان الفتنة والشبهة وتسويل الشيطان، والحاجة مامة إلى التفصلة بينه وبين البداء⁽³⁾ فكرر عليهم ليثبتوا ويعزموا ويجدوا⁽⁴⁾.

ما نجده في تفسير قوله تعالى: ﴿قل إنما أعظكم بواحدة أن تقوموا لله مثنى وفردى ثم تفكروا﴾⁽⁵⁾، بعد أن شرح كيفية التفكير مثنى وفردى قال: والذي أوجب تفرقهم مثنى وفردى أن الاجتماع مما يشوش الخواطر ويعمي البصائر، ويمنع من الروية ويخلط القول، ومع ذلك يقل الإنصاف ويكثر الاعتساف، ويشور عجاج التعصب، ولا يسمع إلا نصرة المذهب - اهـ -⁽⁶⁾.

فالآية الكريمة دعوة إلى أن يفرد كل شاك - في صدقه - ﷺ بنفسه أو صاحبه ثم يتأمل تأملاً ذاتياً ليعلم بعد تفكير أن محمداً ليس بمجنون، وأن ما يقال عنه بصدد ذلك قد صدر عن جماعة حاقدة تستهوي الأتباع دون نظر ذاتي منفرد يزن الأمر وزناً عادلاً محايداً لا حيف فيه. وهو أمر يؤكد اليوم علماء النفس والاجتماع حين يحذرون من خطر الإستهواء الجماعي إذ يخضع الناس لرأي عام مشترك على ما به من ضلال دون أن يفيء كل منهم إلى تفكيره الشخصي ونظيره الذاتي فيما يقول ويعمل.

(1) اتجاهات التفسير في مصر في العصر الحديث، ص 352.

(2) سورة البقرة، الآية 149.

(3) البداء: الظهور بعد الخفاء.

(4) تفسير الكشاف، ط بولاق، 1: 70.

(5) سورة سبأ، الآية 46.

(6) المصدر السابق، 2: 208.

كما نجد عند فخر الدين الرازي المتوفى سنة 606 هـ في تفسيره الكبير ملاحظة نفسية هامة، وذلك حيث ربط بين قصة داود - عليه السلام - وبين ما سبقها في سورة (ص) ربطاً نفسانياً قال عنه: «إنه أقوى وأحسن من كل ما تقدم، وذلك حيث يقول: إن العقلاء قالوا: إن من ابتلي بخضم جاهل مصر متعصب وجب عليه أن يقطع الكلام معه في تلك المسألة، وأن يذكر له كلاماً آخرأً أجنياً عن المسألة الأولى ويطلب في ذلك بحيث ينسى ذلك المتعصب تلك المسألة الأولى، فإذا اشتغل خاطره بهذا الكلام الأجنبي ونسي المسألة الأولى أت له في آخرها بقضية يوافق عليها مناسبة لذلك المطلوب الأول، فإذا سلمها فحينئذ يتمسك بها في إثبات المطلوب الأول. فقد ذكر الله في أول سورة ص عناد أهل مكة وإنكارهم البعث إلى حد قالوا معه على سبيل الإستهزاء: ﴿ربنا عجل لنا قطناً قبل يوم الحساب﴾⁽¹⁾ فقال الله لرسوله: ﴿اصبر على ما يقولون واذكر عبدنا داود.﴾⁽²⁾ الآية ثم قص عليه القصة، ثم قال في آخرها: ﴿يا داود إنا جعلناك خليفة في الأرض فاحكم بين الناس بالحق﴾⁽³⁾ وهنا لا يسع المنكر إلا أن يقول: نعم ما فعل حيث أمره بالحكم بالحق، فعند هذا يقال له: لما سلمت أن حكم الله يجب أن يكون بالحق لا بالباطل لزمك أن تسلم صحة القول بالبعث، لأنه هو الذي يتحقق به العدل ويقتضيه من الظالم للمظلوم - اهـ -⁽⁴⁾.

وإذا كانت هذه جهود بعض الأقدمين في هذا فما مقدار جهود المتأخرين؟ إن جهود المحدثين لم تزد كثيراً عن سابقهم فهي أيضاً اللمحة هنا وهناك تكشف عن الجانب النفسي من الآية دون أن يمثل مجموع هذه الملاحظات منهجاً تاماً يمكن أن نسميه المنهج النفسي⁽⁵⁾.

ونكتفي بالإشارة إلى بعض الملاحظات النفسية التي وردت في جهود

(1) سورة ص، الآية 15. قطناً: نصيبنا من العذاب قبل يوم القيامة، من قط يقط أي قطع، وقولهم هذا من باب السخرية أو التحدي.

(2) سورة ص، الآية 16.

(3) سورة ص، الآية 25.

(4) مفاتيح الغيب، فخر الدين الرازي، 7: 190. والإشارة لامتازنا عبد الغني عوض الراجحي في كتابه (العلم والإيمان) ص 138.

(5) اتجاهات التفسير في مصر في العصر الحديث، ص 353.

المحدثين، فنجد للشيخ عبد الوهاب النجار في كتابه (قصص الأنبياء) محاولة تكشف عن ملاحظة نفسية، وذلك عند تعرضه لقصة بني إسرائيل في قوله تعالى: ﴿فَقَتَلْنَا ابْنَكُمْ بِعِصْيَاهُ﴾⁽¹⁾. فهو يأخذ أولاً في تقييد ما يرويه المفسرون عن القتل كيف أنه ضرب بجزء من البقرة فحيي وأخبر بقاتله فأخذ وقتل.

ويعد مناقشة طويلة قدمها نجده يقول: وردت القصة في شأن رجل وجد قتيلاً في بيته أو محلة قومه أو سقط في معركة فيها جماعة، وقد دفع كل واحد القتل عن نفسه، ولم يتبين قاتله تماماً، وكل واحد يتهم غيره بالقتل، وحينئذ يكون المتهمون محصورين، ولما كان الله مخرجاً ما يكتُمون من القتل علمهم طريقة يميز بها القاتل من البريء، ذلك بأن يأتوا بالمتهم ثم يضربوه بجزء من تلك النفس أي من القتل وهو متصل ببقية الجسم بأن يأتي واحد ويضرب المتهم بيد القتل أو رجله، فإذا كان المتهم بريئاً لم يحدث شيء، وإن كان قاتلاً ظهر عليه انفعال نفسي ورعدة يعلم بسببها أنه القاتل دون سواه أو أنه على اتصال به. وهذا الإنفعال قد يكون فرحاً وجدلاً، وقد يكون خوفاً ورعدة تبعاً لسبب القتل، وهذا الأمر يرجع إلى أحوال الغرائز النفسية، وإلى العقل الباطن في الإنسان.

ذلك أن القاتل حين يباشر الجريمة يكون واقعاً تحت تأثير انفعال خاص يغلي منه دمه يدفعه إلى ارتكاب جريمة القتل، فإذا سكن نائره وهدأت أعصابه وزال ذلك الدافع الذي أكسبه الجرأة حتى طوعت له نفسه ارتكاب الجريمة عاوده الندم وتبكيته الضمير، وصار شبح الجريمة مخيفاً في نظره، ويتمثل له شبحها في كل شيء يتعلق بها، فهو يكره رؤية مكان الجريمة والأشياء التي رآها مقارنة لارتكابها. وتضطرب نفسه ويرتفع نبضه ويسرع إذا ذكر بشيء من الجريمة ويكثر إذا دخل على القتل أو عرض عليه ولم يستطع النظر إليه، فكيف إذا حرك عضو من أعضاء القتل وضرب به القاتل؟! لا شك أن ذلك العمل يكون ذا تأثير عظيم في أعصابه لا يطبق معه ذلك المنظر. هذا إذا كان القاتل لحادث عارض. أما إذا كان انتقاماً فإن الأعراض التي يأتي بها الإنفعال تكون فرحاً وجدلاً - اهـ -⁽²⁾.

ويأخذ عبد الوهاب النجار بعد ذلك في عرض ملاحظات بعض المحققين

(1) سورة البقرة، الآية 72.

(2) قصص الأنبياء، عبد الوهاب النجار، ط مؤسسة الحلبي، 1966م، ص 263.

التي تؤكد رأيه مشيراً إلى سلطان علم النفس في أمريكا اليوم، وكيف استطاع العلماء إخضاع بعض الغرائز التفسير للمراقبة عن طريق الآلة التي تسجل ضربات القلب. ثم يقول:

«وهكذا شاء الله أن يدل بني إسرائيل على طريقة تبين لهم الفاعل إذا تدافعوا في قتل نفس ولم يعلم الفاعل، فدلهم على هذه الطريقة لتحقق بها الدماء وتحيا الأنفس»⁽¹⁾.

إلا أن هذه المحاولة التي أبداها عبد الوهاب النجار أخذ عليها أنه خالف إجماع المفسرين أولاً. ولم يلاحظ مرجع الضمير في قوله تعالى: ﴿فقلنا اضربوه ببعضها﴾ ثانياً. فإنه ذهب إلى أنه يرجع إلى المتهم، مع أنه لم يسبق له ذكر في الآيات السابقة. فإن قال: أنه يفهم من قوله: ﴿قتلتم﴾ يقال له: كان الظاهر على هذا أن يقال: اضربوا أنفسكم. فإن قال: يفهم من المقام. يقال له: هذه قصة جديدة على رأيك هذا يتبدى من قوله تعالى: ﴿وإذ قتلتم﴾. فلا بد أن يكون مأخذ مرجع الضمير هو قوله تعالى: ﴿وإذ قتلتم﴾. ثم يؤخذ من القصة أن المتهم متعدد، فكان الظاهر أن يقال: اضربوهما أو اضربوهم، ولا يغني عن هذا إرادة جنس المتهم، إذ المعنى عليه اضربوا جنس المتهم المحقق في عدة أشخاص، وهو تكلف بل تعسف، ولا يقع نظيره في الكلام المعتاد فضلاً عن فصيح الكلام البالغ حد الإعجاز⁽²⁾. أما ربط قوله تعالى: ﴿كذلك يحيي الله الموتى ويريك آياته لعلكم تعقلون﴾ بالقصة على ما ذكره من القصص الذي لم يذكر ولم يشر إلى ما يدل عليه فبعيد المنزع والموقع معاً⁽³⁾.

وفي دراسة للأستاذ عبد الوهاب حمودة في كتابه (القرآن وعلم النفس) نجد ملاحظات مشابهة عن الترغيب والترهيب في الآيات المكية وعلاقة ذلك بما يقوله علماء النفس، كما نجد تعليلاً لوقوع القسم في ابتداء السور، وأثر ذلك النفسي على شاكلة قوله:

(1) المصدر السابق، ص 267.

(2) قصص الأنبياء، ص ١٣٨. تقرير اللجنة عن الكتاب بالهامش.

(3) من معاني القرآن، عبد الرحيم فودة، دار الكاتب العربي بالقاهرة ص 289.

«فالقسم جاء في القرآن في فاتحة السور المكية في خمس عشرة سورة نحو «والصافات» «والذاريات» إلخ، ووقوع القسم في ابتداء السور له أثره في النفس، فإن البدء به هو جذب لانتباه السامع لوقوع القسم على سمعه في شيء من الرهبة، فإذا حدث ذلك صحبه تهيؤ نفسي لتلقي ما يقال، خصوصاً وإن ما يقال مبني على قسم والقسم شيء مهول، وفي هذه الحال يكون الإنسان أشد تأثراً بالسمع مما لو فاتحته بما تريد عن طريق الجدل والنقاش، لأن الإقناع العقلي فيه انتصار عادي لعقل على آخر. ومن الصعب على النفوس الجاحمة العنيدة كنفوس العرب في جاهليتهم أن تقر لأحد المتجادلين بالغلبة أو تسلّم له بالانتصار عن طريق الإقحام. فالقسم في أول السور يعطيها نضرة في بهجتها ورونقاً في ديباجتها. وفي هذا رعاية نفسية لجانب المستمع لكيلا ينفر فيسد أذنيه - ا هـ -»⁽¹⁾.

كذلك يربط الأستاذ عبد الوهاب حموده بين (مركب النقص) المعروف في علم النفس، ووصف المنافقين بأنهم ﴿إذا خلوا إلى شياطينهم قالوا إنا معكم إنما نحن مستهزءون﴾ فالمنافق لا يعيب ويستهزئ بالمؤمن ليخفي ما في نفسه، ويتظاهر بالكمال قائلاً: ﴿إنما نحن مصلحون﴾⁽²⁾.

كما يربط بين الإيجاء النفسي وبين ظاهرة التكرار في القرآن⁽³⁾.

وأخيراً نجد الأستاذ الكبير عباس العقاد يعلل الفاصلة، ويشرح الآية الآتية في ضوء علم النفس الحديث في كتابه (الصهيونية وقضية فلسطين). والآية هي قوله تعالى: ﴿تحسبهم جميعاً وقلوبهم شتى﴾ ذلك بأنهم قوم لا يعقلون⁽⁴⁾. فبعد أن ذكر أن اليهود دائماً يختلفون على أنفسهم ودائماً يختلفون مع الشعوب التي يعيشون معها، ذكر أعراضاً لمرض نفسي يسمى (البارانويا) قال إن أعراضه هي:

أولاً: تسلط فكرة الغرور والإمتياز على خلق الله.

(1) القرآن وعلم النفس (سلسلة المكتبة الثقافية) عدد 55 بتاريخ 1962/2/15م، ص 16، 17.

(2) القرآن وعلم النفس، ص 82.

(3) المرجع السابق، ص 87.

(4) سورة الحشر، الآية 14.

ثانياً: أنانية مريضة تغلب على المصاب بها، فلا تزال تخيل له أن الناس جميعاً مسخرون لخدمته .

ثالثاً: عقيدة الإضطهاد وامتلاء النفس بالحذر من الآخرين .

رابعاً: شعور العظام والإنقسام، كما يطلقه أطباء الأمراض العقلية، ويقصدون به انقطاع العلاقة بين المفصوم ومن يحيطون به من أبناء بيئته الاجتماعية .

ويعد أن يحقق الأستاذ العقاد أن كل هذه الصفات واضحة في الشعب اليهودي منذ أربعة آلاف سنة وإلى الآن يقول:

«تلك هي (البارانويا) المتأصلة في هذه الصهيونية، وتلك هي علة الفصام بينها وبين من حولها، وعلة الإنقسام بين أبنائها حيثما اجتمعوا إلى بيئة واحدة وهم على الدوام «محسبهم جميعاً وقلوبهم شتى ذلك بأنهم قوم لا يعقلون»⁽¹⁾. ما أبلغها آية أن البارانويا تسمية جديدة لما يمس العقول فلا تعقل. فما أبلغ تحليل الشقاق بين القوم وبين أنفسهم وجيرانهم «بأنهم قوم لا يعقلون»⁽¹⁾.

وفي نهاية هذا الفصل لا بد من إبداء الملاحظة التالية:

يجب أن نفرق في هذا المقام بين نوعين من الثقافة النفسية:

أولهما: يستوحي الفطرة الإنسانية والذوق العام، والنشاط الوجداني على اختلاف صوره .

ثانيهما: يفرض أفكاراً معينة عن طبيعة النفس البشرية عن طريق دراسة بعض الظواهر المرضية وغير المرضية، وهي أفكار تقبل النظر وتلقى بعض المعارضة .

فالثقافة الأولى عامة وهي التي يمكن أن يرتبط بها تفسير القرآن الكريم . أما

(1) الصهيونية وقضية فلسطين، ص 230 وما بعدها .

الثقافة الثانية فإنها لم تزل في دور المناقشة⁽¹⁾.

ومن ثم يجب أخذها بحذر، فما كان قريب المأخذ سهل التناول من غير تكلف كان مقبولاً، وما كان غير ذلك فلا.

(1) اتجاهات التفسير في مصر في العصر الحديث، عفت الشراوي، ص 359.

البَابُ السَّادِسُ

التفسير العامي بين المنهج والتطبيق

الفصل الأول : صور من التفسير العامي المردود .

الفصل الثاني : صور من التفسير العامي المقبول .

الفصل الثالث : الطريقتان الساميتان في الاستفادة من مقررات

العلم في توسيع مدلول النص القرآني .

الفصل الأول

صُور

مِنَ النَّفْسِ الْعَالِيَةِ الْمَرْدُودِ

الفصل الاول

صور من التفسير العلمي المردود

تمهيد:

القرآن الكريم كتاب الله الخالد، ومعجزة النبي ﷺ الكبرى، وهو كلمات الله المتلوة المعبرة عن كلماته المجلوة في آياته الكونية. وهو يخاطب البشر جميعاً لأنه غير محدود بزمان ولا محصور في مكان، وإنما يتصل هديه وإرشاده ويمتد إلى جميع الأمم في سائر العصور منذ إنزاله، إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها. وكل جيل يأخذ من منهله العذب النعير ما تنسع له ثقافته وحضارته ومدنيته.

وهو بأسلوبه المعجز يعطي كلاً ما يناسبه، ويمنح كل جيل ما يلائمه من تفصيلات. أما أسسه الرئيسية وقواعده الكلية فهي متاحة للجميع.

ولهذا لا نوافق من يقصر فهم آياته الكونية على نطاق الثقافة العربية المحدودة في زمن الرسول ﷺ كما لا نوافق من يحملونها ما لا تحتمله من معان، محاولين إقحامه في المخترعات والمكتشفات العلمية الحديثة ولو كانت فروضاً ونظريات.

وكل ما يرشدنا إليه هذا الكتاب الكريم في آياته الكونية هو أن يحفزنا إلى التدبر في ملكوت السموات والأرض وما خلق الله من شيء، وأن يضع تحت

أنظارنا وأمام أفكارنا بعض الحقائق العلمية حيناً بعد حين. «ونحن مدينون للعلم الحديث فيما اكتشف من حقائق، وقد جعل من نصوص القرآن حقائق ملموسة، وفتح أعيننا على حقائق وأسرار كنا نجهلها، مع أن القرآن موجود بين أيدينا منذ أربعة عشر قرناً يمحنا على العلم والنظر في أسرار الكون ومسر الوجود»⁽¹⁾.

ولكن الحماس دفع ببعض الباحثين إلى أن يتلمسوا لكل ما يتوصل إليه العلم في فروضه ونظرياته آية أو آيات من كتاب الله زاعمين أن القرآن قد سبق إلى الإخبار عن هذا المكتشف أو ذاك الإختراع قبل أن يصل إليه البشر، مما جعل عملهم يخرج عن نطاق الموضوعية والمنهجية إلى التعسف والتكلف والتأويل لغير ضرورة لآيات القرآن تأويلاً يخرجها عن نطاق الموضوع الذي وردت في سياقه من جهة، ولا تدل عليه ألفاظها حسب وضعها اللغوي الذي وضعت للدلالة عليه من جهة أخرى. ولكثرة من كتب في ذلك من المتخصصين في الثقافة القرآنية وغير المتخصصين فيها، فقد عرضت تلك المحاولات نفسها للسخرية والإستهزاء من قبل العلم والعلماء⁽²⁾.

وإنني إذ أذكر هذه الأمثلة والنماذج لهذا التفسير لبعض الآيات الكريمة فيأغما أفعل ذلك لأن بعضها قد ورد في كتب اشتهرت وتداولها الناس لبعض المؤلفين المعروفين، وبعضها قد أصبح يردد بين الناس مع الغفلة عما يحتويه من مغالطات وتعسف وتأويل لا يليق بهذا الكتاب الخالد. وهذه أمثلة منها:

1 - تفسير قوله تعالى: ﴿يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ إِنِ اسْتَطَعْتُمْ أَنْ تَنْفُذُوا مِنْ أَقْطَارِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ فَانْفُذُوا لَا تَنْفُذُونَ إِلَّا بِسُلْطَانٍ﴾⁽³⁾ بما توصل إليه العلم حديثاً من غزو الفضاء ومحاولة الوصول إلى الكواكب المختلفة، لأن السلطان يعني العلم الاختراعي، والنفاذ مقصود به الوصول إلى هذه الكواكب. وبذلك يكون القرآن قد سبق العلم الحديث بدعوته إلى غزو الفضاء⁽⁴⁾.

(1) التعارض بين الدين والعلم، عبد اللطيف بري، سلسلة البحوث الإسلامية، ص 23.

(2) المرجع السابق، ص 24.

(3) سورة الرحمن، الآية 31.

(4) انظر أضواء من القرآن على الإنسان، عبد الغني الخطيب، ص 250 وما بعدها.

وهذا التفسير لهذه الآية على هذا النحو غير سديد للأُمور التالية :

1 - بالرجوع إلى كتب اللغة في معنى (النفاذ) الذي هو موضوع التحدي نجد أنه عبارة عن جواز الشيء عن الشيء وخلوصه منه كالنفوذ. يقال: نفذ السهم من الرمية⁽¹⁾ إذا خالط السهم جوف الرمية وخرج طرفه من الشق الآخر وسأثره فيه⁽²⁾.

فهل تحقق النفاذ بهذا المعنى لرجال الفضاء فاخترقوا أقطار السموات كلها وتجاوزوها إلى عالم آخر فوقها غير عالمها؟ هذا ما لا يمكن لهم أن يدّعوه، وذلك لأن قطر الشيء طرفه وجانبه قال تعالى: ﴿ولو دخلت عليهم من أقطارها ثم سئلوا الفتنة لآتوها﴾⁽³⁾. وفي لسان العرب لابن منظور: «القطر - بالضم - : الناحية والجانب، والجمع أقطار. وفي التنزيل ﴿من أقطار السموات والأرض﴾ أقطارها: نواحيها»⁽⁴⁾.

إن كل هدف التسابق لغزو الفضاء هو الوصول إلى القمر أو غيرها من الكواكب. والقمر تابع من توابيع الأرض، كما أثبت العلم الحديث نفسه ذلك، بل هي لا تبعد عن الأرض إلا بنحو 384 ألف كيلومتراً⁽⁵⁾.

وقد كتب الدكتور محمد جمال الدين الفندي - وهو من المتخصصين في علم الفلك والإرصاد الجوية يقول :

«يظن كثير من الناس خطأ - وقد كنت منهم -⁽⁶⁾ أن قول الله تعالى في سورة الرحمن: ﴿يا معشر الجن والإنس إن استطعتم أن تنفذوا من أقطار السموات

= القرآن والعلم، بعد الرزاق نوفل، ص 218.

(1) ضبطها صاحب الصحاح أنها بكسر الميم وتشديد الياء، 571:2.

(2) القاموس المحيط، 373:1 مادة (نفذ).

(3) سورة الأحزاب، الآية 14.

(4) لسان العرب، 106:5.

(5) السموات السبع، محمد جمال الدين الفندي، الهيئة المصرية العامة للكتاب، 1973 م، ص 39.

(6) لأنه في كتابه (القرآن والعلم) قال بهذا الرأي. أنظر كتابه المذكور، ط 1، ص 48.

والأرض فانفلدوا لا تنفذون إلا بسلطان ﴿ من دلائل انطلاق الإنسان عبر الفضاء .
ولكن الحقيقة عندما نفهم معنى (أقطار) تماماً نجد أن المعنى إشارة واضحة
للتعجيز، كما هو واضح من قوله تعالى : ﴿يرسل عليكم شواظ من نار ونحاس
فلا تتصرون﴾⁽¹⁾ . أما النفاذ من أقطار الأرض فما من شك أن معناه اختراق الكرة
الأرضية عبر باطنها المستعر والخروج من الجهة المقابلة . وما من شك أن مجرد
اختراق القشرة اليابسة للأرض معناها انطلاق مواد الباطن على هيئة بركان مدمر .
أما اختراق أقطار السموات فبالمثل معناه عبور الشمس والنجوم وسائر
ألوان الغبار الكوني وأحزمة الأشعة الكونية ومجاريها، وهي أشد إحراقاً وفتكاً من
براكين الأرض .

أما الوصول إلى القمر أو المريخ أو الزهرة فليس معناه النفاذ من أقطار
السموات بحال من الأحوال، وقد فهمنا امتداد الكون واتساع السموات، وأن
أقطارها تربو على عدة آلاف ملايين السنين الضوئية - اهـ⁽²⁾ .

2- بالرجوع إلى معنى كلمة (سلطان) الشروط وجوده حتى يمكن النفاذ
نجد أنه يطلق على الحجة والبرهان كما في قوله تعالى : ﴿فأتونا بسلطان مبين﴾⁽³⁾،
وقوله تعالى : ﴿أو ليأتيني بسلطان مبين﴾⁽⁴⁾ . كما يطلق على القدرة، وفي اللسان :
قال الليث : «السلطان : قدرة الملك وقدرة من جعل ذلك له وإن لم يكن ملكاً
كقولك : قد جعلت له سلطاناً على أخذ حقي من فلان»⁽⁵⁾ وقال تعالى على لسان
إبليس يخاطب أتباعه الذين اغتروا بفتنته : ﴿وما كان لي عليكم من سلطان إلا أن
دعوتكم فاستجبتم لي فلا تلوموني ولوموا أنفسكم﴾⁽⁶⁾، والمعنى ما كان لي عليكم

(1) سورة الرحمن، الآيتان 33، 34 . والشواظ - بضم الشين وكسرها - اللهب الذي لا يخالطه دخان لأنه
قد كمل اشتعاله، وذلك أشد إحراقاً . والنحاس : يطلق على الدخان الذي لا لهب معه، ويطلق
على القطر . والمعنى يصب عليهم القطر المذاب . فلا تتصرون : فلا تجدان مخلصاً من ذلك ولا
ناصرأ .

(2) السموات السبع، محمد جمال الدين الفندي، ص 125، 126 .

(3) سورة إبراهيم، الآية 10 .

(4) سورة النمل، الآية 21 .

(5) لسان العرب، 7: 321 .

(6) سورة إبراهيم، الآية 22 .

فيما دعوتكم إليه من ولاية وقدره، وإنما هي مجرد دعوة استجبت لها. وقد أقامت الرسل عليكم الحجج والأدلة الصحيحة على صدق ما جاءوكم به فخالفتموهم فصرتم إلى ما أنتم فيه، فلا تلووني اليوم ولوموا أنفسكم فإن الذنب ذنبكم لكونكم خالفتم الحجج واتبعتموني لمجرد دعوتكم إلى الباطل⁽¹⁾.

فالذي يدل عليه السياق هنا هو أن السلطان معناه القدرة، وهي بلا شك منفية لأن المقام مقام تحد، ولا يقال على وجه التحدي: أنت لا تستطيع أن تفعل ذلك إلا بعلمك، لأنه عام في كل شيء.

3- ضم الجن إلى الإنس في الآية الكريمة وتقديمهم في الذكر يدل على أن المقصود هو التحدي والتعجيز، لأن الجن قد منعوا من الإقتراب من السموات بمقتضى قوله تعالى فيما يقصه عنهم: ﴿وإنا لمسنا السماء فوجدناها ملئت حرساً شديداً وشهباً وإنا كنا نقعد منها مقاعد للسمع فمن يستمع الآن يجد له شهاباً رصداً﴾⁽²⁾ وسورة الجن التي ورد فيها هذا النص سابقة في النزول على سورة الرحمن الوارد فيها النص موضوع الحديث⁽³⁾. والحكمة في تقديم الجن على الإنس ها هنا، وتقديم الإنس على الجن في قوله تعالى: ﴿قل لئن اجتمعت الإنس والجن على أن يأتوا بمثل هذا القرآن لا يأتون بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيراً﴾⁽⁴⁾ أن النفوذ من أقطار السموات والأرض بالجن أليق لو كان ممكنًا والإتيان بمثل القرآن بالإنس أليق لو كان ممكنًا، فقدم في كل موضع ما يناسبه⁽⁵⁾.

٤ - نفي الانتصار في قوله تعالى: ﴿فلا تتصران﴾ متمم لمعنى التعجيز، فالرحلة إلى الفضاء إن كان محكوماً عليها بالفشل وعدم الانتصار بصريح النص ﴿فلا تتصران﴾ فما الفائدة منها؟

5 - ذكر السموات والأرض لتحقيق إحاطة الجهات كلها تحقيقاً للتعجيز،

(1) تفسير أبي السعود، 3: 124.

(2) سورة الجن، الآية 8.

(3) انظر البرهان في علوم القرآن، 1: 194.

(4) سورة الإسراء، الآية 88.

(5) انظر حاشية الجمل على تفسير الجلالين، 4: 260.

وذلك أن تعدد الأمكنة يسهل الهروب من إحدى جهاتها.

والأرض المذكورة هنا إما أن تكون الأرض التي في الدنيا وذلك حين البعث، وإما أن تكون أرض المحشر وهي التي سماها القرآن (الساهرة) في قوله تعالى: ﴿فإنما هي زجرة واحدة فإذا هم بالساهرة﴾⁽¹⁾ وقال تعالى: ﴿يوم تبدل الأرض غير الأرض والسماوات وبرزوا لله الواحد القهار﴾⁽²⁾، وإما أن يكون ذلك جارياً مجرى المثل المستعمل للمبالغة في إحاطة الجهات⁽³⁾.

6 - كل ما ذكرناه من الملاحظات إذا حاولنا فهم الآية بحسب ما تدل عليه ألفاظها فقط من غير مراعاة للمناسبة بينها وبين سابقها ولحقها - وهو أمر لا بد منه في الفهم الصحيح - أمام مراعاة السابق واللاحق فإنه لا علاقة له أيضاً بهذا المدعي، فقبل هذه الآية ورد قوله تعالى: ﴿كل من عليها فان ويبقى وجه ربك ذو الجلال والإكرام. فبأي آلاء ربكما تكذبان. يسأله من في السموات والأرض كل يوم هو في شأن. فبأي آلاء ربكما تكذبان. سترغ لكم أيه الثقلان. فبأي آلاء ربكما تكذبان﴾⁽⁴⁾.

وهذه الآيات من السورة تتحدث عن الأمور التالية:

(أ) انفراد الله عز وجل بالبقاء والخلود، وأن الفناء مصير كل من على الأرض من إنس وجن وحيوان.

(ب) أن الله تعالى باعتباره الخالق الرازق المحيي المميت والمعطي المانع والمعز الملل، يسأله جميع خلقه في السموات والأرض قضاء حاجاتهم وإجابة مطالبهم، فهو تعالى قائم على شؤون خلقه.

(ج) بعد تقرير السورة لما سبق، تقرر حقيقة ثالثة، وهي أنه - عز وجل - سيفرغ يوم القيامة لحساب خلقه على ما قدموا من خير أو شر.

(1) سورة النازعات، الآيتان 13، 14.

(2) سورة إبراهيم، الآية 50.

(3) انظر تفسير التحرير والتنوير، 259:27.

(4) سورة الرحمن، الآيات 24-30.

(د) وبعد تقرير هذه الحقائق الكونية الكبرى يربط القرآن بها حقيقة أخرى تقتضيها تلك الحقائق السابقة وتستلزمها ولا يجوز أن تنفك عنها. هذه الحقيقة هي أن الله تعالى انفرد بالبقاء وكل خلقه إلى الفناء، وانفرد بتصريف الأمور، وكلهم يسأله ويرجوه، والذي سيفرغ يوم القيامة لمحاسبتهم ومجازاتهم هو أيضاً المهيمن عليهم، المحيط بهم حيث لا يستطيعون إفلتاً من سلطانه ولا هروباً من قضائه ولا نفاذاً من أقطار السموات والأرض.

وقد أشار الألوسي إلى هذه المناسبة بين الآية وبين ما سبقها حيث قال: «وكانه لما ذكر سبحانه أنه مجاز للعباد لا محالة عقّب - عز وجل - ذلك ببيان أنهم لا يقدرّون على الخلاص من جزائه وعقابه إذا أَرَادَهُ فقال سبحانه: ﴿يا معشر الجن والإنس... الخ﴾⁽¹⁾، فقول الله: يا معشر الجن والإنس مقول لقول محذوف يدل عليه سياق كلام السابق واللاحق، والتقدير: فنقول لكم: يا معشر الجن والإنس... الخ كما في قوله تعالى: ﴿ويوم نحشرهم جميعاً يا معشر الجن قد استكثرتم من الإنس...﴾ الآية⁽²⁾ أي فنقول: يا معشر الجن... الخ⁽³⁾. فالفهم الذي يتمشى مع سابق الآية ولاحقها هو أنه تعالى يتحدث بهذه الآية الجن والإنس أن ينفذوا من جوانب السموات والأرض أن استطاعوا ويهربوا من حكم الله وجزائه وذلك غير مقدور لهم، كما قال أبو العلاء المعري:

وهل يَأْبِقُ الإنسان من ملك ربه فيخرج من أرض له وسماء
والآية على هذا المعنى على حد قوله تعالى: ﴿وما أنتم بمعجزين في الأرض ولا في السماء وما لكم من دون الله من ولي ولا نصير﴾⁽⁴⁾ المعطوف على جملة قوله: ﴿وإليه تقلبون﴾ باعتبار ما تضمنه من الوعيد، وفيه إشارة إلى إبطال اغترارهم بتأثير الوعيد الذي توعدوه في الدنيا⁽⁵⁾.

(1) تفسير روح المعاني، 8: 298.

(2) سورة الأنعام، الآية 129.

(3) تفسير التحرير والتنوير، 27: 258.

(4) سورة العنكبوت، الآية 22.

(5) تفسير التحرير والتنوير، 20: 232 وما بعدها.

وكما في قوله تعالى عن الجن: ﴿وإنا ظننا أن نعجز الله في الأرض ولن نعجزه هرباً﴾⁽¹⁾.

وخلاصة القول:

إن التعبير بقوله ﴿إن استنظعم﴾ يفيد التحدي والتعجيز، ولفظ ﴿من أقطار﴾ يفيد مجاوزة جوانب السموات والأرض إلى ما بعدها، وهو أمر غير ممكن لهم. وهذا هو سر التعبير بحرف الجر (من) التي من معانيها المجاوزة⁽²⁾ دون حرف الجر (في) فلم يقل في أقطار السموات، وإنما قال (من أقطار)، وجمله «لا تنفذون إلا بسلطان» بيان للتعجيز الذي في الجملة قبله، فإن السلطان - كما قدمنا - من معانيه القدرة أي لا تقدرون إلا بقدرة عظيمة تفوق قدرة الله الذي حشركم لهذا الموقف، وأن لكم هاته القدرة⁽³⁾.

2- ومنه تفسير الدابة التي تحدث عنها القرآن في قوله تعالى: ﴿وإذا وقع القول عليهم أخرجنا لهم دابة من الأرض تكلمهم﴾⁽⁴⁾ بالآقمار الصناعية وغزو الفضاء «فهذه الآقمار التي خرجت من الأرض - في الوقت الذي انتشر فيه الإلحاد - لتحدث عما في الكون الغامض وتزيح بعضاً من هذا الغموض، والتي ستضفي بعضاً من المعرفة على حقيقة الفضاء الكوني الهائل، والتي يعتبر حديثها أخطر حديث ينصت إليه البشر على اختلاف أجناسهم وميولهم وأديانهم ألا يمكن أن تكون هذه هي الدابة التي تنبأ بها القرآن الكريم في سورة النمل في الآية 82»⁽⁵⁾.

وكان من الممكن - أيضاً - أن نشير إلى أن في هذه الآية من المعجزات التي لم تتحقق بعد وأن الزمان في انتظارها يقيناً، وكان من المستطاع الربط بينها وبين الآقمار والصواريخ التي خرجت من الأرض وهي تدب إلى السماء، وأنها تكلم

(1) سورة الجن، الآية 12.

(2) فتدخل على الاسم للدلالة على البعد الحسي أو المعنوي بينه وبين ما قبله. وقد يراد بالمجاوزة الإبتعاد عن الشيء بسبب العجز عن الوصول إليه. (انظر النحو الوافي، عباس حسن) ط 5، 2: 463-465.

(3) تفسير التحرير والتنوير، 259:27.

(4) سورة النمل، الآية 82.

(5) القرآن والعلم الحديث، عبد الرزاق نوفل ص 212-216.

الناس الآن بلغة العلم وهي اللغة العالمية. ويتوقع العلماء أنه عن طريق هذه الأقمار والصواريخ سيعرف العالم ما في الكون من معجزات⁽¹⁾.

هذا التفسير للدابة تفسير تنقصه الدقة في المطابقة اللغوية في ألفاظ الآية من جهة، والدقة في المناسبة بين الآية وبين ما تقدمها من الآيات التي عطف عليها عطف قصة على قصة من جهة أخرى.

فالقول أريد به أخبار الوعيد التي كذبوها متهمين باستبطاء وقوعها بقولهم في الآيات السابقة: ﴿مَتَى هَذَا الْوَعْدُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ﴾⁽²⁾، فالتعريف في القول للعهد لدلالة المقام عليه، والوقوع في قوله (وقع) مستعار لحلول وقته، والتعبير عن وقوعه بصيغة الماضي لتقريب زمن المستقبل من المضي ولتحقق الوقوع.

أما الدابة فهي - في اللغة العربية - اسم للحي من غير الإنسان مشتقة من الدبيب وهو المشي على الأرض وهو من خصائص الأحياء⁽³⁾. والقرآن أثبت للدابة كلاماً وأسند إليها التكلم، وسفن الفضاء والأقمار الصناعية لا تتكلم، والكلام المسموع منها هو كلام الإنسان الذي تحمله، فشأنها شأن غيرها من الآلات التي اخترعها الإنسان نقل الكلام لا التكلم، وفي معنى هذا ما ترسله من إشارات فإنها بوضع الإنسان وتركيبه، وليس لها ذلك الإدراك الذي يعطينا صحة إطلاق الوصف عليها بأنها متكلمة عن إرادة واختيار⁽⁴⁾.

كما أن في الآية ربطاً تاماً بين أداة الشرط (إذا) وبين جوابها وهو (أخرجنا) مما يدل على أن خروج هذه الدابة مرتبط تمام الارتباط بحلول وقت الوعيد الذي وعد به المكذبون. كما أن هذا التفسير بعيد كما ورد عن النبي ﷺ والمقرر لدى العلماء كلهم أنه إذا ورد عنه ﷺ شيء في التفسير وصح ذلك عنه فلا يعدل عنه إلى غيره لأنه أعلم خلق الله بمعاني القرآن المنزل عليه. وقد روى مسلم بسنده عن عبد

(1) بين الدين والعلم، عبد الرزاق نوفل ص 140.

(2) سورة النمل، الآية 73.

(3) انظر تفسير التحرير والتنوير، 38:20.

(4) انظر كتاب ردود على أباطيل، محمد الحامد ص 285.

الله بن عمرو بن العاص قال: حفظت من رسول الله ﷺ يقول: «ان أول الآيات - علامات القيامة - خروجاً طلوع الشمس من مغربها، وخروج الدابة على الناس ضحى. وأبنتها كانت قبل صاحبته فالأخرى على أثرها قريباً»⁽¹⁾.

وعليه فدابة الأرض تعبير قرآني عن حيوان نكل علم نوعه وشكله وهيبته إلى الله - عز وجل - . «يظهر للناس قبيل الساعة يكلمهم وحينئذ لا ينفع نفساً إيمانها لم تكن آمنت من قبل»⁽²⁾.

وحسبنا أن نقف عند النص القرآني والحديث الصحيح الذي يفيد أن خروج الدابة من علامات الساعة، وأنه إذا انتهى الأجل الذي تنفع فيه التوبة وحق القول على الباقي فلم تقبل منهم توبة بعد ذلك، وإنما يقضى عليهم بما هم عليه حينئذ يخرج الله لهم دابة تكلمهم⁽³⁾.

3 - ومنه تفسير الغشاء الأحوى في قوله تعالى: ﴿والذي أخرج المرعى فجعله غثاء أحوى﴾⁽⁴⁾ بالفحم الحجري، لأن الغشاء - في رأيهم - هو اليابس الصلب، والأحوى هو اللون الأخضر المائل إلى السواد⁽⁵⁾. وكانت الأرض تغطت ببساط أخضر من النبات وأشجار متكاثفة، وكانت العواصف الرهيبية تهب على العالم في هذه الأثناء فعصفت بالأشجار واقتلعت النباتات وسقطت على الأرض دون إن يستغلها كائن، ولبثت هذه الكتل الضخمة من الأشجار والنبات مطمورة في باطن الأرض سنين عديدة حتى اكتشفها الإنسان واستعملها وقوداً سبأ فحماً، فتكون الآية قد فصلت حقبة من التاريخ الجيولوجي قبل خلق الإنسان، وقد أوضح العلم دقة ما جاء في القرآن⁽⁶⁾.

(1) الجامع الصحيح، ط مصطفى الحلبي، 1380هـ، 8: 202.

(2) كبرى اليقينيات الكونية، ص 317.

(3) في ظلال القرآن، مجلد 5 جزء 20: 2667.

(4) سورة الأعلى، الأيتان 4، 5.

(5) الأحوى: الموصوف بالحوة - بضم الحاء وتشديد الواو - وهي من الألوان سمرة تقرب من السواد وهو صفة غثاء لأن الغشاء يابس فتصير خضرته حوة، وهذا الوصف لاستحضار تغير لونه بعد أن كان أخضر نابعاً، وذلك دليل على تصرفه تعالى بالإنشاء والإلغاء. (التحرير والتنوير، 29: 278).

(6) انظر كتاب القرآن والعلم الحديث، عبد الرزاق نوفل ص 84-86. والقرآن والعلم، أحمد محمود سليمان، ص 61 وما بعدها.

وهو تفسير غير مسلم فهمه من النص القرآني:

أولاً: لأن الفحم الحجري لا يمكن أن يقال عنه أنه (غناء أحوى) لأن الغناء في لغة العرب التي نزل بها القرآن هو ما يلقيه السيل من المرعى فيصبح متغير اللون بحيث يكون فيه سواد يضرب إلى خضرة ويبقى على شكله . أمل تحوله إلى (فحم) فتلك مسألة بعيدة عن الآية وعن أهدافها .

أما تفسير (الغناء) بأنه اليابس الصلب فهو تفسير لا تساعد عليه اللغة العربية، ففي اللسان لابن منظور: «الغناء: ما يحمل السيل من القمش - ما كان على وجه الأرض من فتات الأشياء⁽¹⁾ - وكذلك الغناء - بالتشديد، وهو أيضاً: الزبد والقدر والهالك البالي من ورق الشجر الذي إذا خرج السيل رأبته مغالطاً زبده» قال الزجاج في قوله تعالى: «والذي أخرج المرعى فجعله غناءً أحوى» جففه حتى صيره شيئاً جافاً كالغناء الذي تراه فوق السيل - اهـ -⁽²⁾ . وفي مفردات الراغب الأصفهاني: الغناء غناء السيل والقدر وهو ما يطفح ويتفرق من النبات اليابس، وزبد القدر، ويضرب به المثل فيما يضيع ويذهب غير معتد به - اهـ -⁽³⁾ .

وجيء في معجم ألفاظ القرآن الكريم لمجمع اللغة العربية في هذه المادة ما يلي: يدور معنى المادة على ارتفاع شيء دنى فوق شيء، فغناء السيل والوادي والقدر: ما يطفح ويتفرق من الزبد ونحوه، غشا الوادي وأغشا، وغشت نفسه: جاشت بشيء مؤذ - اهـ -⁽⁴⁾ .

فأين الصلابة في البالي الهالك من ورق الشجر؟ وكيف يكون كذلك وهو يحمل السيل فوقه؟ .

ثانياً: من المستبعد - حسبما يدل سياق الآيات - أن يمتن الله على الناس وعلى العرب المشافهين للدعوة في القرن السابع الميلادي بتطور جيولوجي لم يكونوا قد

(1) لسان العرب، ط بيروت، 1956، 338:6 .

(2) المصدر نفسه، 116:15 .

(3) المفردات في غريب القرآن ص 363 .

(4) 94:2، الهيئة المصرية العامة للكتاب، 1973 م .

عرفوه بعد، ولا يستطيعون فهمه من ألفاظ الآية لا من قريب ولا من بعيد.

بل المعنى القريب الذي يوحي به السياق أن الله يدلل على قدرته على البعث بما يرونه ويشاهدونه صباح مساء من رؤية المرعى في حالة ثم صيرورته إلى حالة أخرى. كما أن الإشارة هنا إلى حياة النبات توحى من طرف خفي إلى أن كل نبات إلى حصاد وأن كل حي إلى نهاية، وهي اللزمة التي تتفق مع الحديث عن الحياة الدنيا والحياة الآخرة في قوله: ﴿بَلْ تَوَثُّوْنَ حَيَاةَ الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ خَيْرٌ وَأَبْقَى﴾⁽¹⁾ «والحياة الدنيا كهذا المرعى الذي ينتهي فيكون غناء أحوى، والآخرة هي التي تبقى»⁽²⁾.

فالآية على حد قوله تعالى: ﴿وَاضْرِبْ لَهُم مَّثَلًا حَيَاةَ الدُّنْيَا كَمَا أَنْزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الْأَرْضِ فَأَصْبَحَ هَشِيمًا تَذْرُوهُ الرِّيَّاحُ وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ مُّقْتَدِرًا﴾⁽³⁾. قال عبد الرحمن بن زيد: «هذا مثل ضربه الله للكفار للذهاب الدنيا بعد نضارتها»⁽⁴⁾. كما أن فيه إيماء بعد الإيجاد ليتذكروا الموت، فهو تمثيل للبعث بطريق الكناية⁽⁵⁾.

4 - ومنه تفسير قوله تعالى: ﴿وَالْمُرْسَلَاتُ عِرفًا فَالْعَاصِفَاتُ عَصْفًا وَالنَّاشِرَاتُ نَشْرًا فَالْفَارِقَاتُ فِرْقًا. فَالْمُلْقِيَاتُ ذِكْرًا. عِذْرًا أَوْ نَذْرًا إِذَا تَوَعَّدُونَ لَوَاقِعٍ﴾⁽⁶⁾ بالطائرات الحربية التي تعصف بقنابلها وتنشر المنشورات في ميادين الحرب، وعلى الأهالي والسكان في المدن للدعاية والأخبار بما تريده الدولة المحاربة، وتفرق بين الكتائب والجموع فرقًا، لأن الرعب بها والهزيمة أشد من

(1) سورة الأعلى، الآيةان 16، 17.

(2) في ظلال القرآن جزء 30 مجلد 6 ص 388.

(3) سورة الكهف، الآية 44.

(4) انظر حاشية الجمل على تفسير الجلالين 4: 521، وتفسير القرطبي 18: 20.

(5) تفسير التحرير والتنوير، المقدمات وتفسير سورة الفاتحة وجزء عم ص 239.

(6) سورة المرسلات، الآيات 1-7. (عرفًا) أما ضد النكر أي ارسلن بالإحسان والمعروف، وأما بمعنى متتابعة مأخوذة من عرف الفرس (عصفا) فالمرعات إسراع الرياح العاصفات، فالعصف شدة الهبوب.

غيرها بحيث لا يثبت تحتها جمع بل بمجرد رؤيتها من بعيد يقع الفرار والتفرق والإختفاء في الكهوف والملاجئ. فالملقيات ذكرا في المنشورات، عذراً تعتذر به الدولة عن ضربها بعض الأماكن البريئة، والتي ليست من مراكز الحرب أو نذراً تنذر به السكان وتخوف وتوعد وتهدد وتطلب التسليم، ونحو ذلك من أنواع الإنذار كما هو معروف.

والإنحراف في هذا التفسير واضح حتى أن المطالع له يستغرب كيف يقوله عالم تفسير الكتاب الله، لقد أقسم الله في مطلع هذه السورة على أن الوعد بالآخرة واقع بخمس طوائف من خلقه اختلف السلف في حقيقة مدلولها، فقال بعضهم: هي الرياح إطلاقاً. وقال بعضهم: هي الملائكة إطلاقاً. وقال بعضهم: إن بعضها يعني الرياح، وبعضها يعني الملائكة⁽²⁾. مما يدل على غموض هذه الألفاظ ومدلولاتها، وهذا الغموض هو أنسب شيء للقسم بها على الأمر الغيبي المكنون في علم الله وأنه واقع. كما أن هذه المدلولات المعينة واقعة ومؤثرة في حياة البشر⁽³⁾.

وإذا لاحظنا ما قاله بعض العلماء من أن الأقسام الواردة في القرآن الكريم تتضمن تنبيه المخاطبين إلى شرف المقسم به وما لهم من ضروب النفع فيه. أو كما قال الشيخ محمد عبده:

«إذا رجعت إلى جميع ما أقسم الله به وجدته إما شيئاً أنكره بعض الناس أو احتقره، لغفلته عن فائدته أو ذهل عن موضع العبرة فيه وعمي عن حكمة الله في خلقه، أو انعكس عليه الرأي في أمره فاعتقد فيه غير الحق الذي قرر الله شأنه في نفس من يحتقره أو تنبيه الشعور إلى ما فيه عند من لا يذكره، أو لقلب الاعتقاد في قلب من أضله الوهم أو خانه الفهم»⁽⁴⁾.

إذا لاحظنا هذا فإين القسم بالطائرات الحربية التي أنتجها العقل فيما أنتج

(1) مطابقة المخترعات العصرية لما أخبر به سيد البرية لآبي النيص أحمد محمد الصديق الغماري، ط6، 1971م، ص16.

(2) انظر فتح القدير للشوكاني، ط2، 1964م، 355:5. وروح المعاني 258:9 وغيرهما من كتب التفسير.

(3) في ظلال القرآن، جزء 29، مجلد 6، ص3791.

(4) تفسير جزء عم ص9.

من وسائل الخراب والدمار؟ وأين وجه الانتفاع بها للبشرية جمعاء؟ بل هي على العكس من ذلك تهلك الحرب والنسل وتنشر الفساد في الأرض على أيدي قوم لا يراعون لله حرمة ولا للإنسانية إلاً ولاذمة⁽¹⁾.

والتماساً للمناسبة بين المقسم به والمقسم عليه نرى الألوسي - بعد أن ساق الأقوال التي قيلت في تفسيرها - قال: «والذي أخاله - أظنه - أظهر كون المقسم به شيئين: الرسائل العاصفات، والناشرات الفارقات لشدة ظهور العطف بالواو في ذلك، وكون الكل من جنس الريح، لأنه أوفق بالمقام المتضمن لأمر الحشر والنشر، لما أن الآثار المشاهدة المترتبة على الرياح ترتباً قريباً وبعيداً تنادي بأعلى صوت حتى يكاد يشبه صوت النفخ في الصور على إمكان ذلك وصحته ودخوله في محيط مشيئة الله وعظيم قدرته⁽²⁾».

5 - ومنه تفسير قوله تعالى: ﴿إِذَا زُلْزِلَتِ الْأَرْضُ زِلْزَالَهَا وَأُخْرِجَتِ الْأَرْضُ أَنْفِقَالَهَا وَقَالَ الْإِنْسَانُ مَا لَهَا يَوْمَئِذٍ تُخْبِرُهَا﴾⁽³⁾ باستخراج البترول والغاز وهو أعظم ثقل في الأرض عندما زلزلت أي حركت بالآلات وفتح فيها آبار البترول والغاز وقال الإنسان: ما لها متعجباً مما تخرجه من ذلك، فعند ذلك تحضر الساعة⁽⁴⁾.

وهو تفسير سقيم، فإن السورة تصور ما سيحدث عندما يشاء الله بحكمته التي اختص بها لنفسه أن يفني الحياة من فوق هذا الكوكب أي إذا جاءت الساعة التي تهتز فيها الأرض هذا الإهتزاز غير المعهود بحيث يدمر كل ما عليها أنه لن يكون زلزالاً من نوع الزلازل المعهودة التي قد تدمر مدناً عظيمة في لمحة البصر فحسب ولكنه سيكون الزلزال الموعود، العام الشامل الذي سيقوض الكوكب الأرض، ويجعل كل ما عليها خراباً يباباً قاعاً صفصفاً، وهو كما قال تعالى: ﴿إِنْ

(1) الإل: الرحم أو القرابة أو العهد والتحالف، معجم الالفاظ والاعلام القرآنية، عماد إسماعيل إبراهيم، ط2، ص42.

(2) تفسير روح المعاني، 9: 259.

(3) سورة الزلزلة، الآيات 1 - 4.

(4) مطابقة الاختراعات العصرية، ص 27.

زلزلة الساعة شيء عظيم⁽¹⁾. ﴿وأخرجت الأرض أثقالها﴾ جمع ثقل - بالتحريك - وهو - على ما في القاموس - متاع المسافر وكل نفيس مصون، وتجاوز به هنا عن كنوز الأرض ومعادنها ودفائها أو جمع ثقل - بكسر فسكون - بمعنى حمل وهو كنوز الأرض وموتاهها⁽²⁾، وهي على حد قوله تعالى: ﴿وإذا الأرض مدت وألقت ما فيها وتخلت﴾⁽³⁾.

ويوم أن تقع الواقعة فسوف يتساءل كل إنسان يكون على قيد الحياة وتتمد وهو يشهد علامات الساعة عندما تبدأ الأرض في الإهتزاز قائلاً: «ما لها؟» أي ماذا أصابها ودهاها؟ لماذا تتحرك بهذا العنف الذي يخلع القلوب ويهدد بالفناء والدمار (يومئذ) في هذا الوقت وفي هذا الوقت وفي هذا اليوم ﴿وتحدث أخبارها بأن ربك أوحى لها﴾ أي أمرها أمراً تكوينياً لا تستطيع له خلافاً أن تتزلزل وتضطرب وتصير إلى الخراب الشامل والدمار الكامل، إيداناً بقيام الساعة وخراب العالم، وأن أمر الدنيا قد انقضى وأمر الآخرة قد أتى.

وأين هذا من التفسير العلمي، فحركة الأرض بسبب الآلات واستخراج البترول لا يمكن أن يقال فيه زلزلت الأرض زلزالها على ما وصفنا. كما أن الربط بين الشرط والجواب عليه سخيّف ومتكلف، لأنه لا علاقة بين استخراج البترول وقيام الساعة. كما أنه على هذا التفسير تكون الساعة قد قامت، وذهب أهل الجنة إلى الجنة وأهل النار إلى النار!!

6- ومنه تفسير قوله تعالى: ﴿يوم تكون السماء كالمهل وتكون الجبال كالعهن ولا يسأل حميماً يبرئهم يود المجرم لو يفتدي من عذاب يومئذ بئنه وصاحبه وأخيه وفصيلته التي تؤيه ومن في الأرض جميعاً ثم ينجيه. كلا إنها لظى نزاعة للشوى تدعو من أدبر وتولى وجمع فأوعى﴾⁽⁴⁾ على النحو التالي:

(1) سورة الحج، الآية 1.

(2) أنظر ترتيب القاموس، الطاهر الزاوي، ط 3، 1980، 412:1.

(3) سورة الإنشقاق، الآيتان 3، 4.

(4) سورة المعارج، الآيات 8 - 18.

إن المراد باليوم هو اليوم الذي تظهر فيه الطائرات وقاذفات القنابل المنفجرة والقنابل الذرية والصواريخ الضخمة الغازية المدمرة في السماء حتى تصبح من جراء ذلك كاللهب الأحمر أو كالشيء المذاب من الحرارة. واليوم الذي تكون فيه الجبال كالعهن أي كالقطن المتناثر من جراء الديناميت والمفرقعات والدبابات ونافثات اللهب من القنابل الذرية والإيدروجينية التي اخترعت حديثاً، والتي تحول الجبال والأبنية والأشجار والإنسان وسائر الحيوانات والنباتات إلى ذرات هوائية بحيث تجعل كل ما تصيبه هباءً مثيراً، كم حصل ذلك سنة 1945 في بعض المدن اليابانية في هذه الحرب العالمية، وهذا اليوم هو الذي يفر المرء فيه من أمه وأبيه ويود أن يفتدي من عذابه بينه وصاحبه وأخيه ومن في الأرض جميعاً ثم ينجيه من هذا اللظى النزاعة للشوى التي تدعو من أدبر عنها وتولى، لسعة تأثيرها بحيث لا يمكن أن ينجو منها مقبل ولا مدبر.

ثم يستدرك من فسر الآية على هذا النحو قائلاً:

ولكن حصوله في الدنيا حسب ما بينا لا يتنافى أصلاً حصول ما هو أكثر منه وأنكى في الآخرة أيضاً يوم القيامة - اهـ -⁽¹⁾.

في تصوري أن هذا الفهم لهذا النص الكريم على هذا النحو قائم على أمرين:

الأمر الأول: الولوع بالتجديد والغرام بمخالفة القديم وتحكيم العقل في غير موضعه.

الأمر الثاني: عدم التفطن إلى ما في هذا الفهم من قطع للآيات عن سابقها وتمزيق لوحدها، وإغفال لسياقها وبعد عن أهدافها.

فسياق الآيات هنا يدل دلالة واضحة لا خفاء فيها على أن قوله تعالى: يوم تكون السماء كالمهل... الخ إنما هو انتقال من الرد على المكذبين بالعذاب الذي يظنونه بعيداً وغير واقع بالمرّة إلى وصف ذلك اليوم الذي وصفه الحق تعالى أولاً بأن

(1) القرآن على ضوء العقل، عبد الله الفيشاوي، ص 20، 21.

مقداره خمسون ألف سنة، ثم وصف ما سيحدث فيه بأن السماء تكون فيه كالمهل والجبال تكون كالعهن، وما حصل أو سيحصل في الدنيا من أنواع العذاب لا يساوي شيئاً مما سيحصل في ذلك اليوم الذي قال الله فيه: ﴿يوماً يجعل الولدان شيئا﴾⁽¹⁾ هذه هي حال السماء وحال الأرض في ذلك اليوم.

أما حال الخلائق فهي كما قال تعالى: ﴿ولا يسأل حميم حميماً﴾ حميم الرجل: قريبه وصديقه الذي يهتم بأمره، فمن شدة ما ينزل بهم جميعاً من الهول والفرع يتناكرون ويتدافعون يميناً وشمالاً، مشتغلاً كل منهم عن غيره بنفسه وتلمس طريق الخلاص لها، وينحصر همه في ذلك بحيث لا يعود يسأل عن حميمه ما شأنه؟ وكيف حاله؟ وهذا كما قال تعالى في آية أخرى: ﴿يوم يفر المرء من أخيه وأمه وأبيه وصاحبته وبنيه لكل امرئ امرئ منهم يومئذ شأن يغنيه﴾⁽²⁾ والقرآن يفسر بعضه بعضاً.

ولما كان قد يفهم من عدم السؤال أنهم لا يرى بعضهم بعضاً قال تعالى: ﴿ييصرونهم﴾ أي أنهم ييصرون بعضهم بعضاً، وإنما الذي منعهم من السؤال تشاغل كل بأمر نفسه. ثم وصف هول ذلك اليوم وأن الأمر لا يقتصر على ما تقدم بل الأمر أفظع من ذلك حتى يتمنى المجرم - المكذب الجاحد - لو تقبل منه فدية فيقدم فداء عن نفسه أقرب الناس إليه وألصقهم به وأعزهم عليه من ابن وزوج وأخ وأبناء عشيرة كان يأوي إليها ويتكل في نوائبه عليها، بل يتمنى لو تقبل منه فدية فيفتدي بأهل الأرض جميعاً من البشر وغير البشر، ثم ينجيه ذلك الفداء وينقذه مما هو فيه من الكرب والشدة، ولكن هيهات أن يستطيع ذلك، فالجواب لما يتمناه كلاً. وما أشد هذه الكلمة المؤيسة، فلن ينفعه من هؤلاء أحد، ولن يقبل منه عوض، فقد أضاع الفرصة فرصة الإيمان والعمل الصالح ولات ساعة مندم إنها لظي التي كان يماري فيها في الدنيا ها هي ذي أمامه.

وهكذا أتبع الحق سبحانه كلمة الرفض والزجر العقاب المنتظر، فالنار

(1) سورة الزمل، الآية 16.

(2) سورة عبس، الآيات 34 - 37.

تتلهب وهي نزاعة لجلد الرأس وغيره من شدة لظاها، إنها تدعو إليها من تولى وأدبر عن الإيمان في الدنيا ولم يراع حقوق الناس التي يوجبها الإيمان في ماله بل جمعه وكثره كأنه أصبح غاية وليس وسيلة لديه.

وهكذا يتضح من هذا المعنى التصويري الجميل لهذه الآيات الفرق بين هذا المعنى وبين المعنى الذي جاء به الكاتب، وكان القرآن لا بد أن يشتمل على كل شؤون الناس الدنيوية حتى حروب الإبادة والتكثير بالإنسان على يد أخيه الإنسان.

وهناك ردّ موجز وهو أن يقال: من هو المجرم في قوله تعالى: ﴿يُودِ المجرم﴾ هل هو من يصب العذاب على الناس الأمنين؟ أم الناس الأمنون هم المجرمون؟. لقد جعل المفسر الناس الذين يصب عليهم العذاب هم المجرمين، وهذا لا يقوله عاقل.

7 - ومنه تفسير «الميكروبات» التي استطاع العلم الحديث بوسائله المختلفة معرفتها والكشف عنها «بالملائكة» واعتبارها نوعاً منها وما يدخل تحت لفظها وهكذا كل ما في هذا الكون من المادة وقواها باعتبار أن لفظ الملائكة مأخوذ من مألکه - بضم اللام وفتحها - وهي الرسالة أو من لفظ لأك إذا أرسل، وعليه فكلمة ملك تطلق على كل رسول فما يرسله الله تعالى إلى هذا العالم من المادة أو قواها يصح لغة أن يسمى ملكاً بلا نزاع، فالريح ملك أو رسول من عند الله، والرعء كذلك ملك لأنه يرسله الله لتخويف عباده، وهكذا ما في هذا الكون من قوى المادة العظيمة كالمغناطيس والكهرباء.

فالميكروبات هي من رسل الله في هذا العالم فيجوز أن تسمى ملائكة، ومنها ما يحدث الأمراض المختلفة، ولا تتحلل جثث الموتى إلا بالميكروبات، فإذا انحلت الجثث خرجت منها غازات وعناصر وأجسام متنوعة.

وإذا ذهبنا إلى أن الروح هي جزء من مادة الأثير متحد بالجسم لا نستبعد خروج الروح عند انحلال الجسم بسبب عمل الميكروبات فيه، وعلى ذلك يحمل قوله تعالى:

﴿ولو ترى إذ الظالمون في غمرات الموت . والملائكة باسطوا أيديهم
أخرجوا أنفسهم﴾⁽¹⁾ . فغمرات الموت من (غمر) ومعناها وجود الجسم في أشد
درجات الموت التي تغمره وهو وقت انحلال الجثة، وبسط اليد كناية عما تفعله
الميكروبات بلسان حالها، كما قالت السموات والأرض: ﴿أتينا طائعين﴾⁽²⁾ .

والتعبير عن «الميكروبات» بضمير العاقل هو سنة القرآن من أوله إلى آخره،
فإنه يعبر غالباً عن كل ما يعمل عملاً من أعمال العقلاء بضميرهم .

ولا يتوهم أحد أننا ننكر وجود بعض أنواع أخرى من جنود الله التي لا
يعلمها إلا هو كلاً ثم كلاً، فإن الإيمان بالملائكة بالمعنى المشهور فرض على المسلم .
وتما يجب علينا الإيمان به أن للوحي ملكاً (جبريل) وهو ليس من قبيل ما ذكرناه .
ولما مرادنا أن الميكروبات مما يدخل تحت لفظ الملائكة وليس هم كل الملائكة .

وآية فاطر (3) التي ورد فيها ذكر الأجنحة للملائكة يمكن أيضاً تطبيقها على
الميكروبات، فقد سبق أن لبعض الميكروبات أهداباً - مثني - كما في ميكروبات
الكوليرا . ولا شك أن الجناح يطلق على الجنب واليد والعضل والإبط، ومنه قوله
تعالى: ﴿واضمم يدك إلى جناحك﴾⁽⁴⁾ فلا مانع من إطلاقها على هذه الأهداب
التي هي بمثابة الأيدي للميكروبات - اهـ -⁽⁵⁾ .

هكذا يقول أحد العلماء، ولكن ما قاله ضعيف لغة وشرعاً ولا يعتد به، إلا
أنه مذهب له واصطلاح خالف فيه الناس كما قال .

أما ضعفه لغة فلأن الألفاظ التي صارت حقيقة شرعية أو عرفية لا يجوز أن
يدخل في مفهومها كل ما يناسب المعنى الأصلي الذي اشتقت منه، ومن هنا يبطل

(1) سورة الأنعام، الآية 94 .

(2) سورة فصلت، الآية 11 .

(3) يقصد قوله تعالى: ﴿جاعل الملائكة رسلاً أولي أجنحة مثني وثلاث ورباع يزيد في الخلق ما يشاء﴾ .

(4) سورة طه، الآية 21 .

(5) د . محمد توفيق صدقي، دروس سنن الكائنات، ط الثالثة، 1354 هـ، ص 228 - 231 .

قوله: إن كل ما يرسله الله تعالى إلى هذا العالم من المادة أو قواها يصح أن يسمى ملكاً لغة بلا نزاع.

وأما ضعفه شرعاً فهو أظهر. والملائكة من عالم الغيب الذي يجب على كل مؤمن أن يصدق به كما ورد في خبر الوحي من غير تأويل ولا تحريف. ويكفي في ذلك كونه أمراً ممكناً عقلاً⁽¹⁾. وقد ينكر الله على الكفار وصفهم الملائكة بالأنوثة وتوعدهم على ذلك أشد الوعيد حيث قال تعالى: ﴿وجعلوا - الضمير للمشركين - الملائكة الذين هم عند الرحمن إنثاءً أو شهدوا خلقهم سكتب شهداتهم ويسألون﴾⁽²⁾ لأن الذي يصفهم بذلك يعتبر كاذباً مفترياً، فإن أمرهم غيبي لا يعلمه إلا الله، ولا يجوز لنا أن نصفهم إلا بما وصفهم الله به لا نزيد ولا ننقص، فهل يا ترى يدخل في مفهوم لفظ (ملك) هذه الميكروبات التي يصفها الكاتب بالدينثة الحفيرة؟

وقد قال تعالى في ملك الموت: ﴿قل يتوفاكم ملك الموت الذي وكل بكم﴾⁽³⁾، وقال في أعوانه من الملائكة: ﴿حتى إذا جاء أحدكم الموت توفته رسلنا وهم لا يفرطون﴾⁽⁴⁾، أفصح بعد هذا أن نقول: إن ملك الموت عبارة عن الميكروبات التي تحلل الجسم؟!!

أم غمرات الموت فهي ليس كما قال الكاتب، وإنما هي شدائده وسكراته وما يتقدمه ويصعبه من شديد الآلام البدنية أو النفسية أو مجموعها التي تحيط به كما تحيط غمرات الماء بالغرقى، والملائكة باسطو أيديهم لقبض أرواحهم الخبيثة بالعنف والشدّة كما قال تعالى: ﴿فكيف إذا توفتهم الملائكة يضربون وجوههم وأدبارهم﴾⁽⁵⁾ وقوله تعالى: ﴿ولو ترى إذ يتوفى الذين كفروا الملائكة يضربون

(1) هذا الرد للشيخ محمد رشيد رضا، دروس سنن الكائنات، هامش ص 231.

(2) سورة الزخرف، الآية 18.

(3) سورة السجدة، الآية 11.

(4) سورة الأنعام، الآية 62.

(5) سورة محمد، الآية 28.

وجوههم وأدبارهم»⁽¹⁾. «وذكر الوجوه والأدبار للتعميم أي يضربون جميع أجسادهم، فالأدبار جمع دبر وهو ما دبر من الإنسان، والوجوه كناية عما أقبل من الإنسان، وهو كقول العرب: ضربته الظهر والبطن: كناية عما أقبل وما أدبر أي ضربته في جميع جسده»⁽²⁾. وقوله تعالى: «أخرجوا أنفسكم» حكاية لقول الملائكة لهم عند بسط أيديهم لقبض أرواحهم، ومعناها أخرجوها من أبدانكم. قال الزمخشري: إن هذا تمثيل لفعل الملائكة في قبض أرواح الظلمة بفعل الغريم⁽³⁾ (الدائن): الملح يبسط يده إلى من عليه الحق ويعنف عليه في المطالبة ولا يمهله ويقول له: أخرج إلي ما لي عليك الساعة ولا أبرح مكاني حتى أنزعه من أحداقك»⁽⁴⁾.

وتعقبه ابن المنير بأن هذه أمور ممكنة على الحقيقة فلا معدل عنها⁽⁵⁾.

ويقول صاحب المنار: أنه لو كشف لصاحب الكشف الحجاب عن تمثل هؤلاء الملائكة للبشر بمثل صورهم ومخاطبتهم بمثل كلامه لرأى أنه في مندوحة عن العدول عن الحقيقة إلى التمثيل أو الكناية»⁽⁶⁾.

وأما ما قاله الكاتب في آية فاطر وتفسيره للأجنحة بغير ما هو معروف، انكالا على الإطلاق العام، فقد خالف فيه أيضاً جمهور المفسرين. وقد روى مسلم في صحيحه من حديث عروة عن عائشة - رضي الله عنها - قالت: قال رسول الله ﷺ: «خلقت الملائكة من نور، وخلق الجان من مارج من نار، وخلق آدم مما وصف لكم»⁽⁷⁾.

(1) سورة الأنفال، الآية 51.

(2) التحرير والتنوير، 41:1.

(3) الغريم: الذي عليه الدين، والذي له الدين أيضاً. قال كبر عزة:

قضى كل ذي دين فوق غريمه وعزة ممتول معنى غريمها

(4) تفسير الكشاف، 246:1 (يتصرف يسير). أحداقك جمع حدقة: سواد العين الأعظم.

(5) تفسير المنار، 626:7.

(6) تفسير المنار، 626:7.

(7) المارج: لهب النار الخالص من الدخان، وما وصف لكم يعني ما ورد في القرآن الكريم من أنه خلق من سلالة من طين.

وإذا كان الجسم نوراً كانت أجنحته من جنسه كما يليق، ولا حاجة إلى تأويلها بصرف الكلام عن ظاهره بلا موجب يضطرنا إليه من نص آخر قطعي الدلالة على معناه أو حجة عقلية لا مفر منها. والأمر من حيث هو غيبي، ولولا إخبار الله ما عرفناه، فلنؤمن بالنص كما أنزل ولنسلم تسليماً، ولنعتقد بأن الأجنحة على حقائقها من جنس أجسامهم لكمال التناسب.

قال الألوسي: «والظاهر أن الجناح بالمعنى المعروف عند العرب بيد أنا لا نعرف حقيقته ولا كيفيته، ولا نقول: إنه من الريش كريش الطائر. نعم أخرج ابن المنذر عن ابن جريح أن أجنحة الملائكة من زغب»⁽¹⁾.

8 - معنى نقص الأرض من أطرافها:

وردت في القرآن آيتان تتحدثان عن نقص الأرض من أطرافها الآية الأولى في سورة الرعد وهي قوله تعالى: ﴿أولم يروا أنا نأتى الأرض ننقصها من أطرافها، والله يحكم لا معقب لحكمه وهو سريع الحساب﴾⁽²⁾. والآية الثانية في سورة الأنبياء وهي قوله تعالى: ﴿بل متعنا هؤلاء وآباءهم حتى طال عليهم العمر أفلا يرون أنا نأتى الأرض ننقصها من أطرافها أفهم الغالبون﴾⁽³⁾ «فجاء من فرس هذا النقص على أنه عبارة عن إزالة أجزاء من مرتفعات سطحها اليابس ونقلها أو هبوط بعض الشواطىء تحت سطح البحار وتغطيتها بالماء زمناً طويلاً»⁽⁴⁾.

ومن فسرها بخروج الغازات منها إلى نطاق تخرج به عن نطاق الجاذبية الأرضية، ولما كانت الأرض كروية فإن أطرافها هي كل ما يحيط بها. ثم يتساءل بسؤال تقريرى قائلاً: أفليس ذلك ما تقرره الآية الشريفة؟ وصدق الله العظيم ﴿وما فرطنا في الكتاب من شيء﴾⁽⁵⁾. والبعض فسّر هذا النقص بنقص أطرافها

(1) روح المعاني، 158:7.

(2) سورة الرعد، الآية 41.

(3) سورة الأنبياء، الآية 44.

(4) التفسير العلمي للآيات الكونية، حنفي أحمد ص 393.

(5) سورة الأنعام، الآية 38. وانظر كتاب الله والعلم الحديث، لنوفل ص 145.

عند القطبين وانبعاجها عند خط الإستواء⁽¹⁾. ومنهم من فسر نقص الأرض من أطرافها على أنه عبارة عن نقص مواردها الطبيعية كنضوب البترول وجفاف الأنهار وانحباس المطر، وتكون نتيجة ذلك أن السكان يتركون مناطقهم وأماكن تجمعهم زاحفين إلى المدن والعواصم التي ضاقت وازدحمت بمن فيها⁽²⁾.

ولعل الذي أدى بهم إلى هذا الفهم أو ذاك هو تفسير لفظ (الأرض) بمعناها الشامل وهو الكرة الأرضية. مع أن كلمة الأرض وردت في القرآن الكريم بمعان كثيرة أوصلها مجد الدين بن يعقوب الفيروز آبادي في كتابه «بصائر ذوي التمييز في لطائف الكتاب العزيز» إلى أربعة عشر وجهاً⁽³⁾.

فكما وردت بمعناها الواسع الشامل وردت بمعنى الجزء منها وهو البلد أو المدينة فهي مثلاً في قوله تعالى: ﴿وَفِي الْأَرْضِ آيَاتٌ لِلْمُوقِنِينَ﴾⁽⁴⁾ وقوله تعالى: ﴿وَتَرَى الْأَرْضَ هَامِدةً فَإِذَا أَنْزَلْنَا عَلَيْهَا الْمَاءَ اهْتَزَّتْ وَرَبَتْ . . .﴾ الآية⁽⁵⁾، وما يشبهها بمعناها العام.

أما في قوله تعالى: ﴿إِنْ فَرَعُونَ عَلَا فِي الْأَرْضِ﴾⁽⁶⁾ وقوله تعالى على لسان يوسف - عليه السلام -: ﴿قَالَ اجْعَلْنِي عَلَى خَزَائِنِ الْأَرْضِ إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٌ﴾⁽⁷⁾ تعني مصر خاصة. والسياق القرآني هو الذي يحدد مدلول الكلمات فيه. والسياق هنا في الآيتين يدل على أنها أرض خاصة وهي أرض الكفر، ويعلم ذلك بقراءة ما تقدم على الآيتين - آية الرعد وآية الأنبياء - من آيات. فأية الرعد نجد قبلها قوله تعالى يخاطب نبيه: ﴿وَأَمَّا نُرِينَكَ بَعْضَ الَّذِي نَعْدُهُمْ أَوْ نتُوفِينِكَ فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلَاغُ وَعَلَيْنَا الْحِسَابُ. أَوْ لَمْ يَرَوْا أَنَّا نَأْتِي الْأَرْضَ نَنْقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا وَاللَّهُ

(1) ذكر هذا الرأي سيد قطب في ظلال القرآن مجلد 5: 102.

(2) تفسير مشكل القرآن، راشد عبد الله، ط 3، 1985، ص 103.

(3) بصائر ذوي التمييز، 53:2 وما بعدها.

(4) سورة الذاريات، الآية 20.

(5) سورة الحج، الآية 5.

(6) سورة القصص، الآية 3.

(7) سورة يوسف - عليه السلام - الآية 55.

يحكم لا معقب لحكمه وهو سريع الحساب»⁽¹⁾. وآية سورة الأنبياء نجد قبلها قوله تعالى يخاطب نبيه - أيضاً - «ولقد استهزىء برسل من قبلك فحاق بالذين سخروا منهم ما كانوا به يستهزءون. قل من يكلؤكم بالليل والنهار من الرحمن بل هم عن ذكر ربهم معرضون. أم لهم آلهة تمنعهم من دوننا لا يستطيعون نصر أنفسهم ولا هم منا يصحبون. بل متعنا هؤلاء وآباءهم حتى طال عليهم العمر. أفلا يرون أنا نأتي الأرض ننقصها من أطرافها أفهم الغالبون»⁽²⁾.

فهذه الآيات من السورتين تتحدث عن وعيد الكفار الذين لم يؤمنوا برسالته ﷺ ببيان ما نزل بالذين سخروا من الأنبياء السابقين، وأن تأخير العذاب عنهم ليس ناشئاً عن إهمالهم وإنما هو تأخير له لوقته المحدد، كما قال تعالى: «ولقد أهلكنا ما حولكم من القرى وصرفنا الآيات لعلهم يرجعون»⁽³⁾. كما أن فيها تسلية لرسول الله ﷺ ببيان أنه ليس عليه إلا البلاغ، سواء نزل بهم العقاب في حياته ﷺ أم نزل بهم بعد وفاته، وبيان أن الله هو المهيمن على ما في هذا الوجود، وأنه تعالى هو الذي يحفظ هؤلاء بالليل والنهار، وأن هذه الآلهة التي يعبدونها وتتمسكون بها لن تمنعهم من عذاب الله تعالى حين ينزل بهم، فعليهم أن ينظروا فيما حولهم من السابقين الذين أخذهم الله أخذ عزيز مقتدر «فإن قدرته تعالى ظاهرة الآثار فيما حولهم فهي تأتي الأمم القوية الغنية حين تكفر بالله وتبتعد عن هدي السماء وتفسد في الأرض فتنقص من قوتها وتنقص من ثرائها ومن قدرها، وتحصرها في رقعة ضيقة من الأرض بعد أن كانت ذات سلطان وقوة. وإذا حكم الله عليها بالإنحسار فلا معقب لحكمه ولا بدله من النفاذ»⁽⁴⁾.

فقد دلّ هذا السياق الذي وردت فيه الآيتان على أن المقصود من نقص الأرض من أطرافها ليس هو نقص أطراف الأرض عند القطبين وانبعاجها عند خط الإستواء، أو نقص غازاتها أو نقص مواردها الطبيعية، فإن هذه معان بعيدة

(1) سورة الرعد، الآيتان 41، 42.

(2) سورة الأنبياء، الآيات 41-44.

(3) سورة الأحقاف، الآية 26.

(4) في ظلال القرآن، مجلد 5: 102.

عن سياق الآيات، وهو تخويف أولئك المعاندين المكذبين العائد إليهم ضمير ﴿نعدهم﴾ في آية الرعد، وضمير عليهم في قوله ﴿حتى طال عليهم العمر﴾ في آية الأنبياء. بل هو إيقاظ أولئك وتنبيههم إلى ما صار إليه من قبلهم، فإن آثارهم ظاهرة فيما حولهم، وهي بالتالي للإنذار بأنهم صائرون إلى زوال وأنهم مغلوبون زائلون، وسينتصر المسلمون وتتسع رقعة الإسلام وتنحسر أرض الكفر.

وأكتفي بهذه الأمثلة، وأحيل القارئ إلى بعض الأمثلة الأخرى التي وردت أثناء البحث وبخاصة في فصل (القائلون بالتفسير العلمي في العصر الحديث بمغالاة) ففيه أمثلة تدخل في نطاق هذا الفصل، ولم نعد ذكرها تجنباً للتكرار.

الفصل الثاني

صُور

مِنَ التَّفْسِيرِ الْعِلْمِيِّ الْمَقْبُولِ

الفصل الثاني

صور من التفسير العلمي المقبول

وبعد أن ذكرت صوراً من التفسير العلمي الذي لاحظت أنه بعيد عن مقصد الهداية القرآنية، بعيد عن قواعد التفسير الصحيح للقرآن الكريم.

فإنني أذكر في هذا الفصل جانباً آخر من التفسير العلمي يتفق إلى حد كبير مع هداية القرآن وفهمه في ضوء ما قال به العلم لأنه يتلمس الحكمة فيما عبر به القرآن واتفق مع ما جاء به العلم، تحقيقاً لقوله تعالى: ﴿سنريهم آياتنا في الآفاق وفي أنفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق﴾⁽¹⁾.

المثال الأول: القرآن ذكر ظاهرة طبيعية يشاهدها الناس في أغلب أقطار الأرض تلك هي ظاهرة المطر، وما يسبقها أو يصحبها من عوامل ومؤثرات. وقد تناول هذه الظاهرة بالشرح والإيضاح في ضوء ما أثبتته العلم كثير من العلماء من بينهم المرحوم الدكتور محمد الغمراوي في كتابه (الإسلام في عصر العلم).

من هذه الآيات الكريمة آية الحجر ﴿وأرسلنا الرياح لواقح فأنزلنا من السماء ماء فأسقيناكموه وما أنتم له بخازنين﴾⁽²⁾.

(1) سورة فصلت، الآية 52.

(2) الآية 22. ولواقح: صالح لأن يكون جمع لاقح وهي الناقة الحبل، استعمل للريح المشتعلة على الرطوبة التي تكون سبباً في نزول المطر. كما استعمل في ضدها (العقيم) في قوله تعالى: ﴿إذ أرسلنا

ومفتاح الفهم لهذه الآية الكريمة هو ترتيب إنزال الماء - لسقيا الناس - على إرسال الرياح لواقع . والناس يحملون وصف الرياح بأنها لواقع على أنها لواقع للزرع والشجر . وفي هذا الفهم إغفال للنصف الثاني من الآية ، إذ لو كان ما ذهبوا إليه هو المراد لترتب عليه إلغاء الزرع وإخراج الثمر للناس يأكلونه لا إنزال الماء من السماء يشربونه . أما وقد رتب الله على إرسال الرياح لواقع إنزال الماء لسقي الناس ، فقد تحتم أن يكون للواقع معنى آخر غير معنى تلقيح الزرع ، ويكون مع ذلك شيئاً بلقاح الأحياء من زروع وحيوان ، كما يكون بينه وبين نزول الماء ما بين العلة والمعلول أو السبب والمسبب .

فالمراد من وصف الرياح بأنها لواقع هو الإشارة إلى أثرها في الجمع بين الكهرباء الموجبة والكهربائية السالبة في السحاب ، فالتلقيح هنا بين قطرات وقطرات أو بين سحاب وسحاب لا بين زهر وزهر أو نبات ونبات⁽¹⁾ .

وعما يقوي هذا الفهم هذه الآية الكريمة الذي قال به الغمراوي أن بعض الآيات التي ذكرت فيها تلك المعاني تربط دائماً بين إثارة السحب وهطول الأمطار وإرسال الرياح أي هبوبها لهذا الغرض ، ومن هذه الآيات الكريمة قوله تعالى : ﴿وهو الذي يرسل الرياح نشراً بين يدي رحمته حتى إذا أقلت سحاباً ثقالاً سقناه لبلد ميت فأنزلنا به الماء فأخرجنا به من كل الثمرات﴾⁽²⁾ وقوله تعالى : ﴿والله الذي أرسل الرياح فتثير سحاباً فسقناه إلى بلد ميت فأحيينا به الأرض بعد موتها كذلك النشور﴾⁽³⁾ .

فآية الحجر هذه مظهر من مظاهر الإعجاز المتجدد للقرآن ، لأن تلاقي السحاب وأثره في نزول المطر أمر كان يجهله الإنسان حتى كشف عنه العلم

عليهم الريح العقيم﴾ وصالح لأن يكون جمع (ملقح) وهو الذي يجعل غيره لاحقاً أي الفحل إذا القح الناقة ، فإن فاعل يحيي جمع مفعول مذكر نادراً ، وروعي فيه جواز تأنيث المشبه به وهي جمع الفحول ، لأن جمع ما لا يعقل يجوز تأنيثه . ومعنى ﴿فأسقيناكموه﴾ جعلناه لكم سقياً ، فانهمة فيه للجمع ، وكثر إطلاق أسقى بمعنى سقى . (التحرير والتنوير 14: 37 ، 38) .

(1) الإسلام في عصر العلم ، ص 352 .

(2) سورة الأعراف ، الآية 57 .

(3) سورة فاطر ، الآية 9 .

الحديث، وهي مثل رائع من التطابق التام بين العلم والدين في الإسلام⁽¹⁾.

وآية أخرى أكثر تفصيلاً من آية الحجر هي قوله تعالى: ﴿ألم تر أن الله يزجي سحاباً ثم يؤلف بينه ثم يجعله ركاماً فترى الودق يخرج من خلاله، وينزل من السماء من جبال فيها من برد فيصيب به من يشاء ويصرفه عمن يشاء يكاد سنا برقه يذهب بالأبصار﴾⁽²⁾. ومفتاح هذه الآية الكريمة هو قوله تعالى: ﴿ثم يؤلف بينه﴾ لأنها حقيقة من أمهات الحقائق الكونية لأنها تدل بوضوح على الحقيقة الكهربائية التي تقوم عليها تلك الظواهر الجوية، فإن التأليف بين السحاب ما هو إلا إشارة واضحة ووصف دقيق للتقريب بين السحاب المختلف الكهربائية حتى يتجاذبا ويتعابا في الجو تعبئة تتفق مع ما يريد الله أن يخلقه من بين السحاب من برق أو صواعق ومن مطر أو برد، فإذا كان السحاب المتجاذب بعضه فوق بعض نشأ السحاب الركام، فإذا حدث التفريغ داخل السحاب بين بعض تلك الطبقات وبعض - كما هو الغالب - نزل المطر الناشئ عن ذلك التفريغ من خلال الطبقات الدنيا وتكبر قطراته أثناء نزولها بما تستلحقه من القطيرات وهو الودق، فإذا بلغت الحالة الجوية الكهربائية في ذلك السحاب الركام من القوة ومن الإضطراب ما يسمح بوقوع تلك الظاهرة الغريبة: ظاهرة تردد بلورات الماء بين منطقتين ثلجية علوية ومطرية سفلية تكون البرد وغما حتى يصير أثقل من أن يظل في أسر تلك القوى فيسقط على الأرض رحمة إن كان صغيراً هيناً، ونقمة إن كان كبيراً راجحاً فيصيب به من يشاء ويصرفه عمن يشاء». والإنسان لا يدري كثيراً عن الظروف التي يتكون فيها البرد ولكنه يدري أنها ظروف يسودها اضطراب جوي عظيم، هذا الإضطراب أشارت إليه الآية وإلى طبيعته إشارتين:

الأولى: حين شبهت السحاب الركام الذي يتكون البرد داخله بالجبال.

الثانية: حين أشارت إلى عظم القوى الكهربائية المشتركة في تكوين بعضها

(1) الإسلام في عصر العلم، ص 352.

(2) سورة النور، الآية 43. (يزجي سحاباً) يسوقه برفق (يؤلف بينه) يجمعه بعد تفرقه (ركاماً) متراكماً بعضه فوق بعض (الودق) المطر (من خلاله) فتوقه (من برد) السحب المتجمدة لشدة البرد (سنا برقه) نور برقه.

على عظم برقه وشدته وبلوغه من الحرارة درجة الإبيضاض أو ما فوق ذلك ﴿يكاد سنا برقه يذهب بالأبصار﴾⁽¹⁾.

وهناك آيات أخرى أشارت إلى الطبيعة الكهربائية لتلك الظواهر إشارة من نوع آخر ﴿أفأنتم الماء الذي تشربون أنأنتم أنزلتموه من المزن أم نحن المنزلون لو نشاء جعلناه أجاجاً فلولا تشكرون﴾⁽²⁾.

نستطيع بعد معرفة العوامل المتعددة التي لا بد من تعاونها على تكوين المطر أن ندرك شيئاً من سر الحجة في هذا السؤال ﴿أنأنتم أنزلتموه... الخ﴾؟. لكن الإشارة التي أردنا أن نلفت الأنظار إليها هي في قوله تعالى: ﴿لو نشاء جعلناه أجاجاً﴾، والناس يسمون بالقدرة الإلهية على قلب الماء العذب أجاجاً، ويظنون أن هذا يكون عن طريق الخوارق، ولا يتساءلون هل في سنن الله ما يسمح بهذا؟ ولو تساءلوا وتطلبوا الجواب في العلم لوجدوه قريباً، ولعرفوا أن عذوبة الماء هي بمحض رحمة الله.

إن الماء عذب بطبيعته، وماء المطر معروف أنه أعذب المياه ولكن طبيعة تكونه تعرضه لأن ينقلب أجاجاً لا ينتفع به الإنسان.

إن الهواء - كما هو معروف - أربعة أخماسه (آزوت) وهو لا يكاد يتحد في العادة بشيء حتى بالأكسجين الذي يكاد يتحد بكل شيء، لكن الكيماويين وجدوا أنهم يستطيعون بالكهربائية أن يحولوا (الآزوت) غير الفعال إلى فعال يتحد بأشياء كثيرة في درجة الحرارة العادية، كما وجدوا أنهم يستطيعون أن يحملوا الأزوت على الاتحاد بالأكسجين بإمرار الشرر الكهربائي في مخلوط منهما. ومن هذا الاتحاد ينشأ بعض أكاسيد للآزوت قابل للذوبان في الماء، وإذا ذاب فيه اتحد به وكون حمضين آزوتيين أحدهما حمض الآزوتيك أو ماء النار كما كان يسمى وإليه يصير الحمض الثاني، وقليل من حمض الآزوتيك في الماء كاف لإفساد طعمه.

وأظنك الآن بدأت تدرك الطريق الذي يمكن أن ينقلب به ماء المطر ماء

(1) الإسلام في عصر العلم، ص 353.

(2) سورة الواقعة، الآيات 68 - 70.

أجاجاً من غير خرق لأي سنة من سنن الله الكونية فهو نفس الطريق الكهربائي الذي يتكون به المطر، وكل الذي يلزم هو أن يتعدل أو يتكيف التفريغ الكهربائي ويتكرر في الهواء، وما يتكون من الأكاسيد الأزوتية يذوب في ماء السحاب ويحوّله حمضياً لا يستسيغه الناس، وهذا هو موضع المن من الله على الناس أن يكيف التفريغ بالصورة التي ينزل بها المطر ولا يؤج بها الماء.

إن شيئاً من ذينك الحمضين لا بد أن ينزل إلى ماء العواصف، وهذا ضروري للحياة لأنه يتحول في الأرض إلى الأزوتات الضرورية لحياة النبات، لكن الله برحمته وحكمته يقدر تكونه بحيث لا يتأذى به إنسان ولا حيوان، ولو شاء الله لكثّره في ماء المطر فأفسده على الناس. وسواء أشكر الناس هذه النعمة أم كفروها فإن قوله تعالى: ﴿لو نشاء جعلناه أجاجاً﴾ إشارة إلى تلك الحقائق السابقة، ومن يعرف أن الطريق الكهربائي هو أحد الطرق العملية التي يمكن بها تحويل الأزوت الجوي إلى حمض.

إن نعمة الله في الماء العذب أكبر من أن يقوم الناس بشكرها، لأن كل ماء عذب في الأرض كان أجاجاً في الأصل إذ هو آت من ماء البحار⁽¹⁾.

المثال الثاني: قال الله تعالى: ﴿وإن لكم في الأنعام لعبرة نسقيكم مما في بطونه من بين فرث ودم لبناً خالصاً سائغاً للشاربين﴾.

إن هذه الآية من الآيات التي تستدعي تأملاً دقيقاً لمعرفة حكمة الخلق والتدبير الإلهي العظيم، وفيها عبرة وآية دالة على وحدانية الله وقدرته وحكمته في خلقه.

وقد كتب الأستاذ أحمد كامل ضو تعليقاً عليها في كتابه (القرآن والعلوم الحديث) يقول: إن الجهاز الهضمي يقوم بهضم الغذاء وامتصاص الصالح منه، وهذا الجزء الصالح منه يذهب إلى الدم فيختلط به، وباستمرار دخوله في القلب

(1) الإسلام في عصر العلم، ص 354، 355 (بتصرف).

(2) سورة النحل، الآية 66. وتذكير الضمير هنا ﴿مما في بطونه﴾ مراعاة للفظ الأنعام، وتأتيه في سورة المؤمنون حيث قال ﴿مما في بطونها﴾ مراعاة للمعنى، فإن الأنعام جنس. وفيه آراء أخرى.

وخروجه منه ثم مروره في أجزاء الجسم المختلفة يغذي ما يحتاج منها إلى غذاء، فالغذاء إذن تحوّل جزء منه إلى دم وجزء إلى (فرث) فالدم يسير في أوعية وهي الشرايين والأوردة المنتشرة في جميع أجزاء الجسم صغيرها وكبيرها حاملاً المواد الغذائية الذاهبة إليه من القناة الهضمية ليوزعها في أنحاء الجسم لبناء الأنسجة وتعويض المستهلك أثناء تأدية الوظائف الحيوية، وهو يغذي الغدد التي منها الغدد اللبنية (ضرع الحيوان) المنوط بها إفراز اللبن.

فالغذاء يتحول جزء منه إلى دم، وهذا الدم يذهب إلى ضرع الحيوان حيث يغذي الغدد اللبنية بما يحمله من مواد مهضومة فتمتص من القيام بوظيفتها وهي إفراز اللبن أو بعبارة أوضح تحول هذا الجزء من الدم إلى لبن.

أما الجزء الآخر من الغذاء فإنه يتحول إلى براز غير صالح وهو الفرث فإنه تعالى سيطر بقدرته على الطعام فشطّره شطرين هما الدم والفرث وأخرج من بينهما اللبن خالصاً من كل شائبة تشوبه من أثر الطعام المهضوم ورائحته، صافياً من كل المواد التي كانت في الدم ناصع البياض طاهراً، وذلك بعملية الغدد اللبنية التي خلقها سبحانه كمعمل كيميائي يتحول الدم فيه إلى لبن، ثم يصفى بأدق مصفاة وأنظف أداة حتى يخرجها تعالى «لبناً خالصاً سائغاً للشاربين» لا تشوبه شائبة من لون الدم ولا من قذارة الفرث ورائحته. ولو اجتمع الإنس والجن على أن يخلقوا من الدم الأحمر القاني لبناً أبيض خالصاً، له طعم ورائحة وقوام وتركيب يخالف الدم الذي نشأ منه نتيجة واتفق معه أصلاً، أو حتى يجعلوه صافياً كما خلقه الله - جلّت قدرته - لأخفقوا ولما استطاعوا.

وقد جعله الله سائغاً للشاربين سهل المرور في حلقهم حلو الطعم في أفواههم وأوجد فيه ذلك اليسر لما فيه من فوائد جمة تعود على مخلوقاته إنسية وحيوانية. واللبن يتكون من الماء والدهن والسكر والزلال والأملاح والفيتامينات، فهو يحتوي على جميع العناصر الغذائية التي يحتاج إليها الإنسان والحيوان، ويعتبر بحق أهم الأغذية على الإطلاق - اهـ -⁽¹⁾.

(1) القرآن الكريم والعلوم الحديثة، ط 2، 1955، ص 56 - 60.

ومما جاء في تفسير التحرير والتنوير للشيخ محمد الطاهر بن عاشور حول هذه الآية قوله : وجه العبرة في ذلك أن ما تحتويه بطون الأنعام من العلف والمرعى ينقلب بالمهضم في المعدة ثم الكبد ثم غدد الضرع مائعاً يسقى وهو مفرز من بين إفراز فرث ودم . والفرث : الفضلات التي تركها المهضم المعدي فتنحدر إلى الأمعاء فتصير فرثاً . والدم : إفراز تفرزه الكبد من الغذاء المنحدر إليها ، ويصعد إلى القلب فتدفعه حركة القلب الميكانيكية إلى الشرايين والعروق ويبقى يدور كذلك بواسطة القلب .

ومعنى كون اللبن من بين الفرث والدم أنه إفراز حاصل في حين إفراز الدم وإفراز الفرث ، وعلاقته بالفرث أن الدم الذي ينحدر في عروق الضرع يمر بجوار الفضلات البولية والثفلية ، فتفرزه غدد الضرع لبناً ، كما تفرزه غدد الكليتين بولاً بدون معالجة زائدة ، وكما تفرز تكاميش الأمعاء ثفلًا⁽¹⁾ بدون معالجة ، بخلاف إفراز غدد المثانة للمني لتوقفه على معالجة ينحدر بها الدم إليها . وليس المراد أن اللبن يتميخ من بين طبقتي فرث ودم وإنما الذي أوهم ذلك من توهمه حمله (بين) على حقيقتها من ظرف المكان ، وإنما هي تستعمل كثيراً في المكان المجازي فيراد بها الوسط بين مرتبتين كقولهم : الشجاعة صفة بين التهور والجبن ، فمن بلاغة القرآن هذا التعبير القريب للأفهام لكل طبقة من الناس بحسب مبالغ علمهم ، مع كونه موافقاً للحقيقة .

والمعنى : إفراز ليس هو بدم لأنه ألبن من الدم ، ولأنه غير باق في عروق الضرع كباقي الدم في العروق فهو شبيه بالفضلات في لزوم إفرازه ، وليس هو بالفضلة لأنه إفراز طاهر نافع مغذ ، وليس قذراً ضاراً غير صالح للتغذية كالبول والثفل .

وموقع ﴿من بين فرث ودم﴾ موقع الصفة للبن ، قدمت عليه للإهتمام بها لأنها موضع العبرة فكان لها مزيد إهتمام ، وقد صارت بالتقديم حالاً .

(1) الثفل - بضم السكون - : الروث ، والأصل فيه ما سفل من كل شيء . أنظر مختار الصحاح ، ص 84 .

ولما كان اللبن يحصل في الضرع لا في البطن جعل مفعولاً لفعل (نسيكم) وجعل ﴿عما في بطونه﴾ تبييناً لمصدره لا لمورده، فليس اللبن مما في البطن، ولذلك كان ﴿عما في بطونه﴾ متقدماً في الذكر ليظهر تعلقه بفعل نسيكم وليس وصفاً للبن. وقد أحاط بالأوصاف التي ذكرناها للبن قوله تعالى: ﴿خالصاً سائغاً للشاربين﴾ فخلوصه: نزاهته مما اشتمل عليه البول والثفل، وسوغه للشاربين: سلامته مما يشتمل عليه الدم من المضار لمن شربه، فلذلك لا يسيغه الشارب ويتجهمه. وهذا الوصف العجيب من معجزات القرآن العلمية، إذ هو وصف لم يكن لأحد من العرب يومئذ أن يعرف دقائق تكوينه ولا أن يأتي على وصفه بما لو وصفه به العالم الطبيعي لم يصفه بأجز من هذا وأجمع - اهـ - (1).

ومن التفسير العلمي المقبول توضيح التشبيه في قوله تعالى: ﴿فمن يرد الله أن يهديه يشرح صدره للإسلام ومن يرد أن يضله يجعل صدره ضيقاً حرجاً كأنما يصعد في السماء﴾ (2) في ضوء ما وصل إليه العلم.

وقد نزلت هذه الآية على رسول الله ﷺ قبل أن يصل الإنسان بوسائله الحديثة التي هيأتها له قدرة الله تعالى إلى اختراع الوسائل التي استطاع بواسطتها الصعود إلى طبقات عالية من الجو. وقبل أن يعرف الكثير عن مكونات الهواء وخواصه ولزومه للحياة، مما جعل المفسرين القدامى يقولون في التماس وجه الشبه في هذا التشبيه ﴿كأنما يصعد في السماء﴾: أن الإنسان إذا كلف الصعود إلى السماء ثقل ذلك التكليف عليه وعظم وصعب وقويت نفرتة منه فكذلك الكافر يثقل عليه

(1) تفسير التحرير والتنوير، 200:14 وما بعدها.

(2) سورة الأنعام، الآية 125. (يشرح) الشرح مجاز في البيان والكشف وفي انجلاء الأمر ويقين النفس وسكون البال للأمر بحيث لا يتردد فيه ولا يفتن منه (صدره) باطنه وهو مجاز في الفهم والعقل بعلاقة الحلول، فمعنى (يشرح صدره) يجعل لنفسه وعقله استعداداً وقبولاً لتحصيل الإسلام ويوطئه لذلك حتى يمكن إليه ويرضى به (ضيقاً) مبالغة في الوصف بالضيق (حرجاً) صفة مشبهة بمعنى ضاق ضيقاً شديداً، والمعنى: يجعل صدره غير متسع للإسلام (يصعد) بتشديد الصاد والعين، يتكلف الصعود، أصله يصعد قلبت تاء الافتعال صاد لأن التاء شبيهة بحروف الإطباق، مثل حال المشرك حين يدعى إلى الإسلام أو حين يغلو بنفسه فيتأمل في دعوة الإسلام بحال الصاعد فإن الصاعد يضيق نفسه في الصعود، وهو تشيل هيئة معقولة هيئة متخيلة لأن الصعود في السماء غير واقع على اعتبار أنها بالمعنى المتعارف عليه. ويجوز أن يكون مراداً به الجو الذي يعلو الأرض.

الإيمان وتعظم نفرتة منه، هذا وجه . أو أن يكون التقدير: إن قلب الكافر ينبو عن الإسلام ويتباعد عن قبول الإيمان فشبّه ذلك البعد ببعد من يضعد من الأرض إلى السماء⁽¹⁾. «أو كأنه يزاول أمراً غير ممكن، لأن صعود السماء مثل فيما يمتنع ويبعد من الاستطاعة وتضيق عنه المقدرة»⁽²⁾.

وهذا التحليل وذاك في كيفية التشبيه معقول ومقبول.

وعندما استطاع الإنسان أن يصعد إلى طبقات عالية من الجو أصبحت كيفية التشبيه - أو وجه الشبه كما يسمى عند علماء البلاغة - أكثر وضوحاً، حيث ثبت أن الأوكسيجين هو أساس الحياة على هذه الأرض الطيبة التي باركها الحق سبحانه فهو عند استنشاقه يجدد نقاء الدم ويكسب الكائنات القدرة على العمل، وهو يخرج مع هواء الزفير على هيئة غاز ثاني أوكسيد الكربون . كما يدخل أيضاً في جميع عمليات الاحتراق . وعندما يتراكم ثاني أوكسيد الكربون في الجو تمتصه النباتات لتستخلص منه الكربون وتعيد الأوكسيجين إلى الجو خالصاً نقياً، ويتم ذلك بتأثير ضوء الشمس .

وعلى هذا النحو تستمر الحياة على هذه الأرض إلى ما شاء الله من غير أن ينفد الأوكسيجين، إذ تعتري كميّاته سلسلة من التحول الدوري المستمر الذي يبقى عليه بفضل مملكة النبات وضوء الشمس .

وتبلغ كمية الأوكسيجين في الجو نحو الخمس من حيث الحجم، والغلاف الجوي كأبي جسم له وزنه، وينجم عن هذا الوزن على السنتيمتر المربع من السطح قوة هي الضغط الجوي الذي يعرف عند أي نقطة بأنه وزن عمود الهواء المقام على السنتيمتر المربع حول تلك النقطة والممتد إلى قمة الجو من أعلى . وبطبيعة الحال كلما ارتفعنا فوق سطح الأرض كلما قل طول هذا العمود ونقص الضغط الجوي تبعاً لذلك .

وهكذا تقل كميات الأوكسيجين بالصعود إلى أعلى حتى تصبح غير كافية

(1) مفاتيح الغيب، 4: 150.

(2) تفسير الكشاف للزخري، 1: 251.

للحياة ويشعر الإنسان بضيق الصدر.

وقد وصف القرآن هذه الحقيقة في بيان رائع . وقد كان الناس إلى عهد قريب يظنون أن هواء الأرض يحتفظ بكل صفاته إلى أعماق الفضاء حيث تنتشر أجرام السماء كالقمر والمريخ والزهرة وعطارد .

ويعد أن خلق الإنسان على ارتفاعات شاهقة ووصل إلى ارتفاعات أعظم بالطائرات ثم بالصواريخ عرف أن الصعود في الجو يصحبه - دون شك - نقص في الضغط الجوي وفي كميات الأوكسجين بمعدلات سريعة بحيث يصل إلى حالة الإختناق غير بعيد عن سطح الأرض .

ومن عناية الخالق ورحمته بعباده أن جعل للأرض غلافاً هوائياً يقع تحت طائلة الجاذبية في نفس الوقت الذي يخضع فيه لظاهرة انتشار الغازات، تلك الظاهرة التي تجعل الهواء يتمدد ليملأ الفراغ المعرض له . وعلى ذلك نجد أن الهواء يتمدد ولكن بدرجة لا تسمح له بالإفلات والخروج بعيداً عن قبضة الأرض، فهو لا يتلاشى في خضم الفضاء الفسيح إلا على علو نحو ألف كيلومتراً من سطح الأرض . ولكن كلما راح الإنسان يصعد في السماء إلى أعلى وجد أن الهواء قليل الضغط والكثافة، والعكس صحيح⁽¹⁾ .

ومن التفسير المقبول توضيح السر في تخصيص القرآن بالذكر عضواً من الجسد له أهمية خاصة كشف عنها العلم في هذا العصر ﴿أيمسب الإنسان ألن نجمع عظامه بلى قادرين على أن نسوي بنانه﴾⁽²⁾ تسوية البنان جمع عظامه الدقيقة وإعادته كما كان قبل الفناء خلقاً سوياً سليماً .

إن الإنسان المكذب بالبعث - ممثلاً في عدي بن أبي ربيعة أو عمرو بن هشام «أبي جهل» - جاء يسأل رسول الله ﷺ قائلاً: أيجمع الله العظام بعد أن تتفرق

(1) الكون بين العلم والدين . د . محمد جمال الدين الفندي ، ط المجلس الاعلى للشؤون الإسلامية ، الكتاب الرابع عشر ، 1972 م ، ص 36 وما بعدها .

(2) سورة القيامة ، الآيتان 3 ، 4 .

وتبلى؟ فكان الرد الإلهي ﴿بلى قادرين على أن نسوي بنانه﴾⁽¹⁾.

ولم خص البنان بالذكر دون باقي الأعضاء، مع أن المناسبة بين السؤال والجواب كانت تقتضي أن يكون الجواب بلى قادرين على أن نسوي عظامه؟.

هذا السؤال أجاب عنه علم تحقيق الشخصية - وهو علم حديث - بأن أدق ما في البنية الإنسانية تسوية البنان، ولهذا لا تجد بناناً في إنسان يشبه بناناً آخر في غيره، ولذا حكموه في تحقيق الحوادث والاستغناء به عن التوقيع بصريح الاسم سيما من كان أمياً، ذلك لأن أي عضو في جسم الإنسان قد يتشابه، ولكن البصمات أدل على الإنسان من وجهه وأدل من صورته وهي من أخص خصائصه. فسبحان من أقام في اليد شاهداً على كل ما تأتيه وأرغمها على الإعراف بكل ما تجنيه.

يقول أحد الأطباء المتخصصين في هذا المجال:

«إن من أهم ما يمكن التعرف به على الأشخاص البصمات، ورغم أن قصة استخدام البصمات قديمة إلا أن الثابت علمياً أنه من بين الملايين من الأفراد تأخذ بصمات أصابع كل شخص أشكالاً خاصة تميزه بحيث يمكن أن تكون صورة ناطقة بشخصه يعتمد عليها في التعرف عليه»⁽²⁾.

فالقرآن الكريم يقول في أسلوب بياني رائع: إن إعادة الخلق أمر يسير حتى البصمات التي تميز كل فرد عن غيره سوف تعود كما كانت.

«كما أن القرآن حين يتناول قضية في وظائف الأعضاء يتناولها تناولاً بيانياً موافقاً لما انتهى إليه العلم من حقائق»⁽³⁾.

فالقرآن - مثلاً - يقدم السمع على البصر عندما يذكرهما على اعتبار أنهما

(1) مفاتيح الغيب، فخر الدين الرازي، 261:8.

(2) الكون بين العلم والدين، ص-137.

(3) الإعجاز البياني والعلمي للقرآن، ضمن مجموعة أحاديث للشيخ محمد متولي الشعراوي، ط دار الشروق، 1975م، ص128.

نعمتان من نعم الله، أو في موضع حرمان الكفار والضالين منها باعتبارهما رمزاً للهداية وأداة للإيمان، وعندما يذكرهما على أنها من أسماء الله الحسنى وصفاته العلى.

والأمثلة على ذلك كثيرة منها قوله تعالى: ﴿ثُمَّ سَوَّاهُ وَنَفَخَ فِيهِ مِنْ رُوْحِهِ وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ قَلِيلاً مَّا تَشْكُرُونَ﴾⁽¹⁾. وقوله تعالى: ﴿وَإِلَّا تُخْرِجُكُم مِّنْ بَطُونِ أَمْهَاتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْئاً وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾⁽²⁾، وقوله تعالى: ﴿وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَذَهَبَ بِسَمْعِهِمْ وَأَبْصَارِهِمْ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾⁽³⁾، ومنها قوله تعالى: ﴿وَمَا كُنتُمْ تَسْتَرْوْنَ أَن يَشْهَدَ عَلَيْكُمْ سَمْعُكُمْ وَلَا أَبْصَارُكُمْ وَلَا جُلُودُكُمْ﴾⁽⁴⁾.

وهذا التقديم الذي التزمه القرآن يوحي للمتأمل بأن وراءه سرّاً عجبياً. وقد استطاع العلم أن يدرك بعض هذا السر على الأقل حيث ثبت أن السمع هو أسبق حواس الطفل إلى وصله بالكون الذي يعيش فيه، فعينا الطفل تقع عليهما المراثيات دون أن تنقل إليه معنى، لأن الصورة لا تفهم في ذاتها إلا مرتبطة بقدر من المعرفة لا تتأتى للطفل. في حين أنه يستجيب لدى أول ميلاده للأصوات المزعج منها والمؤنس.

فالحقائق العلمية تثبت أن حاسة السمع تؤدي مهمتها أولاً ومنذ اللحظة الأولى من ولادته وحاسة البصر تؤدي مهمتها خلال عشرة أيام. فالبصر يؤدي مهمته ثانياً ثم ينشأ من المحسّات أمور عقلية وأمور وجدانية وأمور قلبية⁽⁵⁾.

ومن جانب آخر نجد أن حاسة البصر لا تبلغ حاسة السمع في اتساع المدى وفي القدرة على الشمول والإحاطة. فالإنسان يرى في اتجاه واحد، في حين أنه

(1) سورة السجدة، الآية 8.

(2) سورة النحل، الآية 78.

(3) سورة البقرة، الآية 19.

(4) سورة فصلت، الآية 22.

(5) الإعجاز البياني والعلمي للقرآن، ص 821.

يتلقى الأصوات في آن واحد من أي جهة تحيط به سواء كان مستقبلاً مصدر الصوت أم مستديراً، وسواء كان السامع في الفضاء أم كان وراء جدار أو داخل غرفة مغلقة. فالإنسان يسمع وهو في فراشه ملتحف بغطائه الصوت الصادر من مسافات. كما أن فقدان البصر مصاب جلل عند الإنسان، ولكن على الرغم من ذلك فإن الأعمى يبقى على اتصال بالجماعة التي يعيش بينها بفضل حاسة السمع. أما فاقد السمع فإن صلته بالجماعة تكاد تنعدم لأنه لا يملك وسيلة للتفاهم بها معها وتلقي عواطفها ومشاعرها، والوقوف على آرائها وخواطرها⁽¹⁾.

ولذا يقول بعض العلماء: «ينبغي ألا يلتفت إلى ما يزعمه علماء النحو من أن واو العطف تأتي لمطلق الجمع بمعنى أنه يجوز في الآيات أن تقدم السمع على البصر والفؤاد ونؤخره دون أن يختل المعنى، لأنه أصبح من الواضح أن الترتيب هنا فيه التزام نظراً لأهمية المتقدم عما جاء بعده»⁽²⁾. فالترتيب الذي جاء في القرآن بين السمع والبصر نلمح من خلاله التعبير البياني الدقيق، فإذا جاء هذا التعبير على وفق ما قرره العلم كان التزاوج بين أسلوب القرآن في بلاغته وفصاحته، وبين أسلوب العلم في اكتشافه وتقريره.

ونلمح مثل هذا التوافق بين التعبير القرآني والتقرير العلمي حين يذكر القرآن السمع بلفظ الأفراد والبصر بلفظ الجمع في أغلب الآيات مثل قوله تعالى: ﴿وجعل لكم السمع والأبصار... الخ﴾ لأن السمع يأتي من جميع الجهات ولا يمنعه مانع، والسمع كذلك يأتي قهراً وفي حالة اليقظة مطلقاً.

وأما البصر فلا بد فيه من القصد والإدراك التام. والصوت لا مفرك من سماعه ما دمت لا تستعين بشيء خارجي يمنحك السماع كوضع شيء في الأذن، بخلاف الصورة فيمكنك أن تراها فتدع عينك مفتوحة ويمكن ألا تراها فتغلق عينك بدون أن تستعين على عدم الرؤية بشيء من الخارج.

فالسمع يكاد يكون واحداً بخلاف البصر فإنه يتعدد بتعدد أحواله.

(1) الإسلام ومشكلات الفكر، فتحي رضوان، سلسلة (اقرأ) العدد 377، دار المعارف بمصر، ص 41.

(2) د. عبد القادر حسين، مع القرآن في إعجازه وبلاغته، مطبعة الأمانة، 1975، ص 11.

ولكن المفسرين القدامى يرون في مجيء السمع مفرداً والبصر جمعاً أسباباً لغوية ترتبط بقواعد اللغة. ففي قوله تعالى: ﴿ختم الله على قلوبهم وعلى سمعهم وعلى أبصارهم غشاوة﴾⁽¹⁾ يقول الزغشري: «وَحَدَّ السَّمْعَ كَمَا وَحَدَّ الْبَطْنَ فِي قَوْلِهِ: كَلُوا فِي بَعْضِ بَطْنِكُمْ تَعَفَّوْا، يَفْعَلُونَ ذَلِكَ إِذَا أَمِنَ اللَّبْسُ، فَإِذَا لَمْ يُؤْمِنْ اللَّبْسُ كَقَوْلِكَ: فَرَسَهُمْ وَثَوْبَهُمْ وَأَنْتَ تَرِيدُ الْجَمْعَ رَفْضُهُ، وَلَكَ أَنْ تَقُولَ: إِنْ السَّمْعَ مُصْدَرٌ فِي أَصْلِهِ، وَالْمَصَادِرُ لَا تَجْمَعُ، وَأَنْ تَقْدِرَ مُضَافاً مَحْذُوفاً أَيْ وَعَلَى حَوَاسِ سَمْعِهِمْ»⁽²⁾.

فذكر الزغشري لمجيء السمع مفرداً أسباباً ثلاثة:

- 1- أمن اللبس، حيث لا نرتاب في أن المقصود بالسمع في الآية الجمع وليس المفرد.
- 2- إن السمع مصدر والمصادر لا تجمع.
- 3- إن الكلام على تقدير مضاف محذوف.

وهناك سر آخر يتعلق بوظائف الأعضاء كشف عنه العلم، وهو أن السمع هو الحاسة الوحيدة التي تؤدي مهمتها عند النوم، وهذا يفسر لنا جانباً من قصة أصحاب الكهف التي يقول الله فيها: ﴿فَضَرَبْنَا عَلَى آذَانِهِمْ فِي الْكَهْفِ سِنِينَ عَدَّةً﴾⁽³⁾. «حيث أن الله تعالى يريد أن ينيمهم مدة طويلة، وهذا النوم لمدة طويلة يأتي على غير مألوف البشر، فالذي نام قسطاً وافياً توقظه أدنى حركة أياً كان مصدرها، فنجد الحق سبحانه منع عنهم المنبهات التي تخرجهم عن النوم فقال: ﴿فَضَرَبْنَا... الخ﴾ ولو لم يقل الحق ذلك لبقيت الأذان تؤدي مهمتها بحيث أن أي صوت خارجي يوقظهم فلا ينامون وهو يريد لهم نائمين، فلا بد أن يقطع علاقتهم مع الكون، وعلاقتهم بالكون وهم نائمون ليست إلا بالأذن»⁽⁴⁾.

(1) سورة البقرة، الآية 6.

(2) تفسير الكشاف، 1: 164.

(3) سورة الكهف، الآية 11.

(4) الإعجاز البياني والعلمي للقرآن، ضمن مجموعة أحاديث للشعراوي، ص 135.

فالضرب على الأذان كناية عن الإنامة، لأن النوم الثقيل يستلزم عدم السمع لأن السمع السليم لا يجبه إلا النوم بخلاف البصر الصحيح فقد يججب بتغميض الأجفان، وهذه الكناية من خصائص القرآن لم تكن معروفة قبل هذه الآية وهي من الإعجاز⁽¹⁾.

قال الشهاب: «(ضربنا) مستعار استعارة تبعية لمعنى أغناهم أنامة لا يتبته منها بالصياح، لأن النائم يتبته من جهة سمعه، وهو إما من (ضربت القفل على الباب) أو (ضربت الخباء على ساكنه) شبه لاستغراقه في نومه حتى لا يتبته بمنبه بمن كان خلف حجب مانعة من وصول الأصوات إليه. وقيل إنه استعارة تمثيلية» - اهـ⁽²⁾.

ومن التفسير العلمي المقبول توضيح الحكمة فيما حرمه القرآن ونهى عنه في ضوء ما توصل إليه العلم من حقائق، ليتبين للناس ما في ذلك من الحكم والأسرار، بشرط ألا يعتقد أن ما أثبتته العلم هو العامل الأول والأخير في التحريم، بل إن هناك جانباً روحياً وأخلاقياً يجب ألا يغفل، وقد يكون ذلك للابتلاء.

هذه الأمور يجب أن تكون في الحسبان عند إرادة الاستعانة بالعلم على فهم أسرار التحريم الذي جاء في القرآن.

فإن القرآن كثيراً ما يتبع الأحكام الشرعية والأوامر والنواهي الإلهية بالدعوة إلى العلم بأسرارها والتفكير في آثارها، والإحاطة بحكماتها ليتبين للناس ما فيها من خير لهم أفراداً وجماعات، وليزدادوا يقيناً بأن الله تعالى قد فرضها عليهم وهو العليم بنفوس عباده الخبير بما يلائم طباعهم، المحيط علماً بما يصلحهم ويصلح لهم الغنى عن طاعتهم الذي لا تضره معصيتهم، فالخير كل الخير لهم في اتباع ما أمرهم به واجتناب ما نهاهم عنه عن عقيدة و يقين.

(1) تفسير التحرير والتنوير، 15: 268.

(2) حاشية الشهاب على تفسير البضاوي، ط المكتبة الإسلامية تركيا، 6: 78.

وكلما تقدم العلم بالآلات وأجهزته العلمية فإن الإنسان يكتشف يوماً بعد يوم ما جاء في كتاب الإسلام الخالد من حكم وأسرار، ويتبين له جلياً أن الله يريد لعباده سعادة الدنيا وسعادة الآخرة.

ولقد وضع الله قانون الوقاية مما يضر في الدنيا أو في الآخرة فقال: ﴿وَلَا تَلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ﴾⁽¹⁾، وفصل ذلك في كتابه، فحرم أكل الخبائث التي تفتك بالأجسام وتسبب الأمراض كالهيئة والدم ولحم الخنزير، وحرم شرب الخمر وأمر بالتخلص من الجراثيم والتطهر منها. وحرم الإتصال الجنسي في زمن الحيض لما يترتب عليه من الأذى والأضرار.

الميتة والدم ولحم الخنزير والتماس الحكمة في تحريمها:

أحل الله تعالى لعباده المأكولات والمشروبات وحرم عليهم أشياء قليلة منها لضررها البين بصحة الأجسام والعقول. كما حرمها ابتلاء واختباراً ليعلم المطيع من العاصي، فالهيئة حرم الله أكلها في عدة آيات من القرآن الكريم⁽²⁾ وهي الحيوان الذي فقد حياته بغير ذكاة شرعية، وذلك بأن يكون سبب وفاته مرضاً من الأمراض أو حادثة من الحوادث كالخنق والتردي وما يشبهها.

ويكفي أن يموت الحيوان من مرض فتبقى جراثيم هذا المرض في دمائه، فأكل الميتة مقدم على عمل ضار بصحته لا محالة.

قال الرازي في تفسيره: «تحريم الميتة موافق لما في العقول، لأن الدم جوهر لطيف جداً، فإذا مات الحيوان حُتِفَ أنفه احتبس الدم في عروقه وتعفن وحصل من أكله مضار عظيمة - اهـ»⁽³⁾.

وقد جاء في القرآن من قبل أن يكتشف الناس ما فيها من أضرار قوله

(1) سورة البقرة، الآية 194.

(2) جاء تحريمها في سورة البقرة، الآية 172. وفي سورة المائدة، الآية 4. وفي سورة الأنعام، الآية 146. وفي سورة النحل، الآية 115.

(3) مفاتيح الغيب، 3: 365.

تعالى: ﴿حرمت عليكم الميتة والدم ولحم الخنزير وما أهل لغير الله به والمتخلفة والموقوذة والمتردية والنطيحة وما أكل السبع إلا ما ذكيتم وما ذبح على النصب﴾⁽¹⁾.

والمتخلفة: هي التي خنقت بحبل أو غيره حتى ماتت، ومن المعروف علمياً أن الكائن الحي إذا اختنق أي منع دخول الأوكسجين إلى رئتيه فإنه تتراكم في جسمه غازات ثاني أوكسيد الكربون السامة، كما تتراكم جميع الإفرازات السامة التي تخرج عادة مع التنفس في عملية الزفير، وهذه المواد إذا احتبست عادت لتمتص في الجسم فتحدث التسمم في كل أنسجته ثم الوفاة.

والموقوذة: هي التي ضربت فماتت.

والمتردية: هي التي سقطت من مكان مرتفع فماتت.

والنطيحة: هي التي نطحها حيوان آخر فتسبب في موتها، وهذه كلها في حكم الميتة.

وما أكل السبع⁽²⁾: أي الحيوان الذي افترسه حيوان من السباع فأكل بعضه وأبقى البعض الآخر، وحكمة ذلك علمياً أن هذا الحيوان قد يكون مصاباً بمرض يظهر في فمه ولعابه وتبقى آثاره على اللحم فتؤدي من يأكل منه «ولأن أكيلة السبع تموت بغير سفح الدم غالباً بل بالضرب على مقاتل الحيوان»⁽³⁾.

والدم: المقصود به الدم المسفوح لا ما خالط اللحم، لأن الله تعالى يقول في آية سورة الأنعام: ﴿أو دماً مسفوحاً﴾ وحمل المطلق في بقية الآيات على المقيد هنا. «والدم يعتبر أصلح الأوساط لنمو الجراثيم فبمجرد ذبح الحيوان يصبح عرضة لانتشار الجراثيم فيه، فإذا ما شرب الدم إنسان فكأنما شرب مزرعة نمت فيها الجراثيم وتكاثرت»⁽⁴⁾.

(1) سورة المائدة، الآية 4.

(2) السبع: كل حيوان يفترس الحيوان كالأسد والنمر والضبع والثعلب.

(3) التحرير والتنوير، 6: 92.

(4) بين الطب والإسلام، د. حامد الغواي، دار الكتاب العربي للطباعة والنشر، القاهرة 1967 م،

وقد ثبت علمياً أن أي مرض يستعصي تشخيصه فإن تحليل الدم يكشف عن أصل هذا المرض لما يحتويه الدم من ميكروبات المرض.

يقول الدكتور: محمد توفيق صدقي: «الدم عسر الهضم جداً حتى أنه إذا انصب جزء منه في المعدة تقاياه الإنسان أو يخرج مع البراز بدون هضم على صورة مادة لزجة سوداء، والسبب في عسر هضمه هو وجود المادة الحمراء الحديدية فيه، وفي أثناء مرور الدم في القناة الهضمية يتحلل ويتعفن. وبذلك يضر الجسم أيضاً. ثم قال:

فإن قيل: لم لا يطبخ الدم ويؤكل بعد قتل هذه الميكروبات بالغلي؟ ويجيب عن هذا السؤال بقوله:

1- إن الغلي يجمد جميع المواد الزلالية التي في الدم وبذلك تصير أشد عسراً مما كانت.

2- إن من هذه السموم ما لا يتغير بالغلي تغيراً يجعلها صالحة للجسم، ومنها ما لا يتغير مطلقاً»⁽¹⁾.

وهنا ملحوظات يجب أن تؤخذ في الاعتبار:

أولاً: إن الإسلام لا يحرم على المسلم تناول أي نوع من هذه الأطعمة إذا كان مضطراً، كمن يتعرض للهلاك المحقق جوعاً ولا يجد ما يتناوله ليحفظ به حياته.

ثانياً: إن هناك جانباً روحياً وأخلاقياً في التحريم - كما ذكرت سابقاً - يجب ألا يغفل، فليس الطب الجسمي هو العامل الوحيد، ولكن هناك الطب الروحي والأخلاقي أيضاً، فالإسلام يحرم تحريماً قاطعاً كل أنواع العنف والعدوان للحصول على الطعام، فيحرم ضرب الحيوان أو خنقه أو تعذيبه، كما يكرم الإسلام الإنسان تكريماً عظيماً حين ينهيه عن أكل لحم حيوان أكل منه حيوان آخر أو أنهيت حياته بغير الذكاة المشروعة.

(1) دروس سنن الكائنات، 54:1.

ثالثاً: إن الإسلام يحرم أكل ما أهل لغير الله به، والقصد من ذلك ألا يؤكل إلا ما ذبح ذبحاً شرعياً فيه إكرام للحيوان نفسه وصيانة له من التعذيب، وصيانة المسلم عن مخالطة عقيدة الشرك بأكل حيوان ذكر عليه اسم غير الله كأسماء الأصنام التي كانت تعبد من دون الله العلي الأعلى⁽¹⁾.

لحم الخنزير: وهو ينقل مرضاً من أخطر الأمراض، فقد نشرت مجلة الدكتور عدد نوفمبر 1947 كلمة للدكتور سالم محمد بعنوان «صحتك من أدب القرآن» تقتطف منها ما يلي:

أورد المقال آيتي البقرة والمائدة الخاصتين بتحريم بعض الأطعمة، ثم أخذ يشرحهما ويبين الحكمة في التحريم من الناحية الصحية إلى أن قال:

«ولكن أغرب ما في هاتين الآيتين هو تحريم لحم الخنزير بالذات فنص عليه ذبح أو لم يذبح، والله حكمة في ذلك كشف عنها الطب الحديث.

ثم أشار إلى أن أكل لحم الخنزير يصاب بالدودة الشريطية المسماة (تيتا السوليم) وهي تعيش في أمعائه الدقاق، ويبلغ طولها متران إلى ثلاثة، وهذه الدودة لا تنمو ولا تتكامل إلا بين الإنسان والخنزير، ولا تصيب بعدواها سواهما.

ذلك أن الإنسان المصاب بها يكون برازه مثلوثاً ببيضها فيأتي الخنزير وهو ولوع بأكل الأقذار فيتناول البراز فيفقس البيض في جوفه ويتحول إلى علقة تسمى بالدودة الكيسية وهي تعيش في عضلات الخنزير وأعضائه، فيأتي الإنسان فيأكل لحم الخنزير، وهذه الديدان فيه فتتحول في جوفه - إن لم تكن قد قتلت أثناء الطبخ - إلى الدودة الشريطية التي تبيض بدورها وهكذا».

كما أن لحم الخنزير يحتوي على كمية كبيرة من الدهن بين جميع اللحوم، ومن المعروف طيباً أن اللحوم المختلفة التي يأكلها الإنسان تتوقف سهولة هضمها في المعدة على كميات الدهن الذي تحويه، وعلى نوع هذه الدهون، فكلما زادت كميات الدهون كان اللحم أصعب في الهضم.

(1) الوعي الإسلامي، مقال بقلم د. أحمد شوقي الفنجري، عدد 139، سنة 1976 م.

هذا بعض ما كشفه الطب الحديث من الأمراض التي تصيب أكل لحم هذا الحيوان .

ويقول قوم : إن وسائل الطهو الحديثة قد تقدمت فلم تعد هذه الديدان وبويضاتها مصدر خطر ، لأن إبادتها مضمونة بالحرارة العالية التي توفرها وسائل الطهو الحديثة . وينسى هؤلاء الناس أن علمهم قد احتاج إلى قرون طويلة ليكشف آفة واحدة ، فمن ذا الذي يجزم بأن ليس هناك آفات أخرى في لحم الخنزير لم يكشف عنها بعد ؟ .

أفلا تستحق الشريعة التي سبقت العلم البشري بعشرات القرون أن نتق بها ونندع كلمة الفصل لها ، ونحرم ما حرمت ونحلل ما حللت ، وهي من لدن حكيم خبير⁽¹⁾ .

وقد عللت آية الأنعام تحريم أكله بكونه رجساً حيث قال : ﴿ وأولهم خنزير فإنه رجس ﴾ وهو لفظ عام يطلق على كل ضار مستقبح حساً أو معنى ، فتعليل آية الأنعام يشمل الأمرين ، فهي من إيجاز القرآن الذي يشمل كل ما يصل الناس إلى معرفته وتفصيله باتساع دائرة علومهم وتجاربهم من أضرار ، ولولا العادة التي تسهل على كثير من الناس تناول السموم أكلاً وشرباً وتدخيناً ، ولولا ما يعالجون به لحم الخنزير لتخفيف ضرره لما أمكن الناس أن يأكلوه ولا سيما أهل البلاد الحارة⁽²⁾ .

الخمر وحكمة تحريمها علمياً

لقد وصف القرآن الخمر بأنها رجس من عمل الشيطان ، وبأنها تصدّ عن ذكر الله وعن الصلاة ، ولا يوجد إثم من الأثام يدخل ضرره في كل شيء كالخمر من الأفعال والكذب من الأقوال . فإلى جانب أضرارها الدينية والاجتماعية والإقتصادية ، وإذهابها للعقل لها أضرارها الصحية ، وهي كثيرة أثبتتها الطب

(1) في ظلال القرآن ، مجلد 1 ، ص 155 ، 156 .

(2) أنظر تفسير المنار ، 6 : 136 .

الحديث . فمنها إفساد المعدة وفقد الشهية للطعام ، ومرض الكبد والكلي وداء السل .

وقد قال الأطباء : إن المسكر لا يتحول إلى دم كما تتحول سائر الأغذية بعد الهضم بل يبقى على حاله فيزاحم الدم في مجاريه فتسرع حركة الدم وتختل موازنة الجسم وتتعطل وظائف الأعضاء أو تضعف وتخرج عن وضعها الطبيعي المعتدل .

ومن تأثير الخمر في اللسان : إضعاف حاسة الذوق ، وفي الحلق الإلتهاب ، وفي المعدة ترشيع العصارة الفاعلة في الهضم حتى يغلف نسيجها وتضعف حركتها . وقد يحدث فيها احتقاناً و التهاباً ، وتحدث في الأمعاء التقرح ، وفي الكبد تمديده وتوليد الشحم الذي يضعف عمله وكل هذا يتعلق بالجهاز الهضمي .

ومن تأثيرها في جهاز التنفس إضعاف مرونة الحنجرة وتهيج شعب التنفس ، وأهون من ذلك بحة الصوت والسعال ، وأعظمها تدرن الرئة .

وفي الجهاز العصبي تولد الجنون ، وفي التعامل مع الناس وقوع النزاع والخصام بين السكارى بعضهم مع بعض وبينهم وبين من يعاملهم أو يعاشرهم⁽¹⁾ .

كما تزيد الخمر من سرعة النبض وتسبب اتساع أوعية الدم السطحية ، وهذا يفسر سبب احمرار وجوه متعاطي الخمر ، فليس هذا الاحمرار علامة على الصحة ولا دليلاً على القوة ، إنما هو دم اتسعت أوعيته الخارجية فوضح ، في حين أن الأوعية الداخلية انقبضت . وأن الخمر فوق ذلك تسبب ارتفاعاً في ضغط الدم ، وبذلك تعرض مرتفعي الضغط للخطر .

أما تأثير الخمر في حرارة الجسم فقد ثبت طبيّاً أن كأساً من الخمر إلى ثلاثة كؤوس تسبب انخفاضاً في درجة حرارة الجسم بمقدار نصف درجة مستجراً تقريباً ، وذلك بسبب اتساع أوعية الدم السطحية ، وعلى ذلك تزيد في فقد الحرارة

(1) مصدر هذه المعلومات تفسير المنار ، 326:2 .

فينشأ عن ذلك فقد حرارة من الجسم أكثر⁽¹⁾.

يقول الدكتور محمد توفيق صدقي :

«يظن كثير من الناس أن استعمال الخمر في البلاد الباردة ضروري للحياة، وقد أثبت جميع أطباء العالم بلا خلاف بينهم نقيض هذه الدعوى وظهر لهم أن الخمر من أعظم ما يخفض الحرارة الجسمانية للأسباب :

أحدها : أنها تقلل الاحتراق الداخلي في الجسم المسمى بالتفاعل الحيوي .

ثانيها : أنها تمدد جميع أوعية الجلد وتكثر العرق، وبذلك يخرج كثير من حرارة الجسم .

ثالثها : أنها إذا تعوطيت بمقادير كبيرة انتهى الأمر بها إلى إضعاف جميع قوى الجسم، فيضعف القلب والدورة الدموية، ولذلك شوهد في البلاد الباردة كثير من الناس الذين قتلتهم الخمر .

نعم إن جزءاً منها يحترق في الجسم فيولد فيه حرارة، ولكنها لا تعّد شيئاً في جانب تبريدها الشديد للجسم، كما بينا .

أما الإحساس بالحرارة عقب تعاطيها فذلك ناشئ من ورود الدم بكثرة إلى الجلد لا للزيادة في الاحتراق فهو إحساس كاذب ضار بالجسم - اهـ -⁽²⁾ .

كما أثبت الطب الحديث أن الأشخاص الذين يتعاطون الخمر أكثر استعداداً للمرض وأقل مقاومة له من الذين لا يتعاطونها، وكذلك يكونون أقل تحملاً لأن تجري في أجسامهم العمليات الجراحية .

وقد يدعي بعض الناس أن الخمر قد تستعمل كدواء لبعض الأمراض، ولكن هذا الإدعاء لا أساس له من الصحة، وقد نقل عن كثير من أطباء العالم قولهم : إنها لا تصلح كدواء، فهذا طبيب انجليزي يصرح في قوة قائلاً : «أنا لا

(1) بين الطب والإسلام، ص 121 .

(2) دروس سنن الكائنات، ص 13، 14 .

أعلم مريضاً شفي من الخمر». ويقول طبيب آخر اسكتلندي: «الخمر لا تشفي شيئاً» ويقول طبيب ثالث: «إن الخمر تدخل الجسم وتخرج منه ولا أثر لها إلا ما تحدثه من أضرار»⁽¹⁾.

وهكذا تتوارد أقوال الأطباء في أنها لا تصلح أن تكون علاجاً لأي مرض ولقد روى مسلم في صحيحه أن طارق بن سويد الجعفي سأل النبي ﷺ عن الخمر فنهاه أو كره أن يصنعها فقال: إنما أصنعها للدواء فقال الرسول ﷺ: إنه ليس بدواء ولكنه داء⁽²⁾. وقد انتقد مؤتمر الأطباء الدولي سنة 1929 الخمر كدواء، وقرر أن انتشارها هدم لسعادة الأمم وتقويض لبناء الأخلاق⁽³⁾.

المحيض وحكمة النهي عن القرب

لقد بين الله تعالى في كتابه الكريم أسس الزواج، وتولى تلك العلاقة بالاعتناء والرعاية فوضح أهميتها ونأى بها عن أن تكون مجرد علاقة حيوانية لا رابط لها ولا هدف منها. ومن هنا نهى القرآن الرجل عن مباشرة زوجته أثناء العادة الشهرية كمثل صادق ملزم بتحديد الأوقات المناسبة للمباشرة التي يراعى فيها قبول المرأة، كما يراعى فيها شعور الرجل. وقد سئل رسول الله ﷺ عن المحيض في وقت لم يكن يعرف عنه إلا أنه إفراز داخلي، فنزل القرآن مقررًا أن المحيض أذى وأمر باعتزال النساء فيه وعدم قربهن.

ففي صحيح مسلم عن أنس أن اليهود كانوا إذا حاضت المرأة لم يؤاكلوها ولم يجامعوها⁽⁴⁾ في البيوت، فسأل أصحاب النبي ﷺ النبي، فأنزل الله تعالى: ﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْمَحِيضِ قُلْ هُوَ أَذًى فَاعْتَزِلُوا النِّسَاءَ فِي الْمَحِيضِ وَلَا تَقْرَبُوهُنَّ حَتَّىٰ

(1) هذه الآراء من تفسير الجواهر للشيخ طنطاوي جوهري، 1: 197.

(2) أخرجه مسلم في كتاب الأشرطة، باب تحريم التداوي بالخمر وبيان أنها ليست بدواء. انظر شرح النووي على صحيح مسلم، 13: 152.

(3) الغذاء والدواء في القرآن الكريم، د. جمال الدين مهران ود. عبد العظيم حفي صابر، ط المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية، 1972، ص 149.

(4) المعنى: لم يساکتوهم ولم يخالطوهم، وإما جمع (يجامعون) لأن المراد بالمرأة الجنس، فعبر أولاً بالإنفراد (يؤاكلوها) ثم بالجمع رعاية للفظ والمعنى، على طريق التفتين.

يظهرون فإذا تطهروا فأتوهم من حيث أمركم الله إن الله يحب التوابين ويحب المتطهرين»⁽¹⁾ فقال رسول الله ﷺ: «اصنعوا كل شيء إلا النكاح». فبلغ ذلك اليهود فقالوا: ما يريد هذا الرجل أن يدع من أمرنا شيئاً إلا خالفنا فيه. فجاء أسيد بن حضير وعباد بن بشر فقالا يا رسول الله: إن اليهود تقول كذا وكذا أفلا نجتمعهم؟ فتغير وجه رسول الله ﷺ حتى ظننا أن قد وجد⁽²⁾ عليهما فخرجنا فاستقبلهم هدية من لبن رسول الله ﷺ فأرسل في أثرهما فسقاها فاعرف أن لم يجد عليهما⁽³⁾.

قال العلماء: كانت اليهود المجوس تجتنب الحائض، وكانت النصراني يجامعون الحيض فأمر الله بالقصد بين هذين⁽⁴⁾.

وهذا النهي الوارد من الله تعالى لعباده لفتة إلى تلك العلاقة بين الرجل والمرأة تسمو بأهدافها عن لذة الجسد، لأن المباشرة المترتبة على تلك العلاقة وسيلة لا غاية، وسيلة لتحقيق هدف أسمى في طبيعة الحياة هدف النسل وامتداد الحياة على هذه الأرض، والمباشرة في الحيض قد تحقق اللذة الحيوانية مع ما ينشأ عنها من أذى وأضرار صحية، ولكنها لا تحقق الهدف الأسمى، ومن ثم جاء ذلك النهي إجابة عن ذلك السؤال⁽⁵⁾.

و(الأذى) لفظ عام صالح لأن يكون بمعنى إيذاء وضرر، وصالح لأن يكون بمعنى قذر تعافه النفس. والاتصال الجنسي أثناء الحيض فيه هذان التعان من الأذى لكل من المرأة والرجل.

ولم تظهر حكمة النهي بوضوح إلا بعد أن تقدمت علوم الصحة الوقائية. يقول الدكتور عبد العزيز إسماعيل: «إن إفرازات الجسم على نوعين: نوع له فائدة في الجسم كإفرازات الغدد الهاضمة والتناسل، وكافة الإفرازات الداخلية التي

(1) سورة البقرة، الآية 220.

(2) وجد من الموجلة وهي الغضب، أي غضب عليهما.

(3) أخرجه مسلم في كتاب الحيض، باب مباشرة الحائض، شرح النووي، 2: 211.

(4) الجامع لأحكام القرآن، 3: 81.

(5) في ظلال القرآن، مجلد 1 ص 241.

تنظم أجهزة الجسم وأنسجته . وهذا النوع من الإفراز ضروري للحياة وليس فيه ضرر إلا إذا انعدم إفرازه .

ونوع آخر ليس فيه فائدة بل بالعكس يجب إفرازه من الجسم إلى خارجه إذ أنه مواد سامة يجب أن يتخلص منها الجسم ، فإذا بقيت فيه أضرت به ضرراً بليغاً ، بل تكاد تؤدي به ومثل هذه الإفرازات البول والبراز والعرق وأهمها الحيض . وقد اقتضت حكمة الله تعالى أن يخرج من المرأة وإلا قتلها عن طريق التسمم ، أفليس هذا الحيض أذى⁽¹⁾ .

أما حكمة اعتزال النساء في الحيض فإن القرآن أول من نبه على ذلك .

ومحدثنا العلم الحديث فيقول : إن الأعضاء التناسلية للأنثى تكون أثناء الحيض في حال احتقان ، وأعصابها في حالة اضطراب بسبب إفرازات الغدد الداخلية ، ويصحب ذلك أعراض مرضية معينة كالصداع وآلام في الظهر وهبوط في الجسم . وقد تزيد هذه الأعراض فتصبح شديدة شدة الأمراض .

فالإختلاط الجنسي في هذه الفترة يضر المرأة أكبر ضرر ، فربما منع نزول الحيض ، وما يترتب على ذلك معروف ، وقد يحدث اضطراباً عصبياً يطول علاجه . ولا بد أن يسبب الإختلاط التهاباً في الأعضاء التناسلية قد يصعب علاجه . فحالة الأنثى وقت الحيض حالة مرضية غير عادية ، ولذا فإن الطبيب يصعب عليه الكشف على الأنثى وقت الحيض .

«وهناك ضرر بالغ للرجل ، فقد يكون بالرجل حالة من المرض الذي لا يلاحظه كالتهاب أو خدش أو جروح ، فإذا ما تلوث بإفراز الحيض كانت الكارثة . وقد يحدث عقماً في الذكر والأنثى . ولذلك نجد أطباء العالم ينصحون بعدم الإتصال في ذلك الوقت ، كما نهى القرآن عنه ، فإنه لا شك أذى للرجل والمرأة»⁽²⁾ .

(1) الإسلام والطب الحديث ، ص 39 .

(2) دروس سنن الكائنات ، ص 57 .

كما يقرر علم الصحة ضرورة اغتسال المرأة بعد الحيض بعد أن قررت ذلك الآية بعشرات المثات من السنين، وذلك لإزالة ما خالط جسمها من الإفرازات والأوساخ والميكروبات، هذا من الناحية الطبية.

«وهناك ناحية نفسية أفصح عنها التقدم العلمي وهي ضرورة الإغتسال لتبدو المرأة بعد الحيض في زينة ونظافة تبعث الرضا والسرور في نفس زوجها، وتزيل عنه ما يكون قد لاحظته من وعكتها وسوء حالها»⁽²⁾.

(1) القرآن والعلم الحديث، عبد الرزاق نوفل، ص 145.

الفصل الثالث

الطريقَةُ الْمُشْلَى

فِي الْإِسْتِفَادَةِ مِنْ مُقَرَّرَاتِ الْعِلْمِ
فِي تَوْسِيعِ مَدَلُولِ النَّصِّ الْقُرْآنِيِّ



الفصل الثالث

الطريقة المثلى في الاستفادة من مقررات العلم في توسيع مدلول النص القرآني

بعد المعاشة لهذا الموضوع والتعرف على جوانبه وأطرافه أستطيع القول بأن الطريقة المثلى للاستفادة من العلم في إيضاح حقائق القرآن تكون بالإلتزام بالأمور التالية، حتى يكون المنهج سليماً والفهم صحيحاً والاستفادة من نور العلم معينة على فهم القرآن:

1 - التمسك بالنص القرآني ومدلول اللغة له دون تجاوزه إلى مفاهيم هي في الواقع غريبة عنه دخيلة عليه، وذلك حتى لا نخرج به عن الهدف الذي نزل من أجله، وحتى لا نجعل منه نقطة انطلاق لسرد قضايا علمية بحثة تؤدي إلى ألوان متشعبة من الحديث، أو تصورات خيالية تبتعد به عن سر الفكرة الرئيسية فيه والمغزى العام له. ولكن ذلك لا ينافي أن تذكر بعض الحقائق التي تزيد النص القرآني إيضاحاً.

3 - توافق المعنى المراد إثباته مع الآيات الأخرى الواردة في نفس الموضوع.

4 - ملاحظة سياق الآية أو الآيات بحيث لا تقطع الآية عن سابقها ولاحقها من الآيات وتفسر وحدها.

فلا يجوز حمل الآية أو الآيات على معنى لا ينسجم مع السياق القرآني لتلك الآية أو الآيات «فإن القرآن مرتب ترتيباً منظوراً فيه إلى تسلسل المعاني وتناسب

أجزاء الكلام بعضها مع بعض، وهو يرجع إلى ركن من أركان مطابقة الكلام لمقتضى الحال⁽¹⁾.

5 - عند التطبيق وفق هذه المبادئ تذكر الحقائق التي توصل إليها العلم من باب التنبيه على مواطن الهداية القرآنية، لا على أن معناها قاصر على هذا الفهم فقط، مع البعد عن الطريقة التي تستخرج المسائل وتستنبط القضايا العلمية من العبارات التي لا تدل عليها، ولا تقصد للدلالة عليها، إلا على أبعد الإحتمالات التعسفية.

وعلى ذلك فإذا فرنا بعض تلك الآيات المتعلقة بالكون حسبما تفيدته ألفاظها محاولين - في الوقت نفسه - زيادة البسط في معناها بالتأمل فيما أثبتته العلم، فإن ذلك يكون راجعاً إلى المقصد وهو مزيد تقرير عظمة القدرة الإلهية.

6 - النظر في تفسير الآيات الكونية يجب أن يتجه أولاً إلى تبين هداية القرآن تبيناً علمياً، لا على أساس أن تجعل النظريات العلمية هي تفسير الآيات القرآنية ومعانيها التي قصدها القرآن.

ولكن على أساس أن القرآن الكريم لا يصادم علماً ثبت بالبرهان القطعي ثبوتاً لا يحتمل الشك. وهذا يتطلب بالحاح من علماء الإسلام أن يتسلحوا بالعلم والمعرفة بأوسع معانيها بقدر ما تتسع له الطاقة البشرية، والمتمكنون في العلم من المؤمنين تزيدهم النظريات العلمية في حقائق الكون وظواهر الطبيعة إيماناً بجلال الله وعظمة الخلاق العليم.

وهذه أمثلة من الاستفادة بما أثبتته العلم في إيضاح حقائق القرآن الكريم.

إن القرآن الكريم يعرض على الإنسان صور هذا الكون عرضاً صحيحاً لا غبار عليه ولا يقرر إلا الواقع الذي لا يتصل بالخيال ولا يناقض العلم الصحيح أيضاً، وهذا العرض حكمته الأولى توجيه القلوب إلى خالقها، ولهذا أمر بالتفكير في المصنوعات الربانية، وشيء آخر هو الإنتفاع بما خلق الله وسخر للإنسان من

(1) انظر التفسير ورجاله، للشيخ محمد الفاضل بن عاشور، ص 10.

مخلوقات تفيده في قطع مراحل حياته، فيعيش عيشاً رغداً متمتعاً بشمار هذا الكون. يقول الله تعالى: ﴿وَفِي الْأَرْضِ آيَاتٌ لِلْمُوقِنِينَ وَفِي أَنْفُسِكُمْ أَفَلَا تُبْصِرُونَ﴾⁽¹⁾.

إن القرآن الكريم قد ساق الأدلة الكثيرة التي تثبت وجود الله تعالى، وترينا آثار رحمته بنا وتدبيره في الكائنات. وقد أكثر من الآيات الكونية القرآنية ومساقتها في أساليب مختلفة وألوان شتى من البيان، يفصل تارة ويجمع أخرى، ولكل مقام مقال.

وفي هذه الآية ينص القرآن بالذكر الأرض التي نعيش فوقها والنفس التي تعبر عن الذات.

الأرض هذا الكوكب المعد للحياة المجهز لاستقبالها وحضانتها بكل خصائصه، ولو اختلت خصيصة واحدة من تلك الخصائص الكثيرة جداً لتعذر وجود هذا النوع من الحياة عليها. لو تغير حجمها صغراً أو كبيراً، لو تغير ميل الأرض عن محورها هنا أو هنا، لو تغيرت حركتها حول نفسها أو حول الشمس سرعة أو ببطء، لو تغير حجم القمر أو بعده عنها. لو تغيرت نسبة الماء واليابس فيها زيادة أو نقصاً، لو لو الخ الموافقات المعروفة والمجهولة التي تتحكم في صلاحيتها لاستقبال هذا النوع من الحياة⁽²⁾. والتي لا يمكن أن تتم مصادفة وأن تتناسق كلها هذا التناسق. لو تغير شيء من هذا أدنى أدنى تغير لما كانت الأرض صالحة للحياة.

يقول (فرانك ألن) العالم الطبيعي⁽³⁾ في مقال نشأة العالم هل هو مصادفة أو فصد من كتاب (الله يتجلى في عصر العلم) عندما يتحدث عن الأرض وعن نشأة الحياة فيها، يقول:

(1) سورة الذاريات، الآيتان 20، 21.

(2) في ظلال القرآن، جزء 27 ص 3378.

(3) عالم الطبيعة البيولوجية وأستاذ الطبيعة الحيوية بجامعة مانيتوبا بكندا من سنة 1904 إلى سنة 1944. أخصائي في أبصار الألوان والبصريات الفسيولوجية وإنتاج الهواء السائل، وحائز على وسام توري الذهبي للجمعية الملكية بكندا. من كتاب (الله يتجلى في عصر العلم) ط 3، 1968، ص 5.

«إن ملاءمة الأرض للحياة تتخذ صوراً عديدة لا يمكن تفسيرها على أساس المصادفات أو العشوائية، فالأرض كرة معلقة في الفضاء تدور حول نفسها فيكون في ذلك تتابع الليل والنهار، وهي تسبح حول الشمس مرة في كل عام، فيكون في ذلك تتابع الفصول الذي يؤدي بدوره إلى زيادة المساحة للجزء الصالح للسكنى من سطح كوكبنا، ويزيد من اختلاف الأنواع النباتية أكثر مما لو كانت ساكنة.

ومحيط بالأرض غلاف غازي يشتمل على الغازات اللازمة للحياة ويمتد حولها إلى ارتفاع كبير (يزيد على 500 ميل). ويبلغ هذا الغلاف الغازي من الكثافة درجة تحول دون وصول ملايين الشهب القاتلة يومياً إلينا منقضة بسرعة ثلاثين ميلاً في الثانية، والغلاف الجوي المحيط بالأرض يحفظ درجة حرارتها في الحدود المناسبة للحياة ويحمل بخار الماء من المحيطات إلى مسافات بعيدة داخل القارات حيث يمكن أن يتكاثف مطراً يحيي الأرض بعد موتها. والمطر مصدر الماء العذب، ولولاه لأصبحت الأرض صحراء جرداء خالية من كل أثر للحياة. ومن هنا نرى أن الجو والمحيطات الموجودة على سطح الأرض تمثل عجلة التوازن في الطبيعة، ولو أن الأرض كانت صغيرة كالقمر أو أن قطرها كان ربع قطرها الحالي لعجزت عن احتفاظها بالغلافين: الجوي والمائي اللذين يحيطان بها، ولصارت درجة الحرارة فيها بالغة حد الموت.

أما لو كان قطرها ضعف قطرها الحالي لتضاعفت مساحة سطحها أربعة أضعاف، وأصبحت جاذبيتها للأجسام ضعف ما هي عليه، وانخفض تبعاً لذلك ارتفاع غلافها الهوائي، وزاد الضغط الجوي من كيلوجرام واحد إلى كيلوجرامين على السنتيمتر المربع. ويؤثر كل ذلك أبلغ الأثر في الحياة على سطح الأرض، فتتسع مساحة المناطق الباردة اتساعاً كبيراً، وتنقص مساحة الأراضي الصالحة للسكنى نقصاً ذريعاً.

ولو كانت الأرض في حجم الشمس مع احتفاظها بكثافتها لتضاعفت جاذبيتها للأجسام التي عليها (150 ضعفاً، ولنقص ارتفاع الغلاف الجوي إلى أربعة أميال ولأصبح تبخر الماء مستحيلًا ولا ترتفع الضغط الجوي إلى ما يزيد على

(150) كيلوجراماً على الستيمتر المربع ولوصل وزن الحيوان الذي يزن حالياً رطلاً واحداً إلى 150 رطلاً، ولتضاءل جسم الإنسان حتى صار في حجم ابن عرس، ولتعذرت الحياة الفكرية لمثل هذه المخلوقات.

ولو أزيحت الأرض إلى ضعف بعدها الحالي عن الشمس لنقصت كمية الحرارة التي تتلقاها من الشمس إلى ربع كميتها الحالية وقطعت الأرض دورتها حول الشمس في وقت أطول، وتضاعف تبعاً لذلك طول فصل الشتاء وتجمدت الكائنات الحية على سطح الأرض.

ولو نقصت المسافة بين الأرض والشمس إلى نصف ما هي عليه الآن لبلغت الحرارة التي تتلقاها الأرض أربعة أمثال، وتضاعف سرعتها المدارية حول الشمس ولآلت الفصول إلى نصف طولها الحالي إذا كانت هناك فصول مطلقاً ولصارت الحياة على سطح الأرض غير ممكنة.

وعلى ذلك فإن الأرض بحجمها وبعدها الحاليين عن الشمس وسرعتها في مدارها يهيء للإنسان أسباب الحياة والإستمتاع بها في صورها المادية والفكرية والروحية على النحو الذي نشاهده اليوم في حياتنا - اهـ -⁽¹⁾.

هذا ما قاله العلم.

وصدق الله في قوله: ﴿وخلق كل شيء فقدره تقديراً﴾⁽²⁾ فقدر حجمه وشكله، وقدر وظيفته وعمله، وقدر زمانه ومكانه، وقدر تناسقه مع غيره من أفراد هذا الوجود الكبير. وإن تركيب هذا الكون وتركيب كل شيء فيه مما يدعو إلى الدهشة حقاً وينفي فكرة المصادفة نفيّاً باتاً ويظهر التقدير الدقيق الذي يعجز البشر عن تتبع مظاهره في جانب واحد من جوانب هذا الكون الكبير. وكلما تقدم العلم البشري فكشف عن بعض جوانب التناسق العجيب في قوانين الكون ونسبه ومفرداته اتسع تصور البشر لمعنى ذلك النص القرآني ﴿وخلق كل شيء فقدره تقديراً﴾.

(1) الله يتجلى في عصر العلم، ط 3، 1968، مؤسسة الحلبي، ص 6 - 9.

(2) سورة الفرقان، الآية 2.

«وربما كان المخاطبون إذ ذاك غير مدركين كل هذه العجائب المتعلقة بالأرض ولكنهم كانوا يرون أن الأرض التي خلقها الله لتكون مستقراً ومستودعاً لهم صالحة للحياة على وجه الإجمال، وهذا يكفي. ثم يبقى النص القرآني بعد ذلك مفتوحاً للأجيال، وكلما اتسع نطاق علم البشر أدركوا شيئاً من معناه المتجدد على توالي الأجيال. وتلك معجزة القرآن في خطابه لجميع العقول على توالي الأزمان⁽¹⁾. ﴿وفي أنفسكم أفلا تبصرون﴾؟!».

لقد أطلال القرآن الحديث عن الإنسان في أصل وجوده وفي تطور خلقه في بطن أمه وفي خصائصه وتميزه عن سائر المخلوقات بالإجمال تارة وبالتفصيل تارة أخرى. وما جاء في القرآن من الإحتجاج على وجود الله وقدرته وتدبيره وحكمته لخلق الإنسان، هذه الآية التي قرنت بين الأرض وبين النفس الإنسانية.

قال الزمخشري في تفسير هذه الآية: «وفي أنفسكم في حال ابتدائها وتنقلها من حال إلى حال وفي بواطنها وظواهرها من عجائب الفطر وبدائع الخلق ما تتحير فيه الأذهان وحسبك بالقلوب وما ركز فيها من العقول. وبالألسن والنطق ومخارج الحروف وما في تركيبها وترتيبها ولطائفها من الآيات الساطعة والبيانات القاطعة على حكمة مدبرها وصانعها. دع الأسعاع والأبصار والأطراف وسائر الجوارح وتأنيها لما خلقت له، وما سوى في الأعضاء من المفاصل للإنعطاف والتثني فإنه إذا جسا⁽²⁾ منها شيء جاء العجز، وإن استرخى أناس الذل، فتبارك الله أحسن الخالقين - اهـ-⁽³⁾».

وقال فخر الدين الرازي: «سبحان من أسمع بعظم وبصر بشحم وأنطق بلحم، واعلم أن كتاب التشريح لبدن الإنسان مشهور، وكل ذلك يدل على تربية الله تعالى للعبد - اهـ-⁽⁴⁾».

(1) في ظلال القرآن حـ 2657:20.

(2) يد جاسية: يابسة العظام قليلة اللحم، وجسيت اليد وغيرها: يبست. لسان العرب 147:14.

(3) الكشف للزمخشري 354:2.

(4) مفاتيح الغيب، 125:1.

أما بواطن عجائب الإنسان فتعرف فيما وصل إليه الطب الحديث من دقائق الخلق في كل عضو من أعضائه بل في كل خلية من خلاياه، ويعرف كثير من الناس اليوم كيف تفرعت علوم الطب والنفس إلى عشرات من الفروع لتبحث في تحليل وظائف الأعضاء وما يعترها من الأمراض وما هي في حاجة إليه من العلاج للشفاء.

إن الإنسان عجيب في تكوينه الجسماني، وحيثما وقف الإنسان يتأمل عجائب نفسه التقى بأسرار تدهش وتحير، تكوين أعضائه وتوزيعها، وظائفها وطريقة أدائها لهذه الوظائف عملية الهضم العجيبة والإمتصاص. عملية التنفس والإحتراق دورة الدم في القلب والعروق. الجهاز العصبي وتركيبه وإدارته للجسم الغدد وإفرازها وعلاقتها بنمو الجسم ونشاطه وانتظامه، تناسق هذه الأجهزة كلها وتعاونها وتجاوبها الكامل الدقيق.

وكل عجيبة من هذه تنطوي تحتها عجائب، وفي كل عضو وكل جزء من عضو خارقة تحير الألباب.

وللعلم الحديث محاولات في معرفة شيء عن نعمتي السمع والبصر، نذكر منها ما يلي: تبدأ حاسة السمع بالأذن الخارجية ولا يعلم إلا الله تعالى أين تنتهي، ويقول العلم: إن الإهتزاز الذي يحدثه الصوت في الهواء ينقل إلى الأذن التي تنظم دخوله ليقع على طبلة الأذن، وهذه تنقلها إلى التيه داخل الأذن. والتيه يشتمل على نوع من الأتنية بين لولبية ونصف مستديرة. وفي القسم اللولبي وحده أربعة آلاف قوس صغيرة متصلة بعصب السمع في الرأس. فما طول القوس منها وحجمه؟ وكيف ركبت هذه الأقواس التي تبلغ عدة آلاف؟ وما الحيز الذي وضعت فيه؟ ناهيك عن العظام الأخرى الدقيقة المتهاوجة. هذا كله في التيه الذي لا يكاد يرى.

وفي الأذن مائة ألف خلية سمعية وتنتهي الأعصاب بأهداب دقيقة دقة وعظمة تحير الألباب. ومركز حاسة الإبصار العين التي تحتوي على مائة وثلاثين مليوناً من مستقبلات الضوء، وهي أطراف أعصاب الإبصار. وتتكون العين من الصلبة والقرنية والمشيمة والشبكية، وذلك بخلاف العدد الهائل من الأعصاب

والأوعية . وتتكون الشبكية من تسع طبقات منفصلة ، والطبقة التي في أقصى الداخل تتكون من أعواد ومخروطات ، وقد نظمت كلها في تناسب محكم .

ويقوم بحمايتها الجفن ذو الأهداب الذي يقيها ليلاً ونهاراً والذي تعتبر حركته حركة لا إرادية ، والذي يمنع عنها الأتربة والذرات والأجسام الغريبة ، كما يكسر من حدة الشمس بما تلقي الأهداب على العين من ظلال .

وحركة الجفن علاوة على هذه الوقاية تمنع جفاف العين . أما السائل المحيط بالعين والذي يعرف باسم الدموع فهو أقوى مطهر ، كما أنه يجعل حركة العين سهلة ميسورة وبدونه تصاب العين بما يمنعها عن الإبصار والحركة .

ويكفي أن تعلم أن صورة الشيء المنظور تطبع معكوسة على الشبكية ، وينقل العصب البصري هذه الصورة المعكوسة الشكل إلى المخ فيعيد لها المخ إلى العين وقد عكسها مرة أخرى أي عدلها ، فيراها الناظر معدولة وغير معكوسة⁽¹⁾ .

ويقول كريسي موريسون⁽²⁾ عن عملية الهضم والجهاز الهضمي :

إذا نظرنا إلى الهضم على أنه عملية في معمل كيميائي أدركنا أنه عملية عجيبة حقاً ، إذ تهضم كل شيء يؤكل ما عدا المعدة نفسها .

فنحن نأكل شرائح اللحم والخبر والخضر والبقول وغيرها ثم نشرب الماء وغيره فتختار المعدة من بين هذا الخليط الأشياء ذات الفائدة وذلك بتحطيم كل صنف من الطعام إلى أجزائه الكيميائية دون مراعاة للفضلات ، وتعيد تكوين الباقي إلى بروتينات جديدة تصبح غذاء لمختلف الخلايا . وتختار أداة الهضم الجير والكبريت واليود والحديد وكل المواد الأخرى الضرورية ، وتعنى بعدم ضياع الأجزاء الجوهريّة ، وبإمكان إنتاج الهرمونات وبأن تكون جميع الحاجات الحيوية للحياة حاضرة في مقادير منتظمة ومستعدة لمواجهة كل ضرورة وهي تخزن الدهن

(1) الله والعلم الحديث ، عبد الرزاق نوفل ، ط الشعب ، 1971 م ، ص 49 ، 50 .

(2) كريسي موريسون : هو الرئيس الأسبق لأكاديمية العلوم بنيويورك ورئيس المعهد الأمريكي بالمدينة ، وعضو المجلس التنفيذي لمجلس البحوث القومي بالولايات المتحدة ، وزميل في المتحف الأمريكي للتاريخ الطبيعي . أنظر كتابه العلم يدعو للإيمان ص 5 .

والمواد الإحتياطية الأخرى للقاء كل حالة طارئة مثل الجوع ، وتفعل ذلك كله بالرغم من تفكير الإنسان أو تعليله .

وحين تتحلل هذه الأطعمة وتجهز من جديد تقدم باستمرار إلى كل خلية من ملايين الخلايا . ويجب أن يكون التوريد إلى كل خلية فردية مستمراً وألا يورد سوى تلك المواد التي تحتاج إليها تلك الخلية المعينة لتحويلها إلى عظام وأظافر ودم ولحم وشعر وعينين وأسنان ، كما تتلقاها الخلية المختصة .

فها هنا معمل كيميائي ينتج من المواد أكثر مما ينتجه أي معمل ابتكره ذكاء الإنسان ، وها هنا نظام للتوريد أعظم من أي نظام للنقل والتوزيع عرفه العالم ويتم فيه كل شيء بمنتهى النظام .

وفي حالة العدوى بجراثيم معادية يحتفظ الجسم بجيش قائم على قدم الإستعداد باستمرار ليلالقي الغزاة ، وهو يتغلب عليها عادة .

ومثل هذه المجموعة من المعجزات لا يوجد ولا يمكن أن يحدث بأي حال في غيبة الحياة ، وكل ذلك يتم في نظام كامل «أليس ذلك كله من صنع الخالق»؟! (1) .

لقد منح الله الإنسان القدرة على فهم أسرار الكون ولكن ذلك شغله عن الوصول إلى معرفة أسرار ذاته ، تلك النفس التي وضعها القرآن الكريم في كفة مع الكون كله بما فيه من عوالم «منبرهم آياتنا في الآفاق وفي أنفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق» (2) .

وإذا نجح الإنسان في اكتشاف الكون من حوله فإنه عاجز عن اكتشاف النفس بما فيها من أبعاد وبما لها من قوى دافعة واتجاهات في دروب الحياة المختلفة ، وفي الإحتجاج بأصل خلق الإنسان يقرر القرآن هذه الحقيقة ليتخذها مجالاً للتدبر في صنع الله ولتأمل النقلة البعيدة بين الطين وهذا الإنسان . لقد نشأ الجنس

(1) العلم يدعو للإيمان ، ترجمة عمود صالح الفلكي ، ط 6 ، 1971 م ، مكتبة النهضة المصرية ، ص 153 ، 154 .

(2) سورة فصلت ، الآية 52 .

الإنساني من سلالة من طين ﴿وبدأ خلق الإنسان من طين﴾⁽¹⁾، فأما نشأة الفرد الإنساني بعد ذلك فتمضي في طريق آخر ﴿ثم جعل نسله من سلالة من ماء مهين﴾⁽²⁾.

وهنا يقف الإنسان مدهوشاً أمام ما كشف عنه القرآن من حقيقة في تكوين الجنين لم تعرف على وجه الدقة إلا بعد تقدم علم الأجنة فبارك الله أحسن الخالقين.

وكما استدل القرآن بالإنسان من حيث نشأته وتكوينه وبالأرض على وحدانيته سبحانه وقدرته على البعث وإبداعه في الخلق. استدل بالسموات وقرنها في كثير من الآيات بالأرض في مثل قوله تعالى: ﴿إن في السموات والأرض لآيات للمؤمنين﴾⁽³⁾ وقوله تعالى: ﴿قل انظروا ماذا في السموات والأرض﴾⁽⁴⁾. وآيات السماء كثيرة ومتنوعة بعضها تدرك بأدنى تأمل وبعضها يدركه المتخصصون من أولي العلم في هذا الشأن.

ففي كيفية بنائها آية، وفي رفعها بلا عمد مرثية لنا آية، وفي تزيين الكواكب لها آية، وفي عدم تصادم هذه الكواكب بعضها مع بعض آية، وفي جعلها سقفاً محفوظاً من الوقوع آية، ﴿وجعلنا السماء سقفاً محفوظاً وهم عن آياتها معرضون﴾⁽⁵⁾.

ولا شك أن الذي يعرف شيئاً عن طبيعة هذه الكواكب ونظامها - كما كشف العلم الحديث عن جوانب منها - تدركه الدهشة والذهول.

«يقول الفيلسوف الأغريقي (انكساغوراس): لو نظر الإنسان إلى سير الكواكب في أفلاكها ورأى إلى أي حد هي تامة الإحكام دقيقة التنظيم بحيث لا

(1) سورة السجدة، الآية 6.

(2) سورة السجدة، الآية 7.

(3) سورة الباقية، الآية 2.

(4) سورة يونس، الآية 101.

(5) سورة الأنبياء، الآية 32.

يدخل كوكب في فلك ولا يغادره قبل موعده المحدد له أو بعده بدقيقة واحدة بل
بثانية، ولو فعل لاصطدمت الكواكب وهوى العالم كله في مكان سحيق. وإذن
فهذا التدبير الذي انتهى إلى حد الكمال هو أقطع دليل وأنصح برهانه على وجود
العقل العام المدبر⁽¹⁾.

وصدق الله العظيم في قوله: ﴿ما ترى في خلق الرحمن من تفاوت فارجع
البصر هل ترى من فطور. ثم ارجع البصر كرتين ينقلب اليك البصر خاسئاً وهو
حسير﴾⁽²⁾.

كما تعرض القرآن لبعض خواص النبات ولفت نظر الإنسان إلى بعض
تصاريف القدرة الإلهية في عالم النبات الذي لا يمكن أن يصدر إلا عن قدرة واسعة
وعلم تام وحكمة بالغة.

فقد أمر الله الإنسان أن ينظر إلى طعامه والمراحل التي يمر بها حتى يصل إليه
فقال: ﴿فلينظر الإنسان إلى طعامه أنا صببنا الماء صباً ثم شققنا الأرض شقاً فأنبتنا
فيها حباً وعنباً وقضباً وزيتوناً ونخلاً وحدائق غلبا وفاكهة وأباً متاعاً لكم
ولأنعامكم﴾⁽³⁾.

إن الله تعالى صب الماء من السماء صباً، ثم شق الأرض بجذر النبات شقاً،
ومع أن باطن الأرض قد يكون صلباً لا تنفذ فيه الأشياء القوية فضلاً عن الضعيفة
لكن جذور الشجر والنبات - مع أنها في غاية الدقة واللطافة - تأخذ طريقها فيه
وتغوص لتأخذ ما تحتاج إليه من غذاء فيصير النبات أشكالاً مختلفة وألواناً متعددة
بعضه صالح لطعام الإنسان، وبعضه صالح لطعام الحيوان ﴿متاعاً لكم
ولأنعامكم﴾.

إن خروج النبات من الأرض كان ينظر إليه الناس على أنه أمر عادي
وطبيعي، حتى كشف العلم عن بعض خصائص الخلايا التي تحتويها كل بذرة من

(1) المعرفة عند مفكري المسلمين، محمد غلاب، ص 129.

(2) سورة الملك، الآيتان 3، 4.

(3) سورة عبس، الآيات 24-32.

البذور مهما دقت. ولكن العلم وقف عاجزاً أمام القوة الكامنة التي تجعل الخلايا الحية في البذور تقوم بتلك الوظائف المعقدة من إنبات جذور النبات وسوقه، وما يتبع ذلك من فروع وأوراق وثمار.

لقد نجح العلم في اكتشاف ما يسمى بالتمثيل الكلوروفلي، وبأن الجذر يمتص ما يحتاج إليه من غذاء من تربة الأرض.

ولكن لماذا تمتص بذرة الحنظل مثلاً العناصر الشديدة المرارة وتمتص بذرة البطيخ - رغم التشابه الكبير بينهما - العناصر الحلوة.

لم ينجح واحد من العلماء في ذكر سبب علمي معقول حتى قال العالم الألماني (تشارلز أرتست) (وكيل الأكاديمية العلمية في انديانا):

«إن كل خلية حية من الخلايا الموجودة في البذور أو في النباتات بلغت من التعقيد درجة من المستحيل على العقل البشري حل طلاسمها. وأنا لا أملك إلا القول أن ذلك يرجع إلى قدرة هائلة في تكوينها، وهي قدرة خالقت هذا الكون». وقال عالم آخر وهو (جون زمرمان) - ويعمل أستاذاً للزراعة في كلية (جوشن).

«إننا نخدع أنفسنا إذا اعتقدنا أن النظريات العلمية التي لدينا تكفي لإنبات البذور وإنباء النبات، نحن نقول أن الماء والهواء والمواد الكيميائية التي تمتصها الجذور من الأرض هي التي تنبت النباتات، ولكن ذلك كله هراء، إذا لم نؤمن بوجود قوة قادرة هي التي توجه التفاعلات الكثيرة المتشابكة التي تعمل في توافق عجيب. والدليل القاطع لي ذلك أننا على الرغم مما ندعيه من تقدم العلوم لا يمكننا صنع أي بذرة من البذور مهما بلغ صغر شأنها»⁽¹⁾.

وبهذه الطريقة ويتبع الآيات الكونية القرآنية التي تتعلق بالإنسان أو الحيوان أو السموات والأرض وغيرها، بهذا الأسلوب الذي يعتمد على التحليل العلمي المبين للخصائص والمميزات واستخلاص الدلائل من كل ذلك على وجود الله وقدرته وإبداعه، هذه الطريقة هي الطريقة المثلى للاستفادة من مقررات العلم

(1) القرآن والقصة الحديثة، محمد كامل حسين، ط دار البحوث العلمية الأولى، 1970م، ص 73.

وحقائقه في تعميق نصوص القرآن الكريم دون ربطه بالعلم في فروضه ونظرياته .
ويكفي هذا القدر من الأمثلة ، فقد أردنا به إيضاح المنهج الصحيح في
الإنفتاح بحقائق العلم ونظرياته في توسيع مدلول النصوص القرآنية وتعميقها دون
تعليقها بنظرية خاصة أو بحقيقة علمية خاصة تعليق تطابق وتصديق ، وفرق بين
هذا وذاك .

الخاتمة

وبعد، فهذه حياة التفسير العلمي . وتلك مناهج أصحابه قديماً وحديثاً، حاولت أن أدل القارئ على سير حياتها وأن أضع في طريقه إلى دراستها صورة هادية لمزيد من الدراسة والبحث.

وقد استطاع البحث بعد استعراض هذا الموضوع ومعايشته ودراسته الوصول إلى المبادئ العامة التي توضح معالمه، وهي كالآتي:

1- إن التفسير العلمي هو التفسير الذي يحاول فيه المفسر تطبيق ما قال به العلم على ما جاء في القرآن الكريم، بهدف إثبات وجه من وجوه الإعجاز للقرآن الكريم، وبالتالي إثبات أنه من عند الله . أو بهدف إثبات أنه لا تناقض بين الدين والعلم.

2- إن التفسير العلمي ما هو إلا فهم للآية أو الآيات بوجه من وجوه الدلالة على ضوء ما أثبتته العلم . وليس معنى هذا أن النص القرآني لا يفهم إلا على هذا الوجه من الوجوه، وعلى ذلك فإذا ظهر خطأ ما قال به العلم ظهر فهم الآية على ذلك الوجه لا خطأ الآية نفسها . كما يفهم حكم من آية ما ثم يتبين خطأ فهمه بظهور دليل على هذا الخطأ.

3- إن القرآن أنزل من عند الله تعالى ليكون هداية للناس يدعوهم إلى الإيمان بالله ويحثهم على العمل الصالح الذي فيه سعادتهم في الدنيا والآخرة،

وأسلوب الهداية يقتضي ذكر الأدلة والإستشهاد في مواطن حاجتها من العبرة والعظة، ولا يعنى بالترتيب الزمني.

لذلك جاءت الإشارات القرآنية الى المظاهر الكونية مبثوثة في تضاعيف آية مذكورة في مختلف سورة تحض الإنسان على النظر والتأمل في حكمة الإبداع وجمال التنظيم وكمال القدرة الإلهية في الخلق والتكوين. ولم يعن القرآن بذكر هذه الأمور على أسلوب الكتب العلمية من تأصيل الأصول وتفريع الفروع وترتيب المقدمات وذكر النتائج بتحديد الأزمنة وتعيين الأمكنة وبيان كيفية الخلق والإيجاد.

لم يفعل ذلك، لأن تحديد هذه الأمور في كتاب هداية من شأنه أن يزيل عنه جمال الأسلوب المعجز، ويفقده روعة التأثير في النفوس. على أن تحديد الأسباب وبيان العلل في مثل هذه الأمور مما لا تتفق عليه الأراء، ولا تجتمع عليه العقول والأفهام. فلو تعرض القرآن الكريم لذلك لكان محلاً لطعن الطاعنين.

4- يجب التنبيه بشدة على ضرورة عدم قصر النص القرآني على كشف علمي بري قابل للخطأ والصواب والتعديل والتبديل كلما اتسعت معارف الإنسان وكثرت وتحسنت وسائل المعرفة لديه.

فإن بعض الباحثين يسارعون إلى المطابقة بين مدلول النصوص القرآنية والكشوف العلمية بقصد بيان ما في القرآن من إعجاز والقرآن معجز سواء طابقت الكشوف العلمية نصوصه الثابتة أم لم تطابقها. ونصوصه أوسع مدلولاً من حصرها في نطاق الكشوف العلمية.

وكل ما يستفاد من الكشوف العلمية في تفسير نصوص القرآن هو توسيع مدلولها كلما أثبت العلم جديداً مما تشير إليه إشارات مجملة من آيات الله في الأنفس والأفاق، دون أن يحمل النص القرآني على أن مدلوله هو هذا الذي كشفه العلم، وإنما يجوز أن يكون بعض ما يشير إليه.

5- ليس في القرآن ما يخالف الحقائق العلمية بحال من الأحوال. وما يبدو من ذلك لبعض الناس فهو ناتج من خطأ في فهم النص القرآني أو من خطأ في المعرفة العلمية نسبت إلى الحقيقة العلمية :ـ ليس منها.

6- يجب على الباحثين الابتعاد في تفسير النص القرآني وإيضاحاته عن البيانات الواهية المغايرة للعقل المتعارضة مع المحققات والقوانين العلمية، متجاوزين حدود عالم الغيب، من مثل ما هو مذكور في بعض كتب التفسير القديمة من التعرض لبيان ماهية السموات وغيرها، حتى لا يعطوا أعداء الدين وسيلة الإعتراض على الدين أو يشحذوا سلاح اعتراضهم، لأنه ليس في الإسلام أحكام وقواعد يمكن علمياً إثبات مغايرتها للقوانين والسنن الطبيعية.

7- يجب الابتعاد عن ذلك المنهج أو تلك الطريقة التي تتوجه إلى الآيات الكريمة بقصد معرفة دلالتها عن غزو الفضاء، أو تحليل الذرة أو ما إلى ذلك، وإنما يجب سلوك مسلك آخر وهو معرفة هل في روح هذه الآيات ما يعطل حركة العلم أو فيها على العكس من ذلك ما يشجع عليها وينميها.

ولذلك صح القول في غير مبالغة ولا ابتعاد عن الحقيقة بأن أولئك الذين يعمدون إلى آيات من القرآن يأخذونها مجردة عن كل ما يتولى تفسيرها وبيانها من تلك النصوص نفسها ليرغموها على أن تحمل معاني وتأويلات أخرى غير تلك المعاني التي تولت النصوص إعطاءها مجانبون للصواب.

8- لا سبيل إلى الكشف عن خلود القرآن وخلود مبادئه وشمولها غير طريق استلهامه على الدوام والإهتمام بهديه، والتأمل فيه لاستخلاص الجديد من الفوائد، والطريف من العبر حتى يكون ويبقى الكتاب الأم والمنبع الصافي الذي لا ينفد معينه، والملاذ الذي يلجأ إليه المسلم في كل زمان، وذلك بفضل جهود أتباعه من العلماء المتمثلين لدعوته العلمية، الذين يحرصون على مدى العصور أن يجعلوه في مكانه الذي يريده الله له هادياً للتي هي أقوم، قائداً للمسلمين إلى كل خير وتقدم وسعادة.

9- يجب التصديق بأن ما جد في هذا العصر من إدراك علمي لآيات القرآن ليس معناه أن حقائق القرآن قد تغيرت أو تطورت في ذاتها - معاذ الله - وإنما الذي تغير ويتغير ويتطور هو عقل الإنسان الذي يتسع إذا استنار، وفكره إذا استقام مع كثرة البحث والدرس والتجريب فيبدو له القرآن على حقيقته الأصلية الخالدة فلا مبدل لكلمات الله.

10 - إن علوم العصر الحاضر لا تعد شيئاً مذكوراً بالنسبة لما فعله القرآن بالنفوس، فقد كَوّن أمة عظيمة حملت مشاعل الهداية إلى كل بقعة من بقاع الأرض حل بها من يشهد لله بالوحدانية، ولسوله بالرسالة، وأخرج للوجود خير أمة أخرجت للناس تأمر بالمعروف وتنهى عن المنكر وتؤمن بالله.

أما هذه العلوم العصرية فهي - في أغلب الأحيان - وسائل خراب ودمار إذا تجردت من هدي الله وابتعدت عن وحي السماء.

هذه هي بعض النتائج التي انتهى إليها البحث، فلئن ساء إلى أن يكون لبنة صغيرة مكملّة جهود من سبقه إلى دراسة هذا الاتجاه من التفسير فهي غاية اعتزّ بتحقيقها.

وما توفّقي إلا بالله عليه توكلت وإليه أنيب.

* * *

الفہارس

فہرست الآیات القرآنیت
فہرست الأُمَادیۃ النبویۃ
فہرست الأعلام
المصادر والمراجع
موضوعات الکتاب

فهرس الآيات

رقم الآية	النص	الصفحة
سورة البقرة		
1	ذلك الكتاب لا ريب فيه هدى للمتقين	314
6	ختم الله على قلوبهم	474
11، 12	وإذا قيل لهم لا تفسدوا في الأرض...	32
19	ولو شاء الله لذهب بسمعهم وأبصارهم	472
22	الذي جعل لكم الأرض فراشاً...	151، 221، 376، 377
23	وإن كنتم في ريب مما نزلنا على عبدنا...	125، 145
29	ثم استوى إلى السماء فسواهن سبع سموات	94، 383
39	وأوفوا بعهدي أوف بعهدكم...	24
42	وأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة...	20، 26
60	وإذ قلتم يا موسى لن نصبر على طعام واحد	211
66-72	وإذ قال موسى لقومه إن الله يأمركم...	181
72	فقلنا اضربوه ببعضها...	423
120	ولئن اتبعت أهواءهم...	77
138	صبغة الله ومن أحسن من الله صبغة...	159
143	قد نرى تقلب وجهك في السماء...	380

رقم الآية	النص	الصفحة
149	ومن حيث خرجت فول وجهك شطر المسجد الحرام . . .	421
159	إن الذين يكتُمون ما أنزلنا من البينات . . .	72
164	إن في خلق السموات والأرض . . .	89، 152، 385، 396
167	يا أيها الناس كلوا مما في الأرض حلالاً طيباً	417
170	وإذا قيل لهم اتبعوا ما أنزل الله	74
172	إنما حرم عليكم الميتة . . .	24
186	وكلوا واشربوا حتى يتبين لكم . . .	27
189	يسألونك عن الأهلّة . . .	20، 284، 302، 318، 326
194	ولا تلقوا بأيديكم إلى التهلكة . . .	476
215	ومن يرتدد منكم عن دينه فيمت . . .	25
217	يسألونك عن الخمر والميسر . . .	416
220	ويسألونك عن المحيض . . .	484
223	نساءكم حرث لكم . . .	37
226	والمطلقات يتربصن . . .	25
245	وقال لهم نبئهم إن الله . . .	72

سورة آل عمران

7	وما يعلم تأويله إلا الله والراسخون في العلم . . .	23، 77
18	شهد الله أنه لا إله إلا هو . . .	76، 79
25	فكيف إذا جمعناهم ليوم لا ريب فيه . . .	399
27	تولج الليل في النهار . . .	196
44	ذلك من أنباء الغيب نوحيه إليك . . .	287
52	قال الحواريون نحن أنصار الله . . .	159
58	كمثل آدم خلقه من تراب . . .	25
178	وإذا أخذ الله ميثاق الذين أوتوا . . .	55
191	ربنا ما خلقت هذا باطلاً	116، 154

سورة النساء

213 ، 15	يا أيها الناس اتقوا ربكم . . .	1
33	وإن خفتم ألا تقسطوا في اليتامى . . .	3
416	لا تقربوا الصلاة وأنتم سكارى . . .	43
197	إن الذين كفروا بآياتنا . .	55
161	وندخلهم ظلاً ظليلاً . . .	56
267 ، 236 ، 134 ، 129 ، 56	ولو كان من عند غير الله . . .	82
399	الله لا إله إلا هو ليجمعنكم . . .	86
24	وما كان لمؤمن أن يقتل . . .	91
33	ويستفتونك في النساء . . .	127
123	لثلا يكون للناس على الله حجة . . .	165

سورة المائدة

24	أحللت لكم بهيمة الأنعام . . .	1
477 ، 159 ، 24	حرمت عليكم الميتة والدم . . .	4
25	ومن يكفر بالإيمان فقد حبط . . .	6
24	لئن أقمتم الصلاة . . .	13
314	قد جاءكم من الله نور وكتاب . . .	17 ، 18
27	والسارق والسارقة . . .	40
24	فكفارته إطعام عشرة مساكين . . .	91
416 ، 35	يا أيها الذين آمنوا إنما الخمر . . .	92
35	ليس على الذين آمنوا . . .	93
7	ما جعل الله من بحيرة . . .	105
159	قال الحواريون . . .	111

سورة الأنعام

399	ليجمعنكم إلى يوم القيامة لا ريب فيه . . .	13

رقم الآية	النص	الصفحة
38	ما فرطنا في الكتاب من شيء...	103، 163، 220، 235، 290، 300، 454
60	ولا رطب ولا يابس إلا في كتاب...	189
62	حتى إذا جاء أحدكم الموت...	452
83	الذين آمنوا ولم يلبسوا إيمانهم...	27
91	إذ قالوا ما أنزل الله على بشر من شيء...	182، 276
94	ولو ترى إذ الظالمون في غمرات الموت	451
97	وهو الذي جعل لكم النجوم...	79، 199، 284
98	وهو الذي أنشاكم من نفس واحدة...	212
120	حتى جاء أحدكم الموت توفته رسلنا...	471
126	فمن يرد الله أن يهديه يشرح...	117، 468
129	ويوم نحشرهم جميعاً يا معشر الجن	439
146	قل لا أجد فيها أوحى إلي عروماً...	25
154	وأن هذا صراطي...	101

سورة الأعراف

10	ولقد خلقناكم ثم صورناكم...	408
22	وظففاً يخفضان عليها...	158
29	يا بني آدم خذوا زيتكم...	435
29	وكلوا واشربوا ولا تسرفوا...	287، 417
30	قل من حرم زينة الله التي أخرج لعباده...	417
33	وأن تقولوا على الله ما لا تعلمون...	51
54	يغشي الليل النهار...	153، 241، 252، 373، 378
57	وهو الذي يرسل الرياح نشراً...	462
58	ولقد أرسلنا نوحاً إلى قومه...	123
64	وإلى عاد أخاهم هوداً...	123
72	وإلى ثمود أخاهم صالحاً...	123

رقم الآية	النص	الصفحة
74	وتنحتون الجبال بيوتا . . .	156
84	وإلى مدين أخاهم . . .	123
88	ربنا افتح بيننا . . .	34
102	ثم بعثنا من بعدهم موسى . . .	123
148	واتخذ قوم موسى من بعده من حليهم . . .	158
158	فآمنوا بالله ورسوله النبي الأمي	278
179	ولقد ذرأنا لجهنم كثيرا . . .	72
185	أو لم ينظروا في ملكوت . . .	71، 276، 390
189	هو الذي خلقكم . . .	212

سورة الأنفال

17	وما رميت إذ رميت . . .	159
51	ولو ترى إذ يتوفى الذين كفروا . . .	453
60	وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة . . .	82، 159

سورة التوبة

37	إنما النبيء زيادة في الكفر . . .	20
80	استغفر لهم أولا تستغفر لهم . . .	382
112	فلولا نفر من كل فرقة منهم . . .	75
119	وعلى الثلاثة الذين خلفوا . . .	418

سورة يونس

5	هو الذي جعل الشمس ضياء . . .	117، 148، 180، 284
38	قل فأتوا بسورة من مثله. وادعوا من استطعتم . . .	125، 138

رقم الآية	النص	الصفحة
89	فاستقيبا ولا تتبعان . . .	77
101	قل انظروا ماذا في السموات . . .	70، 96، 314، 377، 390، 498

سورة هود

6	وما من دابة في الأرض إلا على رزقها . . .	104
13	قل فأتوا بعشر سور مثله مفتريات . . .	125
37	واصنع الفلك بأعيننا . . .	158
49	تلك من أنباء الغيب . . .	267، 287
50	وإلى عاد أخاهم هودا . . .	123،
60	وإلى ثمود أخاهم صالحاً . . .	123،
69	فجاء بعجل حنيذ . . .	159
81، 82	فلما جاء أمرنا . . .	204
83	وإلى مدين أخاهم شعيباً	123

سورة يوسف

36	أحمل فوق رأسي خبزاً . . .	159
55	قال اجعلني على خزان الأرض . . .	73، 455
76	وفوق كل ذي علم عليم . . .	75
108	قل هذه سبيلي أدعو إلى الله . . .	75

سورة الرعد

2	الله الذي رفع السموات بغير عمد . . .	241
3	ومن كل الثمرات جعل فيها . . .	191، 205، 376
9	وكل شيء عنده بمقدار . . .	190

رقم الآية	النص	الصفحة
10	أنا ناتي الأرض ننقصها من أطرافها . . .	190، 454، 456
12، 13	هو الذي يريكم البرق . . .	285
17	أنزل من السماء ماء . . .	276، 378

سورة إبراهيم

1	كتاب أنزلناه إليك لتخرج الناس . . .	101
5	وما أرسلنا من رسول إلا بلسان قومه . . .	23
10	فأتونا بسلطان مبين . . .	436
22	وما كان لي عليكم من سلطان إلا أن دعوتكم . . .	436
50	يوم تبدل الأرض غير الأرض والسموات . . .	334، 438

سورة الحجر

9	إننا نحن نزلنا الذكر . . .	43
16	ولقد جعلنا في السماء بروجا . . .	380
19	والأرض مددناها . . .	205
22	وأرسلنا الرياح لواقح . . .	235، 260، 285، 461
26	من همأ مسنون . . .	25
28، 29	فإذا سويته ونفخت فيه من روحي . . .	149، 400
74	جعلنا عاليها سافلها . . .	204

سورة النحل

8	والخيل والبغال . . .	136، 396
15	وألقي في الأرض رواصي أن تميد بكم . . .	190، 205، 242، 374
16	وعلامات ويالنجم هم يهتدون . . .	199، 284

الصفحة	النص	رقم الآية
26، 29، 75، 182،	فاسألوا أهل الذكر إن كنتم لا تعلمون...	43
15، 17، 45،	وأنزلنا إليك الذكر لتبين للناس...	44
24	أو يأخذهم على تخوف...	47
395	ولله يسجد ما في السموات وما في الأرض من دابة...	49
12	وإذا بشر أحدهم بالأنثى ظل وجهه مسوداً...	58
154، 465	وإن لكم في الأنعام لعبرة...	66
433	ومن ثمرات النخيل...	67
156، 157، 245، 290	وأوحى ربك إلى النحل...	68، 69
220، 472	والله أخرجكم من بطون أمهاتكم...	78
163، 220، 290	ونزلنا عليك الكتاب تبياناً لكل شيء...	89
158	ولا تكونوا كالتي نقضت غزلها...	92
283	إنما يعلمه بشر...	103
25	إنما حرم عليكم الميتة...	115

سورة الإسراء

101	إن هذا القرآن يهدي للتي هي أقوم...	9
225، 284	وجعلنا الليل والنهار آيتين...	12
301	وكل إنسان ألزمناه طائره في عنقه...	13
123	وما كنا معذبين حتى نبعث رسولا...	15
51	ولا تقف ما ليس لك به علم...	36
195	إنكم لتقولون قولاً عظيماً...	40
195	قل لو كان فيها آلهة كما تقولون...	42
194، 383	يسبح له السموات السبع والأرض ومن فيهن...	44
400	ولقد كرّمنا بني آدم...	70
60	يوم ندعو كل أناس بإمامهم...	71
139	قل كل يعمل على شاكلته...	84
75، 302، 384	وما أوتيتم من العلم إلا قليلاً	85

رقم الآية	النص	الصفحة
88	قل لئن اجتمعت الإنس والجن . . .	288 ، 437
سورة الكهف		
11	فضربنا على آذانهم في الكهف سنين عددا	474
18	لو اطلعت عليهم لوليت منهم فرارا . . .	419
44	واضرب لهم مثل الحياة الدنيا كماء أنزلناه من السماء	444
46	ويوم نسير الجبال وترى الأرض بارزة . . .	264
50	ما أشهدتهم خلق السموات والأرض . . .	370 ، 408
79	أما السفينة فكانت لمساكين . . .	159
95	ونفخ في الصور فجمعناهم جمعا . . .	399
96	آتوني زبر الحديد . . .	158
سورة مريم		
33-30	قال إني عبد الله آتاني الكتاب . . .	162
43	يا أبت إني قد جاءني من العلم ما لم يأتك . . .	77
90 ، 91	لقد جئتم شيئا إذا يكاد السموات . . .	384
سورة طه		
4	تنزيلا عن خلق الأرض والسموات العلى . . .	201
21	واضمم يدك إلى جناحك تخرج بيضاء . . .	451
49	الذي أعطى كل شيء خلقه ثم هدى . . .	185
51	قال علمها عند ربي . . .	301
53	فأخرجنا به أزواجا من نبات شتى . . .	191 ، 221 ، 378
54	منها خلقناكم وفيها نعيدكم . . .	186
111	ولا تعجل بالقرآن من قبل أن يلقى . . .	80
118	وطبقا يخفضان عليهما من ورق . . .	158

سورة الأنبياء

19	وله من في السموات والأرض	395
30	أو لم ير الذين كفروا أن السموات ...	190، 234، 255، 325، 365، 329
31	وجعلنا في الأرض رواسي	205
32	وجعلنا السماء سقفاً محفوظاً	384، 386، 498
33	وكل في فلك يسبحون	221، 241، 386
44-41	بل متعنا هؤلاء وآباءهم حتى طال عليهم العمر ...	456
44-41	أفلا يرون أنا نأتي الأرض ...	235، 454، 456
80	ولسليمان الريح عاصفة ...	341
103	يوم نظوي السماء ...	334، 384

سورة الحج

1	إن زلزلة الساعة شيء عظيم	447
5	يا أيها الناس إن كنتم في ريب من البعث	190، 234، 264، 278، 400
5	وترى الأرض هامدة فإذا أنزلنا عليها الماء اهتزت وربت	191، 455
15	من كان يظن أنن ينصره الله	378
45	وإن يوماً عند ربك كألف سنة ...	409
50، 51	وما أرسلنا من قبلك من رسول ولا نبي ...	171
61	ذلك بأن الله يوليح الليل في النهار ...	148، 253، 373

سورة المؤمنون

14-12	ولقد خلقنا الإنسان من سلالة ...	191، 246، 318، 322
17	ولقد خلقنا فوقكم سبع طرائق	383

رقم الآية	النص	الصفحة
86	قل من رب السموات السبع ورب العرش العظيم . . .	397
114	فاسأل العاذين . . .	276

سورة النور

29	ليس عليكم جناح أن تدخلوا بيوتا . . .	164
32	وأنكحوا الأيامي منكم والصالحين . . .	417
35	فيها مصباح المصباح في زجاجة . . .	159
42	ألم تر أن الله يزجي سحاباً ثم يؤلف بينه . . .	317 ، 262
43	والله خلق كل دابة من ماء	463 ، 396

سورة الفرقان

32	وخلق كل شيء فقدره تقديراً	493 ، 322
6	قل أنزله الذي يعلم السر السر في السموات والأرض	227
23	ولا يأتونك بمثل إلا جئناك بالحق	23 ، 15
25	ويوم تشقق السماء بالغمام	384
45	ألم تر إلى ربك كيف مد الظل	191
53	وهو الذي مرج البحرين	240
61	تبارك الذي جعل في السماء بروجاً	135 ، 386 ، 387
67	وكان بين ذلك قواماً	157

سورة الشعراء

80	وإذا مرضت فهو يشفين	148
195-193	نزل به الروح الأمين	10
226-224	والشعراء يتبعهم الغاؤون	288

سورة النمل

453	أوليأتني بسلطان مبين...	21
228	ألا يسجدوا لله الذي...	25
159	صرح عمرد من قوارير	45
377، 221	أمن جعل الأرض قرارا	63
415، 395	قل لا يعلم من في السموات...	67
441	ويقولون متى هذا الوعد إن كنتم صادقين...	73
440	وإذا وقع القول عليهم أخرجنا لهم دابة...	82
378، 253، 221	وترى الجبال تحسبها جامدة...	88
118	وقل الحمد لله سيريكم...	93

سورة القصص

455	إن فرعون علا في الأرض...	3
419	فلما رآها تهتز كأنها جانّ ولى مدبرا...	31
159	فأوقد لي يا هامان على الطين...	38

سورة العنكبوت

123	وإبراهيم إذ قال لقومه اعبدوا الله...	15
369	قل سيروا في الأرض فانظروا كيف بدأ...	19
439	وما أنتم إلا بمعجزين في الأرض ولا في السماء...	22
123	وإلى مدين أخاهم شعيبا...	36
204	فكلأ أخذنا بذنبه...	40
158	كمثل العنكبوت اتخذت بيتا...	41
73	وتلك الأمثال نضربها...	43
317، 279	وما كنت تتلو من قبله من كتاب...	48

سورة الروم

82	يعلمون ظاهراً من الحياة الدنيا	7
71	أولم يتفكروا في أنفسهم ما خلق الله السموات ...	8
400	ومن آياته أن خلقكم من تراب ...	20
79	ومن آياته خلق السموات والأرض ...	22
378	كل في فلك يسبحون	33، 48
380، 234	الله الذي يرسل الرياح فتثير سحاباً ...	48
288	ولقد ضربنا للناس في هذا القرآن ...	58

سورة لقمان

387، 242، 231، 190	خلق السموات بغير عمد ترونها ...	10
27	إن الشرك لظلم عظيم	12
365	يا بني إنها إن تك مثقال حبة ...	15
390	ألم تروا أن الله سخر لكم ما في السموات ...	20
165	ولو أن ما في الأرض من شجرة أقلام ...	26
373، 253، 148	يولج الليل في النهار ويولج النهار ...	29

سورة السجدة

498، 472، 409	الذي أحسن كل شيء خلقه وبدأ خلق ...	8-6
452	قل يتوفاكم ملك الموت الذي وكل بكم ...	11

سورة الأحزاب

435	ولو دخلت عليهم من أقطارها ثم سئلوا ...	14

رقم الآية	النص	الصفحة
37	وإذ تقول للذي أنعم الله عليه . . .	172
49	يا أيها الذين آمنوا إذا نكحتم المؤمنات . . .	25

سورة سبأ

10	وَأَلْنَا لَهُ الْحَدِيدَ . . .	194 ، 158
46	قُلْ إِنَّمَا أَعِظُكُمْ بِوَاحِدَةٍ أَنْ تَقُومُوا لِلَّهِ مِثْلَ خِيَارِكُمْ ثُمَّ تَقَفُّوا . . .	421 ، 82
9	وَاللَّهُ الَّذِي أَرْسَلَ الرِّيَّاحَ . . .	480 ، 295
12	وَتَسْتَخْرِجُونَ حُلِيَّةً تَلْبَسُونَهَا	155
28 ، 27	أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً . . .	79
28	إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ	77 ، 67
41	إِنَّ اللَّهَ يُمْسِكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ . . .	347 ، 328

سورة فاطر

9	اللَّهُ الَّذِي أَرْسَلَ الرِّيَّاحَ فَتُثِيرُ سَحَاباً . . .	462 ، 286
12	وَتَسْتَخْرِجُونَ حُلِيَّةً تَلْبَسُونَهَا . . .	158
27	جَدَدٌ بَيْضٌ وَحُمْرٌ . . .	159
28	إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ	79 ، 73
41	إِنَّ اللَّهَ يُمْسِكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ . . .	315

سورة يونس

32	وَأَيُّ لَهِمِ الْأَرْضِ الْمَيْتَةِ أَحْيَيْنَاهَا	188
36	سُبْحَانَ الَّذِي خَلَقَ الْأَزْوَاجَ كُلَّهَا	316 ، 245 ، 191
40-33	وَأَيُّ لَهِمِ اللَّيْلِ نَسْلَخُ مِنْهُ النَّهَارَ . . .	378 ، 221 ، 190

رقم الآية	النص	الصفحة
38	والشمس تجري لمستقر لها . . .	148 ، 284 ، 313 ، 324
40	لا الشمس ينبغي لها أن تدرك . . .	241 ، 250 ، 284 ، 386
42	وخلقنا لهم من مثله ما يركبون	191
69	وما علمناه الشعر وما ينبغي له . . .	288

سورة الصافات

6	إنا زينا السماء الدنيا بزينة الكواكب	381
10	فأتبعه شهاب ثاقب	201
11	إنا خلقناهم من طين لازب	25
37 ، 36	أئنا لتاركوا آلهتنا لشاعر مجنون . . .	288

سورة ص

15	وقالوا ربنا عجل لنا قسطا قبل يوم الحساب . . .	441
16	اصبر على ما يقولون	422
19-17	واذكر عبدنا داود ذا الأيد إنه أواب	195
25	يا داود إنا جعلناك خليفة في الأرض	422
29	كتاب أنزلناه إليك مبارك . . .	290 ، 56
37	والشياطين كل بناء وغواص . . .	158
72 ، 71	إذ قال ربك للملائكة إني خالق بشراً من طين	400 ، 149

سورة الزمر

5	يكور الليل على النهار ويكور النهار على الليل	373 ، 234 ، 378
6	يخلقكم في بطون أمهاتكم . . .	252 ، 234 ، 116
27	ولقد ضربنا للناس في هذا القرآن	288

سورة غافر

244	رفيع الدرجات ذو العرش	14
400 ، 377	الله الذي جعل لكم الأرض قرارا	64

سورة فصلت

451 ، 364 ، 249	ثم استوى إلى السماء وهي دخان . . .	11
383 ، 249 ، 190	ففضاهن سبع سموات في يومين . . .	12
370 ، 329 ، 256	قل أنكم لتكفرون بالذي خلق	11-8
472	وما كنتم تسترون أن يشهد عليكم سمعكم . . .	22
101	لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه	41
283	ولو جعلناه قرآناً أعجمياً لقالوا . . .	44
78 ، 96 ، 179 ، 236 ، 243 ،	سنريهم آياتنا في الآفاق وفي أنفسهم . . .	52
497 ، 461 ، 321 ، 293 ، 245		

سورة الشورى

399	وتنذر يوم الجمع لا ريب فيه	5
395	ومن آياته خلق السموات والأرض . . .	27

سورة الزخرف

24	وإذا بشر أحدهم بما ضرب للرحمن مثلاً . . .	17
452	وجعلوا الملائكة الذين هم عند الرحمن إناثاً . . .	18

سورة الدخان

300	فارتقب يوم تأت السماء بدخان مبين	10 ، 11

رقم الآية	النص	الصفحة
14-12	ربنا اكشف عنا العذاب إنا مؤمنون . . .	301
سورة الجاثية		
6-2	إن في السموات والأرض لآيات للمؤمنين . . .	498
12	وسخر لكم ما في السموات وما في الأرض . . .	390 ، 315
18	ولا تتبع أهواء الذين لا يعلمون . . .	77
23	أفرأيت من اتخذ إلهه هواه	82
سورة الأحقاف		
4	أو أثارة من علم	276 ، 158
24	فلما رأوه عارضاً مستقبل أوديتهم	308
26	ولقد أهلكنا ما حولكم من القرى . . .	456
سورة محمد		
23	أفلا يتدبرون القرآن أم على قلوب . . .	56
28	فكيف إذا توفتهم الملائكة يضربون . . .	452
سورة ق		
6	أفلم ينظروا إلى السماء فوقهم كيف . . .	384 ، 276 ، 154
7	والأرض مددناها وألقينا فيها رواسي	205
سورة الذاريات		
20 ، 21	وفي الأرض آيات للموقنين وفي أنفسكم . . .	510 ، 491 ، 455 ، 154 ، 97

رقم الآية	النص	الصفحة
33، 34	لنرسل عليهم حجارة من طين	204
49	ومن كل شيء خلقنا زوجين	315، 191

سورة الطور

2، 3	وكتاب مسطور في رق منشور	75
34	فلبأتوا بحديث مثله	125

سورة النجم

49	وأنه هو رب السمري	232

سورة القمر

1	اقتربت الساعة . . .	213، 190
11	ففتحننا أبواب السماء بماؤ منهمر	328، 256
17، 22، 32		
40	ولقد يسرنا القرآن للذكر فهل من مدكر	28
34	إنا أرسلنا عليهم حاصبا	204
41، 42	ولقد جاء آل فرعون النذر	215
43، 45	أكفاركم خير من أولئكم	215

سورة الرحمن

5	الشمس والقمر بحسبان	276، 148
12	خلق الإنسان من صلصال كالفخار	25
17، 18	مرج البحرين يلتقيان بينهما . . .	240

رقم الآية	النص	الصفحة
20	يخرج منها اللؤلؤ والمرجان	396
27	يسأله من في السموات والأرض	438 ، 395
24 ، 30	كل من عليها فإن ويبقى وجه ربك . . .	438
31	يا معشر الجن والإنس إن استطعتم . . .	435 ، 391
33 ، 34	يرسل عليكم شواظ من نار ونحاس . . .	436

سورة الواقعة

~58	أفرايتم ما تمنون	286
63	أفرايتم ما نحرثون	286 ، 158
68 ، 69	أفرايتم الماء الذي نثرين	464 ، 285
82	وتجعلون رزقكم أنكم تكذبون	285
88-94	فأما إن كان من المقربين فروح وريحان . . .	183

سورة المجادلة

3	والذين يظهرون من نسائهم	24
11	يا أيها الذين آمنوا إذا قيل لكم . . .	72
11	يرفع الله الذين آمنوا منكم . . .	76

سورة الحشر

7	وما آتاكم الرسول فخذوه وما نهاكم عنه . . .	106 ، 26
14	نحسبهم جميعاً وقلوبهم شتى	425

سورة الصف

6	وإذ قال عيسى بن مريم يا بني إسرائيل . . .	124

رقم الآية	النص	الصفحة
14	قال الحواريون نحن أنصار الله	159
سورة الجمعة		
2	هو الذي بعث في الأميين رسولا . . .	278
سورة المنافقون		
11	ولن يؤخر الله نفساً إذا جاء أجلها	162
سورة التغابن		
11	ولن يؤخر الله نفساً إذا جاء أجلها	159
سورة الطلاق		
4	وأولات الأحمال أجلهن أن يضعن حملهن	25
12	خلق سبع سموات طباقاً ومن الأرض . . .	190، 250، 378، 383
سورة الملك		
3، 4	الذي خلق سبع سموات طباقاً ما ترى . . .	383، 499
5	ولقد زينا السماء الدنيا . .	284، 380
14	ألا يعلم من خلق وهو اللطيف الخبير	83
15	هو الذي جعل لكم الأرض ذلولاً	221، 378
سورة الحاقة		
17	ويحمل عرش ربك فوقهم يومئذ ثمانية	95

الصفحة	النص	رقم الآية
سورة المعارج		
409	تخرج الملائكة والروح إليه في يوم . . .	4
447	يوم تكون السماء كالمهل وتكون الجبال . . .	18-8
سورة نوح		
378	يرسل السماء عليكم مدرارا	11
408	وقد خلقكم أطوارا	14
135، 381، 383، 386	ألم تروا كيف خلق الله سبع سموات . . .	15، 16
374	والله جعل لكم الأرض بساطا	19
سورة الجن		
437	وإنا لمسنا السماء فوجدناها ملئت . . .	8
440	وإنا ظننا أن لن نعجز الله في الأرض . . .	12
سورة المزمل		
449	يوماً يجعل الولدان شيباً . . .	16
8	وأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة	18
سورة المدثر		
159	وثيابك فطهر	4
37	لواحة للبشر	29
251، 378	والليل إذا أدبره الصبح إذا أسفر	33، 34

سورة القيامة

4، 3	أوحسب الإنسان أن لن نجعل عظامه	286، 318، 470
9-7	فإذا برق البصر وخسف القمر	148، 216
18-16	لا تحرك به لسانك لتعجل به	23

سورة الإنسان

1	هل أن على الإنسان حين من الدهر	409

سورة المرسلات

7-1	والمرسلات عرفاً فالعاصفات عصفاً . . .	444
27	وجعلنا فيها رواسي شامخات	206
30	انطلقوا إلى ظل ذي ثلاث شعب	157
38	هذا يوم الفصل جمعناكم والأولين	399

سورة النبا

6، 7	ألم نجعل الأرض مهاداً والجبال أوتاداً	206
12	وبنينا فوقكم سبعاً شداداً	383
14	وأنزلنا من المعصرات ماءً غمماً	285
19	وفتحت السماء فكانت أبواباً	384

سورة التازعات

13	فإنما هي زجرة واحدة	438

رقم الآية	النص	الصفحة
14	فإذا هم بالساهرة	438
29-27	أأنتم أشد خلقا أم السماء بناها . .	384 ، 254
31-30	والأرض بعد ذلك دحاها	365 ، 252 ، 242

سورة عبس

32-74	فلينظر الإنسان إلى طعامه أنا صيينا . .	499 ، 330
31	وفاكهة وأبا	39
37-34	يوم يفر المرء من أخيه وأمه وأبيه . . .	449

سورة التكويز

1 ، 2	إذا الشمس كورت وإذا . . .	396 ، 264
6	وإذا البحار سجرت	172
11	وإذا السماء كشطت	381
17	والليل إذا عسعس	378 ، 251

سورة الانفطار

1 ، 2	إذا السماء انفطرت وإذا الكواكب انتثرت	381
8-6	يا أيها الإنسان ما غرك بربك الكريم	400 ، 149

سورة النفاق

413	وإذا الأرض مدت وألفت ما فيها	447
19	لتركين طبقاً عن طبق	391

سورة الطارق

3-1	والسما والطارق . . .	199
7-5	فلينظر الإنسان مم خلق . . .	136 ، 234 ، 286

سورة الأعلى

3 ، 2	الذي خلق فسوى والذي قدر فهدى	185
5 ، 4	والذي أخرج المرعى فجعله غثاء أحوى	442
16 ، 17	بل تؤثرن الحياة الدنيا . . .	444

سورة الغاشية

20-17	أفلا ينظرون إلى الإبل كيف خلقت . . .	97
20	وإلى الأرض كيف سطحت	376

سورة الفجر

5-1	والفجر وليال عشر . . .	210 ، 252 ، 378

سورة الشمس

5	والسما وما بناها	173

سورة التين

3-1	والتين والزيتون وطور سينين	210

رقم الآية	النص	الصفحة
4	لقد خلقنا الإنسان في أحسن تقويم	400 ، 412
5، 6	ثم رددناه أسفل سافلين إلا الذين . . .	412
سورة العلق		
5-1	اقرأ باسم ربك الذي خلق . . .	77 ، 159
سورة البينة		
2، 3	يتلو صحفاً مطهرة فيها كتب قيمة	165
سورة الزلزلة		
1	إذا زلزلت الأرض زلزالها . . .	163 ، 446
7، 8	فمن يعمل مثقال ذرة خيراً يره . . .	105
سورة الفيل		
3، 4	وأرسل عليهم طيراً أبابيل	191 ، 203
سورة النصر		
3-1	إذا جاء نصر الله والفتح	36

فهرس الأحاديث النبوية

الصفحة

النص

- قال بعضهم يا رسول الله: إنك لتأتينا بالكلام من كلام العرب ما لا نعرفه 23
- في البخاري عن عدي بن حاتم قال: قلت يا رسول الله ما الحيط الأبيض؟ 27
- عن عبد الله بن مسعود قال: لما نزلت ﴿الذين آمنوا ولم يلبسوا إيمانهم بظلم﴾ 27
- عن عمر أنه قال: من آخر ما نزل من القرآن آية الريا 28
- عن عائشة قالت: ما كان رسول الله يفسر شيئاً من القرآن 29
- إن رسول الله ﷺ دعا لابن عباس فقال 30
- إن عمر استعمل قدامة بن مضعون على البحرين 35
- عن ابن عباس كان عمر يدخلني مع أشياخ بدر 36
- كانت اليهود تقول: من أتى امرأته من دبرها في قلبها 37
- عن أبي هريرة في قول الله عز وجل: ﴿لواحة للبشر﴾ 37
- لا تصدقوا أهل الكتاب ولا تكذبوهم 40
- من قال في القرآن برأيه 52
- ومن قال في القرآن بغير علم 52
- إن الناس يقولون: أكثر أبو هريرة، ولولا الأيتان 72

78	من يرد الله به خيراً يفقهه في الدين
105	سئل عن الحمر الأهلية
105	إن امرأة جاءت تحتج لدى سيدنا عبد الله بن مسعود
119	أنتم أعلم بشؤون دنياكم
277	بلغوا عني ولو آية وحدثوا عن بني إسرائيل ولا حرج
277	نضر الله امرءاً سمع منا حديثاً
278	بعثت إلى أمة أمية
279	نحن أمة أمية لا نحسب ولا نكتب
285	أصبح من عبادي مؤمن وكافر
285	إذا نشأت بحرية
418	يا معشر الشباب من استطاع منكم البائة
442	حفظت من رسول الله ﷺ حديثاً لم أنسه بعد
483	أن طارق بن سويد الجعفي سأل النبي ﷺ عن الحمر فنهاه
483	عن أنس أن اليهود كانوا إذا حاضت المرأة فيهم



فهرس أعلام الأثخاص

(أ)

- أدم عليه السلام : 25، 400، 408، 409،
 410، 411، 412، 417، 453.
 أنس بن مالك : 504.
 إبراهيم عليه السلام : 77، 123، 148،
 182، 287.
 أمين الخولي : 11، 16، 65، 302، 303،
 304، 305، 306، 420.
 أبي بن كعب : 33، 42، 54.
 أبو الدرداء : 106، 147، 161، 162.
 أحمد أمين : 91.
 أحمد كامل ضو : 268، 465.
 أحمد بن حنبل : 44.
 أحمد بن كامل : 37.
 أبو بكر الصديق : 53، 54.
 أبو بكر بن المنذر : 47.
 أبو بكر بن مجاهد : 164.
 الأسود بن يزيد : 43.
 الأصمعي : 54.
 أبو حنيفة : 44.
 أبو داود : 52.
 أحمد شلي : 91.
 أبو هريرة : 35، 37، 72، 164.
 أبو حامد الغزالي : 94، 108، 145، 146،
 147، 149، 150، 161، 265، 311.
 إسماعيل مظهر : 329، 330، 331، 334.
 أسيد بن حضير : 484.
 أبو حيان : 16، 17، 48.
 أبو طالب الثعلبي : 19.
 أبو عبيد القاسم بن سلام : 18، 34.
 أبو عبيدة معمر بن المثنى : 22.
 أبو الشعثاء : 42.
 إسماعيل عليه السلام : 287.
 الألوسي : 19، 52، 341، 342، 375، 376،
 387، 388، 389، 397، 398، 439،
 446، 454.
 أبو العلاء المعري : 439.
 ابن جريج : 454.

ابن أبي حاتم : 47 ، 164 .
 ابن الفضيل : 37 .
 ابن منظور : 435 ، 436 .
 ابن الصلاح : 36 ، 37 .
 ابن الأعرابي : 18 .
 انكساغوراس : 498 .
 ابن المنذر : 454 .
 أبو سنان : 37 .
 أبو صالح : 154 .

(ب)

بدر الدين محمد الزركشي : 17 ، 19 ، 34 ،
 39 ، 44 ، 145 ، 146 ، 161 .
 بنو إسرائيل : 72 ، 124 ، 182 ، 277 ، 423 ،
 424 .
 البيضاوي : 63 ، 397 .
 البشير التركي : 269 .
 البخاري : 26 ، 27 ، 30 ، 36 ، 42 ، 47 ،
 72 ، 216 .
 بوذا : 210 .
 بوفون : 309 .
 البغوي : 19 ، 45 .
 البيهقي : 164 .
 البزار : 29 ، 30 .
 بطليموس : 152 ، 334 .

(ت)

الترمذي : 52 ، 164 .
 تشارلزرتست : 500 .

إخوان الصفا : 42 .
 أرسطو : 90 ، 187 .
 أفلاطون : 90 .
 أفلوطين السكندري : 334 .
 أوغسطين : 334 .
 أبو كبير : 18 ، 19 .
 أنا كسياندر : 362 .
 أنا كسيانتر : 362 .
 ابن سراقه : 164 .
 ابن كثير : 39 ، 45 ، 48 ، 215 ، 216 ، 255 ،
 388 ، 389 .
 ابن تيمية : 42 ، 44 ، 50 ، 52 ، 55 ، 81 .
 ابن فارس : 60 .
 ابن القرية : 61 .
 ابن قتبية : 23 ، 160 .
 ابن عطية : 30 ، 131 .
 ابن العربي : 265 .
 ابن سينا : 90 ، 95 .
 أبو الربيع سليمان بن سبع : 162 .
 أبو السعود العمادي : 396 ، 397 .
 ابن أبي الفضل المرسي : 145 ، 156 ، 160 ،
 244 .
 ابن المنير : 396 ، 397 ، 453 .
 أبو الفتح الأزدي : 30 .
 أبو الفدا : 374 .
 ابن رشد : 86 ، 265 .
 أبو جهل : 470 .
 ابن مكويه : 403 .
 ابن الأثير : 175 .
 ابن خلدون : 22 ، 403 .
 ابن عقيل : 44 .
 ابن ماجه : 47 .

(ث)

ثعلب: 16.
التعلي: 48.

(ج)

جابر بن عبد الله: 36، 37.
جبريل عليه السلام: 29، 30، 451.
جمال الدين الأفغاني: 170، 405.
جندب بن جنادة: 52.
جار الله الزعشمري: 49، 60، 61، 104،
252، 364، 396، 397، 421، 453،
474، 494.
جعفر بن محمد: 30.
الخصاص: 48.
جاجارين: 241.
الجارود: 35.
جون زمرمان: 500.
الجبرتي: 342.

(ح)

حمودة عبد العاطي: 85.
حنفي أحمد: 187، 198، 357.
حليم عطية سربال: 406.
الحسن والحسين: 60.
الحسن البصري: 43، 54، 61، 104، 164.
الحاكم النيسابوري: 36، 37.
الحافظ ابن حجر: 38، 216.
الحافظ أبو الفتح: 19.
حواء: 408.

(خ)

الخضر عليه السلام: 264.
الخازن: 49.

(د)

داود عليه السلام: 194، 422.
داود الأنطاكي: 246، 248.
دارون: 196، 401، 402، 403، 405،
406، 407.
دوير: 407.

(ذ)

ذي يزن: 34.

(ر)

رفيع بن مهران: 42.
الراغب الأصفهاني: 20، 21، 165، 207،
379، 443.

(ز)

زيد بن أسلم: 42.
الزجاج: 48، 443.

(س)

سليمان عليهما السلام: 341.

طنطاري جوهري : 116 ، 177 ، 181 ، 183 ،
185 ، 187 ، 198 ، 298 ، 311 ، 347 .
طالوت : 72 .
طه حسين : 176 .
الطبرمي : 26 ، 32 .
طاليس : 362 .
طارق بن سويد الجعفي : 483 .
الطبري : 18 ، 30 ، 31 ، 45 ، 47 ، 55 ،
106 ، 387 .

(ع)

عيسى عليه السلام : 60 ، 124 ، 131 ، 163 .
عكرمة : 42 ، 45 ، 174 .
عبد الله بن مسعود : 27 ، 33 ، 34 ، 38 ،
42 ، 45 ، 54 ، 105 ، 106 ، 146 ، 147 ،
157 ، 162 ، 164 .
عبد الله بن عباس : 30 ، 31 ، 32 ، 34 ، 35 ،
36 ، 38 ، 41 ، 42 ، 45 ، 52 ، 54 ، 56 ،
154 ، 157 ، 158 ، 160 ، 255 ، 256 ،
328 .
عمر بن الخطاب : 28 ، 29 ، 34 ، 35 ، 39 ،
42 ، 43 ، 54 ، 57 ، 127 ، 285 ، 286 .
عبد الله بن عمر : 28 ، 328 .
عائشة : 29 ، 30 ، 33 ، 453 .
عروة بن الزبير : 33 .
عدي بن حاتم : 31 .
العزير : 182 .
العباس : 285 ، 286 .
عدي بن أبي ربيعة : 470 .
عمرو بن هشام : 470 .
علي بن أبي طالب : 33 ، 54 ، 147 ، 187 ،
290 ، 291 ، 292 .

سيد قطب : 318 ، 319 ، 321 .
سفيان الثوري : 46 ، 47 .
سفيان بن عيينة : 46 .
سعيد بن منصور : 164 .
سعيد بن جبير : 36 ، 42 ، 45 .
سعيد بن المسيب : 29 ، 53 ، 54 .
سيويه : 61 .
السيوطي (عبد الرحمن) : 17 ، 19 ، 37 ، 45 ،
48 ، 60 ، 145 ، 146 ، 156 ، 163 ،
164 ، 165 ، 244 .
السفاح : 91 .
سالم محمد (الدكتور) : 479 .

(ش)

شعبة بن الحجاج : 44 ، 46 .
الشعبي : 53 .
شعيب عليه السلام : 123 .
الشهاب : 475 .
الشوكاني (محمد بن علي بن محمد) : 160 .
الشاطبي (أبو إسحاق إبراهيم بن موسى) :
11 ، 265 ، 275 ، 276 ، 277 ، 278 ،
280 ، 281 ، 282 ، 283 ، 284 ، 285 ،
287 ، 288 ، 289 ، 290 ، 291 ، 292 ،
297 ، 304 ، 354 .

(ص)

صالح عليه السلام : 123 .

(ط)

طاوس بن كيسان : 42 .

115، 145، 150، 151، 152، 153،
155، 156، 187، 188، 225، 265،
298، 303، 352، 354، 396، 397،
422، 476، 494.

فيثاغورس: 221.

فرعون: 124، 185، 419، 455.

الفراء: 397.

فرانك ألن: 491.

(ق)

القزويني: 403.

قتادة بن دعامة: 43، 104.

قدامة بن مضعون: 35.

قطرب: 388.

القاضي أبو بكر العربي: 165.

القاضي عياض: 127.

القرطبي: 48، 58، 388، 397.

القاسمي: 380.

(ك)

كعب بن مالك: 418.

الكرخي: 396، 397.

الكلبي: 154، 388.

كوبرنيكوس: 238، 332.

كريسي موريسون: 496.

القاسمي: 104.

(ل)

لقمان الحكيم: 365.

عطاء بن أبي رباح: 42، 45.

عبد الحميد بن باديس: 224، 225، 227،
228.

عباس العقاد: 306، 308، 310، 403،
404، 425، 426.

علي عبد الواحد وافي: 324، 326.

عبد الوهاب حمودة: 424، 425.

علقمة بن قيس: 43.

عباد بن بشر: 484.

عبد الرزاق الصنعائي: 46، 47.

عبد الرحمن بن أسلم: 387.

عبد الحميد عبد المحتسب: 11، 65.

عبد الوهاب النجار: 423، 424.

عبد الرحمن الجبرتي: 354.

عبد العاطي حمودة: 83.

عبد الله محمود شحاتة: 47.

عبد الله بن أبي الهذيل: 37.

عبد الرحمن الكواكبي: 188، 189، 192.

عبد العزيز إسماعيل: 192، 193، 195،
198، 229، 484، 207، 208، 210،

211، 214، 364.

عبد الرحمن بن زيد: 444.

عبد الله بن عمرو: 442.

عبد العزيز جاويز: 316.

(غ)

الغازي أحمد مختار: 245.

(ف)

فخر الدين الرازي: 48، 77، 94، 104،

لوط عليه السلام : 202 ، 203 ، 204 .
الليث : 436 .

(م)

محمد ﷺ : 17 ، 124 ، 165 ، 175 ، 215 ،
227 ، 248 ، 280 ، 317 ، 334 ، 348 ،
421 .
محمد جمال الدين الفندي : 184 ، 257 ،
262 ، 435 .
محمد الذهبي : 11 ، 65 ، 188 ، 194 ، 297 ،
365 .
محمد فريد وجدي : 193 .
معاوية : 187 .
مسلم : 216 ، 441 ، 453 ، 483 .
محمد محمود إبراهيم : 268 .
محمد الإسكندراني : 266 .
محمد بخيت المطيعي : 219 ، 377 .
محمد عزة دروزة : 310 .
محمد الزرقاني : 313 ، 314 ، 316 ، 317 .
محمد بن كعب القرظي : 42 .
محمد سعيد البوطي : 135 .
محمد عبد الله دراز : 139 ، 232 .
محمد الغمراوي : 65 ، 109 ، 115 ، 198 ،
248 ، 249 ، 255 ، 257 ، 378 ، 415 ،
461 ، 462 .
محمد الطاهر بن عاشور : 262 ، 267 ، 467 .
محمد مصطفى المراغي : 85 ، 118 ، 128 ،
193 ، 196 ، 229 ، 230 .
محمود شلتوت : 11 ، 299 .
محمود شكري الألوسي : 268 .
محمود شاكر : 130 .

مسروق بن عبد الرحمن : 33 ، 43 .
مقاتل بن سليمان : 47 .
المنصور : 91 .

محمد وصفي : 269 .
محمد محمد أبو شهبة : 365 .
محمد عبده : 77 ، 86 ، 170 ، 171 ، 173 ،
175 ، 202 ، 297 ، 302 ، 306 ،
445 .
محمد رشيد رضا : 11 ، 172 ، 181 ، 187 ،
297 ، 298 .
محمد بن جعفر : 37 .
محمد أحمد خلف الله : 419 .
محمد المبارك : 345 .
مرارة بن الربيع : 418 .
موسى (نبي الله - عليه السلام) : 77 ، 124 ،
131 ، 158 ، 181 ، 185 ، 210 ، 211 ،
264 ، 419 ، 420 .
مريم : 124 ، 287 .
امرؤ القيس : 388 .
مجاهد : 18 ، 34 ، 42 ، 45 ، 54 .
مصطفى الرافعي : 137 ، 243 ، 244 ، 245 ،
246 ، 248 .
المأمون : 90 .
مسلم بن الحجاج القشيري :
محمد توفيق صدقي (الدكتور) : 268 ، 478 ،
482 .
مجد الدين محمد بن يعقوب الفيروز آبادي :
455 .

(ن)

نوح عليه السلام : 123 ، 256 ، 383 .

(و)

- وحيد الدين خان : 237 .
وكيع بن الجراح : 46 .
الوليد بن المغيرة : 127 .

(ي)

- يوسف عليه السلام : 73 ، 455 .
يزيد بن المهيثم : 37 .
يزيد بن هارون : 46 .
يوحنا سقوطن : 334 .

نمروذ : 153 .

النسفي : 387 ، 389 .

نابليون : 343 .

(هـ)

- هارون - عليه السلام - : 77 .
هارون الرشيد : 90 .
هود عليه السلام : 123 .
هلال بن أمية : 418 .
هشام بن عروة : 30 .
هيرقليستس : 363 .
هوردلر : 407 .
هامان : 159 .

مَصَادِرُ الْبَحْثِ وَمَرَجِعُهُ

✽ القرآن الكريم
أولاً: الكتب الآتية

(أ)

- 1 - الإتقان في علوم القرآن للسيوطي، ط 3، 1951.
- 2 - أحكام القرآن لابن العربي. تحقيق علي محمد البجاوي، ط 2، عيسى الحلبي، 1967.
- 3 - أحكام القرآن للجصاص. طبعة تركيا، 1335 هـ.
- 4 - إحياء علوم الدين، أبو حامد محمد بن محمد الغزالي. مؤسسة الحلبي، القاهرة، 1968.
- 5 - إرشاد العقل السليم إلى مزايا القرآن الكريم، أبو السعود العمادي. طبعة محمد صبيح 5 أجزاء.
- 6 - الإسرائيليات والموضوعات، محمد أبو شهبه. طبع مجمع البحوث الإسلامية.
- 7 - الإسلام في عصر العلم، محمد أحمد الغمراوي. ط 1، 1973.
- 8 - الإسلام في عصر العلم. محمد فريد وجدي. ط 3، 1967.
- 9 - الإسلام في القرن العشرين، عباس محمود العقاد. ط 1، 1954.
- 10 - الإسلام والحضارة العربية، محمد كرد علي، ط 2، 1959، لجنة التأليف والترجمة والنشر.

- 11 - الإسلام والطب الحديث، عبد العزيز إسماعيل . طبعة 1957م .
- 12 - الإسلام والإنسان المعاصر، فتحي رضوان . دار المعارف بمصر، سلسلة (اقرأ) 406 .
- 13 - الإسلام والنصرانية مع العلم والمدنية، محمد عبده . طبعة سنة 1320 هـ .
- 14 - الإسلام يتحدى، وحيد الدين خان . ط 1، 1970، دار البحوث العلمية .
- 15 - الإصابة في تمييز الصحابة، شهاب الدين أحمد بن علي بن حجر العسقلاني . الطبعة المصورة عن الطبعة الأولى، تاريخ (ط) الأولى 1328 هـ . مطبعة السعادة .
- 16 - أصول الفقه، عبد الوهاب خلاف . دار القلم، ط . 1، 1972 .
- 17 - أصول الفقه، محمد الخضري، ط 1 .
- 18 - أضواء من القرآن على الإنسان ونشأة الكون والحياة، عبد الغني الخطيب، طبعة دار الفتح بدمشق، 1970 .
- 19 - إعجاز القرآن للباقلاني . دار المعارف بمصر، ط 3 .
- 20 - إعجاز القرآن والبلاغة النبوية، مصطفى صادق الرافعي . ط 4، 1940 .
- 21 - الأعلام، خير الدين الزركلي . ط 3، 1969 .
- 22 - أعلام الفلاسفة كيف نفهمهم، هنري توماس . ترجمة متري أمين . تقديم نجيب محمود، طبعة القاهرة، 1964م .
- 23 - أعلام الموقعين، ابن قيم الجوزية، تحقيق: عبد الرحمن الوكيل، طبعة دار الكتب الحديثة، 1969 .
- 24 - الأكسير في علوم التفسير، الطوفي سليمان بن عبد القوي . تحقيق: د . عبد القادر حسين، مكتبة الآداب بالقاهرة، 1977 .
- 25 - الإنسان بين العلم والدين، شوقي أبو خليل . مطبعة الانشاء بدمشق، 1970 .
- 26 - الإنسان في القرآن الكريم، عباس محمود العقاد . طبعة دار الهلال، 1971 .
- 27 - أنوار التنزيل وحقائق التأويل (تفسير البيضاوي)، طبعة دار الكتب العربية .

(ب)

- 28 - البحر المحيط، أبو حيان أبو عبد الله محمد بن يوسف، ط 1، 1328 هـ.
- 29 - بحوث في تفسير سورة العلق، جمال الدين عياد. مكتبة دار العروبة، 1961.
- 30 - البرهان في علوم القرآن، بدر الدين محمد الزركشي. تحقيق: محمد أبو الفضل، ط 1، 1957.
- 31 - بصائر ذوي التمييز في لطائف الكتاب العزيز، مجد الدين محمد بن يعقوب الفيروز آبادي، ط مجمع البحوث الإسلامية.
- 32 - بغية الوعاة في طبقات الأدباء والنحاة، السيوطي. عيسى الحلبي، ط 1، 1964.
- 33 - بين الدين والعلم، عبد الرزاق نوفل. مكتبة وهبة، ط 1، لات.
- 34 - بين الطب والإسلام، حامد الغواي، دار الكاتب العربي للطباعة والنشر، 1967م.

(ت)

- 35 - تاج اللغة وصحاح العربية، إسماعيل بن حماد الجوهري. تحقيق: أحمد عبد الغفور عطار، ط 4، 1987.
- 36 - تأويل مشكل القرآن، ابن قتيبة. ط 2، 1973.
- 37 - اتجاهات التفسير في العصر الحديث، عبد المجيد عبد المحتسب. دار الفكر، ط 1، 1973.
- 38 - اتجاهات التفسير في مصر في العصر الحديث، عفت الشرقاوي. مطبعة الكيلاني، القاهرة، 1972.
- 39 - اتجاه التفسير في العصر الحديث، مصطفى الطير الحديدي. طبعة مجمع البحوث الإسلامية، سلسلة البحوث الإسلامية، 1975.
- 40 - تدريب الراوي في شرح تقريب النواوي، جلال الدين السيوطي. دار الكتب الحديثة.
- 41 - التعبير الفني في القرآن، بكرى شيخ أمين. ط 1، 1973.
- 42 - تفسير ابن باديس، عبد الحميد بن باديس. طبعة الكيلاني الصغير، 1964.

- 43 - تفسير جزء تبارك، عبد القادر المغربي . المطبعة الأميرية بالقاهرة، 1947 .
- 44 - تفسير جزء عم، محمد عبده . طبعة بولاق، 1322 هـ .
- 45 - تفسير التحرير والتنوير، محمد الطاهر بن عاشور . الدار التونسية للنشر، 1984 .
- 46 - التفسير الحديث، محمد عزة دروزة . طبعة احياء الكتب العربية، لات .
- 47 - التفسير العلمي للآيات الكونية، حنفي أحمد . دار المعارف بمصر، ط 1 .
- 48 - تفسير القرآن الحكيم (تفسير المنار)، محمد رشيد رضا . ط 4، دار المنار، 1954 .
- 49 - تفسير القرآن العظيم، الحافظ عماد الدين إسماعيل بن كثير . طبعة دار إحياء الكتب العربية عيسى البابي الحلبي .
- 50 - تفسير القرآن الكريم (الأجزاء العشرة الأولى) . محمود شلتوت . طبعة دار الشروق الخامسة، 1973 م .
- 51 - التفسير، معالم حياته منهجه اليوم، أمين الخولي . طبعة جماعة الكتاب، 1944 .
- 52 - التفسير ورجاله، محمد الفاضل بن عاشور . طبعة مجمع البحوث الإسلامية .
- 53 - التفسير والمفسرون، محمد حسين الذهبي . طبعة دار الكتب الحديثة، 1962 .
- 54 - التفكير فريضة إسلامية، عباس العقاد . دار القلم، ط 1، لات .
- 55 - تنبيه العقول الإنسانية، محمد بخيت المطيعي . طبعة السعادة، 1948 .

(ج)

- 56 - جامع البيان في تفسير القرآن، محمد بن جرير الطبري، طبعة بولاق، 1301 هـ .
- 57 - الجامع لأحكام القرآن، القرطبي . الطبعة المصورة عن طبعة دار الكتب، 1967 .
- 58 - جواهر القرآن، أبو حامد الغزالي . طبعة مكتبة الجندي .
- 59 - الجواهر في تفسير القرآن الكريم، طنطاوي جوهري . مصطفى الحلبي، ط 2، 1350 هـ .

(ح)

60 - حكم المثاني تفسير للقرآن الكريم، السيد أحمد خليل . ط 1، 1968 .

(د)

61 - دراسات في القرآن، السيد أحمد خليل . دار المعارف، 1971 .

62 - الدراسات النفسية عند المسلمين والغزالي بوجه خاص، عبد الكريم العثمان، تقديم أحمد الأهواني، ط 1، 1963 .

63 - الرد على الدهريين، جمال الدين الأفغاني، دار الكرنك للنشر والطبع .

64 - روح المعاني في تفسير القرآن والسبع المثاني، الألوسي . طبعة بولاق، 1301 هـ .

(س)

65 - السموات السبع، محمد جمال الدين الفندي . الهيئة المصرية العامة للكتاب، 1973 .

66 - سيكلوجية القصة في القرآن الكريم، التهامي نقرة . الشركة التونسية للتوزيع، 1974 .

(ش)

67 - الشفاء بتعريف حقوق المصطفى، القاضي عياض . طبعة محمد صبيح، 1956 .

(ص)

68 - صحيح مسلم بشرح النووي، المطبعة المصرية ومكتبتها، 1349 هـ .

69 - الصهيونية وقضية فلسطين، عباس محمود العقاد .

(ض)

70 - ضحى الإسلام، أحمد أمين . ط 2، النهضة المصرية، 1974 .

(ط)

- 71 - طبائع الاستبداد ومصارع الاستعباد، عبد الرحمن الكواكبي . طبعة حلب، 1957.
- 72 - الظاهرة القرآنية، مالك بن نبي . تقديم: محمود شاكر، دار الفكر، لات .
- 73 - عجائب الآثار في التراجم والأخبار، عبد الرحمن الجبرتي . ط 1، 1322 هـ .
- 74 - العلم والإيمان في بناء المجتمعات، عبد الغني عوض الراجحي . طبعة مجمع البحوث الإسلامية .
- 75 - العلم يدعو للإيمان، كريسي موريسون . ترجمة محمود صالح الفلكي . مكتبة النهضة المصرية، ط 6، 1971 .
- 76 - علوم التفسير، عبد الله شحاتة . المكتبة الثقافية 1975/316، الهيئة المصرية العامة للكتاب .
- 77 - علوم القرآن، عبد العظيم الغباشي . مطبعة دار التأليف، 1962 .

(غ)

- 78 - الغذاء والدواء في القرآن الكريم، جمال الدين مهران وعبد العظيم صابر . المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية .

(ف)

- 79 - فتح الباري بشرح صحيح البخاري، الحافظ أحمد بن حجر العسقلاني . طبعة الحلبي .
- 80 - فتح القدير الجامع بين الرواية والدراية من علم التفسير، محمد الشوكاني . مصطفى البابي الحلبي، ط 2، 1964 .
- 81 - الفتوحات الإلهية بتوضيح تفسير الجلالين للدقائق الخفية، سليمان بن عمر الشهير بالجميل، طبعة عيسى الحلبي .
- 82 - فجر الإسلام، أحمد أمين . النهضة المصرية، ط 1، 1965 .
- 83 - فخر الدين الرازي، فتح الله خليف، دار المعارف بمصر، 1969 .

- 84 - فصل المقال فيما بين الشريعة والحكمة من الاتصال، ابن رشد. دار المعارف بمصر، 1972.
- 85 - الفكر الإسلامي الحديث في مواجهة الأفكار الغربية، محمد المبارك. دار الفكر، ط 2، 1970.
- 86 - الفلسفة القرآنية، عباس العقاد. طبعة دار الهلال.
- 87 - فلسفة المعرفة في القرآن الكريم، علي عبد العظيم. طبعة مجمع البحوث الإسلامية، 1973.
- 88 - الفن القصصي في القرآن، محمد أحمد خلف الله. طبعة مكتبة الانجلو المصرية، ط 3، 1965.
- 89 - في ظلال القرآن، سيد قطب. دار الشروق، 1975.

(ق)

- 90 - القاموس الإسلامي، أحمد عطية الله. ط 1، 1966، النهضة المصرية.
- 91 - القاموس المحيط، الفيروز آبادي.
- 92 - القرآن العظيم، هدايته وإعجازه في أقوال المفسرين، محمد الصادق عرجون، طبعة مكتبة الكليات الأزهرية.
- 93 - القرآن المجيد، محمد عزة دروزة. المكتبة العصرية، لبنان، لات.
- 94 - القرآن، محاولة لفهم عصري، مصطفى محمود. دار الشروق، 1973.
- 95 - القرآن وعلم النفس، عبد الوهاب حمودة. سلسلة المكتبة الثقافية 55، 1962/2/15.
- 96 - القرآن والعلم، أحمد محمود سليمان. ط 2، 1974.
- 97 - القرآن والعلم، محمد جمال الدين الفندي. ط 1، 1968.
- 98 - القرآن والعلم الحديث، عبد الرزاق نوفل. ط 2، لات.
- 99 - القرآن وقضايا الإنسان، عائشة عبد الرحمن، ط 1.
- 100 - قصة التفسير، أحمد الشرباصي، المكتبة الثقافية.
- 101 - قصة الإيمان بين الفلسفة والعلم والقرآن، نديم الجسر. المكتب الإسلامي، ط 3، 1969.

102 - قصص الأنبياء، عبد الوهاب النجار. مؤسسة الحلبي، 1966.

(ك)

103 - الكامل في التاريخ لابن الأثير، ج 1، ط 1، 1301 هـ.

104 - كبرى اليقينيات الكونية، محمد سعيد البوطي، طبعة دار الفكر العربي، 1972.

105 - الكشف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل، محمود بن عبد الله جار الله الزمخشري، ط بولاق، في جزئين.

106 - الكون بين الدين والعلم، محمد جمال الدين الفندي. المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية، الكتاب 14/1972.

(ل)

107 - الله ذاتاً وموضوعاً، عبد الكريم الخطيب. ط 2، 1971.

108 - الله يتجلى في عصر العلم، نخبة من العلماء الأمريكيين. ترجمة: د. الدمرداش عبد المجيد سرحان. مراجعة وتعليق: د. الفندي، مؤسسة الحلبي، ط 3، 1971.

109 - الله والعلم الحديث، عبد الرزاق نوفل. الناشرون العرب، 1971.

110 - اللآلئ الحسان في علوم القرآن، موسى شاهين لاشين، ط 1، 1968.

111 - لسان العرب، جمال الحمد بن منظور. طبعة بيروت، 1955.

112 - لماذا أؤمن بالقرآن، هلال علي هلال، ط 2، 1970.

(م)

113 - ما دل عليه القرآن مما يعضد الهيئة الجديدة، شكري محمود الألوسي. المكتب الإسلامي، 1960.

114 - مباحث في علوم القرآن، صبحي الصالح. دار العلم للملايين، ط 7، 1972.

115 - مجاز القرآن، أبو عبيدة معمر بن المثنى، طبعة الخانجي، 1954 م.

- 116 - مجمع البيان في تفسير القرآن، الطبرسي. دار مكتبة الحياة، لات.
- 117 - محاسن التأويل، محمد جمال الدين القاسمي. طبعة عيسى الحلبي، ط 1، 1957.
- 118 - مختار الصحاح، الرازي. طبعة بولاق، 1939.
- 119 - مدارك التنزيل وحقائق التأويل، عبد الله أحمد بن محمود النسفي. طبعة عيسى الحلبي، لات.
- 120 - مدخل إلى القرآن الكريم، محمد عبد الله دراز، ط 1، 1971.
- 121 - مرآة الإسلام، طه حسين. طبعة القاهرة، 1966.
- 122 - المسائل الكافية، محمد بن يوسف الكافي التونسي. طبعة القاهرة، 1934.
- 123 - مطابقة الاختراعات العصرية لما أخبر به سيد البرية، أحمد بن محمد بن الصديق الغماري. مكتبة القاهرة، ط 6، 1971.
- 124 - معالم التنزيل، البغوي. طبعة المنار، 1945.
- 125 - معترك الأقران في إعجاز القرآن، السيوطي. دار الفكر العربي، 1969.
- 126 - المعجزة الكبرى (القرآن)، محمد أبو زهرة. دار الفكر العربي، لات.
- 127 - معجم الأدباء، ياقوت الحموي. دار المشرق، بيروت، لات.
- 128 - معجم ألفاظ القرآن الكريم، مجمع اللغة العربية.
- 129 - معرفة علوم الحديث، الحديث النيسابوري. الطبعة المصورة عن طبعة الهند، المكتب التجاري، بيروت.
- 130 - المعرفة عند مفكري الإسلام، محمد غلاب. طبعة القاهرة، 1969.
- 131 - مع القرآن الكريم، أحمد الباقوري. مطبعة الآداب، 1970.
- 132 - مع القرآن في هدايته وإعجازه، عبد القادر حسين، مطبعة الأمانة، 1975.
- 133 - مع الله في السماء، أحمد زكي. كتاب الهلال رقم 311/1976.
- 134 - مفاتيح الغيب، الرازي. ط 1.
- 135 - مفاهيم تجديد، أمين الخولي. دار المعرفة، 1968.
- 136 - مفتاح دار السعادة، ابن قيم الجوزية. دار الكتب العلمية.
- 137 - مفتریات على الإسلام، أحمد محمد جمال. طبعة الشعب الثانية، 1975م.

- 138 - المفردات في غريب القرآن، الراغب الأصفهاني، مصطفى الخليلي، 1324هـ.
- 139 - مقدمتان في علوم القرآن، مقدمة كتاب المباني ومقدمة ابن عطية، نشرهما ارثر جفري، مكتبة الخانجي، 1972.
- 140 - مقدمة ابن خلدون، عبد الرحمن، طبعة بولاق، 1321هـ.
- 141 - مقدمة ابن الصلاح في علوم الحديث، ابن الصلاح، دار الحكمة بدمشق، 1972.
- 142 - مقدمة التفسير، الراغب الأصفهاني، ملحقة بكتاب تنزيه القرآن عن المطاعن.
- 143 - مقدمة في أصول التفسير، ابن تيمية، ط 2، 1972.
- 144 - مناهل العرفان في علوم القرآن، محمد عبد العظيم الزرقاني، عيسى الحلبي، ط 3.
- 145 - المنتخب في تفسير القرآن الكريم، المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية 1381هـ.
- 146 - من روائع الإعجاز في القرآن الكريم، محمد جمال الدين الفندي، المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية.
- 147 - من روائع القرآن، محمد سعيد البوطي، ط 3، 1972.
- 148 - من معاني القرآن، عبد الرحيم فوده، دار الكاتب العربي، القاهرة.
- 149 - من القرآن الكريم وإليه، دراسات قرآنية، الجمعية العامة للمحافظة على القرآن الكريم بمصر، ط 2.
- 150 - منهاج الفرقان في علوم القرآن، محمد أبو سلامة مطبعة شبرا، 1938.
- 151 - الموافقات في أصول الأحكام، الشاطبي، طبعة مصطفى محمد.
- 152 - موسوعة التاريخ الإسلامي والحضارة الإسلامية، أحمد شلبي، ط 6، 1974، مكتبة النهضة المصرية.

(ن)

153 - النبأ العظيم، نظرات جديدة في القرآن، محمد عبد الله دراز. طبعة السعادة، 1969.

(و)

154 - وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان، ابن خلكان. تحقيق: د. إحسان عباس، طبعة بيروت، 1978.

ثانياً: الدوريات الآتية:

1 - مجلة الأزهر، عدد شعبان 1350/1931.

2 - مجلة الأزهر، عدد رمضان 1971.

3 - مجلة الحياة الثقافية بتونس، عدد خاص بدراسات قدمت في ندوة المولد النبوي الشريف بالقيروان، 1975.

4 - مجلة الفكر العربي، بيروت، العدد الخامس، 1973.

5 - مجلة منبر الإسلام المصرية، 1962/8.

6 - مجلة الوعي الإسلامي، الكويت، العدد 143، نوفمبر 1976.



فهرس الموضوعات

5	الافتتاحية: الموضوع والخطة
15	المقدمة: حول عنوان الموضوع
15	المبحث الأول: معنى التفسير والتأويل
16	المفهوم الاصطلاحي لكلمة التفسير
18	التأويل والفرق بينه وبين التفسير
21	المبحث الثاني: نشأة التفسير
22	التفسير في عصر النبي ﷺ وأصحابه
23	تفسير القرآن للقرآن
26	تفسير الرسول ﷺ للقرآن
32	تفسير الصحابة للقرآن
36	قيمة التفسير المنقول عن الصحابة
38	مميزات التفسير في عهد الصحابة
40	التفسير في عهد التابعين
41	أشهر مدارس التفسير في عصر التابعين:
41	مدرسة التفسير بمكة
42	مدرسة التفسير بالمدينة
43	مدرسة التفسير بالعراق
44	قيمة التفسير المنقول عن التابعين

45	مميزات التفسير في زمن التابعين
46	التفسير بعد عصر الصحابة
50	المبحث الثالث: التفسير بالرأي وموقف العلماء منه
51	المانعون وأدلتهم
55	المجوزون وأدلتهم
59	العلوم التي ينبغي توفرها في المفسر للقرآن
63	المبحث الرابع: مفهوم التفسير العلمي

الباب الأول

نشأة التفسير العلمي وموقف العلماء منه

71	الفصل الأول: موقف القرآن من العلم
78	العلم الذي دعا إليه القرآن
83	لا تعارض بين القرآن والعلم
91	الفصل الثاني: نشأة التفسير العلمي وأسبابها
101	الفصل الثالث: التفسير العلمي بين المؤيدين والمعارضين
103	أدلة المؤيدين
110	أدلة المعارضين
112	تعقيب على الموضوع
118	خلاصة القول فيه
123	الفصل الرابع: قضية الإعجاز والتفسير العلمي
128	وجهة نظر القائلين بالإعجاز العلمي
130	وجهة نظر المعارضين للقول بالإعجاز العلمي

الباب الثاني

أشهر من تناوله من المفسرين القدامى والمحدثين

	الفصل الأول: أشهر من تناوله من القدامى:
146	أبو حامد الغزالي

150	فخر الدين الرازي
150	أمثلة من تفسيره
156	ابن أبي الفضل المرسي السلمي
157	منهجه في بيان أن القرآن مشتمل على كل شيء
161	بدر الدين محمد الزركشي
163	الجلال السيوطي

الفصل الثاني: أشهر القائلين بالتفسير العلمي

169	في العصر الحديث بمغلاة:
171	الإمام محمد عبده
177	طنطاوي جوهري
178	طريقته في التفسير
186	آراء العلماء في تفسيره
188	عبد الرحمن الكواكبي
192	عبد العزيز إسماعيل وكتابه الإسلام والطب الحديث
198	حنفي أحمد وتفسيره العلمي للآيات الكونية في القرآن
199	طريقته في البحث
202	نماذج من تفسيره العلمي
207	عبد الرزاق نوفل والتفسير العلمي
211	نماذج من تفسيره العلمي لبعض الآيات

الفصل الثالث: أشهر القائلين بالتفسير العلمي

219	في العصر الحديث باعتدال:
219	محمد بخيت المطيعي
220	نماذج من تفسيره
224	عبد الحميد بن باديس ونماذج من تفسيره
229	محمد مصطفى المراغي
231	نماذج من تفسيره

233	محمد عبد الله دراز
237	وحيد الدين خان وكتابه الإسلام يتحدى
238	بعض من الأمثلة التي جاءت في كتابه
243	مصطفى صادق الرافعي والتفسير العلمي
248	محمد أحمد الغمراوي
	نماذج من الآيات الكونية في القرآن التي تناولها
249	بالتفسير العلمي
255	رد الغمراوي على المانعين للتفسير العلمي
257	محمد جمال الدين الفندي
259	رده على المانعين للتفسير العلمي
260	نماذج من تعليقاته العلمية على بعض آيات القرآن
263	محمد الطاهر بن عاشور ورأيه في التفسير العلمي

الباب الثالث

أشهر المعارضين للتفسير العلمي قديماً وحديثاً

الفصل الأول: أشهر المعارضين له من القدماء الإمام

275 الشاطبي

281 أدلته على موقفه من التفسير العلمي

290 رده على أدلة المؤيدين للتفسير العلمي

الفصل الثاني: أشهر المعارضين للتفسير العلمي

297 في العصر الحديث

297 محمد رشيد رضا

299 محمود شلتوت

301 جوانب الخطأ في التفسير العلمي في نظره

302 أمين الخولي وموقفه من التفسير العلمي

304	أدلته على ما ذهب إليه
307	عباس محمود العقاد
310	محمد عزة دروزة
313	محمد عبد العظيم الزرقاني
	رأيه فيما يقوم به بعض العلماء من الربط بين
314	العلم وبين القرآن
317	رأيه في الإعجاز العلمي
318	سيد قطب وموقفه من التفسير العلمي
319	رأيه في الاتجاه العلمي في تفسير القرآن
321	كيفية الاستفادة من العلم في إيضاح حقائق القرآن
324	علي عبد الواحد وإفي ورأيه في هذه القضية
329	إسماعيل مظهر ورأيه في التفسير العلمي
334	تحليل وتعقيب

الباب الرابع

التفسير العلمي في حاضره وماضيه

الفصل الأول: رواج التفسير العلمي في العصر الحديث

341	وأسابه

الفصل الثاني: موازنة بين التفسير العلمي في حاضره

351	وماضيه

الباب الخامس

القضايا التي يتركز حولها التفسير العلمي

الفصل الأول: القضايا الكونية

361	1- أصل الكون

370	2- شكل الأرض
379	3- السموات السبع
391	4- الحياة على الكواكب الأخرى
399	5- أصل الإنسان
403	آراء العلماء في نظرية النشوء والإرتقاء
415	الفصل الثاني: القضايا النفسية

الباب السادس

التفسير العلمي بين المنهج والتطبيق

433	الفصل الأول: صور من التفسير العلمي المردود
	1- تفسير قوله تعالى: ﴿يا معشر الجن والإنس...﴾
434	بغزو الفضاء والصعود إلى الكواكب
	2- تفسير قوله تعالى: ﴿وإذا وقع القول عليهم...﴾
440	بالأقمار الصناعية وغزو الفضاء
	3- تفسير قوله تعالى: ﴿والذي أخرج المرعى...﴾
442	باستخراج الفحم الحجري
	4- تفسير قوله تعالى: ﴿ والمرسلات عرفا...﴾
444	بالبطائر الحربية... الخ
	5- تفسير قوله تعالى: ﴿إذا زلزلت الأرض زلزالها...﴾
446	باستخراج البترول والغاز
	6- تفسير قوله تعالى: ﴿يوم تكون السماء كالمهل...﴾
447	باليوم الذي تظهر فيه الطائرات قاذفات القنابل... الخ
450	7- تفسير الميكروبات على أنها نوع من الملائكة
	8- تفسير نقص الأرض من أطرافها بما لا يتلاءم مع
454	السياق القرآني
461	الفصل الثاني: صور من التفسير العلمي المقبول

	توضيح الحكمة فيما نهى عنه القرآن وحرمه
475	كالميتة والدم... الخ
	الفصل الثالث: الطريقة المثلى في الاستفادة من
	مقررات العلم في إيضاح حقائق القرآن،
489	أمثلة على ذلك
503	خاتمة البحث
509	فهرس الآيات القرآنية
535	فهرس الأحاديث النبوية
537	فهرس أعلام الأشخاص
545	فهرس المصادر والمراجع
557	فهرس الموضوعات

نعتذر عن ورود بعض الأخطاء في الكتاب وهذا جدول الخطأ والصواب

الصفحة	السطر	الخطأ	الصواب
8	12	الباقى	الكثير
10	6	شدنا	شدت
10	9	نقدناها وكشفنا	نقدتها وكشفت
15	8	فمصدر الفسر	فمصدره الفسر
18	1	الأعلى على إبراز	الأعلى إبراز
18	(3) هامش	التفسير والمفسرون	التفسير والمفسرون
19	12	كما صح	كما صحح
23	6	لغريب	الغريب
28	14	الأعلى على بعد	الأعلى بعد
29	6	(2)	(1)
30	14	ما كان	لما كان
31	5	كل ما في	كل معاني
34	آخر سطر	وكتيبة	ونتيجة
85	2 من تحت	بحقيقة	بحقيقته
92	13	عدواً للعمل	عدواً للعلم
94	10	التي تبدو	التي تكون
98	1	لسين	السين
105	7	بيان الدين	بيان الدين
113	3	مكتشف عن	مكتشف من
117	هامش (4)	العصرية	المصرية
131	19	وانما آثرنا	وانما آثرت
131	19	نظرنا	في نظري
135	8	ولو اتنا	لو أننا
135	13	اسلوب الأي	اسلوب الآية
137	17	المتعاقبة	المتقابلة
137	18	بنقص عن	بنقص من
138	3	اهـ	اهـ بتصرف

الصفحة	الطر	الخطأ	الصواب
150	14	تفسيره هي سورة	تفسيره سورة
153	15	إلى التوبة	إلى التوبة
156	آخر الهامش	(معجم الادباء 209:18 - 312	معجم الادباء 209:18 - 212
158	4	فقد قيل: إني	فقد قيل إن
162	14	التفسير الظاهر أو لا	التفسير الظاهر أولاً
165	7	صحف	صحفا
170	5	تقييمها	تقويمها
175	هامش (2)	130هـ	1301هـ
181	17	وانما يحسن	وانما يحسن
186	8	وقله	وقله
192	19	والقرآن في حاجة	والقرآن ليس في حاجة
193	آخر سطر	قلما كان	قلما كان
195	8	الناقبة	الناقبة
201	5	بينها أجسام	بأنها أجسام
203	10	في إيضاحاته	في إيضاحه
205	2	لا وجود لطير	لا وجود للطير
206	12	متحرك	متحركة
206	15	بينها	بأنها
207	16	وفي عصر وجد	وفي عصر العلم وجد
208	1	قد يمدد	قد أمدد
209	3	عن اتجاهاته	عن اتجاهه
209	7	فيه تكرار للحفظ	
209	9	حقيقية	حقيقة
212	4	أو هي	وهي
213	9	سموات	سماواته
216	4	من بأنها	من بينها
216	6	إن انفاق	إن انشقاق
216	12	ينكشف	ينكشف
220	19	بعد ان يفسر	بعد ان فسر
220	20	يقول	قال
223	14	ترجف	ترجف
235	16	تلخص	تلخص
240	10	عند حدوث	عند حدوث
241	11	ثوباً جديداً	ثوباً جديداً
248	16	وفصحانهم	وفصحانهم

الصفحة	السطر	الخطأ	الصواب
252	7	يحتملها	يحتملهما
255	آخر سطر	الأرض	للأرض
256	2	فتجدد	فتجدد
256	11	أي المعارضين	أي المعارضون
262	5	المطررة،	المطررة التي لم يتوصل إليها العلماء إلا
263	15	1- أما	1- إنما الانتصار
	آخر سطر		2- وإنما استنباط
265	1	القرآن مشير	القرآن مشيراً إلى كثير
265	16	الذي أبداه	الذي أبداه
270	2	بل ان الايمان	لأن الإيمان
281	آخر سطر	الانسانية	الإنساني
283	1	آيات	آياته
286	5	ولذلك	وذلك
290	10	ذي جدوى ووضوح بالنسبة	ذي جدوى بالنسبة
291	7	فيه	فيه
302	1	أصحابها والمفسرين بها	أصحابها والمفسرين بها
311	11	واضح الدلة	واضح الدلالة
345	هامش (2)	52251	ص51/52
347	20	الخطر المحدث	الخطر المحدث
352	15	في قضايا	من قضايا
366	آخر سطر	بائرة ملتبهة	مائرة ملتبهة
377	11	وليس الزرقة	وليست الزرقة
378	4	دوران الاول	دوران الأرض
378	9	حل عورها	حول عورها
380	10	تزداد كلمة «مطلقة» في آخره	
		أو أول السطر الذي يليه	
381	7	سقطت كلمة الزينة	والعبارة الصحيحة غير ما له الزينة
381	15	وانتشار الكواكب	وانتشار الكواكب
386	5	(غافلون)	معروضون
391	هامش (3)	كتب في الأصل (1)	
399	8	بين الخلقوات	بين المخلوقات
403	20	البراهين	بالبراهين
408	7	وزوجته	وزوجه
412	4	الكريم	الكريمة
421	9	ما نجده	كما نجده
422	2	ملاحظة	ملاحظة

الصفحة	السطر	الخطأ	الصواب
424	2	التفسير	النفسية
425	13	فالناطق لا يعيب	فالناطق يعيب
435	7	أن يبرهوه	أن يدعوه
438	هامش (3)	تخلف كلمة انظر	
441	19	كما ورد	عما ورد
442	1	سقطت منه كلمات وهي: حديثاً لم أنسه بعد. سمعت رسول الله ﷺ	
442	16	دون إن يستغلها	دون أن يستغلها
443	14	وجته	وجاء في معجم
445	5	في نهايته سقط رقم (1)	
445	10	الملائكة	الملائكة
446	2	تهلك الحرب	تهلك الحرث
446	آخر سطر	الأرض	الأرضي
447	9	تكررت وفي هذا الوقت	
452	5	وقد ينكر الله	وقد أنكر الله
452	16	أم غمرات	أما غمرات
465	آخر هامش	انظر فتح القدير للشوكاني ج 3: 174	
465	21	والعلوم الحديث	والعلوم الحديثة
482	5	للأسباب	لأسباب
483	9	المحيض وحكمة النهي عن القرب	المحيض وحكمة النهي عن القرب فيه
483	13	بتحديد الأوقات	بتحديد الأوقات
484	8	اليهود المجوس	اليهود والمجوس
489	آخر سطر	مرتب ترتيباً منظوراً فيه	مرتب ترتيباً منظوراً فيه
491	16	أذن أذن	أذن تغيير
443	9	تضاعف سرعتها	تضاعفت سرعتها
500	18	والدليل القاطع لي ذلك	والدليل القاطع على ذلك
504	3	في تضاعيف آية	في تضاعيف آية
504	13	علمي سري	علمي بشري
531		سورة النفاق	الانشقاق